

تاريخ الخلفاء الراشدين " ٤ "

أَسْمَى الْمَطَالِبِ فِي سِيرَةِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ

عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

شَخْصِيَّتُهُ وَعَصْرُهُ

دراسة شاملة

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

الجزء الأول

مكتبة الصحابة

الإمارات - الشارقة



جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الجديدة المعتمدة

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

مكتبة الصحابة

الإمارات - الشارقة

ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين

القاهرة - عين شمس

ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥



الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله
ونصرته، أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى - عز
وجل - بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلا أن يكون
خالصاً لوجهه الكريم .

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١١] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

■ مقدمة ■

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانتك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد:

هذا الكتاب الرابع في دراسة عهد الخلافة الراشدة فقد صدرت عدة كتب عن الصديق والفاروق وذي النورين، وقد سميت هذا الكتاب: «أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، شخصيته وعصره»، ويتحدث هذا الكتاب عن أمير المؤمنين علي من الميلاد حتى الاستشهاد، فيبدأ بالحديث عن اسمه ونسبه ولقبه ومولده وأسرته وقبيلته وإسلامه وأهم أعماله في مكة، وعن هجرته، ومعايشته للقرآن الكريم وأثرها عليه في حياته، وعن تصويره عن الله

والكون والحياة والجنة والنار والقضاء والقدر، وعن مكانة القرآن الكريم عنده، وما نزل فيه من القرآن الكريم، وعن الأصول والأسس التي سار عليها أمير المؤمنين علي في استنباط الأحكام من القرآن الكريم وفهم معانيه، وعن تفسير أمير المؤمنين علي لبعض الآيات الكريمة، وعن ملازمته لرسول الله ﷺ منذ طفولته، ومعرفته العميقة بمقام النبوة وكيفية التعامل معه؛ فقد أوضح معالمه بأقواله وأفعاله، وكان حريصاً على تعليم الناس وحثهم على الاقتداء برسول الله في أقواله وأعماله وتقريراته، فبين وجوب طاعة النبي ﷺ ولزوم سنته والمحافظة عليها، وأوضح دلائل نبوة الرسول ﷺ، وفضله وبعض حقوقه على أمته ﷺ، ويجد القارئ الكريم نماذج من اتباع أمير المؤمنين علي للسنة النبوية المطهرة، ويتحدث الكتاب عن أسماء بعض الرواة عن أمير المؤمنين علي من الصحابة والتابعين وأهل بيته.

ويتنقل الكتاب بالقارئ إلى حياة أمير المؤمنين في المدينة في عهد النبي ﷺ فيتكلم عن زواج أمير المؤمنين علي من السيدة فاطمة رضي الله عنها وما في هذا الزواج من دروس وعبر في المهر والجهاز، والزفاف والمعيشة والزهد وصدق لهجة السيدة فاطمة وسيادتها في الدنيا والآخرة، وترجمت للحسن والحسين رضي الله عنهما ترجمة مختصرة، وبينت فضلها وما ورد فيهما من أحاديث عن رسول الله ﷺ، وتكلمت عن مفهوم أهل البيت عند أهل السنة، وما يخصهم من أحكام؛ كتحریم الزكاة عليهم، وكونهم لا يرثون رسول الله ﷺ، وحقهم في خمس الخمس في الغنيمة والفيء، والصلاة عليهم مع النبي ﷺ، ووجوب محبتهم واحترامهم ومودتهم، وبينت مواقف أمير المؤمنين في سرايا رسول الله ﷺ وغزواته؛ كبدر وأحد والخندق، وبني قريظة، والحديبية وخيبر، وفتح مكة، وغزوة حنين، وعن استخلاف النبي ﷺ لعلي على المدينة في غزوة تبوك ٨هـ، وحج أبي بكر بالناس ودور علي رضي الله عنه الإعلامي ووفد نصارى نجران وآية المباهلة، وإرسال النبي ﷺ علياً داعياً وقاضياً لليمن، وأفضيته التي حكم بها في اليمن السعيد

الحبيب ، ومواقف علي في حجة الوداع ، وقصة الكتاب الذي همّ النبي صلى الله عليه وسلم بكتابته في مرض موته ، وعن علاقة علي بالخلفاء الراشدين ، ومكانته في دولة الخلافة الراشدة ، فتكلمت عن مبايعته لأبي بكر بالخلافة ومساندته له في حروب الردة ، وتقديمه وتفضيله للصديق ، واقتدائه به في الصلوات وقبول الهدايا منه .

وأشرت إلى العلاقة بين الصديق والسيدة فاطمة وقصة ميراث النبي صلى الله عليه وسلم ورددت على الشبهات الرافضية حول قصة الميراث ونسفت حججهم ، وأدلتهم بالبراهين القاطعة والأدلة الناصعة ، وكشفت الستار عن رواياتهم الضعيفة والموضوعة ، وأثبت محبة السيدة فاطمة للحق والتزامها بالشريعة ، واحترامها لخليفة رسول الله أبي بكر ، وتسامحها معه ، واحترام أهل البيت للصديق والمصاهرات المتبادلة بين آل الصديق وأهل البيت ، ومحبتهم له وتسمية أولادهم عليه ، وتحدثت عن مساهمات علي في عهد الفاروق في الأمور القضائية ، والتنظيمات المالية والإدارية واستخلاف عمر لعلي على المدينة مراراً ، ومشاورته له في أمور الجهاد وشؤون الدولة وعن العلاقة الحميمة المتينة بين الفاروق وأهل البيت ، وزواج عمر من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، وحقيقة هذا الزواج الميمون المبارك وتركت الحجج الدامغة ، والبراهين الساطعة تنسف الأكاذيب من جذورها فتركها قاعاً صفصفاً ، وأخذت الحقائق التاريخية ترسم لنا حقيقة المحبة والمودة بين الصحابة الكرام ، كما جاءت في القرآن الكريم ، ووضحت بيعة علي لعثمان رضي الله عنه ، ورددت على الأكاذيب التي ألصقت بها ، وتحدثت عن جهوده في دعم دولة ذي النورين ، ودفاعه عنه أمام الغوغاء ومواقفه في فتنة مقتله في بدايتها وأثناء الحصار وبعد استشهاده ، وتحدثت عن المصاهرات بين آل علي وآل عثمان ، وأتيت بأقوال علي في الخلفاء الراشدين الذين سبقوه في الدلالة على محبتهم واحترامهم ومودتهم والبراءة ممن يسبهم ويشتمهم ، وإقامة حد المفتري على من يسب الشيخين ولا يتمالك القارئ المسلم نفسه من البكاء وهو يتأمل في أقوال أمير المؤمنين في الخلفاء وتعامله مع ذلك الجليل القرآني الفريد وساداته الكرام .

قال الشاعر :

ومن عَجَبٍ أَنِّي أَحْنُ إِلَيْهِمْ
وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وَتَطَلَّبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا
وَيَشْتَأْفُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلَعِي

وقال الشاعر :

إِنِّي أَحِبُّ أَبَا حَفْصٍ وَشَيْعَتَهُ
كَمَا أَحِبُّ عَتِيقًا صَاحِبَ الْغَارِ
وَقَدْ رَضِيتُ عَلِيًّا قُدْوَةً عَلَمًا
وَمَا رَضِيتُ بِقَتْلِ الشَّيْخِ (١) فِي الدَّارِ
كُلُّ الصَّحَابَةِ سَادَاتِي وَمُعْتَقَدِي
فَهَلْ عَلَيَّ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنْ عَارِ

هذا وقد تحدثت عن بيعة علي بالخلافة وكيف تمت؟ وعن أحقيته بها، وإجماع الصحابة على ذلك، وبيعة طلحة والزبير له طوعاً بدون ضغط أو إكراه، وانعقاد الإجماع على خلافته، وشروط أمير المؤمنين في بيعته وأول خطبة له، وأهل الحل والعقد في دولته، وشيء من فضائله وأهم صفاته وقواعد نظام حكمه، وتوسعت في الحديث عن صفاته، فبينت علمه الواسع وفقهه الغزير، وزهده، وتواضعه، وكرمه وجوده، وحياءه، وشدة عبوديته وصبره، وإخلاصه، وشكره لله، ودعائه الخاشع، وعن المرجعية العليا لدولته، وسيرها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والافتداء بالخلفاء الراشدين الذين سبقوه، وعن حق الأمة في الرقابة على الحكام، والشورى، والعدل والمساواة، والحريات وعن

(١) الشيخ هو: عثمان رضي الله عنه .

حياته في المجتمع واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودعوته للتوحيد ومحاربه للشرك، وتعريفه الناس بأسماء الله وصفاته، وبنعم الله المستوجبة لشكره، وحرصه على محو آثار الجاهلية، وحرصه على بطلان الاعتقاد بالكواكب، وإحراقه لمن غلوا فيه وادعوا فيه الألوهية، وحديثه عن كيفية بداية الإيمان في القلب وتعريفه للتقوى، ومفهوم القضاء والقدر، وكيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟.

ونقلت شيئاً من خطبه ومواعظه، وما ينسب إليه من شعر أو يتمثل به في مناسبات عديدة، واخترت مجموعة قيمة من حكمه التي سارت مضرب المثل بين الناس، وتكلمت عن حديثه عن صفات خيار العباد، وعن تطوع النبي صلوات الله عليه وآله وسلم، ووصف الصحابة الكرام، وتحذيره من الأمراض الخطيرة التي تصيب القلوب؛ كطول الأمل واتباع الهوى، والرياء، والعجب وعن اهتمامه بترشيد الأسواق، ومحاربه للبدع، والأعمال التي تخالف الشرع في أوساط الناس، وتحدثت عن المؤسسات التي في دولته؛ كالمالية، والقضائية ومؤسسة الولاية، وعن الخطة القضائية والتشريعية في عهد الخلفاء الراشدين والمصادر التي اعتمدها الصحابة في ذلك العهد، وعن ميزات القضاء في عهد الخلفاء الراشدين، وعن أشهر قضاة أمير المؤمنين علي وعن أسلوبه القضائي، ونظرته للأحكام الصادرة قبله، والمؤهلين للقضاء، ومجانية الحصول على الحكم، وعن اجتهاداته الفقهية في العبادات، والمعاملات المالية، والحدود والقصاص والجنايات وأشرت إلى مسألة حجية قول الصحابي والخلفاء الراشدين، وبينت في حديثي مؤسسة الولاية، وأقاليم الدولة في عهده وما وقع في كل إقليم من أمور جسام، وتكلمت عن منهجه في تعيين الولاية، ومراقبته لعماله وبعض توجيهاته، والصلاحيات الممنوحة للولاية، من تعيين وزراء مع كل والي في كل إقليم، وتشكيل مجالس الشورى وإنشاء الجيوش في كل ولاية، وترسيم السياسة الخارجية في مجال الحرب والسلم والحفاظ على الأمن الداخلي وتشكيل الجهاز القضائي في كل

ولاية، والنفقات المالية، والعمال التابعين لكل ولاية ومتابعتهم، ودور العرفاء والنقباء في تثبيت نظام الولايات، ووضحت بعض المفاهيم الإدارية من أقوال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه؛ كتأكيده على العنصر الإنساني، وعامل الخبرة والعلم، والعلاقة بين الرئيس والمرؤوس، ومكافحة الجمود، والرقابة الواعية، والضبط، والمشاركة في صنع القرار وحسن الاختيار لدى الوالي والضمانات المادية والنفسية لموظفي الدولة، ومرافقة ذوي الخبرات، ومفهوم الإدارة الأبوية، وكون التوظيف يتم عبر الضوابط وليس عبر الروابط الشخصية.

ثم انتقلت إلى المشاكل الداخلية في عهد علي رضي الله عنه، فتحدثت عن معركة الجمل مبتدأ بالأحداث التي سبقتها وعن أثر التنظيم السبئي في اندلاعها، ودور عبدالله بن سبأ في إذكاء الفتن الداخلية، وعن اختلاف الصحابة في الطريقة التي يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان، وعن موقف السيدة عائشة أم المؤمنين، وطلحة والزبير ومعاوية بن أبي سفيان ومن كان معهم في الإسراع بالقصاص من قتلة عثمان، وبينت موقف معتزلي الفتنة؛ كسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر، ومحمد بن مسلمة، وأبي موسى الأشعري، وعمران بن حصين، وأسامة بن زيد ومن سار على نهجهم، وتكلمت عن موقف المترين في تنفيذ القصاص حتى تستقر الأحوال، كأمر المؤمنين علي، وعن محاولات الصلح قبل اندلاع معركة الجمل، وعن نشوب القتال، وجولته الأولى والثانية، واستشهاد طلحة والزبير، ومبايعة أهل البصرة لعلي رضي الله عنه، وعن موقف علي رضي الله عنه من أم المؤمنين عائشة وكيف عاملها واحترمها وقدرها وردّها إلى المدينة معززة مكرمة وأشرت إلى فضائلها وشيء من سيرتها، كما ترجمت للزبير وطلحة رضي الله عنهما لكونهم من الشخصيات المؤثرة في عهد النبوة والخلافة الراشدة وفي عهد أمير المؤمنين علي، ودافعت عنهم دفاعاً عن الحق لكونهم ظلموا، فبينت فضلهم ومكانتهم في الإسلام، ورددت على الشبهات والأكاذيب التي ألصقت بهم من خلال إثبات الحقائق الناصعة، والحجج الدامغة، وصفاتهم الرفيعة، وأخلاقهم الكريمة،

بحيث يخرج القارئ المسلم بمعرفة حقيقية لا لبس فيها ولا غموض، لهذه الشخصيات الفذة، فلا يتأثر بالروايات الضعيفة، ولا القصص الموضوعة التي وضعها مؤرخو الشيعة الرافضة والتي شوّهت ثقافة الناس عن هذه الشخصيات العظيمة، فالحديث عن ترجمة عائشة أو طلحة والزبير أو غيرهم من كبار الصحابة التي ساهمت في الأحداث التي وقعت في عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ينسجم مع منهجي في دراسة شخصية أمير المؤمنين وعصره، والشخصيات التي أثرت في ذلك العهد ملتزماً في طرحي بمنهج أهل السنة والجماعة جملة وتفصيلاً، أصولاً وفروعاً.

قال الشاعر: أبو محمد القحطاني:

أَكْرَمَ بِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَسَعِيدِهِمْ
 وَسَعِيدِهِمْ وَبِعَابِدِ الرَّحْمَنِ
 وَأَبِي عُبَيْدَةَ ذِي الدِّيَانَةِ وَالتَّقَى
 وَأَمْدَحَ جَمَاعَةَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ
 قُلْ خَيْرَ قَوْلٍ فِي صَحَابَةِ أَحْمَدَ
 وَأَمْدَحَ جَمِيعِ الْأَلِّ وَالنِّسْوَانِ
 دَعُ مَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي الْوَعَى
 بِسُيُوفِهِمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ
 فَكَتَبْتَهُمْ وَقَاتَلَهُمْ لَهُمْ
 وَكَلَاهُمَا فِي الْحَشْرِ مَرْحُومَانِ
 وَاللَّهِ يَوْمَ الْحَشْرِ يَنْزِعُ كُلَّ مَا
 تَحْوِي صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَضْغَانِ
 لَا تَرْكَنَنَّ إِلَى الرَّوَافِضِ إِنَّهُمْ
 شَتَمُوا الصَّحَابَةَ دُونَ مَا بُرْهَانِ

لَعِنُوا كَمَا بَغَضُوا صَحَابَةَ أَحْمَدٍ
 وَوَدَّاهُمْ فَفَرَضَ عَلَى الْإِنْسَانِ
 حُبَّ الصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةَ سُنَّةً
 أَلْقَى بِهَا رَبِّي إِذَا أَحْيَانِي

وقال أيضاً :

إِنَّ الرِّوَافِضَ شَرٌّ مِنْ وَطِئِ الحَصَى
 مِنْ كُلِّ إِنْسٍ نَاطِقٍ أَوْ جَبَّانِ
 مَدَحُوا النَّبِيَّ وَخَوَّنُوا أَصْحَابَهُ
 وَرَمَوْهُمْ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ
 حُبُّوا قَرَابَتَهُ وَسَبُّوا صَحْبَهُ
 جَدْلَانِ عِنْدَ اللَّهِ مُنْتَقِصَانِ
 فَكَأَنَّمَا آلَ النَّبِيِّ وَصَحْبَهُ
 رُوحٌ يَضُمُّ جَمِيعَهَا جَسَدَانِ
 فَيَتَّانِ عَقْدُهُمَا شَرِيعَةُ أَحْمَدِ
 بِأَبِي وَأُمِّي ذَانِكَ الْفَيْتَانِ
 فَيَتَّانِ سَالِكَتَانِ فِي سُبُلِ الْهُدَى
 وَهُمَا بَدِينِ اللَّهِ قَائِمَتَانِ

هذا وقد تحدثت عن معركة صفين، ودوافع معاوية رضي الله عنه في عدم البيعة، والمراسلات التي تمت بينه وبين علي رضي الله عنه، ومحاولات الصلح، ونشوب القتال، والدعوة إلى التحكيم، ومقتل عمّار بن ياسر رضي الله عنه وأثره على المسلمين، وعن المعاملة الكريمة من الطرفين أثناء الحرب والمواجهة، ومعاملة الأسرى، وعدد

القتلى وترحم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على قتلى الطرفين، ونهيه عن شتم معاوية ولعن أهل الشام، ثم تكلمت عن قصة التحكيم، فترجمت لسيرة أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، وبينت بطلان الأكاذيب والقصص الواهية، والموضوعه التي ألصقت بهما في حادثة التحكيم، وأشارت إلي كيفية الاستفادة من قصة التحكيم في فض النزاعات بين الدول الإسلامية، وركزت على موقف أهل السنة من تلك الحروب، وحذرت من بعض الكتب التي شوهدت تاريخ الصحابة بالظلم والعدوان؛ ككتاب الإمامة والسياسة المنسوب زوراً لابن قتيبة، وكتاب الأغاني للأصفهاني، وتاريخ اليعقوبي، والمسعودي وغيرها من الكتب المنحرفة عن منهج أهل السنة والجماعة، وبينت دور المستشرقين في تحريف التاريخ الإسلامي وتزويره وتشويهه، وكيف استفادوا من كتب الشيعة الروافض، وأسسوا مدرسة معارضة ساهمت في تلويث الأفكار، وتحريف الوقائع وطمس الحقائق، وتوسيع النقاط السوداء في تاريخنا مع المبالغة والتحويل تحت شعارات برآقة؛ كالبحث العلمي التزيه، والواقعية، والموضوعية، والحياد، وتبني تلك الأفكار التدميرية، مجموعة من أبناء المسلمين ينتمون للإسلام لا يحسنون فهمه ولا عرضه، ولا العمل به، ولا الدفاع عنه، بل تورطوا في شباك أعداء الإسلام، الذين يعملون على تشويه تاريخ هذه الأمة وحضارتها التي صنعها دينها العظيم.

هذا وقد قمت بدراسة موضوعية علمية في الفصل الأخير عن الخوارج والشيعة الرافضة، فبينت نشأة الخوارج وعرفت بهم، وذكرت الأحاديث النبوية التي تضمنت ذمهم، وانحيازهم إلي حروراء ومناظرة ابن عباس لهم، وسياسة أمير المؤمنين في التعامل معهم، وأسباب مقاتلته لهم، ونشوب القتال معهم، وقصة ذي الثدية أو المخدج وأثر مقتله على جيش علي رضي الله عنه، ووقفت مع الأحكام الفقهية التي اجتهد فيها أمير المؤمنين علي في معاركه في الجمل وصفين والخوارج، وكيف اعتمد عليها الفقهاء فيما بعد، ودونوها في كتبهم بما يعرف بأحكام فقه البغاة،

وأشرت إلي أهم صفات الخوارج في عهد أمير المؤمنين علي، كالغلو في الدين، والجهل به، وشق عصا الطاعة، والتكفير بالذنوب واستحلال دماء المسلمين وأموالهم، والظعن والتضليل، وسوء الظن، والشدة على المسلمين، وناقشت بعض الآراء الاعتقادية للخوارج؛ كتكفير صاحب الكبيرة، ورأيهم في الإمامة، وطعنهم لبعض الصحابة وتكفيرهم لعثمان وعلي رضي الله عنهما، وتطرت لأسباب انحراف الخوارج ونزعاتهم في العصر الحديث؛ كالجهل بالعلوم الشرعية بسبب الإعراض عن العلماء، والقراءة من الكتب بدون معلم، وغلوهم في ذم التقليد، وتخلي كثير من العلماء عن القيام بواجبهم وشيوع الظلم والتحاكم للقوانين الوضعية، وانتشار الفساد بين الناس، وعدم تزكية النفوس، وأشرت إلى أهم مظاهر غلوهم؛ كالتشدد في الدين على النفس والتعسير على الآخرين، والتعالم والغرور، والاستبداد بالرأي وتجهيل الآخرين، والظعن في العلماء العاملين، وسوء الظن، والشدة والعنف مع الآخرين، وتكفير المسلمين.

وتكلمت عن فرقة الشيعة الرافضة، فبينت معنى الشيعة في اللغة والاصطلاح، ومعنى الرفض في اللغة والاصطلاح، وسبب تسميتهم بالرافضة، ونشأتهم ودور اليهود في ذلك، والمراحل التي مرّ بها الشيعة وأهم عقائد الشيعة الرافضة وموقف أمير المؤمنين وعلماء أهل البيت من تلك العقائد المنسوبة إليهم كعقيدة الإمامة وحكم من جردها، والعصمة ومناقشة أدلتهم على العصمة وبيان بطلانها، وكذلك أدلتهم على النص من القرآن الكريم؛ كآية التطهير، والمباهلة، والولاية، وأدلتهم المزعومة من السنة؛ كخطبة غدير خم، وحديث: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»، وبيان الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي استدلوها بها على الإمامة؛ كحديث الطائر، وحديث «الدار»، و«أنا مدينة العلم وعلي بابها».

وألحقت بالكتاب فهرساً للأحاديث الضعيفة والموضوعة التي يحتج بها الشيعة الرافضة لتحذير المسلمين من الوقوع في حبالهم، وبيّنت حقيقة التوحيد عند الشيعة الرافضة وكيف حرفوا نصوص التوحيد وجعلوها في ولاية الأئمة،

وجعلوا الإمامة أصل قبول الأعمال، واعتقادهم أن الأئمة هم الوسطة بين الله وخلقهم، وقولهم: لا هداية للناس إلا بالأئمة، ولا يقبل الدعاء إلا بأسماء الأئمة، وكون الحج إلى المشاهد الشيعية أعظم عندهم من الحج إلى بيت الله، وكون الإمام عندهم يحرم ما يشاء ويحل ما يشاء، وأن الدنيا والآخرة كلها للإمام يتصرف بها كيف يشاء، وإسناد الحوادث الكونية إلى الأئمة، وقولهم: إن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم شيء، وغلوهم في الإثبات، وحقيقة التعطيل عندهم، ومسألة خلق القرآن، ومسألة رؤية الله عز وجل في الآخرة، وتفضيلهم الأئمة على الأنبياء والرسل، وموقفهم من القرآن الكريم واعتقاد بعض علمائهم بتحريف كتاب الله عز وجل والرد عليهم، وموقف الشيعة الرافضة من الصحابة الكرام والسنة النبوية المطهرة، ومفهوم التقية عند القوم، وعقيدة المهدي المنتظر عندهم، والرجعة، وقولهم بالبداء على الله سبحانه وتعالى، وقد بينت موقف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأئمة أهل البيت الأتھار، وعلماء أهل السنة من تلك العقائد الفاسدة والمنحرفة عن كتاب الله تعالى والتزمت في مناقشتي بالأدب والابتعاد عن السب والشتم، ومناقشة القوم من خلال أصولهم وكتبهم المعتمدة، والحرص على بيان الحقيقة لمحبي أهل البيت من الشيعة ودعوتهم بالافتداء بأمير المؤمنين علي رضي الله عنه وتحذيرهم من المندسين تحت عباءة أهل البيت لغرض إفساد عقائد الناس وإبعادهم عن كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وآله، كما أن هناك رغبة صادقة مخلصنة لتعريف الجمهور العريض من أهل السنة لحقيقة هؤلاء الشيعة الرافضة، فالقضية لها وجودها وآثارها بين الشعوب في إفريقيا، وآسيا، وأوروبا والأميركتين ودعاة التشيع الرافضي نشطون في دعوتهم المنحرفة يبذلون في سبيلها الغالي والنفيس، ويتحالفون مع خصوم الإسلام الصحيح لضربه والقضاء عليه، وتشويه منهجه، وهذا ليس بجديد وأهل السنة إلا ما رحم الله في استرخاء عجيب، ونوم عميق وغفلة عما يراد بهم، وبعضهم يقول: إن الصراع السني الشيعي الرافضي قد عفا

عليه الزمن، وهذا الكلام عاري من الحقيقة، ودليل على الجهل، وفي طياته خداع لجمهور المسلمين العريض، باسم التقريب وتوحيد الصف الإسلامي.

إن المنهج الصحيح للتقريب هو أن يقوم علماء أهل السنة بجهد كبير لنشر اعتقادهم الصحيح المنبثق من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبيان صحته وتميزه عن مذهب أهل البدع، فأهل السنة والجماعة هم المتبعون لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ونسبتهم إلى سنة الرسول ﷺ التي حث على التمسك بها بقوله ﷺ: «فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسکوا بها وعضوا علیها بالنواجذ»^(١)، وحذر من مخالفتها بقوله: «وإياکم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»^(٢)، وقوله: «من رغب عن سنتي فليس مني»، وهذا بخلاف غيرهم من أهل الأهواء والبدع الذين سلكوا مسالك لم يكن عليها الرسول ﷺ، فأهل السنة ظهرت عقيدتهم بظهور بعثته ﷺ - وهي محفوظة بحفظ الله لها في كتابه وسنة رسوله ﷺ - وأهل الأهواء ولدت عقائدهم بعد زمنه ﷺ، ومنها ما كان في آخر عهد الصحابة ومنها ما كان بعد ذلك، والرسول ﷺ أخبر أن من عاش من أصحابه سيدرك هذا التفرق والاختلاف فقال: «وإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً»^(٣)، ثم أرشد إلى سلوك الصراط المستقيم، وهو اتباع سنته وسنة خلفائه الراشدين، وحذر من محدثات الأمور، وأخبر بأنها ضلال، وليس من المعقول ولا المقبول أن يُحجب حق وهدى عن الصحابة ﷺ ويُدخر لأناس يجيئون بعدهم، فإن تلك البدع المحدثه كلها شر، ولو كان في شيء منها خير لسبق إليه الصحابة، لكنها ابتلي به كثير ممن جاء بعدهم ممن انحرفوا عما كان عليه الصحابة ﷺ، وقد قال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، ولذا فإن أهل السنة ينتسبون إلى السنة وغيرهم ينتسبون إلى نحلهم الباطلة، أو إلى أسماء أشخاص معينين.

إن المنهج الأصيل للتقريب هو بيان الحق وكشف الباطل وتقريب الشيعة إلى

(٢) «مسلم» في (٢/٥٩٢)

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢/٦٤٧-٦٤٨)

(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢/٦٤٧-٦٤٨).

كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام وفهم الإسلام الصحيح من خلال علماء أهل السنة وعلى رأسهم فقهاء وعلماء أهل البيت؛ كأمر المؤمنين علي عليه السلام وأبنائه وأحفاده، كما أنه ينبغي التنويه، وتشجيع الأصوات الإصلاحية الشيعية الصادقة واحترامها وتقديرها والوقوف معها في نصيحة أقوامها، كالذي قام به السيد حسين الموسوي في كتابه القيم «الله ثم للتاريخ، كشف الأسرار وتبرئة الأئمة الأطهار»، وكالجهاد العلمي الذي قام به السيد أحمد الكاتب مشكوراً في كتابه «تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه»، وعلينا أن نقف مع كل محب صادق لأهل البيت مقتنياً لآثارهم الصحيحة وهديهم الجميل في إرشاد الناس لكتاب الله وسنة نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، ونعاملهم بكل احترام وتقدير، ونأخذ بأيديهم نحو شواطئ الأمان ونحثهم على أعمال العقل، وتحريره من أغلاله، وإزاحة الركام الثقيل من الأباطيل التي على الفطر، حتى تأخذ العقول النيرة، والفطر السليمة مجالها في الوصول للحقيقة التي لها نوراً ساطعاً وبريقاً لامعاً لا تخفيه الغيوم.

وعلى علماء أهل السنة أن يلتزموا أسلوب البحث العلمي الهادئ في مناقشة بدع المبتدعة وأن يترفقوا معهم، وقد يكون من تمام الترفق زيارتهم ومعاونتهم في الحدود التي لا خلاف فيها أو نجدتهم في الملمات وأيام المصاعب أو نصرهم إذا كانوا في نزاع مع الكافر أو ظالم لهم، وفق فقه السياسة الشرعية الخاضعة للمصالح والمفاسد إلا أن هذا الأصل في التعاون وحسن العلاقة وهدوء البحث، لا يمكن أن يطرد دائماً ليشمل من يأتي من الشيعة الرافضة بغلو قد يكون في السكوت عنه تحريك الغوغاء والدهماء، بل الواجب أن ننكر على أهل الغلو الشديد، والأقوال الشاذة في كل الأحوال، والحد المميز بين الطائفتين الأولى التي تترفق معها في الكلام والثانية، التي نغلظ لها الكلام، إنما يكون كامناً في مدى اعتماد القائل على نص شرعي تتكون منه شبهة أو على تأويل قد تميل إليه بعض الأذهان، وأما من يتتبع غرائب النقول عن المجاهيل والمتأخرين ومن لا تأويل له فالإنكار منا تجاهه أولى، وربما كان الإغلاظ في إنكار بدعته أوجب.

قال الشاعر:

واحذر مجادلة الرجال فإنها
 تدعو إلى الشحناء والشنان
 وإذا اضطررت إلى الجدال ولم تجد
 لك مهرباً وتلاقت الصفان
 فاجعل كتاب الله درعاً سابغاً
 والشرع سيفك وأبد في الميدان
 والسنة البيضاء دونك جنة
 واركب جواد العزم في الجولان
 واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى
 فالصبر أوثق عدة الإنسان
 واطعن برمح الحق كل معاند
 لله درُّ الفارس الطعان
 واحمل بسيف الصدق حملة مخلص
 متجرداً لله غير جبان

كما أن علماء أهل السنة وأهل الحل والعقد منهم في المجتمعات الطائفية لهم دور كبير في قيادة المسلمين نحو الخير، فهم الذين يقدرون المواقف السياسية والتحالفات الحزبية مع الطوائف الأخرى وفق فقه المصالح والمفاسد الذي تضبطه قواعد السياسة الشرعية، وهذا لا يمنع العلماء والدعاة من تعليم المسلمين أصول منهج أهل السنة وتربيتهم عليه ودعوة الناس إليه، والتحذير من العقائد الفاسدة المندسة في أوساط المسلمين حتى لا يتأثروا بها والتي يجتهد دعائها في

نشرها بالليل والنهار والسر والإعلان بدون ملل ولا كلل، ولنا أسوة حسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم إبان هجرته للمدينة عندما عقد المعاهدات مع اليهود التي تؤمن لهم حياة كريمة في ظل الدولة الإسلامية، وكان القرآن الكريم في نفس الوقت يتحدث عن عقائد اليهود وتاريخهم وأخلاقهم حتى يتعرف المسلمون على حقيقة الشخصية اليهودية فلا ينخدعوا بها، وعندما غدر اليهود كان الصف الإسلامي محصنا ضد هذه الطائفة.

إن الدارس لحركة التاريخ الإسلامي؛ كمرحلة الحروب الصليبية في عهد نور الدين وصلاح الدين، وزمن العثمانيين في عهد السلطان محمد الفاتح وغيره، والمرابطين، في عصر يوسف بن تاشفين، يلاحظ أن عوامل النهوض، وأسباب النصر كثيرة منها؛ صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وتحكيم شرع الله في الدولة، ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله، وقدرتها في التعامل مع سنن الله في تربية الأمم، وبناء الدول وسقوطها، ومعرفة علل المجتمعات، وأطوار الأمم، وأسرار التاريخ، ومخططات الأعداء، من الصليبيين واليهود والملاحدة والفرق الباطنية، والمبتدعة، وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه، فقضايا فقه النهوض، والمشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وارتبط بالفقه الراشدي المحفوظ عن سلفنا العظيم فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله، واستفاد من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهي ودية لربها ونبيها صلى الله عليه وسلم وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت، والثقافة الصحيحة تبني الإنسان المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، والدولة المسلمة على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله وهدي الخلفاء الراشدين ومن سار على نهجهم، وعبقريه البناء الحضاري الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا، بعد توفيق الله وحفظه.

فعلينا أن نعمل لهذا الدين، وسعادتنا ليست باقتطاف الثمر العاجل، وإنما في الشعور بتوفيق الله والأمل في رضاه، إنني في دراستي لعهد الخلافة الراشدة حاولت أن أنتقي الكلمات وأصف الأسطر والجمل لتجلية عهد الخلافة الراشدة، من خلال الروايات الصحيحة؛ لكي يستفيد أبناء المسلمين من تلك الحقبة، العلم الغزير، والفقہ الدقيق، وشمولية فهم الإسلام، فلعل الله سبحانه أن يبارك في هذا الجهد ويتنفع به أولئك الدعاة الذين لا نعرف أسماءهم، ولكن سيرى التاريخ آثارهم وسيقبلون العالم الإسلامي من عثرته وينهضون به من كبوته، أولئك الريانيون المتجرّدون الذين عرفوا الحق واستشعروا السعادة في نصرته، وتعصبوا له ودافعوا عنه ووقفوا بجانبه على رقة الحال وقلة النصير، فأخذ الله بأيديهم لصدقهم وإخلاصهم ومتابعتهم للنبي ﷺ، وأولئك العلماء، وطلاب العلم الذين توزن مداد أقلامهم بدماء الشهداء، وأولئك التجار الذين يقفون خلف موكب الدعوة بأموالهم وثرواتهم وأنفسهم ولسان حالهم يقول: ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿٩-١٠﴾، وأولئك الجنود المجهولون في هذه الدنيا، ولكنهم غدا أعلام شامخة في ربي الخلد، إن العواصف العاتية تهب بعنف تريد اجتياح إسلامنا وديننا وعقيدتنا من جذورها، وجهود خصوم الإسلام من الصليبية واليهودية والعلمانية والباطنية والمبتدعة تستبيح قادتنا وكبراءنا في ميدان العلم والأدب والسياسة، وتريد تشويه تاريخنا فعندما نكون أمة بدون تاريخ، فلن نكون أمة صالحة. فما قيمة أمة ليس لها رجال؟ فهل يمكننا أن نستلهم الدروس والعبر من تاريخنا ما يخزي أعداء الله ويرد كيدهم في نحورهم، وما يساعدنا على استئناف رسالتنا ودعم حضارتنا؟.

إن الإنسانية تترنح في هذه الآونة الكالحة من التاريخ؛ لبعدها عن منهج الله تعالى، والدواء عند المسلمين وحدهم فهل ينصفون أنفسهم، وينقذون الآخرين؟.

قال الشاعر :

وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبُ جَمَّةٌ
قُرْبُ الْحَبِيبِ وَمَا إِلَيْهِ وَصُولُ
كَالْعَيْسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظُّمَاءُ
وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

فهل من عودة إلى الإسلام، تزكي السرائر، وتبني الأخلاق، وتصلنا بالقرآن الكريم، وتشعرنا بشرف الانتماء إلى محمد ودينه وضرورة العمل بدعوته وسنة خلفائه الراشدين، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر أصحابه الكرام، رضي الله عنهم أجمعين، ونكون حلقة موصولة، في دعم رسالة الحبيب صلوات الله عليه التي استوعبت الزمن كله .

وقبل الحديث عن المصادر والمراجع التي تعاملت معها، لابد من الاعتراف بأن هذا الجهد، لولا توفيق الله سبحانه وتعالى ثم جهود علماء أهل السنة وطلاب العلم ممن ساروا على منهجهم، ما استطعت أن أبحر في هذا البحر العميق ولذلك أقر بأنني استفدت من الرسائل العلمية التي طبعت والتي لم تنشر، من حيث المادة والمنهج، والحكم على الروايات، والرجوع إلى المصادر الحديثية، والتاريخية وغيرها مع محاولة التطوير والاستفادة من جهود الآخرين في البناء، وأخص بالذكر الدكتور أكرم ضياء العمري الذي أشرف وناقش الكثير من هذه الرسائل في هذا المجال، فقد استفدت من كتبه؛ كالسيرة النبوية الصحيحة، وعصر الخلافة الراشدة، ومن الرسائل التي أشرف عليها كرسالة الدكتور يحيى يحيى: «الخلافة الراشدة والدولة الأموية من فتح الباري جمعاً وتوثيقاً»، ورسالة الأستاذ عبدالعزيز المقبل في «خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه» من خلال كتب السنة والتاريخ، دراسة نقدية للروايات باستثناء حروب الردة، ورسالة الدكتور عبدالعزيز ابن محمد الفريخ في تحقيق كتاب: «محض الصواب في

فضائل أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب» ليوסף بن الحسن بن عبدالهادي
الدمشقي الصالحي الحنبلي، ورسالة الدكتور محمد بن عبدالله الغبان في «فتنة
مقتل عثمان بن عفان»، ورسالة الأستاذ عبدالحميد علي ناصر في خلافة علي بن
أبي طالب، وغير ذلك من الرسائل الجامعية التي أشرف عليها أساتذة آخرون؛
كرسالة د. محمد المحزون في «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» من روايات
الطبري والمحدثين، ورسالة سليمان العودة: «عبدالله بن سبأ وأثره في أحداث
الفتنة في صدر الإسلام»، ورسالة الأستاذة أسماء محمد أحمد زيادة: «دور المرأة
السياسي في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين»، وغير ذلك من الرسائل
الجامعية، فالفضل لله سبحانه وتعالى ثم لأساتذتي وإخواني الذين مهدوا لي
الطريق فلهم مني الدعاء في ظهر الغيب بأن يتقبل الله جهودهم وتكون في ميزان
حسناتهم، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

أما المصادر التي في هذه الدراسة المتعلقة بعهد الخلافة الراشدة فهي:

١ - كتب الحديث:

وقد بدأت بالكتب الستة صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي
والنسائي وابن ماجه، ثم موطأ مالك ومسند أحمد، فبذلت جهداً لاستخراج
المادة التاريخية، التي لها علاقة بعهد الخلافة الراشدة، ثم جمعت مادة تاريخية
من مصنف عبدالرزاق وابن أبي شيبه ومستدرک الحاكم والسنن الكبرى للبيهقي
وسنن سعيد بن منصور، ومسند الحميدي والطيالسي وسنن الترمذي، ومجمع
الزوائد وكشف الأستار عن زوائد البزار وموارد الظمان إلى زوائد ابن حبان، ولم
أغفل المعجم الكبير للطبراني وسنن الدارقطني، واستفدت من جهود المحققين لما
سبق ذكره من كتب الحديث في الحكم على الروايات.

٢ - كتب شروح الحديث:

وأهمها فتح الباري لابن حجر، وشرح النووي على صحيح مسلم ففيها مادة

تاريخية لا يستهان بها، كما أن تعليقات ابن حجر والنووي على بعض الأحداث التاريخية ذات أهمية تاريخية.

٣- كتب التفسير:

وأهم هذه الكتب، تفسير الطبري، والقرطبي، وابن كثير، وأهتم بتعليقاتهم أكثر من الروايات التي نقلوها؛ حيث أن معظمها ذكر في كتب الحديث والتاريخ.

٤- كتب العقائد:

وأهم هذه الكتب: «منهاج السنة النبوية»، لابن تيمية، وهذا الكتاب استفدت منه فائدة عظيمة، و«شرح الطحاوية»، و«الإبانة في أصول الديانة»، و«الاعتقاد» لليهقي، و«الشريعة» للأجري، وغيرها من كتب العقائد؛ حيث نقلت منها أقوال السلف فيما يتعلق بالخلفاء الراشدين، ومكانة الصحابة رضي الله عنهم.

٥- كتب الفقه:

وأهمها: «المغني» لابن قدامة، و«المجموع» للنووي، و«بداية المجتهد» لابن رشد، وغيرها من كتب الفقه؛ حيث استفدت منها في المسائل الفقهية والقضائية التي اجتهد فيها الخلفاء الراشدين.

٦- كتب الأدب:

حيث استخرجت منها بعض الأبيات المنسوبة للخلفاء الراشدين أو تمثلوا بها، أو استمعوا إليها ولكون كتب الأدب ليس لها أسانيد وفيها الغث والسمين، لذلك كان اختياري للأبيات الشعرية التي تنسجم مع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأخلاق ذلك الجيل الفريد، ومن أهم هذه الكتب: «عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«الأدب الإسلامي في عهد النبوة»، لنايف معروف.

٧- كتب الزهد والرقائق:

واستخرجت منها أقوال الخلفاء الراشدين في هذا العلم ومن أهم هذه الكتب:

«عدة الصابرين، وذخيرة الشاكرين» لابن القيم، و«مدارج السالكين» لابن القيم، و«مختصر منهاج القاصدين» لأحمد بن عبدالرحمن المقدسي، وغيرها من الكتب.

٨- كتب الفرق والمذاهب:

وأهم هذه الكتب: «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، لأبي محمد بن حزم الظاهري، و«أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية»، د. ناصر القفاري.

٩- كتب في أنظمة الحكم:

وأهم هذه الكتب: «نظام الحكومة الإسلامية» للكتاني: المسمى «التراتيب الإدارية»، و«نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي»، لظافر القاسمي.

١٠- كتب في التراجم:

وأهم هذه الكتب: «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، لعبد الحي الحنبلي، و«أسد الغابة»، لابن الأثير، و«سير السلف» لأبي القاسم الأصفهاني.

١١- كتب في الجرح والتعديل:

وأهم هذه الكتب: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، للحافظ المزي، و«الجرح والتعديل»، لابن أبي حاتم، و«الثقات» لابن حبان، و«الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي.

١٢- كتب التاريخ:

وأهمها: «تاريخ الطبري»، وهذا الكتاب نقل إلينا الروايات الصحيحة والضعيفة والموضوعة بأسانيدھا، وفيما يتعلق بالعقيدة والأحكام الشرعية والأحداث التي تتعلق بالصحابة، لا بد من خضوع الروايات للجرح والتعديل وبيان الروايات الشيعية الرافضية، والكذابين والمجاهيل، وقد استفدت في هذا

الشأن من كتاب «استشهاد عثمان ووقعة الجمل في مرويات سيف بن عمر في تاريخ الطبري»، لخالد الغيث، و«مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري»، للدكتور يحيى إبراهيم يحيى، و«أثر التشيع على الروايات التاريخية» د. عبدالعزیز نور ولي، ومن أهم هذه الكتب: «البداية والنهاية» لابن كثير، وغيرها من الكتب التاريخية.

هذه أهم المصادر التي رجعت إليها مع كم كبير من المراجع الحديثة المتنوعة.

هذا وقد تشددت في تصحيح الروايات أو الحكم عليها فيما يتعلق بالعقائد والأحكام والصحابة رضي الله عنهم، وفي هذا الشأن ما أنا إلا ناقل لأقوال العلماء المتخصصين في هذا العلم، فالفضل لله، ثم لهم واجتهدت في تصوير الحدث التاريخي من الروايات الصحيحة فقدمتها وأخذت بالحسنة ولم أهمل الروايات الضعيفة، فقد أفدت منها في إكمال الصورة التي لا تسدها الروايات الصحيحة والحسنة بما يتوافق مع روح ذلك العصر، لكن فيما لا يتعلق بعقيدة أو شريعة، ودخلت في مناقشات لشبهات وافتراءات الرافضة والمستشرقين وبعض الكتاب المعاصرين، وقد حرصت على طرح منهج أهل السنة فيما يتعلق بالعهد الراشدي والرد على الشبهات خصوصاً في عهد عثمان وعلي رضي الله عنهما، وقد جدت أفكار كثيرة من بعض الإخوة الأعزاء حول دراسة عهد الخلافة الراشدة والعزم ماضٍ بإذن الله على تطويرها، بما يلائم ذلك العصر الزاهر، ونسأل الله تعالى السداد والتوفيق.

هذا وقد أفردت، خامس الخلفاء الراشدين، الحسن بن علي بن أبي طالب بدراسة خاصة؛ نظراً لأهمية اجتهاداته في فقه السياسة الشرعية وفقه المصالح والمفاسد، وما كان يملكه من رؤية إصلاحية توجت بتنازله عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، وما تعرض له أثناء اتخاذ الخطوات التنفيذية لتلك الروية من عوائق، ومصائب وما تميزت به شخصيته الفذة من قدرة على امتلاك مشروع إصلاحي وعزم على التنفيذ كان سبباً في توحيد الأمة وتحقيق نبوة النبي صلی الله علیه وسلم في قوله:

«ابني هذا سيداً، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(١) وبتنازل الحسن بن علي عن الخلافة ومبايعته معاوية رضوان الله عليهم أجمعين تنتهي بذلك فترة خلافة النبوة وهي ثلاثون سنة والحجة في ذلك قول رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك، أو ملكه من يشاء»^(٢)، وقوله ﷺ: «الخلافة في أمتي ثلاثون سنة، ثم ملك بعد ذلك»^(٣)، وقد علق ابن كثير على هذا الحديث فقال: وإنما كملت الثلاثون بخلافة الحسن بن علي، فإنه نزل عن الخلافة لمعاوية في ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وذلك كمال ثلاثين سنة من موت رسول الله ﷺ؛ فإنه توفي في ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة، وهذا من دلائل النبوة صلوات الله وسلامه عليه وسلم تسليماً^(٤).

وبذلك يكون الحسن بن علي رضي الله عنه خامس الخلفاء الراشدين ويأذن الله تعالى سوف تكون مع كتاب الحسن بن علي خلاصات مهمة فيما يتعلق بدراسة عهد الخلافة الراشدة من معالمها وخصائصها، وأسباب زوالها، ونظام حكمها وصفات جيلها، وقادتها، ودستورها، وإدارة الأزمات فيها، واستنباط قوانين وسنن للنهوض، ومكانة المرأة في العهد الراشدي، ومؤسسات الدولة، وفقه القдом على الله عند ذلك الجليل.

هذا وقد حرصت على تناول شخصية أمير المؤمنين علي من جوانبها المتنوعة، فحياته، صفحة مشرقة في تاريخ الأمة، وهو من الأئمة الذين يتأسى الناس بهديهم وبأقوالهم وأفعالهم في هذه الحياة، فسيرته من أقوى مصادر الإيمان، والعاطفة الإسلامية الصحيحة، والفهم السليم لهذا الدين، فتعلم منه فقهه في التعامل مع السنن وحسن توجيهها، وكيف نعيش مع القرآن الكريم ونهتدي بهديه ونقتدي برسول الله ﷺ، وأهمية الخوف من الله والإخلاص له وابتغاء

(١) «البخاري» رقم (٣٧٤٦).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٨٧٩/٣) للالباني.

(٣) «سنن الترمذي مع شرحها» للأحوذى (٣٩٥-٣٩٧) قال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٤) «البداية والنهاية» (١٦/٨).

ما عنده في نجاح العبد في الدارين، وأثر هذه المعاني في حياة الأمة الإسلامية ونهوضها وقيامها بدورها الحضاري المنشود، فلذلك اجتهدت في دراسة شخصيته وعصره حسب وسعي وطاقتي، غير مدع عصمة، ولا متبرئ من زلة، ووجه الله الكريم لا غيره قصدت، وثوابه أردت، وهو المسؤول في المعونة عليه، والانتفاع به إنه طيب الأسماء وسميع الدعاء .

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم السبت الساعة الواحدة إلا خمس دقائق ظهراً بتاريخ ١٧ ربيع الآخر ١٤٢٤هـ الموافق ٧ يونيو ٢٠٠٣م، والفضل لله من قبل ومن بعد وأسأله سبحانه وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجعل عملي لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيني على كل حرف كتبتة ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الجهد المتواضع، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩) .

قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (فاطر: ٢) .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه:

علي محمد الصلابي

الإخوة القراء الكرام يسر المؤلف أن تصله ملاحظاتكم حول هذا الكتاب وغيره من كتبه من خلال دور النشر، ويطلب من إخوانه الدعاء في ظهر الغيب بالإخلاص والصواب ومواصلة المسيرة في خدمة تاريخ أمتنا .

■ الفصل الأول ■

علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة

المبحث الأول

اسمه ونسبه وكنيته وصفته، وأسرته

أولاً: اسمه وكنيته ولقبه:

١- اسمه ونسبه: هو علي بن أبي طالب (عبد مناف)^(١) بن عبد المطلب، يقال له: شيبة الحمد^(٢) بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان^(٣)، فهو ابن عم رسول الله صلوات الله عليه ويلتقي معه في جده الأول عبد المطلب بن هاشم، ووالده أبو طالب شقيق عبدالله والد النبي صلوات الله عليه، وكان اسم علي عند مولده أسد، سمته بذلك أمه رضي الله عنها باسم أبيها أسد بن هاشم، ويدل على ذلك ارتجازه يوم خيبر حيث يقول:

أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْدَرَةً^(٤)

كَلَيْتَ غَابَاتٍ كَرِيهِهِ الْمَنْظَرَةَ^(٥)

وكان أبو طالب غائباً، فلما عاد، لم يعجبه هذا الاسم وسماه علياً^(٦).

٢- كنيته: أبو الحسن، نسبة إلى ابنه الأكبر الحسن وهو من ولد فاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليه، ويكنى أيضاً بأبي تراب، كنية كناه بها النبي صلوات الله عليه وكان يفرح إذا نودي بها وسبب ذلك، أن الرسول صلوات الله عليه جاء بيت فاطمة رضي الله عنها فلم يجد علياً في البيت، فقال: «أين ابن عمك؟».

(١) أبو طالب اسمه عبد مناف.

(٢) عبد المطلب: اسمه شيبة الحمد، «الاستيعاب» (٣/١٠٨٩).

(٣) «الطبقات الكبرى» (٣/١٩)، و«صفة الصفوة» (١/٣٠٨)، و«البداية والنهاية» (٧/٣٣٣)، و«الإصابة»

(١/٥٠٧)، و«الاستيعاب» (١/١٠٨٩)، و«المنتظم» (٥/٦٦)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١/٥٠).

(٤) حيدرة: من أسماء الأسد.

(٥) «الرياض النضرة في مناقب العشرة» ص (٦١٧).

(٦) «غريب الحديث» للخطابي (٢/١٧٠)، و«خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد بن علي فقيهي ص (١٨).

قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يُقَلِّ (١) عندي، فقال عليه السلام لإنسان: «انظر أين هو؟» فجاء فقال: يا رسول الله؟ هو في المسجد راقداً، فجاء رسول الله عليه السلام وهو مضطجع وقد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل رسول الله عليه السلام يمسحه عنه ويقول: «قم أبا تراب» (٢)، ومن رواية البخاري: والله ما سماه إلا النبي (٣)، ومن كُناه: أبو الحسن والحسين وأبو القاسم الهاشمي (٤)، وأبو السبطين (٥).

٣- لقبه: أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين (٦).

ثانياً: مولده:

اختلفت الروايات وتعددت في تحديد سنة ولادته، فقد ذكر الحسن البصري أن ولادته قبل البعثة بخمس عشرة أو ست عشرة سنة (٧)، وذكر ابن إسحاق أن ولادته قبل البعثة بعشر سنين (٨)، ورجح ابن حجر قوله (٩)، وذكر الباقر محمد بن علي قولين: الأول: كالذي ذكره ابن إسحاق، ورجحه ابن حجر وهو أنه ولد قبل البعثة بعشر سنين (١٠)، وأما الثاني: فيذكر أنه ولد قبل البعثة بخمس سنين (١١)، وقد ملت إلى قول ابن حجر وابن إسحاق فيكون مولده على التحقيق قبل البعثة بعشر سنين (١٢)، وذكر الفاكهي (١٣)، بأن علياً أول من ولد من بني هاشم في جوف الكعبة، وأما الحاكم فقال: إن الأخبار تواترت بأن علياً ولد في جوف الكعبة (١٤).

- (١) من قال يقيل، فالقولولة: الظهيرة وتكون بمعنى النوم في الظهيرة، «اللسان» (٥٧٧/١١).
- (٢) «مسلم» في صحيحه رقم (٢٤٠٩). (٣) «البخاري» في صحيحه رقم (٤٤١)، (٣٧٠٣)، (٣٢٨٠).
- (٤) «البداية والنهاية» (٢٢٣/٧). (٥) «أسد الغابة» (١٦/٤)، والسبطين: الحسن والحسين.
- (٦) «تاريخ الإسلام» للذهبي ص (٣٧٦)، و«البداية والنهاية» (٧/٢٢٣)، و«خلاصة تهذيب الكمال» (٢/٢٥٠).
- (٧) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٤/١) رقم (١٦٣) بسند مرسل.
- (٨) «السيرة النبوية» (١/٢٦٢) دون إسناد. (٩) «الإصابة» (١/٢) (٥٠١) ترجمة علي.
- (١٠) «المعجم الكبير» للطبراني (١/٥٣) رقم (١٦٥) بسنده حسن.
- (١١) المصدر السابق (١/٥٣) رقم (١٦٦)، وإسناده حسن إلى محمد الباقر حيث أرسله.
- (١٢) «فتح الباري» (٧/١٧٤)، و«الإصابة» (٢/٥٠٧).
- (١٣) صاحب أخبار مكة، حقق الكتاب عبدالملك بن دهيش. (لا تصح من حيث الإسناد فهي ضعيفة).
- (١٤) «المستدرک علی الصحیحین» (٣/٤٨٣) دون إسناد. (رواية ضعيفة).

ثالثاً: الأسرة وأثرها في الأعقاب:

لقد دلَّ علم التشريح وهو دراسة التركيب الجسدي، وعلم النفس، وعلم الأخلاق، وعلم الاجتماع، على تأثير الدم والسلالات في أخلاق الأجيال وصلحياتها ومواهبها، وطاقتها، إلى حد معين، وفي أكثر الأحوال، وذلك من خلال ثلاث طرق:

(أ) القيم والمثل التي ما زال آباء هذه الأسرة وأجدادها يؤمنون بها أشد الإيمان ويحافظون عليها أو يحاولون أن يحافظوا عليها أشد المحافظة، ويتبنَّون بها ويمجدون ويعتبرون من سار عليها من أبناء الأسرة، ومن خالفها وحاد عنها شارداً غريباً، ويرون في ذلك غضاضة، وسقوط همة، وقلة مروءة، وعقوقاً للآباء وإساءة إليهم، لا تغتفر في قوانين هذه الأسرة العرفية المتوارثة.

(ب) حكايات الآباء وعظماء الأسرة في البطولة والفتوة والفروسية، والشهامة، والأنفة والإباء، والجود والسخاء، وحماية المظلومين والضعفاء، تتناقلها الأجيال وتتباهى بها، وذلك من سنٍّ مبكرة، ومن أيام الصبا إلى سنِّ الشباب والكهولة، فتؤثر في تكوين عقليتها ومشاعرها، وتعين المقاييس للعظمة والرجولة، والبرِّ بالآباء، وتبرير شهرة الأسرة والسلالة.

(ج) تأثير الدم الموروث في أعضاء الأسرة كإبراً عن كإبر، في أسرة حافظت على أنسابها وأصالتها، وذلك ما أيده علم السلالات (١)، وهذا ليس على إطلاقه، والقاعدة مطردة، لا تقبل استثناءً، ولا شذوذاً كالسنن الإلهية التي قال الله عنها: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣)، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ في قوله: «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» (٢)، وقوله ﷺ: «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» (٣)، وليس في ذلك من تقديس الدم الموروث الدائم، وتركز الرئاسة الدينية والزعامة الروحية العلمية في أسرة معينة، واحتكارها لقيادة أمة، دينياً وروحياً

(١) «المرتضى سيرة أمير المؤمنين»، لأبي الحسن الندوي ص (١٩-٢٠).

(٢) «مسند أحمد» (٥٣٩/٢) إسناده صحيح.

(٣) «مسلم»، كتاب الذكر والدعاء والتوبة.

وعلمياً بشكل دائم ، وهو الذي عانى منه العالم القديم — قبل الإسلام — فساداً اجتماعياً وخلقياً جارفاً ، واستبداداً فظيماً ، واستغلالاً مادياً شنيعاً ، تزخر به كتب التاريخ وشهادات المؤرخين للإمبراطوريتين الرومية والساسانية ، والمجتمعين الإغريقي والهندي (١) وغيرها من الجاهليات ، ولذلك يحسن بنا أن نشير إلي وضع الأسرة والسلالة - اللتين ولد ونشأ فيهما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه - العرقي والاجتماعي ، وما كانتا تمتازان به من خصائص وأعراف ، وتقاليد وتراث خلقي ونفسي ، وكيف كان العرب ينظرون إليهما ويقرون لهما بالفضل ، ونبدأ في ذلك بقريش ، ثم بني هاشم (٢) .

١- قبيلة قريش:

أقرّ العرب كلهم بعلو نسب قريش ، والسيادة ، وفصاحة اللغة ، ونصاعة البيان ، وكرم الأخلاق والشجاعة والفتوة ، وذهب ذلك مثلاً لا يقبل نقاشاً ولا جدلاً (٣) ، وكانوا حلفاء متآلفين متمسكين بكثير من شريعة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، ولم يكونوا كالأعراب الذين لا يوقرهم دين ، ولا يزينهم أدب ، وكانوا يحبون أولادهم ، ويحجون البيت وقيمون المناسك ، ويكفنون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة ، ويتبرؤون من الهرابرة (٤) ، ويتباعدون في المناكح من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت ، غيراً وبعداً من المجوسية ، ونزل القرآن بتأكيد صنيعهم وحسن اختيارهم ، وكانوا يتزوجون بالصدّاق والشهود ويطلقون ثلاثاً (٥) ، وما زاد شرفهم أنهم كانوا يتزوجون من أي قبيلة شاؤوا ، ولا شرط عليهم في ذلك ، ولا يزوجون أحداً حتى يشترطوا عليه ، أن يكون متحمساً (٦) على دينهم ، يرون ذلك لا يحل لهم ولا يجوز لشرفهم ، حتى يدان إليهم وينقاد (٧) .

(١) المرتضى «للندوي ص (٢٠) . (٢) فيما يتعلق بخصائص ومزايا العرب ، ينظر إلى : «السيرة النبوية» للندوي .

(٣) «السيرة النبوية» للندوي ص (٧٤) .

(٤) الهرابرة : قوام بيت النار ، فارسي معرب وقيل : عطاء الهند أو علماءهم .

(٥) «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» (١/٢٤٣) للألوسي . (٦) متحمساً : التحمس : التشدد في الدين .

(٧) «المرتضى» للندوي ص (٢٢) ، و«بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» (١/٢٤٣) .

٢- **بنو هاشم:** أما بنو هاشم فكانوا واسطة العقد في قريش، وإذا قرأنا ما حفظه التاريخ وكتب السيرة من أخبارهم وأقوالهم - وهو قليل من كثير جداً - استدللنا به على ما كان يمتاز به هؤلاء من مشاعر الإنسانية الكريمة، والاعتدال في كل شيء، ورجاحة العقل، وقوة الإيمان بما للبيت من مكانة عند الله، والبعد عن الظلم ومكابرة الحق، وعلو الهمة، والعطف على الضيف والمظلوم، والسخاء، والشجاعة، وما تشتمل عليه كلمة (الفروسية) عند العرب من معان كريمة وخلال حميدة، السيرة التي تليق بأجداد الرسول الكريم ﷺ، تتفق ويتفق مع ما كان يفضلُه ويدعو إليه من مكارم الأخلاق، غير أنهم عاشوا في زمن الفترة، وسايروا أبناء قومهم في عقائد الجاهلية، وعباداتها^(١) ولم يصل بنو هاشم إلى هذه المكانة في مجتمعهم إلا بالتضحية والعطاء والبذل وخدمة الناس.

٣- **عبدالمطلب بن هاشم:** جد الرسول ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولي عبدالمطلب بن هاشم السقاية والرفادة^(٢)، بعد عمّه المطلب، فأقامهما للناس، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم، وشرف في قومه شرقاً لم يبلغه أحدٌ من آبائه، وأحبّه قومه وعظم خطره فيهم^(٣).

ولم يكن عبدالمطلب أغنى رجل في قريش، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع، كما كان قصي؛ إذ كان في مكة رجال كانوا أكثر منه مالاً وسلطاناً إنما كان وجهه قومه؛ لأنه كان يتولى السقاية والرفادة، وبئر زمزم، فهي وجهة ذات صلة بالبيت^(٤) ويتجلى إيمان عبدالمطلب بأن لهذا البيت مكانة عند الله، وأنه حاميه ومانعه، وتتجلى نفسية سيد قريش السامية، وشخصيته القوية الشامخة في حديث دار بينه وبين أبرهة ملك الحبشة، وقد غزا مكة وأراد أن يهين البيت ويقضي على مكانته، وقد أصاب لعبد المطلب مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وقد أعظمه أبرهة

(١) «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» للألوسي (١/٢٤٣).

(٢) الرفادة: إطعام الحجاج في أيام الموسم حتى يتفرقوا.

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/١٤٢).

(٤) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، لجواد علي (٤/٧٨)، و«المرتضى» ص (٢٢).

ونزل له عن سيره فأجلسه معه، وسأله عن حاجته، فقال: حاجتي أنا أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك زهد فيه الملك وتفادته عينه، وقال: أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟! قال عبدالمطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه، قال: ما كان يمتنع مني، قال: أنت وذاك (١). وقد كان ما قاله عبدالمطلب، فحمني رب البيت بيته، وجعل كيد أبرهة وجيشه في تضليل، قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ٥-٣).

وكان عبدالمطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن ذنبيات الأمور (٢) ومات عبدالمطلب بعد أن جاوز الثمانين، وعُمر الرسول صلوات الله عليه ثماني سنين، ومعنى ذلك أنه توفي حوالي سنة ٥٧٨ للميلاد (٣)، وذكر أنه لم تقم بمكة سوق أياماً كثيرة لوفاة عبدالمطلب (٤).

٤. أبو طالب والد علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

كان أبو طالب لا مال له، وكان يحب ابن أخيه حباً شديداً، فإذا خرج أخذه معه، فقد كان أبو طالب هو الذي يلي أمر رسول الله صلوات الله عليه بعد جدّه، فكان إليه ومعه (٥)، وعندما أعلن رسول الله الدعوة إلى الله وصدع بها وقف أبو طالب بجانب رسول الله وصمم على مناصرته وعدم خذلانه، فاشتد ذلك على قريش غماً وحسداً ومكرراً، وإن المرء ليسمع عجباً ويقف مذهولاً أمام مروءة أبي طالب مع رسول الله، فقد ربط أبو طالب مصيره بمصير ابن أخيه محمد صلوات الله عليه، بل واستفاد من كونه زعيم بني هاشم أن ضم بني هاشم، وبني

(١) «سيرة ابن هشام» (٤٩/١)، و«المرتضى» ص (٢٣).

(٢) «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» (٣٢٤/١).

(٣) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٧٨/٤).

(٤) «أنساب الأشراف» للبلاذري (٧٨/١).

(٥) «المرتضى» ص (٢٤)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١٧٩/١).

المطلب إليه في حلف واحد على الحياة والموت، دفاعاً عن رسول الله ﷺ، مسلمهم ومشرِكهم على السواء (١)، وأجار ابن أخيه محمداً ﷺ إجارة مفتوحة لا تقبل التردد أو الإحجام، ولما رأى أبو طالب من قومه ما سره من جهدهم معه، وحدهم عليه، جعل يمدحهم ويذكر قديمهم، وفضل رسول الله فيهم، ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم وليحذبوا معه على أمره (٢) فقال:

إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ لِمَفْخَرٍ
فَعَبْدُ مَنْافٍ سِرُّهَا وَصَمِيمُهَا
وَإِنْ حُصِّلَتْ أَشْرَافُ عَبِيدِ مَنْافِهَا
فَفِي هَاشِمٍ أَشْرَافُهَا وَقَدِيمِهَا
وَإِنْ فَخَرَتْ يَوْمًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا
هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمِهَا
تَدَاعَتْ قُرَيْشٌ غَثًّا وَسَمِينِهَا
عَلَيْنَا فَلَمْ تَظْفَرْ وَطَاشَتْ حُلُومُهَا
وَكَنَّا قَدِيمًا لَا نُقَرُّ ظِلَامَةً
إِذَا مَا تَنُؤُوا صُعَرَ الْخُدُودِ نُقِيمُهَا

ولما خشى أبو طالب دهماء العرب أن يركبوه مع قومه، قال قصيدته التي تعود فيها بحرمة مكة، وبمكانه منها، وتودد فيها إلى أشرف قومه، وهو على ذلك يخبرهم في ذلك من شعره، أنه غير مسلم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه فقال:

وَمَا رَأَيْتَ الْقَوْمَ لَا وَدَّ فِيهِمْ
وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ

(١) «فقه السيرة النبوية» للغضبان ص (١٨٤).

(٢) «السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث» للصَّلابي (١٥٨/١).

وَقَدْ صَارْحُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى
 وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمُزَايِلِ
 وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظَنَّةً
 يَعُضُّونَ غَيْظًا خَلَفْنَا بِالْأَنَامِلِ
 صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةً
 وَأَبْيَضَ غَضَبٍ مِنْ تُرَاثِ الْمَقَاوِلِ
 وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي
 وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابِهِ بِالْوَصَائِلِ

وتعوذ بالبيت وبكل المقدسات التي فيه، وأقسم بالبيت بأنه لن يسلم محمداً ولو سالت الدماء أنهاراً، واشتدت المعارك مع بطون قريش:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتُ اللَّهِ نُبْزِي (١) مُحَمَّدًا
 وَلَمَّا نَطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ
 وَنُسَلِّمُهُ (٢) حَتَّى نَصْرَعَ حَوْلَهُ
 وَنَذْهَلَ عَنَّا أَبْنَانَنَا وَالْحَلَالِ (٣)
 وَيَنْهَضُ قَوْمٌ فِي الْحَدِيدِ إِلَيْكُمْ
 نُهُوضَ الرُّوَايَا تَحْتَ ذَاتِ الصَّلَاصِلِ (٤)

واستمر أبو طالب في مناصرة ابن أخيه واستطاع أن يغزو المجتمع القرشي بقصائده الضخمة التي هزت كيانه هزاً، ولما تغلغل الإسلام في قلوب أبناء بعض القبائل، اجتمعت قريش فآتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني

(١) نُبْزِي: أي نسلمه ونُغْلِبُ .

(٢) نُبْزِي: أي نسلمه ونُغْلِبُ .

(٣) الحلالل: الزوجات .

(٤) الصلاصل: المرادات لها صلصلة بالماء .

هاشم وبني المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يتاعوا منهم، وكتبوا صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة، وتواثقوا على ذلك، وانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه^(١)، وذلك في مُحَرَّم سنة سبع من النبوة، ومكث بنو هاشم على ذلك نحو ثلاث سنوات لا يصل إليهم شيء إلا سراً، ثم كان ما كان من أكل الأرضة للصحيفة، وإخبار النبي ﷺ أبا طالب بذلك، وتمزيق الصحيفة، وبطلان ما فيها^(٢)، ومات أبو طالب في النصف من شوال في السنة العاشرة من النبوة، وهو ابن بضع وثمانين سنة ولم يُسلم أبو طالب^(٣)، وهو العام الذي ماتت فيه خديجة زوج النبي ﷺ، وتتابع على رسول الله ﷺ المصائب، وسمي هذا العام بعام الحزن^(٤).

٥- أم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

هي الصحابية الجليلة السيدة الفاضلة فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي الهاشمية^(٥)، وهي أول هاشمية ولدت هاشمياً^(٦)، وقد حظيت برعاية النبي ﷺ حينما كفله عمه أبو طالب بناء على وصية أبيه عبد المطلب، فكانت له أما بعد أمّه، تقوم على شؤونه وترعى أموره ما استطاعت إلي ذلك سبيلاً، وقد قضى الحبيب المصطفى قرابة عقدين من حياته في كنفها، وقد استجابت لدعوة الإسلام وأصبحت من السابقات الأوليات وصارت من صفوة النساء ممن أخذن المكانة العليا في ساحة الفضيلة، وكانت رُوِيَ عنها مثلاً للرافة والرحمة في معاملة الزهراء رُوِيَ عنها؛ إذ كانت تقوم بمساعدتها برّاً بها وبوالدها ﷺ، وروي

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٣٥٠ - ٣٥١).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٧٣ - ٣٧٧)، و«المرتضى» ص (٢٦)، وقد فصلت ذلك في كتابي «السيرة النبوية».

(٣) «بلوغ الأرب» (١/ ٣٢٤).

(٤) «السيرة» لابن هشام (١/ ٤١٥ - ٤١٦)، و«المرتضى» ص (٢٦).

(٥) «نسب قریش» ص (٤٠)، و«فضائل الصحابة» (٢/ ٦٨٥).

(٦) «فضائل الصحابة» (٢/ ٦٨٥).

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: قلت لأبي: اكفي فاطمة بنت رسول الله سقاية الماء والذهب في الحاجة، وتكفيك هي الطحن والعجن (١)، كما أن صلته بالنبي عليه السلام أضافت إلى شخصيتها مكرمة حفظ الحديث وروايته، فقد روت عن النبي عليه السلام مجموعة من الأحاديث، وقد كانت لها مكانة كبرى عند رسول الله، وكان يخصها بالهدية، فقد أورد ابن حجر بالإصابة: أن علياً عليه السلام قال: أهدي إلى رسول الله عليه السلام حلة إستبرق فقال: «اجعلها خمراً بين الفواطم» (٢)، فشقتها أربعة أحمره، خمراً لفاطمة بنت رسول الله عليه السلام، وخمراً لفاطمة بنت أسد عليها السلام، وخمراً لفاطمة بنت حمزة عليها السلام، ولم يذكر الرابعة (٣).

ولقد كان حظ السيدة فاطمة مباركاً في حياتها وعند وفاتها، وحظيت بالتكريم؛ إذ توفيت في حياة الحبيب المصطفى عليه السلام (٤)، وأما ما روي عن أنس في دفنها فهو واهٍ ضعيف شديد الضعف ولا يتقوى من طرقه الأخرى التي جاءت؛ لأنها كلها ضعيفة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنها، دخل عليها رسول الله عليه السلام فجلس عند رأسها فقال: «رحمك الله يا أمي، كنت أمي بعد أمي، تجوعين وتشبعيني، وتعرين وتكسيني، وتمنعين نفسك طيباً وتطعميني، تريدن بذلك وجه الله والدار الآخرة»، ثم أمر أن تُغسَل ثلاثاً ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكب رسول الله عليه السلام بيده، ثم خلع رسول الله قميصه فألبسها إياه وكفنها ببرد فوقه، ثم دعا رسول الله عليه السلام أسامة بن زيد وأبا أيوب الأنصاري وعمر بن الخطاب رضي الله عنهم وغلاماً أسود يحفرون فحفروا قبرها، فلما بلغوا اللحد حفره رسول الله عليه السلام بيده وأخرج ترابه بيده، فلما فرغ دخل رسول الله فاضطجع فيه وقال: «الله الذي يحيي ويميت

(١) «مجمع الزوائد» (٣٥٦/٩) ورجال السنن رجال الصحيح.

(٢) «سنن ابن ماجه»، كتاب اللباس رقم (٣٥٩٦).

(٣) «الإصابة» (٢٧/٨) رقم (١١٥٩٣).

(٤) «أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» أحمد السيد ص (٢٤).

وهو حي لا يموت، اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين». وكبر عليها أربعاً وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر رضي الله عنهم (١).

وقد احتج من احتج (٢) بهذا الحديث على جواز التوسل بالذوات، وقد قام الأستاذ أبو عبدالرحمن جبلان بن خضر العروسي في رسالته لمرحلة الماجستير بتتبع طرق الحديث وبين ضعفها وبطلانها (٣)، ووضح أن الحديث قد روي من خمسة طرق، ثلاثة موصولة، ومرسلان فلم تخل واحدة منها من عدة علل فهو شديد الضعف، ومع هذا لم يرد التوسل المزعوم إلا في طريقة واحدة وهي طريق أنس، فهذه الأحاديث يمكن أن يعل بها الحديث؛ لأن الكل ضعيف فيعمل بعضه البعض ولا يزيدا إلا وهناً وضعفاً، وأما من ناحية المتن فهو منقوض من عدة وجوه:

- إن في هذا الحديث مبالغة وإطراء وتجاوزاً للمألوف في ذلك العهد النبوي.
- هذا الحديث يخالف هديه وسنته في غسل جنازة المرأة، وذلك في أمور منها:
- سكب يده الشريفة لم يرد إلا في هذه القصة، وأما الذي ورد في غسل بنته زينب أنه أمرهن بال غسل، ولم يسكب بنفسه، فقد روى البخاري ومسلم عن محمد بن سيرين عن أم عطية قالت: دخل علينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نغسل ابنته فقال: «اغسلنها ثلاثاً أو خمساً أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن في الآخرة كافوراً، فإذا فرغتن فأذنيني»، قالت: فلما فرغنا ألقى إلينا حقوه فقال: «أشعرنها إياه» ولم يزد على ذلك (٤).

(١) «السلسلة الضعيفة» للألباني (٣٢/١) رقم (٢٣).

(٢) السمهودي في «وفاء الوفاء» (١٣٧٣/٤)، والكوثري في «محق القول» ص (٣٧٩ ، ٣٩١)، والبوطي في «السلفية مرحلة» ص (١٥٥)، والعلوي في «مفاهيم» ص (٦٥)، نقلاً عن: «الدعاء ومنزلته من العقيدة»،

جبلان بن خضر.

(٣) «الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية» ص (٧٩٤ إلى ٧٩٨).

(٤) المصدر نفسه ص (٧٩٩).

— إن الحفر بيده وإخراجه التراب بيده والاضطجاع فيه كلها لم تعهد إلا في هذا الحديث الضعيف، مخالفاً هديه المشهور عنه وهو من المبالغة والإطراء.

— ثم لفظ الدعاء الذي بدأ بلفظة الغيبة ثم الخطاب بعيد عن الأسلوب المعهود في الدعوات المأثورات «اللهم أنت...» ولم نر في غير هذا الدعاء «الله الذي...».

— ومما يدل على ضعفه أن الراوي اعترف بأن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفعل هذه الأفعال إلا في هذه المرة، ولكنه أراد أن يبرر ذلك بما ذكره، وهيئات (١).

٦. إخوة علي بن أبي طالب رضي الله عنهم:

كان لأبي طالب أربعة أبناء، وهم: طالب، وهو الذي تكنى به، وعقيل، وجعفر، وعلي، وبتان هما: أم هانئ، وجمانة، وكلهم من فاطمة بنت أسد، وكان بين كل واحد منهم وبين أخيه عشر سنوات، فطالب كان أكبر من عقيل بعشر سنوات، وكذلك الشأن مع جعفر وعلي، فكان جعفر أكبر من علي بعشر سنوات (٢)، وهذه نبذة مختصرة عن إخوة علي رضي الله عنه:

(أ) **طالب بن أبي طالب:** هلك طالب مشركاً بعد غزوة بدر، وقيل: إنه ذهب فلم يرجع، ولم يُدر له موضع ولا خبر، وهو أحد الذين تاهوا في الأرض، وكان محباً لرسول الله صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وله فيه مدائح، وكان قد خرج إلى بدر كرهاً، وجرت بينه وبين قريش حين خرجوا إلى بدر محاوراة فقالوا: والله يابني هاشم لقد عرفنا — وإن خرجتم معنا — أن هواكم مع محمد، فرجع طالب إلى مكة مع من رجع، وقال شعراً وقصيدة ثناء على النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبكى فيها أصحاب قليب بدر (٣).

(ب) **عقيل بن أبي طالب:** كان يكنى أبا يزيد، تأخر إسلامه إلى عام الفتح،

(١) «الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية» ص (٧٩٤ إلى ٧٩٨).

(٢) «البداية والنهاية» (٧/٢٢٣)، و«المرتضى» ص (٢٦).

(٣) «الجوهرة في نسب النبي وأصحابه من المرتضى» للندوي ص (٢٣).

وقيل: أسلم بعد الحديبية، وهاجر في أول سنة ثمان، وكان أسر يوم بدر ففداه عمه العباس، وقع ذكره في الصحيح في مواضع، وشهد غزوة مؤتة، ولم يسمع له ذكر في الفتح وحنين، كأنه كان مريضاً، أشار إلي ذلك ابن سعد، لكن روى الزبير بن بكار بسنده إلي الحسن بن علي، أن عقيلاً كان ممن ثبت يوم حنين ومات في خلافة معاوية، وفي تاريخ البخاري الأصغر بسند صحيح أنه مات في أول خلافة يزيد قبل الحرة^(١)، وعمره ست وتسعون سنة^(٢).

(ج) جعفر بن أبي طالب: فهو أحد السابقين إلى الإسلام وكان يحب

المساكين ويجلس إليهم ويخدمونه يحدثهم ويحدثونه، وهاجر إلي الحبشة، فأسلم النجاشي ومن تبعه على يديه ولقد تحدثت عنه في كتابي السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، واستشهد بمؤتة من أرض الشام مقبلاً غير مدبر^(٣).

(د) أم هانئ بنت أبي طالب: ابنة عم النبي ﷺ فقيل: اسمها فاختة،

وقيل: اسمها فاطمة، وقيل: هند، والأول أشهر وكانت زوج هبيرة بن عمرو بن عائذ المخزومي وكان له منها عمرو، وبه كان يكنى وفي فتح مكة أجمعت أم هانئ رجلين من بني مخزوم، وقال لها رسول الله ﷺ: «أجرنا من أجمرت يا أم هانئ»، وروى أم هانئ عن النبي ﷺ في الكتب الستة وغيرها^(٤)، قال الترمذي وغيره: عاشت بعد علي رضي الله عنه^(٥).

(هـ) جمانة بنت أبي طالب: هي أم عبدالله بن أبي سفيان بن الحارث بن

عبدالمطلب ذكرها ابن سعد في ترجمة أمها فاطمة بنت أسد وأفردها في باب بنات عم النبي ﷺ، وقال: ولدت لأبي سفيان بن الحارث ابنه جعفر بن أبي سفيان، وأطعمها رسول الله من خبير ثلاثين وسقاً^(٦).

(٢) «المرتضى» للندوي ص(٢٤).

(٤) «المرتضى» ص(٢٧).

(١) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٢/٤٩٤).

(٣) «المرتضى» ص(٢٥).

(٥) «الإصابة في تمييز الصحابة» (٩/٣١٧، ٣١٨).

(٦) «الإصابة» (٤/٢٥٩-٢٦٠)، و«المرتضى» ص(٢٧).

٧. أزواجه وأولاده:

ولد له من فاطمة^(١) بنت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم : الحسن والحسين (وسياتي الحديث عنهم مفصلاً)، وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى، وولد له من خولة بنت جعفر ابن قيس ابن مسلمة، محمد الأكبر (محمد الحنفية)، وولد له من ليلى بنت مسعود ابن خالد من بني تميم، عبيد الله وأبوبكر، وولد له من أم البنين بنت حزام^(٢) ابن خالد بن جعفر بن ربيعة: العباس الأكبر، وعثمان، وجعفر الأكبر، وعبدالله، وولد له من أسماء بنت عميس الخثعمية: يحيى وعون^(٣) وولد له من الصهباء^(٤)، عمر الأكبر ورقية، وولد له من أمامة^(٥) بنت العاص بن الربيع، محمد الأوسط، وولد له من أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي، أم الحسن، ورملة الكبرى، وولد له من أمهات أولاد، محمد الأصغر، وأم هانئ وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة، ونفيسة، وولد له من حياة بنت امرئ القيس، ابنة هلكت وهي جارية. قال ابن سعد: لم يصح لنا من ولد علي رضي الله عنه غير هؤلاء^(٦)، وجميع ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه لصلبه أربعة عشر ذكراً، وتسع عشرة امرأة، وقيل: سبع عشرة امرأة، وكان النسل من ولده لخمسة، الحسن والحسين، ومحمد بن الحنفية، والعباس بن الكلابية، وعمر بن التغلبية^(٧)، وسياتي الحديث عن السيدة فاطمة وذريتها، الحسن والحسين، وأم كلثوم في ثنايا هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

(١) هي أول زوجة تزوجها علي بن أبي طالب، ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

(٢) «البداية والنهاية» (٣٣٢/٧)

(٣) المصدر نفسه (٣٣٢/٧).

(٤) وهي: أم حبيب بنت ربيعة بن بجير، من سبي عين التمر في عهد الصديق رضي الله عنه.

(٥) وأمها زينب بنت رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم.

(٦) «الطبقات الكبرى» (٢٠/٣).

(٧) «الطبقات» (١٩/٣، ٢٠)، و«البداية والنهاية» (٣٣١/٧ - ٣٣٣)، و«منهج علي بن أبي طالب في الدعوة

إلى الله» لسليمان العيد ص (٢٩، ٣٠، ٣١).

٨. صفاته الخلقية:

يقول ابن عبد البر رحمه الله: وأحسن ما رأيت في صفة عليٍّ رضي الله عنه أنه كان ربعةً من الرجال إلى القصر ما هو، أدعج العينين، حسن الوجه، كأنه القمر ليلة البدر حسناً، ضخم البطن، عريض المنكبين، شئن الكفَّين (عتداً) (١) أغيد، كأن عنقه إبريق فضة، أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه، كبير اللحية، لمنكبه مُشاش كمشاش السبع الضاري، لا يتبين عضده من ساعده، قد أدمجت دمجاً، إذا مشى تكفأً، وإذا مسك بذراع رجل أمسك بنفسه فلم يستطيع أن يتنفس، وهو إلى السمن ما هو، شديد الساعد واليد، وإذا مشى للحرب هرَّوك، ثبت الجنان، قويّ شجاع (٢).



(١) العتد: الشديد التام الخلق

(٢) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» (٣/١١٢٣).

المبحث الثاني

إسلامه وأهم أعماله في مكة قبل الهجرة

أولاً: إسلامه:

كان من نعمة الله عز وجل على علي بن أبي طالب عليه السلام وما وضع الله له، وأراد به من الخير أن قریشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للعباس عمه - وكان من أسير بني هاشم-: «يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد ترى ما أصاب الناس من هذه الأمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بيته واحداً وتأخذ واحداً، فنكفيهما عنه»، فقال العباس عليه السلام: نعم. . . فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما: إن تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرًا عليه السلام فضمه إليه، فلم يزل علي بن أبي طالب عليه السلام مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه علي، فأقر به وصدقّه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه (١).

ونلاحظ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد أن يرد الجميل والمعروف لعمه أبي طالب الذي كفله بعد وفاة جده عبدالمطلب، فكان هذا من أكبر نعم الله عز وجل على علي عليه السلام؛ إذ رباه وأدبه الذي أدبه الله عز وجل وحفظه وعصمه ورعاه والذي كان خلقه القرآن، فانعكس هذا الخلق القرآني على علي عليه السلام، وكفى بتربية النبي صلى الله عليه وآله وسلم تربية لعلي عليه السلام، فقد نشأ في بيت الإسلام، وتعرّف إلى أسراره في مرحلة مبكرة من حياته، وذلك قبل أن تتخطى الدعوة حدود البيت وتنطلق إلى البحث عن أنصار يشدّون أزرها، وينطلقون بها في دنيا الناس، ويخرجونهم من الظلمات إلى النور، ولقد اختلف العلماء فيمن آمن بعد السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، هل هو أبوبكر الصديق، أو علي عليه السلام، والذي أميل إليه من

(١) «السيرة النبوية» (١/٢٤٦) لابن هشام.

بين أقوال العلماء، أن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبوبكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، وهي أول من آمن على الإطلاق، ومن الموالي حارثة بن زيد رضوان الله عليهم^(١). وبهذا يكون أمير المؤمنين أول الصغار إسلاماً.

ثانياً: كيف أسلم علي؟

روى ابن إسحاق أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد إسلام خديجة رضي الله عنها، فوجدهما يصليان، فقال علي: ما هذا يا محمد؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده وإلى عبادته، وكفر باللات والعزى»، فقال له علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره، قبل أن يستعلن أمره، فقال له: «يا علي، إذا لم تسلم فاكتم»، فمكث علي تلك الليلة. ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى جاءه فقال: ما عرضت علي يا محمد؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد»، ففعل علي وأسلم، ومكث علي يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم علي إسلامه ولم يظهر به^(٢).

ثالثاً: بين علي رضي الله عنه وأبي طالب:

قال ابن إسحاق: وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب، ومن جميع أعمامه وسائر قومه، يصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به، قال: «أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا

(١) «البداية والنهاية» (٣/٢٦-٢٨)، «الأوائل من الصحابة وذوو الفضل منهم والنجابة»، رضوان جامع ص(٢٣).

(٢) «البداية والنهاية» (٤/٣).

إبراهيم»، أو كما قال عليه السلام: «بعثني رسولاً إلى العباد وأنت - أي عم - أحق من بذلت له النصيحة، ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه». أو كما قال. فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك (١) بشيء تكرهه ما بقيت ذكروا أنه قال لعلي: أي بني، ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته، فزعموا أنه قال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه (٢).

رابعاً: هل كسر علي رضي الله عنه الأصنام مع رسول الله في مكة؟

عن علي رضي الله عنه، قال: انطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وسلم حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجلس» وصعد على منكبي، فذهبت لأنهض به، فرأى مني ضعفاً، فنزل، وجلس لي نبي الله صلى الله عليه وسلم وقال: «اصعد على منكبي». قال: فصعدت علي منكبيه، قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيل إليّ أنني لو شئت لزلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت، وعليه تمثال صُفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله، وبين يديه ومن خلفه، حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقذف به» فقذفت به فانكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت، فانطلقت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نستبق حتى توارينا بالبيوت، خشية أن يلقانا أحد من الناس (٣)، وهذا الحديث إسناده ضعيف، وبالتالي لا يمكن أن يبنى عليه حكم كما زعم بعض الناس، ويبقى الأصل الثابت في الفترة المكية، في منع النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة من استخدام القوة مع الخصوم، أو الاعتداء على أصنامهم وأوثانهم بالقوة، وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتطهير مكة في عام الفتح

(١) لا يخلص إليك: لا يصل إليك.

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٢٤٦)، و«المرتضى» ص(٣٥).

(٣) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٦٤٤) إسناده ضعيف، وصحح الحاكم إسناده واستدرك عليه الذهبي فقال: إسناده ضعيف ومته منكر، وقد قام أحمد ميرين البلوشي في رسالته التي حقق فيه خصائص أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، بالحكم على رجال السنن وحكم عليه بالضعف، «خصائص علي بن أبي طالب» ص (١٣٥، ١٣٦). وقد صحح الحديث أحمد شاكر (٢/٥٨).

من الأوثان وأرسل السرايا بعد ذلك الفتح العظيم لهدم ولتطهير الجزيرة العربية، من مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على إزالتها وإبطالها.

خامساً: هل دفن علي رضي الله عنه أبا طالب بإرشاد رسول الله؟

عن علي رضي الله عنه : أنه أتى النبي صلوات الله عليه فقال : إن أبا طالب مات . فقال له النبي صلوات الله عليه : «أذهب فواره» ، فقال : إنه مات مشركاً . فقال : «أذهب فواره» . قال : فلما واريته رجعت إلى النبي صلوات الله عليه ، فقال لي : «اغتسل»^(١) . وجاء في رواية : «أذهب فاغتسل ثم لا تحدث شيئاً حتى تأتيني» قال : فاغتسلت ثم أتيته قال : فدعا لي بدعوات ما يسرني أن لي بها حمر النعم وسودها . قال الراوي عبدالرحمن السلمي : وكان علي رضي الله عنه إذا غسل ميتاً اغتسل^(٢) .

سادساً: الحس الأمني عند علي رضي الله عنه ودوره في إيصال أبي ذر رضي الله عنه لرسول الله صلوات الله عليه :

إن من معالم المرحلة المكية، الكتمان والسرية، حتى عن أقرب الناس، وكانت الأوامر النبوية على وجوب المحافظة على السرية واضحة وصارمة، وقد قام علي رضي الله عنه بدور عظيم في أخذ أبي ذر إلي مقر رسول الله صلوات الله عليه فقد كان رضي الله عنه منكرًا لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام، وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلي لله قبل إسلامه، بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي صلوات الله عليه قدم إلى مكة، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه الليل، فاضطجع فرآه علي رضي الله عنه، فعرف أنه غريب، فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادر صباحاً إلي المسجد الحرام، فمكث حتى أمسى فرآه علي رضي الله عنه فاستضافه ليلية ثانية، وحدث مثل ذلك الليلة الثالثة، ثم سأله عن

(١) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٧٥٩) إسناده ضعيف، وفي الموسوعة تفصيل مفيد في الحكم على رجال السند.

(٢) «الصحيح المسند في فضائل الصحابة» ص (١١٨)، وقال مصطفى العدوي: حسن بمجموع طرقه، وجاء بشواهد للحديث.

سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الرسول صلوات الله عليه، فقال له علي: فإنه حق، وهو رسول الله، فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الرسول صلوات الله عليه، واستمع إلى قوله، فأسلم، فقال له النبي صلوات الله عليه: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري». فقال: والذي نفسي بيده لأصرخن بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثار القوم حتى أضجعوه فأتى العباس ابن عبدالمطلب، فحذروهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم، التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم^(١)، وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخاه؛ ليعلم له علم النبي صلوات الله عليه ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه، وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر، فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني^(٢) مما أردت، وعزم على الذهاب بنفسه لرسول الله صلوات الله عليه، فقال أخوه له: وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شنفوا له وتجهموا^(٣).

ومن الدروس والعبر والفوائد من هذه الحادثة:

١- التآني والتريث في الحصول على المعلومة: حيث حرص أبي ذر رضي الله عنه لما يعرفه من كراهية قريش لكل من يخاطب الرسول صلوات الله عليه، وهذا التآني تصرف أممي، تقتضيه حساسية الموقف، فلو سأله عنه لعلمت به قريش، وبالتالي قد يتعرض للأذى والطرده ويخسر الوصول إلى هدفه الذي من أجله ترك مضارب قومه وتحمل في سبيله مصاعب ومشاق السفر.

٢- الاحتياط والحذر قبل النطق بالمعلومة: حين سأل علي رضي الله عنه أبا ذر رضي الله عنه عن

(١) «صحيح البخاري» (فتح الباري) (١٧٣/٧).

(٢) ما شفيتني مما أردت: ما بلغتني غرضي وأزلت عني همي.

(٣) «مسلم» (١٩٢٣/٤) رقمه (٢٤٧٣)، و«صحيح السيرة النبوية» إبراهيم العلي ص (٨٣)، و«السيرة

النبوية الصحيحة» للعمري (١٤٥/١)، شنفوا له: أي أبغضوه.

أمره. وسبب مجيئه إلى مكة، ولم يخبره بالرغم من أنه استضافه ثلاثة أيام إمعانا في الحذر، فاشترط عليه قبل أن يخبره أن يكتم عنه، وفي الوقت ذاته أن يرشده، فهذا غاية في الاحتياط وتم ما أراده.

٣- التغطية الأمنية للتحرك: الاتفاق بين علي وأبي ذر رضي الله عنهما على إشارة، أو حركة معينة، كأنه يصلح نعله، أو كأنه يريق الماء، وذلك عندما يرى علي رضي الله عنه من يترصدهما أو يراقبهما، فهذه تغطية أمنية لتحركهم تجاه المقر (دار الأرقم)، هذا إلى جانب أن أبا ذر كان يسير على مسافة من علي، فيُعد هذا الموقف احتياطاً، وتحسباً لكل طارئ، قد يحدث أثناء الحركة.

٤- هذه الشارات الأمنية العابرة تدل على تفوق الصحابة رضي الله عنهم في الجوانب الأمنية: وعلى مدى توافر الحس الأمني لديهم، وتغلغله في نفوسهم، حتى أصبح سمة مميزة لكل تصرف من تصرفاتهم الخاصة والعامة، فأتت تحركاتهم منظمة ومدروسة، فما أحوجنا لمثل هذا الحس الذي كان عند الصحابة، بعد أن أصبح للأمن في عصرنا أهمية بالغة في زوال واستمرار الدول والحضارات، وضعف وقوة الأمم والشعوب، والجماعات والمؤسسات والمنظمات، وأصبحت له مدارسه الخاصة وتقنياته المتقدمة، وأساليبه ووسائله المتطورة، وأجهزته المستقلة، وميزانياته ذات الأرقام الكبيرة، وأضحت المعلومات عامة، والمعلومات الأمنية خاصة تباع بأغلى الأثمان، ويضحى في سبيل الحصول عليها بالنفس إذا لزم الأمر، وما دام الأمر كذلك فعلى المسلمين الاهتمام بالناحية الأمنية حتى لا تصبح قضايانا مستباحة للأعداء، وأسرارنا في متناول أيديهم^(١).

سابعاً: علي رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وآله في طوافه على القبائل وعرضه للدعوة عليها وحضوره المفاوضات مع بني شيبان:

عن أبان بن تغلب عن عكرمة عن ابن عباس: حدثني علي بن أبي طالب رضي الله عنه،

(١) «دروس في الكتمان»، لمحمود شيت خطاب ص (٩)، و«السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث» للصَّلابي (١٧١/١).

قال: لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه وأبوبكر إلى منى حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبوبكر رضي الله عنه فسلم، وكان أبوبكر مقدماً في كل خير، وكان رجلاً نسابه... إلي أن قال: ثم دفعنا إلي مجلس آخر، عليه السكينة والوقار، فتقدم أبوبكر فسلم فقال: من القوم؟ قالوا: شيبان بن ثعلبة، فالتفت أبوبكر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: بأبي وأمي، هؤلاء غرر الناس، وفيهم مفروق قد غلبهم لساناً وجمالاً، وكانت له غدیرتان تسقطان على تربيتيه، وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر، فقال أبوبكر: كيف العدد فيكم؟ فقال مفروق: إنا لنزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة، فقال أبوبكر: وكيف المنعة فيكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يدينا مرة، ويديل علينا مرة أخرى، لعلك أخو قريش؟ فقال أبوبكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فما هو ذا. فقال مفروق: إلام تدعوننا يا أخا قريش؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني عبد الله ورسوله، وإلى أن تؤووني وتنصروني؛ فإن قريشاً قد تظاهرت على الله، وكذبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد»، فقال مفروق: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا، فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (الأنعام: ١٥١).

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك، وظاهروا عليك، ثم رد الأمر إلى هانيء بن قبيصة فقال: وهذا هانيء شيخنا، وصاحب ديننا، فقال هانيء: قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش، وإني أرى تركنا ديننا، واتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا، لا أول له، ولا آخر، لذل في الرأي، وقلة نظر في العاقبة، إن الزلة مع العجلة، وإنا نكره أن نعقد على

من وراءنا عقداً، ولكن نرجع وترجع، وننظر، ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة، فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا، فقال المثنى - وأسلم بعد ذلك - : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش، والجواب فيه جواب هاني بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك، وإنا إنما نزلنا بين صريين، أحدهما اليمامة، والآخر السّمامة، فقال له رسول الله ﷺ : «ما هذان الصريان»، قال: أنهار كسرى، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذنا علينا كسرى ألا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً، وإنني أرى هذا الأمر الذي تدعوننا إليه يا أخا قريش مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك ونصرك مما يلي مياه العرب، فعلنا، فقال رسول الله ﷺ : «ما أسأتم في الرد، إذا أفصحتم بالصدق، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، أريتم إن تلبثوا إلا قليلاً، حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم، ويفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟»، فقال النعمان ابن شريك: اللهم فلك ذاك^(١). وهذا الحدث فيه دروس وعبر وفوائد تعلمها علي ابن أبي طالب رضي الله عنه منها:

١- تعلم علي رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رفض أن يعطي القوى المستعدة لتقديم نصرتها، أية ضمانات بأن يكون لأشخاصهم شيء من الحكم والسلطان على سبيل الثمن، أو المكافأة لما يقدمونه من نصره وتأييد للدعوة الإسلامية؛ وذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما هي دعوة إلى الله، فالشرط الأساسي فيمن يؤمن بها ويستعد لنصرتها أن يكون الإخلاص لله، ونشدان رضاه هما الغاية التي يسعى إليها من النصره والتضحية، وليس طمعاً في نفوذ أو رغبة في سلطان؛ وذلك لأن الغاية التي يضعها الإنسان للشيء هي التي تكيف نشاط الإنسان في السعي إليه، فلا بد إذن، من أن تتجرد الغاية المستهدفة من وراء نصره الدعوة، عن أي مصلحة مادية لضمان دوام التأييد لها، وضمان المحافظة عليها من أي انحراف،

(١) «البداية والنهاية» (٣/١٤٢، ١٤٣، ١٤٥)، والبيهقي «دلائل النبوة» إسناده حسن، ونقل عنه ابن كثير.

وضمن أقصى ما يمكن من بذل الدعم لها، وتقديم التضحيات في سبيلها^(١)، فيجب على كل من يريد أن يلتزم بالجماعة التي تدعو إلى الله ألا يشترط عليها منصباً، أو عرضاً من أعراض الدنيا؛ لأن هذه الدعوة لله، والأمر لله يضعه حيث يشاء والداخل في أمر الدعوة إنما يريد ابتداء وجه الله، والعمل من أجل رفع رايته، أما إذا كان المنصب هو همه الشاغل فهذه علامة خطيرة تنبئ عن دخن في نية صاحبها^(٢)، لذا قال يحيى ابن معاذ الرازي: لا يفلح من شملت منه رائحة الرياسة^(٣).

٢- وتعلم علي رضي الله عنه من رسول الله أن صفة النصر التي كان يطلبها رسول الله لدعوته من زعماء القبائل يجب أن تكون غير مرتبطة بمعاهدات دولية، تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها؛ وذلك لأن احتضانهم للدعوة والحالة هذه يُعرضها لخطر القضاء عليها، من قبل الدول التي بينهم وبينها تلك المعاهدات والتي تجد في الدعوة الإسلامية خطراً عليها، وتهديداً لمصالحها^(٤)، إن الحماية المشروطة أو الجزئية لا تحقق الهدف المقصود، فلن يخوض بنو شيبان حرباً ضد كسرى، لو أراد القبض على رسول الله صلوات الله عليه وسلم وتسليمه، ولن يخوضوا حرباً ضد كسرى لو أراد مهاجمة رسول الله صلوات الله عليه وسلم وأتباعه، وبذلك فشلت المباحثات^(٥).

٣- إن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه، كان هذا الرد من النبي صلوات الله عليه وسلم على المثنى بن حارثة، حين عرض على النبي صلوات الله عليه وسلم حمايته على مياه العرب، دون مياه الفرس، فمن يسبر أغوار السياسة البعيدة، يَرَبَعُ النظر الإسلامي النبوي الذي لا يسامى^(٦).

٤ - لمس علي رضي الله عنه أثر الإسلام على المثنى وقومه بعد أن أسلموا، وكيف

(١) «الجهاد والقتال في السياسة الشرعية» (١/٤٢١).

(٢) «وقفات تربوية من السيرة النبوية»، لعبد الحميد البلالي ص (٧٢)

(٤) «الجهاد والقتال في السياسة الشرعية» (١/٤٢١).

(٦) المصدر نفسه ص ٦٤.

(٥) «التحالف السياسي في الإسلام»، منير الغضبان ص (٥٣).

(٣) «صفة الصفة» (٤/٩٤).

تحملت قبيلة بني شيبان عبء مواجهة الفرس، وكان المثني بن حارثة - فيما بعد - من قاده فتح العراق في عهد الصديق رضي الله عنه، فقد أكسبهم الإيمان بهذا الدين جرأة على قتال الفرس .

هذه بعض المفاهيم والدروس والعبر التي استفادها علي رضي الله عنه من رسول الله صلوات الله عليه عند مفاوضاته لزعماء بني شيبان .

ثامناً: تقديمه نفسه فداءً للنبي صلوات الله عليه:

عندما اجتمعت قبيلة قريش في دار الندوة، وأجمعوا على قتل النبي صلوات الله عليه والتخلص منه، أعلم الله نبيه صلوات الله عليه بذلك، وكان النبي صلوات الله عليه أحكم خلق الله، فأراد أن يبقى من أراد قتله ينظر إلى فراشه ينتظرونه يخرج عليهم، فأمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام في فراشه تلك الليلة، ومن يجروء على البقاء في فراش رسول الله صلوات الله عليه والأعداء قد أحاطوا بالبيت يترصدون به ليقتلوه؟ من يفعل هذا ويستطيع البقاء في هذا البيت وهو يعلم أن الأعداء لا يفرقون بينه وبين رسول الله صلوات الله عليه في مضجعه؟ إنه لا يفعل ذلك إلا أبطال الرجال وشجعانهم بفضل الله (١) - تعالى - وقد أمره النبي صلوات الله عليه أن يقيم بمكة أياماً حتى يؤدي أمانة الودائع والوصايا التي كانت عنده إلى أصحابها من أعدائه كاملة غير منقوصة، وهذا من أعظم العدل، وأداء الأمانة (٢)، وقد جاء في رواية: أن رسول الله قال له: «نم علي فراشي، وتسحَّ ببردِي هذا الحضرميِّ، فم فيه؛ فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم» (٣)، وقال ابن حجر، وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب قال: فرقد علي على فراش رسول الله يوارى عنه، وباتت قريش تختلف، وتآمر، أيهم يهجم على صاحب الفراش فيوثقه، حتى أصبحوا فإذا هم بعلي، فسألوه، فقال: لا علم لي، فعلموا أنه قد فر (٤)، وعن ابن عباس: إن علياً قد شرى نفسه تلك الليلة حين لبس

(١) «الحكمة في الدعوة إلى الله» للقحطاني ص (٢٣٥).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٢٢/٣)، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص (١٦٦).

(٣) السيرة لابن هشام (٩١/٢)، و«فتح الباري» (٢٣٦/٧).

(٤) «فتح الباري» (٢٣٦/٧).

ثوب النبي، ثم نام مكانه (١)، وفي علي وإخوانه من الصحابة المجاهدين الذين يتغون الله والدار الآخرة نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

وفي هذا الموقف دروس وعبر وفوائد منها:

١- إن خطة الهجرة، كما رسمها رسول الله صلوات الله عليه كانت تتطلب أن يأخذ مكانه في البيت رجل تشغل حركته داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركي قريش وتخدعهم بعض الوقت عن مخرج رسول الله صلوات الله عليه؛ حتى يكون وصاحبه أبوبكر قد جاوزا منطقة الخطر (٢).

٢- في تلبية علي رضي الله عنه لأمر النبي صلوات الله عليه مثال للجندي الصادق، المخلص لدعوة الإسلام؛ حيث فدى قائده بحياته، ففي سلامة القائد سلامة للدعوة وفي هلاكه خذلانها، ووهنها، فما فعله علي رضي الله عنه ليلة الهجرة من بيته على فراش الرسول صلوات الله عليه يعتبر تضحية غالية؛ إذ كان من المحتمل أن تهوي سيوف فتيان قريش على رأس علي رضي الله عنه، ولكن علياً رضي الله عنه لم يبال بذلك، فحسبه أن يسلم رسول الله نبي الأمة، وقائد الدعوة (٣).

٣- في إيداع المشركين ودائعهم عند رسول الله صلوات الله عليه مع محاربتهم له، وتصميمهم على قتله، دليل باهر على تناقضهم العجيب الذين كانوا واقعين فيه، ففي الوقت الذي كانوا يكذبونه، ويزعمون أنه ساحر، أو مجنون، أو كذاب، لم يكونوا يجدون فيمن حولهم من هو خير منه أمانة وصدقاً، فكانوا لا يضعون حوائجهم، ولا أموالهم التي يخافون عليها إلا عنده، وهذا يدل على أن كفرانهم لم يكن بسبب الشك لديهم في صدقه، وإنما بسبب تكبرهم واستعلائهم على الحق، الذي جاء به، وخوفاً على زعامتهم وطغيانهم (٤)، وصدق الله العظيم:

(١) «فضائل الصحابة» رقم (١١٦٨)، إسناده حسن.

(٢) «خلفاء الرسول صلوات الله عليه» (٣٩٦)، و«العشرة المبشرون بالجنة» لمحمد صالح.

(٤) «فقه السيرة» للبوطي ص (١٥٣).

(٣) «السيرة النبوية» للسباعي ص (٣٤٥).

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٢).

٤- وفي أمر الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه بتأدية هذه الأمانات لأصحابها في مكة، على الرغم من هذه الظروف الشديدة التي كان من المفروض أن يكتنفها الاضطراب، بحيث لا يتجه التفكير إلا إلى إنجاح خطة هجرته فقط، على الرغم من ذلك فإن الرسول ﷺ ما كان لينسى أو ينشغل عن رد الأمانات إلى أهلها، حتى ولو كان في أصعب الظروف التي تنسي الإنسان نفسه فضلاً عن غيره^(١)، فقد أبى أن يخون من ائتمنه ولو كان عدواً يحرص عليه، ويؤذيه؛ لأن خيانة الأمانة من صفات المنافقين، ويتنزه عنها المؤمنون^(٢).

٥- هذا الحدث العظيم فيه دلالة قاطعة على شجاعة علي رضي الله عنه؛ فإنه يعلم وهو يقوم بتنفيذ ما أمر به أنه معرض لخطر عظيم فقد يقتحمون عليه داره ويقتلونهم دون أن يتشبثوا من هويته، وقد يباغتونهم وهو خارج في الصباح من غير أن يتبينوا من هو والقوم يتربصون به طول الليل يترقبون هذه اللحظة وقد بلغ منهم الجهد كل مبلغ فأصبحوا غير قادرين على التأكد من شخصية الخارج من الدار أهو محمد ﷺ أم هو رجل آخر؟، لا بد أن ذلك كله قد دار في عقل علي ولكنه بادر وسعد بالتنفيذ فهو أولاً: يحب الله ورسوله حباً ملك عليه قلبه جعل سلامة رسول الله ﷺ هدفه الأسمى ولو كلفه ذلك التضحية بحياته. ثانياً: هي عملية لا بد منها لكي يخرج الرسول سالماً من تدبير الأعداء حتى يتمكن من نشر الإسلام في كل مكان فالأمر إذن يتعلق بمصلحة الإسلام أولاً وثانياً، وقد نام علي رضي الله عنه في فراش رسول الله ﷺ وسلم مع كل هذه التوقعات وهذا دليل على عمق إيمانه بقضاء الله وقدره فهو بحق مؤمن بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١). وإنما لنلمح في اختيار رسول الله لعلي -ليقوم بهذا الدور الخطير- ثقة

(١) «الهجرة في القرآن الكريم» ص (٣٦٤). (٢) «جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين» ص (٤٢٣).

تامة لا تعدلها ثقة، واطمئناناً إلى قدرات خاصة امتاز بها علي قد لا تتوفر في غيره؛ فإنه لم يتردد حين دعاه الرسول لينام على فراشه، وهو يعلم أنه ليس وراء ذلك إلا الموت الذي أعد له المشركون أشجع فتیان قريش ولم يسمح لنفسه أن يفكر في العاقبة؛ لأنه يعلم أنه حين يكون فداء لرسول الله ينال بذلك شرفاً لا يناله بغير هذا الطريق^(١).

تاسعاً: هجرته:

لما أصبح قام علي رضي الله عنه عن فراشه، فعرفه القوم وتأكدوا من نجاة رسول الله صلوات الله عليه وآله فقالوا لعلي: أين صاحبك؟ قال: لا أدري أو رقيباً كنت عليه، أمرتموه بالخروج فخرج. وضاق القوم بتلك الإجابة الجريئة وغاظهم خروج رسول الله من بين أظهرهم، وقد عموا عنه فلم يروه، فانتهروا علياً وضربوه، وأخذوه إلى المسجد فحبسوه هناك ساعة، ثم تركوه^(٢)، وتحمل علي ما نزل به في سبيل الله وكان فرحه بنجاة رسول الله أعظم عنده من كل أذى نزل به ولم يضعف ولم يخبر عن مكان رسول الله صلوات الله عليه وآله، وانطلق علي في مكة يجوب شوارعها باحثاً عن أصحاب الودائع التي خلفه رسول الله من أجلها وردها إلى أصحابها وظل يرد هذه الأمانات حتى برئت فيها ذمة رسول الله صلوات الله عليه وآله، وهناك تأهب للخروج ليلحق برسول الله بعد ثلاث ليال قضاهن في مكة^(٣).

وكان علي في أثناء هجرته يكمن بالنهار فإذا جن عليه الليل سار حتى قدم المدينة، وقد تفتطرت قدماه^(٤)، وهكذا يكون علي رضي الله عنه، قد لاقى في هجرته من الشدة، فلم تكن له راحلة يمتطيها ولم يستطع السير في النهار لشدة حرارة الشمس وفي مشي الليل مافيه من الظلمة المفجعة والوحدة المفزعة، ولو أضفنا

(١) «جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين» ص (٤٢٦).

(٢) «تاريخ الطبري» (٣٧٤/٢).

(٣) المصدر نفسه (٣٨٢/٢)، و«البدية والنهاية» (٣٣٥/٧)، و«جولة تاريخية» ص (٤٢٤).

(٤) «الكامل» (١٠٦/٢).

إلى ذلك أنه رضي الله عنه قد قطع الطريق على قدميه دون أن يكون معه رفيق يؤنسه؛ لعلمنا مقدار ما تحمله من قسوة الطريق ووعثاء السفر وآلام الوحدة، وقد سهل عليه تلك العقبات والمصاعب شعوره بأنه يعمل ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وأنه في نهاية المطاف سيلحق برسول الله، ويستمتع بجواره آمناً مطمئناً في المدينة، ولم يكد علي يقطع الطريق ويصل إلى المدينة حتى نزل في بني عمرو ابن عوف على كلثوم بن الهدم؛ حيث كان ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)، وهكذا كانت هجرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه تضحية وفداءً وتحملاً وصبراً وشجاعة وإقداماً.

وقد لاحظ سيدنا علي مدة إقامته بقاء امرأة مسلمة لا زوج لها، ورأى إنساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئاً معه، فتأخذه، ولنستمع إليه رضي الله عنه وهو يحدثنا بالقصة حيث قال: فاستربت بشأته، فقلت لها: يا أمة الله، من هذا الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو؟ وأنت امرأة مسلمة، لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، قد عرف أنني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها، ثم جاءني بها، فقال: احتطبي بهذا، فكان علي رضي الله عنه يَأْثُرُ ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق (٢). ونلاحظ صفة النباهة واليقظة التي لا بد للمسلم أن يتحلى بها ولا يكون غافلاً عما يدور حوله.



(١) «الطبقات الكبرى» (٢٢/٣)، و«السيرة النبوية» لابن هشام (١٢٩/٢)، وذكره ابن إسحاق بدون إسناد،

و«جولة تاريخية» ص (٤٢٥).

(٢) «محمد رسول الله»، لصديق عرجون (٤٢١/٢).

المبحث الثالث

معايشة أمير المؤمنين علي للقرآن الكريم وأثرها عليه في حياته

أولاً: تصوره عن الله والكون والحياة والجنة والنار والقضاء والقدر:

كان المنهج التربوي الذي تربي عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو نفسه الذي خضع له كل الخلفاء الراشدين، والصحابة الكرام، فقد تربوا على القرآن الكريم، وكان المربي سيد الخلق أجمعين محمد صلوات الله عليه، فقد حرص الحبيب المصطفى على توحيد مصدر التلقي وتفرد، وأن يكون القرآن الكريم وحده هو المنهج، مع ما يوحى إليه المولى عز وجل من الحكمة، ولقد تربي الفرد المسلم، والأسرة المسلمة والجماعة المسلمة على العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه ولقد كانت للآيات الكريمة التي سمعها علي من رسول الله مباشرة أثرها في صياغة شخصيته الإسلامية، فقد طهرت قلبه، وزكت نفسه، ونورت عقله، وتفاعلت معها روحه، فتحول إلى إنسان جديد بقيمه ومشاعره وأهدافه وسلوكه وتطلعاته^(١).

فقد عرف علي رضي الله عنه من خلال القرآن الكريم والتربية النبوية الراشدة من هو الإله الذي يجب أن يعبد، وكان النبي صلوات الله عليه يغرس في نفسه معاني تلك الآيات العظيمة، فقد حرص صلوات الله عليه على أن يربي أصحابه على التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم، مدرِّكاً أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عندما تصفى النفوس، وتستقيم الفطرة، فأصبحت نظرة علي رضي الله عنه إلى الله والكون والحياة والجنة والنار، والقضاء والقدر، وحقيقة الإنسان، وصراعه مع الشيطان مستمدة من القرآن الكريم وهدى النبي صلوات الله عليه.

فالله سبحانه وتعالى منزّه عن النقائص موصوف بالكمالات التي لا تنتهى فهو «واحد لا شريك له ولم يتخذ صاحبة ولا ولد». وأنه سبحانه خالق كل

(١) «السيرة النبوية» للصلابي (١/١٤٥).

شيء ومالكة ومدبره: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وأنه تعالى مصدر كل نعمة في هذا الوجود دقت أو عظمت، ظهرت أو خفيت ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (النحل: ٥٣).

وأن علمه محيط بكل شيء فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ولا ما يخفى الإنسان وما يعلن، وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨).

وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون وما يهونون ليعرف الناس معادتهم، ومن منهم يرضى بقضاء الله وقدره، ويسلم له ظاهراً وباطناً، فيكون جديراً بالخلافة والإمامة والسيادة، ومن منهم يغضب ويسخط فلا يساوي شيئاً، ولا يسند إليه شيء ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢).

وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه، ولاذ بحماه ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر: ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٦). وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه ويوحدوه فلا يشركوا به شيئاً ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٦). وأنه وحده المستحق للعبادة وهذا حق الله على العباد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٨).

وأنه سبحانه حدد مضمون هذه العبودية، وهذا التوحيد في القرآن الكريم (١).
وأما نظرته للكون فقد استمدتها من قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِي

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلْسَانَيْنِ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزِينَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿فصلت: ٩-١٢﴾.

وأما هذه الحياة مهما طالت فهي إلى زوال، وأن متاعها مهما عظم فإنه قليل حقير. قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦) وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿الكهف: ٤٦-٤٧﴾، فعرف الله تعالى الإنسان المسلم حقيقة الحياة وأنها ليست دار كرامة وأن الآخرة خير وأبقى وهي تهدي من تمكن حب الله ورسوله في قلبه على أن يقدم رضى الله ورسوله على ما سواه ولو كان الثمن الدنيا وما فيها، وقد عبر عن هذه الحقيقة أمير المؤمنين علي عندما قال: «يا دنيا غري غيري، إلي تعرضت أم إلي تشوقت هيهات هيهات، قد باينتك ثلاثًا لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق» (١).

وأما نظرتة إلى الجنة فقد استمدها من خلال الآيات الكريمة التي وصفتها فأصبح حاله بمن قال الله فيهم: ﴿تَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿السجدة: ١٦-١٧﴾.

وأما تصوره للنار فقد استمده من القرآن الكريم، فأصبح هذا التصور رادعًا له في حياته عن أي انحراف عن شريعة الله، فيرى المتتبع لسيرة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عمق استيعابه لفقته القدوم على الله عز وجل، وشدة خوفه من عذاب الله وعقابه، وستضح كثيرًا من هذه المعالم في هذا الكتاب بإذن الله تعالى.

وأما مفهوم القضاء والقدر فقد استمده من كتاب الله وتعليم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم،

فقد رسخ مفهوم القضاء والقدر في قلبه، واستوعب مراتبه من كتاب الله تعالى، فكان على يقين بأن علم الله محيط بكل شيء ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)، وأن الله قد كتب كل شيء كائن ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (يس: ١٢). وأن مشيئة الله نافذة وقدرته تامة ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر: ٤٤). وأن الله خالق لكل شيء ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

وقد ترتب على الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ في قلبه لحقيقة القضاء والقدر، ثمار نافعة ومفيدة، ظهرت في حياته وسنراها بإذن الله تعالى في هذا الكتاب، وعرف من خلال القرآن الكريم حقيقة نفسه وبناء الإنسان، وأن حقيقة الإنسان ترجع إلى أصلين: الأصل البعيد وهو الخلقة الأولى من طين، حين سواه ونفخ فيه الروح، والأصل القريب وهو خلقه من نطفة^(١)، فقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٩٧). وعرف أن هذا الإنسان خلقه الله بيده، وأكرمه بالصورة الحسنة والقامة المعتدلة، ومنحه العقل والنطق والتمييز، وسخر الله له ما في السماء والأرض، وفضله على كثير من خلقه، وكرمه بإرساله الرسل له، وأن من أروع مظاهر تكريم المولى عز وجل للإنسان أن جعله أهلاً لحبه ورضاه ويكون ذلك باتباع النبي ﷺ الذي دعا الناس إلى الإسلام لكي يحيوا حياة طيبة في الدنيا ويظفروا بالنعيم المقيم في الآخرة قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧).

(١) «أصول التربية» للنحلوي (ص ٣١).

وعرف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حقيقة الصراع بين الإنسان والشيطان وأن هذا العدو يأتي للإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، يوسوس له بالمعصية، يستثير فيه كوامن الشهوات، فكان مستعيناً بالله على عدوه إبليس منتصراً عليه في حياته، كما سترى في سيرته، وتعلم من قصة آدم مع الشيطان في القرآن الكريم، أن آدم هو أصل البشر، وأن جوهر الإسلام الطاعة المطلقة لله، وأن الإنسان له قابلية للوقوع في الخطيئة، وتعلم من خطيئة آدم ضرورة توكل المسلم على ربه، وأهمية التوبة والاستغفار في حياة المؤمن، وضرورة الاحتراز من الحسد والكبر وتقديم مرضاة الله سبحانه وتعالى على كل ما سواه وأهمية التخاطب بأحسن الكلام مع إخوانه من الصحابة، قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (الإسراء: ٥٣). وسار على منهج رسول الله في تزكية أصحابه لأرواحهم، وتطهير قلوبهم بأنواع العبادات، وتربيتهم على التخلق بأخلاق القرآن الكريم.

ثانياً: مكانة القرآن الكريم عنده:

عاش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حياته مع القرآن تلاوة وحفظاً وفهماً وعملاً، وكان يقول: من قرأ القرآن، فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً^(١)، وكان يقول: طوبى لهؤلاء كانوا أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢)، وكان يقول: ما كنت أرى أحداً يعقل ينام قبل أن يقرأ الآيات الثلاثة الأواخر من سورة البقرة^(٣) أي أهل القرآن، وقال يصف القرآن الكريم ويبين عظيم قدره في القرآن الكريم: كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو الحبل المتين وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن، ولا تنقضى عجائبه، ولا يشبع منه

(١) «المستطرف» (٢٩/١)، «فرائد الكلام» ص (٣٧٥).

(٢) «البيان في آداب حملة القرآن» (ص١٤٦)، و«فرائد الكلام» ص (٣٩٠).

(٣) «البيان في آداب حملة القرآن» ص (٢٦٦)، و«فرائد الكلام» ص (٣٨٧).

العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم^(١). ولشدة اهتمام أمير المؤمنين علي بالقرآن حصل على علم كبير به وبعلمه، فقد روي عنه أنه قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً صادقاً ناطقاً^(٢)، وقد قال رضي الله عنه: سلوني عن كتاب الله؛ فإنه ليس من آية إلا وقد عرفت بليل نزلت أم نهار، في سهل أم في جبل^(٣)، ويرى ابن عبد البر أن علياً رضي الله عنه: كان ممن جمع القرآن الكريم على عهد رسول الله وهو حي^(٤)، وقد قال في آخر عهده: سلوني قبل أن تفقدوني^(٥)، وكان ذلك عندما مات أكثر علماء الصحابة، وكان رضي الله عنه بالعراق، فكان من حرصه على تعليم الناس القرآن الكريم والهدي النبوي الشريف في قوم كثر فيهم الجهل ولا يعرفون الكثير من أحكام الدين، فكان رضي الله عنه يحرص على تعليمهم وإرشادهم للحق، فقد كان أعلم أهل زمانه وهذا نموذج للعالم الرباني الذي يحرص على تعليم الناس الخير وتربيتهم عليه.

ثالثاً: ما نزل فيه من القرآن الكريم:

كان القرآن الكريم ينزل على رسول الله يعالج أحداثاً واقعية حصلت في المجتمع النبوي الكريم فيثني على عمل ما، ويشيد بأقوام، ويحذر من آخرين، وينبه على بعض الأخطاء، وقد نزلت بعض الآيات التي خلدت بعض المآثر لأمر المؤمنين وبعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين:

١- منها قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٦) يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ

(١) «فضائل القرآن» لابن كثير ص (١٥)، و«موقف على أمير المؤمنين علي».

(٢) «الطبقات» لابن سعد (٢/٣٣٨)، و«تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص (١٥٢).

(٣) «الصواعق المحرقة» (٢/٣٧٥)، و«الطبقات» (٢/٣٣٨).

(٤) «الاستيعاب» (٣/١١٣٠)، وجمع القرآن الكريم أي: حفظه عن ظهر قلب.

(٥) «منهاج السنة» (٨/٥٧ - ٥٨).

الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿الحج: ١٩-٢٣﴾ . روى البخاري بسنده عن علي ابن أبي طالب أنه قال : أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة . وقال قيس ابن عبادة فيهم نزلت : هذان خصمان اختصموا في ربهم قال : هم الذين تبارزوا يوم بدر ، حمزة وعلي وأبو عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة (١) .

٢- وهو أحد من نزل فيهم قول الله تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران: ٦١) .

وذلك في وفد نجران حينما جادلهم النبي صلی الله علیه وسلم في عيسى بن مريم ، وأنه عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى أمه الطاهرة ، فأنجبته ، وكذبهم في أنه الله وابن الله أو ثالث ثلاثة ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، فدعاهم إلى المباهلة ، فعن عامر ابن سعد بن أبي وقاص ، قال : ولما نزلت : ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله علياً ، وفاطمة ، وحسناً وحسيناً رضي الله عنهم فقال : «اللهم هؤلاء أهلي» (٢) .

٣- موافقة القرآن له في كون الجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام : ففي الصحيح ، أن رجلاً قال : لا أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ، فقال علي ابن أبي طالب : الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا كله ، فقال عمر بن الخطاب ، لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلی الله علیه وسلم ، ولكن إذا قضيت الصلاة سألته عن ذلك ، فسأله ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ

رَبَّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿التوبة: ١٩-٢٢﴾. فبين لهم أن الإيمان والجهاد أفضل من عمارة المسجد الحرام والحج والعمرة والطواف ومن الإحسان إلى الحجاج (١).

٤- شفقتة على أمة محمد ﷺ: عن علي رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾ (المجادلة: ١٢). قال النبي ﷺ لعلي: «مرهم أن يتصدقوا» قال: يا رسول الله، بكم؟ قال: «بدينار»، قال: لا يطيقونه قال: «بنصف دينار». قال: لا يطيقونه، قال: «فبكم؟» قال: «بشعيرة» (٢)، قال: فقال النبي ﷺ لعلي: «إنك لزهيد»، قال: فأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (المجادلة: ١٣). قال: فكان علي يقول: فبي خفف الله عن هذه الأمة (٣).

رابعاً: تبليغه تفسير رسول الله ﷺ لبعض آيات القرآن الكريم:

استفاد علي رضي الله عنه من تفسير رسول الله ﷺ، وبلغ ما تعلم من رسول الله للناس، وإليك بعض الأمثلة على ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ﴾ عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢). قال: «شكركم: أنكم تكذبون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا» (٤).

(ب) فكل ميسر لما خلق له: عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعده وقعدنا حوله، ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد، وما من نفس منفوسة إلا وقد كتب

(٢) بشعيرة: وزن شعيرة من ذهب.

(١) «الفتاوى» (١٦٦/٨).

(٣) رواه الترمذي رقم (٣٢٩٧)، وقال: حسن غريب، وضعفه الألباني في «ضعيف موارد الظمان» إلى «زوائد ابن حبان» ص (١٢٧-١٢٨).

(٤) «مسند الموسوعة الحديثية» رقم (٨٤٩) حسن لغيره.

الله مكانها من الجنة والنار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: «اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فسييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فسييسرون إلى عمل أهل الشقاوة» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل: ٥-١٠) (١)، وفي رواية: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة سيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة سيصير إلى عمل أهل الشقاوة (٢).

وفي رواية في الصحيحين عن علي قال: كان رسول الله صلوات الله عليه ذات يوم وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار». فقالوا يا رسول الله، فلم نعمل، أولا نتكل؟ قال: «لا! اعملوا، فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (٣) (الليل: ٥-١٠). فقد أخبر النبي صلوات الله عليه في هذه الأحاديث وغيرها بما دل عليه القرآن الكريم من أن الله - سبحانه وتعالى - تقدم علمه وكتابه وقضاؤه بما سيصير إليه العباد من السعادة والشقاوة، كما تقدم علمه وكتابه بغير ذلك من أحوال العباد وغيرهم (٤)، وقد بين النبي صلوات الله عليه أن ذلك لا ينافي وجود الأعمال التي بها تكون السعادة والشقاوة، وإن من كان من أهل السعادة فإنه ييسر لعمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فإنه ييسر لعمل أهل الشقاوة، وقد نهى أن يتكل الإنسان على القدر السابق ويدع العمل، ولهذا كان من اتكل على القدر السابق وترك ما أمر به من الأعمال هو من الأخرسين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وكان تركهم لما يجب عليهم من العمل من جملة المقدور الذي

(٢) «البخاري» رقم (٦٦٠٥).

(٤) «الفتاوى» (١٦٦/٨).

(١) «البخاري» رقم (١٣٦٢).

(٣) المصدر نفسه رقم (٦٦٠٥)، و«الفتاوى» (١٦٥/٨).

يسروا به لعمل أهل الشقاوة، فإن أهل السعادة هم الذين يعملون المأمور ويتركون المحذور، فمن ترك العمل الواجب الذي أمر به وفعل المحذور متكللاً على القدر، كان من جملة أهل الشقاوة والميسرين لعمل أهل الشقاوة، وهذا الجواب الذي أجاب به النبي ﷺ وتعلمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحاب النبي ﷺ في غاية السداد والاستقامة (١).

خامساً: الأصول والأسس التي سار عليها أمير المؤمنين علي في استنباط الأحكام من القرآن الكريم وفهم معانيه:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على مبلغ كبير من العلم بالقرآن وعلومه، وقد جعله هذا العلم بالقرآن الكريم يعتقد أن القرآن فيه جميع الأحكام الشرعية إما صراحة أو ضمناً، فكان يقول بصدد ذلك: «إن الله لم يك نسياً» (٢)، ولذلك كان كثيراً ما يحتج بالقرآن ويتلو الآية التي يستند إليها لبيان الحكم الشرعي، وكانت طريقته في الاستنباط كالاتي:

١. الالتزام بظاهر القرآن الكريم:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يلتزم أحياناً بظاهر القرآن الكريم حين لا يرى قرينة تقتضي صرفه عن ظاهره؛ فإنه كان يتوضأ لكل صلاة ويقرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ (٣) (المائدة: ٦)؛ لأن ظاهرها يدل على الوضوء عند إرادة الصلاة كل مرة، وأوجب الصوم على المقيم إذا أدركه الصوم ثم سافر، فقال: من أدركه الصوم وهو مقيم ثم سافر بعد، لزمه الصوم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (٤) (البقرة: ١٨٥)، ورأى عدم تحريم إرضاع الكبير؛ لأنه ليس ضمن حولي الرضاعة، استناداً إلى ظاهر آية الرضاعة؛ حيث روي عنه أنه قال: في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ (البقرة: ٢٣٣)، الرضاعة

(٢، ١) «مصنف عبدالرزاق» رقم (١٧٤٤).

(٤) «فقه الإمام علي» (١/٤٥).

(٣) «تفسير القرطبي» (٢/٨٠).

سنتان فما كان من رضاع في الحولين حرم وما كان بعد الحولين فلا يحرم^(١)، وحمل ظاهر القرآن الكريم على ظاهره في مكان آخر حيث حكم ببراءة امرأة اتهمت بالزنا؛ لأنها ولدت بعد ستة أشهر من زواجها، فجمع بين قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٢) الاحقاف: ١٥. فقال: الحمل ستة أشهر والفصل أربعة وعشرون شهراً^(٣)، أي أنه طرح مدة الرضاعة وهي السنتان من مجموع مدة الرضاعة والحمل وهي ثلاثون شهراً فبقيت ستة أشهر، فجمع بين ظاهر كِلْتَا الآيتين وحكم بهما^(٤).

٢- حمل المجمل على المفسر:

المجمل: هو ما خفي مراده بحيث لا يدرك إلا ببيان يرجى^(٥)، والمفسر: هو ما ظهر المراد منه دون الحاجة إلى بيان^(٦)، وقد حمل علي مجمل القرآن في قوله تعالى: ﴿هَدِيًّا بِالْبَالِغِ الْكَعْبَةِ﴾^(٧) (المائدة: ٩٦). على مفسره في مواضع أخرى، حيث ورد أنه سأل رجل علياً عن الهدى مما هو؟. فقال: من الثمانية أزواج، فكأن الرجل شك، فقال له علي: أتقرأ القرآن؟ قال: نعم، قال: فهل سمعت الله يقول: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَةَ الْأَنْعَامِ﴾^(٨) (المائدة: ١). قال: نعم، قال: فهل سمعته يقول: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بِهِمَةِ الْأَنْعَامِ﴾^(٩) (الحج: ٢٨). وقال: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾^(١٠) (الأنعام: ١٤٢). قال: فسمعت الله يقول: ﴿مِنَ الصَّانَاتَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِزَاتَيْنِ قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أُمَّ الْأُنثِيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَيْنِ نَبُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١١) (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿هَدِيًّا بِالْبَالِغِ الْكَعْبَةِ﴾^(١٢) (المائدة: ٩٦). فقال الرجل نعم، قال: فقتلت طيباً فماذا علي؟ قال: هديا بالغ الكعبة^(١٣).

(٢) «مصنف عبدالرزاق» ١٢٤٤٣، و«فقه الإمام علي» (٤١/١).

(١) «المجموع» للنووي (٢١٣/٨).

(٤) «مرآة الأصول في شرح مرقاة الوصول» ص (١٩٧).

(٣) «فقه الإمام علي» (٤٦/١).

(٦) «الدر المأثور» (١٩٣/٣).

(٥) المصدر نفسه ص (١٩١).

٣. حمل المطلق على المقيد في القرآن الكريم:

المطلق: هو ما دل على الماهية بلا قيد، والمقيد: هو ما قيد لفظاً بأي قيد^(١). ولقد حمل أمير المؤمنين علي مطلق القرآن على مقيده في استنباط الحكم؛ إذ حمل مطلق الأمر بالقطع في آية السرقة على مقيده في آية المحاربة؛ بعدم القطع إلا مرتين، وعدم قطع أكثر من يد ورجل عند تكرار السرقة، فإذا سرق مرة قطعت يده اليمنى، وإذا سرق أخرى قطعت رجله اليسرى عند علي، فإن زاد وسرق مرة ثالثة ورابعة لم يزد على ذلك، ويعزره بدل القطع؛ لأنه حمل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة: ٣٨). على آية المحاربة ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٣٣). وقال: إن الله لم يزد على قطع يد ورجل في آية المحاربة، ولذلك كان يعاقب مثل هذا بالسجن^(٢). فعن الشعبي قال: كان علي لا يقطع إلا اليد والرجل، وإن سرق بعد ذلك سجن ونكل وإنه كان يقول: إني لأستحي من الله ألا أدع له يداً يأكل بها ويستنجي^(٣).

٤. العلم بالناسخ والمنسوخ:

النسخ: هو رفع الحكم الشرعي بخطاب متأخر عنه^(٤)، ويقول الزركشي: قال الأئمة: ولا يجوز لأحد أن يفسر كتاب الله؛ إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ^(٥)، وعلى هذا المعنى يؤكد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك عندما عاتب قاصاً بقوله: أتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت^(٦).

(١) «جمع الجوامع بشرح المحلى» (٧٩/٢)، و«فقه الإمام علي» (٤٧/١).

(٢) «فقه الإمام علي» (٤٧/١)، و«مصنف عبدالرزاق» (٢١٨٧٤).

(٣) «مصنف عبدالرزاق» (١٨٧٦٤)، و«فقه الإمام علي» (٨١٨/٢).

(٤) «فقه الإمام علي» (٤٨/١). (٥) «البرهان في علوم القرآن» (٢٩/٢).

(٦) أبو خيثمة، كتاب العلم (ص ٣١)، تحقيق: الألباني، وقال: إسناده صحيح.

٥. النظر في لغة العرب:

ومن منهج أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في فهم القرآن الكريم النظر في لغة العرب، كما فهم من قوله تعالى: ﴿وَالْمَطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، أي أن المراد بالأقراء: الحيض، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة^(١)، لذا قال علي رضي الله عنه عن المطلقة: لا تحل لزوجها الرجعة عليها حتى تغتسل من الحيضة الثالثة^(٢)، والقُرُوءُ في كلام العرب جمع قرء: وهو الحيض، والقرء أيضاً: الطهر، وأقرأت المرأة: حاضت، وأقرأت: أطهرت^(٣).

ومن ذلك فهمه رضي الله عنه من قوله تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ اللمس: هو الجماع، فقد قال: اللمس هو الجماع، ولكن الله كنى عنه^(٤)، وحمل المس في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ (البقرة: ٢٣٧). على الخلوة، فقال: المراد بالمس هنا الخلوة^(٥)، فأوجب الصداق كله بالخلوة^(٦)، وقد قال: إذا أرخى سترًا على امرأته، وأغلق بابًا؛ وجب الصداق والعدة^(٧).

٦. فهم النص بنص آخر:

ومن ذلك ما فهمه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من قوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (النساء: ١٤١). أن ذلك يكون يوم القيامة، اعتمادًا على قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (النساء: ١٤١). وذلك لما جاءه رجل يسأله كيف هذه الآية ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾، فقال علي رضي الله عنه: «ادنه، ادنه، فالله يحكم بينكم يوم القيامة، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلًا»^(٨)، ومنه ما فهمه من قوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ

(٢) «الدر المنثور» (١/٢٣٤).

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٢٧١).

(٣) «الصحاح» للجوهري (١/٦٤) مادة (قرأ).

(٤) «فقه الإمام علي» (١/٤٨)، و«الفصول في الأصول» للجصاص (١/٢٠٣).

(٥) «الفصول في الأصول» (١/٢٠٢).

(٦) «فقه الإمام علي» (١/٤٨) أي: خلوة الرجل بزوجه.

(٧) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤/٢٣٤)، و«فقه الإمام علي» (٢/٥٣١).

(٨) «تفسير ابن جرير»، وإسناده صحيح (٩/٣٢٧).

المَرْفُوعُ ﴿الطور: ٥﴾؛ بأنه السماء، لما رواه ابن جرير وذكره ابن كثير عن علي ﴿وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ﴾ يعني: السماء قال سفيان: ثم تلا ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٢).

ومن ذلك أيضاً ما فهمه من قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨). أن الصلاة الوسطى: هي صلاة العصر، معتمداً في ذلك على نص من حديث رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم، وقبورهم ناراً»^(١)، ومن هذا الباب أيضاً ما ورد في فهمه لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١). فعن سهل بن أبي خيثمة عن أبيه قال: إني لفي هذا المسجد - مسجد الكوفة - وعلي ﷺ يخطب الناس على المنبر يقول: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، الْكَبَائِرُ سَبْعٌ، فَأَصَاخُ النَّاسِ، فَأَعَادَهَا ثَلَاثَ مَرَاتٍ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ لَا تَسْأَلُونِي عَنْهَا؟. قالوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا هِيَ؟ قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ، وَقَذْفُ الْمَحْصَنَةِ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالْفِرَارُ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَالتَّعْرِبُ^(٢) بَعْدَ الْهَجْرَةِ^(٣)، وَهَذَا الْفَهْمُ مَبْنِيٌّ عَلَى حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي قَالَ فِيهِ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُبِيقَاتِ»^(٤). قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمَحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»^(٥). وهذا يدخل ضمن منهج أمير المؤمنين علي ﷺ في تفسير القرآن الكريم بالسنة.

٧. السؤال عن مشكله:

ومن منهج أمير المؤمنين علي ﷺ في فهم القرآن الكريم سؤاله عما أشكل

(١) «المسلم» (٤٣٧/١).

الفيء، ووجب عليه الجهاد، خلع ذلك من عنقه، فرجع أعرابياً كما كان.

(٣) التفسير الطبري «(٢٥/٥).

(٤) الموبقات: جمع موبقة وهي: المهلكة.

(٥) «البخاري»، كتاب الوصايا رقم (٢٧٦٦).

عليه فيه، ومن ذلك سؤاله لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر في قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ... الآية﴾ (التوبة: ٣). فقد قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال: «يوم النحر»^(١)، وبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذا المنهج فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: قلت: يا رسول الله، إن نزل بنا أمر ليس فيه بيان أمر ونهي، فما تأمرنا؟ قال: «شاوروا الفقهاء والعابدين، ولا تمضوا فيه خاصة»^(٢).

٨. العلم بمناسبة الآيات:

إن العلم بالمناسبة التي نزلت فيها الآيات، والسبب الداعي لذلك، يفيد في إدراك معنى الآية، واستنباط الحكم منها؛ لأن بيان النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز^(٣)، ولقد بلغ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه مبلغًا في العلم بأسباب نزول الآيات، كما يقول عن نفسه حاثًا على سؤاله عن كتاب الله: سلوني سلوني وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله، ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار^(٤)، وفي رواية: والله ما أنزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأين نزلت^(٥).

٩. تخصيص العام:

العام: هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بوضع واحد دفعة واحدة من غير حصر^(٦)، وقاعدة العموم، كل لفظ عام باق على عمومته حتى يرد التخصيص^(٧)، وقد يرد من الشارع ما يدل على قصر العام على بعض أفرادها، وهذا هو تخصيص العام^(٨).

وقد ورد عن علي رضي الله عنه ما يفيد قوله بتخصيص العموم، فقد سئل رضي الله عنه عن

(١) «سنن الترمذي» رقم (٩٧٠)، وصححه الألباني (٢٨٢/١).

(٢) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٦٦)، و«منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٧٨).

(٣) «منهج علي بن أبي طالب» ص (٧٩). (٤) «الإصابة» (٢/٥٠٩).

(٥) «الطبقات» (٢/٣٣٨). (٦) «تيسير علم أصول الفقه»، عبد الله الجديع ص (٢٦٢).

(٧) المصدر نفسه ص (٢٦٩).

رجل له أمتان أختان وطئ إحداهما، ثم أراد أن يطأ الأخرى قال: لا.. حتى يخرجهما من ملكه^(١)، وعن ابن الكوَّاء أنه سأل علياً: عن الجمع بين الأختين فقال: حرمتها آية، وأحلتها آية أخرى، ولست أفعل أنا ولا أهلي^(٢)، وقصد أمير المؤمنين علي بالآية التي حرمتها هي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ (النساء: ٢٣)، وبالتي أحلتها هي قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ (المؤمنون: ٦)، فهاتان الآيتان بينهما عموم وخصوص؛ إذ خصص عموم التمتع بملك اليمين بخصوص عدم جواز الجمع بين الأختين^(٣).

ومنها أنه حكم في عدة الحامل المتوفى عنها زوجها بأن تعتد أبعد الأجلين، فقال: عدتها أبعد الأجلين^(٤)، أي: أنه خص عموم الآيتين ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤). و﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤)، فالحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حملها قبل أربعة أشهر وعشرة أيام؛ فإنها تكمل المدة، ولا تعمل بعموم الآية الثانية؛ لأنها تخصصها الأولى وإن أكملت المدة فلا تنقض عدتها إلا بوضع الحمل؛ لأن عموم الآية الأولى مخصص بالثانية، فكل من الآيتين عام في وجه، وخاص في وجه آخر، تخصص إحداهما الأخرى عند علي، ولعله عمل بالاحتياط جمعاً بين الآيتين^(٥)، ولكن الراجح أن عدتها وضع الحمل في كلتا الحالتين، فقد صح عن عبدالله بن عتبة أن سبيعة بنت الحارث أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدرًا، فتوفى عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل، فقال: لها مالي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله

(١) «فقه الإمام علي» (١/ ٥٦٠) نقلًا عن مصنف ابن أبي شيبة.

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٥٦٠).

(٣) «الأحكام» للآمدني (٢/ ٤٤٥)، و«روضه الناظر» (٢/ ١٢٩).

(٥) «فقه الإمام علي» (١/ ٥٠).

(٤) «الفصول في الأصول» للجصاص (٦/ ١٠٦).

عَنْ صلى الله عليه فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي (١).

ولعل علياً قال بذلك؛ لعدم بلوغه حديث سبيعة وإلا فلا يخالف علي الصحيح الثابت عن النبي صلى الله عليه (٢).

١٠. معرفة عادات العرب ومن حولهم:

ولمعرفة طبيعة وعادات العرب ومن حولهم من اليهود والنصارى وقت نزول القرآن دور كبير في فهم القرآن الكريم، وعلي صلى الله عليه عاش في ذلك الزمان، وعرف الكثير من العادات التي نهى عنها القرآن، أو تلك التي أقرها ومن أمثلة هذا الفهم ما رواه ابن أبي حاتم: لما نافر ابن وائل أبا الفرزدق، فعقر كل واحد منهما مائة من الإبل، فخرج عليٌّ على بغلة رسول الله صلى الله عليه البيضاء وهو ينادي: يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها؛ فإنها أهل بها لغير الله، فعلي صلى الله عليه عرف من عادات العرب في وقته أن مثل هذه المنافرة ليست لله وإنما هي للشيطان، فلذلك نهى عنها مستدلاً بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (المائدة: ٣) (٣).

١١. قوة الفهم وسعة الإدراك:

وقوة الفهم وسعة الإدراك من المزايا التي امتاز واشتهر بها علي صلى الله عليه، والأمثلة التي تدل على هذا كثيرة جداً نذكر منها ما رواه ابن جرير قال: نادى رجل من الخوارج علياً صلى الله عليه وهو في صلاة الفجر، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥)، فأجابه علي صلى الله عليه وهو في الصلاة ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم: ٦٠) (٤).

(٢) «فقه الإمام علي» (٢/٦١٧).

(١) «مسلم» رقم (١٤٨٤).

(٣) «تفسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»، فهد بن عبدالعزيز الفاضل، رسالة علمية جامعية لم تنشر (١/٣٠).

(٤) «تفسير الطبري» (٢١/٥٩).

هذه بعض الأصول والأسس التي سار عليها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في استنباط الأحكام من القرآن الكريم، وفهم معانيه، وهي ترشد محبيه وأبناء المسلمين المخلصين إلى كيفية التعامل مع كتاب الله سبحانه وتعالى.

سادسا: تفسير أمير المؤمنين علي لبعض الآيات الكريمة:

١. (الذاريات):

عن الثوري عن حبيب بن أبي صابت عن أبي الطفيل قال: سمعت ابن الكواء يسأل علي بن أبي طالب عن ﴿وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا﴾ قال: الرياح، وعن ﴿فَالْحَامِلَاتِ وُقُورًا﴾، قال: السحاب، وعن ﴿فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا﴾ قال: السفن، وعن ﴿فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة^(١)، وصححه الحاكم من وجه آخر عن أبي الطفيل. وقد أظن الطبري في تخريج طرقة إلى علي^(٢)، وأخرجه عبدالرزاق من وجه آخر عن أبي الطفيل قال: شهدت عليًا وهو يخطب وهو يقول: سلوني... وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل. فقال ابن الكواء - وأنا بينه وبين علي وهو خلفي - : ما الذاريات ذرؤًا؟ فذكر مثله، وقال فيه: ويملك سل تفقها ولا تسأل تعتنا وفيه سؤال عن أشياء غير هذا^(٣).

٢. قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُسِ﴾ (التكوير: ١٥):

روى سعيد بن منصور بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه قال: هن الكواكب تكنس بالليل وتخنس بالنهار فلا ترى^(٤).

٣. بكاء الأرض على العبد الصالح:

قال علي رضي الله عنه: إذا مات العبد الصالح بكى عليه مصلاه من الأرض ومصعد

(١) «الخلافة الراشدة»، ليحيى اليحيى (ص ٤٨٦).

(٢) «الدر المنثور» (٧/٦١٤)، و«المستدرک» (٢/٤٦٧)، و«تفسير الطبري» (٢٦/١٨٥ - ١٨٨).

(٣) «الخلافة الراشدة»، ليحيى اليحيى (٤٨٦).

(٤) «الخلافة الراشدة»، ليحيى اليحيى (٤٨٧)، و«الفتح» (٨/٥٦٣).

عمله من السماء والأرض، ثم قرأ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٩).

٤. الخشوع في القلب وأن تُلين كنفك للمرء المسلم:

سُئِلَ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٢). قال: الخشوع في القلب، وأن تُلين كنفك للمرء المسلم، ولا تلتفت في صلاتك (١).

٥. خليلان مؤمنان، وخليلان كافران:

سُئِلَ أمير المؤمنين رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧). قال: خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين، فبشر بالجنة فذكر خليله المؤمن، قال: فيقول: يا رب! إن خليلي فلاناً كان يأمرني بالخير وينهاني عن الشر، فيأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويخبرني أنني ملائكتك، فلا تُضلهُ بعدي واهده كما هداني، وأكرمه كما أكرمني، فإذا مات جمع بينهما في الجنة، ويقال لهما: ليشن كل واحد منهما على صاحبه فيقول: اللهم كان يأمرني بالخير، وينهاني عن الشر، فيأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويخبرني أنني ملائكتك، فنعم الأخ والخليل والصاحب، قال: ثم يموت أحد الكافرين، فيبشر بالنار فيذكر خليله، فيقول: اللهم خليلي فلان كان يأمرني بالشر، وينهاني عن الخير، ويأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويخبرني أنني غير ملائكتك اللهم فأضله كما أضلني، فإذا مات جمع بينهما في النار، فيقال: ليشن كل واحد منكما على صاحبه، قال: فيقول: اللهم كان يأمرني بالشر وينهاني عن الخير، ويأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويخبرني أنني غير ملائكتك، فبئس الأخ والخليل والصاحب (٢).

(١) «الزهد»، لابن المبارك ص (٤٠٣) رقم (١١٤٨).

(٢) «الزهد» لابن المبارك رقم (٣٦٨).

٦- الزهد بين كلمتين من القرآن:

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: الزهد كله بين كلمتين من القرآن الكريم: قال سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد: ٢٣). ومن لم يأس على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه (١).

٧- أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وتدبره في الصلاة:

بين أمير المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استحباب المصلي إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله - تعالى - منها وإذا مرة بآية عذاب أن يستعيذ بالله - تعالى - فعن عبد خير الهمداني قال: سمعت علي ابن أبي طالب قرأ في صلاة: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ﴾. فقال: سبحان ربي الأعلى (٢)، وعن حجر بن قيس المدري قال: بت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فسمعتة وهو يصلي من الليل يقرأ، فمر بهذه الآية: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ قال: بل أنت يا رب، ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ قال: بل أنت يا رب، ثلاثاً. ثم قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾. قال: بل أنت يا رب، ثلاثاً، ثم قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾، قال: بل أنت يا رب، ثلاثاً (٣).

٨- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ

سَلِيمٍ﴾ (الشعراء: ٨٨، ٨٩):

قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة وقد يجمعها الله لأقوام (٤).



(١) «رسالة المسترشدين» (ص ٢٢٤)، و«فرائد الكلام» (ص ٣٧٦).

(٢) «المحلى» (١١٨/٤)، و«السنن الصغرى» (١/١٤٦).

(٣) «الدر المنثور» للسيوطي (٢٢/٨، ٢٣).

(٤) «تفسير أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ»، لفهد بن عبدالعزيز الفاضل (٦٦١/٢) رسالة جامعية لم تنشر.

المبحث الرابع

ملازمته لرسول الله صلوات الله عليه

كان علي رضي الله عنه واحداً من المكيين الذين قرؤوا وكتبوا في مجتمعهم الأمي، وهذا دليل على حبه للعلم، وشغفه به منذ صغره، وقد وفقه الله -تعالى- إلى أن يعيش منذ طفولته في بيت رسول الله صلوات الله عليه فتربى على يديه، وزادت عناية رسول الله صلوات الله عليه به بعد إسلامه، فكان رسول الله صلوات الله عليه الرافد القوي الذي أثر في شخصيته، وصقل مواهبه، وفجر طاقته، وهذب نفسه، وطهر قلبه ونور عقله، وأحيا روحه؛ فقد لازم رسول الله صلوات الله عليه في مكة والمدينة، فقد كان حريصاً على التلمذ على يدي رسول الله صلوات الله عليه الذي كان يربي أصحابه على القرآن الكريم، فقد كان هو ينبوع المتدفق الذي استمد منه علي رضي الله عنه علمه وتربيته وثقافته، وقد كان النبي صلوات الله عليه، تنزل عليه الآيات منجمة على حسب الوقائع والأحداث، وكان يقرؤها على أصحابه الذين وقفوا على معانيها، وتعمقوا في فهمها، وتأثروا بمبادئها، وكان له عمق الأثر في نفوسهم وعقولهم وقلوبهم وأرواحهم، كما كان علي رضي الله عنه واحداً من الذين تأثروا بالتربية القرآنية على يدي رسول الله صلوات الله عليه، وتشرب تعاليمه وتوجيهاته النبوية، وقد اهتم علي رضي الله عنه منذ أسلم بحفظ القرآن الكريم وفهمه وتأمله، وظل ملازماً للرسول صلوات الله عليه يتلقى عنه ما أنزل عليه، حتى تم له حفظ جميع آياته وسوره، لقد حصل علي رضي الله عنه ببركة صحبته لرسول الله صلوات الله عليه وتربيته على يديه خيراً كثيراً، وأصبح من الخلفاء الراشدين فيما بعد، فقد حرص على التبحر في الهدى النبوي الكريم في غزواته وسلمه، وأصبح لعلي رضي الله عنه علماً واسعاً، ومعرفة غزيرة بالسنة النبوية المطهرة، فقد استمد من رسول الله صلوات الله عليه علماً وتربية ومعرفة بمقاصد هذا الدين العظيم، وقد جمع بين رسول الله صلوات الله عليه وبين علي رضي الله عنه حب شديد، والحب عمل هام في تهيئة مناخ علمي ممتاز بين المعلم وبين تلميذه، يأتي بخير النتائج العلمية، والثقافية؛ لما له من عطاء متجدد وعلي رضي الله عنه قد أحب رسول الله صلوات الله عليه حباً جماً، وتعلق فؤاده به، وقدم نفسه فداءً له، وتضحية في سبيل نشر دعوته.

أولاً: أمير المؤمنين ومقام النبوة:

أوجب الله سبحانه وتعالى على الثقلين -الإنس والجن- الذين أدركتهم رسالة النبي ﷺ ، أن يؤمنوا بالنبي ﷺ وبما جاء به ، كما شهدت بذلك نصوص الكتاب العزيز كما أكد الله وجوب الإيمان بنبيه بأن جعله مقترنا بالإيمان به سبحانه وتعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم منها: قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨) .

وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به؛ إلا كان من أصحاب النار» (١) ، وقد أجمعت الأمة على وجوب الإيمان بالنبي ﷺ ، كما أجمعت كذلك على أن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن فلم يؤمن به؛ استحق عقاب الله تعالى كما يستحقه أمثاله من الكافرين الذين بعث إليهم الرسول ، وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة وغيرهم (٢) .

وقد أعطى أمير المؤمنين علي رضيه الله عنه مقام النبوة حقه ، وأوضح معالمه بأقواله وأفعاله ، وكان يحرص على تعليم الناس ، وحثهم على الاقتداء برسول الله ﷺ في أقواله وأعماله وتقريراته ، ومن أقواله في هذا المعنى: واقتدوا بهدي نبيكم ﷺ ؛ فإنه أفضل الهدى ، واستنوا بسنته ؛ فإنها أفضل السنن (٣) .

١- وجوب طاعة النبي ﷺ ولزوم سنته والمحافظة عليها:

تربى أمير المؤمنين علي رضيه الله عنه على وجوب طاعة رسول الله ﷺ ، فهو ممن قرأ وحفظ وفهم قول الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠) ،

(٢) «حقوق النبي على أمته في ضوء الكتاب والسنة» (١/ ٧٢) .

(١) «مسلم» (٩٣/١) كتاب الإيمان .

(٣) «البداية والنهاية» (٧/ ٣١٩) .

فهذه الآية ضمن سلسلة من الآيات ربطت بين طاعة الله تبارك وتعالى وطاعة رسوله صلوات الله عليه وسلم ، فقد جعل الله طاعته وطاعة رسوله صلوات الله عليه وسلم شيئاً واحداً، وجعل الأمر بطاعة رسوله مندرجاً في الأمر بطاعته سبحانه، وفي ذلك بيان للعباد بأن طاعته سبحانه لا تتحقق إلا بطاعة الرسول صلوات الله عليه وسلم والآيات الواردة بهذا المعنى كثيرة^(١)، وقد تربى أمير المؤمنين على يدي رسول الله صلوات الله عليه وسلم وتعلم منه وجوب طاعته، وامثال أمره، واتباع ما جاء به، والسير على سنته، والاقتراء به في كل ما جاء به عن ربه عز وجل، وأحاديثه صلوات الله عليه وسلم في هذا المجال أعطت للأمة توجيهات عظيمة، متى ما ساروا عليها وامثلوها ما فيها واستناروا بها؛ فقد تحققت لهم سعادة الدارين وفازوا وأفلحوا بإذن الله تعالى، وقد امتازت الأحاديث في هذا الشأن بكثرتها، وتنوع عباراتها، وتعدد أساليبها، واشتمال بعضها على الأمثلة التي ضربها رسول الله صلوات الله عليه وسلم لأئمة في هذا الشأن، ومما لا شك فيه أن هذه المميزات زادت الأمر توكيداً وتوضيحاً وبيانياً، بحيث إنها لم تدع مجالاً لمتأول يأولها، أو محرف يغير معناها بهواه ورأيه الفاسد، وهذه الأحاديث على تنوع عباراتها وتعدد أساليبها، اتحدت جميعها في مضمون واحد وهو التأكيد على وجوب طاعته صلوات الله عليه وسلم ، واتباع ما جاء به والترغيب في ذلك، إضافة إلى التحذير من مخالفته، وتحريم معصيته، وبيان الوعيد الشديد في ذلك^(٢)، فمن هذه الأحاديث قوله صلوات الله عليه وسلم : «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي». قالوا: يارسول الله ومن أبي؟. قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبي»^(٣)، وطاعة الرسول صلوات الله عليه وسلم هي الانقياد لسنته، مع رفض قول كل من قال شيئاً في دين الله عز وجل بخلاف سنته، دون الاحتيال في دفع السنن بالتأويلات المضمحلة، والمخترعات الداحضة^(٤).

وقد كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من أحرص الصحابة على طاعة

(١) «حقوق النبي على أمته» (١٧٤/١).

(٢) «حقوق النبي على أمته» (٨٦/١).

(٣) «البخاري» رقم (٧٢٨٠).

(٤) «صحيح ابن حبان» (١٥٣/١).

رسول الله ﷺ ، فقد قال ﷺ : ما كنت لأدع سنة النبي ﷺ لقول أحد (١) ، وقال أيضا : ألا إني لست بنبي ولا يوحى إلي ولكني أعمل بكتاب الله وسنة محمد ﷺ ما استطعت ، وهو نموذج فريد بالتمسك بالسنة والالتزام بها والدعوة لها (٢) ، ومن هذا المفهوم والتصور الواضح لأهمية طاعة الرسول ﷺ واتباع سنته انطلقت أفعال أمير المؤمنين علي ﷺ ، وكان ﷺ يعتني بالسنة ويتحرى ويتثبت في روايتها وفي أخذها ﷺ ، فقد قال ﷺ : إذا حدثتكم عن رسول الله ، فلأن آخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه (٣) ، وقال ﷺ : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثا نفعني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيري استحلقتة ، فإذا حلف لي صدقته (٤) ، وكان أمير المؤمنين علي ﷺ يحارب ما يناقض الاتباع ، فقد قال ﷺ : لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه .

٢- حديث أمير المؤمنين علي ﷺ عن دلائل نبوة الرسول ﷺ :

بين أمير المؤمنين علي ﷺ بعضا من دلائل نبوة النبي ﷺ منها ما يلي :

(أ) بركة دعائه :

مرض علي ﷺ مرة فأتاه النبي ﷺ وهو يقول : اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني ، وإن كان متأخرا فأرفعني ، وإن كان البلاء فصبّرني . فقال له رسول الله ﷺ : ما قلت ؟ فأعاد عليه فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اشفه ، اللهم عافه » ، ثم قال : « قم » . فقامت ، فما عاد لي ذلك الوجع بعده (٥) ، وسيأتي الحديث بإذن الله تعالى عن دعاء رسول الله له في خير .

(ب) إخباره بما فتح الله على نبيه من أمور الغيب :

قال علي بن أبي طالب ﷺ : إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن آخر

(١) «فتح الباري» (٣/٤٢١) .

(٢) «الشفاء» للقاضي عياض (٢/٥٥٦) .

(٣) «فتح الباري» (٦/١٥٨) .

(٤) «مسند أحمد» (٢/١٥١) ، تحقيق أحمد شاكر ، وإسناده صحيح .

(٥) «سنن ابن ماجه» رقم (١٣٩٥) .

من السماء أحبُّ إليَّ من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة^(١) ، سمعت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وآله يقول : «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البرية، يرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة»^(٢) ، وسيأتي شرح هذا الحديث وغيره عند حديثنا عن الخوارج وموقف أمير المؤمنين علي منهم بإذن الله تعالى .

(ج) النصر بالرب:

ومن دلائل النبوة التي حدثنا بها علي رضي الله عنه ما رواه عن رسول الله صلَّى اللهُ عليه وآله ، حيث قال : «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء» ، فقلنا : يا رسول الله ، ما هو؟ قال : «نصرت بالرب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم»^(٣) .

د- خاتم النبوة:

وضح علي رضي الله عنه من جملة وصفه لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وآله وجود دلالة من أبرز الدلائل الحسية على نبوته صلَّى اللهُ عليه وآله حيث يقول : بين كتفيه خاتم النبوة^(٤) . وهذه العلامة كان أهل الكتاب يعرفونها له ، وهي شيء بارز أحمر عند كتفه الأيسر ، قدره إذا قلل قدر بيضة الحمامة ، وإذا كبر جمع اليد^(٥) .

(هـ) سلام الجبال على النبي صلَّى اللهُ عليه وآله:

أخبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن هذه الدلالة حيث قال :

(١) «منهج علي في الدعوة إلى الله» (ص ١١٧) ، و«فتح الباري» (١٥٨/٦) .
 (٢) «البخاري» ، كتاب المناقب (٢/٢٨١) والقوم المذكورون هم الخوارج الذين قاتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته وسيأتي الحديث عنهم بالتفصيل بإذن الله .
 (٣) «البخاري» رقم (٣٣٥) .
 (٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١/٥١٣) ، و«البخاري» ، كتاب المناقب .
 (٥) «فتح الباري» (٦/٥٦١ - ٥٦٣) .

كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل، ولا شجر، إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله (١).

٣- الترغيب في هدي النبي ﷺ:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يرغب المسلمين في لزوم هدي النبي ﷺ، فقد قال في خطبة له في الربذة (٢): الزموا دينكم واهتدوا بهدي نبيكم، واتبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه (٣)، وبعد رجوع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من قتال الخوارج خطب أصحابه خطبة بليغة نافعة جامعة للخير ناهية عن الشر. وقد ضمن هذه الخطبة الأمر بالتزام هدي النبي ﷺ والترغيب فيه، حيث يقول: واقتدوا بهدي نبيكم ﷺ؛ فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته؛ فإنها أفضل السنن (٤)، ولم تشغل الفتن الداخلية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه - التي حصلت في عهده - عن دعوة أصحابه إلى كل خير، ونهيهم عن كل شر (٥)، وتحذيرهم من البدع ومن قوله في هذا الشأن: إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها، وكل محدثة بدعة، وكل محدث مبتدع، ومن ابتدع فقد ضيع، وما أحدث محدث بدعة إلا ترك بها سنة (٦).

٤- بيان فضله وبعض حقوقه على أمته ﷺ:

بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في معرض حديثه للمسلمين فضائل النبي ﷺ ومما قاله في هذا المجال: فكان مما أكرم الله به عز وجل هذه الأمة، وخصهم به من الفضيلة أن بعث إليهم محمداً ﷺ، فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة؛ لكيما يهتدوا، وجمعهم لكيلا يتفرقوا، وزكاهم

(١) «سنن الترمذي»، كتاب المناقب (٥/٥٩٣)، و«المستدرک» (٢/٦٢٠) صحيح الإسناد.

(٢) من قرى المدينة على ثلاثة أميال، «معجم البلدان» (٣/٢٤).

(٣) «البداية والنهاية» (٧/٢٤٦)، و«تاريخ الطبري».

(٤) «البداية والنهاية» (٧/٣١٩).

(٦) «البداية والنهاية» (٧/٣١٩).

لكيما يتطهروا، ورفههم لكيلا يجوروا، فلما قضى من ذلك ما عليه، قبضه الله عز وجل، صلوات الله عليه ورحمته وبركاته^(١)، وإليك بعض حقوقه صلى الله عليه وسلم.

أ. وجوب الصدق عنه والتحذير من الكذب عليه:

حذر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن ربعي بن حراش، قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تكذبوا علي؛ فإنه من كذب علي فليلج النار»، وحذر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من نقل الكذب - وهو يعلم أنه كذب - فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «من حدث عني حديثاً وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»^(٢).

(ب) البعد عن أسباب تكذيبه:

أرشد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الناس إلى البعد عن الأمر الذي يكون نسبياً في تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كتحديث الناس بما لاتدرکه عقولهم، من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟»^(٣)، ومعنى الحديث: بما يعرفون: أي: يفهمون، وفيه دليل على أن المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة، وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب ومن قبلهم أبوهريرة كما تقدم عنه في الجرايين، وأن المراد ما يقع من الفتن، ونحوه عن حذيفة وعن الحسن، وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب^(٤).

(ج) إحسان الظن بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: إذا حدثتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فظنوا به الذي هو أهناه وأهداه وأتقاه^(٥).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣/١) قال الألباني: صحيح.

(١) «البداية والنهاية» (٧/٢٦٢).

(٤) «فتح الباري» (١/٤٢٥) باب من خص بالعلم قوماً دون قوم.

(٣) «البخاري»، كتاب العلم (١/٤٦).

(٥) «مسند أحمد» (٢/٢١١) تحقيق: أحمد شاكر، وإسناده صحيح.

(د) الصلاة عليه:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١) (الأحزاب: ٥٦). وهذا إخبار من الله سبحانه وتعالى بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثنى عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً (٢)، ويؤكد أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه هذا الحق لرسول الله صلوات الله عليه بوصف من لم يصل على رسول الله صلوات الله عليه عند سماع ذكره بالبخل فيما يرويه عن رسول الله صلوات الله عليه، حيث قال: «البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصل علي» (٣).

(هـ) محبته لرسول الله صلوات الله عليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٢٤). فالآية نصت على وجوب محبة الله ورسوله وأن تلك المحبة يجب أن تكون مقدمة على كل محبوب، ولا خلاف في ذلك بين الأمة (٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١). ففي هذه الآية إشارة ضمنية إلى وجوب محبة النبي صلوات الله عليه؛ لأن الله تبارك وتعالى قد جعل برهان محبته تعالى ودليل صدقها؛ هو اتباع النبي صلوات الله عليه، وهذا الاتباع لا يتحقق ولا يكون إلا بعد الإيمان بالنبي صلوات الله عليه، والإيمان به لا بد من تحقق شروطه التي منها محبة النبي صلوات الله عليه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه قال: «فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه

(١) صلاة الله تعالى: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/٥٠٨)، و«منهج علي بن أبي طالب في الدعوة» (ص ١٢٩).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٣/١٧٧)، صحيح.

(٤) «تفسير القرطبي» (٨/٩٥).

من ولده ووالده»^(١)، ومما لا ريب فيه أن حظ الصحابة من حبه صلى الله عليه وسلم كان أتم وأوفر، ذلك أن المحبة ثمرة المعرفة، وهم بقدره صلى الله عليه وسلم ومنزلته أعلم وأعرف من غيرهم، فبالتالي كان جهم له صلى الله عليه وسلم أشد وأكبر^(٢)، وقد سئل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ^(٣). وهذه الخصوصية المطلقة ليست لأحد غير رسول الله.

٥. المعرفة الدقيقة الشاملة للملاح الشخصية النبوية:

لقد ساعدت الصلة الأسرية، والمعايشة الطويلة القريبة، والتتبع الدقيق لما خصَّ الله به نبيه من نفسية نبوية، ومكارم أخلاق وميول واتجاهات- أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على معرفته الدقيقة الشاملة للشخصية النبوية وخصائصها، والقدرة على وصفها، والتنويه بجوانب دقيقة في سيرته وخلقه، يلاحظ ذلك فيما روي عنه من وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحليته وخلقه وسلوكه^(٤).

أ. بيان خلقه:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير، ششن الكفين^(٥) والقدمين، مشرب وجهه حمرة، طويل المسربة^(٦)، ضخم الكراديس^(٧)، إذا مشى تكفأ تكفياً، كأنما ينحط من صلب^(٨)، لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم^(٩)، وعن محمد بن علي عن أبيه قال: كان رسول الله

(٢) «حقوق النبي على أمته» (١/٣١٤).

(٤) المرتضى (ص ٣٩) إلى (٤٣).

(١) البخاري رقم (٤)، و«فتح الباري» (١/٥٨).

(٣) «الشفاء» (٢/٥٦٨) للقاضي عياض.

(٥) أي خشن الكفين غليظها؛ «الصحاح» للجوهري (٥/٢١٤٢).

(٦) الشعر المستدق الذي يأخذ من الصدر إلى السرة.

(٧) الكرْدُوس: كل عظم تام ضخم فهو كردوس، وكل عظيمين التقيا في مفصل، فهو كردوس، وأراد علي أنه

صلى الله عليه وسلم ضخم الأعضاء.

(٨) الصبب: هو الموضع المنحدر، وهذه الصفة من المشي تعني: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قوياً، فإذا مشى فكأنما يمشي

على صدور قدميه من القوة.

(٩) «مسند أحمد» تحقيق: أحمد شاكر (٢/١٠٧) وإسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح «سنن الترمذي»

عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَخَمَ الرَّأْسَ عَظِيمَ الْعَيْنَيْنِ، هَدَبَ الْأَشْفَارَ (١) - قال حسن (٢): الشَّفَارُ - مشرب العينين بحمرة، كث اللحية، أزهر اللون، ششن الكفين والقدمين، إذا مشى كأنما يمشي في صَعَدَ - قال حسن: تكفأ - وإذا التفت التفت جميعاً (٣)، وعند الترمذي عن محمد - من ولد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا وصف النبي ﷺ قال: لم يكن بالطويل الممغط (٤)، ولا بالقصير المتردد (٥)، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط (٦)، ولا بالسَّبَطُ، كان جعداً رجلاً، ولم يكن بالمُطَهَّم (٧) ولا بالمُكَلَّم (٨)، وكان في الوجه تدوير، أبيض مشرب، ششن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع، كأنما يمشي في صيب، وإذا التفت التفت (٩) معاً، كما أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين صفة من صفات جسد النبي ﷺ بعد موته، أمراً لم يعرفه غيره - وربما من كان يغسله معه (١٠) - من طهارة بدنه ونقائه بعد موته، حيث يقول: غَسَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فجعلت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئاً، وكان طيباً حياً وميتاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١١)، وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول وهو يغسله: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حياً وميتاً (١٢).

(ب) بيان خُلُقِهِ:

تحدث أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن أخلاق رسول الله ﷺ، فقال: كان أجود الناس كفاً، وأشرحهم صدرًا، وأصدق الناس لهجة، وألينهم عريكة (١٣)،

- (١) هي حروف الأجنان وأصول منابت الشعر في الجفن التي تلتقي عند التغميض.
- (٢) حسن بن موسى الراوي عن حماد عن عبدالله بن محمد بن عقيل عن محمد بن علي.
- (٣) «مسند أحمد» تحقيق أحمد شاكر (٢/١٣٠)، وإسناده صحيح.
- (٤) الممغط: الزاهب طولاً.
- (٥) المتردد: الداخل بعضه في بعض قصراً.
- (٦) القطط: الشديد الجعودة.
- (٧) المطهم: البادن الكثير اللحم.
- (٨) المُكَلَّم: المدور الوجه.
- (٩) «سنن الترمذي»، كتاب المناقب (٥/٥٩٩)، حسن غريب إسناده غير متصل.
- (١٠) كالعباس، والفضل وقثم بن عباس يقلبونه.
- (١١) «صحيح سنن ابن ماجه» للألباني (١/٢٤٧)، والحاكم في «المستدرک» (٣/٥٩) واللفظ له، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.
- (١٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٦٦٢).
- (١٣) العريكة: الطبيعة، وفلان لين العريكة إذا كان سلساً، انظر: «منهج علي بن أبي طالب» (ص ١١٠).

وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله^(١)، وأخبرنا عن شجاعة الرسول صلوات الله عليه، وقوة بأسه، وأن علياً ومن كان معه مع شجاعتهم أيضاً وقوة بأسهم التي سطرتها أخبار المغازي، كانوا إذا اشتدت الحرب يلوذون برسول الله صلوات الله عليه، فيقول علي رضي الله عنه: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلوات الله عليه، وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً^(٢)، وفي رواية أخرى: كنا إذا احمر البأس، ولقي القوم القوم؛ اتقينا برسول الله صلوات الله عليه، فما يكون منا أحد أدنى من القوم منه^(٣)، وبين علي رضي الله عنه من أخلاق رسول الله صلوات الله عليه من الرحمة، والكرم، والشجاعة، والتواضع، ما ورد في وصفه لرسول الله صلوات الله عليه لليهود الذين طلبوا منه ذلك حيث يقول: كان أرحم الناس بالناس، لليتيم كالأب الرحيم، وللأرملة كالكريم الكريم، أشجع الناس، وأبدلهم كفاً، وأصبحهم وجهاً، لباسه العباءة، وطعامه خبز الشعير، وإدامه اللبن، ووساده الأدم محشو بليف النخل، سريره أم غيلان مرمل بالشريف^(٤)، كان له عمامتان إحداها تدعى السحاب^(٥)، والأخرى العقاب، وكان سيفه ذا الفقار^(٦)، ورايته الغراء، وناقته العضباء^(٧)، وبغلته دلدل^(٨)، وحماره يعفور، وفرسه مرتجز^(٩)، وشاته بركة ولواؤه الحمد، وكان يعقل البعير، ويعلف الناضح^(١٠)، ويرقع الثوب، ويخصف النعل^(١١).

(١) وهو تنمة للحديث السابق .

(٢) «مسند أحمد» (٦٤/٢) ، تحقيق: أحمد شاكر، وإسناده صحيح .

(٣) «مسند أحمد» (٣٤٣/٢) ، وقال المحقق: إسناده صحيح .

(٤) قال ابن القيم في «زاد المعاد»: كان رسول الله صلوات الله عليه ينام على الفراش تارة، وعلى النطع تارة، وعلى الحصير تارة، وعلى الأرض تارة، وعلى السرير تارة بين رماله، وتارة على كساء أسود (١٥٥/١) «زاد المعاد» السرير

المرمل أي: المنسوج، (لسان العرب) (٢٩٥/١١) .

(٥) وهي العمامة التي كساها علياً (زاد المعاد/١/١٣٥) .

(٦) كان للرسول تسعة أسياف منها ذو الفقار، تنقله يوم بدر (زاد المعاد /١/ ١٣٠) .

(٧) وهي غير القصواء المشهورة، والعضباء هي التي كانت لا تسبق .

(٨) بغلة شهباء أهداها له المقوقس وله غيرها (زاد المعاد /١/ ١٣٤) .

(٩) في «زاد المعاد» (١٣٣/١) : ملك سبعة من الخيل، متفق عليه .

(١٠) الناضح: البعير الذي يستقى عليه الماء (لسان العرب /٢/ ٦١٩) .

(١١) الرياض النضرة في مناقب العشرة (١٦٣/٢) .

٦- نماذج من اتباع أمير المؤمنين للسنّة:

كان أمير المؤمنين علي شديد الحرص على الاقتداء بالنبي ﷺ وحياته العملية خير دليل على ذلك، وهذه بعض الأمثلة المتنوعة التي كان يتبع فيها النبي ﷺ ولا يفرق بين صغيرة ولا كبيرة.

- دعاء الركوب على الدواب:

وعن عبدالرزاق: أخبرني من شهد علياً حين ركب، فلما وضع رجله في الركاب، قال: بسم الله، فلما استوى قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم حمد ثلاثاً وكبّر ثلاثاً، ثم قال: اللهم لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. ثم ضحك ﷺ فقليل: ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت النبي ﷺ فعل مثل ما فعلت، وقال مثل ما قلت، ثم ضحك، فقلنا: ما يضحكك يا نبي الله؟ قال: «العبد» - أو قال: «عجبت للعبد - إذا قال: لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي؛ إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو» (١).

- الشرب قائماً، وقاعداً:

عن عطاء بن السائب عن زاذان: أن علي بن أبي طالب شرب قائماً، فنظر إليه الناس كأنهم أنكروه، فقال: ما تنظرون (٢)؟ إن أشرب قائماً، فقد رأيت النبي ﷺ يشرب قائماً، وإن أشرب قاعداً، فقد رأيت النبي ﷺ يشرب قاعداً (٣).

- تعليم وضوء رسول الله ﷺ:

عن عبد خير، علمنا علي وضوء رسول الله ﷺ، فصب الغلام على يديه حتى أنقاهما، ثم أدخل يده في الركوة، فمضمض واستنشق، وغسل وجهه ثلاثاً

(١) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٩٣٠)، حسن لغيره.

(٢) «مسند أحمد» رقم (١١٢٨)، وإسناده حسن.

(٣) في رواية: ما تنكرون.

ثلاثاً، وذراعيه إلى المرفقين ثلاثاً ثلاثاً، ثم أدخل يده في الركوة فغمز أسفلها بيده ثم أخرجها فمسح بها الأخرى، ثم مسح بكفيه رأسه مرة، ثم غسل رجله إلى الكعبين ثلاثاً ثلاثاً، ثم اغترف هنيئة من ماء بكفه فشربه، ثم قال: هكذا كان رسول الله يتوضأ^(١).

- نهى رسول الله صلى الله عليه وآله علي عن أشياء:

عن عبد الله بن حنين عن أبيه، قال: سمعت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: نهاني رسول الله صلى الله عليه وآله: عن تختم الذهب، وعن لبس القسي والمعصر، وقراءة القرآن وأنا راعع وكساني حلة من سيرا فخرجت فيها، فقال: يا علي، إني لم أكسكها لتلبسها قال: فرجعت بها إلى فاطمة، فأعطيتها ناحيتها فأخذت بها لتطويها معي، فشققتها بشنيتين قال: فقالت: تربت يداك يا ابن أبي طالب، ماذا صنعت؟ قال: فقلت لها: نهاني رسول الله صلى الله عليه وآله عن لبسها، فالبسي واكسي نساءك^(٢).

- الذنوب والمغفرة:

عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أذنب في الدنيا ذنباً فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً في الدنيا فستر الله عليه، وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه»^(٣).

- إنما الطاعة في المعروف:

عن علي رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث جيشاً، وأمر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً، فقال: ادخلوها، فأراد ناس أن يدخلوها، وقال آخرون: إنما فررنا منها. فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: «لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة»، وقال للآخرين قولاً حسناً، وقال: «لا

(١) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٨٧٦)، صحيح لغيره، وإسناده حسن.

(٢) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٧١٠) إسناده حسن.

(٣) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (١٣٦٥) إسناده حسن.

طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف»^(١). والحديث يبين أن الطاعة للحكام مقيدة بطاعة الله ورسوله، والطاعة المطلقة ليست لأحد إلا لله ورسوله ﷺ.

- لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف:

دخل أبو مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري على علي بن أبي طالب، فقال له علي: أنت الذي تقول: لا يأتي على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف؟، إنما قال رسول الله ﷺ: «لا يأتي على الناس مائة سنة، وعلى الأرض عين تطرف ممن هو حيُّ اليوم»، والله إن رخاء هذه الأمة بعد مائة عام^(٢).

- دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة بالبركة:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كنا بالحرّة بالسقيّا التي كانت لسعد بن أبي وقاص، قال رسول الله ﷺ: «أئتوني بوضوء» فلما توضأ قام فاستقبل القبلة، ثم كبر، ثم قال: «اللهم إن إبراهيم كان عبدك وخليتك دعا لأهل مكة بالبركة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في مدّهم وصاعهم مثل ما باركت لأهل مكة، مع البركة بركتين»^(٣).

- دعاء الكرب:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: علّمني رسول الله ﷺ إذا نزل بي كرب أن أقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله، وتبارك الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين^(٤) والحديث يرشد إلى ضرورة التعلق بالله وحده، والاعتماد عليه والالتجاء إليه، فلا يكشف الكرب إلا هو سبحانه، ولا يجيب المضطر إذا دعاه إلا الذي خلقه، فلا ملجأ من الله إلا إليه، ففيه إرشاد وتعليم إلى كل مسلم بأن يعتمد على الله في كل أحواله وشأنه.

(٢) «مسند أحمد» رقم (٧١٤) إسناده قوي.

(٤) «مسند أحمد» رقم (٧٠١)، وهو حديث صحيح.

(١) «مسند أحمد» رقم (٧٢٤) إسناده صحيح.

(٣) «مسند أحمد» رقم (٩٣٦)، وإسناده صحيح.

- ما أسرَّ إليَّ شيئاً كتّمه الناس:

عن أبي الطُّفيل قال: قلنا لعليّ: أخبرنا بشيء أسرّه إليك رسول الله صلّى الله عليه وآله. فقال: ما أسرَّ إليّ شيئاً كتّمه الناس، ولكن سمعته يقول: «لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غير تُخوم الأرض» - يعني المنار^(١) - ففي قوله صلّى الله عليه وآله: «لعن الله»: اللعن من الله: الطرد والإبعاد من رحمة الله، قوله: «من ذبح لغير الله»: يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي أو ملك، أو جني أو غيرهم، فلو كانت هذه الأمور هينة في دين الله لما وصلت إلى درجة يستحق فاعلها اللعن من رسول الله صلّى الله عليه وآله.

- إن الله رفيق يحب الرفق:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف»^(٢).

- تعجيل الصدقة^(٣) قبل أن تحل:

عن علي: أن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه سأل النبي صلّى الله عليه وآله في تعجيل صدقته قبل أن تحلَّ فرخص له في ذلك^(٤).

- العشر الأواخر من رمضان:

عن علي رضي الله عنه، قال: «كان رسول الله صلّى الله عليه وآله يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان، ويرفع المنزر»^(٥).

ثانياً: الرواة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أعلم الصحابة بالسنة في عهده؛ إذ روي: أنه

(١) «مسند أحمد» رقم (٨٥٥)، وإسناده قوى .

(٢) «مسند أحمد» رقم (٩٠٢)، حديث حسن الشواهد .

(٣) تعجيل الصدقة: أي تعجيل الزكاة .

(٤) «مسند أحمد» رقم (٨٢٢)، إسناده حسن .

(٥) «مسند أحمد» رقم (١١١٥)، إسناده حسن .

ذكر علي عند عائشة، فقالت: أما إنه أعلم من بقي في السنة^(١)، ومع ذلك فقد روي أنه روى عن النبي ﷺ خمسمائة وستة وثمانين حديثاً^(٢)، وهو أقل مما رواه بعض الصحابة عن النبي ﷺ لأسباب منها:

١- انشغاله بالقضاء والإمارة والحروب التي جعلته لا يتفرغ للفتيا وعقد حلقات الدروس؛ التي كانت سبباً في انتشار علم بعض الصحابة، كعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس.

٢- ظهور أهل الأهواء والبدع من الذين أفرطوا فيه والذين فرطوا به كان سبباً في كثرة الكذب عليه، لذلك بذل العلماء جهدهم في معرفة صحة الطرق الموصلة إليه.

٣- كثرة الفتن في زمانه وانشغال بعض الناس بها؛ حال دون ثقته ﷺ بمن يضع فيه علمه؛ إذ روي عنه أنه قال: إن ههنا علماً لو أصبت له حملة^(٣)، وقد لاحظنا في منهج أمير المؤمنين في الرواية وقبول الحديث ما يأتي:

١- الحذر من الكذب على النبي ﷺ إذ هو أحد الرواة؛ لقوله ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).

٢- الاستيثاق من الرواية، فإنه كان يحلف الراوي عليها، فقد روي عنه أنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وكان إذا حدثني غيره استحلفته، فإذا حلف صدقته^(٥).

٣- عدم رواية المنكر والشاذ من الحديث؛ إذ ورد عنه أنه قال: حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون؛ أتريدون أن يكذب الله ورسوله^(٦)، وقد روى علي ﷺ عن أبي بكر وعمر والمقداد بن الأسود وزوجته فاطمة.

(٢) «تاريخ الخلفاء» (ص ١٧١).

(١) «الطبقات» (٢/٣٣٨).

(٣) «فقه الإمام علي» (٣/١) نقلاً عن: «أعلام الموقعين».

(٤) صحيح «سنن ابن ماجه» (١٣/١) وقال الألباني: صحيح.

(٦) «البخاري»، كتاب العلم (١/٤٦).

(٥) «سنن ابن ماجه» رقم (١٣٩٥)، إسناده صحيح.

وروى عن علي خلق كثير من الصحابة والتابعين وأهل بيته.

فمن أشهر من روى عنه من الصحابة هم:

١- أبو أمامة إياس بن ثعلبة الأنصاري من بني حارثة وهو ابن أخت أبي بردة، له عن النبي صلوات الله عليه ثلاثة أحاديث، وهو الذي أمره الرسول صلوات الله عليه أن يقيم على أمه يوم بدر^(١).

٢- أبو رافع القبطي مولى رسول الله صلوات الله عليه يقال: اسمه إبراهيم، وقيل: سنان، وقيل: يسار. قال ابن عبد البر: أشهر ما قيل في اسمه: أسلم، مات في عهد علي ابن أبي طالب سنة ٤٠هـ^(٢).

٣- أبو سعيد الخدري سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه خرج مع رسول الله صلوات الله عليه وهو ابن خمس عشرة سنة توفي سنة ٧٤هـ^(٣).

٤- جابر بن عبدالله بن عمر بن حرام بن كعب بن غنم بن كعب الأنصاري السلمي شهد صفين مع علي رضي الله عنه وتوفي ٧٨هـ، وكان من الحفاظ للسنن.

٥- جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب العامري السوائي حليف بني زهرة، وأمّه خالدة بنت أبي وقاص، أخت سعد بن أبي وقاص، يكنى، أبا عبد الله، قال: يكنى أبا عبدالله قال: صليت مع رسول الله أكثر من ألفي مرة، نزل الكوفة وتوفي بها سنة ٧٤هـ^(٤).

٦- زيد بن أرقم بن زيد بن قيس بن النعمان، قيل: كنيته أبو عمر وقيل: أبو عامر، مات بالكوفة سنة ٦٦ وقيل: ٦٨هـ.

٧- عبدالله بن جعفر بن أبي طالب ابن أخي علي، ولد بأرض الحبشة وهو أول مولد في الإسلام توفي سنة ٨٠هـ، وهو ابن تسعين سنة^(٥).

(١) «الاستيعاب» (١٦٠/١) أي: يقيم على خدمة أمه.

(٢) «الاستيعاب» (١٦٧١/٤)

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٦/٢).

(٤) «الإصابة» (٢٧٦/٤).

(٥) «الاستيعاب» (٢١٩/١).

٨- عبدالله بن عمر بن الخطاب القرشي العدوي، أسلم مع أبيه قبل أن يبلغ الحلم توفي في مكة، سنة ٦٣هـ وهو ابن أربع وثمانين^(١).

٩- عبدالله بن مسعود بن غافل بن وائل الهذلي من أوائل المسلمين توفي ٣٢هـ^(٢).

١٠- عمرو بن حريث بن عثمان القرشي المخزومي يكنى، أبا سعيد، رأى النبي ﷺ وسمع منه، ومسح النبي ﷺ على رأسه ودعا له بالبركة، نزل الكوفة وكان له قدر وشرف، مات سنة ٨٥هـ^(٣).

* من روى عنه من أهل بيته:

روى عنه من أهل بيته كل من:

١- ولده الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ.

٢- ولده الحسين بن علي سبط رسول الله ﷺ، قتل يوم عاشوراء سنة ٦١هـ وهو ابن ٥٦ سنة^(٤).

٣- ولده محمد بن علي بن أبي طالب أبو القاسم المدني المعروف بابن الحنفية، نسبة إلى أمه خولة بنت جعفر بن قيس من بني حنيفة، قال العجلي: تابعي ثقة كان رجلاً صالحاً يكنى، أبا القاسم، ولد في ولاية عمر ومات سنة ٧٣هـ، وقيل: ٨٠هـ، وقيل: ٨١هـ، وقيل: ٨٢هـ، وقيل: ٩٣هـ^(٥).

٤- حفيده محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، ذكره ابن حبان في الثقات^(٦).

٥- حفيده علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الملقب بزین العابدين من سادات التابعين، وأمه سلافة بنت يزيدجرد آخر ملوك فارس، أرسل عن جده

(٢) «الاستيعاب» (٩٨٨/٢).

(٤) «تهذيب التهذيب» (٣٥٧/٢).

(٦) «تهذيب التهذيب» (٨٢/٢).

(١) «وفيات الأعيان» (٢٣٦/٢).

(٣) «الاستيعاب» (١٦٧٢/٣).

(٥) «تهذيب التهذيب» (٣٠٦/٧).

علي بن أبي طالب، قال العجلي: مدني تابعي ثقة، توفي سنة ٩٤هـ، وكان عمره ثمان وخمسين سنة^(١).

٦- ابن أخته جعدة بن هبيرة بن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وأمه أم هانئ بنت أبي طالب ولد على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وله صحبة، ولي خراسان وسكن الكوفة، قال العجلي: مدني تابعي ثقة روى عن علي^(٢).

٧- سريته أم موسى قيل: اسمها فاختة، وقيل: حبيبة، قال الدارقطني: حديثها مستقيم، وقال العجلي: كوفية تابعة ثقة^(٣).

أشهر من روى عن علي من التابعين:

١- أبو الأسود الدؤلي البصري، القاضي، واسمه ظالم بن عمرو بن سفيان، ويقال: اسمه عمرو بن عثمان، ويقال: عثمان بن عمرو، أسلم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقاتل مع علي يوم الجمل، وثقه ابن معين والعجلي وغيرهما، وتوفي في ولاية عبيد الله بن زياد سنة ٦٩هـ^(٤).

٢- أبو بردة بن أبي موسى الأشعري الفقيه، واسمه الحارث وقيل: عامر، وثقه ابن سعد والعجلي وابن حبان، وقال العجلي: كان على قضاء الكوفة بعد شريح، روى عن أبيه وعلي وحذيفة وعبدالله بن سلام وعائشة وغيرهم، قيل: مات سنة ٨٣هـ وقيل: ١٠٤هـ، وقيل: ١٠٧هـ^(٥).

٣- أبو عبدالرحمن السلمى، عبدالله بن حبيب بن ربيعة، الكوفي القارئ، ولأبيه صحبة، وثقه العجلي والنسائي وأبو داود، روى عن عمر وعثمان وعلي وسعد، وخالد ابن الوليد وابن مسعود وحذيفة وغيرهم، قيل: مات سنة ٧٢هـ، وقيل: ٨٥هـ وهو ابن خمس وثمانين سنة، شهد مع علي صفين^(٦).

(١) «تهذيب التهذيب» (١٢/٤٨١)، و«لسان الميزان» (٧/٥٣٣).

(٢) «تهذيب التهذيب» (١٢/١٠، ١١).

(٤) «تهذيب التهذيب» (٥/١٨٤).

(٣) «تهذيب التهذيب» (١٢/١٩).

(٦) «طبقات ابن سعد» (٦/١٠٣).

(٥) «طبقات ابن سعد» (٦/١٠٤).

٤- زيد بن حبيش بن حبانة بن أوس الأسدي أبو مريم، ويقال: أبو مطرف الكوفي، عن ابن معين أنه ثقة، مات سنة ٨١هـ، وقيل: ٨٢هـ، وقيل: ٨٣هـ، وهو ابن مائة وعشرين (١).

٥- زيد بن وهب الجهني من قضاة، يكنى أبا سليمان، من أجلة التابعين وثقاتهم متفق على الاحتجاج به، وثقه ابن معين وغيره، مات قبل سنة تسعين أو بعدها من ولاية الحجاج (٢).

٦- سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر يكنى أبا أمية، رحل إلى رسول الله ﷺ، وقد قبض فلم يره، صحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، مات سنة ٨١هـ أو ٨٢هـ وكان عمره ١٢٨ سنة (٣).

٧- شريح بن هانئ بن يزيد بن نهيك الحارثي المذحجي ابن المقدم الكوفي، أدرك ولم ير، وهو من كبار أصحاب علي، قتل مع أبي بكر بسجستان سنة ٧٨هـ (٤).

٨- عامر بن شرحبيل بن عبد، وقيل: عامر بن عبدالله بن شرحبيل الشعبي والحميري أبو عمرو الكوفي من شعب همدان، روي عنه أنه قال: أدركت خمسمائة من الصحابة، وعن الحسن قال: كان والله كثير العلم عظيم الحلم قديم السلم من الإسلام بمكان، وعن مكحول قال: ما رأيت أفقه منه. قال ابن عيينة: كانت الناس تقول بعد الصحابة ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، ولد لست خلت من خلافة عمر ومات سنة ١٠٩هـ.

٩- عبد خير بن يزيد ويقال: ابن بجيد بن جوى بن عبد، عمرو بن عبد يعرب ابن الصائد الهمداني أبو عمارة الكوفي، أدرك الجاهلية، قال العجلي كوفي تابعي ثقة أهل بالكوفة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، قيل: عاش مائة وعشرين سنة وقتل في صفين (٥).

(٢) «طبقات ابن سعد» (١٢٧/٦).

(٤) «تهذيب التهذيب» (١٢٤/٦).

(١) «طبقات ابن سعد» (٦٧/٦).

(٣) «تهذيب التهذيب».

(٥) «تهذيب التهذيب» (١٢٤/٦).

١٠- عبدالرحمن بن أبي ليلى واسمه يسار ويقال: بلال، ويقال: داود بن بلال ابن بليل ابن أصبحة بن الجلاح الحريش الأنصاري الأوسي، ولد لست بقين من خلافة عمر، روي عنه أنه قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار صحابة، وثقه ابن معين والعجلي قيل: إنه أصيب سنة ٧١هـ وقيل: ٨٢هـ بالجماعم (١).

١١- عبيدة السلماني وهو: عبيدة بن عمرو ويقال: ابن قيس بن عمرو السلماني المرادي أبو عمرو الكوفي، أسلم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بستين ولم يلقه، قال الشعبي: كان شريح أعلمهم بالقضاء، وكان عبيدة يوازيه، وقال العجلي: كوفي تابعي ثقة (٢).

١٢- عبدالله بن سلمة المرادي الكوفي، صاحب علي، كنيته أبو العالية، قال العجلي: كوفي تابعي ثقة، قال البخاري: لا يتابع في حديثه، وعن عمرو بن مرة يعرف وينكر، كان قد كبر، وقال يعقوب بن شيبة: ثقة (٣).

١٣- عبدالله بن شقيق العقيلي، وكنيته أبو عبدالرحمن ويقال: أبو محمد البصري، تابعي من أهل البصرة، ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى، وعن ابن معين: أنه ثقة من خيار المسلمين، لا يطعن في حديثه، وروي أنه كان مستجاب الدعوة، مات بعد المائة وقيل: سنة ١٠٨هـ (٤).

١٤- علقمة بن قيس النخعي وهو: علقمة بن قيس بن عبدالله بن مالك بن علقمة النخعي الكوفي ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن أحمد: ثقة من أهل الخير، وعن ابن معين: ثقة، روي: أنه قرأ القرآن في ليلة، مات سنة ٦٢هـ، وقيل: ٦١هـ، قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث.

١٥- عمير بن سعيد النخعي الصهباني، أبو يحيى الكوفي، عن ابن معين:

(١) «ميزان الاعتدال» (٥٨٤/٢٠).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٩٠/٦)، و«تهذيب التهذيب» (٨٥/٧).

(٣) «ميزان الاعتدال» (٤٠٩/٢)، و«تهذيب التهذيب» (٥٤٢/٥).

(٤) «تهذيب التهذيب» (٢٥٣/٥).

ثقة ، ذكره ابن حبان في الثقات ، له حديث عن علي في حد شارب الخمر ، قال ابن سعد : مات سنة ١١٥هـ ، وقيل : ١٠٧هـ (١) .

١٦- هانئ بن هانئ الهمداني الكوفي ، قال النسائي : ليس به بأس ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وقيل : كان يتشيع ، وقال ابن المديني : مجهول ، وقال ابن سعد : كان منكر الحديث ، وعن الشافعي : أهل الحديث لا ينسبون حديثه لجهالة حاله ، ذكره ابن سعد في الطبقات الأولى في الكوفة ، قال الذهبي : ليس به بأس (٢) .

١٧- يزيد بن شريك بن طارق التيمي الكوفي ، وعن يحيى بن معين : ثقة ، ذكره ابن حبان في الثقات ، قال ابن سعد : كان ثقة وكان عريف قومه ، يقال : إنه أدرك الجاهلية ، روى عن عمر وعلي وأبي ذر وابن مسعود وحذيفة (٣) .

هذه إشارات عابرة عن الرواة عن علي رضي الله عنه ، ولمن أراد المزيد ، فليراجع : رسالة الدكتور أحمد محمد طه «فقه الإمام علي بن أبي طالب» ، المقدمة في جامعة بغداد ، ولم تنشر حتى الآن .



(١) «تهذيب التهذيب» (١٤٦/٨) ، و«سير أعلام النبلاء» (٤٤٣/٤) .

(٢) «الكاشف» للذهبي (٢١٨/٣) .

(٣) المصدر نفسه (٢٨٠/٣) .

المبحث الخامس

أهم أعمال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما بين الهجرة والأحزاب

شرع رسول الله صلوات الله عليه بعد استقراره بالمدينة في تثبيت دعائم الدولة الإسلامية؛ فأخى بين المهاجرين والأنصار، ثم أقام المسجد، وأبرم المعاهدة مع اليهود، وبدأت حركة السرايا، واهتم بالبناء الاقتصادي والتعليمي والتربوي في المجتمع الجديد، وكان علي رضي الله عنه ملازمًا له في كل أحواله منفذًا لأوامره، متلمذًا على هديه.

أولاً: المؤاخاة في المدينة:

أخى رسول الله صلوات الله عليه بين علي بن أبي طالب وسهل بن حنيف^(١)، وقد تحدث بعض العلماء عن وجود مؤاخاة كانت في مكة بين المهاجرين، فقد أشار البلاذري إلى أن النبي صلوات الله عليه أخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة، على الحق والمواساة، فأخى بين حمزة وزيد ابن حارثة، وبين أبي بكر وعمر، وبين عثمان ابن عفان وعبدالرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العوام وعبدالله بن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشي، وبين مصعب ابن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله، وبينه وبين علي بن أبي طالب^(٢)، ويعتبر البلاذري (ت ٢٧٦هـ) أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية، وقد تابعه في ذلك ابن عبدالبر (ت ٤٦٣هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه، كما تابعهما ابن سيد الناس دون التصريح بالنقل عن أحدهما^(٣).

وقد أنكر ابن تيمية المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم مع بعض، وكذب الأحاديث التي وردت في ذلك، ومنها حديث المؤاخاة بين النبي صلوات الله عليه وعلي^(٤).

(٢) «أنساب الأشراف» (١/ ٢٧٠).
(٤) «منهاج السنة» (٥/ ٧١) (٧/ ٣٦١).

(١) «الكاشف» للذهبي (٣/ ٢١٨).
(٣) «السيرة النبوية الصحيحة» (١/ ٤٠).

وذهب ابن القيم إلى عدم وقوع المؤاخاة بمكة، فقال: وقد قيل: إنه -أي: النبي ﷺ- آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها علياً أخواً لنفسه، والثبت الأول^(١)، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام، وأخوة الدار، وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار^(٢)، ولم تشر كتب السيرة الأولى المختصة إلى وقوع المؤاخاة بمكة، والبلاذري ساق الخبر، بلفظ: «قالوا» دون إسناد؛ مما يضعف الرواية، كما أن البلاذري نفسه ضعفه النقاد، وعلى فرض صحة هذه المؤاخاة بمكة فإنها تقتصر على المؤازرة والنصيحة بين المتأخين دون أن تترتب عليها حقوق التوارث^(٣)، الذي نسخ بقول الله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٥)، فهذه الآية نسخت التوارث بموجب نظام المؤاخاة^(٤)، وبقيت النصرة والرفادة والنصيحة بين المتأخين^(٥). وقد ذكر ابن كثير أن بعض العلماء ينكر مؤاخاة النبي ﷺ لعلي ويمنع صحته، وأن مستنده في ذلك أن هذه المؤاخاة إنما شرعت لأجل ارتفاع بعضهم من بعض، ولتتآلف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاة النبي ﷺ لأحد منهم، ولا مهاجري لمهاجري آخر، ولكنه أشار إلا أنه قد يكون النبي ﷺ أراد ألا يجعل مصلحة علي إلى غيره، وبخاصة أنه كان ينفق عليه من صغره في حياة أبيه^(٦)، ولكنه عاد في موضع آخر فأشار إلى معظم الأحاديث التي تحدثت عن مؤاخاة النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه بأن أسانيدھا كلها ضعيفة لا تقوم بها حجة^(٧)، وهناك مصادر ذكرت المؤاخاة بين النبي ﷺ وعلي بدون إسناد، منها: محمد بن حبيب^(٨)، وابن الجوزي^(٩)، وابن الأثير^(١٠).

(١) يعني: المؤاخاة في المدينة.

(٢) «السيرة النبوية الصحيحة» (١/٢٤١).

(٣) «التاريخ الإسلامي» لعبد الحميد (٤/٢٥).

(٤) «البداية والنهاية»، (٣/٢٢٦)، ومن أراد التوسع فليُنظر: «أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول

الهجري»، لعبد العزيز نور ولي ص (٢٩٣) إلى (٢٩٨).

(٥) «البداية والنهاية» (٧/٣٤٨).

(٦) «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» (٣/٧٤).

(٧) «أسد الغابة في معرفة الصحابة» (٣/٥٨٨، ٦٠١).

(٢) «زاد المعاد» (٢/٧٩).

(٤) المصدر نفسه (٢/٢٤٦).

(٨) «المحبر» ص (٧٠).

إن التأخي الذي تم بين المهاجرين والأنصار في الفترة المدنية كان مسبقاً بعقيدة تم اللقاء عليها، والإيمان بها، وكانت هي العمود الفقري للمؤاخاة التي حدثت؛ لأن تلك العقيدة تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح؛ إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس فرقتهم العقائد والأفكار المختلفة، فأصبح كل منهم ملكاً لأنانيته وأثرته وأهوائه^(١).

وتعتبر سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، نوع من السبق السياسي الذي اتبعه الرسول صلوات الله عليه في تأهيل المودة، وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار الذين سهروا جميعاً على رعاية هذه المودة، وذلك الإخاء، بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده^(٢)، ولاسيما الأنصار الذين لا يجد الكتاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيراً من حديث الله عنهم^(٣)، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩).

ثانياً: حركة السرايا:

بمجرد الاستقرار الذي حصل للمسلمين بقيادة الرسول صلوات الله عليه في المدينة؛ بدأت حركة السرايا التي استهدفت بسط هيبة الدولة في الداخل والخارج وكسب بعض القبائل، وتحجيم دور الأعراب، وتربية الصحابة على الإعداد القتالي للغزوات الكبرى، وحركة الفتوحات وفتح ميدان لصناعة القادة عملياً، وقد شارك في هذه السرايا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، في التي حدثت قبل بدر وما بعدها، وأما التي شارك فيها قبل غزوة بدر الكبرى فمنها:

(١) «فقه السيرة»، للبوطي ص(١٤٨).

(٢) «فصول من السيرة النبوية»، د. عبد المنعم السيد ص(٢٠٠).

(٣) «هجرة الرسول وصحابه في القرآن والسنة»، للجمل ص(٥٢٤).

١. غزوة العشيرة^(١):

وفيها غزا صلى الله عليه وسلم قريشاً، واستعمل على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وسميت هذه الغزوة بغزوة العشيرة، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادى الآخرة، وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة، ولم يلتق كيداً، وذلك أن العير التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام ذاهبة إلى الشام^(٢)، فساحت على البحر، وبلغ قريشاً خبرها فخرجوا يمنعونها، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت غزوة بدر الكبرى^(٣)، وقد حدثنا عمار بن ياسر عن مشاركته وعلي رضي الله عنه في تلك الغزوة، فعن عمار بن ياسر قال: كنت أنا وعلي رفيقين في غزوة ذي العشيرة، فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام بها رأينا ناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم في نخل، فقال لي علي: يا أبا اليقظان هل لك في أن تأتي هؤلاء فننظر كيف يعملون؟ فجنناهم، فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم، فانطلقت أنا وعلي، فاضطجعنا في صور من النخل، في دعاء^(٤) من التراب فمنا فوالله، ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركنا برجله، وقد تتربنا من تلك الدعاء، فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: «يا أبا تراب» لما رأى عليه من التراب قال: «ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟» فقلنا: بلى يا رسول الله، قال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه -يعني قرنه- حتى تبل منها هذه -يعني لحيته-»^(٥)، وقد تكرر نداء رسول الله لعلي بأبي تراب، سيأتي الحديث عنه.

٢. غزوة بدر الأولى:

سببها: أن كرز بن جابر الفهري، قد أغار على سرح^(٦) المدينة، ونهب بعض

(١) ناحية من نواحي ينبع بين مكة والمدينة.

(٢) «طبقات ابن سعد» (١٠/٢).

(٣) المصدر نفسه (١١/٢).

(٤) الدعاء: الأرض التي لا نبات فيها. القاموس (٢٢/٣).

(٥) «فضائل الصحابة» (٨٥٥/٢) رقم (١١٧٢)، وإسناده حسن.

(٦) السرح: الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

الإبل والمواشي، فخرج رسول الله صلوات الله عليه في طلبه، حتى بلغ وادياً يقال له: «سفوان» من ناحية بدر، وفاته كرز بن جابر، فلم يدركه؛ فرجع رسول الله صلوات الله عليه إلى المدينة^(١)، وقد أعطى الحبيب المصطفى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لواءه الأبيض^(٢)، وتعتبر حركة السرايا بداية الجهاد القتالي ضد أعداء الدعوة، ومع حركة السرايا والبعوث والغزوات التي خاضها رسول الله ضد المشركين ظهرت جلياً سنة التدافع التي تعامل معها النبي صلوات الله عليه وأصحابه ومن بينهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهذه السنة متعلقة تعلقاً وطيداً بالتمكين لهذا الدين، وقد أشار الله تعالى إليها في كتابه العزيز وجاء التنصيص عليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١)، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقِّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠).

ثالثاً: غزوة بدر:

١- قال النووي - رحمه الله -: وأجمع أهل التواريخ على شهوده بدرًا، وسائر المشاهد غير تبوك، قالوا: وأعطاه النبي صلوات الله عليه اللواء في مواطن كثيرة^(٣).
كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحد المجاهدين الذين شاركوا في غزوة بدر، ولنتركه يقص علينا خبر هذه الغزوة، فعن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: وكان النبي صلوات الله عليه يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا، سار رسول الله صلوات الله عليه إلى بدر، وبدر بئر، فسبقنا المشركين إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم، رجلا من قريش ومولى لعقبة بن أبي معيط، فأما القرشي فانفلت، وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟، فيقول: هم والله كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك

(١) «سيرة ابن هشام» (٦٠١/٢).

(٢) «تاريخ الإسلام»، للذهبي (٤٨/٢)، و«علي بن أبي طالب»، للرفاعي ص (٨٩).

(٣) «تهذيب الأسماء واللغات» (٢٤٥/١).

ضربوه حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ فقال له: «كم القوم؟»، قال: هم والله كثير عددهم شديد بأسهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم، فأبى، ثم إن النبي ﷺ سأله: «كم ينحرون من الجزر؟»، فقال: عشرًا كل يوم. فقال رسول الله ﷺ: «القوم ألف، كل جزور لمائة» وتبعها. ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها، من المطر، وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه عز وجل ويقول: «اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تُعبد» قال: فلما طلع الفجر نادى: «الصلاة عباد الله»، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول الله ﷺ، وحرص على القتال، ثم قال: «إن جمع قريش تحت هذه الصلح الحمراء من الجبل». فلما دنا القوم منا وصففناهم، إذا رجل منهم على جمل له أحمر يسير في القوم، فقال رسول الله ﷺ: «يا علي، ناد حمزة - وكان أقربهم من المشركين - من صاحب الجمل الأحمر، وماذا يقول لهم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن يكن في القوم أحد يأمر بخير، فعسى، أن يكون صاحب الجمل الأحمر»، فجاء حمزة فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول لهم: يا قوم إني أرى قومًا مُستمتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم أعصوها اليوم برأسي، وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أنني لست بأجبنكم، قال: فسمع ذلك أبي جهل، فقال: أنت تقول هذا؟ والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته، قد ملأت رئتكَ جوفك رعبًا. قال عتبة: إياي تُعير يا مُصَفِّرَ اسْتِه؟ ستعلم اليوم أين الجبان. قال: فبرز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية، فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار ستة، فقال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بني عمنا، من بني عبد المطلب. فقال رسول الله ﷺ: «قم يا علي، قم يا حمزة، وقم يا عبدة بن الحارث بن المطلب» فقتل الله تعالى عتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وجرح عبدة، فقتلنا منهم سبعين، وأسرونا سبعين، فجاء رجل من الأنصار - قصير - بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: يارسول الله، إن هذا والله ما

أسرني، لقد أسرني رجل أجلح، من أحسن الناس وجهًا، على فرس أبلق، ما أراه في القوم. فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول الله. فقال: «اسكت فقد أيدك الله تعالى بملك كريم». فقال علي: فأسرنا من بني عبد المطلب: العباس وعقيلًا، ونوفل ابن الحارث^(١)، ومن وصف علي رضي الله عنه لغزوة بدر نلاحظ دروسًا، وعبرًا وفوائد كثيرة يمكن الرجوع إليها في كتابي: «السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث».

٢- ما قيل من أشعار في بطولة علي ببدر:

كان لواء المشركين يوم بدر مع طلحة بن أبي طلحة فقتله علي رضي الله عنه فقال الحجاج ابن علاط السلمي في ذلك:

لله أيُّ مُذْنِبٍ عَنْ حَرَبِهِ
أَعْنِي ابْنَ فَاطِمَةَ الْمُعَمِّ الْمُخَوَّلَا
جَادَتْ يَدَاكَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ
تَرَكَتْ طَلِيحَةَ لِلْجَبِينِ مُجَنْدَلَا
وَشَدَدَتْ شَدَّةً بِأَسِلٍ فَكَشَفَتْهُمْ
بِالْحَقِّ إِذْ يَهُوُونَ أَخْوَالَ أَخْوَلَا
وَعَلَلَتْ سَيْفَكَ بِالِدِمَاءِ وَلَمْ تَكُنْ
لِتَرْدُهُ حَرَّانَ حَتَّى يَنْهَلَا^(٢)

رابعًا: زواج علي من فاطمة رضي الله عنهما:

هي: فاطمة بنت إمام المتقين، سيد ولد آدم رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم، وأمها خديجة بنت خويلد، كانت تكنى بأُم أبيها^(٣)، ولدت رضي الله عنها قبل البعثة سنة خمس

(١) «مسند أحمد، الموسوعة الحديثية» رقم (٩٤٨)، وإسناده صحيح . (٢) «البداية والنهاية» (٣٧٩/٧).

(٣) «أسد الغابة» (٥٢٠/٥)، و«الإصابة» (٣٦٥/٤).

وثلاثين من مولد النبي ﷺ^(١)، زوجها النبي ﷺ علي بن أبي طالب سنة اثنتين للهجرة بعد وقعة بدر، وولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم، وكانت وفاتها بعد وفاة النبي ﷺ بستة أشهر فرضي الله عنها وأرضاها^(٢).

١- مهرها وجهازها:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خُطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت مولاة لي: هل علمت أن فاطمة قد خطبت إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا، قالت: فقد خطبت، فما يمنعك أن تأتي رسول الله ﷺ فيزوجك؟ فقلت: وهل عندي شيء أتزوج به؟ فقالت: إنك إن جئت رسول الله ﷺ فزوجك. قال: فوالله ما زالت ترجيني حتى دخلت على رسول الله ﷺ، فلما أن قعدت بين يديه أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلم جلاله وهيبه. فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكت، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم، فقال: «وهل عندك من شيء تستحلها؟» فقلت: لا والله يا رسول الله. فقال: «ما فعلت بدرع سلحتكها؟» فوالذي نفس علي بيده إنها لحطمية ما قيمتها أربعمئة درهم فقلت: عندي، فقال: «قد زوجتكها، فابعث إليها بها فاستحلها بها»، فإنها كانت لصدوق فاطمة بنت رسول الله ﷺ^(٣)، وقد جهز رسول الله ﷺ فاطمة في خميل^(٤)، وقربة ووسادة آدم^(٥) حشوها إذخر^(٦)،^(٧) وقد جاء في روايات الشيعة. فأخذت درعي فانطلقت به إلى السوق فبعته بأربعمئة درهم إلى عثمان بن عفان، فلما قبضت الدراهم منه وقبض الدرع مني قال: يا أبا الحسن، ألسنت أولى بالدرع منك وأنت أولى

(١) «الطبقات»، لابن سعد (٢٦/٨).

(٢) «حلية الأولياء» (٣٩/٢، ٤٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١١٨/٢، ١٣٤)، و«العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط» د. سليمان السحيمي ص (١٣٢).

(٣) «دلائل النبوة»، للبيهقي (٣/١٦٠)، وإسناده حسن.

(٤) خميل: القطيفة.

(٥) الأدم: الجلد.

(٦) إذخر: نبات.

(٧) «صحيح السيرة النبوية» ص (٦٦٧)، و«مسند فاطمة الزهراء وما ورد في فضلها» للسيوطي، تحقيق: فؤاد أحمد زمرلي ص (١٨٩).

بالدراهم مني؟ فقلت: نعم، قال: فإن هذا الدرع هدية مني إليك، فأخذت الدرع والدراهم وأقبلت إلى رسول الله فطرح الدرع والدراهم بين يديه، وأخبرته بما كان من أمر عثمان فدعا له النبي بخير^(١).

٢. زفافها:

قالت أسماء بنت عميس: كنت في زفاف فاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليه، فلما أصبحنا جاء النبي صلوات الله عليه إلى الباب فقال: «يا أم أيمن ادعي لي أخي»، فقالت: هو أخوك وتنكحه؟ قال: «نعم يا أم أيمن»، قالت: فجاء علي فنضح النبي صلوات الله عليه عليه من الماء، ودعا له ثم قال: «ادعي إلي فاطمة» قالت: فجاءت تعثر من الحياء، فقال لها رسول الله صلوات الله عليه: «اسكتي فقد أنكحتك أحب أهل بيتي إلي»، قالت: ونضح النبي صلوات الله عليه عليها من الماء ودعا لها، قالت: ثم رجع رسول الله صلوات الله عليه فرأى سواداً بين يديه، فقال: «من هذا؟» فقلت: أنا، قال: «أسماء؟» قلت: نعم، قال: «أسماء بنت عميس؟» قلت: نعم، قال: «جئت في زفاف بنت رسول الله تكرمه له؟» قلت: نعم، قالت: فدعا لي^(٢).

٣. وليمة العرس:

عن بريدة قال: لما خطب علي فاطمة، قال رسول الله صلوات الله عليه: «إنه لا بد للعرس^(٣) من وليمة»، قال: فقال سعد: علي كيش، وجمع له رهط من الأنصار أصعاً من ذرة، فلما كان ليلة البناء، قال: «يا علي لا تحدث شيئاً حتى تلقاني». فدعا النبي صلوات الله عليه بماء فتوضأ منه ثم أفرغه على علي، فقال: «اللهم بارك فيهما وبارك عليهما، وبارك في شبلهما»^(٤).

(١) «كشف الغمة»، للأربلي (٣٥٩/١)، و«بحار الأنوار» للمجالسي ص (٣٩) نقلاً عن: «الشيعة وأهل البيت» ص (١٣٧، ١٣٨).

(٢) «فضائل الصحابة» (٩٥٥/٢) رقم (٣٤٢)، وإسناده صحيح.

(٣) للعرس: أي للعروس.

(٤) «المعجم الكبير» للطبراني (١١٥٣)، و«فضائل الصحابة» (٨٥٨/٢)، وإسناده صحيح.

٤. معيشة علي وفاطمة رضي الله عنهما:

كانت معيشة علي وفاطمة رضي الله عنهما، وهما أحب الناس إلى رسول الله صلوات الله عليهما، معيشة زهد وتقشف، وصبر وجهد، فقد أخرج هناد عن عطاء، قال: نبئت أن علياً رضي الله عنه قال: مكثنا أياماً ليس عندنا شيء، ولا عند النبي صلوات الله عليهما، فخرجت فإذا أنا بدينار مطروح على الطريق، فمكثت هنيهة أو أمر نفسي في أخذه أو تركه، ثم أخذته لما بنا من الجهد، فأعطيت به الضفاطين^(١)، فاشترت به دقيقاً، ثم أتيت به فاطمة فقلت: اعجني واخبزي، فجعلت تعجن - وإن قصتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها - ثم خبزت، فأتيت النبي صلوات الله عليهما فأخبرته، فقال: «كلوه؛ فإنه رزق رزقكموه الله عز وجل»^(٢)، وعن الشعبي، قال: قال علي رضي الله عنه: تزوجت فاطمة بنت محمد رسول الله ومالي ولها فراش غير جلد كبش تنام عليه بالليل، ونعلف عليه ناضحنا بالنهار، ومالي خادم غيرها^(٣). وعن مجاهد قال: قال علي: جعت مرة بالمدينة جوعاً شديداً، فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرأ، فظننتها تريد بله^(٤)، فأتيتها فقاطعتها^(٥) كل ذنوب^(٦) على تمر، فمددت ستة عشر ذنوباً، حتى مجلت يداي^(٧)، ثم أتيت الماء فأصبت منه، ثم أتيتها فقلت بكفي هكذا بين يديها^(٨)، فعدت لي ست عشرة تمر، فأتيت النبي صلوات الله عليهما، فأخبرته، فأكل معي منها^(٩)، في هذا الخبر بيان لشدة الحال التي مر بها أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في المدينة، ونأخذ منه صورة من السلوك المشروع في مواجهة الشدائد، حيث خرج علي رضي الله عنه للعمل بيديه للكسب المشروع، ولم يجلس منتظراً ما تجود به أيدي

(١) الضفاطون: الحمالون والمكارون الذين يجلبون الدقيق من الخارج.

(٢) «كنز العمال» (٣٢٨/٧)، و«المرتضى» للندوي ص(٤١).

(٣) «كنز العمال» (١٣٣/٧)، و«المرتضى» للندوي ص(٤١).

(٤) المدر، يعني: الطين اليابس، تريد به: يعني: بالماء.

(٥) فقاطعتها: أي: اتفقت معها على أجره.

(٦) ذنوب: دلو.

(٧) مجلت: تورمت من العمل.

(٨) يعني: بسطهما وضمهما.

(٩) «صفة الصفوة» (١/٣٢٠)، و«الموسوعة الحديثية»، و«مسند أحمد» (١١٣٥)، وإسناده ضعيف لانقطاعه.

المحسنين، وصورة أخرى من قوة التحمل، حيث قام بذلك العمل الشاق وهو يعاني من شدة الجوع ما يضعف قوته، وصورة أخرى من إثارة الأحبة والوفاء لهم، فهو على ما به من شدة الجوع وبالرغم مما قام به من ذلك العمل الشاق؛ قد احتفظ بأجرته من التمر حتى لقي النبي صلى الله عليه وسلم فأكل معه^(١).

٥- زهد السيدة فاطمة وصبرها:

كانت حياتها في غاية البساطة، بعيدة عن التعقيد، وهي إلى شطف العيش أقرب منها إلى رغبته^(٢)، وهذه القصة تصور لنا حال السيدة فاطمة من التعب وموقف رسول الله صلى الله عليه وسلم منها عندما طلبت منه أن يعطيها خادمًا من السبي، قال علي لفاطمة ذات يوم: والله لقد سنت^(٣)، حتى لقد اشتكيت صدري، قال: وجاء الله أباك بسبي فاذهبي فاستخدميه^(٤)، فقالت: أنا والله قد طحنت حتى مجلت يداي، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ما جاء بك أي بنية». قالت: جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت فقال علي: ما فعلت؟ قالت: استحيت أن أسأله، فأتينا جميعًا. فقال علي: يا رسول الله والله لقد سنت حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: قد طحنت حتى مجلت يداي^(٥)، وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي^(٦) بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»، فرجعا فأتاهما النبي صلى الله عليه وسلم وقد دخلا في قظيفتهما إذا غطيا رأسيهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطيا أقدامهما تكشفت رأسيهما، فثارا، فقال: «مكانكما»، ثم قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا: بلى. فقال: كلمات علمنيهن جبريل -عليه السلام- فقال: «تسبحان في دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان

(١) «التاريخ الإسلامي»، للحميدي (٤٩/١٩، ٥٠).

(٢) انظر: «معين السيرة» للشامي، ص (٢٥٥).

(٣) سنت: استقيت.

(٤) أي: أسأله خادمًا.

(٥) «السيرة النبوية» للصلاحي (٢/ ٩٩)، و«مسلم» رقم (٢٧٢٧)، و«البخاري» رقم (٣٧٠٥).

(٦) تطوي: طوي من الجوع فهو طوي: خالي البطن جائع لم يأكل.

عشراً، وتكبران عشراً، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين واحمد ثلاثاً وثلاثين وكبّراً أربعاً وثلاثين»^(١)، وفي القصة السالفة بعض القيم المهمة منها:

إن هذه الحادثة تبين لنا كيف أدار النبي ﷺ الأزمة الاقتصادية التي مرت بدولة الرسول ﷺ في المدينة وذلك من خلال ترتيبه للأولويات، فسد جوع أهل الصفة ضرورة، وأما حاجة علي وفاطمة للخادم فليست بمرتبة احتياج أهل الصفة، فقدّم رسول الله ﷺ أهل الصفة عليهم، وكانت وسائل رسول الله ﷺ في حل الأزمة الاقتصادية كثيرة.

ولقد تأثر علي ؓ بهذه التربية النبوية، ويمر الزمن بالفتى علي فيصبح خليفة المسلمين، فإذا به من آثار هذه التربية يترفع عن الدنيا وزخارفها وييده كنوز الأرض وخيراتها؛ لأن ذكر الله يملأ قلبه ويغمر وجوده، ولقد حافظ علي وصية رسول الله ﷺ له وقد حدثنا عن ذلك فقال: «فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن، فسأله أحد أصحابه: ولا ليلة صفين فقال: ولا ليلة صفين»^(٢).

٦. إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا:

عن علي بن أبي طالب ؓ قال: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعلى فاطمة من الليل، فأيقظنا للصلاة، قال: ثم رجع إلى بيته فصلى هويّاً من الليل، قال: فلم يسمع لنا حسّاً، قال: فرجع إلينا، فأيقظنا وقال: «قوما فصليا»، قال: فجلست وأنا أعرك عيني وأقول: إنا والله ما نصلي إلا ما كتب لنا، إنما أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، قال: فولى رسول الله ﷺ وهو يقول، ويضرب يده على فخذه: «ما نصلي إلا ما كتب لنا، ما نصلي إلا ما كتب لنا، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤)»، وهذا فيه تجرد علي ؓ للحق وحرصه على نشر العلم، ولو كان الأمر متعلقاً به ؓ وهذه قيمة كبرى يتعلمها المسلمون من أمير المؤمنين علي، ولو أراد لكتّم الحديث، علماً بأن صلاة الليل لم تكن واجبة.

(١) «البخاري»، رقم (٣٧٠٥)، و«مسلم» رقم (٢٧٢٧).

(٢) «مسلم» (٢٠٩٢/٤).

٧. محبة رسول الله صلوات الله عليه وآله للسيدة فاطمة وغيرته عليها:

عن ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلوات الله عليه وآله إذا سافر يكون آخر عهده بالمدينة إتيان فاطمة، وأول من يدخل عليه إذا قدم من سفره فاطمة^(١)، وفي رواية عن أبي ثعلبة الخشني قال: كان رسول الله صلوات الله عليه وآله إذا قدم من غزو أو سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه^(٢)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: مارأيت أحداً أشبه سمّاً ولا دلاً برسول الله صلوات الله عليه وآله في قيامه وقعوده من فاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليه وآله، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها وأجلسها في مجلسه، وكان النبي صلوات الله عليه وآله إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها^(٣)، وفي رواية: أنها كانت تقبل يده^(٤)، وعن أسامة ابن زيد قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وآله: «أحب أهل بيتي إليّ فاطمة»^(٥)، وقد أراد علي رضي الله عنه أن يتزوج بنت أبي جهل على فاطمة، فخطب رسول الله صلوات الله عليه وآله الناس- وإن في رواية السيدة عائشة للحديث دليل على حقيقة المحبة بين السيدتين، وليست كما يدعي المغرضون- فقال: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»^(٦)، وعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلوات الله عليه وآله يقول: «إن بني هاشم بن المغيرة استأذنونني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا أذن لهم ثم لا أذن لهم، ثم لا أذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم؛ فإنما ابنتي بضعة مني يربيني ما أربأها»^(٧)، ويؤذيني ما أذاها»^(٨)، وبلفظ آخر عند مسلم قال: إن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل على فاطمة، فسمعت رسول الله صلوات الله عليه وآله وهو يخطب الناس في ذلك على منبره هذا

(١) «مسند أحمد» (٢٧٥/٥)، و«الدوحة النبوية»، لفاروق حمادة ص(٥٦).

(٢) «الاستيعاب» (٤ / ٣٧٦) في سنده أبو فروة الرهاوي مضعف، و«الدوحة النبوية» ص(٥٦).

(٣) «مسلم» رقم (٢٤٥٠)، و«صحيح سنن أبي داود» رقم (٥٢١٧).

(٤) «سنن أبي داود» رقم (٥٢١٧)، و«الدوحة النبوية» ص (٥٦).

(٥) «مسند الطيالسي» (٢٥/٢) حسن صحيح.

(٦) «البخاري» رقم (٤١٧٣).

(٧) أي: يسوءني ما يسوءها، ويزعجني ما يزعجها، لابن الأثير (٢/٢٨٧).

(٨) «البخاري» رقم (٥٢٣٠).

وأنا يومئذ محتلم فقال : «إن فاطمة مني، وإني أتخوف أن تفتن في دينها» قال : ثم ذكر صهرًا له من بني عبد شمس^(١) ، فأثنى عليه في مصاهرته إياه ، فأحسن ، قال : «حدثني فصدقني، ووعدني فأوفى لي، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله في مكان واحد أبداً»^(٢) .

وروى الترمذي بسنده إلى عبد الله بن الزبير رضي الله عنه : أن علياً ذكر بنت أبي جهل فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : «إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها ويتعني ما أتعبها»^(٣) .

وفي إعلان رسول الله صلى الله عليه وسلم محبتها ومكانتها على الملأ ، وأن إذايتها إذاية له ، تعريف بحق^(٤) حرمتها ، كما دلت هذه الأحاديث على تحريم إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم بكل حال ، وعلى كل وجه ، وإن تولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحاً وهو حي وهذا بخلاف غيره ، وقالوا : وقد أعلم صلى الله عليه وسلم بإباحة بنت أبي جهل لعلي بقوله صلى الله عليه وسلم : «لست أحرم حلالاً» ولكن نهى عن الجمع بينهما ؛ لعلتين منصوصتين :

إحداهما : أن ذلك يؤدي إلى أذى فاطمة ؛ فيتأذى حينئذ النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فيهلك من آذاه فنهى عن ذلك لكمال شفقتة على علي وعلى فاطمة .

والثانية : خوف الفتنة عليها بسبب الغيرة ، وقيل : ليس المراد به النهي ، بل معناه : أعلم من فضل الله أنهما لا تجتمعان ، ويحتمل أن المراد تحريم جمعهما ويكون معنى «لست أحرم حلالاً» أي : لا أقول شيئاً يخالف حكم الله ، فإذا أحل الله شيئاً لم أحرمه ، وإذا حرم شيئاً لم أحلله ولم أسكت عن تحريمه ؛ لأن سكوتي تحليل له ، ويكون من جملة محرمات النكاح الجمع بين بنت نبي الله وبنت عدو الله^(٥) ، ومن

(١) هو : أبو العاص بن الربيع زوج زينب رضي الله عنها وكان قد وقع أسيراً في بدر ، فأرسلت زينب فقلادتها في فداء زوجها ، فأطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا العاص بن الربيع ورد المسلمون على زينب فقلادتها ، وأخذ النبي على أبي العاص أن يخلي سبيلها فوعده ذلك ففعل .

(٢) «مسلم» (١٩٠٣/٤) .

(٣) «فضائل الصحابة» (٧٥٦/٢) رقم (١٣٢٧) ، وإسناده صحيح .

(٤) «الدوحة النبوية الشريفة» ص (٥٧) .

(٥) «شرح صحيح مسلم» (٢٣٦/١٦ ، ٢٣٧) .

مناقب السيدة فاطمة ما رواه الحاكم أيضاً بإسناده إلى بريدة رضي الله عنه قال: كان أحب النساء إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم فاطمة ومن الرجال علي^(١)، ولا يفهم من هذا الحديث معارضته لما ثبت في الصحيح من حديث عمرو ابن العاص أنه سئل النبي صلوات الله عليه وسلم أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قال: من الرجال؟ قال: «أبوها»^(٢).

فالمراد من هذا الحديث -والله أعلم- أن فاطمة أحب النساء إليه من أهله، وعلي من رجالهم وفي ذلك يقول ابن العربي عند هذا الحديث: كان أحب الناس إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم أبوبكر وأحب أزواجه إليه عائشة، وأحب أهله إليه فاطمة، وعلي من رجالهم، وبهذا الترتيب تأتلف الأحاديث، ويرتفع عنها التعارض^(٣).

٨- صدق لهجتها:

روى الحاكم بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها أنها كانت إذا ذكرت فاطمة بنت النبي صلوات الله عليه وسلم قالت: ما رأيت أحداً كان أصدق لهجة منها إلا أن يكون الذي وكدها^(٤). وفي ذلك منقبة ظاهرة لها رضي الله عنها فقد وصفتها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بأنها كانت تشبه النبي صلوات الله عليه وسلم هيئة وطريقة وحسن حال، كما كان التزامها للصدق أشبه له فرضي الله عنها وأرضاها^(٥).

٩- سيادتها في الدنيا والآخرة:

جاءت الأحاديث الصحيحة -عن الصادق المصدوق- التي دلت على سيادتها في الدنيا والآخرة، روى الترمذي بإسناده إلى أنس بن مالك أن النبي صلوات الله عليه وسلم قال: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت

(١) «المستدرک» کتاب معرفة الصحابة (١٥٥/٣) صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) «البيخاري» رقم (٤٣٥٨).

(٣) «عارضه الأحوذی» (١٣/٢٤٧، ٢٤٨)، و«العقيدة في أهل البيت» ص(١٣٧).

(٤) «المستدرک» (٣/١٦٠، ١٦١)، صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٥) «العقيدة في أهل البيت» ص(١٣٦).

محمد، وآسية امرأة فرعون»^(١)، وروى الحاكم بإسناده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران»^(٢). وقال البخاري: باب مناقب فاطمة رضي الله عنها، وقال النبي صلوات الله عليه: «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة»^(٣).

خامساً: أولادها: الحسن والحسين رضي الله عنهما :

١- الحسن بن علي رضي الله عنهما :

هو الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي، سبط رسول الله صلوات الله عليه، وريحانته في الدنيا وأحد سيدي شباب أهل الجنة، أمه فاطمة الزهراء، ولد للنصف من رمضان سنة ٣هـ، وقيل: في شعبان وقيل: في سنة أربع أو خمس^(٤). وقد توفي عام ٥٠هـ. وقد اخترت في كتابي «السيرة النبوية» بأنه ولد في العام الرابع للهجرة^(٥).

هذا وقد سماه رسول الله صلوات الله عليه حسناً، قال علي رضي الله عنه: لما ولد الحسن سميته حرباً، فجاء رسول الله صلوات الله عليه فقال: «أروني ابني. ما سميتموه؟» قلت: حرباً، قال صلوات الله عليه: «بل هو حسن»^(٦). وهكذا غير صلوات الله عليه ذلك الاسم الحاد باسم جميل يدخل السرور والبهجة على القلوب، فحمل المولود الحديد اسمه الجميل، وحمله صلوات الله عليه بين يديه وقبله، وهذا أبو رافع يخبرنا عمّا فعله رسول الله صلوات الله عليه، يقول: رأيت النبي صلوات الله عليه أذن في أذني الحسن حين ولدته فاطمة بالصلاة^(٧).

(١) «فضائل الصحابة» (٧٥٥/٢) رقم (١٣٢٥)، صححه الألباني، و«تحرير المشكاة» (٣/٧٤٥).

(٢) «فضائل الصحابة» رقم (١٣٣٢)، وإسناده حسن لغيره.

(٣) «البخاري»، كتاب فضل الصحابة (٤/٢٥٢).

(٤) «فضائل الصحابة» (٢/٩٦٠)، و«حلية الأولياء» (٢/٣٥).

(٥) «السيرة النبوية» للصلابي (٢/١٩٩)، و«شذرات الذهب» (١/١٠).

(٦) رواه البخاري في الأدب (٢٨٦).

(٧) «سنن أبي داود» رقم (٥١٠٥)، وإسناده ضعيف، حكم عليه الشيخ عثمان الخميس عن رسالته للماجستير

المتعلقة بالأحاديث الخاصة بالحسن والحسين ص (٨٠).

وحدثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن فقال: لما ولدت فاطمة حسناً قالت: ألا أعق عن ابني بدم (بكشين) قال عليه السلام: «لا ولكن احلقي رأسه، وتصدقي بوزن شعره من فضة على المساكين والأفاض»، وكان الأفاض ناساً من أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم محتاجين في المسجد أو الصفة؛ ففعلت ذلك^(١).

هذا وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل الحسن بن علي رضي الله عنهما منها:

(أ) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: رأيت الحسن بن علي على عاتق النبي صلوات الله عليهم وهو يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»^(٢).

(ب) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليهم أنه قال للحسن: «اللهم إني أحبه، فأحبه وأحب من يحبه»^(٣).

(ج) وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليهم أنه كان يأخذه والحسن ويقول: «اللهم إني أحبهما فأحبهما»^(٤).

(د) عن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلوات الله عليهم على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: «ابني هذا سيدٌ ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»^(٥). فأخبار النبي صلوات الله عليهم بأن الحسن سيدٌ؛ مفخرة عظيمة، وميزة شريفة له رضي الله عنه وأرضاه، وقد تحققت نبوءة جده صلوات الله عليهم، فأصلح الله على يديه بين المسلمين، وحقن دماءهم حيث نزل عن حقه في الخلافة لمعاوية رضي الله عنهم أجمعين، وكان ذلك في سنة إحدى وأربعين، وكانت خلافته رضي الله عنه ستة أشهر، وسمي هذا العام عام الجماعة، وهذا ما أخبر به النبي صلوات الله عليهم بقوله: «لعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين»^(٦)، قال ابن حجر: فالحديث فيه علم من أعلام النبوة، ومنقبة للحسن بن علي؛ فإنه ترك الملك لا لقلّة ولا لذلة

(٢) «البخاري» رقم (٣٧٤٩).

(١) «الطبقات» (١/٢٣٣)، وإسناده ضعيف.

(٤) «البخاري» رقم (٣٧٤٧).

(٣) «مسلم» (٢٤٢١).

(٥) «البخاري» رقم (٣٧٤٦).

(٦) «البداية والنهاية» (٨/٢٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٣/١٤٤، ١٤٥).

ولا لعلة بل لرغبة فيما عند الله؛ لما رآه من حقن دماء المسلمين؛ فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة^(١)، وسيأتي الحديث بإذن الله عن تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية عند حديثنا عن عهده في كتاب مستقل.

(هـ) وعن سعيد المقبري^(٢)، قال: كنا مع أبي هريرة رضي الله عنه فجاء الحسن بن علي ابن أبي طالب علينا فسلم، فرددنا عليه السلام ولم يعلم به أبوهريرة، فقلنا: يا أباهريرة هذا الحسن بن علي قد سلم علينا؛ فلحقه وقال: عليك السلام يا سيدي، ثم قال: إنه سيد^(٣).

(و) ومنها مشابهته رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم في الخلق، فقد روى البخاري بإسناده إلى أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن أحد أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الحسن بن علي^(٤).

(ز) وروى أيضا بإسناده إلى عقبه بن الحارث قال: رأيت أبا بكر رضي الله عنه وقد حمل الحسن وهو يقول: بأبي شبيهه بالنبي، ليس شبيهه بعلي، وعلي يضحك^(٥)، فكونه رضي الله عنه شبه جده المصطفى صلى الله عليه وسلم في الخلق منقبة عظيمة له، وفضيلة ظاهرة^(٦).

٢- الحسين بن علي رضي الله عنهما:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب، سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وريحانته ومحبوه، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاطمة رضي الله عنها، كان مولده سنة ٤هـ، وقيل: غير ذلك ومات رضي الله عنه قتيلًا شهيدًا، في يوم عاشوراء من شهر المحرم سنة إحدى وستين هجرية بكرىلاء من أرض العراق فرضي الله عنه وأرضاه^(٧)، وقد وردت في مناقبه وفضائله أحاديث كثيرة منها:

(١) «فتح الباري» (٦٦/١٣).

(٢) هو: كيسان المدني مولى أم شريك، ثقة ثبت مات سنة (١٠هـ)، و«التقريب» (٤٦٣).

(٣) «المستدرک»، کتاب معرفة الصحابة (١٦٩/٣) صحيح الإسناد، وواقفه الذهبي.

(٤) «البخاري»، كتاب الفضائل رقم (٣٧٥٢).

(٥) «البخاري» رقم (٣٧٥٠).

(٦) «العقيدة في أهل البيت» ص (١٤٧).

(٧) «البدایة والنهاية» (١٥٢/٨)، و«الإصابة» (٣٣٤، ٣٣١/١).

أ - ما رواه أحمد بإسناده إلى يعلى العامري رضي الله عنه : أنه خرج مع رسول الله صلوات الله عليه - يعني إلى طعام دعوا له - قال : فاستمثل رسول الله صلوات الله عليه أمام القوم ، وحسين مع غلمان يلعب فأراد رسول الله صلوات الله عليه أن يأخذه فطفق الصبي يفر هنا مرة وههنا مرة ، فجعل النبي صلوات الله عليه يضاحكه حتى أخذه ، قال : فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ، ووضع فاه وقبله وقال : «حسين مني وأنا من حسين، اللهم أحب من أحبَّ حسيناً، حسين سبط من الأسباط»^(١) ، وفي ذلك منقبة ظاهرة للحسين رضي الله عنه ؛ إذ حث على محبته وكأنه صلوات الله عليه علم بنور الوحي ما سيحدث بينه وبين القوم فخصه بالذكر ، وأكد على وجوب المحبة وحرمة التعرض والمحاربة ، وأكد ذلك بقوله : «أحب الله من أحب حسيناً؛ فإن محبته تؤدي لمحبة الرسول ومحبة الرسول محبة الله»^(٢) .

(ب) ومنها ما رواه البخاري بإسناده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أتني عبيدالله بن زياد^(٣) برأس الحسين رضي الله عنه ، فجعل في طست ، فجعل ينكت ، وقال في حسنه شيئاً ، فقال أنس : كان أشبههم برسول الله صلوات الله عليه ، وكان مخضوباً بالوسمة^(٤) .

(ج) وفي رواية أخرى عن أنس أيضا قال : لما أتني عبيدالله بن زياد برأس الحسين جعل ينكت بالقضيب ثنياه ، يقول : لقد كان - أحسبه قال - جميلاً فقلت : والله لأسوءنك إنني رأيت رسول الله يلثم حيث يقع قضيبك ، قال : فانقبض^(٥) . فالحديثان يدلان على فضل الحسين رضي الله عنه ، وأنه كان أشبه أهل البيت به ، ولكن قد يرد إشكال ولاسيما وأنه قد تقدم في فضائل الحسن ، أنه لم يكن أحد أشبه برسول الله صلوات الله عليه من الحسن بن علي ، فيحدث التعارض ، وقد أزال

(١) «فضائل الصحابة» رقم (١٣٦١) إسناده حسن .

(٢) «تحفة الأحوذى» (١٠/٢٧٩) .

(٣) قتل عبيدالله عام ٦٧هـ ، «الأعلام» (٤/١٩٣) .

(٤) «البخاري» رقم (٣٧٤٨) ، والوسمة بكسر السين وقد تسكن : نبت وقيل : شجر باليمن يخضب بورقه الشعر .

(٥) «فضائل الصحابة» (٢/٩٨٥) رقم (١٣٩٧) ، وإسناده حسن ، و«مجمع الزوائد» (٩/١٩٥) .

الإشكال والتعارض ابن حجر - رحمه الله - حيث جمع بينهما، فقال: ويمكن الجمع بأن يكون أنس قال ما وقع في رواية الزهري في حياة الحسن؛ لأنه يومئذ كان أشد شبيهاً بالنبي ﷺ من أخيه الحسين، وأما ما وقع في رواية ابن سيرين فكان بعد ذلك كما هو ظاهر من سياقه، أو المراد بمن فضل الحسين عليه في الشبه ماعدا الحسن، ويحتمل أن يكون كل منهما أشد شبيهاً في بعض أعضائه، فقد روى الترمذي وابن حبان من طريق هانئ بن هانئ عن علي قال: الحسن أشبه النبي ﷺ ما بين الرأس إلى الصدر، والحسين أشبه النبي ﷺ ما كان أسفل من ذلك^(١)، فهذه بعض الأحاديث الواردة في الحسين رضي الله عنه وأرضاه.

٣- ما ورد من أحاديث في مناقب مشتركة بين الحسن والحسين رضي الله عنهما:

(أ) ما رواه البخاري بإسناده إلى ابن عمر أنه قد سأله رجل من العراق عن المحرم يقتل الذباب، فقال رضي الله عنه: أهل العراق يسألون عن الذباب وقد قتلوا ابن ابنة رسول الله ﷺ وقال النبي ﷺ: «هما ريحانتي من الدنيا»^(٢).

قال ابن حجر: والمعنى: أنهما مما أكرمني الله وحباني به؛ لأن الأولاد يشمون ويقبلون فكأنهم من جملة الرياحين^(٣).

(ب) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني» يعني: حسن وحسين^(٤).

(ج) وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ أبصر حسناً وحسيناً فقال: «اللهم إني أحبهما فأحبهما»^(٥).

(د) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»^(٦).

(١) فضائل الصحابة «رقم (١٣٦٦)»، وإسناده صحيح.

(٢) «لبخاري» رقم (٣٧٥٣). (٣) «فتح الباري» (١٠/٤٢٧).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (٢/٢٩)، و«فضائل الصحابة» رقم (١٣٥٩).

(٥) «صحيح السنن الترمذي» (٣/٢٢٦)، و«سنن الترمذي» رقم (٣٧٨٢).

(٦) «لمجمع الزوائد» (٩/١٨٤)، و«صححه الألباني في الأحاديث الصحيحة» (٢/٤٤٨).

(هـ) عن عبدالله بن بريدة قال: سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ على المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ورسوله **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**» (التغابن: ١٥)، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران؛ فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»^(١).

(و) عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يُعوذُ الحسن والحسين ويقول: «إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق: أعوذُ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة»^(٢). وهذا الحديث لا يتعارض مع ما رواه سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا هامة»^(٣) وما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ في قوله: «لا هام لا هام»^(٤)، وقوله ﷺ: «لا عدوى ولا هامة ولا نوء ولا صفر»^(٥)، فقد أجاب أبو جعفر الطحاوي بقوله: ففي هذه الأحاديث نفيه الهامة ونفي وجودها، فكيف يجوز أن يعوذهما من معدوم؟ فكان جوابنا له بتوفيق الله عز وجل وعونه: أن الهامة التي عوذهما ﷺ منها هي هوام الأرض التي يخاف غوائلها، والهامة التي نفاها هي خلافها، وهي ما كانت العرب تقول في موتها، فمن ذلك مارثي به لبيد أخاه أربد^(٦) بقوله:

فليس النَّاسُ بَعْدَكَ فِي نَقِيرِ

وَلَا هُمْ غَيْرُ أَصْدَاءٍ وَهَامٍ

ومن ذلك قول أبي داود الأيادي:

سُلِّطَ الْمَوْتُ وَالْمَنُونُ عَلَيْهِمْ

فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامٌ

(١) «فضائل الصحابة» رقم (١٣٥٨)، وإسناده صحيح. (٢) البخاري رقم (٣٣٧١).

(٣) «صحيح ابن حبان» رقم (٦١٢٧)، وإسناده قوي، و«الطبراني» (١١٧٦٤).

(٤) «شرح مشكل الآثار» (٣٢٨/٧)، وإسناده صحيح.

(٦) «شرح مشكل الآثار» (٣٢٩/٧).

(٥) «مسلم» رقم (٢٢٢٠).

فنفى رسول الله ﷺ ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي روينا، وأما الهامة التي عوذ منها حسناً وحسيناً، فهي موجودة، وهي هوام الأرض المخوفة، وهي مشددة الميم، والهامة التي نفاها مخففة الميم، فليست منها في شيء (١).

سادساً: حديث الكساء ومفهوم أهل البيت:

حديث الكساء روته عائشة رضي الله عنها (٢)، قالت: خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحل من شعر أسود «وهو الكساء» فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وهذا يبين لنا كذب من ادعى أن الصحابة يكتمون فضائل علي؛ فهذه عائشة التي يدعون أنها تبغض علياً هي التي تروي هذا الفضل لعلي وفاطمة (٣).

إن الخطاب في الآيات الكريمة كله لأزواج النبي ﷺ حيث بدأ بهن وختم بهن قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعَنَّ وَأُسْرِحْكِ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنِ يَاْتُ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٨-٣٤)، فالخطاب كله لأزواج النبي ﷺ ومعهن الأمر والنهي والوعد والوعيد، لكن لما تبين ما في هذا من المنفعة التي تعمهن وتعم غيرهن من أهل البيت جاء التطهير بضمير المذكر؛ لأنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث غلب المذكر، حيث تناول أهل البيت كلهم، وعلي

(٢) «مسلم» رقم (٢٤٢٤) كتاب فضائل الصحابة.

(١) «شرح مشكل الآثار» (٧/ ٣٣٠).

(٣) «حقبة من التاريخ» (ص ١٨٧).

وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أخص من غيرهم بذلك؛ لذلك خصهم النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء لهم، كما أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم يتعدى علياً والحسن والحسين وفاطمة رضي الله عنهم إلى غيرهم كما في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه وأنه لما قيل له: نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته الذين حرموا الصدقة وهم: آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس رضي الله عنهم (١)، إذا اتسع مفهوم أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أكثر من ذلك؛ فهم نساؤه بدليل الآية، ويشمل أيضاً علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم كحديث الكساء، وبحديث زيد ابن أرقم، وآل العباس بن عبد المطلب، وآل عقيل بن أبي طالب وآل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم بدليل حديث زيد بن أرقم وآل الحارث بن عبد المطلب (٢)، وسيأتي الحديث عن الآية الكريمة مفصلاً عند مناقشتنا للشريعة بإذن الله تعالى.

سابعاً: ما يخص آل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحكام:

١- تحرم عليهم الزكاة:

لحديث عبد المطلب بن ربيعة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد؛ إنما هي أوساخ الناس» (٣).

٢- لا يرثون رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لحديث أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا نُورَثُ، ما تركنا صدقة» (٤). وقد روى هذا الحديث أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن ابن عوف والعباس بن عبدالمطلب رضي الله عنهم وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأبو هريرة رضي الله عنه كما نص على ذلك ابن تيمية وهي ثابتة عنهم في الصحاح والمسانيد (٤).

(٢) «مسلم» كتاب الزكاة رقم (١٦٧).

(١) «مسلم» رقم (١٠٧).

(٤) «البخاري» رقم (٣٠٩٣)، و«مسلم» (١٧٥٧).

(٣) «مسلم» رقم (١٠٧٢).

(٤) «منهاج السنة» (١٩٥/٤)، و«البداية والنهاية» (٢٥٢/٥).

٣. لهم خمس الخمس في الغنيمة^(١) والفيء^(٢):

قال تعالى:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ
الْجَمْعَانَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأنفال: ٤١).

وقال تعالى:

﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ (الحشر: ٢٧).

٤. الصلاة عليهم مع النبي ﷺ:

عن كعب بن عجرة قال: سألتنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم، قال: قولوا: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وعلى إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٣).

٥. لهم مودة خاصة ويتمثل هذا فيما رواه زيد بن أرقم:

عن النبي ﷺ: «أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»، أذكركم الله في أهل بيتي»^(٤).

قال القرطبي: وهذه الوصية، وهذا التأكيد العظيم؛ يقتضي وجوب احترام أهله وإبرارهم وتوقيرهم ومحبتهم، وجوب الفروض المؤكدة التي لا عذر لأحد في

(١) ما أصيب من أموال أهل الحرب فأوجف عليه المسلمون بالخيال والركاب «النهاية» (٣/٣٨٩).
(٢) ما حصل للمسلمين من أموال الكفار من غير حرب ولا جهاد، «النهاية» (٣/٤٨٢).
(٣) «البخاري» رقم (٣٣٧٠)، و«مسلم» رقم (٤٠٦).
(٤) «مسلم» رقم (٢٤٠٨).

التخلف عنها^(١)، وقد فهم وصية النبي صلى الله عليه وسلم بأهل بيته حق الفهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فأحبهم وأكرمهم ودعا الناس إلى إكرامهم ومحبتهم، فقد روى البخاري بإسناده إلى أبي بكر رضي الله عنه، أنه قال: «ارقبوا محمداً صلى الله عليه وسلم في أهل بيته»^(٢).

فهذا خطاب من الصديق رضي الله عنه ووصية منه للناس في حفظ حقوق آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فالرقابة للشيء المحافظة عليه، ومعنى قول الصديق: احفظوه فيهم فلا تؤذوهم ولا تسيئوا إليهم^(٣)، وقال النووي: ومعنى «ارقبوا»: راعوه واحترموه وأكرموه^(٤)، وقد أكد رضي الله عنه تلك الحقوق بما قاله لعلي رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ أن أصل من قرابتي^(٥)، ومحبة أهل البيت من أصول أهل السنة والجماعة، يقول ابن تيمية: وإن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٦).

وقال القاضي عياض: إن من علامات محبته صلى الله عليه وسلم محبته لمن أحب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم أجمعين فمن أحب شيئاً أحب من يحبه^(٧).

وقال ابن كثير: ولا ننكر الوصاية بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم؛ فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخراً، وحسباً ونسباً، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، فكانوا من أهل الحق كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته رضي الله عنهم أجمعين^(٨).

(٢) «البخاري» رقم (٣٧١٣).

(١) «فيض القدير»، للمناوي (١٤/٣).

(٣) انظر: «فتح الباري» (٩٧/٧).

(٥) «البخاري» رقم (٣٧١٢).

(٤) «العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط» (النهاية).

(٧) «الشفاء» (٥٧٣/٢).

(٦) «مجموع الفتاوى» (٤٠٧/٣).

(٨) «تفسير القرآن العظيم» (١١٣/٤).

ثامناً: علي رضي الله عنه في غزوة أحد:

في غزوة أحد بدأ القتال بمبارزة بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وطلحة بن عثمان، وكان بيده لواء المشركين، وطلب المبارزة مراراً، فخرج إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له علي: والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار، أو يعجلني بسيفك إلى الجنة، فضربه علي، فقطع رجله فوقع علي الأرض فانكشفت عورته فقال: يا بن عمي أنشدك الله والرحم فرجع عنه ولم يجهز عليه، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال لعلي بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه^(١)، وكان رضي الله عنه بعد الالتحام في ميمنة الجيش، وأخذ الراية بعد مقتل مصعب بن عمير رضي الله عنه، وفي هذه المعركة قتل من المشركين خلقاً كثيراً، رغم ما أصاب المسلمين من الشدة في هذه الغزوة، إضافة إلى بلائه في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢)، وكان علي رضي الله عنه هو الذي أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وقع في الحفرة يوم أحد^(٣)، ولقد استشهد في تلك الغزوة عدد كبير من خيرة المهاجرين والأنصار، وتركت حزناً عميقاً في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم، كما أصاب العدو من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فأدموا وجهه الشريف، فقامت ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بمداواة جراحه، وإيقاف الدم الذي كان ينزف على وجهه ولحيته عليه الصلاة والسلام^(٤).

وظهرت شجاعة علي رضي الله عنه في تلك المعركة، فعندما أشيع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قتل، وافتقده علي، رأى أن الحياة لا خير فيها بعده، فكسر جفن سيفه، وحمل على القوم حتى أفرجوا له، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥)، فثبت معه ودافع عنه دفاع الأبطال، وقد أصابته ست عشرة ضربة في ذلك اليوم^(٦).

(٢) «البداية والنهاية» (٢٢٤/٧).

(٤) «البخاري» رقم (٤٠٧٥).

(١) «السيرة الحلبية» (٤٩٧/٢ ، ٤٩٨).

(٣) «السيرة النبوية»، لابن هشام (٨٩/٣).

(٥) «مسلم بشرح النووي» (١٢/١٤٨).

(٦) «مسند أبو يعلى» (١/٤١٥ ، ٤١٦)، وإسناده حسن، و«خليفة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد فقيهي

وبعد انسحاب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتجاه العدو، فقال له: «أخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون؟، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل؛ فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزئهم»، قال علي: فخرجت في أثرهم ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة^(١)، فخرج علي رضي الله عنه، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر القوم^(٢)، وفي هذا الخبر عدة دروس وعبر منها:

— شجاعة النبي صلى الله عليه وسلم؛ حيث كان داخل صفوف المشركين ولم يصل إليه سيدنا علي إلا بعد جهد جهيد، فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلب العدو يقاتلهم حتى أصيب بعدة جروح.

— يقظة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومراقبته الدقيقة لتحركات العدو، وقدرته صلى الله عليه وسلم على تقدير الأمور، وتحليل تصرفات الخصم وما يترتب عليها من قرارات.

— ظهور قوته المعنوية العالية، ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا دخول المدينة.

— وفيه ثقة النبي صلى الله عليه وسلم بعلي رضي الله عنه ومعرفته بمعادن الرجال.

— المروءة ومكارم الأخلاق عند علي رضي الله عنه عندما رجع عن خصمه بعدما انكشفت عورته وإقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم له، وهذا العمل يعلمنا قيمة التعامل وكيف تكون الأخلاق حتى مع الخصم وحتى في ساحة المعركة.

— وجوب التضحية في سبيل الله، وأنه بهذه الروح ينتصر الإسلام في الحياة، وينال الشهيد الجنة، وهذا ما أثبتته لنا بعض المهاجرين والأنصار في هذه المعركة وغيرها.

- وجوب الأخذ بسنة الأسباب، وظهر هذا عندما وضع رسول الله ﷺ بعض الصحابة على جبل أحد، فعصوه ونزلوا وكان هذا من أسباب الهزيمة.
- وفيه شجاعة علي رضي الله عنه؛ لأن هذا الجيش لو أبصره ما تورع في محاولة قتله (١).

تاسعاً: علي رضي الله عنه في غزوة بني النضير:

يرى المحققون من المؤرخين أن غزوة بني النضير كانت بعد أحد في ربيع الأول من السنة الرابعة من الهجرة، وقد رد ابن القيم على من زعم أن غزوة بني النضير بعد بدر بستة أشهر بقوله: وزعم محمد بن شهاب الزهري: أن غزوة بني النضير كانت بعد بدر بستة أشهر، وهذا وهم منه أو غلط عليه، بل الذي لا شك فيه أنها بعد أحد، والتي كانت بعد بدر بستة أشهر، هي غزوة بني قينقاع، وقريظة بعد الخندق، وخيبر بعد الحديبية (٢)، وقال ابن العربي: والصحيح أنها بعد أحد (٣)، وإلى هذا الرأي ذهب ابن كثير (٤)، ففي هذه الغزوة فقد الصحابة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ذات ليلة، فقال النبي ﷺ: «إنه في بعض شأنكم»، فعن قليل جاء برأس عزوكم، وقد كمن له حتى خرج في نفر من اليهود يطلب غرة من المسلمين، وكان شجاعاً رامياً، فشد عليه علي رضي الله عنه فقتله، وفر اليهود (٥).

عاشراً: علي رضي الله عنه في غزوة حمراء الأسد:

تعتبر هذه الغزوة مكملة لغزوة أحد، فقد عاد المسلمون من أحد مساء السبت الخامس عشر من شوال من السنة الثالثة للهجرة، وما إن أصبح الصباح وخرج الناس من صلاة الفجر إلا وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالتهيؤ على جناح السرعة لمطاردة العدو، وألا يخرج مع الناس إلا من شهد أحداً، فاستجاب الناس لنداء رسول الله ﷺ مع ما بهم من جراحات وتعب، وكان في

(١) «البدية والنهاية»، و«السيرة النبوية»، للصلابي (١٤٥/٢)، و«غزوة أحد» لأبي فارس ص (٩٥ و ٩٦).

(٢) «زاد المعاد» (٣/٢٤٩).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (٤/١٧٦٥).

(٤) «حديث القرآن عن الغزوات» (١/٢٥٤).

(٥) «إمتاع الأسماع» للمقريزي (١/١٨٠).

مقدمتهم رسول الله صلوات الله عليه ، ولم يسمح لعبد الله بن أبي بالخروج معه ، ولا لأحد لم يشهد أحداً إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الذي استشهد أبوه في أحد ، وكان قد منعه من الاشتراك في بدر وأحد ليبقى عند أخواته البنات وخرج الجيش وفي مقدمتهم رسول الله ، ويحمل اللواء -لواء أحد نفسه- علي بن أبي طالب^(١) ، ووصل المسلمون بقيادة رسولهم الكريم صلوات الله عليه إلى حمراء الأسد التي تبعد عن المدينة ثلاثة عشر ميلاً ، حيث حطوا الرحال فيها ، وقد أدهشت هذه الحركة اليهود والمنافقين لما فيها من جرأة وشجاعة ، وأيقنوا أن الروح المعنوية عالية ، وأنهم لو هزموا لما عملوا على مطاردة قريش^(٢) ، كما أن في خروج النبي صلوات الله عليه إلى حمراء الأسد إشارة نبوية إلى أهمية استعمال الحرب النفسية للتأثير على معنويات الخصوم ، خرج صلوات الله عليه بجنوده إلى حمراء الأسد ومكث فيها ثلاثة أيام ، وأمر بإيقاد النيران ، فكانت تشاهد من مكان بعيد وملأت الأرجاء بأنوارها حتى خيل لقريش أن جيش المسلمين ذو عدد كبير لاطاقة لهم به ، فانصرفوا وقد ملأ الرعب أفئدتهم^(٣) .

قال ابن سعد: ومضى رسول الله صلوات الله عليه بأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد ، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى ترى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه فكتب الله تعالى بذلك عدوهم^(٤) ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة وسجلها المولى عز وجل في كتابه في معرض الثناء على الصحابة: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

(١) وقد حمل علي رضي الله عنه لواء رسول الله في غزوة الكدر لبني سليم بعد عودته إلى المدينة بسبع ليال من غزوة بدر .
 (٢) «علي بن أبي طالب» ، لأحمد السيد الرفاعي ص(١ - ١٠) ، و«تاريخ الإسلام» للذهبي ، و«المغازي» ص(٢٢٦) .
 (٣) «غزوة أحد» ، لأبي فارس ص(٥١) .
 (٤) «الطبقات» لابن سعد (٤٩/٢)

عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢-١٧٥﴾ (آل عمران: ١٧٥-١٧٢).

الحادي عشر: علي رضي الله عنه وموقفه من حادثة الإفك:

ورد في حديث الإفك الذي اتهم فيه المنافقون عائشة رضي الله عنها به، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استدعى علياً وأسامة واستشارهما في فراق أهله، لما كثر القول، وأقلق النبي صلى الله عليه وسلم، واستلبت الوحي. فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم من براءتها، فقال: يا رسول الله أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك^(١)، قالت: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك؟» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه^(٢) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن^(٣)، فتأكله، فقام رسول الله، فاستعذر^(٤) يومئذ من عبدالله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً^(٥)، ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي^(٦)». إن الكلام الذي قاله علي إنما حملة عليه ترجيح جانب النبي؛ لما رأى عنده من القلق والغم بسبب القول الذي قيل.

وكان صلى الله عليه وسلم شديد الغيرة، فرأى علي رضي الله عنه في بادئ الأمر أنه إذا فارقها؛ سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن تتحقق براءتها، فيمكن رجعتها، ويستفاد منه ارتكاب أخف الضررين لذهاب أشدهما^(٧)، وقال النووي: رأى علي أن ذلك هو المصلحة في حق النبي صلى الله عليه وسلم، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل

(١) «البخاري» رقم (٤٧٥٠).

(٣) الداجن: هي الشاة التي يعلقها الناس في منازلهم.

(٤) فاستعذر: أي قال: من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه.

(٥) هو: صفوان بن المعطل السلمي.

(٧) «دور المرأة السياسي»، ص (٤٦٢).

(٢) أغمصه: أي أعيها ابن وأطعن بها عليه.

(٦) «البخاري» رقم (٤٧٥٠).

جهده في النصيحة؛ لإرادة راحة خاطره صلى الله عليه وسلم (١)، كما أن علياً رضي الله عنه لم ينل عائشة رضي الله عنها بأدنى كلمة يفهم منها أنه عرض بأخلاقها، أو تناولها بسوء (٢)، بل كان رأيه خيراً لها؛ فهو يقول: إن أردت أن ترتاح من المشكلة فإن غيرها كثير، وإن أردت الوصول للحقيقة، فاسأل الجارية فتوصلك إلى براءة عائشة رضي الله عنها، ثم بعد ذلك خطب رسول الله الناس وبين براءة عائشة، وخطورة من يخوض في عرضه ظلماً وزوراً. وقد بدت نصيحتنا علي وأسامة بن زيد معاً إيجابيتين، وفي صالح عائشة رضي الله عنها، فقد ازداد النبي صلى الله عليه وسلم قناعة بما علم من خير في أهله (٣).

وعلى القارئ الكريم أن يحذر من الروايات الباطلة، ساقطة الاعتبار التي تزعم بإساءة علي إلى عائشة في أمر الإفك، والتي بنى عليها بعض الباحثين بأن ذلك جعل عائشة تغضب من علي رضي الله عنه، وتحقد عليه، وتتهمه زوراً بقتل عثمان، وتخرج عليه مؤلبة عليه الأعداد الهائلة من المسلمين (٤)، ومن أمثال هؤلاء الباحثين: علي إبراهيم حسن في «التاريخ الإسلامي العام»، وطه حسين في كتابه: «علي وبنوه» (٥) وغيرهم، وسوف نتحدث عن العلاقة المثينة بين أم المؤمنين عائشة وعلي رضي الله عنهما بإذن الله عند حديثنا عن موقعة الجمل.

لقد كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعداء الدين، وكان من لطف الله تعالى بنيه وبالمؤمنين أن كشف الله زينها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس لتكون عبرة وعظة للأجيال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها (٦)، وقد تحدثت في كتابي «السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث» عن الدروس والعبر والآداب والأحكام التي تؤخذ من حادثة الإفك (٧).

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦٣٤/٥).

(٢) «دور المرأة السياسي»، أسماء محمد زيادة ص (٤٦٢). (٣) المصدر نفسه ص (٤٦٣).

(٤) من أراد التوسع في حادثة الإفك فليراجع «السيرة النبوية»، للصلاحي (٩٢٦/٢).

(٥) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد فقيهي ص (٥٤).

(٦) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» ص (٤٤٠).

(٧) «السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث» (٢٤٢/٣) إلى (٢٥٥).

المبحث السادس

أهم أعمال علي رضي الله عنه

ما بين الأحزاب إلى وفاة النبي صلى الله عليه وآله

أولاً: علي رضي الله عنه في غزوة الأحزاب :

كان موقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في الأحزاب بطولياً رائعاً ينم عن مدى رسوخ العقيدة في قلوب أصحاب النبي صلى الله عليه وآله ، والدعوة إليها، والموت في سبيلها، والبراءة من خالفها، قال ابن إسحاق: وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين بعد أن اقتحمت خيل المشركين ثغرة في الخندق ؛ حتى أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعدو نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراح، فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه فلما وقف هو وخيله قال: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب فقال له: يا عمرو، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى أحد خلتين إلا أخذتها منه، قال له: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى التزال، فقال له: لِمَ يابن أخي؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك، قال له علي: لكنني والله أحبُّ أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعفرها، وضرب وجهه، ثم أقبل على علي، فتنازلا وتجاولا فقتله علي رضي الله عنه، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة^(١).

وقد ذكر ابن كثير ما رواه البيهقي في دلائل النبوة من أشعار قالها عمرو بن ود وعلي رضي الله عنه، فقد قال عمرو لما خرج للمبارزة:

وَلَقَدْ بَحَّحْتُ مِنَ النَّدَاءِ

جَمَعَهُمْ هَلْ مِنْ مُبَارَزٍ؟

(١) «السيرة النبوية»، لابن هشام (٣/٢٤٨).

ووقفت إذ جَبُنَ المشَجَّعُ
مَوقِفَ القِرْنِ المَنَاجِزِ
وَلِذَآكِ إِنِّي لَمِ أزلُ
مُتَسرِعاً قِبَلَ الهَزَاهِزِ
إِنَّ الشَّجَاعَةَ فِي الفَتَى
وَالجُودُ مِنْ خَيْرِ الغَرَائِزِ

فعندما خرج له علي رضي الله عنه قال :

لَا تَعَجَّلَنَّ فَقدَ أَتَاكَ
مُجِيبُ صَوْتِكَ غَيْرُ عَاجِزِ
فِي نِيَّةٍ وَبَصِيرَةٍ
وَالصَّدَقُ مَنجَى كُلِّ فَائِزِ
إِنِّي لِأرْجُو أَن أَقِيمَ
عَلَيْكَ نَائِحَةَ الجَنَائِزِ
مِنْ ضَرْبَةِ نَجْلَاءِ يَبْقَى
ذِكْرُهَا عِنْدَ الهَزَاهِزِ^(١)

ولما قتل علي رضي الله عنه عمرو بن ود ذكروا أنه قال من الشعر :

أعليُّ تفتَحُ الفِوارِسَ هَكَذَا
عَنِّي وَعَنهُمُ أَخَرُوا أَصْحَابِي
اليومَ يَمْنَعُنِي الفِرَارَ حَفِيطِي
وَمُصَمِّمٌ فِي الرَأْسِ لَيْسَ بِنَابِي^(٢)

(٢) «البداية والنهاية» (٤/١٠٦).

(١) نجلاء : واسعة، الهزاهز : الحروب والشدائد .

وألقى عكرمة رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو ، فقال حسان بن ثابت :

فَرَّ وَأَلْقَى لَنَا رَمْحَهُ

لَعَلَّكَ عَكْرَمٌ لَمْ تَفْعَلْ

وَوَلَيْتَ تَعْدُو كَعَدُو الظَّلِيمِ

مَا إِنْ يَحْوَرَّ عَنِ الْمَعْدِلِ

وَلَمْ تَلَوْ ظَهْرَكَ مَسْتَأْنَسًا

كَأَنَّ قَفَاكَ قَفَا فَرْعَلٍ (١)

وبعد مقتل عمرو بن ود بعث المشركون إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفته بعشرة آلاف ، فقال : ادفعوا إليهم جيفته ؛ فإنه خبيث الجيفة ، خبيث الدية ، فلم يقبل منهم شيئاً . وقد حدث هذا والمسلمون في ضنك من العيش ، ومع ذلك فالحلال حلال والحرام حرام ، إنها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام ، فأين هذا من بعض المسلمين الذين يحاولون إيجاد المبررات لأكل الربا وما شابهه؟ (٢) .

ثانياً: علي رضي الله عنه في غزوة بني قريظة:

وكان فيها رضي الله عنه حامل راية رسول الله ﷺ في المقدمة (٣) إلى أن حكم فيهم سعد ابن معاذ ، وكانوا في بادئ الأمر لم ينزلوا على حكمه ، قال ابن هشام : إن علي بن أبي طالب صاح وهم محاصرو بني قريظة : يا كتيبة الإيمان ، وتقدم هو والزبير بن العوام ، وقال : والله لأذوقن ما ذاق حمزة ، أو لأقتحن حصونهم ، فقالوا : يا محمد نزل على حكم سعد بن معاذ (٤) ، وهكذا أنزل الله تعالى الرعب والخوف في قلوب أعداء العقيدة والدين ، على لسان ذاك التقي النقي ؛ لما آتاه الله من حب الاستبسال ، والموت في سبيل عزة دين الله تعالى ، وقد نادى كتيبته

(١) الفرعل : صغار الضباع .

(٢) «معين السيرة» ، للشامي ص (٩٤) .

(٣) «السيرة النبوية» ، لابن هشام (٣/٢٥٨) .

(٤) «البخاري» رقم (١٤٢١) ، و«السيرة النبوية» ، لابن هشام (٣/٢٦٣) .

بأحب الأسماء التي ينادي بها الله تعالى عباده، ألا وهي نداء الإيمان الذي يتجلى فيه صدق الاعتقاد، وصلاح العمل، وحب الجهاد في سبيله تعالى^(١).

ولما حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه أن تقتل مقاتلتهم، وأن تسبي النساء والذرية، وأن تقسم الأموال^(٢)، فكان من الذين يباشرون القتل علي بن أبي طالب والزبير رضي الله عنه^(٣).

ثالثاً: علي رضي الله عنه في صلح الحديبية وبيعة الرضوان:

في غزوة الحديبية وقبل الصلح، خرج بعض العبيد (الأرقاء) من مكة إلى رسول الله صلوات الله عليه، فكتب إليه مواليتهم بإرجاعهم، فرفض رسول الله صلوات الله عليه أن يرجعهم، وقال: «يا معشر قريش لتنتهن أو ليعثن الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الإيمان»، فسأله الصحابة بتلief: من هو يا رسول الله؟ وكلهم يرجو أن يفوز هو بهذه الشهادة العظيمة من رسول الله صلوات الله عليه، فقال عليه الصلاة والسلام: «هو خاصف النعل»، وكان قد أعطى علياً نعلًا يخصفها^(٤)، ولما تمّ الصلح بين المسلمين ومشركي قريش، كتب علي كتاباً بينهم قال: فكتب: محمد رسول الله، فقال المشركون: لا تكتب محمد رسول الله، لو كنت رسول الله لم نقاتلك. فقال لعلي: «امحه» قال: ما أنا بالذي أمحاه. فمحاه رسول الله صلوات الله عليه بيده، فصالحهم علي أن يدخل هو وأصحابه ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بجلبان^(٥) السلاح^(٦)، وقد امتنع علي رضي الله عنه من محو كلمة (رسول الله) بدافع محبته لرسول الله صلوات الله عليه وتعظيمه^(٧).

(١) «الخليفتان عثمان وعلي بين السنة والشيعة»، أنور عيسى ص (٧٨).

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢٦٣/٣)، و«البخاري» رقم (٤١٢١).

(٣) «إمتاع الأسماع»، للمقرئزي (٢٤٧/١).

(٤) «مرويات غزوة الحديبية»، لحافظ الحكمي ص (١٨٣)، والحديث صحيح بمجموع طرقه، و«خلافة علي بن أبي

طالب»، لعبد الحميد علي ناصر ص (٣٠).

(٥) الجلبان: جراب من الأدم يوضع فيه السيف المغمود.

(٦) «مسلم» (١٤٠٩/٣)، و«خصائص علي» للنسائي، تحقيق أحمد البلوشي ص (٢٠٣).

(٧) «الانتصار للصحب والآل»، للرحيلي ص (٢٦٢ إلى ٢٧٤).

وقد طعن الروافض الغلاة في موقف الصحابة وعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحديبية ، وذكروا من مراجعة عمر للنبي صلى الله عليه وسلم في أمر الصلح ، وكذلك تأخر الصحابة في بداية الأمر عن النحر والحلق حتى نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلق ، ولا مطعن في شيء من هذا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا عمر ولا غيره من الصحابة الذين شهدوا الحديبية ، وبيان ذلك ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبیت ، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا معه عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام ، فلما وقع أمر الصلح وفيه أن يرجعوا عامهم هذا ، ثم يعودوا العام القادم ؛ شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) ، فجعل عمر رضي الله عنه على ما عرف به من القوة في الحق ، والشدة فيه ، يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ويراجعه في الأمر ، ولم تكن أسئلته التي سألها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو اعتراض عليه ؛ لكن كان مستفصلاً عما كان متقررًا لديه ، من أنهم سيدخلون مكة ويطوفون بالبیت ، وأراد بذلك أن يحفز رسول الله صلى الله عليه وسلم على دخول مكة ، وعدم الرجوع إلى المدينة ؛ لما يرى في ذلك من عز لدين الله وإرغام للمشركين (٢) .

قال النووي : قال العلماء : لم يكن سؤال عمر رضي الله عنه وكلامه المذكور شكًا ؛ بل طلبًا لكشف ما خفي عليه ، وحثًا على إذلال الكفار وظهور الإسلام ، كما عرف من خلقه رضي الله عنه وقوته في نصر الدين ، وإذلال المبطلين (٣) ، فعمر رضي الله عنه كان في هذا مجتهدًا حمله على هذا شدته في الحق ، وقوته في نصره الدين ، والغيرة عليه ، مع ما كان قد عودهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشورة وإبداء الرأي ، امتثالاً لأمر الله تعالى : ﴿ فَاَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، وقد كان كثيرًا ما يستشيرهم ويأخذ برأيهم ، كما استشارهم يوم بدر في الذهاب إلى العير ، وأخذ بمشورتهم ، وشاورهم يوم أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج للعدو ،

(١) البداية والنهاية « (١٧٠ / ٤) ، و تاريخ الطبري « (٦٣٥ / ٢) .

(٢) « لاتنصار للصحب والآل » ص (٢٦٤) .

(٣) شرح صحيح مسلم « (١٤١ / ١٢) .

فأشار جمهورهم بالخروج إليه؛ فخرج إليهم، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلاث ثمار المدينة عامئذ؛ فأبى عليه السعدان (سعد بن معاذ وسعد بن عباد) فترك ذلك، وشاورهم يوم الحديبية أن يميل على ذراري المشركين، فقال أبو بكر: إنا لم نحج لقتال، وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال (١) في حوادث كثيرة يطول ذكرها، فقد كان عمر رضي الله عنه يطمع أن يأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيه في مناجزة قريش وقتالهم ولهذا راجعه في ذلك، وراجع أبا بكر، فلما رأى اتفاقهما أمسك عن ذلك وترك رأيه، فعذره رسول الله لما يعلم من حسن نيته وصدقه (٢)، أما توقف الصحابة عن النحر والحلق حتى نحر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلق، فليس معصية لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر العلماء له عدة توجيهات.

قال ابن حجر: قيل: كأنهم توقفوا لاحتمال أن يكون الأمر بذلك للندب، أو لرجاء نزول وحي بإبطال الصلح المذكور، أو تخصيصه بالإذن بدخولهم مكة ذلك العام لإتمام نسكهم، وسوغ لهم ذلك؛ لأنه كان زمان وقوع النسخ، ويحتمل أنهم ألتهتهم صورة الحال فاستغرقوا في الفكر لما لحقهم من الذل عند أنفسهم، مع ظهور قوتهم واقتدارهم في اعتقادهم على بلوغ غرضهم، وقضاء نسكهم بالقهر والغلبة، أو أخروا الامتثال لاعتقادهم أن الأمر المطلق لا يقتضي الفور، ويحتمل مجموع هذه الأمور لمجموعهم (٣).

وجاء في بعض الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى عدم امتثالهم دخل على أم سلمة فذكر لها ذلك فقالت: يا رسول الله لا تكلمهم فإنهم دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح (٤)، فأشارت عليه كما جاء في رواية البخاري: أن اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا (٥).

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٢٠) عند تفسير قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

(٢) (٣-٥) «فتح الباري» (٥/ ٣٤٧).

(٣) «الانتصار للصحب والآل» (٢٦٦).

قال ابن حجر: ويحتمل أنها فهمت عن الصحابة أنه احتمل عندهم أن يكون النبي ﷺ أمرهم بالتحلل أخذًا بالرخصة في حقهم، وأنه يستمر على الإحرام أخذًا بالعزيمة في حق نفسه، فأشارت عليه أن يتحلل ليتنفي عنهم هذا الاحتمال، وعرف النبي ﷺ صواب ما أشارت به ففعله. ونظير هذا ما وقع لهم في غزوة الفتح من أمره لهم بالفطر في رمضان، فلما استمروا على الامتناع، تناول القدح فشرب، فلما رأوه شرب شربوا^(١). وهذا الوجه حسن، وهو اللائق بمقام أصحاب النبي ﷺ؛ فإنهم كانوا على قدر كبير من تعظيم الإحرام والحرص على إكمال النسك، فلما أمرهم النبي ﷺ بالتحلل ولم يفعل، ظنوا أن الذي حمله على هذا هو الشفقة عليهم، كما كانت سيرته معهم، فكأنهم ﷺ آثروا التآسي به على ما رخص لهم فيه من التحلل، ثم لما رأوه قد تحلل أيقنوا أن هذا هو الأفضل في حقهم، فبادروا إليه، وهذا مثل ما حصل منهم في الحج مع النبي ﷺ لما بلغوا مكة وطافوا وسعوا؛ أمرهم أن يحلوا، وأن يصيبوا النساء ويجعلوها عمرة، فكبر ذلك عليهم؛ لتعظيمهم لنسكهم، وقالوا: نذهب إلى عرفة ومذاكيرنا تقطر من المني، فلما علم بذلك الرسول ﷺ وكان لم يتحلل، قال لهم: «أيها الناس أحلوا، فلولا الهدي الذي معي فعلت كما فعلتم» قال جابر رضي الله عنه راوي الحديث: فحللنا وسمعنا وأطعنا^(٢)، وهذا كله من حرص أصحاب رسول الله ﷺ على الخير والرغبة في التآسي برسول الله ﷺ التآسي الكامل^(٣).

إن موقف النبي ﷺ في سكوته على عمر رضي الله عنه عندما عارضه على الصلح يعطي قيمة كبرى بأنه على القيادات الإسلامية من حكام وعلماء ودعاة أن يتحلوا بسعة الصدر وحسن الاستماع للرأي الآخر، وإعطاء المجال لكل ذي رأي أن يعبر عن رأيه بما يخدم المصلحة العامة، لا أن يفتح السجون ويكلم الأفواه،

(١) «البخاري»، كتاب الشروط (٢٧٣٢).

(٢) «البخاري»، كتاب الاعتصام، رقم (٧٣٦٧).

(٣) «لاتنصار للصحب والآل» ص (٢٦٨) وهذا من أفضل الكتب في الرد على بعض شبهات الروافض.

إن النبي صلوات الله عليه في صلح الحديبية بين أن حرية إبداء الرأي مكفولة في المجتمع الإسلامي، وأن للفرد في المجتمع المسلم الحرية في التعبير عن رأيه، ولو كان هذا الرأي نقداً لموقف حاكم من الحكام، أو خليفة من الخلفاء، فمن حق الفرد المسلم أن يبين وجهة نظره في جو من الأمن والأمان، دون إرهاب أو تسلط يخنق حرية الكلمة والفكر، وإذا كان هذا موقف رسول الله صلوات الله عليه مع عمر، فمن باب أولى معارضة رئيس الدولة، في رأي من الآراء، وموقف من المواقف، ليست بحد ذاتها جريمة تستوجب العقاب، ويغيب صاحبها في غياهب السجون^(١)، كما أن الهدى النبوي الكريم يعلمنا كيف يربي أصحابه من خلال الأحداث.

ولقد نال علي رضي الله عنه في الحديبية مع من حضر من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه، رضى الله عنهم ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨)، وقال رسول الله صلوات الله عليه: «لن يدخل أحد النار بايع تحت الشجرة»^(٢)، وقد نال علي رضي الله عنه وإخوانه مثل أبي بكر وعمر وغيرهم من قبل في بدر وساماً عظيماً وشرقاً عالياً، فقد قال رسول الله في أهل بدر: «وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»^(٣).

رابعاً: عمرة القضاء ٧هـ وعلي رضي الله عنه وحضانة ابنة حمزة رضي الله عنه:

لقد تغيرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيراً عظيماً، فعادت البنت - التي كان يتعير بها أشرف العرب، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فراراً من العار، وزهداً في البنات - حبيبة يتنافس في تربيته المسلمون، وكانوا سواسية، لا يرجح بعضهم على بعض إلا بفضل أو حق^(٤)، فلما أراد النبي صلوات الله عليه الخروج من مكة، تبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم، فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها: دونك ابنة عمك، فاختم فيها علي وزيد وجعفر قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: هي ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها

(٢) «البخاري» رقم (٤٨٤٠)، و«مسلم» (١٨٥٦).

(٤) «السيرة النبوية» للندوي ص (٣٢١).

(١) «غزوة الحديبية» لأبي فارس ص (١٣٤، ١٣٥).

(٣) «البخاري» رقم (٣٩٨٣)، و«مسلم» (٢٤٩٤).

النبي ﷺ لخالتها وقال : «الخالة بمنزلة الأم» ، وقال لعلي : «أنت مني وأنا منك» ، وقال لجعفر : «أشبهت خلقي وخلقي» ، وقال لزيد : «أنت أخونا ومولانا» . وقال علي لرسول الله ﷺ : ألا تتزوج بنت حمزة ؟ قال : «إنها ابنة أخي من الرضاعة» (١) .

وفي هذه القصة دروس وعبر وأحكام وفوائد منها:

(١) الخالة بمنزلة الأم .

(٢) الخالة تقدم على غيرها في الحضانة ، إذا لم يوجد الأبوان .

(٣) تركية رسول الله ﷺ لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ووصفه له بقوله :

«أشبهت خلقي وخلقي» .

(٤) منقبة زيد بن حارثة : يقول له الرسول ﷺ : «أنت أخونا ومولانا» ؛

لأنه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب ، فقد آخى الرسول ﷺ بينهما ، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشقيق من واجبات ، والواجب أن يكون ولياً على بنت حمزة رضي الله عنه .

(٥) زواج المرأة لا يسقط حقها من الحضانة : لقد حكم النبي ﷺ إلى

زوجة جعفر بالحضانة ، وعمتها صفية بنت عبد المطلب حية موجودة .

(٦) زواج المرأة لا يسقط حقها في الحضانة ، فقد حكم الرسول ﷺ بالحضانة لخالة بنت حمزة وهي متزوجة من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٧) لا بد من موافقة الزوج على حضانة زوجته لابنة أختها ؛ لأن الزوجة

محتسبة لمصلحته ومنفعته ، والحضانة قد تفوت من هذه المصلحة جزءاً ، فلا بد من

استئذانه ، ونلاحظ هنا أن جعفر بن أبي طالب قد طالب بحضانة بنت عمه

حمزة لخالتها وهي زوجة له ، فدل على رضاه بذلك .

(٨) إن الطفل إذا رضع مع عمه يصبح أخاً له في الرضاعة ، وتصبح بناته

كلهن بنات أخيه من الرضاعة ، فيحرم عليه نكاحهن (٢) .

(١) البخاري رقم (٤٢٥١) .

(٢) «إراد المعاد» (٢/٣٧٤ ، ٣٧٥) ، و«صلح الحديبية» لأبي فارس ص (٢٨٦ ، ٢٨٧) .

خامساً: علي رضي الله عنه في غزوة خيبر ٧هـ:

ذكر ابن إسحاق^(١)، أنها كانت في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وذكر الواقدي^(٢)، أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة للهجرة، بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد^(٣)، إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في محرم من السنة السادسة^(٤)، وقد رجح ابن حجر^(٥)، قول ابن إسحاق على قول الواقدي^(٦)، وفي هذه الغزوة تجلت فيها بطولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومكاته عند الله وعند رسوله، وما قدر الله من فتح هذه المستعمرة اليهودية، ذات الأهمية العسكرية الاستراتيجية على يده في مظهر جلي رائع^(٧)، فقد كانت خيبر مستعمرة يهودية تتضمن قلاعاً حصينة، وقاعدة حربية لليهود، وآخر معقل من معقلهم في جزيرة العرب، وكانوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويتآمرون مع يهود المدينة وخارجها لغزو المدينة، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستريح منهم، ويأمن من جبهتهم، وكانت في الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منها^(٨).

توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه إلى خيبر، وكانوا ألفاً وأربعمائة، ونازل حصون خيبر، وبدأ يفتحها حصناً حصناً، واستعصي حصن الغموص على المسلمين، وكان علي ابن أبي طالب رمداً^(٩)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، فبات الناس يدوكون^(١٠) ليلتهم أيهم يُعطاها؟ فلما أصبح الناس، غدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أين علي بن أبي طالب؟» فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه. قال: «فأرسلوا إليه»، فأتى به، فبصق

(١) «السيرة النبوية»، لابن هشام (٤٥٥/٣).

(٢) «الغازي» (٦٣٤/٢).

(٣) «الطبقات» (١٠٦/٢).

(٤) «الفتح» (٤١/١٦) و«السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» ص (٥٠٠).

(٥) «السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية» ص (٥٠٠).

(٦) «المرتضى» للندوي ص (٥٢).

(٧) «المرتضى للندوي» ص (٥٢).

(٨) أي: بات الناس في اختلاط واختلاف.

(٩) المصدر نفسه ص (٥٣).

رسول الله في عينيه، ودعا له فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال: «انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَمِ» (١). فانطلق حتى فتح الله عليه خيبر، وكان من صور بطولته فيها أن خرج له مرحب ملكهم وهو يقول:

قَدْ عَلِمْتُ خَيْبَرَ أَنِّي مَرْحَبٌ
شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجْرَبٌ
إِذَا الْحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فقال علي:

أنا الذي سممتني أمي حَيْدَرَهُ
كَلَيْثَ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمَنْظَرَهُ
أَوْفِيهِمْ بِالصَّاعِ كَيْلَ السِّنْدَرَهُ

فضرب رأس مرحب، فقتله، ثم كان الفتح على يديه (٢)، وفي موقف علي في غزوة خيبر دروس وعبر وفوائد منها:

١- فضيلة عظيمة ومنقبة ظاهرة لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

حيث شهد له النبي صلوات الله عليه بالمحبة في قوله: «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» وقال ابن حجر - في معنى أن علياً يحب الله ورسوله - : أراد بذلك، وجود المحبة، وإلا فكل مسلم يشترك مع علي في مطلق هذه الصفة، وفي هذا الحديث تلميح بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: ٣١). فكأنه أشار إلي أن علياً تام الاتباع لرسول الله صلوات الله عليه حتى اتصف بصفة محبة الله له (٣).

(١) «مسلم» رقم (٣٤٠٦). (٢) «مسلم» (٣/١٤٤١) رقم (١٨٠٧). (٣) «فتح الباري» (٧/٧٢).

٢. بركة دعائه صلواته:

حيث استجاب الله لدعاء رسوله صلواته ، وقد قال علي رضي الله عنه : ما رَمِدْتُ منذ تفل النبي صلواته في عيني^(١) ، كما أن علياً رضي الله عنه مرض مرة ، فأناه النبي صلواته وهو يقول: اللهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني ، وإن كان متأخراً فارفعني ، وإن كان البلاء فصبرني ، فقال له رسول الله صلواته : «ما قلت؟» فأعاد عليه ، فقال رسول الله صلواته : «اللهم اشفه، اللهم عافه» ، ثم قال : «قم» . فقامت ، فما عاد لي ذلك الوجع بعده^(٢) .

٣. لا علاقة بين هذا الحديث وإمامة علي رضي الله عنه:

ذهب الروافض إلى أن علياً رضي الله عنه هو الخليفة بعد النبي صلواته ، واستدلوا بمجموعة من الأحاديث تدل على فضله ولا تدل على إمامته منها هذا الحديث ، وزادوا فيه زيادات باطلة لا تصح عند علماء الحديث ، كما أنه لا ملازمة بين كونه محباً لله ورسوله ومحبباً لهما ، وبين كونه إماماً بلا فصل أصلاً على أنه لا يلزم من إثباتهما له نفيهما عن غيره ، كيف؟ وقد قال الله تعالى في حق أبي بكر ورفقائه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤) ، وقال في حق أهل بدر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرْضُوصًا﴾ (الصف: ٤) ، ولا شك أن من يحبه الله يحبه رسوله ، ومن يحب الله من المؤمنين يحب رسوله ، وقال في شأن أهل مسجد قباء: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (التوبة: ١٠٨) .

ولما سئل من أحب الناس إليك؟ قال: «عائشة» قيل: ومن الرجال: قال: «أبوها»^(٣) . وإنما نص على المحبة والمحبوبة في حق علي مع وجودهما في غيره لنكتة دقيقة تحصل من ضمن قوله: «يفتح الله على يديه»^(٤) . وهي أنه لو ذكر مجرد الفتح لربما توهم أن ذلك غير موجب لفضيلته؛ لما ورد في قوله صلواته:

(١) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٥٧٩) ، وإسناده حسن .

(٢) «مسند أحمد» (١٥١/٢) صححه أحمد شاكر .

(٣) «البخاري» ، «فتح الباري» (٢٢/٧) .

(٤) «مسلم» رقم (٣٤٠٦) .

«إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر». فأزال ذلك التوهم بإثبات هاتين الصفتين له؛ فصار المقصود منه تخصيص مضمون «يفتح الله على يديه» وما ذكر من الصفات لإزالة ذلك التوهم^(١).

٤. وهناك مجموعة من الفوائد من حديث فضل علي في فتح خيبر منها:

فضل الصحابة في انشغالهم تلك الليلة، وشغلهم عن بشارة الفتح؛ لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، والإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عن سعي لها؛ لأنَّ الصحابة غدوا على رسول الله ﷺ مبكرين كلهم يرجو أن يُعطاهَا ولم يعطوها، وعلي بن أبي طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطي الراية، والأدب في قوله: «علي رسلك». ووجهه أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع، والدعوة إلى الإسلام قبل القتال، والدعوة بالحكمة، تؤخذ من قوله: «أخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»؛ لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله، ولا يكفي أن تأمره بالإسلام؛ لأنه قد يطبّق هذا الإسلام الذي أمرته به، وقد لا يطبقه، بل لا بد من أن تتعاهده حتى لا يرجع إلى الكفر، والمعرفة بحق الله في الإسلام تؤخذ من قوله ﷺ: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»، وثواب من اهتدي على يديه رجل واحد؛ لقوله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» أي: خير لك من كل ما يستحسن في الدنيا، وليس المعنى كما قال بعضهم: خير لك من أن تتصدق بنعم حمر، والحلف على الفتيا؛ لقوله ﷺ: «فوالله لأن يهدي الله... إلخ»، فأقسم النبي ﷺ، وهو لم يُستقسم، والفائدة: هي حثه على أن يهدي الله به والتوكيد عليه. وقد أمر الله رسوله بالحلف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (يونس: ٥٣). وفي قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي

(١) «مختصر التحفة الاثنا عشرية» ص(٧٠).

لَتُبْعَنَّ ﴿التغابن: ٧﴾ . وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (سبا: ٣) . فإذا كان هناك في القَسَمِ مصلحة ابتداء، أو جواباً لسؤال جاز، وربما يكون مطلوباً (١) .

سادساً: علي رضي الله عنه في فتح مكة وغزوة حنين ٨هـ

نقضت قريش صلحها مع رسول الله بمسانتها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين، ودعمتهم بالخيال والسلاح والرجال . فقال رسول الله صلوات الله عليه : «نصرت يا عمرو بن سالم، لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب» ولما عرض السحاب من السماء قال : «إن هذه السحابة لتسهل بنصر بني كعب» (٢) وقد جاء عمرو بن سالم إلى المدينة وأنشد قصيدة بين يدي رسول الله صلوات الله عليه جاء فيها :

يا ربِّ إني ناشدُ محمداً
حلفَ أبينا وأبيه الأتلاًداً
قد كنتم ولداً، وكنا والداً
ثمّت أسلمنا فلم ننزع يداً
فانصر هداك الله نصراً أعتداً
وادع عباد الله يأتوا مدداً
فيهم رسول الله قد تجردا
إن سيم خسفاً وجهه تبرداً

إلى أن قال :

وزعموا أن لست أدعو أحداً
وهم أذل وأقل عدداً
هم بيتونا بالوتير هجداً
وقتلونا رگماً وسجداً

(١) «القول المفيد على كتاب التوحيد»، لمحمد صالح (١/١٤١، ١٤٢) .

(٢) «البداية والنهاية» (٤/٢٧٨) .

وبعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده، وعندما وصل إلي المدينة ودخل على رسول الله يعرض حاجته، أعرض عنه النبي ﷺ ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله ﷺ، فأبوا جميعاً، فعاد أبو سفيان إلي مكة من غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد^(١)، وكانت لعلي رضي الله عنه في فتح مكة مواقف متعددة منها:

١- إحياء محاولة تجسس لصالح قريش:

عن حسن بن محمد بن علي عن عبيد الله بن أبي رافع أنه سمع علياً يقول: بعثني رسول الله ﷺ -يقول: أنا والزبير والمقداد- فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها». فانطلقنا نعدو بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي من كتاب. قلنا: لتُخرجنَّ الكتاب أو لنلقين^(٢) الثياب، قال: فأخرجت الكتاب من عقاصها، فأخذنا الكتاب، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله: «يا حاطب ما هذا؟» قال: لا تعجل علي، إني كنت امرأً مُلصقاً في قريش، ولم أكن من أنفسها، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرةً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا راضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد صدقكم». فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»^(٣).

(١) «التاريخ السياسي والعسكري» د. علي معطي ص (٣٦٥).

(٢) في رواية: أو لنلقين.

(٣) إسناده صحيح، «الموسوعة الحديثية مسند أحمد» رقم (٦٠٠).

٢. أجرنا من أجرت يا أم هانئ:

قالت أم هانئ بنت أبي طالب - أخت علي رضي الله عنه - لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي، من بني مخزوم، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي، قالت: فدخل عليَّ علي بن أبي طالب أخي، فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة - إن فيها لأثر العجين - وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل أخذ ثوبه، فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليَّ فقال: «مرحبًا وأهلًا يا أم هانئ ما جاء بك؟»، فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليَّ، فقال: «قد أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت، فلا يقتلنهما»^(١)، وبناء على ما تقدم، فإن تأمين المسلم للكافر من أهل الحرب يجعله في أمان، ومن ثم، فلا يجوز للمسلمين أن يتعرضوا له بشيء - وحتى يُصانَ حقُّ التأمين هذا من أي ضرر يمكن أن يلحق بالمسلمين من جرَّاءه - فقد شرط الفقهاء لصحَّته أن يتجردَ مُعطي الأمان من التُّهمة، ويخلو ذلك الأمان الممنوح من آية مفسدة^(٢)، أو يرفع الأمر إلى ولي الأمر ليرى رأيه فيه.

٣. مقتل الحويرث بن نقيذ بن وهب:

في هذا الفتح العظيم، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، غير أنه أهدر دمَ نفر سمَّاهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم الحويرث بن نقيذ ابن وهب، كان ممن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، ولما تحمل العباس بفاطمة وأم كلثوم، نخس^(٣) بهما الحويرث الجمل الذي هما عليه فسقطتا على الأرض، فلما أهدر دمه وظفر به عليُّ قتلته^(٤).

٤. علي رضي الله عنه في مهمة إصلاحية:

أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بني جذيمة؛ ليتلافى خطأ خالد بن الوليد في قتل

(١) «صحيح السيرة» ص (٥٢٧). (٢) «الجهاد والقتال في السياسة الشرعية» (٣/١٠٥١).

(٣) نخس الدابة: هيجها. (٤) «فتح الباري» (٨/١١)، و«السيرة النبوية»، لابن هشام (٤/٥٨، ٥٩).

بعضهم ، وذلك أن الرسول ﷺ بعث خالد في السنة الثامنة للهجرة عقب فتح مكة ، إلي بني جذيمة يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، وقالوا : صبأنا ، فأخذ خالد يقتل منهم ويأسر . . . فلما بلغ رسول الله ﷺ ما صنع خالد ، رفع يديه فقال : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع» ، مرتين (١) ، فبعث الرسول ﷺ علياً إليهم ؛ لينظر في أمرهم وبعث معه بمال ، فقام علي بمهمته خير قيام ، فودى لهم وعوضهم عما أصيب في الدماء والأموال حتى أنه ليدي ميلغة (٢) الكلب ، ولما انتهى من ذلك كله ، سألهم هل بقي لكم بقية من دم أو مال لم يود إليكم؟ قالوا : لا ، قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال ؛ احتياطياً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون ، ففعل ولما رجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره بالخبر قال : أصبت وأحسن (٣) وبهذه المهمة الجليلة الموفقة ، أزال علي رضي الله عنه همّاً وحماً أثقل الرسول ﷺ (٤) ، وبهذا الهدى النبوي الحكيم وأسى النبي ﷺ بني جذيمة ، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن (٥) ، وكان قتل خالد لبني جذيمة تأولاً منه واجتهاداً خاطئاً ، وذلك بدليل أن الرسول ﷺ لم يعاقبه على فعله (٦) ولم يعزله .

٥ - علي رضي الله عنه في غزوة حنين :

من أعماله الجهادية التي تتسم بالشجاعة وتدل على الخبرة في القتال ما كان في غزوة حنين في العام الثامن من الهجرة ، فقد ثبت مع الرسول ﷺ ، ومع من ثبت معه من المهاجرين والأنصار ، وكان في جيش هوازن رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فأدرك علي بعبقريته الحربية ، وتجربته الطويلة ، أن لهذا الرجل

(١) «البخاري» رقم (٤٣٣٩) .

(٢) ميلغة : اسم آلة ، والفعل «يلغ» بمعنى : يشرب ، ويطلق على الكلب .

(٣) «السيرة النبوية» ، لابن هشام (٧٢/٤ - ٧٣) ، وإسناده ضعيف وله شواهد .

(٤) «خلافة علي بن أبي طالب» ص (٤٦) .

(٥) «السيرة النبوية» لأبي شعبة (٤٦٥/٢) .

(٦) «السيرة النبوية في ضوء المصادر» ص (٥٧٩) .

عاملاً مؤثراً في حماس هوازن وشدتها، فاتجه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورجل من الأنصار نحوه واستطاعا إسقاطه من على جملة وقلته، فما كانت إلا ساعة حتى انهزموا وولوا الأدبار وانتصر المسلمون^(١).

٦ - سرية علي رضي الله عنه لهدم صنم الفلّس في بلاد طيئ :

بعد أن طهر النبي صلى الله عليه وآله البيت الحرام من الأوثان التي كانت فيه، كان لا بد من هدم البيوت التي كانت معالم للجاهلية ردحاً طويلاً من الزمن^(٢)، فكانت سرايا رسول الله صلى الله عليه وآله تترى لتطهير الجزيرة منها، فكانت من نصيب علي رضي الله عنه صنم الفلّس في بلاد طيئ، ففي ربيع الآخر خرجت سرية علي بن أبي طالب إلي الفلّس - صنم لطيئ - ليهدمه، وكان تعدادها خمسين ومائة رجل من الأنصار، على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم - حاتم الطائي الذي ضرب المثل بجوده - مع الفجر فهدموا الفلّس وخرّبوه، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم، وهرب عدي إلى الشام^(٣).

سابعاً: استخلاف النبي صلى الله عليه وآله لعلي رضي الله عنه على أهل بيته في المدينة في

غزوة تبوك ٩هـ :

كان في رجب سنة تسع من الهجرة غزوة تبوك، وكانت لها أهمية كبيرة في السيرة النبوية، وتحققت منها غايات كانت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام^(٤)، واستخلف رسول الله صلى الله عليه وآله على أهله في المدينة علياً، وكان الوالي على المدينة في تلك الغزوة محمد بن مسلمة، فوجد المناقفون فرصة للتنفيس عما بداخلهم من حقد ونفاق، فأخذوا يتكلمون في علي رضي الله عنه بما يسيء إليه، فمن ذلك قولهم: ما تركه إلا لثقله

(١) «مسند أبي يعلى» (٣/٣٨٨)، حسن الإسناد، و«الصحيح المسند» ص (١٤١) للعدوي.

(٢) «معين السيرة» ص (٢٩٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي ص (٦٢٤).

(٤) «المرتضى»، للندوي ص (٥٥).

عليه، وهذا العمل والقول السيئ منهم في حقه، علامة بارزة واضحة على نفاقهم، ففي الحديث الصحيح أن علياً رضي الله عنه قال: «والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي صلوات الله عليه ألا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق»^(١) عند ذلك أدرك علي الجيش، وأراد الغزو معهم قائلاً: يا رسول الله أتخلفني في الصبيان والنساء، فقال رسول الله صلوات الله عليه: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»^(٢).

ثامناً: علي رضي الله عنه ودوره الإعلامي في حجة أبي بكر بالناس ٩ هـ:

كانت تربية المجتمع وبناء الدولة في عهد النبي صلوات الله عليه مستمرة على كل الأصعدة والمجالات العقائدية، والاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية، والتعبدية، وكانت فريضة الحج لم تمارس في السنوات الماضية، فحجة عام ٨ هـ بعد الفتح كلف بها عتاب بن أسيد، ولم تكن قد تميزت حجة المسلمين عن حجة المشركين^(٣)، فلما حل موسم الحج أراد صلوات الله عليه الحج، ولكنه قال: «إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحب أن أحج» وكان ذلك سنة ٩ هـ، فخرج أبو بكر ومعه عدد كبير من الصحابة^(٤)، وساقوا معهم الهدى^(٥)، فلما خرج الصديق بركب الحجيج نزلت سورة براءة، فدعا النبي صلوات الله عليه علياً رضي الله عنه وأمره أن يلحق بأبي بكر الصديق، فخرج على ناقه رسول الله صلوات الله عليه العضباء حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي الحليفة، فلما رآه الصديق قال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم سارا، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وكان الحج في هذا العام في ذي الحجة كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل، وقد خطب الصديق قبل التروية، ويوم عرفة، ويوم النحر، ويوم النفر الأول، فكان يعرف الناس مناسكهم: في وقوفهم، وإفاضتهم، ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات . . إلخ، وعلي يخلفه في كل

(١) «مسلم» رقم (٧٨).

(٢) «البخاري» رقم (٢٤٠٤).

(٣) «السيرة النبوية»، لأبي شهبة (٢/٥٣٦)، ودراسات في عهد النبوة» ص (٢٢).

(٤) «نصرة النعيم» (١/٩٨)، و«الطبقات الكبرى» (٢/١٦٨).

(٥) «فتح الباري» (٨/٨٢).

موقف من هذه المواقف، فيقرأ على الناس صدر سورة براءة، ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل في الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي صلوات الله عليه عهد فعهدته إلى مدته، ولا يحج المشركون والمسلمون بعد عامهم هذا^(١)، وقد أمر الصديق رهطاً آخر من الصحابة لمساعدة علي بن أبي طالب في إنجاز مهمته^(٢).

إن نزول صدر سورة براءة يمثل مفاصلة نهائية مع الوثنية، وأتباعها؛ حيث منعت حجهم وأعلنت الحرب عليهم^(٣).

قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢﴾ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿التوبة: ١-٣﴾ وقد أمهل المعاهدون لأجل معلوم منهم، إلى انتهاء مدتهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿التوبة: ٤﴾.

كما أمهل من لاعهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم؛ حيث يصبحون بعدها في حالة حرب مع المسلمين قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَامُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿التوبة: ٥﴾.

وقد كلف النبي صلوات الله عليه علماً بإعلان نقض العهود على مسامح المشركين في موسم الحج، مراعاة لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ونقضها: ألا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه، وهذا العرف ليس فيه منافاة

(١) «مسند الإمام أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٥٩٤) حديث صحيح.

(٢) «السيرة النبوية» لأبي شعبة (٥٣٧/٢).

(٣) «نصرة النعيم» (٣٩٩/١).

للإسلام، فلذلك تدارك النبي ﷺ الأمر وأرسل علياً بذلك، فهذا هو السبب في تكليف علي بتبليغ صدر سورة براءة لا ما زعمته الرافضة من أن ذلك للإشارة إلى أن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر، وقد علق الدكتور محمد أبو شعبة فقال: ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصديق: أمير أم مأمور^(١)؟ وكيف يكون المأمور أحق بالخلافة من الأمير^(٢)، وقد كانت هذه الحجة بمثابة التوطئة للحجة الكبرى وهي حجة الوداع، لقد أعلن في حجة أبي بكر أن عهد الأصنام قد انقضى، وأن مرحلة جديدة قد بدأت، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى، فبعد هذا الإعلان الذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة، أيقنت تلك القبائل أن الأمر جد، وأن عهد الوثنية قد انقضى فعلاً؛ فأخذت ترسل وفودها معلنة إسلامها ودخولها في التوحيد^(٣).

تاسعا: على ﷺ ووفد نصارى نجران، وآية المبالغة ٩ هـ:

كتب رسول الله ﷺ إلى نجران^(٤) كتاباً قال فيه: «أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام»^(٥) فلما أتى الأسقف الكتاب، جمع الناس وقرأه عليهم، وسألهم عن الرأي فيه؟ فقررروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكون من أربعة عشر رجلاً من أشرفهم، وقيل: ستين راكباً، منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم: العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم والذين يصدرون عن رأيه، والسيد وهو صاحب رحلتهم، وأبو الحارث أسقفهم، وحبيرهم وصاحب مدارسهم^(٦)، ولما جاء وفد نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، وضعوا

(١) «السيرة النبوية» لأبي شعبة (٢/٥٤٠)، و«صحيح السيرة» ص(٦٢٤).

(٢) المصدر نفسه (٢/٥٤٠).

(٣) «قراءة سياسية للسيرة النبوية» ص(٢٨٣).

(٤) نجران: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن.

(٥) «البداية والنهاية» (٤٨/٥).

(٦) المصدر نفسه (٤٨/٥)، و«السيرة النبوية» لأبي شعبة (٢/٥٤٧).

ثياب السفر عنهم ، ولبسوا حلالاً لهم يجرونها من الخبرة ، وخواتيم الذهب ، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلموا عليه ، فلم يرد عليهم السلام ، وتصدوا لكلامه طويلاً ، فلم يكلمهم ، وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب ، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما ، وكانا معرفة لهم ، كانا يخرجان العير في الجاهلية إلى نجران ، فيشتري لهما من برها وثمرها وذرتها ، فوجدوهما في ناس من الأنصار في مجلس ، فقالوا : يا عثمان ، ويا عبد الرحمن إن نبيكم كتب إلينا بكتاب ، فأقبلنا مجيبين له ، فأتيناه فسلمنا عليه ، فلم يرد علينا سلامنا ، وتصدينا لكلامه نهاراً طويلاً ، فأعيانا أن يكلمنا ، فما الرأي منكما ، أعود؟ .

فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم : ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟ ، قال : أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم ، ويلبسوا ثياب سفرهم ثم يأتوا إليه ، ففعل الوفد ذلك ، فوضعوا حللهم وخواتيمهم ، ثم عادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ، فرد سلامهم ، ثم سألوهم وسألوه فلم تزل بهم وبه المسألة^(١) ، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كنا مسلمين قبلكم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدا»^(٢) ، وكثر الجدل والحجاج بينه وبينهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن ، ويقرع باطلهم بالحجة ، وكان مما قالوه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لك تشتم صاحبنا ، تقول : إنه عبد الله ، فقال : «أجل إنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» ، فغضبوا وقالوا : هل رأيت إنساناً قط من غير أب ، فإن كنت صادقاً فأر مثله؟ فأنزل الله في الرد عليهم قوله سبحانه : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (آل عمران : ٥٩-٦٠) . فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه^(٣) ، فلما لم تُجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة^(٤) ؛ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿فَمَنْ

(٢) (٣٠٢) المصدر نفسه (٣/٦٣٣) .

(١) «زاد المعاد» (٣/٦٢٩-٦٣٨) .

(٤) «السيرة النبوية» لأبي شهبة (٢/٥٤٧) .

حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ (آل عمران: ٦١). وخرج النبي ﷺ ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة وقال: «وإذا أنا دعوت فأمنوا»^(١)، فأتتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقاً، وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه، وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر^(٢).

عاشراً: علي رضي الله عنه داعياً وقاضياً في اليمن ١٠ هـ:

بعد فتح مكة استجابت القبائل العربية بالجزيرة إلى الإسلام، وكان رسول الله ﷺ يرسل الدعاة إلى القبائل التي لم تستجب بعد، فأرسل علياً رضي الله عنه إلى همدان باليمن، وهذا البراء بن عازب رضي الله عنه يحدثنا عما حدث في ذهابه مع علي رضي الله عنه لليمن فيقول: .. فلما انتهينا إلى أوائل اليمن بلغ القوم الخبر، فجمعوا له، فصلى علي بنا الفجر، فلما فرغ، صفنا صفاً واحداً ثم تقدم بين أيدينا، فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ كتابه خراً ساجداً، وقال: «السلام على همدان، السلام على همدان»^(٣). لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على الجبهة الجنوبية للدولة، وأن تدخل قبائل اليمن في الإسلام، وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة التي حققتها الدعوة في كثرة عدد الوفود التي كانت تنساب من كل أطراف اليمن، متجهة إلى المدينة، مما يدل على أن نشاط المبعوثين إلى اليمن كان متصلاً وبعيد المدى، وكانت سرايا رسول الله ﷺ تساند هذا النشاط الدعوي السلمي؛ حيث بعث خالد بن الوليد ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقد كان علي رضي الله عنه يركز على مفاصل القوى، ومراكز التأثير في المجتمعات وبناء الدول، ومارس هذا الفقه العظيم في حياته^(٤).

(١، ٢) «السيرة النبوية» لأبي شعبة (٥٤٧/٢). (٣) «زاد المعاد» (٦٢٢/٣) إسناده صحيح.

(٤) «السيرة النبوية»، للصلاحي (٥٩٦/٢)، و«الفقه السياسي للوثائق» ص (٢٣١).

هذا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً بأن يقضي بين الناس في اليمن، وهذا علي رضي الله عنه يحدثنا بنفسه حيث قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقلت له: يا رسول الله تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حدث لا أبصر القضاء، قال: فوضع يده على صدري، وقال: «اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه، يا علي إذا جلس إليك (١) الخصمان فلا تقضي بينهما حتى تسمع من الآخر، ما سمعت من الأول؛ فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء»، قال: فما اختلف عليّ قضاء بعد، أو ما أشكل عليّ قضاء بعد (٢).

لقد احتاج اليمنيون بعد انتشار الإسلام في بلادهم إلى من يفقههم في أمور دينهم، ويعلمهم ويقضي بينهم بحكم الله عز وجل، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عدداً من الصحابة إلى أرجاء اليمن منهم معاذ وأبوموسى الأشعري، وكان من أفضلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد حفظت لنا كتب التاريخ والحديث والفقه مجموعة من القضايا التي حكم فيها علي رضي الله عنه وهو باليمن منها:

١- قضاؤه في الأربعة الذين تدافعوا عند زبية (٣) للأسد:

عن حنش عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن فانتبهنا إلى قوم قد بنوا زبية (٤) للأسد، فبينما هم كذلك يتدافعون إذ سقط رجل فتعلق بآخر، ثم تعلق رجل بآخر، حتى (٥) صاروا فيه أربعة، فجرّحهم الأسد، فانتدب له رجل بحربة فقتله، وماتوا من جراحتهم كلهم؛ فقام أولياء الأول إلى أولياء الآخر، فأخرجوا السلاح ليقبضوا، فأتاهم علي على تفيئة (٦) ذلك، فقال: تريدون أن تقاتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم حيّ إني أقضي بينكم قضاء، إن رضيتم

(١) جلس الخصمان.

(٢) «فضائل الصحابة» (٨٧١/٢)، وإسناده حسن رقم (١٩٩٥).

(٣) الزبية: حفرة تحفر للأسد، ولا تحفر إلا في مكان عالٍ من الأرض.

(٤) الحفرة في الأرض: «القاموس» (٣٤٠/٤)، و«تاج العروس» (١٦/١٠).

(٥) «فضائل الصحابة» (٩٠٠/٢) رقم (١٢٣٩)، وإسناده حسن.

(٦) تفيئة ذلك: أي أثره، «النهاية» (٤٨٣/٣).

فهو القضاء، وإلا حجز بعضكم عن بعض، حتى تأتوا النبي ﷺ فيكون هو الذي يقضي بينكم، فمن عدا بعد ذلك فلا حق له، اجمعوا من قبائل الذين حفروا البئر ربع الدية وثلث الدية ونصف الدية والدية كاملة، فلأول الربع؛ لأنه أهلك من فوقه، وللثاني ثلث الدية، وللثالث نصف الدية، فأبوا أن يرضوا فأتوا النبي ﷺ وهو عند مقام إبراهيم، فقصوا عليه القصة، فقال: «أنا أقضي بينكم» واحتبى فقال رجل من القوم: إن علياً قضى فينا فقصوا عليه؛ فأجازه رسول الله ﷺ (١).

٢. ثلاثة وقعوا على امرأة في طهر:

عن زيد بن أرقم أنه قال: أتى علي بثلاثة وهو باليمن وقعوا على امرأة في طهر واحد، فسأل اثنين: أتقران لهذا بالولد؟ قالوا: لا، حتى سألهم جميعاً، فجعل كلما سأل اثنين، قالوا: لا، فأقرع بينهم، فألحق الولد بالذي صارت عليه القرعة، وجعل عليه ثلثي الدية (٢)، قال: فذكر ذلك لنبي الله ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه (٣). وكان ضحك رسول الله ﷺ فرحاً وسروراً بتوفيق الله تعالى علياً للصواب.

ولذلك أقره علي ذلك (٤)، ويحتمل أن ما حصل من أولئك النفر إنما كان قبل إسلامهم؛ لأن فعلهم محرم في دين الله تعالى.

الحادي عشر: علي رضي الله عنه في حجة الوداع:

أدرك علي ﷺ رسول الله في حجة الوداع، ونحر رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين بدنة بيده، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سني عمره، ثم أمسك، وأمر

(١) «فضائل الصحابة» رقم (١٢٣٩)، وإسناده صحيح.

(٢) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٨٧).

(٣) نواجذه: جمع ناجذ: آخر الأضراس، وللإنسان أربعة نواجذ، وهناك رواية أخرى في «فضائل الصحابة» رقم

(١٠٩٥)، وإسناده حسن لغيره.

(٤) «سنن النسائي» (١٨٢/٦) حاشية السندي.

علياً أن ينحر ما بقي من المائة، ففعل وأكمل العدد، وقد وصف لنا علي رضي الله عنه بعض المناسك في حجته مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أن النبي صلّى الله عليه وآله وقف بعرفة وهو مُردّف أسامة بن زيد، فقال: «هذا الموقف وكل عرفة موقف»، ثم دفع يسير العنق، وجعل الناس يضربون يميناً وشمالاً، وهو يلتفت ويقول: «السكينة أيها الناس، السكينة أيها الناس» حتى جاء المزدلفة، وجمع بين الصلاتين، ثم وقف بالمزدلفة، فوقف على قُزَح، وأردف الفضل بن عباس، وقال: «هذا الموقف، وكل المزدلفة موقف» ثم دفع وجعل يسير العنق، والناس يضربون يميناً وشمالاً، وهو يلتفت ويقول: «السكينة، السكينة، أيها الناس» حتى جاء مُحسراً؛ فقرع راحلته فخبّت، حتى خرج، ثم عاد لسيره الأول، حتى رمى الجمرة، ثم جاء المنحر فقال: «هذا المنحر، وكل منى منحر». ثم جاءت امرأة شابة من خَشْعَم، فقالت: إن أبي شيخ كبير، وقد أفند، وأدرتته فريضة الله في الحج، ولا يستطيع أداءها، فيُجزئ عنه أن أؤديها عنه؟ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «نعم»، وجعل يصرف وجه الفضل بن العباس عنها. ثم أتاه رجل فقال: إني رميت الجمرة، وأفضت ولبست ولم أحلق. قال: «فلا حرج، فاحلق». ثم أتاه رجل آخر، فقال: إني رميت وحلفت ولبست ولم أنحر. فقال: «لا حرج، فانحر». ثم أفاض رسول الله صلّى الله عليه وآله، فدعا بسجل من ماء زمزم، فشرب منه وتوضأ، ثم قال: «انزعوا^(١) يا بني عبدالمطلب، فلولا أن تغلبوا عليها لنزعت». قال العباس: يا رسول الله، إني رأيتك تصرف وجه ابن أخيك؟ قال: «إني رأيتُ غلاماً شاباً، وجارية شابة، فخشيت عليهما الشيطان»^(٢)، وقد كان علي رضي الله عنه يعلن على الناس ما أمره به النبي صلّى الله عليه وآله، فعن عمرو بن سليم عن أمه قالت: بينما نحن بمنى إذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: إن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «إن هذه أيام أكل وشرب، فلا يصومها أحد» واتبع الناس علي جملة يصرخ بذلك^(٣).

(١) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٨٨).

(٢) «مسند أحمد» (٩/٢)، و«الموسوعة الحديثية» رقم (٥٦٤)، وإسناده حسن.

(٣) المصدر نفسه رقم (٥٦٧)، وإسناده صحيح.

الثاني عشر: تشرفه بغسل النبي ﷺ ودفنه:

لما توفي النبي ﷺ كان علي من باشر غسله مع الفضل بن العباس وأسامة ابن زيد^(١)، وقال علي رضي الله عنه: غسلت رسول الله ﷺ، فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئاً وكان طيباً حياً وميتاً^(٢)، وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وطبت ميتاً^(٣)، وكان علي رضي الله عنه من ضمن من نزل في قبر رسول الله ﷺ وباشروا دفنه هو والفضل ابن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ^(٤)، لقد كان لنبأ وفاة رسول الله على الصحابة الكرام كالصاعقة لشدة حبه لهم، وما تعودوه من العيش في كنفه، عيش الأبناء في حجر الآباء، بل أكثر من ذلك، وكان حظ أهل البيت والأسرة الهاشمية - وعلى رأسها فاطمة بنت رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب - أوفر وأكثر بطبيعة الحال، وبحكم الفطرة السليمة والقربة القريبة، وما يمتازون به من رقة الشعور، وقوة العاطفة، وشدة الحب ولكن احتملوه بقوة إيمانهم، والرضا بقضاء الله، والاستسلام لأمره^(٥).

الثالث عشر: قصة الكتاب الذي هم النبي ﷺ بكتابته في مرض موته:

ثبت في «الصحيحين» وغيرهما، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال فقال النبي ﷺ: «هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»، فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، ومنهم من يقول غير ذلك، فلما أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله ﷺ: «قوموا». قال عبيد الله - راوي الحديث -: فكان ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن

(١) أبو داود (٢١٣/٣) عن الشعبي مرسلأ رقم (٣٢٠٩)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» ص(٥١).

(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٦٢/١) رقم (١٤٦٧) وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» ص(٥٠).

(٣) «السيرة النبوية»، لابن هشام (٣٢١/٤).

(٤) «المرتضى» للندوي ص(٥٩).

يكتب الكتاب لاختلافهم ولغتهم^(١). وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس، اشد برسول الله صلوات الله عليه وجعه فقال: «اتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»؛ فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي نزاع، فقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟، استفهموه، فذهبوا يردون عليه فقال: «دعوني، فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه»، وأوصاهم بثلاث، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا للوفد بنحو ما كنت أجيزهم»، وسكت عن الثالثة، أو قال: فنسيتها^(٢). وليس فيما ثبت في هذا الحديث ورواياته الصحيحة أي مطعن على أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم، وأما ما ذكره الروافض من مطاعن فباطلة معلومة الفساد، وقد أجاب العلماء قديماً عن بعضها ومن هذه الردود:

١ - إن اختلاف الصحابة ثابت، وكان سببه اختلافهم في فهم قول الرسول صلوات الله عليهم ومراده لا عصيانه، قال القرطبي صاحب «المفهم»: وسبب ذلك أن ذلك كله إنما حمل عليه الاجتهاد المسوغ، والقصد الصالح، وكل مجتهد مصيب، أو أحدهما مصيب، والآخر غير مأثوم بل مأجور كما قررناه في الأصول^(٣)، ثم ذكر أن النبي صلوات الله عليهم لم يعنفهم ولا ذمهم بل قال للجميع: «دعوني فالذي أنا فيه خير»^(٤). وهذا نحو ما جرى لهم يوم الأحزاب حيث قال لهم الرسول صلوات الله عليهم: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»^(٥)، فتخوف ناس فوات الوقت، فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله صلوات الله عليهم، فما عنف أحد الفريقين^(٦).

٢ - وأما ما ادعاه الروافض من أن اختلاف الصحابة وما ترتب عليه من عدم كتابة النبي صلوات الله عليهم لهم ذلك الكتاب هو الذي حرم الأمة من العصمة، فهذا باطل؛ لأنه يعني أن الرسول صلوات الله عليهم قد ترك تبليغ أمته ما فيه عصمتها من الضلال، ولم يبلغ شرع ربه لمجرد اختلاف أصحابه عنده حتى مات على ذلك،

(٢) «البخاري» رقم (٤٤٣١).

(١) «البخاري» رقم (٤٤٣٢).

(٤) «البخاري» رقم (٤٤٣١).

(٣) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٤/٥٥٩).

(٦) «المفهم» (٤/٥٥٩).

(٥) «البخاري» رقم (٤١١٩).

وأنه بهذا مخالف لأمر ربه في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة: ٦٧)، وإذا كان الرسول ﷺ مبرأ من ذلك ومنزهاً بتزكية ربه له في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، فوصفه بالحرص على أمته، أي على هدايتهم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي لهم، ذكره ابن كثير في تفسيره (١).

وإذا كان هذا الأمر معلوماً بالاضطرار من دين الإسلام عند الخاص والعام، لا يشك فيه من في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، أن هذا الرسول الكريم قد بلغ كل ما أمر به، وكان أحرص ما يكون على أمته، بما هو متواتر من جهاده وتضحيته، وأخباره الدالة على ذلك؛ علمنا علماً يقيناً لا يشوبه أدنى شك، أنه لو كان الأمر كما يذكر الروافض من الوصف لهذا الكتاب، من أن به عصمة الأمة من الضلال في دينها، ورفع الفرقة، والاختلاف فيما بينها، إلى أن تقوم الساعة؛ لما ساغ في دين ولا عقل أن يؤخر رسول الله ﷺ كتابه إلى ذلك الوقت الضيق، ولو أخره ما كان لتركه لمجرد اختلاف أصحابه عنده (٢)، ولا يتصور أن النبي ﷺ بتارك أمر ربه، ولو قدر أنه تركه في ذلك الوقت لتنازعهم عنده؛ لمصلحة رآها، فما الذي يمنعه من أن يكتبه بعد ذلك، وقد ثبت أنه عاش بعد ذلك عدة أيام، فقد كانت وفاته ﷺ يوم الاثنين على ما جاء مصرحاً به في رواية أنس في الصحيحين (٣)، وحادثة الكتاب يوم الخميس بالاتفاق (٤).

وقد ثبت باتفاق السنة والرافضة، أن رسول الله ﷺ لم يكتب ذلك الكتاب حتى مات، علمنا أنه ليس من الدين الذي أمر بتبليغه؛ لما دل عليه القرآن من أن الله قد أكمل له ولأمة الدين، فأنزل عليه قبل ذلك في حجة

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠٤).

(٢) مختصر التحفة الاثنا عشرية ص (٢٥١)، و«الانتصار للصحب والآل» ص (٢٢٨، ٢٢٩).

(٣) «البخاري» رقم (٤٤٤٨)، و«مسلم» رقم (٤١٩).

(٤) «الانتصار للصحب والآل» ص (٢٢٩).

الوداع: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

قال ابن تيمية: ولم تكن كتابة الكتاب مما أوجهه الله عليه أن يكتبه أو يبلغه في ذلك الوقت؛ إذ لو كان كذلك لما ترك صلى الله عليه وسلم ما أمره الله به، لكن ذلك مما رآه مصلحة لدفع النزاع في خلافة أبي بكر، ورأى أن الخلاف لا بد أن يقع^(١). وقال في موضع آخر: وأما قصة الكتاب الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يكتبه، فقد جاء مبيناً كما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: «ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب كتاباً؛ فإني أخاف أن يتمنى متمنٌ ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبابكر»^(٢). إلى أن قال بعد ذكر روايات الحديث: والنبي صلى الله عليه وسلم قد عزم على أن يكتب الكتاب الذي ذكره لعائشة، فلما رأى أن الشك قد وقع، علم أن الكتاب لا يرفع الشك، فلم يبق فيه فائدة، وعلم أن الله تعالى يجمعهم على ما عزم عليه كما قال: «ويأبى الله والمؤمنون إلا أبابكر»^(٣). وأما قوله في الحديث: «لن تضلوا بعدي» فيقول الدهلوي في توجيهه: فإن قيل: لو لم يكن ما يكتب أمراً دينياً فلم قال: «لن تضلوا بعدي»؟ قلنا: للضلال معان، والمراد به هنا عدم الخطأ في تدبير الملك، وهو إخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفد بنحو ما كان يجيزه، وتجهيز جيش أسامة منه، لا الضلالة والغواية عن الدين، وهو ما فعله أبوبكر والصحابة من بعده^(٤).

٣ - وأما معنى قول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب^(٥)، فكما قال ابن تيمية في معناه: يقتضي أن الحائل كان رزية، وهو رزية في حق من شك في خلافة الصديق، واشتبه عليه الأمر؛ فإنه لو كان هناك كتاب لزال الشك، فأما من علم أن خلافته حق فلا رزية في حقه ولله الحمد^(٦)، ويوضح ذلك أن ابن عباس رضي الله عنهما ما قال

(١) «مسلم» رقم (٢٣٨٧).

(٤) «مختصر التحفة الاثنا عشرية» ص (٢٥١).

(٦) «منهاج السنة» (٦/٢٥٠).

(١) «منهاج السنة» (٦/٣١٦).

(٣) «منهاج السنة» (٦/٢٣، ٢٥).

(٥) «البخاري» رقم (٤٤٣٢).

ذلك إلا بعد ظهور أهل الأهواء والبدع، من الخوارج والروافض، نص على هذا ابن تيمية^(١)، وابن حجر^(٢).

٤ - وأما ادعائهم أن النبي ﷺ أراد بذلك الكتاب أن ينص على خلافة علي رضي الله عنه وزعم بعض الروافض أنه ليس هناك تفسير معقول غيره، وهذا الادعاء باطل، قال ابن تيمية: ومن توهم أن هذا الكتاب كان بخلافة علي فهو ضال باتفاق عامة الناس، من علماء السنة والشيعة، أما أهل السنة فمتفقون على تفضيل أبي بكر وتقديمه، وأما الشيعة القائلون بأن علياً كان مستحقاً للإمامة فيقولون: إنه قد نص على إمامته قبل ذلك نصاً جلياً ظاهراً معروفاً، وحينئذ فلم يكن يحتاج إلى الكتاب^(٣).

٥ - وأما طعن الروافض على عمر رضي الله عنه وزعمهم بأنه قد اتهم رسول الله ﷺ بأنه لا يعي ما يقول، وقال: «إنه يهجر» ولم يمثّل قوله، وقال: «عندكم كتاب الله»، «حسبنا كتاب الله»، فجوابه: أن ما ادعاه أولاً بأن عمر اتهم رسول الله بالهجر، وأنه لا يعي ما يقول فهذا باطل، وذلك أن هذه اللفظة (أهجر؟) لا تثبت عن عمر رضي الله عنه أصلاً، وإنما قالها بعض من حضر الحادثة من غير أن تعين الروايات الواردة في الصحيحين قائلها، وإنما الثابت فيها «فقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟»^(٤)، هكذا بصيغة الجمع دون الأفراد، ولهذا أنكر بعض العلماء أن تكون هذه اللفظة من كلام عمر، قال ابن حجر: ويظهر لي ترجيح ثالث الاحتمالات، التي ذكرها القرطبي، ويكون قائل ذلك بعض من قرب دخوله في الإسلام، وكان يعهد أن من اشتد عليه الوجد، قد يشتغل به عن تحرير ما يريد^(٥)، وقال الدهلوي: من أين يثبت أن قائل هذا القول هو عمر مع أنه وقع في أكثر الروايات (قالوا) بصيغة الجمع؟^(٦).

(٢) «فتح الباري» (١/٢٠٩).

(١) «منهاج السنة» (٦/٣١٦).

(٣) «منهاج السنة» (٦/٢٥) و«الانتصار للصحب والآل» ص (٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣).

(٥) «فتح الباري» (٨/١٣٣).

(٤) «البيخاري» رقم (٤٤٣١).

(٦) «مختصر التحفة الاثنا عشرية» (ص ٢٥٠).

إن الثابت الصحيح من هذه اللفظة أنها وردت بصيغة الاستفهام هكذا (أهجر؟) وهذا بخلاف ما جاء في بعض الروايات بلفظ (هجر، ويهجر) فإنه مرجوح على ما حقق ذلك المحدثون وشراح الحديث، منهم القاضي عياض^(١)، والقرطبي^(٢)، والنووي^(٣)، وابن حجر^(٤)، فقد نصوا أن الاستفهام جاء على سبيل الإنكار على من قال: لا تكتبوا^(٥)، قال القرطبي بعد أن ذكر الأدلة على عصمة النبي صلوات الله عليه من الخطأ في التبليغ في كل أحواله وتقرر ذلك عند الصحابة: وعلى هذا يستحيل أن يكون قولهم (أهجر؟)؛ لشك عرض لهم في صحة قوله، زمن مرضه، وإنما كان ذلك من بعضهم على وجه الإنكار على من توقف في إحضار الكتف والدواة، وتلكأ عنه، فكأنه يقول لمن توقف: كيف تتوقف أتظن أنه قال هذياناً، فدع التوقف وقرب الكتف؛ فإنه يقول الحق لا الهجر، وهذا أحسن ما يحمل عليه^(٦)، وهذا يدل على اتفاق الصحابة على استحالة الهجر على الرسول صلوات الله عليه، حيث إن قائلها أوردوها على سبيل الإنكار الملزم، الذي لا يشك فيه المخالف، وبه تبطل دعوى الروافض من أصلها^(٧).

٦ - أما ادعاؤهم من معارضة عمر لرسول الله صلوات الله عليه بقوله: عندكم كتاب الله، حسبنا كتاب الله، وأنه لم يمثل أمر رسول الله صلوات الله عليه فيما أراد من كتابة الكتاب، فالرد على هذه الشبهة الواهية، أن عمر رضي الله عنه ومن كان على رأيه من الصحابة، ظهر لهم، أن أمر الرسول بكتابه الكتاب ليس على الوجوب، وأنه من باب الإرشاد إلى الأفضل، وقد نبه على هذا القاضي عياض^(٨)، والقرطبي^(٩)، والنووي^(١٠) وابن حجر^(١١)، ثم إنه قد ثبت بعد هذا صحة اجتهاد عمر رضي الله عنه وذلك بترك الرسول صلوات الله عليه كتابة الكتاب، ولو كان واجباً لم يتركه

(١) «الشفاء» (٢/٨٨٦).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١١/٩٣).

(٥) «الانتصار للصحب والآل» ص (٢٢٨).

(٧) «الانتصار للصحب والآل» ص (٢٨٩)، وهذا المرجع من أحسن ما اطلعت عليه في الرد على هذه الشبهة.

(٨) «الشفاء» (٢/٨٨٧).

(١٠) «شرح النووي» (١١/٩١).

(٢) «المفهم» (٤/٥٥٩).

(٤) «فتح الباري» (٨/١٣٣).

(٦) «المفهم» (٤/٥٥٩).

(٩) «المفهم» (٢/٥٥٩).

(١١) «فتح الباري» (١/٢٠٩).

لاختلافهم؛ لأنه لم يترك التبليغ لمخالفة من خالف، ولهذا عد هذا من موافقات عمر رضي الله عنه (١)، كما أن قول عمر رضي الله عنه: «حسبنا كتاب الله، رد على من نازعه، لا على أمر النبي صلى الله عليه وسلم»، وهذا ظاهر من قوله: «عندكم كتاب الله، فإن المخاطب جمع وهم المخالفون لعمر رضي الله عنه في رأيه، كما أن عمر رضي الله عنه كان بعيد النظر، ثاقب البصيرة، شديد الرأي، وقد رأى أن الأولى ترك كتابة الكتاب - بعد أن تقرر عنده أن الأمر به ليس على الوجوب - وذلك لمصلحة شرعية راجحة، للعلماء في توجيهها أقوال منها: شفقتة على رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يلحقه من كتابة الكتاب مع شدة المرض، ويشهد لهذا قوله: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع، فكره أن يتكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشق ويثقل عليه» (٢)، مع استحضار قوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقوله تعالى: ﴿تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، قال النووي: «وأما كلام عمر رضي الله عنه فقد اتفق العلماء المتكلمون في شرح الحديث، على أنه من دلائل فقه عمر رضي الله عنه، وفضائله ودقيق نظره» (٣).

كما أن عمر رضي الله عنه كان مجتهداً في موقفه من كتابة الكتاب، والمجتهد في الدين معذور على كل حال، بل مأجور لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر» (٤)، فكيف وقد كان اجتهاد عمر بحضور رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يؤثمه ولم يذمه به؟! بل وافقه على ما أراد من ترك الكتاب، وبهذا يظهر بطلان طعن الروافض على الصحابة في هذه الحادثة، وينكشف زيف ما قالوه في حقهم (٥).



(١) «فتح الباري» (٢٠٩/١).

(٢) «الشفاء» (٨٨٨/٢).
(٣) «شرح النووي» على صحيح مسلم (٩٠/١١)، و«الانتصار للصحب والآل» ص (٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢).

(٤) «البخاري» رقم (٧٣٥٢).

(٥) «الانتصار للصحب والآل» ص (٢٩٥، ٢٩٤).

الفصل الثاني

علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عهد الخلفاء الراشدين

المبحث الأول

علي بن أبي طالب رضي الله عنه في عهد الصديق

أولاً: مبايعة علي لأبي بكر بالخلافة، رضي الله عنهما:

وردت أخبار كثيرة في شأن تأخر علي عن مبايعة الصديق، وكذا تأخر الزبير ابن العوام، وجلّ هذه الأخبار ليست بصحيحة، وقد جاءت روايات صحيحة السند تفيد بأن علياً والزبير رضي الله عنهما بايعا الصديق في أول الأمر، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لما توفي رسول الله صلّى الله عليه وآله قام خطباء الأنصار.. فذكر بيعة السقيفة (١)، ثم قال: ثم انطلقوا فلما قعد أبو بكر على المنبر نظر في وجوه القوم فلم ير علياً، فسأل عنه، فقام أناس من الأنصار، فأتوا به. فقال أبو بكر: ابن عم رسول الله صلّى الله عليه وآله وختنه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟، فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله صلّى الله عليه وآله، فبايعه، ثم لم ير الزبير بن العوام، فسأل عنه حتى جاؤوا به، فقال: ابن عمّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين؟، فقال مثل قوله: لا تثريب يا خليفة رسول الله فبايعه (٢).

ومما يدل على أهمية حديث أبي سعيد الخدري الصحيح أن الإمام مسلم بن الحجاج صاحب «الجامع الصحيح» -الذي هو أصح الكتب الحديثية بعد صحيح البخاري - ذهب إلى شيخه الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة - صاحب صحيح ابن خزيمة- فسأله عن هذا الحديث، فكتب له ابن خزيمة الحديث، وقرأه عليه، فقال مسلم لشيخه ابن خزيمة: هذا الحديث يساوي بدنة، فقال ابن خزيمة: هذا الحديث لا يساوي بدنة (٣) فقط، إنه يساوي بدرة مال (٤)، وعلق على هذا الحديث

(١) «مجمع الزوائد» (١٨٣/٥) ورجاله رجال الصحيح، و«البداية والنهاية» (٢٨١/٥)، قال ابن كثير: هذا إسناد صحيح محفوظ.

(٢) «المستدرک» (٧٦/٣)، و«السنن الكبرى» (١٤٣/٨) بإسنادين صحيحين.

(٣) البدنة: ناقه أو بقرة تنحر بمكة ولعظمتها وضخامتها سميت بدنة.

(٤) البدره: كيس فيه ألف أو عشرة آلاف دينار. والمعني: أنه كنز ثمين.

ابن كثير - رحمه الله - فقال : هذا إسناد صحيح محفوظ ، وفيه فائدة جليلة ، وهي مبايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه إما في أول يوم أو في اليوم الثاني من الوفاة ، وهذا حق ؛ فإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه (١) .

وفي رواية حبيب بن أبي ثابت ، حيث قال : كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه في بيته ، فأتاه رجل ، فقال له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج علي إلى المسجد في قميص له ، ما عليه إزار ولا رداء ، وهو متعجل ، كراهة أن يبطئ عن البيعة ، فبايع أبا بكر ، ثم جلس ، وبعث إلى رداءه فجاءوه به ، فلبسه فوق قميصه (٢) . وقد سأل عمرو بن حريث سعيد ابن زيد رضي الله عنه ، فقال له : أشهدت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، قال له : متى بويع أبو بكر؟ قال سعيد : يوم مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كره المسلمون أن يبقوا بعض يوم ، وليسوا في جماعة . قال : هل خالف أحد أبا بكر؟ قال سعيد : لا ، لم يخالف إلا مرتد ، أو كاد أن يرتد ، وقد أنقذ الله الأنصار ، فجمعهم عليه وبايعوه . قال : هل قعد أحد من المهاجرين عن بيعته؟ ، قال سعيد : لا ، لقد تتابع المهاجرون على بيعته (٣) .

وكان مما قال علي رضي الله عنه لابن الكواء وقيس بن عباد حينما قدم البصرة وسألاه عن مسيره قال : «لو كان عندي من النبي صلى الله عليه وسلم عهد في ذلك ما تركت أبا بني تيم بن مرة ، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ، ولقاتلتها ولو لم أجد إلا بردي هذا ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلاً ولم يمت فجأة ، مكث في مرضه أياماً وليالي يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس ، وهو يرى مكاني ، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى

(١) «اللباية والنهاية» (٢٣٩/٥) .

(٢) «الطبري» (٢٠٧/٣) والأثر مرسل وفي الإسناد سيف بن عمر متروك ، وعبدالعزیز بن سياه صدوق يتشيع للتقريب (٣٥٧) .

(٣) «تاريخ الطبري» (٢٠٧/٣) إسناد الخبر ضعيف ، انظر : «خلافه أبي بكر الصديق» ، لعبدالعزیز سليمان ص (٦٦) .

وغضب وقال: «أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر يصل بالناس» فلما قبض الله نبيه ونظرنا في أمورنا، فاخترنا لديانا من رضىه نبي الله لدينا، وكانت الصلاة أصل الإسلام، وهي أعظم الأمور، وقوام الدين، فبايعنا أبا بكر، وكان لذلك أهلاً، ولم يختلف عليه منا اثنان، ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم نقطع منه البراءة، فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته، وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي^(١).

وكان مما قال في خطبته على منبر الكوفة في ثنائه على أبي بكر وعمر: فأعطى المسلمون البيعة طائعين، فكان أول من سبق في ذلك من ولد عبدالمطلب أنا^(٢)، وجاءت روايات أشارت إلى مبايعة علي لأبي بكر رضي الله عنهما في أول الأمر وإن لم تصرح بذلك، فعن إبراهيم بن عبدالرحمن بن عوف أنه قال: أن عبدالرحمن بن عوف كان مع عمر ابن الخطاب رضي الله عنه. . . ثم قام أبو بكر رضي الله عنه فخطب الناس، واعتذر إليهم وقال: والله ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغباً، ولا سألتها الله عز وجل في سرٍّ ولا علانية، ولكنني أشفتت من الفتنة، ومالي في الإمارة من راحة، ولكن قلدت أمراً عظيماً، مالي به من طاقة ولا بد إلا بتقوى الله عز وجل، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني اليوم. فقبل المهاجرون منه ما قال وما اعتذر به، قال علي رضي الله عنه والزبير: ما غضبنا إلا لأننا قد أحرنا عن المشاورة، وإننا نرى أبا بكر أحق الناس بها بعد رسول الله صلوات الله عليه؛ إنه لصاحب الغار، وثاني اثنين، وإننا لنعلم بشرفه، وكبره، ولقد أمره رسول الله صلوات الله عليه بالصلاة بالناس وهو حي^(٣). وعن قيس العبيدي قال: شهدت خطبة علي رضي الله عنه يوم البصرة قال: فحمد الله وأثنى عليه، وذكر

(١) «تاريخ الإسلام»، و«عهد الخلافة الراشدة» ص (٣٨٩) إسناده ضعيف، و«خلافة أبي بكر الصديق» عبدالعزيز سليمان ص (٦٥).

(٢) «أسد الغابة» (٤/١٦٦، ٦٧)، و«خلافة أبي بكر» ص (٦٦).

(٣) «البداية والنهاية» (٦/٣٤١) إسناده جيد، و«خلافة أبي بكر» ص (٦٧).

النبي ﷺ وما عالج من الناس ، ثم قبضه الله عز وجل إليه ، ثم رأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر رضي الله عنه فبايعوا وعاهدوا وسلموا ، وبايعت وعاهدت وسلمت ، ورضوا ورضيت ، وفعل من الخير وجاهد حتى قبضه الله عز وجل رحمة الله عليه (١) .

إن علياً رضي الله عنه لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات ، ولم ينقطع عنه في جماعة من الجماعات ، وكان يشاركه في المشورة ، وفي تدبير أمور المسلمين ، ويرى ابن كثير ومجموعة من أهل العلم أن علياً جدد بيعته بعد ستة أشهر من البيعة الأولى ، أي : بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها ، وجاءت في هذه البيعة روايات صحيحة (٢) . ولكن لما وقعت البيعة الثانية اعتقد بعض الرواة أن علياً لم يبايع قبلها ، فنفى ذلك ، والمثبت مقدم على النافي (٣) .

وهناك كتاب اسمه : «الإمام علي ، جدل الحقيقة ، والمسلمين ، الوصية والشورى» لمحمود محمد العلي ، زعم صاحبه بأنه يبحث وينشد الحقيقة ، ولكن صاحبه لم يتخلص من المنهج الشيعي الرافضي في الطرح ووضع السم في العسل ، ولذلك وجب التنبيه ، وقد تعرض لبيعة علي رضي الله عنه ، وزعم بأن أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة قائمة على الوصية .

ثانياً: علي رضي الله عنه ومساندته لأبي بكر في حروب الردة:

كان علي رضي الله عنه لأبي بكر رضي الله عنه عيبة (٤) نصح له ، مرجحاً لما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين على أي شيء آخر ، ومن الدلائل الساطعة على إخلاصه لأبي بكر ونصحه للإسلام والمسلمين وحرصه على الاحتفاظ ببقاء الخلافة ، واجتماع شمل المسلمين ما جاء من موقفه من توجه أبي بكر رضي الله عنه بنفسه إلى ذي القصة ، وعزمه على محاربة المرتدين ، وقيادته للتحركات العسكرية ضدهم بنفسه ، وما

(١) «السنن» ، عبد الله بن أحمد (٥٦٣/٢) رجال الإسناد ثقات .

(٢) (٣، ٢) «اللبداية والنهاية» (٤٩/٥) .

(٤) العيبة : وعاء من خوص ونحوه ينقل فيه الزرع المحصود إلى الجرين ، ووعاء من آدم ونحوه يكون فيه المتاع .

كان في ذلك من مخاطرة وخطر على الوجود الإسلامي^(١)، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما برز أبو بكر إلى ذي القصة، واستوى على راحلته، قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أقول لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد: لم سيفك ولا تفجعنا بنفسك، وارجع إلى المدينة، فوالله لئن فجعنا بك لا يكون للإسلام نظام أبداً، فرجع^(٢) فلو كان علي رضي الله عنه - أعاده الله من ذلك - لم ينشرح صدره لأبي بكر وقد بايعه علي رغم من نفسه، فقد كانت هذه فرصة ذهبية ينتهزها علي، فيترك أبا بكر وشأنه، لعله يحدث به حدث فيستريح منه ويصفو الجوله، وإذا كان فوق ذلك - حاشاه الله - من كراهته له، وحرصه على التخلص منه، لأغرى به أحداً يغتاله، كما يفعل الرجال السياسيون بمنافسيهم وأعدائهم^(٣)، وقد كان رأي علي رضي الله عنه مقاتلة المرتدين وقال لأبي بكر لما قال لعلي: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال أقول: إنك إن تركت شيئاً مما كان أخذه منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنت علي خلاف سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال: أما لئن قلت ذلك؛ لأقاتلنهم وإن منعوني عقلاً^(٤).

ثالثاً: تقديم علي رضي الله عنه لأبي بكر:

تواترت الأخبار عن علي رضي الله عنه في تفضيله وتقديمه لأبي بكر رضي الله عنه، فمن ذلك:

١- عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر. وخشيت أن يقول عثمان، قلت: ثم أنت؟ قال: ما أنا إلا رجل من المسلمين^(٥).

٢- عن علي رضي الله عنه قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها؟ أبو بكر. ثم قال: ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد أبي بكر؟ عمر^(٦).

(٢) «البداية والنهاية» (٦/٣١٤ - ٣١٥).

(١) «المرتضى» للندوي ص(٩٧).

(٣) «المرتضى» للندوي ص(٩٧).

(٤) «المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة» للزمخشري ص (٤٨)، و«الرياض النضرة» ص (٦٧).

(٥) «البخاري».

(٦) «مسند أحمد» (١/١٠٦، ١١٠، ١٢٧)، وصحح أحمد شاكر معظم طرق هذه الأحاديث.

٣- عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: قيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا تستخلف علينا؟ قال: ما استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستخلف، ولكن إن يرد الله بالناس خيراً فسيجمعهم بعدي على خيرهم، كما جمعهم بعد نبيهم على خيرهم (١).

٤- وقال علي رضي الله عنه: لا يفضلني أحد على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري (٢).

٥- قول علي لأبي سفيان رضي الله عنه: إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً، وهناك آثار يستأنس بها في إيضاح العلاقة الطيبة بين علي وأبي بكر منها:

(أ) عن عقبه بن الحارث قال: خرجت مع أبي بكر الصديق من صلاة العصر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بليالٍ وعلي يمشي إلى جنبه، فمر بحسن بن علي يلعب مع غلمان، فاحتمله على رقبتة وهو يقول:

بأبي شَبِيهٍ بالنبي

ليس شَبِيهٍ بعليٍّ

قال: وعلي يضحك (٣).

(ب) وعن علي رضي الله عنه قال: من فارق الجماعة شبراً، فقد نزع ربة الإسلام من عنقه (٤)، فهل كان علي يفعل ذلك؟ كان رضي الله عنه يكره الاختلاف، ويحرص على الجماعة. قال القرطبي: من تأمل ما دار بين أبي بكر وعلي من المعاتبة ومن الاعتذار، وما تضمن ذلك من الاتفاق؛ عرف أن بعضهم كان يعترف بفضل الآخر، وأن قلوبهم كانت متفقة على الاحترام والمحبة، وإن كان الطبع البشري

(١) «المستدرک» (٧٩/٣) صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) «فضائل الصحابة» (٨٣/١) في سنده ضعف.

(٣) «مسند أحمد» (١٧٠/١) إسناده صحيح، وتحقيق: أحمد شاكر.

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٤/١٥) من مرسل أبي طاق الأزدي، وهو صدوق ورجال الإسناد ثقات، و«خلافة

أبي بكر الصديق» ص (٨٠).

قد يغلب أحياناً، لكن الديانة ترد ذلك، والله الموفق^(١). وأما ما قيل من تخلف الزبير بن العوام عن البيعة لأبي بكر، فإنه لم يرد من طريق صحيح، بل ورد ما ينفي هذا القول، ويثبت مبايعته في أول الأمر، وذلك في أثر أبي سعيد السابق الصحيح وغيره من الآثار^(٢).

(ج) قال ابن تيمية: وقد تواتر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: خير الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر. وقد روي هذا عنه من طرق كثيرة قيل: إنها تبلغ ثمانين طريقاً. وعنه أنه كان يقول: لا أوتى بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلده حد المفترى^(٣). وقال أيضاً: ولم يقل أحد قط إنني أحق بهذا - أي الخلافة - من أبي بكر ولا قاله أحد في أحد بعينه: أن فلاناً أحق بهذا الأمر من أبي بكر. وإنما قال من فيه أثر الجاهلية - عربية أو فارسية - أن بيت الرسول صلوات الله عليه أحق بالولاية؛ لأن العرب في جاهليتها كانت تقدم أهل الرؤساء، وكذلك الفرس يقدمون أهل بيت الملك، فنقل عن نقل عنه كلام يشير به إلى هذا^(٤).

(د) تسمية أبي بكر بالصديق وشهادة علي له بالسباق والشجاعة:

عن يحيى بن حكيم بن سعد قال: سمعت علياً رضي الله عنه يحلف: والله أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق^(٥). وعن صلة بن زفر العبسي قال: كان أبو بكر إذا ذكر عند علي قال: السَّبَّاقُ تذكرون، والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر^(٦)، وعن محمد بن عجيل بن أبي طالب قال: خطبنا علي رضي الله عنه فقال: أيها الناس من أشجع الناس؟ قلنا: أنت يا أمير المؤمنين. قال:

(١) «فتح الباري» (٤٩٥/٧).

(٢) «خلافة أبي بكر الصديق»، لعبدالعزیز سليمان ص (٨١).

(٣) «منهاج السنة» (١٦٢/٣).

(٤) «منهاج السنة» (٢٦٩/٣)، و«مرويات أبي مخنف» ص (٣٠٩).

(٥) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٥/١) رجاله ثقات.

(٦) الطبراني في «الأوسط» (٢٠٧/٧، ٢٠٨) إسناده ضعيف.

ذاك أبو بكر الصديق، إنه لما كان في يوم بدر وضعنا لرسول الله العريش^(١) فقلنا: من يقيم عنده لا يدنو إليه أحد من المشركين؟ فما قام عليه إلا أبو بكر وأنه كان شاهراً السيف على رأسه كلما دنا إليه أحد هوى عليه أبو بكر بالسيف، ولقد رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش عند الكعبة فجلعوا يتعتونه ويترتونه^(٢)، ويقولوا: أنت الذي جعلت الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله ما دنا إليه إلا أبو بكر، ولأبي بكر يومئذ ضفيران^(٣)، فأقبل يجأ^(٤) هذا، ويدفع هذا ويقول: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟! وقطعت إحدى ضفيري أبي بكر، فقال علي لأصحابه: ناشدتم الله أي الرجلين خير، مؤمن آل فرعون أو أبو بكر؟ فأمسك القوم، فقال علي: والله ليوم من أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون، ذلك رجل كتم إيمانه فأثنى الله عليه، وهذا أبو بكر بذل نفسه ودمه لله^(٥).

رابعاً: اقتداء علي بالصديق في الصلوات وقبول الهدايا منه :

إن علياً رضي الله عنه كان راضياً بخلافة الصديق ومشاركاً له في معاملاته وقضياه، قابلاً منه الهدايا، رافعاً إليه الشكاوى، مصلياً خلفه، محبباً له، مبغضاً من بغضه^(٦)، وشهد بذلك أكبر خصوم الخلفاء الراشدين، وأصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بهديهم، وسلك بمسلكهم، ونهج بمنهجهم^(٧)، فهذا يعقوبي الشيعي الغالي في تاريخه، يذكر أيام خلافة الصديق فيقول: وأراد أبو بكر أن يغزو الروم فشاور جماعة من أصحاب رسول الله، فقدموا وأخروا فاستشار علي بن أبي طالب فأشار عليه أن يفعل، فقال: إن فعلت ظفرت، فقال: بشرت بخير، فقام أبو بكر في الناس خطيباً، وأمرهم أن يتجهزوا إلى الروم، وفي رواية سأل الصديق علياً كيف ومن أين تبشر؟ قال: من النبي ﷺ، حيث سمعته يبشر

(١) العريش: ما يستظل به، وجمعه عروش وعُرُش.
 (٢) يترتونه: الترترة: تحريك الشيء.
 (٣) ضفيران: عقيصتان.
 (٤) يجأ: الوجأ: اللكز.
 (٥) «المستدرک» (٦٧/٣) صحيح علي شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
 (٦) «الشیعة وأهل البيت»، إحسان إلهي ظهير ص (٦٩).
 (٧) «الشیعة وأهل البيت» ص (٦٩).

بتلك البشارة، فقال أبو بكر: سررتني بما أسمعني من رسول الله يا أبا الحسن
سرك الله^(١)، ويقول اليعقوبي أيضاً: وكان ممن يؤخذ عنه الفقه في أيام أبي بكر
علي بن أبي طالب وعمر ابن الخطاب ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن
ثابت وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهم^(٢)، فقدم علياً على جميع أصحابه، وهذا دليل
واضح على تعاملهم مع بعضهم، وتقديمهم علياً في المشورة^(٣) والقضاء، فعندما
كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر بقوله له: إنه وجد رجلاً في بعض نواحي
العرب يُنكح كما تنكح المرأة، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله صلوات الله عليه وآله
منهم علي، فقال علي: إن هذا ذنب لم يعمل به إلا أمة واحدة^(٤)، ففعل الله
بهم ما قد علمتم، أرى أن تحرقه بالنار، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله أن
يحرق بالنار، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار^(٥).

وكان علي رضي الله عنه يمثل أوامر الصديق؛ فعندما جاء وفد من الكفار إلى
المدينة، ورأوا بالمسلمين ضعفاً وقلة؛ لذاذهبهم إلى الجهات المختلفة للجهاد
واستئصال شأفة المرتدين والبغاة الطغاة، وأحس منهم الصديق خطراً على
عاصمة الإسلام والمسلمين، أمر الصديق بحراسة المدينة، وجعل الحرس على
أنقابها يبيتون بالجيوش، وأمر علياً والزبير وطلحة وعبدالله بن مسعود أن يرأسوا
هؤلاء الحراس، وبقوا كذلك حتى آمنوا منهم^(٦)، وللتعامل الموجود بينهم
وللتعاطف والتوادم والوثام الكامل، كان عليّ وهو سيد أهل البيت ووالد سبطي
الرسول صلوات الله عليه وآله يتقبل الهدايا والتحف دأب الإخوة المتساوين في ما بينهم
والمتحايين؛ كما قبل الصهباء الجازية التي سببت في معركة عين التمر، وولدت
له عمر ورقية^(٧) وأيضاً منحه الصديق خولة بنت جعفر بن قيس التي أسرت مع

(١) «تاريخ اليعقوبي» (٢/١٣٢-١٣٣)، نقلاً عن: «الشيعة وأهل البيت» ص(٧٠).

(٢) «تاريخ اليعقوبي» (٢/١٣٨) نقلاً عن «الشيعة وأهل البيت» ص(٧٠).

(٣) «الشيعة وأهل البيت» ص(٧٠).

(٥) «المنغني والشرح الكبير» (١٢/٢٢٠)، و«المختصر من كتاب الموافقة» ص(٥١).

(٦) «تاريخ الطبري» (٤/٦٤)، و«الشيعة وأهل البيت» ص(٧١).

(٧) «الطبقات» (٣/٢٠)، و«البداية والنهاية» (٧/٣٣١ - ٣٣٣).

من أسر في حرب اليمامة، وولدت له أفضل أولاده بعد الحسن والحسين وهو محمد بن الحنفية، وكانت خولة من سبي أهل الردة، وبها يعرف ابنها ونسب إليها محمد بن الحنفية^(١)، يقول الإمام الجويني عن بيعة الصحابة لأبي بكر: وقد اندرجوا تحت الطاعة عن بكرة أبيهم لأبي بكر رضي الله عنه وكان علي رضي الله عنه سامعاً لأمره، وبابح أبا بكر على ملاء من الأشهاد، ونهض إلى غزو بني حنيفة^(٢).

ووردت روايات عديدة في قبوله هو وأولاده الهدايا المالية والخمس وأموال الفقيه من الصديق رضي الله عنه أجمعين، وكان علي هو القاسم والمتولي في عهده على الخمس والفقيه وكانت هذه الأموال بيد علي، ثم كانت بيد الحسن، ثم بيد الحسين، ثم الحسن بن الحسن ثم زيد بن الحسن^(٣)، وكان علي رضي الله عنه يؤدي الصلوات الخمسة في المسجد خلف الصديق، راضياً بإمامته، ومظهراً للناس اتفاقاً ووثامه معه^(٤)، وكان علي رضي الله عنه يروي عن أبي بكر بعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم علماً نفعني الله به، وكان إذا حدثني عنه غيري استحلقت، فإذا حلف صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من عبد مسلم يذنب ذنباً ثم يتوضأ، فيحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له»^(٥).

ولما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلف أصحابه فقالوا: ادفنوه في البقيع^(٦)، وقال آخرون: ادفنوه في موضع الجنائز، وقال آخرون: ادفنوه في مقابل أصحابه، فقال أبو بكر: أخرجوا فإنه لا ينبغي رفع الصوت عند النبي حياً ولا ميتاً، فقال علي رضي الله عنه: أبو بكر مؤتمن على ما جاء به، قال أبو بكر: عهد إليّ

(١) «الطبقات» (٢٠/٣) المصدر نفسه.

(٢) «الإرشاد» للجويني ص (٤٢٨) نقلاً عن «أصول مذهب الشيعة»، و«الإمامية الاثنا عشرية» للقفاري (١/٨٥).

(٣) «الشيعة وأهل البيت» ص ٧٢.

(٤) «مسند أحمد» رقم (٤٧).

(٥) البقيع: مقبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنه ليس من نبي يموت إلا دفن حيث يقبض»^(١)، وشهد علي رضي الله عنه للصديق عن عظيم أجره في المصاحف، فعن عبد خير قال: سمعت علياً يقول: أعظم الناس أجراً في المصاحف: أبو بكر الصديق، هو أول من جمع بين اللوحين^(٢).

خامساً: الصديق والسيدة فاطمة وميراث النبي صلى الله عليه وسلم؟

قالت عائشة رضي الله عنها: إن فاطمة والعباس رضي الله عنهما أتيا أبا بكر رضي الله عنه يلتمسان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما حينئذ يطلبان أرضيهما من فدك وسهميهما من خيبر، فقال لهما أبو بكر: إني سمعت رسول الله يقول: «لا نورث، ما تركنا صدقةً، إنما يأكل آل محمد من هذا المال»^(٣) وفي رواية قال أبو بكر رضي الله عنه: ... لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به؛ فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ^(٤)، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، حين توفي رسول الله، أردن أن يعثن عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أبي بكر؛ ليسألنه ميراثهن من النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت عائشة رضي الله عنها لهن: أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا نورث، ما تركنا صدقة»^(٥)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يقتصم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»^(٦).

وهذا ما فعله أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع فاطمة رضي الله عنها امتثالاً لقوله صلى الله عليه وسلم، لذلك قال الصديق: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به^(٧) وقال: والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه فيه إلا صنعته^(٨).

(١) «مسند أحمد» (٨/١) إسناده ضعيف، قاله: أحمد شاكر، وقال ابن حجر في «الفتح» (٦٣١/١): إسناده صحيح لكنه موقوف.

(٢) «المختصر من كتاب الموافقة» ص (٤٤).

(٣) «البخاري» رقم (٦٧٢٦).

(٤) «مسلم» رقم (١٧٥٩).

(٥) «البخاري» رقم (٦٧٢٩).

(٦) «البخاري» رقم (٦٧٣٠)، و«مسلم» رقم (١٧٥٨).

(٧) «البخاري» رقم (٦٧٢٦).

(٨) «مسلم» (١٧٥٨).

وقد تركت فاطمة رضي الله عنها منازعته بعد احتجاجه بالحديث وبيانه لها، وفيه دليل على قبولها الحق وإذعانها لقوله صلى الله عليه وسلم، قال ابن قتيبة^(١): وأما منازعة فاطمة أبا بكر رضي الله عنه في ميراث النبي صلى الله عليه وسلم فليس بمنكر؛ لأنها لم تعلم ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وظنت أنها ترثه كما يرث الأولاد آباءهم، فلما أخبرها بقوله كَفَّتْ^(٢)، وقد غالى الرافضة في قصة ميراث النبي صلى الله عليه وسلم غلوًّا مفرطًا مجانيين الحق والصواب، معرضين متجاهلين ما ورد من نصوص صحيحة في أنه صلى الله عليه وسلم لا يورث، وجعلوا ذلك من أصول الخلاف بين الصحابة وآل البيت رضي الله عنهم أجمعين وامتدادًا لأمر الخلافة، فاتهموا الصحابة رضي الله عنهم بإيقاع الظلم والجور على آل البيت، ولاسيما أبو بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما اللذين غصبا الخلافة من آل البيت كما في زعمهم وأضافوا إلى ذلك غضب أموال آل البيت، وغضب ما فرض الله لهم من حقوق مالية، ويعتبر الرافضة قضية فذك، ومنع فاطمة من إرثها من أهم القضايا، التي تواطأ عليها الصحابة بعد غضب الصديق رضي الله عنه للخلافة منهم على حد تعبيرهم؛ وذلك حتى لا يميل الناس إلى آل البيت بسبب هذا المال فيجتمعوا عليه ويخلعوه من الخلافة^(٣).

والمتتبع لكتب الرافضة في هذه المسألة يجد أنها تنصب على إنكار حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نحن - معاشر الأنبياء - لا نورث، ما تركنا صدقة»^(٤) واستقطاب الأدلة لمحاولة إبطاله فمن ذلك:

١ - زعمهم أن هذا الحديث وضعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وفي ذلك يقول الحلي: إن فاطمة لم تقبل بحديث اخترعه أبو بكر من قوله: ما تركنا صدقة، وقال أيضاً: والتجأ في ذلك إلى رواية انفرد بها^(٥)، وقال المجلسي بعد أن نص على أن أبا بكر وعمر أخذوا فديكا: ولأجل ذلك وضعوا تلك الرواية الخبيثة

(١) «شذرات الذهب» (١٦٩/٢).

(٢) «أوئل مختلف الحديث» ص (١/١٩).

(٣) «العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط» ص (٤٣٥). (٤) مسلم (١٧٥٨).

(٥) «نهج الكرامة» المطبوع مع «نهج السنة» (١٩٣/٤)، نقلاً عن: «العقيدة في أهل البيت».

المفتراة: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة^(١)، ويقول الخميني في ذلك: نقول بأن الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وآله لا صحة له، وأنه قيل من أجل استئصال ذرية النبي صلى الله عليه وآله^(٢).

ويجاب على ذلك: بأن هذا القول كذب محض وافتراء واضح؛ إذ هذه الرواية لم ينفرد بها أبو بكر رضي الله عنه؛ بل إن قوله صلى الله عليه وآله: «لا نورث، ما تركناه فهو صدقة». رواه عنه أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة، والزيبر، وسعد وعبدالرحمن بن عوف، والعباس ابن عبد المطلب، وأزواج النبي صلى الله عليه وآله، وأبو هريرة، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه أجمعين^(٣)، وفي ذلك يقول ابن تيمية: والرواية عن هؤلاء ثابتة في الصحاح، والمسانيد مشهورة يعلمها أهل العلم بالحديث، فقول القائل: إن أبا بكر انفرد بالرواية؛ يدل على فرط جهله أو تعمده الكذب^(٤)، وقال ابن كثير - بعد ذكره لمن روى الحديث وأن هذا الزعم من الرافضة باطل-: ولو تفرد بروايته الصديق رضي الله عنه لوجب على جميع أهل الأرض قبول روايته والانقياد له في ذلك^(٥).

وقد قال الدكتور سليمان بن رجاء السحيمي صاحب الكتاب القيم «العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط»: ويؤيد هذا ما جاء من كتب الرافضة عن الإمام جعفر الصادق الإمام الخامس المعصوم عندهم فيما رواه الكليني والصفار، والمفيد أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، والعلماء أمناء، والأتقياء حصون، والأوصياء سادة، وفضل العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر»^(٦) وفي رواية: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما أورثوا

(١) «حق اليقين» ص ١٩١ نقلاً عن «العقيدة في أهل البيت» ص (٤٤٣).

(٢) «كشف الأسرار» للخميني ص (١٣ - ١٣٣)، نقلاً عن: «العقيدة في أهل البيت».

(٤) «منهاج السنة» (٤/١٩٩).

(٣) «العقيدة في أهل البيت» ص (٤٤٤).

(٦) «الكافي» للكليني (١/٣٢ - ٣٤).

(٥) «البداية والنهاية» (٥/٢٥٠).

أحاديث من أحاديثهم»^(١). وما أرت منك يا رسول الله؟ قال: «ما أورت النبون».

٢ - زعمهم أن هذا الحديث مخالف لقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: ١١)، وقالوا: ولم يجعل الله ذلك خاصاً بالأمة دونه ﷺ^(٢).

والحقيقة أن الخطاب شامل للمقصودين بالخطاب، وليس فيه ما يوجب كون النبي ﷺ من المخاطبين به^(٣)؛ فهو ﷺ لا يقاس بأحد من البشر، فهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ولأن الله حرم عليه صدقة الفرض والتطوع، وخص بأشياء لم يخصص بها أحد غيره ﷺ، ومما خصه الله به، هو وإخوانه من الأنبياء - عليهم السلام - كونهم لا يورثون، وذلك صيانة من الله لهم؛ لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدر في نبوتهم بأنهم طلبوا الدنيا وخلفوها لورثتهم، أما بقية البشر فلا نبوة لهم يقدر فيها بمثل ذلك، كما صان الله تعالى نبينا ﷺ عن الشعر صيانة لنبوته عن الشبهة وإن كان غيره لم يحتج إلى هذه الصيانة^(٤).

وقال ابن كثير في رده على استدلال الرافضة بالآية: إن رسول الله ﷺ قد خص من بين الأنبياء بأحكام لا يشاركونه فيها فلو قدر أن غيره من الأنبياء يورثون - وليس الأمر كذلك - لكان ما رواه الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر مبيناً لتخصيصه بهذا الحكم دون من سواه^(٥)؛ وبهذا يتبين بطلان استدلالهم بمخالفة الحديث.

٣ - زعمهم أن منع الإرث والاستدلال بهذا الحديث مخالف لقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ (النمل: ١٦). ومخالف لما حكاه الله عن نبيه زكريا ﷺ:

(١) «الكافي» للكليني (١/٣٢ - ٣٤)، و«بصائر الدرجات» للصفار (١٠ - ١١) و«الاختصاص المفيد» ص (٤).

وانظر: «علم اليقين» للكاشاني (٢/٧٤٧ - ٧٤٨) نقلاً عن «العقيدة لأهل البيت» ص (٤٤٤).

(٢) «منهاج الكرامة» المطبوع مع «منهاج السنة» ٤/١٩٤.

(٣) «منهاج السنة» ٤/١٩٤ - ١٩٥، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٤٤٥).

(٤) «منهاج السنة» ٤/١٩٤ - ١٩٥، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٤٤٥).

(٥) «البداية والنهاية» (٥/٢٥٤)، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٤٤٦).

﴿وَأَيُّ خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وِرَائِي وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۝﴾
 يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿مريم: ٥٠ ، ٦﴾ .

حيث قالوا: إن الميراث يقتضي الأموال وما في معناه، وليس لأحد أن يقول
 أن المراد بالآية العلم دون المال^(١).

ويجاب على ذلك بما يلي: إن الإرث اسم جنس يدخل تحته أنواع،
 فيستعمل في إرث العلم، والنبوة، والمملك، وغير ذلك من أنواع الانتقال. قال
 تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر: ٣٢). وقال تعالى:
 ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿المؤمنون: ١٠ ، ١١﴾
 وغير ذلك من الآيات الواردة في هذا الشأن، وإذا كان كذلك فقولته تعالى:
 ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾، وقوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ إنما يدل على
 جنس الإرث، ولا يدل على إرث المال؛ وذلك لأن داود عليه السلام كان له أولاد
 كثيرون غير سليمان، فلا يختص سليمان بماله؛ فدل على أن المراد بهذا الإرث
 إرث العلم والنبوة ونحو ذلك، لا إرث المال، والآية سيقت في بيان مدح
 سليمان وما خصه الله به من النعمة، وحصر الإرث في المال لا مدح فيه؛ إذ إن
 إرث المال من الأمور العادية المشتركة بين الناس، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي
 وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ليس المراد به إرث المال؛ لأنه لا يرث آل يعقوب شيئاً من
 أموالهم، وإنما يرث ذلك منهم أولادهم وسائر ورثتهم لو ورثوا^(٢).

كما أن قوله: ﴿وَأَيُّ خِفْتُ الْمَوَالِي مِنْ وِرَائِي﴾ لا يدل على أن الإرث إرث
 مال؛ لأن زكريا لم يخف أن يأخذوا ماله من بعده إذا مات؛ فإن هذا ليس
 بمخوف، وزكريا عليه السلام لم يعرف له مال، بل كان نجاراً يأكل من كسب يده
 كما في صحيح مسلم^(٣)، ولم يكن ليدخر منها فوق قوته حتى يسأل الله ولداً

(١) «منهاج الكرامة» ص (١٠٩) نقلاً عن: «العقيدة في أهل البيت» وغيرها من الكتب «كالطوائف» لابن طاووس

ص (٣٤٧).

(٢) «مسلم» رقم (٢٣٧٩) ..

(٣) «منهاج السنة» (٤/ ٢٢٢ - ٢٢٤).

يرث عنه ماله، فدل على أن المراد بالوراثة في هاتين الآيتين وراثة النبوة، والقيام مقامه^(١).

يقول القرطبي في تفسيره للآية: وعليه فلم يسلم من يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تورث، وهذا هو الصحيح من القولين في تأويل الآية، وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال لما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة»^(٢)، وهذا الحديث يدخل في التفسير المسند لقوله تعالى: ﴿وَوَرَّثَ سُلَيْمَانَ دَاوُدَ﴾، وعبرة من قول زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ﴾ ^(٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا و تخصيص للعموم في ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالا خلفه داود بعده، وإنما ورث منه الحكمة والعلم، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب، وهكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض^(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن الرافضة خالفوا ما استدلوا به على وجوب الميراث وذلك أنهم حصروا ميراثه ﷺ في فاطمة رضي الله عنها فزعموا أنه لم يرث النبي ﷺ، إلا هي، فأخرجوا أزواجه وعصبته مخالفين عموم الآيات التي استدلوا بها، فقد روى الصدوق بسنده عن أبي جعفر الباقر قوله: لا والله ما ورث رسول الله ﷺ العباس ولا علي، ولا ورثته إلا فاطمة عليها السلام، وما كان أخذ علي عليه السلام السلاح وغيره إلا أنه قضى عنه دينه^(٤) وروى الكليني والصدوق والطوسي بأسانيدهم إلى الباقر أيضاً قوله: وورث علي عليه السلام من رسول الله ﷺ علمه، وورثت فاطمة عليها السلام تركته^(٥)، بل وأخرجوا حتى فاطمة من ذلك، حيث زعموا أن النساء لا يرثن العقار، فقد بوب الكليني

(١) «منهاج السنة» (٢٢٥/٤)، و«البداية والنهاية» (٢٥٣/٥)، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٤٤٨).

(٢) «مسلم» رقم (١٧٥٨).

(٣) «تفسير القرطبي» (١١/٣٥ - ٤٥).

(٤) «من لا يحضره الفقيه» (١٩٠/٤ - ١٩٩١)، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٤٥١).

(٥) «الكافي» للكليني (٢/٢٥٩)، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٤٥١).

في كتابه الكافي باباً بعنوان: أن النساء لا يرثن من العقار شيئاً وساق تحته روايات منها: عن أبي جعفر الصادق أنه قال: «النساء لا يرثن من الأرض ولا من العقار شيئاً»^(١).

روى الصدوق بسنده إلى ميسر قال: سألته -يقصد الصادق- عن النساء ما لهن في الميراث؟ فقال: أما الأرض والعقارات فلا ميراث لهن فيه^(٢)، وبهذا يتبين عدم استحقاق فاطمة رضي الله عنها شيئاً من الميراث، بدون الاستدلال بحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»^(٣). فما دامت المرأة لا ترث العقار والأرض، فكيف كان لفاطمة أن تسأل فذك - على حسب قولهم - وهي عقار لا ريب فيه؟^(٤)، وهذا دليل كذبهم وتناقضهم فضلاً عن جهلهم^(٥).

وأما ما زعموه من كون الصديق رضي الله عنه سأل فاطمة أن تحضر شهوداً، فأحضرت علياً وأم أيمن فلم يقبل شهادتهما فهو من الكذب البين الواضح، قال حماد بن إسحاق: فأما ما يحكيه قوم: أن فاطمة عليها السلام طلبت فذك، وذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وآله أقطعها إياها، وشهد لها علي عليه السلام فلم يقبل أبو بكر شهادته؛ لأنه زوجها، فهذا أمر لا أصل له ولا تثبت به رواية أنها ادعت ذلك، وإنما هو أمر مفتعل لا ثبت فيه^(٦).

٤ - إن السنة والإجماع قد دلا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث: قال ابن تيمية: كون النبي صلى الله عليه وآله لا يورث ثبت بالسنة المقطوع بها، وإجماع الصحابة، وكل منهما دليل قطعي، فلا يعارض ذلك بما يظن أنه عموم، وإن كان عموماً فهو مخصوص؛ لأن ذلك لو كان دليلاً لما كان إلا ظنياً فلا يعارض القطعي؛ إذ الظني لا يعارض القطعي، وذلك أن هذا الخبر رواه غير واحد من الصحابة في أوقات ومجالس، وليس فيهم من ينكره بل كلهم تلقاه

(١) «الكافي» للكليني (١٣٧/٧)، و«العقيدة في أهل البيت» ص(٤٥١).

(٢) «الشعبة وأهل البيت» ص(٨٩).

(٤) «الشعبة وأهل البيت» ص(٩٨).

(٣) «مسلم» (١٧٦٨).

(٦) «منهاج السنة» (٤/٢٣٦ - ٢٣٨).

(٥) «العقيدة في أهل البيت» ص(٤٥٢).

بالقبول والتصديق، ولهذا لم يصراً أحد من أزواجه على طلب الميراث، ولا أصراً العمّ على طلب الميراث، بل من طلب من ذلك شيئاً فأخبر بقول النبي ﷺ رجوع عن طلبه، واستمر الأمر على ذلك على عهد الخلفاء الراشدين إلى علي، فلم يغير من ذلك شيئاً، ولا قسم له تركة^(١) قال ابن تيمية: قد تولى الخلافة (علي) بعد ذي النورين عثمان، وصار فدك وغيرها تحت حكمه، ولم يعط منها شيئاً لأحد من أولاد فاطمة ولا من زوجات النبي ﷺ ولا ولد العباس فلو كان ظلماً، وقدر على إزالته لكان هذا أهون عليه من قتال معاوية وجيوشه، أفتراه يقاتل معاوية مع ما جرى في ذلك من الشر العظيم ولا يعطي هؤلاء قليلاً من المال، وأمره أهون بكثير؟^(٢)، وبإجماع الخلفاء الراشدين على ذلك احتج الخليفة العباسي أبو العباس السفاح على بعض مناظريه في هذه المسألة على ما نقل ابن الجوزي في تلبيس إبليس قال: وقد روينا عن السفاح أنه خطب يوماً فقام رجل من آل علي ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين أعني علي من ظلمني قال: ومن ظلمك؟ قال: أنا من أولاد علي ﷺ والذي ظلمني أبو بكر ﷺ حين أخذ فدك من فاطمة، قال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ قال: عمر ﷺ، قال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ قال: عثمان ﷺ، قال: ودام على ظلمكم؟ قال: نعم، قال: ومن قام بعده؟ فجعل يلتفت كذا وكذا ينظر مكاناً يهرب منه^(٣).

وبتصويب أبي بكر ﷺ في اجتهاده صرح بعض أولاد علي من فاطمة ﷺ على ما روى البيهقي بسنده عن فضيل بن مرزوق قال: قال زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب: أما لو كنت مكان أبي بكر، لحكمت بما حكم به أبو بكر في فدك^(٤)، كما نقل أبو العباس القرطبي اتفاق أهل البيت، بدأ بعلي ﷺ ومن جاء بعده من أولاده، ثم أولاد العباس الذين كانت بأيديهم صدقه رسول الله ﷺ، أنهم ما كانوا يرون تملكها، وإنما كانوا ينفقونها في سبيل الله

(٣) «تلبيس إبليس» ص ١٣٥.

(٢) «منهاج السنة» (٦/٣٤٧).

(١) «منهاج السنة» (٤/٢٢٠).

(٤) «تاريخ المدينة» لابن شبة (١/٢٠٠)، و«البداية والنهاية» (٥/٢٥٣).

قال - رحمه الله -: إن علياً لما ولي الخلافة ولم يغيرها عما عمل فيها في عهد أبي بكر، وعمر، وعثمان، ولم يتعرض لتملكها، ولا لقسمة شيء منها، بل كان يصرفها في الوجوه التي كان من قبله يصرفها فيها، ثم كانت بيد الحسن بن علي، ثم بيد الحسين بن علي، ثم بيد علي بن الحسين، ثم بيد الحسين ابن الحسن، ثم بيد زيد بن الحسين، ثم بيد عبد الله بن الحسين، ثم تولاهما بنو العباس على ما ذكره أبو بكر البرقاني في صحيحه، وهؤلاء كبراء أهل البيت رضي الله عنهم وهم معتمدون عند الشيعة وأئمتهم، لم يرو عن واحد منهم أنه تملكها ولا ورثها ولا ورثت عنه، فلو كان ما يقوله الشيعة حقاً لأخذها علي أو أحد من أهل بيته لما ظفروا بها، ولم فلا^(١).

وقال ابن تيمية: قد تولى الخلافة بعد ذي النورين عثمان، وصار فداك وغيرها تحت حكمه، ولم يعط منها شيئاً لأحد من أولاد فاطمة، ولا من زوجات النبي صلوات الله عليهم، ولا ولد العباس، فلو كان ظلماً، وقدر على إزالته لكان هذا أهون عليه من قتال معاوية وجيوشه أفتراه يقاتل معاوية مع ما جري في ذلك من الشر العظيم ولا يعطي هؤلاء قليلاً من المال، وأمره أهون بكثير^(٢)؟ .

وقال ابن كثير: وقد تكلمت الرافضة في هذا المقام بجهل، وتكلفوا ما لا علم لهم به، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله، وأدخلوا أنفسهم فيما لا يعينهم^(٣)، فلو تفهموا الأمور على ما هي عليه لعرفوا للصديق فضله، وقبلوا منه عذره الذي يجب على كل أحد قبوله، ولكنهم طائفة مخذولة، وفرقة مردولة، يتمسكون بالمتشابه، ويتركون الأمور المقدرة عند أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء المعترين في سائر الأعصار والأمصار رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين^(٤).

٥ - تسامح السيدة فاطمة رضي الله عنها مع أبي بكر رضي الله عنه:

وقد ثبت عن فاطمة رضي الله عنها أنها رضيت عن أبي بكر بعد ذلك، وماتت وهي

(٢) «منهاج السنة» (٦/٣٤٧).

(٤) المصدر نفسه (٥/٢٥١).

(١) «المفهم» للقرطبي (٣/٥٦٤).

(٣) «البداية والنهاية» (٥/٢٥٣).

راضية عنه، على ما روى البيهقي بسنده عن الشعبي أنه قال: لما مرضت فاطمة أتاها أبو بكر الصديق فاستأذن عليها، فقال علي: يا فاطمة هذا أبو بكر يستأذن عليك؟، فقالت: أتحب أن أذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها يترضاها، فقال: والله ما تركت الدار والمال، والأهل والعشيرة، إلا ابتغاء مرضاة الله، ومرضاة رسوله، ومرضاتكم أهل البيت، ثم ترضاها حتى رضيت^(١). قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي، والظاهر أن عامر الشعبي سمعه من علي أو ممن سمعه من علي رضي الله عنه^(٢).

وبهذا تندحض مطاعن الراضية على أبي بكر التي يعلقونها على غضب فاطمة عليه، فلئن كانت غضبت على أبي بكر في بداية الأمر فقد رضيت عنه بعد ذلك، وماتت وهي راضية عنه، ولا يسع أحد صادق في محبته لها، إلا أن يرضى عمن رضيت عنه^(٣)، ولا يعارض هذا ما ثبت في حديث عائشة: «إنما يأكل آل محمد صلوات الله عليهم من هذا المال، وإنني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله صلوات الله عليهم عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله صلوات الله عليهم، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله صلوات الله عليهم، فأبى أبو بكر أن يدفع لفاطمة منها شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت»^(٤)، فإن هذا بحسب علم عائشة رضي الله عنها راوية الحديث، وفي حديث الشعبي زيادة علم، وثبوت زيادة أبي بكر لها وكلامها له ورضاها عنه، فعائشة رضي الله عنها نفت والشعبي أثبت، ومعلوم لدى العلماء أن قول المثبت مقدم على قول النافي؛ لأن احتمال الثبوت حصل بغير علم النافي، خصوصاً في مثل هذه المسألة؛ فإن عيادة أبي بكر لفاطمة رضي الله عنها ليست من الأحداث الكبيرة التي تشيع في الناس، ويطلع عليها الجميع، وإنما هي من الأمور العادية التي تخفى على من لم يشهدها، والتي لا يعبأ بنقلها لعدم الحاجة لذكرها. على أن الذي ذكره العلماء أن فاطمة رضي الله عنها لم تتعمد هجر أبي بكر رضي الله عنه أصلاً، ومثلها ينزه عن ذلك لنهي النبي صلوات الله عليهم عن الهجر فوق

(٢) «البداية والنهاية» (٥/٢٥٣).

(٤) «البخاري» رقم (٤٢٤٠).

(١) «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/٣٠١).

(٣) «الانتصار للصحب والآل» ص (٤٣٤).

ثلاث، وإنما لم تكلمه لعدم الحاجة لذلك^(١)، قال القرطبي صاحب «المفهم» في سياق شرحه لحديث عائشة المتقدم: ثم إنها -أي فاطمة- لم تلتق بأبي بكر لشغلها بمصيبتها برسول الله صلى الله عليه وسلم وللازمتها بيتها، فعبر الراوي عن ذلك بالهجران، وإلا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث»^(٢) وهي أعلم الناس بما يحل من ذلك ويحرم، وأبعد الناس عن مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف لا يكون كذلك وهي بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدة نساء أهل الجنة؟!^(٣).

وقال النووي: وأما ما ذكر من هجران فاطمة أبا بكر رضي الله عنه فمعناه: انقباضها عن لقائه، وليس هذا من الهجران المحرم، الذي هو ترك السلام والإعراض عند اللقاء، وقوله في هذا الحديث: (فلم تكلمه) يعني في هذا الأمر، أو لانقباضها فلم تطلب منه حاجة ولا اضطرت إلى لقائه فتكلمه، ولم ينقل قط أنهما التقيا فلم تسلم عليه ولا كلمته^(٤)، لقد انشغلت فاطمة رضي الله عنها عن كل شيء بحزنها لفقداء أكرم الخلق، وهي مصيبة تزري بكل المصائب، كما أنها انشغلت بمرضها الذي ألزمها الفراش عن أية مشاركة في أي شأن من الشؤون فضلاً عن لقاء خليفة المسلمين المشغول - لكل لحظة من لحظاته - بشؤون الأمة، وحروب الردة وغيرها، كما أنها كانت تعلم بقرب لحوقها بأبيها؛ فقد أخبرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أول من يلحق به من أهله^(٥)، ومن كان في مثل علمها لا يخطر بباله أمور الدنيا، وما أحسن قول المهلب الذي نقله العيني: ولم يرو أحد أنهما التقيا وامتنعا عن التسليم، وإنما لازمت بيتها، فعبر الراوي عن ذلك بالهجران^(٦).

ومما يدل على أن العلاقة كانت وطيدة بين الصديق والسيدة فاطمة إلى حد أن زوجة أبي بكر أسماء بنت عميس، هي التي كانت تمرض فاطمة بنت النبي

(١) «الانتصار للصحب والأل» ص(٤٣٤).

(٢) «البخاري» رقم (٦٠٧٧).

(٣) «المفهم» (٧٣/١٢).

(٤) «شرح صحيح مسلم» (٧٣/١٢).

(٥) «مسلم» رقم (٢٤٥٠).

(٦) «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ» ص(١٠٨).

عليه السلام في مرض موتها، وكانت معها حتى الأنفاس الأخيرة، وشاركت في غسلها وترحيلها إلى مثواها، وكان علي رضي الله عنه يمرضها بنفسه وتعينه على ذلك أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وقد وصتها بوصايا في كفنها ودفنها وتشيع جنازتها. فعملت أسماء بها^(١)، فقد قالت السيدة فاطمة لأسماء: إني قد استقبحت ما يصنع بالنساء أنه يطرح على المرأة الثوب فيصفها، فقالت أسماء: يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ألا أريك شيئاً رأيته بأرض الحبشة، فدعت بجرائد رطبة؛ فحنتها ثم طرحت عليها ثوبا، فقالت فاطمة: ما أحسن هذا وأجمله، به تعرف المرأة من الرجال^(٢).

وعن ابن عبد البر: فاطمة رضي الله عنها أول من غطي نعشها في الإسلام، ثم زينب بنت جحش، وكان الصديق دائم الاتصال بعلي من ناحية؛ ليسأله عن أحوال بنت النبي صلى الله عليه وسلم خلاف ما يزعمه القوم، فمرضت -أي فاطمة رضي الله عنها- وكان علي يصلي في المسجد الصلوات الخمس، فلما صلى قال له أبو بكر وعمر: كيف بنت رسول الله؟ ومن ناحية أخرى من زوجته أسماء حيث كانت هي المشرفة والممرضة الحقيقية لها، ولما قبضت فاطمة من يومها فارتجت المدينة بالبكاء من الرجال والنساء، ودهش الناس كيوم قبض فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر وعمر يعزيان علياً ويقولان: يا أبا الحسن، لا تسبقنا بالصلاة على ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣)، وقد توفيت ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة، عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده علي ابن الحسين، قال: ماتت فاطمة بين المغرب والعشاء، فحضرها أبو بكر وعمر وعثمان والزيبير وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، فلما وضعت ليصلي عليها، قال علي: تقدم يا أبا بكر، قال أبو بكر رضي الله عنه: وأنت يا أبا الحسن؟ قال: نعم، فوالله لا يصلي عليها غيرك، فصلى عليها أبو بكر رضي الله عنه ودفنت ليلاً، وجاء في رواية: صلى أبو بكر الصديق رضي الله عنه على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكبر عليها

(١) «الشيعة وأهل البيت» ص (٧٧).

(٢) «الاستيعاب» (٤/٣٧٨).

(٣) «الشيعة وأهل البيت» ص (٧٧)، كتاب سليم بن قيس ص (٢٥٥).

أربعاً^(١)، وفي رواية مسلم: صلى عليها علي بن أبي طالب وهي الرواية الراجحة^(٢).

ولقد أجاد وأفاد محمد إقبال في قصيدته العصماء (فاطمة الزهراء) فقال:

نَسَبُ الْمَسِيحِ بَنَى لِمَرْيَمَ سَيْرَةً
 بَقِيَتْ عَلَى طُولِ الْمَدَى ذِكْرَاهَا
 وَالْمَجْدُ يُشْرِفُ مِنْ ثَلَاثِ مَطَالِعِ
 فِي مَهْدِ فَاطِمَةَ فَمَا أَعْلَاهَا
 هِيَ بِنْتُ مَنْ هِيَ زَوْجُ مَنْ هِيَ أُمُّ مَنْ
 مَنْ ذَا يُدَانِي فِي الْفَخَارِ أَبَاهَا
 هِيَ وَمَضَّةٌ مِنْ نُورِ عَيْنِ الْمُصْطَفَى
 هَادِي الشُّعُوبِ إِذَا تَرُومُ هِدَاهَا
 مَنْ أَيْقَظَ الْفِطْرَ النَّيَامَ بِرُوحِهِ
 وَكَأَنَّهُ بَعْدَ الْبَلَى أَحْيَاهَا
 وَأَعَادَ تَارِيخَ الْحَيَاةِ جَدِيدَةً
 مِثْلَ الْعَرَائِسِ فِي جَدِيدِ حُلَاهَا
 هِيَ أَسْوَةٌ لِلْأُمَّهَاتِ وَقُدْوَةٌ
 يَتَرَسَّمُ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ خَطَاهَا
 جَعَلَتْ مِنَ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ غِذَاءَهَا
 وَرَأَتْ رِضَى الزَّوْجِ الْكَرِيمِ رِضَاهَا

(١) «المختصر من كتاب الموافقة» ص(٦٨) في سنده ضعف.

(٢) «مسلم» رقم (١٧٥٩).

إلى أن قال:

لَوْلَا وَقُوفِي عِنْدَ شَرَعِ الْمُصْطَفَى
وَحُدُودِ شَرَعَتِهِ وَنَحْنُ فِدَاهَا
لَمَضَيْتُ لِلتَّطَوَّافِ حَوْلَ ضَرِيحِهَا
وَعَمَرْتُ بِالْقُبَلَاتِ طِيبَ ثَرَاهَا (١)

سادسا: مصاهرات بين الصديق وأهل البيت وتسمية أهل البيت بعض

أبنائهم باسم أبي بكر:

كانت صلة سيدنا أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ بأعضاء أهل البيت، صلة ودية تقديرية تليق به وبهم، كانت هذه المودة والثقة متبادلة، وكانت من المتانة بحيث لا يتصور معها التباعد والاختلاف مهما نسج المتآمرون الأساطير والأباطيل، فالصديقة عائشة بنت الصديق بنت أبي بكر ﷺ كانت زوجة النبي ﷺ، ومن أحب الناس إليه، مهما احترق الحساد ونقم المخالفون، فإنها حقيقة ثابتة، وهي طاهرة مطهرة بشهادة القرآن مهما جحدها المبطلون وأنكرها المنكرون، ثم أسماء بنت عميس التي كانت زوجة لجعفر بن أبي طالب شقيق علي، فمات عنها وتزوجها الصديق وولدت له ولداً سماه محمداً الذي ولاه علي مصر، ولما مات أبو بكر تزوجها علي بن أبي طالب فولدت له ولداً سماه يحيى (٢). وحفيدة الصديق كانت متزوجة من محمد الباقر - الإمام الخامس عند الروافض وحفيد علي ﷺ - وقد نقل الأستاذ إحسان إلهي ظهير من كتب الروافض ما يثبت التلاحم والمصاهرة بين بيت النبوة وبيت الصديق، فقد أثبت بأن قاسم بن محمد بن أبي بكر حفيد أبي بكر، وعلي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد علي كانا ابني خالة، فأم قاسم بن محمد وعلي ابن الحسين هما بنتي يزيد جرد بن شهريار بن

(١) «الدوحة النبوية الشريفة» ص (٦٢ ، ٦٣)

(٢) «خلافة علي بن أبي طالب»، و«ترتيب وتهذيب كتاب البداية والنهاية» للسلمي ص (٢٢).

كسرى اللتين كانتا من سبايا الفرس في عهد عمر رضي الله عنه، وتوسع إحسان إلهي ظهر في إثبات المصاهرات وعلاقات المودة والتراحم والاحترام المتبادل بين أهل البيت وبيت الصديق^(١)، وكان من حب أهل البيت للصديق والتوادد ما بينهم أنهم سموا أبناءهم بأسماء أبي بكر رضي الله عنه، فأولهم علي بن أبي طالب حيث سمي أحد أبنائه بأبي بكر، وهذا دليل على حب ومؤاخاة وإعظام وتقدير علي للصديق رضي الله عنه، والجدير بالذكر أنه ولد له هذا الولد بعد تولية الصديق الخلافة والإمامة، بل وبعد وفاته كما هو معروف بداهة، وهل يوجد في الشيعة اليوم المتزعمين حب علي وأولاده رجل يسمى بهذا الاسم، وهل هم موالون له أم مخالفون؟ وعلي رضي الله عنه لم يسم بهذا الاسم ابنه إلاّ متمناً بالصديق وإظهاراً له المحبة والوفاء، وحتى بعد وفاته وإلاّ فلا يوجد في بني هاشم رجل قبل علي سمي ابنه بهذا الاسم، ثم لم يقتصر عليّ بهذا التيمن والتبرك وإظهار المحبة والصدقة للصديق، بل بعده بنوه أيضاً مشوا مشيه ونهجوا منهجه، فالحسن والحسين، سمي كل واحد منهما أحد أولادهما بأبي بكر، فقد ذكر ذلك اليعقوبي والمسعودي وهما من مؤرخي الروافض^(٢).

واستمر أهل البيت يسمون من أسماء أولادهم بأبي بكر، فقد سمي ابن أخ علي بن أبي طالب رضي الله عنه - وهو عبد الله بن جعفر الطيار بن أبي طالب فإنه سمي - أحد أبنائه باسم أبي بكر، وهذا من إحدى علائم الحب والود بين القوم، خلاف ما يزعمه الروافض اليوم من العداوة والبغضاء والقتال الشديد والجدال الدائم بينهم^(٣). وقد كان جعفر بن محمد بن عليّ ابن الحسين الذي يلقب بالصادق عند الشيعة الروافض يقول: ولدني أبوبكر مرتين^(٤)، فأمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، كان أحد فقهاء المدينة السبعة تربي في حجر أم المؤمنين عائشة، وأما أمها فهي أسماء بنت

(١) «الشيعة وأهل البيت» ص (٧٨ الى ٨٣)

(٢) «تاريخ اليعقوبي» (٢/٢٢٨)، و«الشيعة والأشراف» ص (٨٢)

(٣) «الشيعة وأهل البيت» ص (٨٣)، و«الدرر المنتور من تراث أهل البيت والصحابة» السيد علاء الدين المدرّس ص

(٣٨ - ٤٤)، و«رحماء بينهم» صالح بن عبد الله الدرويش.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦/٢٥٤).

عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق وكان جعفر يغضب من الرافضة ويمقتهم إذا علم أنهم يتعرضون لجده أبي بكر، فكيف يرضى من يدعي محبة جعفر وآل البيت أن يلعن جد جعفر؟.

وعن عروة بن عبدالله قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عن حلية السيوف؟ فقال: لا بأس به، قد حلّى أبوبكر الصديق سيفه، قال: قلت: وتقول الصديق؟ قال: فوثب وثبة واستقبل القبلة، ثم قال: نعم الصديق، نعم الصديق، من لم يقل له: الصديق، فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة^(١).

سابعا: علي رضي الله عنه في وفاة الصديق:

كان علي رضي الله عنه من ضمن من استشارهم الصديق فيمن يتولى الخلافة بعده، وكان رأي علي أن يتولى الخلافة بعد الصديق الفاروق^(٢)، ولما حان الرحيل ونزل الموت بأبي بكر، كان آخر ما تكلم به الصديق في هذه الدنيا قول الله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١). وارتجت المدينة لوفاة أبي بكر الصديق، ولم تر المدينة منذ وفاة الرسول صلّى الله عليه وآله يوماً، أكثر باكيةً وباكية من ذلك المساء الحزين، وأقبل علي بن أبي طالب مسرعاً، باكياً، مسترجعاً، ووقف على البيت الذي فيه أبو بكر فقال: رحمك الله يا أبا بكر، كنت إلف رسول الله صلّى الله عليه وآله وأنيسه ومستراحه وثقته وموضع سره ومشاورته، وكنت أول القوم إسلاماً، وأخلصهم يقيناً، وأشدّهم لله يقيناً، وأخوفهم لله، وأعظمهم غناء في دين الله عز وجل، وأحوطهم على رسول الله صلّى الله عليه وآله، وأحذبهم على الإسلام، وأحسنهم صحبة، وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق، وأرفعهم درجة، وأقربهم وسيلة، وأشبههم برسول الله هدياً وسمتاً، وأشرفهم منزلة، وأرفعهم عندهم، وأكرمهم عليه، فجزاك الله عن رسول الله وعن الإسلام أفضل الجزاء.

(١) «صفة الصفوة» (١٠٩/٢ - ١١٠)، و«مختصر الاثنا عشرية» ص (٣٤).

(٢) «الكامل» لابن الأثير (٧٩/٢)، و«المختصر من كتاب الموافقة» للزمخشري ص (٧٠ إلى ١٠٠).

صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وكنت عنده بمنزلة السمع والبصر، سماك الله في تنزيله صديقاً، فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٣٣)، واسيته حين بخلوا، وقمت معه على المكاره حين قعدوا، وصحبته في الشدة أكرم الصحبة، ثاني اثنين صاحبه في الغار، والمنزل عليه السكينة، ورفيقه في الهجرة، وخليفته في دين الله، وأتمه أحسن الخلافة حين ارتدوا، فقامت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبي، ونهضت حين وهن أصحابه، وبرزت حين استكانوا، وقويت حين ضعفوا، ولزمت منهاج رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ وهنوا، وكنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك، قوياً في أمر الله، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله تعالى، جليلاً في أعين الناس، كبيراً في أنفسهم، لم يكن لأحدهم فيك مغمز، ولا لقاتل فيك مهمز، ولا لمخلوق عندك هواده، الضعيف عندك قوي عزيز حتى تأخذ بحقه، القريب والبعيد عندك سواء، وأقرب الناس عندك أطوعهم لله عز وجل وأتقاهم، شأنك الحق والصدق والرفق، قولك حكم وحتم، وأمرك حلم وحزم، ورأيك علم وعزم، اعتدل بك الدين، وقوي بك الإيمان، وظهر أمر الله، فسبقت - والله - سبباً بعيداً، وأتعبت من بعدك إتعاباً شديداً، وفزت بالخير فوزاً مبيناً، فإننا لله وإننا إليه راجعون، رضينا عن الله عز وجل قضاءه، وسلمنا له أمره، والله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بملك أبداً، كنت للدين عزاً، وحرزاً، وكهفاً فألحقك الله عز وجل بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم، ولا حرماً أجرك، ولا أضلنا بعدك، فسكت الناس حتى قضى كلامه، ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا: صدقت^(١)، وجاء في رواية: أن علياً قال عندما دخل على أبي بكر بعدما سُجِّي: ما أحد الله بصحيفته أحب إلي من هذا المسجى^(٢).



(١) (التبصرة) لابن الجوزي (٤٧٧/١ - ٤٧٩) نقلاً عن: «أصحاب الرسول» (١/٠٨).

(٢) «تاريخ الذهبي»، عهد الخلفاء الراشدين ص (١٢٠).

المبحث الثاني

علي رضي الله عنه في عهد الفاروق

كان علي رضي الله عنه عضواً بارزاً في مجلس شورى الدولة العمرية، بل كان هو المستشار الأول، فقد كان عمر رضي الله عنه يعرف لعلي فضله، وفقهه، وحكمته، وكان رأيه فيه حسناً، فقد ثبت قوله فيه: أفضانا علي^(١)، وقال ابن الجوزي: كان أبو بكر وعمر يشاورانه، وكان عمر يقول: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن^(٢)، وقال مسروق: كان الناس يأخذون عن ستة: عمر وعلي وعبد الله وأبي موسى وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وقال: شامت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدت علمهم انتهى إلى ستة نفر: عمر وعلي وعبد الله وأبي الدرداء وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، ثم شامت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى رجلين منهم: إلى علي، وعبد الله^(٣)، وقال أيضاً: انتهى العلم إلى ثلاثة، عالم بالمدينة، وعالم بالشام، وعالم بالعراق، فعالم المدينة علي بن أبي طالب، وعالم الكوفة عبد الله بن مسعود، وعالم الشام أبو الدرداء، فإذا التقوا سأل عالم الشام وعالم العراق، عالم المدينة ولم يسألهم^(٤)، فكان علي من هؤلاء المقربين، يشد من أزر أخيه، ولا يبخل عليه برأيه، ويجتهد معه في إيجاد حلول للقضايا، التي لم يرد فيها نص، وفي تنظيم أمور الدولة الفتية، والشواهد على ذلك كثيرة، نذكر منها:

أولاً: ففي الأمور القضائية:

١ - امرأة تعترها نوبات من الجنون:

عن أبي ظبيان الجنبى: أن عمر بن الخطاب أتى بامرأة قد زنت، فأمر

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» ص (١١٠٢)، و«المعرفة والتاريخ» (١/٤٨١).

(٢) «فضائل الصحابة» رقم (١١٠٠) إسناده ضعيف.

(٣) «علل الحديث ومعرفة الرجال»، - علي بن المديني ص (٤٢، ٤٣) نقلاً عن «خلافه علي بن أبي طالب» -

عبد الحميد علي ص (٧٠)، و«البخاري» رقم (٤٤٨١).

(٤) «المعرفة والتاريخ» للفسوي (١/٤٤٤).

برجمها، فذهبوا بها ليرجموها، فلقيهم علي رضي الله عنه، فقال: ما هذه؟ قالوا: زنت فأمر عمر برجمها، فانتزعها علي رضي الله عنه من أيديهم وردّهم، فرجعوا إلى عمر، فقال: ما ردّكم؟ قالوا: ردّنا علي رضي الله عنه. قال: ما فعل هذا علي رضي الله عنه إلا لشيء قد علمه، فأرسل إلى علي رضي الله عنه، فجاء وهو شبه المغضب، فقال: مالك ردّدت هؤلاء؟ قال: أما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المُبتلى حتى يعقل؟» قال: بلى. قال علي رضي الله عنه: فإن هذه مبتلاة بني فلان، فلعله أتاها وهو بها. فقال عمر: لا أدري. قال: وأنا لا أدري، فلم يبرجمها^(١)، فقد كان عمر لا يعلم بأنها مجنونة.

٢ - مضاعفة الحد لمن شرب الخمر:

أخذ عمر برأي علي رضي الله عنه في مضاعفة الحد لمن شرب الخمر؛ وذلك لانتشار شرب الخمر، وخاصة في البلاد المفتوحة، وهي حديثه العهد بالإسلام، فأشار علي رضي الله عنه على عمر رضي الله عنه بأن يجلد فيها ثمانين، كأخف الحدود، وعلل ذلك بقوله: نراه إذا سكر هذي وإذا هذي افتري، وعلى المفتري ثمانون^(٢)، وقد ثبت عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما كنت أقيم حدًّا على أحد، فيموت، وأجد في نفسي، إلّا صاحب الخمر؛ فإنه لو مات وديته؛ وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسنه^(٣)، وأول البيهقي قوله: (لم يسنه) زيادة على الأربعين، أو لم يسنه بالسياط، وقد سنه بالنعال وأطراف الثياب مقدار أربعين، والله أعلم^(٤)، وقد استنبط الفقهاء من أفعال الخلفاء الراشدين مقدار الحد في الخمر، على قول مالك والثوري وأبي حنيفة ومن تبعهم ثمانون؛ لإجماع الصحابة، ومن قال: إن الحد أربعون: أبو بكر، والشافعي، وقول لأحمد، وتحمل الزيادة على ذلك من عمر رضي الله عنه، على أنها تعزيز يجوز فعلها إذا رآه الإمام، وهذا هو القول الصحيح للشافعي^(٥)،

(١) «مسند أحمد الموسوعة الحديثة» رقم (١٣٢٨) صحيح لغيره.

(٢) «إرواء الغليل» للألباني (٤٦/٨ - ٤٧) وقال الألباني: إسناده ضعيف، وحقق هذا الأثر عبد الحميد علي في

رسالته «خلافة علي بن أبي طالب» ملحق ٣٠.

(٥) «المغني» (٣٠٧/٨).

(٤) «السنن الكبرى» (٣٢٢/٨).

(٣) «فتح الباري» (٦٦/١٢).

وهذا الرأي مال إليه ابن تيمية أيضاً وقال: . . فأما مع قلة الشاربيين وقرب أمر الشارب، فتكفي الأربعون^(١).

٣- لا سلطان لك على ما في بطنها:

أتى عمر رضي الله عنه بامرأة حامل، فسألها عمر فاعترفت بالفجور، فأمر بها عمر رضي الله عنه ترجم، فلقبها علي فقال: ما بال هذه؟ فقالوا: أمر بها أمير المؤمنين أن ترجم، فردها علي فقال: أأمرت بها أن ترجم؟ قال: نعم، اعترفت عندي بالفجور. قال: هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما في بطنها؟ قال علي: فلعلك انتهرتها^(٢)، أو أخفتها؟. قال: قد كان ذاك، قال: أو ما سمعت علي بن أبي طالب يقول: «لا حدّ على معترف بعد بلاء، أنه من قيدت أو حبست أو تهددت فلا إقرار لها»، فخلّى عمر سبيلها، ثم قال: عجزت النساء أن تلد مثل علي بن أبي طالب، لولا علي لهلك عمر^(٣)، وقد علق ابن تيمية على هذه القصة فقال: إن هذه القصة إن كانت صحيحة، فلا تخلو من أن يكون عمر لم يعلم أنها حامل، فأخبره علي بحملها، ولا ريب أن الأصل عدم العلم، والإمام إذا لم يعلم أن المستحقة للقتل أو الرجم حامل، فعرفه بعض الناس بحالها، كان هذا من جملة إخباره بأحوال الناس... إلى أن قال عن عمر: يعطي الحقوق، ويقيم الحدود، ويحكم بين الناس كلهم، وفي زمنه انتشر الإسلام وظهر ظهوراً لم يكن قبله مثله، وهو دائماً يقضي ويفتي ولولا كثرة علمه لم يطق ذلك، فإذا خفيت عليه قضية من مائة ألف قضية ثم عرفها أو كان نسيها فذكرها فأبي عيب في ذلك؟!^(٤). وكان رده هذا في سياق رده على الروافض.

٤- ردوا الجهالات إلى السنة:

أتى عمر بامرأة أنكحت في عدتها، ففرق بينهما، وجعل صداقها في بيت

(١) «الفتاوى» (٢٨/٣٣٦/٣٣٧)، و«منهاج السنة» (٦/٨٣)، و«خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد ص (٧٣).

(٢) انتهرتها: زجرتها.

(٣) «سنن سعيد بن منصور» (٢/٦٩) رقم (٢٠٨٣)، و«المختصر من كتاب الموافقة» ص (١٣١).

(٤) «منهاج السنة» (٦/٤٢).

المال، وقال: لا أجز مهرًا أردُّ نكاحه، وقال: لا تجتمعان أبدًا، فبلغ ذلك عليًّا فقال: وإن كانوا جهلوا السنة لها المهر بما استحل من فرجها، ويفرق بينهما، فإذا انقضت عدتها فهو خاطب من الخطاب، فخطب عمر الناس فقال: ردوا الجهالات إلى السنة، ورجع عمر إلى قول علي^(١).

٥- هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي :

قال جعفر بن محمد: أتى عمر بن الخطاب بامرأة قد تعلقت بشاب من الأنصار وكانت تهواه، فلما لم يساعدها، احتالت عليه، فأخذت بيضة، فألقت صفارها، وصبت البياض على ثوبها وبين فخذيهما، ثم جاءت إلى عمر صارخة، فقالت: هذا الرجل غلبني على نفسي وفضحني في أهلي، وهذا أثر فعالة، فسأل عمر النساء، فقلن له: إن ببدنها وثوبها أثر المني، فهم بعقوبة الشاب، فجعل يستغيث ويقول: يا أمير المؤمنين تثبت في أمري، فوالله ما أتيت فاحشة، وما هممت بها، فقد راودتني عن نفسي فاعتصمت، فقال عمر: يا أبا الحسن ما ترى في أمرهما؟ فنظر علي إلى ما على الثوب، ثم دعا بماء جار شديد الغليان، فصب على الثوب، فجمد ذلك البياض ثم أخذه واشتمه، وذاقه، فعرف طعم البيض، وزجر المرأة فاعترفت^(٢)، ونستخلص من هذه الواقعة بعض الدروس:

(أ) أن وسائل الإثبات كانت مرة في القضاء الإسلامي تشمل الإقرار والشهادة واليمين والنكول... وتتسع لتشمل الأمارات والفراسة.
(ب) اهتمام عمر بمشاوره كبار الصحابة في النوازل وعلى الخصوص علي رضي الله عنه الذي كانت منزلته عنده متميزة^(٣).

ثانياً: علي رضي الله عنه والتنظيمات المالية والإدارية العميرية:

١- في الأمور المالية :

(أ) نفقات الخليفة :

لما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر المسلمين بعد أبي بكر مكث زمانًا، لا يأكل

(١) «المغني والشرح الكبير» (١١/٦٦-٦٧). (٢) «الطرق الحكيمة» لابن القيم ص(٤٨). رواية ضعيفة.

(٣) «الاجتهاد في الفقه الإسلامي»، لعبد السلام السليمان ص(١٤٥).

من بيت المال شيئاً حتى دخلت عليه في ذلك خصاصة، ولم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته؛ لأنه اشتغل عنها بأموال الرعية، فأرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فاستشارهم في ذلك فقال: قد شغلت نفسي في هذا الأمر فما يصلح لي فيه؟ فقال عثمان بن عفان: كل واطعم، وقال ذلك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقال عمر لعلي: ما تقول أنت في ذلك؟ قال: غداء وعشاء، فأخذ عمر بذلك، وقد بين عمر حقه من بيت المال فقال: إني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة قيم اليتيم، إن استغنيت عنه تركت، وإن افتقرت إليه أكلت بالمعروف^(١).

(ب) رأي علي في أرض السواد بالعراق:

لما فتحت أرض السواد بالعراق عنوة، أشار عدد من الصحابة ﷺ على عمر بتقسيمها بين الفاتحين، ولكن لسعة الأرض وجودتها، ونظرة عمر البعيدة لمن سيأتي بعد ذلك، لم يطمئن عمر لتقسيمها، فاستشار علياً في ذلك، فكان رأيه موافقاً لرأي الخليفة عمر ألا تقسم، فأخذ برأيه وقال: لولا آخر المسلمين، ما فتحت قرية إلا قسمتها بين أهلها، كما قسم النبي ﷺ خير^(٢).

(ج) لا جرم لتقسمه:

أتي عمر بمال قسمه بين المسلمين، وفضلت منه فضلة، فاستشار فيها الصحابة، فقالوا له: لو تركته لناثبة إن كانت، وفي القوم علي ساكت، فأراد عمر أن يسمع رأي علي في ذلك، فذكره علي بحديث مال البحرين حين جاء إلى النبي ﷺ، وأنه قسمه كله فقال عمر لعلي: لا جرم لتقسمه، فقسمه علي^(٣)، ويبدو أن هذا كان قبل تقسيم الدواوين^(٤).

٢ - علي رضي الله عنه والأمور الإدارية:

عندما احتاج عمر ﷺ أن يضع تاريخاً رسمياً ثابتاً لتنظيم أمور الدولة

(١) «الخلافة الراشدة»، سنده صحيح د. يحيى ص (٢٧٠).

(٢) «الأموال»، للقاسم بن سلام ص (٥٧)، و«خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي ص (٧٥).

(٣) «مسند أحمد» (٩٤/١) إسناده ضعيف لانقطاعه.

(٤) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي ص (٧٥).

وضبطها، جمع الناس، وسألهم: من أي يوم نكتب التاريخ؟ فقال علي رضي الله عنه من يوم هاجر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم وترك أرض الشرك، ففعله عمر^(١)، وقد كان عمر رضي الله عنه يراه من أفضل من يقود الناس، فقد ورد عنه أنه كان يناجي رجلاً من الأنصار فقال: من تحدثون أنه يستخلف من بعدي؟ فعد الأنصاري المهاجرين ولم يذكر علياً، فقال عمر: فأين أنتم من علي؟ فوالله لو استخلفتموه، لأقامكم على الحق وإن كرهتموه^(٢)، وقال لابنه عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما بعد أن طعن: إن ولوها الأجلح سلك بهم الطريق^(٣).

٣- استخلف عمر علياً على المدينة مراراً:

(أ) استخلافه حين خرج عمر إلى ماء صراء فعسكر فيه، وكان الروم قد حشدوا للمسلمين، فجمع عمر الناس فاستشارهم فكلهم أشار عليه بالمسير^(٤).

(ب) استخلافه عند نزول عمر بالجابية: وذلك حين نزل عمرو بن العاص بأجنادين، فكتب إليه أرطبون الروم: والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع لا تُغر، وإنما صاحب الفتح رجل اسمه على ثلاثة أحرف، فعلم عمرو أنه عمر، فكتب يعلمه أن الفتح مدخر له، فنادى له الناس، واستخلف علي بن أبي طالب^(٥).

(ج) استخلاف علي حين حج عمر بأزواج النبي صلوات الله عليه وآله وسلم: وهي آخر حجة حجها بالناس، كانت سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وكان مع أمهات المؤمنين أولياؤهن ممن لا يحتجبن منه، وخلف على المدينة علي بن أبي طالب^(٦).

(١) «التاريخ الكبير» للبخاري (٩/١).

(٢) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي ص (٧٦) قيل: إن الرواية مرسلة.

(٣) «بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث» تحقيق: حسين أحمد (٧٤١/٣) صحيح الإسناد، و«خلافة علي

ابن أبي طالب» ص (٧٦).

(٤، ٥) «المنتظم» (١٩٢/٤).

(٦) «المنتظم» (٣٢٧/٤)، و«الفتح» (٨٧/٤).

ثالثاً: استشارة عمر لعلي رضي الله عنه في أمور الجهاد وشؤون الدولة:

كان علي المستشار الأول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان عمر يستشيريه في الأمور الكبيرة منها والصغيرة، وقد استشاره حين فتح المسلمون بيت المقدس، وحين فتحت المدائن، وعندما أراد عمر التوجه إلى نهاوند وقاتل الفرس، وحين أراد أن يخرج لقتال الروم، وفي موضع التقويم الهجري وغير ذلك من الأمور^(١)، وكان علي رضي الله عنه طيلة حياة عمر مستشاراً ناصحاً لعمر محباً له خائفاً عليه، وكان عمر يحب علياً وكانت بينهم مودة ومحبة وثقة متبادلة، ومع ذلك يأبى أعداء الإسلام إلا أن يزوروا التاريخ، ويقصوا بعض الروايات التي تناسب أمزجتهم ومشاربهم؛ ليصوروا لنا فترة الخلفاء الراشدين عبارة عن: أن كل واحد منهم كان يتربص بالآخر الدوائر؛ لينقض عليه، وكل أمورهم كانت تجري من وراء الكواليس^(٢)، إن من أبرز ما يلاحظه المتأمل في خلافة عمر تلك الخصوصية في العلاقة وذلك التعاون المتميز الصافي، بين عمر وعلي رضي الله عنه، فقد كان علي هو المستشار الأول لعمر في سائر القضايا والمشكلات، وما اقترح علي علي عمر رأياً إلا واتجه عمر إلى تنفيذه عن قناعة، وكان علي رضي الله عنه يمنحه النصح في كل شؤونه وأحواله^(٣).

فمثلاً عندما تجمع الفرس بنهاوند في جمع عظيم لحرب المسلمين، جمع عمر رضي الله عنه الناس واستشارهم في المسير إليهم بنفسه، فأشار عليه عامة الناس بذلك، فقام إليه علي رضي الله عنه فقال: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنك إن أشخست أهل الشام من شامهم؛ سارت الروم إلى ذرايهم، وإنك إن أشخست أهل اليمن من بينهم، سارت الحبشة إلى ذرايهم، وإنك إن أشخست من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات، أقرر هؤلاء في أمصارهم، واكتب إلى أهل

(١) «علي بن أبي طالب مستشار أمين للخلفاء الراشدين» ص (٩٩).

(٢) المصدر نفسه ص (١٣٨).

(٣) «فقه السيرة النبوية» للبوطي ص (٥٢٩).

البصرة، فليتفرقوا ثلاث فرق: فرقة في حرمهم وذرايرهم، وفرقة في أهل عهدهم حتى لا ينتقضوا، ولتسر فرقة إلى إخوانهم بالكوفة. مدداً لهم إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أمير العرب وأصلها، فكان ذلك أشد لكليهم عليك، وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأما عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكن بالنصر. فقال عمر: هذا هو الرأي كنت أحب أن أتابع عليه^(١).

كانت نصيحة علي نصيحة المحب لعمر، الغيور عليه والضعيف، ألا يذهب، وأن يدير رحي الحرب بمن دونه من العرب وهو في مكانه، وحذره من أنه إذا ذهب، فلسوف ينشأ وراءه من الثغرات ما هو أخطر من العدو الذي سيواجه، أرأيت لو أن رسول الله صلوات الله عليه وآله أعلن أن الخلافة من بعده لعلي، أفكان لعلي أن يرغب عن أمر رسول الله صلوات الله عليه وآله هذا، وأن يؤيد المستلين لحقه بل لواجبه في الخلافة بمثل هذا التعاون المخلص البناء؟ بل أفكان للصحابة رضي الله عنهم كلهم أن يضيعوا أمر رسول الله صلوات الله عليه وآله؟ بل أفكان من المتصور أن يجمعوا وفي مقدمتهم علي رضي الله عنه على ذلك؟ بوسعنا أن نعلم إذن بكل بداهة، أن المسلمين إلى هذا العهد - نهاية عهد عمر - بل إلى نهاية عهد علي كانوا جماعة واحدة، ولم يكن في ذهن أي من المسلمين أي إشكال بشأن الخلافة أو شأن من هو أحق بها^(٢).

إن كثرة مشاورة عمر لعلي رضي الله عنهما، وغيره من الصحابة، لا يعني هذا أنه دونهم في الفقه والعلم، فقد بينت الأحاديث الصحيحة التي تدل على علو علمه، واكتمال دينه ولكن إيمانه وحبه للشورى، وتعويده للحكام فيما بعد على المشاورة، وعدم الاستبداد بالأمر والرأي، وإلا فإن علياً رضي الله عنه كان كثيراً ما يرجع عن رأيه إلى رأي عمر^(٣)، فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها في معرض حديثها عن عمر

(١) «تاريخ الطبري» (٣/ ٤٨٠)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (٩٤/٢).

(٢) «فقه السيرة» للبطوني ص (٢٩٥).

(٣) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي ص (٧٧).

قولها: وقد كان علي رضي الله عنه يتابع عمر بن الخطاب، فيما يذهب إليه ويراه، مع كثرة استشارته علياً، حتى قال علي رضي الله عنه: يشاورني عمر في كذا، فرأيت كذا، ورأى هو كذا، فلم أر إلا متابعة عمر (١).

رابعاً: علي رضي الله عنه وأولاده وعلاقتهم بعمر رضي الله عنه:

كان عمر رضي الله عنه شديد الإكرام لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإيثارهم على أبنائه وأسرته، نذكر من ذلك بعض المواقف:

١ - أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر: جاء فيما رواه الحسين بن علي رضي الله عنه: أن عمر قال لي ذات يوم: أي بني لو جعلت تأتينا وتغشانا؟ فجئت يوماً وهو خال بمعاوية، وابن عمر بالباب لم يؤذن له، فرجعت فلقيني بعد، فقال: يا بني لم أرك أيتنا؟ قلت: جئت وأنت خال بمعاوية فرأيت ابن عمر رجوع، فرجعت، فقال: أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر، إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى: الله، ثم أنتم، ووضع يده على رأسه (٢).

٢ - والله ما هنا لي ما كسوتكم: روى ابن سعد عن جعفر بن محمد الباقر عن أبيه علي بن الحسين، قال: قدم على عمر حلال من اليمن، فكسا الناس فراحوا في الحلال، وهو بين القبر والمنبر جالس، والناس يأتونه فيسلمون عليه ويدعون له، فخرج الحسن والحسين من بيت أمهما فاطمة رضي الله عنها يتخطيان الناس، ليس عليهما من تلك الحلال شيء، وعمر قاطب بين عينيه، ثم قال: والله ما هنا لي ما كسوتكم، قالوا: يا أمير المؤمنين، كسوت رعيك فأحسنت، قال: من أجل الغلامين يتخطيان الناس وليس عليهما من شيء كبرت عنهما وصغرا عنها، ثم كتب إلى والي اليمن أن ابعث بحلتين لحسن وحسين، وعجل، فبعث إليه بحلتين فكساهما (٣).

(١) «الإمامة والرد على الرافضة» للأصبهاني ص (٢٩٥).

(٢) «المرتضى» ص (١١٨)، و«كنز العمال» (١٠٥/٧)، و«الإصابة» (١٣٣/١).

(٣) «المرتضى» ص (١١٨)، و«الإصابة» (١٠٦/١).

٣ - **تقديم بني هاشم في العطاء:** عن أبي جعفر: أنه لما أراد أن يفرض للناس بعدما فتح الله عليه، وجمع ناساً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: ابدأ بنفسك، فقال: لا، والله بالأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن بني هاشم رهط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرض للعباس، ثم لعلي، حتى والى بين خمس قبائل، حتى انتهى إلى بني عدي بن كعب، فكتب: من شهد بدرًا من بني هاشم، ثم شهد بدرًا من بني أمية ابن عبد شمس، ثم الأقرب فالأقرب، ففرض الأعطيات لهم وفرض للحسن والحسين لمكانهما من رسول الله (١).

٤ - **كساني هذا الثوب أخي وخليلي:** خرج علي وعليه برد عدني فقال: كساني هذا الثوب أخي وخليلي وصفيي وصديقي أمير المؤمنين عمر (٢)، وفي رواية عن أبي السفر قال: رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه برد كان يكتر لبيه قال: فقيل: يا أمير المؤمنين إنك لتكثر لبس هذا البرد؟ فقال: نعم، إن هذا كسانيه خليلي وصفيي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ناصح الله فنصحته، ثم بكى (٣).

٥ - **إقطاع ينبع:** أقطع عمر بن الخطاب علياً ينبع، ثم اشترى علي إلى قطعة عمر أشياء، فحفر فيها عيناً، فبينما هم يعملون فيها إذ تفجر عليهم مثل عنق الجزور من الماء، فأتي علي وبشر، فتصدق بها على الفقراء والمساكين، وفي سبيل الله ليوم تبيض وجوه وتسود وجوه؛ ليصرف الله تعالى بها وجهه عن النار، ويصرف النار عن وجهه، وكتب في صدقته: هذا ما أمر به علي بن أبي طالب وقضى في ماله: إني تصدقت بينبع، ووادي القرى، والأذنية، وراعة في سبيل الله ووجهه، أبتغي مرضاة الله، ينفق منها في كل منفعة في سبيل الله ووجهه، وفي الحرب والسلم والجنود وذوي الرحم القريب والبعيد، لا يباع ولا يوهب ولا يورث حياً أنا أو ميتاً، أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة، ولا

(١) «الخراج» لأبي يوسف ص (٢٤، ٢٥)، و«المرتضى» ص (١١٨).

(٢) «المختصر من كتاب الموافقة» ص (١٤٠).

(٣) «المصنف» لابن أبي شعبة (٢٩/١٢) رقم (١٢٠٤٧)، نقلًا عن «الشريع» للأجري (٥/٢٣٢٧) وإسناده

أبتغي إلا الله عز وجل ، فإنه يقبلها وهو يرثها وهو خير الوارثين ، فذلك الذي قضيت فيها بيني وبين الله عز وجل (١) .

٦ - لتقولن يا أبا الحسن:

اجتمع عند عمر جماعه من قريش فيهم علي فتذكروا الشرف ، وعلي ساكت . فقال عمر : مالك يا أبا الحسن ساكتاً؟ فكأن علياً كره الكلام ، فقال عمر : لتقولن يا أبا الحسن ، فقال علي :

فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ تُزِيلُ سِيُوفُنَا

فِيهَا الْجَمَاجِمَ عَنِ فِرَاحِ الْهَامِ (٢)

اللَّهُ أَكْرَمَنَا بِنَصْرِ نَبِيِّهِ

وَبِنَا أَعَزَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ

وَيَزُورُنَا جِبْرِيلُ فِي أَبْيَاتِنَا

بِفَرَائِضِ الْإِسْلَامِ وَالْأَحْكَامِ (٣)

٧ - حوار بين أمير المؤمنين عمر وعلي حول الرؤيا :

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه : أعجب من رؤيا الرجل أنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال ، فتكون رؤياه كأخذ اليد ، ويرى الرجل الشيء ، فلا تكون رؤياه شيئاً ، فقال علي بن أبي طالب : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين؟ إن الله يقول (٤) : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمُمْسِكِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر : ٤٢) .

(١) «الحلى» (٦/ ١٨٠) ، و«مصنف عبدالرزاق» (١٠/ ٣٧٥) ، و«فقه الإمام علي» ، لقلعجي ص (٦٢٦) .

(٢) فراح الهام : فراح الرأس على التشبيه .

(٣) «المختصر من كتاب الموافقة» ص (١٣٨) .

(٤) «الفتاوى» (٥// ٢٧٠ ، ٢٧١) .

خامساً: زواج عمر من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب:

زوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه ابنته من فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم من الفاروق حينما سأله زواجها منه رضي الله عنه بما يطلب، وثقة فيه وإقراراً لفضله ومناقبه، واعتراضاً بمحاسنه وجمال سيرته، وإظهاراً بأن بينهم من العلاقات الوطيدة الطيبة والصلات المحكمة المباركة ما يحرق قلوب الحساد من أعداء الأمة المجيدة، ويرغم أنوفهم^(١)، فقد كان عمر يكن لأهل البيت محبة خاصة لا يكنها لغيرهم؛ لقرباتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من إكرام أهل البيت، ورعاية حقوقهم، فمن هذا الباعث خطب عمر أم كلثوم ابنة علي وفاطمة رضوان الله عليهم، وتودد إليه في ذلك قائلاً: فوالله ما على الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد، فقال علي: قد فعلت، فأقبل عمر إلى المهاجرين، وهو مسرور قائلاً: رفثوني... ثم ذكر أن سبب زواجه منها ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا ما كان من سببي ونسبي»، فأحببت أن يكون بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم سبب^(٢)، ولقد أقر بهذا الزواج كافة أهل التاريخ والأنساب، وجميع محدثي الشيعة، وفقائهم، ومكابريهم، ومجادليهم، وأئمتهم المعصومين حسب زعمهم، ولقد أورد الشيخ إحسان إلهي ظهير روايات بخصوص ذلك في كتابه «الشيعة والسنة»^(٣)، ولقد ذكر هذا الزواج علماء أهل السنة في التاريخ وأجمعت مصادرهم عليه، ومن العلماء الذين ذكروا هذا الزواج: الطبري^(٤)، وابن كثير^(٥)، والذهبي^(٦)، وابن الجوزي^(٧)، والديار بكري^(٨)، وقد ذكر هذا^(٩) الزواج كتب التراجم؛ كابن

(١) «الشيعة وأهل البيت» ص (١٠٥).

(٢) إسناده حسن، أخرجه الحاكم في «المستدرک» (١٤٢/٣) صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي متعقباً: منقطع، وأورده الهيثمي في (مجمع الزائد ١٧٣/٩)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط باختصار، ورجاهما رجال الصحيح غير الحسن بن سهل وهو ثقة، وهناك من ضعفه.

(٣) «الشيعة وأهل البيت» (١٠٥). (٤) «تاريخ الطبري» (٢٨/٥).

(٥) «البدایة والنهائة» (٥/٢٢٠). (٦) «تاريخ الإسلام، عهد الخلفاء الراشدين» ص (١٦٦).

(٧) «المنتظم» (٤/١٣١). (٨) «تاريخ الخميس» نقلاً عن: «زواج عمر من أم كلثوم» لأبي معاذ ص (١٩).

(٩) «الإصابة» لابن حجر ص (٢٧٦) كتاب الكنى وكتاب النساء.

حجر^(١) ، وابن سعد^(٢) ، و«أسد الغابة» ، وقد قام الأستاذ أبو معاذ الإسماعيلي في كتابه «زواج عمر ابن الخطاب من أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه» حقيقة وليس افتراء بتتبع مراجع ومصادر الشيعة وأهل السنة فيما يتعلق بهذا الزواج ، ورد على الشبهات التي أُلصقت بهذا الزواج الميمون ، وقد ذكرت شيئاً من سيرتها ومواقفها في حياتها في عهد الفاروق في كتابي (فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، شخصيته وعصره) .

هذا وقد ولدت أم كلثوم بنت علي من عمر رضي الله عنه ابنة سميت زرقية وولد سمته : زيداً ، وقد روي : أن زيد بن عمر حضر مشاجرة في قوم من بني عدي ابن كعب ليلاً ، فخرج إليهم زيد بن عمر ليصلحهم فأصابته ضربة شجت رأسه ومات من فوره ، وحزنت أمه لقتله ووقعت مغشياً عليها ، من الحزن فماتت من ساعتها ، ودفنت أم كلثوم وابنها زيد ابن عمر في وقت واحد ، وصلى عليهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، قدمه الحسن ابن علي بن أبي طالب وصلى خلفه^(٣) .

سادساً: يا بنت رسول الله، ما أحد من الخلق أحب إلينا من أبيك، وما أحد من الخلق بعد أبيك أحب إلينا منك:

عن أسلم العدوي قال : لما بويع لأبي بكر بعد النبي صلی الله علیه وسلم كان علي والزبير ابن العوام يدخلان على فاطمة فيشاورانها ، فبلغ عمر ، فدخل على فاطمة فقال : يا بنت رسول الله ما أحد من الخلق أحب إلينا من أبيك ، وما أحد من الخلق بعد أبيك أحب إلينا منك ، وكلمها ، فدخل علي والزبير على فاطمة فقالت : انصرفا راشدين ، فما رجعا إليها حتى بايعا^(٤) ، وهذا هو الثابت الصحيح والذي مع صحة سنده ينسجم مع روح ذلك الجليل وتزكية الله له ، وقد زاد الروافض في هذه الرواية واختلقوا إفكاً وبهتاناً وزوراً ، وقالوا بأن عمر قال : إذا اجتمع عندك هؤلاء النفر فسأحرق عليهم هذا البيت ؛ لأنهم أرادوا شق عصي المسلمين

(١) الإصابة لابن حجر ص (٢٧٦) كتاب الكنى وكتاب النساء . (٢) «أسد الغابة» (٤٢٥/٧) .

(٣) «أسد الغابة» (٤٢٥/٧) ، و«نساء أهل البيت» لمنصور عبدالحكيم ص (١٨٥ ، ١٨٦) .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة : «المصنف» (٥٦٧/١٤) ، وإسناده صحيح .

بتأخرهم عن البيعة، ثم خرج عنها، فلم يلبث أن عادوا إليها، فقالت لهم: تعلمون أن عمر جاءني وحلف بالله لئن أنتم عدتم إلى هذا البيت ليحرقنه عليكم، وايم الله إنه ليصدقن فيما حلف عليه، فانصرفوا عني فلا ترجعوا إليّ، ففعلوا ذلك، ولم يرجعوا إليها إلا بعدما بايعوا^(١)، وهذه القصة لم تثبت عن عمر رضي الله عنه، ودعوى أن عمر رضي الله عنه همّ بإحراق بيت فاطمة، من أكاذيب الرافضة، أعداء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أوردها مع أكاذيب أخرى الطبري الطبرسي في كتابه «دلائل الإمامة»^(٢)، عن جابر الجعفي، وهو رافضي كذاب باتفاق أئمة الحديث كما في «الميزان»^(٣) للذهبي و«تهذيب التهذيب»^(٤)، وزعم بعض الروافض أن عمر ضرب فاطمة حتى أسقط ولدها محسناً وهو في بطنها، وهذه من الأكاذيب الرافضية التي لا أساس لها من الصحة، وما علموا أنهم يطعنون في علي رضي الله عنه وذلك باتهامه بالجبن والسكوت عن عمر، وهو من أشجع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم^(٥)، بل إن بعض كتب الروافض أنكر صحة هذا الهذيان والزور^(٦). علماً بأن محسن ولد في حياة النبي كما ثبت ذلك بالرواية الصحيحة.

سابعاً: الخلاف بين العباس وعلي وحكم عمر رضي الله عنه بينهما:

قال مالك بن أوس: بينما أنا جالس في أهلي حين متع النهار^(٧)، إذا رسول عمر ابن الخطاب يأتيني، فقال: أجب أمير المؤمنين، فانطلقت معه حتى أدخل علي عمر، فإذا هو جالس على رمال^(٨) سرير ليس بينه وبينه فراش، متكئ على وسادة من آدم، فسلمت عليه ثم جلست، فقال: يا مال إنه قدم علينا من قومك أهل أبيات، وقد أمرت فيهم برضخ، فاقبضه فاقسمه بينهم، فقلت: يا أمير المؤمنين لو أمرت به غيري، قال: اقبضه أيها المرء، فبينما أنا جالس عنده آناه

(١) «عقائد الثلاثة والسبعين فرقة» لأبي محمد اليميني (١/١٤٠).

(٢) «دلائل الإمامة» ص (٢٦) نقلاً عن «عقائد الثلاثة والسبعين» (١/١٤٠).

(٤) «تهذيب التهذيب» (٢/٤٧).

(٣) «الميزان» للذهبي (١/٢٧٩).

(٦) «مختصر التحفة الاثنا عشرية» ص (٢٥٢).

(٥) «حقبة من التاريخ» ص (٢٢٤).

(٨) المراد: أنه كان السرير قد نسج وجهه بالسعف.

(٧) متع النهار: ارتفع قبل الزوال.

حاجبه يرفأ، فقال: هل لك في عثمان وعبد الرحمن بن عوف والزيبر وسعد ابن أبي وقاص، يستأذنونا؟ قال: نعم، فأذن لهم فدخلوا فسلموا وجلسوا ثم جلس يرفأ يسيراً، ثم قال: هل لك في علي، وعباس؟ قال: نعم، فأذن لهما، فدخلوا فسلموا فجلسا، فقال عباس: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا. وهما يختصمان فيما أفاء الله على رسوله ﷺ من مال بني النضير، فقال الرهط - عثمان وأصحابه-: يا أمير المؤمنين اقض بينهما وأرح أحدهما من الآخر. قال عمر: تيدكم^(١)، أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ، قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، يريد رسول الله ﷺ نفسه؟ قال الرهط: قد قال ذلك، فأقبل عمر على علي، وعباس، فقال: أنشدكما الله أتعلمان أن رسول الله ﷺ قد قال ذلك؟ قالوا: قد قال ذلك، قال عمر: فإني أحدثكم عن هذا الأمر، إن الله قد خص رسوله ﷺ في هذا الشيء بشيء لم يعطه أحداً غيره، ثم قرأ: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الحشر: ٦). فكانت هذه خالصة لرسول الله ﷺ ووالله ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها عليكم، قد أعطاكموها، وبثها فيكم، حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مجعل مال الله، فعمل رسول الله ﷺ بذلك حياته، أنشدكم الله، هل تعلمون ذلك؟ قالوا: نعم، ثم قال لعلي وعباس: أنشدكما الله هل تعلمان ذلك؟ قال عمر: ثم توفى الله نبيه ﷺ، فقال أبو بكر: أنا ولي رسول الله ﷺ، والله يعلم إنه فيها لصادق بار راشد تابع للحق، ثم توفى الله أبا بكر، فكننت أنا ولي أبي بكر فقبضتها سنتين من إمارتي، أعمل فيها بما عمل رسول الله ﷺ وما عمل فيها أبو بكر، والله يعلم أنني فيها لصادق بار راشد تابع للحق، ثم جئتماني تكلماني، وكلمتكما واحدة، وأمركم واحد، جئتنني يا عباس، تسألني نصيبك

(١) التيد: الرفق، يقال: تيدك هذا، أي أتد.

من ابن أخيك، وجاءني هذا -ريد علياً- يريد نصيب امرأته من أبيها، فقلت لكما: إن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة»، فلما بدا لي أن أدفعه إليكما، قلت: إن شئتما دفعتها إليكما، على أن عليكما عهد الله وميثاقه لتعملان فيها بما عمل فيها رسول الله صلوات الله عليه وسلم، وما عمل أبو بكر، وبما عملت فيها منذ وليتها، فقلتما: ادفعها إلينا، فبذلك دفعتها إليكما، فأنشدكم الله هل دفعتها إليهما بذلك؟ قال الرهط: نعم، ثم أقبل على عليٍّ وعباس فقال: أنشدكما الله هل دفعتها إليكما بذلك؟ قالوا: نعم، قال: فتلتمسان مني قضاء غير ذلك، فوالله الذي ياذنه تقوم السماء والأرض، لا أقضي فيها قضاء غير ذلك فإن عجزتما عنها فادفعها إلي، فإني أكفكماهاهما^(١).

ثامناً: ترشيح عمر علياً للخلافة مع أهل الشورى وما قاله علي في عمر

بعد استشهاده:

١ - ترشيح علي مع أهل الشورى: لما طعن عمر رضي الله عنه وظن أنه سيفارق الحياة، وأخذ المسلمون يدخلون عليه، ويقولون له: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، فقال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول الله صلوات الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ فسمى علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمن^(٢)، ثم دعا خاصتهم وهم عبد الرحمن، وعثمان، وعلي فوعظهم^(٣)، إن عمر رضي الله عنه إمام وعليه أن يستخلف الأصلح للمسلمين، فاجتهد في ذلك ورأى أن الستة الذين توفي رسول الله صلوات الله عليه وسلم وهو عنهم راضٍ أحق من غيرهم، وهو كما رأى؛ فإنه لم يكن أحد غيرهم أحق منهم، وجعل التعيين إليهم؛ خوفاً من أن يعين واحداً منهم، ويكون غيره أصلح لهم، فإنه ظهر له رجحان الستة دون رجحان التعيين، وقال: الأمر في التعيين إلى الستة يعينون واحداً منهم، وهذا اجتهاد إمام عادل ناصح لا هوى له رضي الله عنه وهو نموذج واقعي

(١) «البخاري» رقم (٣٠٩٤)، و«مسلم» (١٧٥٧)، واللفظ للبخاري.

(٢) «البخاري» رقم (٣٧٠٠).

(٣) «البخاري» رقم (١٤٢/٧).

لتطبيق قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، وقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، فكان ما فعله من الشورى مصلحة^(١).

إن الفاروق رضي الله عنه رأى الأمر في الستة متقارباً فإنهم وإن كان لبعضهم من الفضيلة ما ليس لبعض، فلذلك المفضول مزية أخرى ليست للآخر، ورأى أنه إذا عين واحداً فقد يحصل بولايته نوع من الخلل فيكون منسوباً إليه، فترك التعيين خوفاً من الله تعالى، وعلم أنه ليس واحداً أحق بهذا الأمر منهم؛ فجمع بين المصلحتين بين تعيينهم - إذ لا أحد أحق منهم - وترك تعيين واحد منهم؛ لما تخوفه من التقصير، والله تعالى قد أوجب على العبد أن يفعل المصلحة بحسب الإمكان، فكان ما فعله غاية ما يمكن من المصلحة^(٢)، ولا يقال: إنه بجعله الأمر شورى بين الستة قد خالف به من تقدمه، كما هو زعم الشيعة الرافضة؛ لأن الخلاف نوعان: خلاف تضاد وخلاف تنوع، وما فعله عمر رضي الله عنه من النوع الثاني^(٣)، وقد أقره على اجتهاده كل الصحابة، ولم نسمع أحداً عارضه، وقد بسط ما ابتكره عمر رضي الله عنه من طريقة جديدة في اختيار الخليفة من بعده في كتابي «فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخصيته وعصره»، فمن أراد التوسع فليرجع إليه مشكوراً.

٢ - ما قاله علي في عمر بعد استشهاده: قال ابن عباس كما في صحيح

البخاري: وضع عمر على سريره فتكفنه الناس يدعون ويصلون، قبل أن يرفع - وأنا فيهم - فلم يرعني إلا رجل آخذ منكبي، فإذا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فترحم علي عمر وقال: ما خلفت أحداً أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وإيم الله إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك وحسبتُ أنّي كثيراً ما أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «ذهبت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر»^(٤).

(١) «منهاج السنة» (٣/ ١٦٢ - ١٦٤)، و«المنتقى» ص (٣٦٢ - ٣٦٤).

(٢) «منهاج السنة» (٣/ ١٦٢ - ١٦٤)، و«المنتقى» ص (٣٦٢ - ٣٦٤).

(٣) «عقيدة أهل السنة» (٣/ ١٠٤٢). (٤) «البخاري»، رقم (٣٦٨٥).

٣ - قول علي في عمر: إن عمر كان رشيد الأمر، وحرصه على عدم مخالفته بعد وفاته: عن عبد خير قال: كنت قريباً من علي حيث جاء أهل نجران، قال، قلت: فإن كان راداً على عمر شيئاً فاليوم، قال: فسلموا واصطفوا بين يديه، قال: ثم أدخل بعضهم يده في كفه فأخرج كتاباً، فوضعه في يد علي، قالوا: يا أمير المؤمنين، خطك بيمينك وإملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك، قال: فرأيت علياً وقد جرت الدموع على خده قال: ثم رفع رأسه إليهم فقال: يا أهل نجران، إن هذا لآخر كتاب كتبه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: فأعطنا ما فيه، قال: سأخبركم عن ذلك: إن الذي أخذه عمر لم يأخذه لنفسه، إنما أخذه بجماعة من المسلمين، وكان الذي أخذه منكم خيراً مما أعطاكم، والله لا أرد شيئاً مما صنعه عمر، إن عمر كان رشيد الأمر^(١)، وهذه الحادثة أصل الفقهاء عليها قولهم: لا يرد القاضي اجتهاد قضاء من قبله عند علي^(٢)، وروي عنه أنه قال: اقضوا كما كنتم تقضون حتى تكونوا جماعة؛ فإنني أخشى الاختلاف^(٣)، وهو قول جمهور الفقهاء^(٤)، وقد قال علي: ما كنت لأحل عقدة شدها عمر^(٥).

٤ - إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله، فأنا أكرهه لذلك: لما فرغ علي من وقعة الجمل، ودخل البصرة، وشيع أم المؤمنين عائشة لما أرادت الرجوع إلى مكة، سار من البصرة إلى الكوفة، فدخلها يوم الاثنين، لثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وثلاثين، فقبل له: انزل بالقصر الأبيض، فقال: لا، إن عمر بن الخطاب كان يكره نزوله فأنا أكرهه لذلك، فنزل في الرحبة وصلى في الجامع الأعظم ركعتين^(٦).

(١) «معجم البلدان» (٥/٢٦٩)، و«المختصر من كتاب الموافقة» ص (٣٩)، و«فقه الإمام علي» (٢/٨١٣) نقلاً عن:

«السنن» للبيهقي، وإسناده مرسل، والآجري (٤/١٧٧٧) وإسناده مرسل.

(٢) «فقه الإمام علي» (٢/٨١٣).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (١٠/٣٢٩) نقلاً عن «فقه الإمام علي» (٢/٨١٣).

(٤) «فقه الإمام علي» (٢/٨١٣).

(٥) «المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة» ص (١٤٠) إسناده منقطع، وابن أبي شيبة في «المصنف»

(٣٣/١٢) رقم (١٢٠٥٤).

(٦) «تاريخ الخلافة الراشدة»، لمحمد كنعان ص (٣٨٣).

٥ - **حب أهل البيت لعمر** رضي الله عنه: إن من دلالة محبة أهل البيت للفاروق رضي الله عنه تسمية أبنائهم باسمه؛ حباً وإعجاباً بشخصيته^(١)، وتقديراً لما أتى به من الأفعال الطيبة والمكارم العظيمة، ولما قدم إلى الإسلام من الخدمات الجليلة، وإقراراً بالصلوات الودية الوطيدة والتي تربطه بأهل بيت النبوة والرحم، والصهر القائم بينه وبينهم، فأول من سمى ابنه باسمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، سمى ابنه من أم حبيب بنت ربيعة البكرية عمر^(٢)، وقد جاء في كتاب صاحب الفصول، تحت ذكر أولاد علي بن أبي طالب: وعمر من التغلبية، وهي الصهباء بنت ربيعة من السبي الذي أغار عليهم خالد بن الوليد بعين التمر، وعمر عمر هذا حتى بلغ خمساً وثمانين سنة؛ فحاز نصف ميراث علي رضي الله عنه، وذلك أن جميع إخوته وأشقائه وهم عبد الله، وجعفر، وعثمان قتلوا جميعهم قبله مع الحسين رضي الله عنه - يعني أنه لم يقتل معهم - بالطف؛ فورثهم^(٣)، هذا وتبعه حسن في ذلك الحب لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فسمّى أحد أبنائه عمر أيضاً^(٤)، وكذلك الحسين بن علي سمى عمر، ومن بعد الحسين ابنه علي الملقب بزین العابدين سمى أحد أبنائه باسم عمر^(٥)، وكذلك موسى بن جعفر الملقب بالكاظم سمى أحد أبنائه باسم عمر^(٦)، فهؤلاء الأئمة من أهل البيت الذين ساروا على هدي النبي صلى الله عليه وآله ومعالم منهج أهل السنة والجماعة بسيرتهم العطرة، يظهر أن لعمر الفاروق ما يكونونه في صدورهم من حبهم وولائهم له بعد وفاته بمدة، وقد جرى هذا الاسم - وكذلك أبو بكر وعثمان - في ذرية أهل البيت ممن ساروا على مذهب الحق - وهو منهج أهل السنة والجماعة - إلى يومنا هذا، ونجد أسماء الصحابة وأمّهات المؤمنين في البيوت الهاشمية التي التزمت بالكتاب والسنة، فقد سماوا طلحة، وعبد الرحمن وعائشة وأم سلمة، ونحن ندعو الشيعة اليوم، إلى الاقتداء بعلي والحسن والحسين وسائر الأئمة من آل البيت، فيسمون بعض أبنائهم وبناتهم بأسماء الخلفاء الراشدين، وأمّهات المؤمنين^(٧)؟ نرجو ذلك .

(١) «تاريخ يعقوبي» (٢/٢١٣)، و«الشيعة وأهل البيت» ص(١٣٣).

(٢) الفصول المهمة ص(١٤٣)، «الشيعة وأهل البيت» ص(١٣٣).

(٣) «الشيعة وأهل البيت» ص(١٣٣). (٤) المصدر نفسه ص(١٣٤). (٥) المصدر نفسه ص(١٣٥).

(٧) «أذهبا فأنتم الرافضة»، لعبد العزيز الزبيري ص(٢٣٠).

٦ - عمر بن الخطاب جعله الله سبباً في ذرية الحسين بن علي بن أبي طالب:

أعطى عمر بن الخطاب رضي الله عنه للحسين بن علي رضي الله عنه من غنائم الفرس ابنة يزدجرد ملك الفرس، فولدت له زين العابدين علي بن الحسين الذي لم يبق من أبناء الحسين غيره، وكل ذرية الحسين تناسلوا منه وينسبون إليه^(١)، فليحذر الذين يسبون عمر بن الخطاب ممن ينتسبون إلى الحسين، فلولاه بعد الله لما كان لهم وجود^(٢)، كما أن عمر رضي الله عنه أعطى أختها لمحمد ابن أبي بكر فكان عديلاً للحسين، وأنجبت له القاسم بن محمد بن أبي بكر، فكان القاسم ابن محمد بن أبي بكر، وعلي بن الحسين زين العابدين ابني خالة^(٣).

٧ - قول عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب في عمر^(٤):

عن حفص بن قيس، قال: سألت عبد الله بن الحسن عن المسح على الخفين، فقال: امسح، فقد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: فقلت: إنما أسألك أنت تمسح؟ قال: ذاك أعجزُ لك، أخبرك عن عمر وتسألني عن رأيي، فعمر كان خيراً مني ومن ملء الأرض. فقلت: يا أبا محمد، فإن ناساً يزعمون أن هذا منكم تقية، قال: فقال لي - ونحن بين القبر والمنبر - : اللهم إن هذا قولني في السر والعلانية، فلا تسمعنَّ عليَّ قول أحد بعدي. ثم قال: من هذا الذي يزعم أن علياً رضي الله عنه كان مقهوراً، وأن رسول الله صلَّى الله عليه وآله أمره بأمر ولم ينفذه؟ وكفى بازدراءٍ علي علي ومنقصة أن يزعم أن رسول الله صلَّى الله عليه وآله أمره بأمر ولم ينفذه^(٥).



(١) «عمدة الطالب في أنساب أبي طالب»، الفصل الثاني عنوان (عقب الحسين) نقلاً عن: «اذهبوا فأنتم الرافضة» ص (٢٣٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/٢٥٤).

(٣) «اذهبوا فأنتم الرافضة» ص (٢٣٢).

(٤) هو عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو محمد الهاشمي، كان ذا هبة، ولسان وشرف وكانت له منزلة عند عمر بن عبد العزيز توفي سنة ١٤٥ «الأعلام» للزركلي (٤/٢٠٧)، و«تاريخ بغداد» (٤٣١/٩).

(٥) «النهي عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب» لمحمد عبد الواحد المقدسي ص (٥٧).

المبحث الثالث

علي رضي الله عنه في عهد عثمان بن عفان

أولاً: بيعة علي لعثمان رضي الله عنه:

لم يكد يفرغ الناس من دفن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى أسرع رهط الشورى وأعضاء مجلس الدولة الأعلى إلى الاجتماع في بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وقيل: إنهم اجتمعوا في بيت فاطمة بنت قيس الفهرية، أخت الضحاك ابن قيس؛ ليقضوا في أعظم قضية عرضت في حياة المسلمين - بعد وفاة عمر - وقد تكلم القوم وبسطوا آراءهم واهتدوا بتوفيق الله إلى كلمة سواء رضيها الخاصة والكافة من المسلمين^(١)، وقد أشرف على تنفيذ عملية الشورى واختيار الخليفة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، وحقق رضي الله عنه أول مظهر من مظاهر الشورى المنظمة في اختيار من يتحمل أعباء الخلافة، ويسوس أمور المسلمين، فهو قد اصطنع من الأناة والصبر والحزم وحسن التدريب ما كفل له النجاح في أداء مهمته العظمى^(٢)، وقاد ركب الشورى بمهارة وتجرد، مما يستحق أعظم التقدير^(٣)، قال الذهبي: ومن أفضل أعمال عبد الرحمن: عزل نفسه من الأمر وقت الشورى، واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محايياً فيها لأخذ لنفسه، أو لولائها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقاص^(٤).

وقد تم الاتفاق على بيعة عثمان بعد صلاة صبح يوم البيعة اليوم الأخير من شهر ذي الحجة ١٣هـ/ ٦ نوفمبر ٦٤٤م، وكان صهيب الرومي الإمام؛ إذ أقبل عبدالرحمن ابن عوف، وقد اعتم بالعمامة التي عممه بها رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم، وكان قد اجتمع رجال الشورى عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد، منهم: معاوية أمير الشام، وعمير بن سعد

(٢) المصدر نفسه ص (٧٠، ٧١).

(١) «عثمان بن عفان»، للصادق عرجون، ص (٦٢، ٦٣).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/٨٦).

(٣) «مجلة البحوث الإسلامية» العدد (١٠) ص (٢٥٥).

أمير حمص، وعمرو بن العاص أمير مصر، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر وصاحبوه إلى المدينة^(١)، وجاء في رواية البخاري: فلما صلى للناس الصبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر - فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال: أما بعد يا عليُّ إني قد نظرت في أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان، فلا تجعلن علي نفسك سبيلاً. فقال^(٢): أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفين من بعده، فبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون^(٣)، وجاء في رواية صاحب «التمهيد والبيان»: أن علي بن أبي طالب أول من بايع بعد عبد الرحمن بن عوف^(٤).

ثانياً: أباطيل رافضية دست في قضية الشورى:

هناك أباطيل رافضية دست في التاريخ الإسلامي منها في قصة الشورى وتولية عثمان الخلافة، وقد تلقفها المستشرقون وقاموا بتوسيع نشرها، وتأثر بها الكثير من المؤرخين والمفكرين والمحدثين، ولم يحصوا الروايات ويحققوا في سندها ومنتها، فانتشرت بين المسلمين، لقد اهتم مؤرخو الشيعة الرافضة بقصة الشورى وتولية عثمان بن عفان الخلافة ودسوا فيها الأباطيل والأكاذيب، وألف جماعة منهم كتباً خاصة، فقد ألف أبو مخنف كتاب الشورى، وكذلك ابن عقدة، وابن بابويه^(٥)، ونقل ابن سعد تسع روايات من طريق الواقدي في خبر الشورى، وبيعة عثمان، وتاريخ توليه للخلافة^(٦)، ورواية من طريق عبيد الله بن موسى تضمنت مقتل عمر وحصره للشورى في الستة، ووصيته لكل من علي وعثمان إذا تولى أحدهما أمر الخلافة، ووصيته لصهيب في هذا الأمر^(٧)، وقد نقل البلاذري خبر الشورى وبيعة عثمان عن أبي مخنف^(٨)، وعن هشام الكلبي

(٢) قوله: فقال: أي عبد الرحمن مخاطباً عثمان.

(١) «شاهد الدار» ص (٣٧).

(٣) «البخاري»، كتاب الأحكام، رقم (٧٢٠٧).

(٤) «التمهيد والبيان» ص (٢٦).

(٥) «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» (٢٤٦/١٤).

(٦) «الطبقات الكبرى» (٦٣/٣)، (٦٧/٣).

(٨) «أنساب الأشراف» (١٨/٥)، (١٩).

(٧) المصدر السابق.

منها مانقله عن أبي مخنف ومنها ما تفرد به^(١)، وعن الواقدي^(٢)، وعن عبيدالله ابن موسى^(٣)، واعتمد الطبري في هذه القصة على عدة روايات منها رواية أبي مخنف^(٤)، ونقل ابن أبي الحديد بعض أحداث قصة الشورى من طريق أحمد بن عبد العزيز الجوهري^(٥)، وأشار إلى نقله عن كتاب (الشورى) للواقدي^(٦)، وقد تضمنت الروايات الشيعية الرافضية عدة أمور مدسوسة ليس لها دليل من الصحة، وهي:

١ - اتهام الصحابة بالمحاباة في أمر المسلمين:

اتهمت الروايات الشيعية الرافضية الصحابة بالمحاباة في أمر المسلمين، وعدم رضا علي بأن يقوم عبد الرحمن باختيار الخليفة، فقد ورد عند أبي مخنف وهشام الكلبي عن أبيه وأحمد الجوهري أن عمر جعل ترجيح الكفتين إذا تساوتا بعبد الرحمن بن عوف، وأن علياً أحس بأن الخلافة قد ذهبت منه؛ لأن عبد الرحمن سيقدم عثمان للمصاهرة التي بينهما^(٧)، وقد نفى ابن تيمية أي ارتباط في النسب القريب بين عثمان وعبد الرحمن فقال: فإن عبد الرحمن ليس أخا لعثمان ولا ابن عمه ولا من قبيلته أصلاً؛ بل هذا من بني زهرة وهذا من بني أمية، وبنو زهرة إلى بني هاشم أكثر ميلاً منهم إلى بني أمية، فإن بني زهرة أحوال النبي ﷺ، ومنهم عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص الذي قال له النبي ﷺ: «هذا خالي، فليرني امرؤ خاله»^(٨)، فإن النبي ﷺ لم يؤاخ بين مهاجري ومهاجري ولا بين أنصاري وأنصاري، وإنما آخى بين المهاجرين والأنصار؛ فأخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصاري^(٩)، وحديثه مشهور ثابت في الصحاح وغيرها، يعرفه أهل العلم بذلك^(١٠)، وقد بنت الروايات الشيعية الرافضية محاباة عبد الرحمن لعثمان للمصاهرة التي كانت

(٢٠١) «أنساب الأشراف» (١٨/٥ ، ١٩).

(٤) «أثر التشيع على الروايات التاريخية» ص (٣٢١).

(٥) «شرح نهج البلاغة» (٤٩/٩ ، ٥٠ ، ٥٨).

(٧) «أثر التشيع على الروايات التاريخية» ص (٣٢٢).

(٩) «البخاري»، كتاب مناقب الأنصار رقم (٣٧٨٠).

(٦) «شرح نهج البلاغة» (١٥/٩).

(٨) «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٠/٣) رقم (٤٠١٨).

(١٠) «منهاج السنة النبوية» (٢٧١/٦ - ٢٧٢).

(٣) المصدر نفسه (٦/٥).

بينهما، متناسية أن قوة النسب أقوى من المصاهرة من جهة، ومن جهة أخرى تناسوا طبيعة العلاقة بين المؤمنين في الجيل الأول وأنها لا تقوم على نسب ولا مصاهرة، وأما كيفية المصاهرة التي كانت بين عبد الرحمن وعثمان فهي أن عبد الرحمن تزوج أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أخت الوليد^(١).

٢ - حزب أموي وحزب هاشمي: أشارت رواية أبي مخنف إلى وقوع مشادة بين بني هاشم وبني أمية أثناء المبايعة وهذا غير صحيح، ولم يرد ذلك برواية صحيحة ولا ضعيفة^(٢)، وقد انساق بعض المؤرخين خلف الروايات الشيعية الرافضية لحاجة في نفوسهم مع بطلانها سنداً وامتناً من جهة، وثبوت روايات صحيحة تناقض ما ذهبوا إليه من جهة أخرى، وبنوا تحليلاتهم الخاطئة على تلك الروايات فصوروا تشاور أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم في تحديد الخليفة الجديد بصورة الخلاف العشائري، وأن الناس قد انقسموا إلى حزبين: حزب أموي وحزب هاشمي، وهو تصور موهوم، واستنتاج مردود لا دليل عليه؛ إذ ليس نابغاً من ذلك الجو الذي كان يعيشه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما كان يقف المهاجري مع الأنصاري ضد أبيه وأخيه وابن عمه وبني عشيرته، وليس نابغاً من تصور هؤلاء الصحب وهم يضحون بكل شيء من حطام الدنيا في سبيل أن يسلم لهم دينهم، ولا من المعرفة الصحيحة لهؤلاء النخبة من المبشرين بالجنة، فالأحداث الكثيرة التي رويت عن هؤلاء تثبت أن هؤلاء كانوا أكبر بكثير من أن ينطلقوا من هذه الزاوية الضيقة في معالجة أمورهم، فليست القضية تمثيل عائلي أو عشائري، فهم أهل شورى لمكانتهم في الإسلام^(٣).

٣ - أكاذيب نسبت زوراً وبهتاناً لعلي رضي الله عنه:

قال ابن كثير: وما يذكره كثير من المؤرخين كابن جرير وغيره عن رجال لا يعرفون أن علياً قال لعبد الرحمن: خدعتني، وإنك إنما وليته؛ لأنه صهرك

(١) «الطبقات الكبرى» (١٢٧/٣).

(٢) «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» ص (١٧٧، ١٧٨).

(٣) «الخلفاء الراشدون»، أمين القضاة ص (٧٨، ٧٩).

وليشاورك كل يوم في شأنه وأنه تلكأ حتى قال عبدالرحمن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْيَعُونَكَ إِنَّمَا يَأْيَعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ١٠). إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصحاح فهي مردودة على قائلها وناقليها والله أعلم، والمظنون من الصحابة خلاف ما يتوهم كثير من الرافضة وأغبياء القصاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار، وضعيفها، ومستقيمها وسقيمها^(١).

ثالثاً: المفاضلة بين عثمان وعلي رضي الله عنهما:

الذي عليه أهل السنة: إن من قدم علياً على أبي بكر وعمر فإنه ضال مبتدع، ومن قدم علياً على عثمان فإنه مخطئ ولا يضلونه، ولا يبدعونه^(٢)، وإن كان بعض أهل العلم قد تكلم بشدة على من قدم علياً على عثمان بأنه قال: من قدم علياً على عثمان فقد زعم أن أصحاب رسول الله ﷺ خانوا الأمانة؛ حيث اختاروا عثمان على علي رضي الله عنه^(٣)، وقد قال ابن تيمية: استقر أمر أهل السنة على تقديم عثمان، وإن كانت هذه المسألة - مسألة عثمان وعلي - ليست من الأصول التي يضلل المخالف فيها عند جمهور أهل السنة، لكن المسألة التي يضلل المخالف فيها هي مسألة الخلافة، وذلك أنهم يؤمنون بأن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ومن طعن في خلافة هؤلاء الأئمة فهو أضل من حمار أهله^(٤)، وذكر أقوال أهل العلم في مسألة تفضيل علي على عثمان: فقال: فيها روايات: إحداهما: لا يسوغ ذلك، فمن فضل علياً على عثمان خرج من السنة إلى البدعة؛ لمخالفته لإجماع الصحابة، ولهذا قيل: من قدم علياً على عثمان، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار، يروى ذلك عن غير واحد، منهم أيوب السختياني وأحمد ابن حنبل والدارقطني، والثانية: لا يبدع من قدم علياً؛ لتقارب حال عثمان وعلي^(٥).

(١) «البداية والنهاية» (١٥٢/٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/١٠١، ١٠٢).

(٣) «حقة من التاريخ» لعثمان الخميس ص (٦٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣/١٠١، ٢٠١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٤/٢٦٧).

رابعاً: علي رضي الله عنه يقيم الحدود ويستشار في شؤون دولة عثمان رضي الله عنه:

١ - إقامة علي رضي الله عنه للحدود في عهد عثمان رضي الله عنه: عن حصين بن المنذر، قال: شهدت عثمان بن عفان، وقد أتني بالوليد فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه لم يتقياً، فقال عثمان: إنه لم يتقياً حتى شربها، فقال: يا علي قم فاجلده، فقال علي: قم يا حسن فاجلده، فقال: الحسن وكلّ حارّها من تولى قارّها^(١)، فكأنه وجد عليه، فقال: يا عبد الله بن جعفر قم فاجلده، فجلده وعلي يعد، حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك، ثم قال: جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين، وأبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إليّ^(٢)، ويؤخذ من هذا الحديث بأن علياً رضي الله عنه كان قريباً من عثمان، ومعيناً له على طاعة الله، وكان علي رضي الله عنه يقول - في معرض دفاعه عن عثمان رداً على من يعيب على عثمان بالفعل المنسوب للوليد - : إنكم ما تعيرون به عثمان كالطاعن نفسه ليقتل رداءه^(٣)، ما ذنب عثمان في رجل قد ضربه بفعله وعزله عن عمله، وما ذنب عثمان فيما صنع عن أمرنا^(٤).

٢ - استشارة عثمان لعلي وكبار الصحابة في فتح إفريقية:

جاء في «رياض النفوس» أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان جاءه من واليه على مصر «عبد الله بن سعد» أن المسلمين يغيرون على أطراف إفريقية؛ فيصيّبون من عدوهم، وأنهم قريبون من حوز المسلمين، فأعرب عثمان بن عفان رضي الله عنه - على إثر ذلك - للمسور ابن مخزومة عن رغبته في بعث الجيوش لغزو إفريقية. جاء في هذا الصدد ما نصه: فما رأيك يا بن مخزومة؟ قلت: اغزهم. قال: أجمع اليوم الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأستشيرهم، فما أجمعوا عليه فعلته، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته. . . ائت علياً، وطلحة والزبير

(١) أي: ول بشدتها وأوساخها من تولى هنيئها ولذاتها.

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم»، كتاب الحدود (١١/٢١٦).

(٣) الرداء: هو العون، «تاريخ الطبري» (٥/٢٧٨).

(٤) «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (١/٤٢١).

والعباس، وذكر رجلاً، فخلا بكل واحد منهم في المسجد، ثم دعا أبا الأعور «سعيد بن زيد» فقال له عثمان: لم كرهت - يا أبا الأعور - من بعثة الجيوش إلى إفريقية؟ فقال له: سمعت «عمر» يقول: لا أغزيها أحداً من المسلمين ما حملت عيناتي الماء. فلا أرى لك خلاف عمر، فقال له عثمان: والله ما نخافهم وإنهم لراضون أن يقرؤا في مواضعهم، فلا يغزون، فلم يختلف عليه أحد ممن شاوره غيره، ثم خطب الناس، وندبهم إلى الغزو إلى إفريقية، فخرج بعض الصحابة منهم عبدالله بن الزبير، وأبو ذر الغفاري (١).

٣ - رأي علي في جمع عثمان الناس على قراءة واحدة:

جمع عثمان رضي الله عنه المهاجرين والأنصار وشاورهم في الأمر وفيهم أعيان الصحابة وفي طليعتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعرض عثمان رضي الله عنه هذه المعضلة على صفوة الأمة وقادتها الهادين المهديين، ودارسهم أمرها ودارسوه، وناقشهم فيها وناقشوه، حتى عرف رأيهم وعرفوا رأيه، وظهر للناس في أرجاء الأرض ما انعقد عليه إجماعهم، فلم يعرف قط يومئذ لهم مخالف، ولا عرف عن أحد نكير، وليس شأن القرآن الذي يخفى على آحاد الأمة فضلاً عن علمائها وأئمتها البارزين (٢)، إن عثمان رضي الله عنه لم يتدع في جمعه المصحف، بل سبقه إلى ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، كما أنه لم يضع ذلك من قبل نفسه إنما فعله عن مشورة للصحابة رضي الله عنهم، وأعجبهم هذا الفعل وقالوا: نعم ما رأيت، وقالوا أيضاً: قد أحسن - أي في فعله في المصاحف (٣) - وقد أدرك مصعب بن سعد صحابة النبي صلوات الله عليهم حين مشق (٤) عثمان المصاحف، فرأهم قد أعجبوا بهذا الفعل منه (٥)، وكان علي رضي الله عنه ينهى من يعيب على عثمان رضي الله عنه بذلك ويقول: يأيها

(١) «رياض النفوس» (٨/١ - ٩)، و«الجهاد والقتال»، لهيكل (١/٥٥٦).

(٢) «عثمان بن عفان»، لصادق عرجون ص (١٧٥).

(٣) «فتنة مقتل عثمان» (١/٧٨).

(٤) «مشق في الكتابة: مدح حروفها وجودها. انظر: الوجيز مادة «مشق».

(٥) «التاريخ الصغير» للبخاري (١/٩٤)، وإسناده حسن لغيره.

الناس لا تغلوا في عثمان، ولا تقولوا له إلا خيراً - أو قولوا خيراً - فوالله ما فعل الذي فعل - أي في المصاحف - إلا عن ملاء منا جميعاً - أي الصحابة - والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل^(١)، وجاء في رواية أخرى عن علي رضي الله عنه قوله: لما اختلف الناس في القرآن وبلغ ذلك عثمان جمعنا أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم واستشارنا في جمع الناس على قراءة، فأجمع رأينا مع رأيه على ذلك وقال بعد ذلك: لو وليت الذي ولي، لصنعت مثل الذي صنع^(٢).

خامساً: موقف علي رضي الله عنه في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه:

كانت هناك أسباب متنوعة ومتداخلة ساهمت في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه؛ كالرخاء وأثره في المجتمع، وطبيعة التحول الاجتماعي، ومجيء عثمان بعد عمر رضي الله عنه، وخروج كبار الصحابة من المدينة، والعصبية الجاهلية، وتآمر الحاقدين، والتدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان، واستخدام الوسائل والأساليب المهيجة للناس، وأثر السبئية في أحداث الفتنة، وقد فصلت وشرحت تلك الأسباب في كتابي «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان ابن عفان شخصيته وعصره».

لقد استخدم أعداء الإسلام في فتنة مقتل عثمان الأساليب والوسائل المهيجة للناس، من إشاعة الأراجيف حيث ترددت كلمة الإشاعة والإذاعة كثيراً، والتحريض، والمناظرة والمجادلة للخليفة أمام الناس، والطعن على الولاية، واستخدام تزوير الكتب واختلاقها على لسان الصحابة رضي الله عنهم، عائشة وعلي وطلحة والزبير، والإشاعة بأن علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأحق بالخلافة، وأنه الوصي بعد رسول الله صلوات الله عليهم، وتنظيم فرق في كل من البصرة والكوفة ومصر، أربع فرق من كل مصر مما يدل على التدبير المسبق، وأوهموا أهل المدينة أنهم ما جاؤوا إلا بدعوة الصحابة، وصعدوا الأحداث حتى وصل إلى القتل^(٣)، وإلى

(١) «فتح الباري» (١٨/٩)، وإسناده صحيح.

(٢) «سنن أبي داود»، كتاب المصاحف ص (٢٩ - ٣٠)، وإسناده صحيح و«خلافة علي بن أبي طالب»، لعلي عبد الحميد ص (٨٠).

(٣) «دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة» ص (٤٠١).

جوار هذه الوسائل، استخدموا مجموعة من الشعارات؛ منها التكبير، ومنها أن جهادهم هذا ضد المظالم، ومنها أنهم لا يقومون إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنها المطالبة باستبدال الولاة وعزلهم، ثم تطورت المطالبة إلى خلع عثمان، إلى أن تمادوا في جرأتهم وطالبوا بل سارعوا إلى قتل الخليفة، وخاصة حينما وصلهم الخبر بأن أهل الأمصار قادمون لنصرة الخليفة، فزادهم حماسهم المحموم لتضييق الخناق على الخليفة، والتشوق إلى قتله بأي وسيلة^(١).

كان التنظيم السبئي بقيادة عبدالله بن سبأ اليهودي خلف تلك الأحداث والتي بعدها وسيأتي الحديث عنه بإذن الله، وعن عثمان الذي هز مقتله العالم الإسلامي، وأثر في كثير من الأحداث إلى يومنا هذا.

١ - موقف علي رضي الله عنه في بداية الفتنة:

استمر علي رضي الله عنه في طريقته المعهودة مع الخلفاء، وهي السمع والطاعة والإدلاء بالمشورة والنصح، وقد عبر بنفسه عن مدى طاعته للخليفة عثمان والتزام أمره ولو كان شاقاً بقوله: لو سيرني عثمان رضي الله عنه إلى صرار لسمعت وأطعت^(٢)، وعندما نزل المتمردون في ذي المروة قبل مقتل عثمان رضي الله عنه بما يقارب شهراً ونصفاً، أرسل إليهم عثمان علياً رضي الله عنه ورجلاً آخر لم تسمه الروايات، والتقى بهم علي رضي الله عنه فقال لهم: تعطون كتاب الله، وتعتبون من كل ما سخطتم، فوافقوا على ذلك^(٣)، وفي رواية أنهم شادوه وشادهم مرتين أو ثلاثاً، ثم قالوا: ابن عم رسول الله صلوات الله عليه، ورسول أمير المؤمنين يعرض عليكم كتاب الله فقبلوا^(٤)، فاصطلحوا على خمس: على أن المنفي يقلب، والمحروم يعطى، ويوفر الفيء، ويعدل في القسم، ويستعمل ذو الأمانة والقوة، وكتبوا ذلك في كتاب، أن يرد ابن عامر على البصرة، وأن يبقى أبو موسى على الكوفة^(٥).

(١) «دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة» ص (٤٠٢).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٢٥/١٥) سنده صحيح.

(٣) «تاريخ دمشق» ترجمة عثمان ص (٣٢٨)، و«تاريخ خليفة» ص (١٦٩).

(٤) «فتنة مقتل عثمان» (١/١٢٩).

(٥) المصدر نفسه (١/١٢٩).

وهكذا اصطاح عثمان رضي الله عنه مع كل وفد على حده، ثم انصرفت الوفود إلى ديارها^(١)، وبعد هذا الصلح وعودة أهل الأمصار جميعاً راضين؛ تبين لمشعلي الفتنة أن خطتهم قد فشلت، وأن أهدافهم الدنيئة لم تتحقق، لذا خططوا تخطيطاً آخر يذكي الفتنة ويحييها، يقتضي تدمير ما جرى من صلح بين أهل الأمصار، وعثمان رضي الله عنه وبرز ذلك فيما يأتي: في أثناء طريق عودة أهل مصر، رأوا راكباً على جمل يتعرض لهم، ويفارقهم - فكأنه يقول: خذوني - فقبضوا عليه، وقالوا له: مالك؟، قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله، ولما فتحوا الكتاب؛ فإذا فيه أمر بصلبهم أو قتلهم أو تقطيع أيديهم وأرجلهم، فرجعوا إلى المدينة حتى وصلوها^(٢)، ونفى عثمان رضي الله عنه أن يكون كتب هذا الكتاب، وقال لهم: إنهما اثنتان: أن تقسيما رجلين من المسلمين، أو يمين بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت، ولا أمليت، ولا علمت، وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم، فلم يصدقوه^(٣) - وهو الصادق البار - لغاية في نفوسهم.

وهذا الكتاب الذي زعم هؤلاء المتمردون البغاة المنحرفون أنه من عثمان وعليه خاتمه ويحمله غلامه علي واحد من إبل الصدقة إلى عامله بمصر ابن أبي سرح، يأمر فيه بقتل هؤلاء الخارجين، هو كتاب مزور مكذوب على لسان عثمان، وذلك لعدة أمور منها^(٤): كيف علم العراقيون بالأمر وقد اتجهوا إلى بلادهم، وفصلتهم عن المصريين -الذين أمسكوا بالكتاب المزعوم - مسافة شاسعة؟ فالعراقيون في الشرق والمصريون في الغرب، ومع ذلك عادوا جميعاً في آن واحد، كأنما كانوا على ميعاد!، لا يعقل هذا إلا إذا كان الذين زوروا الكتاب، واستأجروا راكباً ليحمله، ويمثل الدور في البُويبُ أمام المصريين، قد استأجروا راكباً آخر انطلق إلى العراقيين ليخبرهم بأن المصريين قد اكتشفوا كتاباً بعث به عثمان لقتل المنحرفين المصريين، وهذا ما احتج به علي بن أبي طالب

(١) «فتنة مقتل عثمان» (٣٢٩/١).

(٢) «فتنة مقتل عثمان» (١٣٢/٥)، و«البداية والنهاية» (١٩١/٧).

(٣) «تيسير الكريم المأان في سيرة عثمان بن عفان» للصَّلابي ص (٤١٠).

(٤) «تاريخ الطبري» (٣٧٩/٥).

رضي الله عنه فقد قال: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر، وقد سرتهم مراحل ثم طويتم نحونا؟^(١)، بل إن علياً يجزم: هذا والله أمر أبرم بالمدينة^(٢).

إن هذا الكتاب المشؤوم ليس أول كتاب يزوره هؤلاء المجرمون، بل زوروا كتباً على لسان أمهات المؤمنين، وكذلك على لسان علي وطلحة والزبير، فهذه عائشة رضي الله عنها تُتهم بأنها كتبت إلى الناس تأمرهم بالخروج على عثمان فتتفي وتقول: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا^(٣)، ويعقب الأعمش فيقول: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها^(٤)، ويتهم الوافدون علياً بأنه كتب إليهم أن يقدموا عليه بالمدينة، فينكر ذلك عليهم ويقسم: والله ما كتبت إليكم كتاباً^(٥)، كما ينسب إلى الصحابة بكتابة الكتب إلى أهل الأمصار يأمرونهم بالقدوم إليهم فدين محمد قد فسد وترك، والجهاد في المدينة خير من الرباط في الثغور البعيدة^(٦)، ويعلق ابن كثير على هذا الخبر قائلاً: وهذا كذب على الصحابة، وإنما كتبت كتب مزورة عليهم، فقد كتب من جهة علي وطلحة والزبير إلى الخوارج - قتلة عثمان - كتبٌ مزورة عليهم أنكروها، وكذلك زور هذا الكتاب على عثمان أيضاً، فإنه لم يأمر به، ولم يعلم به^(٧).

ويؤكد كلام ابن كثير ما رواه الطبري وخليفة من استنكار كبار الصحابة - علي وعائشة والزبير - أنفسهم لهذه الكتب في أصح الروايات^(٨)، إن الأيدي المجرمة التي زورت الرسائل الكاذبة على لسان أولئك الصحابة هي نفسها التي أوقدت نار الفتن من أولها إلى آخرها، ورتبت ذلك الفساد العريض، وهي التي زورت وروجت على عثمان تلك الأباطيل، وإنه فعل وفعل، ولقتها للناس، حتى قبلها

(١) «تاريخ الطبري» (٣٥٩/٥).

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة» (٣٣٤/١).

(٣) «تحقيق مواقف الصحابة» (٣٣٥/١)، و«البداية والنهاية» (١٩١/٧).

(٤) «تحقيق مواقف الصحابة» (٣٣٥/١)، و«البداية والنهاية» (١٧٥/٧).

(٥) «البداية والنهاية» (١٧٥/٧).

(٨) «تحقيق مواقف الصحابة» (٣٣٥/١).

الرعا، ثم زورت علي لسان عثمان ذلك الكتاب؛ لينذهب عثمان ضحية إلى ربه شهيداً سعيداً، ولم يكن عثمان الشهيد هو المجني عليه وحده في هذه المؤامرة السبئية اليهودية، بل الإسلام نفسه كان مجنياً عليه قبل ذلك، ثم التاريخ المشوه المحرف، والأجيال الإسلامية التي تلقت تاريخها مشوهاً هي كذلك ممن جني عليهم الخبيث اليهودي، وأعوانه من أصحاب المطامع والشهوات والحقد الدفين، أما أن للأجيال الإسلامية أن تعرف تاريخها الحق، وسير رجالاتها العظام؟ بل ألم بأن لمن يكتب في هذا العصر من المسلمين، أن يخاف الله ولا يتجرأ على تحريج الأبرياء قبل أن يحقق ويدقق حتى لا يسقط كما سقط غيره؟! (١).

٢. موقف علي رضي الله عنه أثناء الحصار:

اشتد الحصار على عثمان رضي الله عنه، حتى منع من أن يحضر للصلاة في المسجد، وكان صابراً على هذه البلوى التي أصابته كما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، وكان مع إيمانه القوي بالقضاء والقدر، يحاول أن يجد حلاً لهذه المصيبة، فنراه تارة يخاطب الناس عن حرمة دم المسلم، وأنه لا يحل سفكه إلا بحقه، وتارة يتحدث في الناس ويظهر فضائله وخدماته الجليلة في الإسلام، ويستشهد على ذلك ببقية العشرة عليهم السلام (٢) وكأنه يقول: من هذا عمله وفضله هل من الممكن أن يطمع في الدنيا ويقدمها على الآخرة؟، وهل يعقل أن يخون الأمانة ويعبت بأموال الأمة ودمائها وهو يعرف عاقبة ذلك عند الله، وهو الذي تربى على عين النبي صلى الله عليه وسلم والذي شهد له وزكاه وكذلك أفاضل الصحابة، وهكذا تكون معاملته؟! واشتدت سيطرة الثوار على المدينة حتى إنهم ليصلون بالناس في أغلب الأوقات (٣)، وحينها أدرك الصحابة أن الأمر ليس كما حسبوا، وخشوا من حدوث ما لا يحمد عقباه، وقد بلغهم أن القوم يريدون قتله، فعرضوا عليه أن يدافعوا عنه، ويخرجوا الغوغاء عن المدينة، إلا أنه رفض أن يراق دم بسببه (٤)،

(١) «عثمان بن عفان الخليفة» الشاكر الصابر ص (٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي ص (٨٥).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/٥١٥).

(٤) «فتنة مقتل عثمان» (١/١٦٧)، و«المسند» (١/٣٩٦) أحمد شاكر.

وأرسل كبار الصحابة أبناءهم دون استشارة عثمان رضي الله عنه، ومن هؤلاء الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعبدالله بن الزبير، حيث تذكر بعض الروايات أن الحسن حمل جريحاً من الدار يوم الدار^(١)، كما جرح غير الحسن، عبدالله ابن الزبير، ومحمد ابن حاطب ومروان بن الحكم، كما كان معهم الحسين بن علي وابن عمر رضي الله عنهما^(٢)، وقد كان علي من أذفع الناس عن عثمان رضي الله عنه، وشهد له بذلك مروان ابن الحكم^(٣)، أقرب الناس إلى عثمان رضي الله عنه، وألصقهم به في تلك المحنة القاسية الأليمة، وقد أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه: إن علياً أرسل إلى عثمان فقال: إن معي خمسمائة دارع، فأذن لي؛ فأمنعك من القوم؛ فإنك لم تحدث شيئاً يستحل به دمك، فقال: جزيت خيراً، ما أحب أن يهراق دم بسببي^(٤)، وقد وردت روايات عديدة تفيد وقوفه بجانب عثمان رضي الله عنه أثناء الحصار، فمن ذلك: أن الثائرين منعوا عن عثمان الماء حتى كاد أهله أن يموتوا عطشاً، فأرسل علي رضي الله عنه إليه بثلاث قرب مملوءة ماء، فما كادت تصل إليه، وجرح بسببها عدة من موالي بني هاشم وبني أمية حتى وصلت^(٥)، ولقد تسارعت الأحداث فوثب الغوغاء على عثمان وقتلوه رضي الله عنه وأرضاه، ووصل الخبر إلى الصحابة وأكثرهم في المسجد، فذهبت عقولهم، وقال علي لأبنائه وأبناء إخوانه: كيف قتل عثمان وأنتم على الباب؟ ولطم الحسن - وكان قد جرح^(٦) - وضرب صدر الحسين، وشتم ابن الزبير وابن طلحة، وخرج غضبان إلى منزله ويقول: تباً لكم سائر الدهر، اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلت أو ملأت على قتله^(٧)، وهكذا كان موقف علي رضي الله عنه، نصح وشورى، سمع وطاعة، وقفة قوية بجانبه أثناء الفتنة، ومن أذفع الناس عنه، ولم يذكره بسوء قط، يحاول الإصلاح وسد الخرق بين الخليفة والخارجين عليه، لكن الأمر فوق

(١) «الطبقات» لابن سعد (١٢٨/٨) بسند صحيح. (٢) «تاريخ خليفة» ص (١٧٤).

(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي، و«الخلفاء الراشدون» ص (٤٦٠ - ٤٦١)، وإسناده قوي.

(٤) «تاريخ دمشق» ص (٤٠٣). (٥) «أنساب الأشراف» للبلاذري (٦٧/٥).

(٦) ابن أبي عاصم «الآحاد والثمانين» (١٢٥/١) نقلاً عن «خلافة علي» ص (٨٧).

(٧) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٠٩/١٥)، وإسناده صحيح.

طاقته، وخارج إرادته إنها إرادة الله عز وجل أن يفوز أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه بالشهادة (١).

٣. المصاهرات بين آل علي وآل عثمان رضي الله عنهم:

لم يكن بين بني هاشم وبني أمية من المباغضة والعداوة والمنافرة التي اخترعها وابتكرها أعداء الإسلام والمسلمين ونسجوا الأساطير والقصاص حولها، ولقد اتضح لكل منصف أن بني أمية مع بني هاشم علاقتهم فيما بينهم علاقة أبناء العمومة والإخوان والخلان، فهم من أقرب الناس فيما بينهم، يتبادلون الحب والتقدير والاحترام، ويتقاسمون الهموم والآلام والأحزان، فبنو أمية وبنو هاشم كلهم أبناء أب واحد، وأحفاد جد واحد، وأغصان شجرة واحدة قبل الإسلام وبعد الإسلام، وكلهم استقوا من عين واحدة ومنبع صاف واحد، وأخذوا الثمار من دين الله الحنيف الذي جاء به رسول الله الصادق الأمين، المعلم، الربيع، خاتم الأنبياء والمرسلين، ولقد كان بين أبي سفيان وبين العباس صداقة يضرب بها الأمثال (٢)، كما كانت بينهم المصاهرات قبل الإسلام وبعده، فلقد زوج رسول الله صلوات الله عليه وآله بناته الثلاثة من الأربعة من بني أمية، من أبي العاص بن الربيع وهو من بني أمية، ومن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وهو مع ذلك ابن بنت عمه رسول الله صلوات الله عليه وآله التي ولدت مع والد رسول الله صلوات الله عليه وآله عبدالله بن عبدالمطلب توءمين أروى بنت كرز بن حبيب بن عبد شمس وهي أم عثمان وأمها أم حكيم وهي البيضاء بنت عبدالمطلب عمه النبي صلوات الله عليه وآله، هذا ولقد تزوج بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه من بني هاشم ابنه أبان بن عثمان، وكانت عنده أم كلثوم بنت عبدالله بن جعفر (الطياري) ابن أبي طالب شقيق علي رضي الله عنه (٣)، وحفيدة علي وبنت الحسين وسكينة كانت متزوجة من حفيد عثمان زيد بن عمرو بن عثمان رضي الله عنه أجمعين، وحفيدة علي الثانية وابنة الحسين وفاطمة كانت متزوجة من حفيد عثمان الآخر، محمد

(١) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي ص (٨٧).

(٢) «الشيعة وأهل البيت» ص (١٤١).

(٣) «المعارف» للدنوري ص ٨٦، و«الشيعة وأهل البيت» ص (١٤١).

ابن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وكانت أم حبيبة بنت أبي سفيان سيد بني أمية متزوجة من سيد بني هاشم وسيد ولد آدم رسول الله ﷺ الصادق الأمين كما هو معروف، كما أن هند بنت أبي سفيان كانت متزوجة من الحارث ابن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب بن هاشم فولدت له ابنه محمداً^(١).

وتزوجت لبابة بنت عبيدالله بن عباس بن عبد المطلب، العباس بن علي ابن أبي طالب، ثم خلف عليها الوليد بن عتبة (ابن أخ معاوية) ابن أبي سفيان^(٢)، وتزوجت رملة بنت محمد بن جعفر - الطيار - بن أبي طالب سليمان بن هشام بن عبدالملك (الأموي) ثم أبا القاسم بن وليد بن عتبة بن أبي سفيان^(٣)، وكذلك تزوجت ابنة علي بن أبي طالب رملة من ابن مروان بن الحكم^(٤) بن أبي العاص بن أمية، فقد كانت رملة بنت علي عند أبي الهياج. ثم خلف عليها معاوية بن مروان بن الحكم بن أبي العاص^(٥)، وتزوجت حفيدة علي بن أبي طالب من حفيد مروان بن الحكم، فنفيسة بنت زيد بن الحسن بن علي ابن أبي طالب تزوجها الوليد بن عبدالملك بن مروان فتوفيت عنده، وأمها لبابة بنت عبدالله ابن عباس^(٦)، وقد اكتفيت ببيان بعض منها، وفيها كفاية لمن أراد الحق والتبصر^(٧).

سادساً: من أقوال علي في الخلفاء الراشدين:

إن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ قد أجمع على صحتها وانعقادها الصحابة الكرام، ومن طعن في أحد منهم فقد خالف قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء: ١١٥)، وقول النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ» فهم أبو بكر وعمر وعثمان

(١) «طبقات ابن سعد» (١٥/٥)، و«الإصابة» (٥٨/٣، ٥٩).

(٢) «نسب قريش» ص (١٣٣)، و«الشيعة وأهل البيت» ص (١٤٣).

(٣) «الشيعة وأهل البيت» ص (١٤٣).

(٤) المصدر نفسه ص (١٤٣).

(٥) «جمهرة أنساب العرب» ص (٨٧)، و«نسب قريش» ص (٤٥).

(٦) «طبقات ابن سعد» (٢٣٤/٥).

(٧) «الشيعة وأهل البيت» ص (١٤٤).

وعلي رضي الله عنه ومن اتبعهم بإحسان^(١)، وما أحسن ما قاله أيوب السخيتاني في هذا المقام، حيث قال: من أحب أبابكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله عز وجل، ومن أحب علياً فقد استمسك بالعروة الوثقى، ومن أحسن القول في أصحاب محمد فقد برئ من النفاق^(٢). قال الشاعر:

إِنِّي رَضِيتُ عَلِيًّا قُدْوَةً عَلَّمَا
 كَمَا رَضِيتُ عَتِيقًا صَاحِبَ الْغَارِ
 وَقَدْ رَضِيتُ أَبَا حَفْصٍ وَشِيعَتَهُ
 وَمَا رَضِيتُ بِقَتْلِ الشَّيْخِ فِي الدَّارِ
 كُلُّ الصَّحَابَةِ عِنْدِي قُدْوَةٌ عَلَّمُ
 فَهَلْ عَلَيَّ بِهَذَا الْقَوْلِ مِنْ عَارِ
 إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أَحِبُّهُمْ
 إِلَّا لَوْجَهَكَ أَعْتَقْنِي مِنَ النَّارِ^(٣)

هذا وقد جاءت الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة في العلاقة المتميزة بين علي والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، وقد تمّ توضيح ذلك في الصفحات الماضية، وهذه بعض الأدلة نضيفها إلى ما سبق من براهين ساطعة على مكانة الخلفاء الراشدين عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

١- سيّد كهول أهل الجنة وشبابها:

عن علي رضي الله عنه قال: كنت عند النبي صلّى الله عليه وآله، فأقبل أبوبكر وعمر، فقال: يا عليُّ، هذان سيّدا كهول أهل الجنة، وشبابها، بعد النبيين والمرسلين^(٤).

(١) «الشریعة» للأجري (٤/١٧٦٨). (٢) المصدر نفسه (٤/١٧٧٢، ١٧٧٣). (٣) «الشریعة» (٥/٢٥٣٦).

(٤) «مسند أحمد الموسوعة الحديثية» رقم (٦٠٢)، حديث صحيح وهذا إسناد حسن.

٢. ما أضمر لهما إلا الذي أتمنى المضي عليه:

عن سويد بن غفلة، قال: مررتُ بنفر من الشيعة يتناولون أبا بكر وعمر، فدخلت على علي فقلت: يا أمير المؤمنين، مررت بنفر من أصحابك أنفًا يتناولون أبا بكر وعمر بغير الذي هما له من هذه الأمة أهل، فلولا أنك تُضمرُ على مثل ما أعلنوا عليه ما تجرؤوا على ذلك. فقال علي: ما أضمر لهما إلا الذي أتمنى المضي عليه، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل. ثم نهض دافع العين يبكي، قابضًا على يدي حتى دخل المسجد، فصعد المنبر وجلس عليه متمكنًا قابضًا على لحيته ينظر فيها وهي بيضاء، حتى اجتمع له الناس، ثم قام فخطب خطبة موجزة بليغة، ثم قال: ما بال قوم يذكرون سيدي قريش وأبوي المسلمين؟ أنا مما قالوا بريء، وعلى ما قالوا مُعاقب، ألا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لا يحبهما إلا مؤمن تقي، ولا يبغضهما إلا فاجر ردي، صحبا رسول الله ﷺ على الصدق والوفاء، يأمران وينهيان وما يجاوزان فيما يصنعان رأي رسول الله ﷺ، ولا كان رسول الله يرى بمثل رأيهما، ولا يحب كحبهما أحدًا، قبض رسول الله ﷺ وهو عنهما راضٍ، ومضيا والمؤمنون عنهما راضون، أمر رسول الله ﷺ أبا بكر لصلاة المؤمنين فصلى بهم تسعة أيام^(١) في حياة رسول الله ﷺ، فلما قبض الله تعالى نبيه ﷺ واختار له ما عنده، ولأه المؤمنين أمرهم، وقضوا إليه الزكاة؛ لأنهما مقرونتان، ثم أعطوه البيعة طائعين غير كارهين، أنا أول من سنَّ ذلك من بني عبدالمطلب، وهو لذلك كاره يودُّ أن أحدنا كفاه ذلك، وكان والله خير من بقي، أرحمه رحمة، وأرأفه رأفة، وأثبته ورعًا، وأقدمه سنًا وإسلامًا. فسار فينا سيرة رسول الله ﷺ حتى مضى على ذلك، ثم ولى عمر الأمر من بعده، فمنهم من رضي، ومنهم من كره، فلم يفارق الدنيا حتى رضي به من كان كرهه، فأقام الأمر على منهاج النبي ﷺ وصاحبه، يتبع آثارهما كتباع الفصيل^(٢)، أمه، وكان والله رفيقًا رحيمًا، وللمظلومين عونًا راحمًا وناصرًا، لا

(١) في الأصل سبعة، وورد تصويبها في الهامش. (٢) الفصيل: ولد الناقة إذا فصل عن أمه.

يخاف في الله لومة لائم، ضرب الله بالحق على لسانه، وجعل الصدق من شأنه، حتى كنا نظن أن ملكاً ينطق على لسانه، أعزَّ الله بإسلامه الإسلام، وجعل هجرته للدين قواماً، ألقى الله تعالى له في قلوب المنافقين الرهبة، وفي قلوب المؤمنين المحبة. . إلى أن قال: فمن لكم بمثلهما - رحمة الله عليهما - ورزقنا المضيَّ على سبيلهما؛ فإنه لا يبلغ مبلغهما إلا باتباع آثارهما والحبَّ لهما، ألا فمن أحبني فليُحِبهما، ومن لم يُحِبهما فقد أبغضني، وأنا منه بريء، ولو كنت تقدمت إليكم في أمرهما. لعاقبت على هذا أشد العقوبة، ولكن لا ينبغي أن أعاقب قبل التقدم، ألا فمن أتيتُ به - يقول: هذا بعد اليوم- فإنَّ عليه ما على المُفْتَرِي، ألا وخير هذه الأمة بعد نبيها: أبوبكر وعمر، ولو شئت سميت الثالث، وأستغفر الله لي ولكم^(١).

٣- هذا عثمان بن علي سميته بعثمان بن عفان:

عن أبي سعيد الخدري: نظرت إلى غلام أيفع^(٢)، له ذؤابة^(٣) وجمة^(٤)، والله يعلم أني منه حيثُذ لفي شك، ما أدري غلام هو أو جارية، فمررنا بأحسن منه وهو جالس إلى جنب عليّ فقلت: عافاك الله، من هذا الفتى إلى جانبك؟ قال: هذا عثمان بن عليّ سميته بعثمان بن عفان، وقد سميت بعمر بن الخطاب، وسميت بعباس عم رسول الله، وقد سميت بخير البرية محمد، فأما حسن وحسين ومحسن^(٥)، فإنما سماهم رسول الله صلَّى الله عليه وآله وعقَّ عنهم وحلق رؤوسهم^(٦)، وتصدق وزنها، وأمر بهم فسموا وختنوا^(٧)، فقد ولدوا في عهده عليه الصلاة والسلام، ورسول الله هو الذي سماهم وعقَّ عنهم.

(١) «النهى عن سب الأصحاب وما فيه من الإثم والعقاب» ص(٤٣)، و«شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي رقم (٤٤٥٦).

(٢) أيفع: شارف الاحتلام.

(٣) الذؤابة: هي الشعر المصفور من شعر الرأس.

(٤) الجملة من شعر الرأس: ما سقط على المنكبين.

(٥) «مسند أحمد» (١١٥/٢) رقم (٧٦٩) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٦) «المختصر من كتاب الموافقة» ص(١٤١).

(٧) وختنوا: الختن للرجال، والخفض للنساء، «المختصر من كتاب الموافقة» ص(١٤١).

٤- أبوبكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم كان لهم بالنبي اختصاص عظيم:

قد عرف بالتواتر الذي لا يخفى على العامة والخاصة أن أبابكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم كان لهم بالنبي صلى الله عليه وسلم اختصاص عظيم، وكانوا من أعظم الناس اختصاصاً به، وصحبة له وقربة إليه، وقد صاهرهم كلهم، وكان يحبهم ويثني عليهم، وحيثئذ فيما أن يكونوا على الاستقامة ظاهراً وباطناً في حياته وبعد موته، وإما أن يكونوا بخلاف ذلك في حياته، أو بعد موته، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا القرب فأحد الأمرين لازم، إما عدم علمه بأحوالهم، أو مداهنته لهم، وأيهما كان فهو من أعظم القدح في الرسول صلى الله عليه وسلم كما قيل:

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ

وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة فهذا خذلان من الله للرسول في خواص أمته، وأكابر أصحابه، ومن وعد أن يظهر دينه على الدين كله، فكيف يكون أكابر خواصه مرتدين؟ فهذا ونحوه من أعظم ما يقدح به الرافضة في الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال الإمام مالك وغيره: إنما أراد هؤلاء الرافضة الطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين، ولهذا قال أهل العلم: إن الرافضة دسيسة الزندقة^(١).

٥- ما يترب عليه في مذهب الرافضة من تكفير الصحابة:

إن مذهب الرافضة في تكفير الصحابة يترتب عليه تكفير أمير المؤمنين؛ لتخليه عن القيام بأمر الله، ويلزم عليه إسقاط تواتر الشريعة، بل بطلانها مادام نقلتها مرتدين، ويؤدي إلى القدح في القرآن العظيم؛ لأنه وصلنا عن طريق أبي بكر وعمر وعثمان وإخوانهم، وهذا هو هدف واضع هذه المقالة، ولذلك قال أبوزرعة: إذا رأيت الرجل يتقصص أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فاعلم

(١) «منهاج السنة» (٤/١٢٣)، و«أصول مذهب الشيعة» (٢/٩٣١).

أنه زنديق، وذلك أن الرسول صلوات الله عليه حق والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبتلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة^(١)، ولذلك اعترفت كتب الشيعة أن الذي وضع هذه المقالة هو ابن سبأ، فقالت: إنه أول من أظهر الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة، وتبرأ منهم، وادعى أن علياً رضي الله عنه أمره بذلك^(٢).

٦. قرائن عملية وأدلة واقعية على حقيقة العلاقة بين علي والخلفاء

الراشدين رضي الله عنهم:

قامت القرائن العملية والأدلة الواقعية من سيرة أمير المؤمنين علي في علاقته مع إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان مما اشتهر وذاع نقله، وقد نقلنا منه الكثير فيما مضى ما يثبت المحبة الصادقة والإخاء الحميم بين هذه الطليعة المختارة، والصفوة من جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وتأتي في مقدمة هذه الأدلة والقرائن تزويج أمير المؤمنين علي ابنته أم كلثوم لأمير المؤمنين عمر^(٣)، فإذا كان عمر فاروق هذه الأمة قد صار عند الشيعة الروافض أشد كفرةً من إبليس، أفلا يرجعون إلى عقولهم ويتدبروا فساد ما ينتهي إليه مذهبهم؟ إذ لو كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما كافرين كما يفترون لكان علي بتزويجه ابنته أم كلثوم الكبرى من عمر رضي الله عنه كافراً أو فاسقاً معرضاً بنته للزنى؛ لأن وطء الكافر للمسلمة زنى محض^(٤)، والعاقل المنصف البريء من الغرض، الصادق في محبته للنبي صلوات الله عليه وأهل بيته واتباعه لهم لا يملك إلا الإذعان لهذه الحقيقة، حقيقة الولاء والحب بين الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، ولذلك لما قيل لمعز الدولة أحمد بن بويه – وكان رافضياً يشتم صحابة رسول الله – إن علياً رضي الله عنه زوج ابنته أم كلثوم من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، استعظم ذلك وقال: ما علمت بهذا، وتاب وتصدق بأكثر

(١) «الكفاية» ص (٤٩).

(٢) «المقالات والفرق» للقمي ص (٢٠) نقلاً عن «أصول مذهب الشيعة» (٢/٩٣٣).

(٣) «أصول مذهب الشيعة» (٢/٩٣٢).

(٤) المصدر نفسه (٢/٩٣٢).

من ماله، وأعتق ممالিকে، ورد كثيراً من المظالم وبكى حتى غشي عليه^(١)؛ لشعوره بعظم جرمه فيما سلف من عمره، الذي أمضاه ينهش في أعراض هؤلاء الأطهار مغتراً بشبهات الروافض^(٢)، وقد حاول شيوخ الشيعة الروافض إبطال مفعول هذا الدليل؛ فوضعوا روايات مكذوبة عن لسان الأئمة تقول: ذلك فرج غصبناه^(٣)، فزادوا الطين بلة، حتى صوروا أمير المؤمنين في صورة «الديوث» الذي لا ينافح عن عرضه، ويقر الفاحشة في أهله، وهل يتصور مثل هذا في حق أمير المؤمنين علي بطل الإسلام؟ إن أدنى العرب لبيذل نفسه دون عرضه، ويقتل دون حرمه، فضلاً عن بني هاشم الذين هم سادات العرب وأعلاها نسباً وأعظمها مروءة وحمية، فكيف يثبتون لأمر المؤمنين وابنته حفيذة رسول الله ﷺ مثل هذه المنقصة الشنيعة، وهو الشجاع الصنديد، ليث بني غالب، أسد الله في المشارق والمغرب؟!^(٤).

ويبدو أن بعضهم لم يعجبه هذا التوجيه، فرام التخلص من هذا الدليل بمنطق أغرب وأعجب، حيث زعم أن أم كلثوم لم تكن بنت علي؛ ولكنها جنية تصورت بصورتها^(٥). فأتوا بما يستخف به أصحاب العقول، ويستطيع كل من أراد أن يدعي على من يكرهه بأنه جني أو جنية، وهكذا يعيش الناس في الخرافات وتضيق الحقيقة.

ومن القرائن أيضاً علاقات القربى القائمة بينهم، ووشائج الصلة، وكذلك مظاهر المحبة، حتى إن علياً والحسن والحسين — كما مر معنا — يسمون بعض أولادهم باسم أبي بكر وعمر، وهل يطيق أحد أن يسمي أولاده بأسماء أشد أعدائه كفرةً وكرهاً له؟ وهل يطيق أن يسمع أسماء أعدائه تتردد في أرجاء بيته يرددها مع أهله في يومه مرات وكرات؟!^(٦).

(١) «المنتظم» (٣٨/٧، ٣٩).

(٢) «أصول مذهب الشيعة» (٩٣٧/٢).

(٣) «فروع الكافي» (١٠/٢)، و«أصول مذهب الشيعة» (٩٣٧/٢).

(٤) «مؤتمر النجف» للسويدي ص (٨٦) نقلاً عن «أصول مذهب الشيعة» (٩٣٧/٢).

(٥) «الأنوار العمانية» (٨٣/١ - ٨٤) نقلاً عن «أصول مذهب الشيعة» (٩٣٨/٢).

(٦) «أصول مذهب الشيعة» (٩٣٨/٢).

إن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لا يحفظ عنه الصحابة ومن تبعهم من التابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين إلا محبة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم في حياتهم وفي خلافتهم وبعد وفاتهم، فأما في خلافتهم فسامع لهم مطيع، يحبهم ويحبونه، ويعظم قدرهم ويعظمون قدره، صادق في محبتهم، مخلص في الطاعة لهم، يجاهد من يجاهدون، ويحب ما يحبون، ويكره ما يكرهون، يستشيرونه في النوازل فيشير مشورة ناصح مشفق محب، فكثير من سيرتهم بمشورته جرت^(١)، وهم يبادلونه نفس الشعور ويقال: إنه لا يجتمع حب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي إلا في قلوب أتقياء هذه الأمة^(٢)، وقال سفيان الثوري: لا يجتمع حب عثمان وعلي رضي الله عنهما إلا في قلوب نبلاء الرجال^(٣)، وقال أنس ابن مالك: قالوا: إن حب عثمان وعلي رضي الله عنهما لا يجتمعان في قلب مؤمن، كذبوا. فقد جمع الله عز وجل حبهما بحمد الله في قلوبنا^(٤).

سابعاً: وصف لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله في القرآن الكريم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَتَّعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

ومن المناسب أن أختتم هذا الفصل بهذه الآية الكريمة؛ لتكون دليلاً على ما ذكرته من المحبة والرحمة والتعاون بين الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، فهذه الآية تضمنت ذكر منزلة الرسول صلى الله عليه وآله بالثناء؛ ثم ثنى تعالى فيها بالثناء على سائر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فذكر تعالى أن صفاتهم الشدة والغلظة على أهل الكفر، كما وصفهم بالتراحم والتعاطف فيما بينهم، ووصفهم

(٢) المصدر نفسه (٥/٢٣١٢).

(١) «الشریعة» للأجري (٥/٢٣١٢).

(٤) «الشریعة» للأجري (٥/٢٣١٢)، وإسناده صحيح.

(٣) «حلية الأولياء» (٧/٣٢).

بأنهم يكثر من الأعمال الصالحة المقرونة بالإخلاص وسعة الرجاء ، وفي مقدمة تلك الأعمال الصالحة إكثارهم من الصلاة ابتغاء الحصول على فضل من الله ورضوان ، كما بين - سبحانه - أن آثار ذلك يظهر على وجوههم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ والسيما : العلامة . وقد قيل : بها بياض يكون في الوجوه يوم القيامة قاله الحسن وسعيد بن جبير وهو رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواية أخرى عنه وعن مجاهد : السيماء في الدنيا هو : السميت الحسن ، «وعن مجاهد أيضاً : هو الخشوع والتواضع (١)» .

وهذه الأقوال لا منافاة بينها إذ يمكن أن يكون في الدنيا هو السميت الذي ينشأ عن التواضع والخشوع ، وفي الآخرة يكون في جباههم نور (٢) قال ابن كثير : فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبه في سميتهم وهديتهم ، وقال مالك رضي الله عنه : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا ، وصدقوا في ذلك ؛ فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم ، وقد نوه الله - تبارك وتعالى - بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ، ولهذا قال - سبحانه - ههنا ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ ثم قال : ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي : فراخه ﴿فَأَزْرَهُ﴾ أي : شده وقواه ﴿فَاسْتَعْلَفَ﴾ أي : شب وطال ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ أي : فكذلك أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم أزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطاء مع الزرع ﴿يَغِيظُ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك -رحمة الله عليه- في رواية عنه تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم قال : لأنهم يغيظونهم ومن غاظه الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية ، ووافقه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) «تفسير الطبري» (٢٦/١١٠-١١١) ، و«تفسير القرطبي» (١٦/٢٩٣-٢٩٤) .

(٢) «تفسير الطبري» (٢٦/١١٢) .

الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ ﴿١﴾ أي: ثواباً جزيلاً ورزقاً كريماً ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبذل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل^(١)، وفي قوله - سبحانه - في حق الصحابة الكرام رضي الله عنهم ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾، أخطر حكم، وأغلظ تهديد، وأشد وعيد في حق من غيظ بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كان في قلبه غل لهم^(٢)، وأما قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيها وعد من الله تعالى لجميع الصحابة بالجنة، وكذلك كل من آمن وعمل الصالحات من أمة الإجابة إذ هذا الوعد عام لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة^(٣)، وكلمة ﴿مِنْهُمْ﴾ في الآية السابقة: لبيان الجنس وليست للتبعض. قال ابن تيمية: ولا ريب أن هذا مدح لهم بما ذكر من الصفات وهو الشدة على الكفار، والرحمة بينهم، والركوع والسجود يتغون فضلاً من الله ورضواناً، والسيماء في وجوههم من أثر السجود، وأنهم يستدئون من ضعف إلى كمال القوة والاعتدال كالزرع، والوعد لهم بالمغفرة والأجر العظيم ليس على مجرد هذه الصفات بل على الإيمان والعمل الصالح فذكر ما به يستحقون الوعد، وإن كانوا كلهم بهذه الصفة ولولا ذكر ذلك لكان يظن أنهم بمجرد ما ذكر يستحقون المغفرة والأجر العظيم، ولم يكن فيه بيان سبب الجزاء بخلاف ما إذا ذكر الإيمان والعمل الصالح، فإن الحكم إذا علق باسم مشتق مناسب كان ما منه الاشتقاق سبب الحكم^(٤).

إن ما ذكرته في هذا الفصل ينسجم كلياً مع حديث القرآن الكريم عن الرحمة بين الصحابة والشدة على الكفار وخصوصاً بين الخلفاء الراشدين، فهم السادة الكرام، وعلية القوم، وقادة الأمة بعد وفاة نبيها، فالحذر كل الحذر من الروايات الضعيفة والقصص الموضوعة التي اختلقها أعداء الأمة؛ ليشوهوا بها

(٢) «قبس من هدي الإسلام»، لعبد المحسن العباد ص (٨٦)

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/٣٦٥).

(٣) «عقيدة أهل السنة من الصحابة» (١/٧٦). (٤) «منهاج السنة» (١/١٥٨).

تاريخ صدر الإسلام، أنصدق الروايات الكاذبة والقصاص الواهية التي تصور العداء بين الخلفاء الراشدين، أم نصدق كتاب ربنا وما جاء في حقهم على لسان نبينا، وما يوافقها مما دونه العلماء الثقات من أهل السنة والجماعة؟

قال تعالى: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الانفال: ٦٣) فهذا وصف القرآن الكريم لحقيقة الألفة بين قلوب الصحابة، فهي منحة ربانية، ونعمة إلهية أعطها الله لذلك الجيل الطاهر، لا دخل لبشر فيها، وبين القرآن الكريم أن الألفة بين الصحابة نعمة من الله تعالى امتن بها على رسول الله ﷺ، وهذا التصوير القرآني لحقيقة الصحابة ينسجم مع الروايات الصحيحة التي تبين محبة الصحابة والمودة بينهم، وبذلك يفتضح أمر الذين وضعوا الروايات المكذوبة والموضوعة، والآية تشمل كل من سار على هدي القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قرابة الرحم تقطع، ومنة المنعم تكفر، ولم نر مثل تقارب القلوب (١).

قال الشاعر:

وَلَقَدْ صَحِبْتُ النَّاسَ ثُمَّ خَبِرْتُهُمْ
وَبَلَّوْتُ مَا وَصَلُوا مِنَ الْأَسْبَابِ
فَإِذَا الْقَرَابَةُ لَا تُقَرِّبُ قَاطِعًا
وَإِذَا الْمَوَدَّةُ أَقْرَبُ الْأَسْبَابِ (٢)



(١) «الدر المنثور في تفسير المأثور» (٤/ ١٠٠).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٠٠).

الفصل الثالث

بيعة علي رضي الله عنه وأهم صفاته وحياته في المجتمع

المبحث الأول

بيعة علي رضي الله عنه

أولاً: كيف تمت بيعة علي رضي الله عنه:

تمت بيعة علي رضي الله عنه بالخلافة بطريقة الاختيار وذلك بعد أن استشهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه على أيدي الخارجين المارقين الشذاذ الذين جاؤوا من الآفاق ومن أمصار مختلفة، وقبائل متباينة لا سابقة لهم، ولا أثر خير في الدين، فبعد أن قتلوه رضي الله عنه ظلماً وزوراً وعدواناً، يوم الجمعة لثمانية عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين^(١)، قام كل من بقي بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمبايعة علي رضي الله عنه بالخلافة؛ وذلك لأنه لم يكن أحد أفضل منه على الإطلاق في ذلك الوقت، فلم يدع الإمامة لنفسه أحد بعد عثمان رضي الله عنه ولم يكن أبو السبطين رضي الله عنه حريصاً عليها، ولذلك لم يقبلها إلا بعد إلحاح شديد ممن بقي من الصحابة بالمدينة وخوفاً من ازدياد الفتن وانتشارها ومع ذلك لم يسلم من نقد بعض الجهال إثر تلك الفتن كموقعة الجمل وصفين التي أوقد نارها وأنشبهها الحاقدون على الإسلام؛ كابن سبأ وأتباعه الذين استخفهم فأطاعوه لفسقهم ولزيغ قلوبهم عن الحق والهدى، وقد روى الكيفية التي تم بها اختيار علي رضي الله عنه للخلافة بعض أهل العلم^(٢)، فقد روى أبو بكر الخلال بإسناده إلى محمد بن الحنفية قال: كنت مع علي رحمه الله وعثمان رضي الله عنه محاصر قال: فأتاه رجل فقال: إن أمير المؤمنين مقتول الساعة قال: فقام علي رحمه الله، قال محمد: فأخذت بوسطه تخوفاً عليه فقال: خلّ لا أم لك قال: فأتى علي الدار وقد قتل الرجل رحمه الله، فأتى داره فدخلها فأغلق بابها، فأتاه الناس فضربوا

(١) «الطبقات» لابن سعد (٣/٣١).

(٢) «عقيدة أهل السنة في الصحابة الكرام» (٢/٦٧٧).

عليه الباب فدخلوا عليه فقالوا: إن هذا قد قتل، ولا بد للناس من خليفة ولا نعلم أحداً أحق بها منك فقال لهم عليٌّ رضي الله عنه: لا تريدوني فإني لكم وزير خير مني لكم أمير فقالوا: لا والله لا نعلم أحداً أحق بها منك، قال: فإن أبيتم علي فإن بيعتي لا تكون سراً، ولكن أخرج إلى المسجد فبايعه الناس^(١)، وفي رواية أخرى عن سالم بن أبي الجعد عن محمد بن الحنفية: فأتاه أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم فقالوا: إن هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من إمام ولا نجد أحداً أحق بها منك أقدم مشاهد، ولا أقرب من رسول الله صلوات الله عليهم، فقال عليٌّ، لا تفعلوا فإني وزير خير مني أمير، فقالوا: لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك قال: ففي المسجد فإنه ينبغي لبيعتي ألا تكون خفياً، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين قال: فقال سالم بن أبي الجعد: فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: فلقد كرهت أن يأتي المسجد كراهية أن يشغب عليه، وأبى هو إلا المسجد، فلما دخل المسجد جاء المهاجرون والأنصار فبايعوا وبايع الناس^(٢).

ومن هذه الآثار الصحيحة بعض الدروس والعبر والفوائد، منها:

١- نصرة علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه، ودفاعه عنه وهذا متواتر عن علي رضي الله عنه، بل كان أكثر الناس دفاعاً عن عثمان رضي الله عنه، جاء ذلك بأسانيد كثيرة وشهد بذلك مروان بن الحكم حيث قال: ما كان في القوم أذفع عن صاحبنا من صاحبكم، يعني علياً عن عثمان رضي الله عنه^(٣).

٢- زهد علي رضي الله عنه في الخلافة وعدم طلبه لها أو طمعه فيها، واعتزاله في بيته حتى جاءه الصحابة يطلبون البيعة.

٣- إجماع الصحابة من المهاجرين والأنصار والناس عامة في المدينة على بيعته، ويدخل في هؤلاء أهل الحل والعقد، وهم الذين قصدوا علياً رضي الله عنه

(١) «كتاب السنة» لأبي بكر الخلال ص(٤١٥).

(٢) الخلال في السنة» ص (٤١٦) رجال الإسناد ثقات.

(٣) «بيعة علي بن أبي طالب»، أم مالك الخالدي ص (٢) نقلاً عن «تاريخ الذهبي» عهد الخلفاء الراشدين، ص(٤٦٠)، وإسناده قوي .

وطلبوا منه أن يوافق على البيعة، وألحوا عليه حتى قبلها، وليس للغوغاء وقتلة عثمان رضي الله عنه، كما في بعض الروايات الضعيفة والموضوعة.

٤- إن علياً رضي الله عنه كان أحق الناس بالخلافة يومئذ ويدل على ذلك قصد الصحابة له، وإلحاحهم عليه؛ ليقبل البيعة، وتصريحهم بأنهم لا يعلمون أحق منه بالخلافة يومئذ.

٥- أهمية الخلافة، ولذلك رأينا أن الصحابة أسرعوا في تولية علي رضي الله عنه، وكان علي يقول: لولا الخشية على دين الله لم أجبهم (١).

٦- إن الشبهة التي أدخلوها على بيعة علي رضي الله عنه، كون الخوارج الذين حاصروا عثمان رضي الله عنه، وشارك بعضهم في قتله، كانوا في المدينة وأنهم أول من بدؤوا بالبيعة وأن طلحة والزبير بايعا مكرهين، وهذه أقاويل المؤرخين، لا تقوم على أساس وليس لها مسند صحيح، والصحيح أنه لم يجد الناس بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنه، كالرابع قدرًا وعلماً وتقياً ودينًا، وسبقًا وجهادًا، فعزم عليه المهاجرون والأنصار، ورأى ذلك فرضًا عليه، فانقاد إليه، ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلي رضي الله عنه؛ لأدى ذلك إلى فتن واختلافات في جميع الأقطار الإسلامية، فكان من مصلحة المسلمين أن يقبل علي رضي الله عنه البيعة مهما كانت الظروف المحيطة بها، ولم يتخلف عن علي رضي الله عنه أحد من الصحابة الذين كانوا بالمدينة، وقد خلط الناس بين فقد تخلف الصحابة عن المسير معه إلى البصرة وبين البيعة، أما البيعة فلم يتخلفوا عنها، وأما المسير معه فقد تخلفوا عنه؛ لأنها كانت مسألة اجتهادية (٢)، كما أن علياً لم يلزمهم بالخروج معه كما سيأتي التفصيل بإذن الله عند حديثنا عن الجمل.

٧- لا بد من الحذر من مبالغات الإخباريين التي تزعم أن المدينة بقيت خمسة أيام بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وأميرها الغافقي بن حرب، وظل أهلها

(١) «فتح الباري» (٧٥/١٣)، وإسناده صحيح، «بيعة علي» ص (١٠٥).

(٢) «المدينة النبوية»، لمحمد شراب (٣١١/٢).

يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه^(١)، وتزعم أن الغوغاء من مصر عرضت الأمر على عليّ رضي الله عنه فرفضه، وأن خوارج الكوفة عرضوا الخلافة على الزبير، فلا يجدونه، ومن جاء من البصرة عرضوا على طلحة البيعة، فهذا لا يثبت أمام الروايات الصحيحة، ولا يصح إسناده^(٢)، كما أن المعروف تمكن الصحابة من المدينة وقدرتهم على القضاء على الغوغاء لولا طلب عثمان رضي الله عنه بالكف عن استخدام القوة ضدهم، وقد فصلت ذلك في كتابي «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان» والصحيح أن بيعة علي رضي الله عنه كانت عن طواعية واختيار من المسلمين وليس لأهل الفتنة دور في مبايعة عليّ رضي الله عنه، وإنما كل من كان من الصحابة في المدينة^(٣) هم الذين اختاروا أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه.

٨- بلغت الروايات الصحيحة والشواهد في بيعة علي إحدى عشرة رواية^(٤)، كما سيأتي تفصيل بعضها بإذن الله.

ثانياً: أحقية علي بالخلافة:

إن أحق الناس بالخلافة بعد أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم هو عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، وهذا ما يجب على المسلم اعتقاده والديانة لله به في شأن ترتيب الخلافة الراشدة.

وقد ورد الإيماء إلى أحقية خلافة عليّ رضي الله عنه في كثير من النصوص الشرعية منها:

١- قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (النور: ٥٥) ووجه الاستدلال بها على أحقية خلافة عليّ رضي الله عنه أنه أحد المستخلفين في الأرض الذين مكن الله لهم دينهم.

(١) «تاريخ الطبري» (٤/٤٣٢).

(٢) «استشهاد عثمان ووقعة الجمل» د. خالد الغيث ص (١٣٦ إلى ١٤٠).

(٣) «استشهاد عثمان» ص (٢٤٠).

(٤) «بيعة علي بن أبي طالب» ص (١٢٢).

٢- قوله عليه السلام : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ»^(١). ووجه الدلالة في هذا الحديث على أحقية خلافة علي رضي الله عنه أنه أحد الخلفاء الراشدين المهديين الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وحافظوا على حدود الله، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وساروا بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في العدل وإقامة الحق.

٣- قوله عليه السلام : «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء»^(٢). وفي هذا الحديث إشارة إلى أحقية علي رضي الله عنه حيث إن خلافته كانت آخر الثلاثين من مدة خلافة النبوة التي حددها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث وبموجب هذا قال أهل العلم^(٣)، قال أحمد بن حنبل: حديث سفينة في الخلافة صحيح وإليه أذهب في الخلفاء^(٤)، وقال عبدالله بن أحمد: قلت لأبي: إن قوماً يقولون إنه ليس بخليفة، قال: هذا قول سوء رديء فقال: أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون له: يا أمير المؤمنين أفنكذبهم وقد حج وقطع ورجم؟ أفلا يكون هذا إلا خليفة؟^(٥).

وقال ابن تيمية في حديث سفينة: وهو حديث مشهور من رواية حماد ابن سلمة وعبد الوارث بن سعيد والعوام بن حوشب عن سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه أهل السنن كأبي داود وغيره واعتمد عليه الإمام أحمد وغيره في تقرير خلافة الخلفاء الراشدين الأربعة، وثبته أحمد واستدل به على من توقف في خلافة علي رضي الله عنه من أجل افتراق الناس عليه حتى قال أحمد: من لم يُرَبِّع بعلي في الخلافة فهو أضل من حمار أهله ونهى عن مناكحته^(٦).

(١) «سنن أبي داود» (٢٠١/٤)، و«الترمذي» (٤٤/٥) حسن صحيح.

(٢) «صحيح ابن حبان» رقم (٦٦٥٧)، والطبراني في «الكبير» (٦٤٤٢)، و«السلسلة الصحيحة» للألباني (٧٤٢/١) - (٧٤٩).

(٣) «عقيدة أهل السنة والجماعة» (٦٨٦/٢). (٤) «السنة» لعبد الله بن حنبل ص (٢٣٥).

(٥) المصدر نفسه ص (٢٣٥)، «عقيدة أهل السنة في الصحابة» (٦٨٦/٢).

(٦) هذه الرسالة بالمكتبة الظاهرية بخطه في مسودته نقلاً عن «عقيدة أهل السنة والجماعة» (٢٨٦/٢).

وقال شارح الطحاوية : ونسبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنه لما قتل عثمان وبايع الناس علياً صار إماماً حقاً ، واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة ، كما دل عليه حديث سفينة أنه قال : قال رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم : «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتي الله ملكه من يشاء»^(١) .

٤- عن عكرمة : قال لي ابن عباس ولابنه علي رضي الله عنهما : انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه ، فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه ، فأخذ رداءه فاحتبى ، ثم أنشأ يحدثنا حتى أتى على ذكر بناء المسجد فقال : كنا نحمل لبنة لبنة وعمار لبنتين فرآه النبي صلوات الله عليه وآله وسلم ، فينفض التراب عنه ويقول : «ويح^(٢) عمار تقتله الفئة الباغية يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار» ، قال : يقول عمار : أعوذ بالله من الفتن^(٣) ، وفي رواية مسلم عن أبي سعيد قال لعمار حين جعل يحفر الخندق وجعل يمسح رأسه ويقول : «بؤسي^(٤) ابن سمية تقتلك فئة باغية»^(٥) قال ابن تيمية : بعد ذكره لقوله صلوات الله عليه وآله وسلم : «تقتل عماراً الفئة الباغية»^(٦) : وهذا يدل على صحة إمامة علي ووجوب طاعته وأن الداعي إلى طاعته داع إلى الجنة والداعي إلى مقاتلته داع إلى النار وإن كان متأولاً ، أو باغ بلا تأويل وهو أصح القولين لأصحابنا وهو الحكم بتخطئة من قاتل علياً رضي الله عنه وهو مذهب الأئمة الفقهاء الذين فرعوا على ذلك قتال البغاة المتأولين ، وعندما أنكر يحيى بن معين على الشافعي استدلاله بسيرة علي رضي الله عنه في قتال البغاة المتأولين قال : أيجعل طلحة والزبير معا بغاة؟ رد عليه الإمام أحمد فقال : ويحك وأي شيء يسعه أن يصنع في هذه المقام؟ يعني : إن لم يقتد بسيرة علي في ذلك لم يكن معه سنة من الخلفاء الراشدين في قتال البغاة - إلى أن قال - ولم يتردد أحمد ولا أحد من أئمة السنة في أنه غير علي

(١) «شارح الطحاوية» ص(٥٤٥) ، و«السلسلة الصحيحة» (١/٧٤٢-٧٤٩) .

(٢) ويح : كلمة رحمة تقال لمن وقع فيهلكة لا يستحقها ، والويح : ترحم ، «غريب الحديث» لابن الجوزي (٢/٤٨٦) ، و«لطائف في غريب الحديث» (٤/٨٥) ، و«النهاية في غريب الحديث» (٥/٢٣٥) .

(٣) «البخاري» رقم (٤٤٧) .

(٤) كأنه ترحم له من الشدة التي يقع فيها .

(٥) «مسلم» رقم (٢٢٣٥) .

(٦) «مسلم» رقم (٢٢٣٥) .

أولى بالحق منه^(١)، فلو قال قائل: إن قتل عمار كان بصفين، وهو مع علي والذين قتلوه مع معاوية وكان معه جماعة من الصحابة فكيف يجوز عليهم الدعاء إلى النار؟، فالجواب أنهم كانوا ظانين أنهم يدعون إلى الجنة وهم مجتهدون لا لوم عليهم في اتباع ظنونهم، فالمراد بالدعاء إلى الجنة الدعاء إلى سببها وهو طاعة الإمام، وكذلك كان عمار يدعوهم إلى طاعة علي عليه السلام وهو الإمام الواجب الطاعة إذ ذاك، وكانوا هم يدعون إلى خلاف ذلك؛ لكونهم معذورون للتأويل الذي ظهر لهم^(٢).

قال النووي بعد قوله عليه السلام: «بؤسي ابن سمية تقتلك فئة باغية»^(٣) قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن علياً عليه السلام كان محقاً مصيباً، والطائفة الأخرى بغاة لكنهم مجتهدون فلا إثم عليهم في ذلك.. وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله عليه السلام من أوجه: منها: أن عماراً يموت قتيلاً وأنه يقتله مسلمون وأنهم بغاة، وأن الصحابة يقاتلون وأنهم يكونون فرقتين باغية وغيرها، وكل هذا وقع مثل فلق الصبح عن رسول الله عليه السلام الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى^(٤).

٥- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه السلام: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق». وفيه أيضاً: أنه قال: «تكون في أمتي فرقتان فتخرج من بينهما مارقة يلي قتلهم أولا هم بالحق»، وفي لفظ: قال: «تمرق مارقة في فرقة من الناس فيلي قتلهم أولى الطائفتين بالحق». وجاء بلفظ: «يخرجون على فرقة مختلفة يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق»^(٥)، فقوله عليه السلام: «على حين فرقة» - بضم الفاء - أي: في وقت افتراق الناس أي: افتراق يقع بين

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/٤٣٧ - ٤٣٨).

(٢) «فتح الباري» (١/٥٤٢).

(٣) «مسلم» رقم (٢٢٣٥).

(٤) «شرح النووي علي صحيح مسلم» (١٨/٤٠ - ٤١).

(٥) هذه الأحاديث في «صحيح مسلم» (٢/٧٤٥ - ٧٤٦).

المسلمين وهو الافتراق الذي كان بين علي ومعاوية رضي الله عنهما (١)، والمراد بالفرقة المارقة هم أهل النهروان كانوا في عسكر علي رضي الله عنه في حرب صفين، فلما اتفق علي ومعاوية رضي الله عنهما على تحكيم الحكمين خرجوا وقالوا: إن علينا ومعاوية رضي الله عنهما استبقا إلى الكفر كفرسي رهان، فكفر معاوية بقتال علي ثم كفر علي بتحكيم الحكمين وكفروا طلحة والزبير؛ فقتلتها الطائفة الذين كانوا مع علي رضي الله عنه، وقد شهد النبي صلوات الله عليه وآله أن الطائفة التي تقتلهم أقرب إلى الحق وهذا شهادة من النبي صلوات الله عليه وآله لعلي وأصحابه بالحق، وهذا من معجزات النبي صلوات الله عليه وآله لكونه أخبر بما يكون فكان علي ما قال، وفيه دلالة واضحة على صحة خلافة علي رضي الله عنه وخطأ من خالفه (٢).

ثالثاً: بيعة طلحة والزبير رضي الله عنهما:

عن أبي بشير العابدي قال: كنت بالمدينة حين قتل عثمان رضي الله عنه واجتمع المهاجرون والأنصار فيهم طلحة والزبير فأتوا علياً رضي الله عنه، فقالوا: يا أبا الحسن هلم نبايعك، فقال: لا حاجة لي في أمركم أنا معكم، فمن اخترتم فقد رضيت به.. فاختاروا والله فقالوا: ما نختار غيرك (٣).. إلخ الرواية، وفيها تمام البيعة لعلي رضي الله عنه والروايات في هذا كثيرة ذكر بعضها ابن جرير في تاريخه (٤)، وهي دالة على مبايعة الصحابة رضي الله عنهم لعلي رضي الله عنه واتفاقهم على بيعته بما فيهم طلحة والزبير، كما جاء مصرحاً به في الرواية السابقة وأما ما جاء في بعض الروايات من أن طلحة، والزبير بايعا مكرهين فهذا لا يثبت بنقل صحيح، والروايات الصحيحة على خلافه (٥)، فقد روى الطبري عن عوف بن أبي جميلة قال: أما

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٦٦/٧).

(٢) «منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين» لابن قدامة ص (٧٥-٧٦) نقلاً عن «عقيدة أهل السنة والجماعة» (٦٨٣/٢).

(٣) «تاريخ الطبري» (٤٤٩/٥)، وإسناد الرواية حسن لغيره «حملة رسالة الإسلام الأولون» محب الدين الخطيب ص (٥٧).

(٤) انظر: «تاريخ الطبري» (٤٤٨-٤٥٠) وقد قام بجمع هذه الروايات ودرسها الدكتور محمد أمحزون «تحقيق مواقف الصحابة» (٧٥-٥٩/٢).

(٥) «الانتصار للصحب والآل» ص (٢٣٦).

أنا فأشهد أنني سمعت محمد بن سيرين يقول: إن علياً عليه السلام جاء فقال لطلحة: ابسط يدك يا طلحة لأبايعك. فقال طلحة: أنت أحق، وأنت أمير المؤمنين، فابسط يدك، فبسط علي يده فبايعه^(١)، وعن عبد خير الخيواني أنه قام إلى أبي موسى فقال: يا أبا موسى، هل كان هذان الرجلان - يعني طلحة والزبير - ممن بايع علياً؟ قال: نعم^(٢)، كما نص على بطلان ما يدعي من أنهما بايعا مكرهين، الإمام المحقق ابن العربي وذكر أن هذا مما لا يليق بهما، ولا بعلي قال - رحمه الله - : فإن قيل: بايعا مكرهين «أي طلحة والزبير»، قلنا: حاشا لله أن يكرها، لاهما، ولا من بايعاه ولو كانا مكرهين ما أثر ذلك؛ لأن واحد واثنين تنعقد البيعة بهما وتمم - وهذا اجتهاد مردود - ومن بايع بعد ذلك فهو لازم له، وهو مكره على ذلك شرعا، ولو لم يبايعا ما أثر ذلك فيهما، ولا في بيعة الإمام وأما من قال: يد شلاء وأمر لا يتم^(٣)، فذلك ظن من القائل أن طلحة أول من بايع ولم يكن كذلك، فإن قيل: فقد قال طلحة: بايعت واللج على قفي، قلنا: اخترع هذا الحديث من أراد أن يجعل في (القفا) لغة (قفي)، كما يجعل في (الهوى) (هوي) وتلك لغة هذيل لا قريش^(٤)، فكانت كذبة لم تدبر، وأما قولهم: (يد شلاء) لو صح فلا متعلق لهم فيه، فإن يدا شلت في وقاية رسول الله صلى الله عليه وسلم يتم لها كل أمر، ويتوقى بها من كل مكروه، وقد تم الأمر على وجهه، ونفذ القدر بعد ذلك على حكمه^(٥)، إن الروايات التي تقول بأن طلحة والزبير أكرها على البيعة باطلة^(٦)، وهناك روايات صحيحة أشارت كما ذكرت إلى بيعتهما لعلي عليه السلام وهناك رواية صحيحة أوردها ابن حجر^(٧)، من طريق

(١) «تاريخ الطبري» (٤٥٦/٥)، و«الانتصار للصحب والآل» ص (٢٣٦). (٢) المصدر نفسه (٥١٧/٥).

(٣) إشارة إلى ما جاء في بعض الروايات: أن أول من بايع علياً طلحة عليه السلام وكان بيده اليمنى شلل؛ لما وقى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فقال رجل في القوم: أول يد بايعت أمير المؤمنين شلاء لا يتم هذا الأمر، «تاريخ الطبري» (٤٥٧/٥)، و«البداية والنهاية» (٢٣٧/٧).

(٤) وقيل: لغة طيئ؛ ذكره ابن الأثير في «النهاية» (٩٤/٤) وكذلك اللج ليس من لغة قريش بل من لغة طيئ، قال ابن الأثير: هو بالضم: السيف بلغة طيئ «النهاية» (٢٣٤/٤) وقيل: هو السيف بلغة هذيل وطوائف من اليمن

(٥) «العواصم من القواصم» ص (١٤٨ - ١٤٩).

(٦) «لسان العرب» (٣٥٤/٢).

(٧) «فتح الباري» (٣٨/١٣).

(٨) «استشهاد عثمان» ص (١٤١).

الأحنف بن قيس وفيها: إن عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم قد أمروا الأحنف بمبايعة علي رضي الله عنه بعدما استشارهم في من يبائع بعد عثمان رضي الله عنه (١).

إن سابقة علي رضي الله عنه وفضله، والتزامه بأحكام الكتاب والسنة، وتمسكه الشديد بالعمل بهما، وتعهدده في خطبه بتطبيق الأوامر والنواهي الشرعية، ما كان ليفتح لأحد باب الطعن في ولايته على المسلمين، ويمكن القول إن علياً رضي الله عنه كان أقوى المرشحين للإمامة بعد مقتل عمر رضي الله عنه فالفاروق عينه في الستة الذين أشار بهم، وهو واحد منهم، على أن الأربعة من رجال الشورى، وهم عبد الرحمن، وسعد، وطلحة والزبير بتنازلهم عن حقهم فيها له ولعثمان رضي الله عنه تركوا المجال مفتوحاً أمام الاثنين، فلم يبقى إلا هو وعثمان رضي الله عنه، وهذا إجماع من أهل الشورى على أنه لولا عثمان لكانت لعلي رضي الله عنه، وقد حدث ذلك بعد موت عثمان رضي الله عنه، وقد قدمه ورجحه أهل دار الهجرة فصار مستحقاً للخلافة، على أنه لم يكن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الموجودين في ذلك الحين أحق بالخلافة منه رضي الله عنه، فهو من السابقين والمهاجرين الأولين، وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصهره، بالإضافة إلى ذلك له من القدرة والكفاءة ما لا ينكر، وله من الشجاعة، والإقدام والذكاء والعقلية القضائية النادرة، والحزم في المواقف، والصلابة في الحق، وبعد نظره في تصريف الأمور، فكل هذه العوامل تجعله بلا منازع المرشح الوحيد لإمامة المسلمين في تلك الفترة الحساسة من حياتهم (٢)، ومع هذا كله فإن خلافته صحت بعدما انعقد إجماع المهاجرين والأنصار عليه ومبايعتهم له.

رابعاً: انعقاد الإجماع على خلافة علي رضي الله عنه:

انعقد إجماع أهل السنة والجماعة على أن علياً رضي الله عنه كان متعينا للخلافة بعد عثمان رضي الله عنه؛ لبيعة المهاجرين والأنصار له لما رأوا لفضله على من بقي من الصحابة، وأنه أقدمهم إسلاماً، وأوفرهم علماً، وأقربهم بالنبي صلى الله عليه وسلم نسباً،

(١) «استشهاد عثمان» ص (١٤١)، و«المصنف» لابن أبي شيبة (١١٨/١١) ورجاله رجال الصحيح عدا عمر بن

جاوان مقبول، وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (٣٤/١٣-٥٧).

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (٩١-٩٢).

وأشجعهم نفساً، وأحبهم إلى الله ورسوله وأكثرهم مناقب، وأفضلهم سوابق وأرفعهم درجة وأشرفهم منزلة وأشبههم برسول الله صلى الله عليه وسلم هدياً وسمتاً، فكان رضي الله عنه متعيناً للخلافة دون غيره، وقد قام من بقي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعقد البيعة له بالخلافة بالإجماع، فكان حينئذ إماماً حقاً وجب على سائر الناس طاعته، وحرّم الخروج عليه ومخالفته، وقد نقل الإجماع على خلافته كثير من أهل العلم منهم:

١- نقل محمد بن سعد إجماع من له قدم صدق وسابقة في الدين ممن بقي من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة على بيعة علي رضي الله عنه حيث قال: وبويع لعلي ابن أبي طالب رحمه الله بالمدينة الغد من يوم قتل عثمان رضي الله عنه بالخلافة بايعه طلحة والزبير، وسعد ابن أبي وقاص وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمار ابن ياسر، وأسامة بن زيد، وسهل بن حنيف، وأبو أيوب الأنصاري ومحمد ابن مسلمة وزيد بن ثابت، وخزيمة بن ثابت وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم^(١).

٢- وذكر ابن قدامة رحمه الله أن الإمام أحمد رحمه الله روى بإسناده عن عبدالرزاق عن محمد بن راشد عن عوف قال: كنت عند الحسن فكان رجلاً انتقص أبا موسى باتباعه علياً فغضب الحسن ثم قال: سبحان الله قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فاجتمع الناس على خيرهم فبايعوه أفيلام أبو موسى باتباعه؟^(٢).

٣- وقال أبو الحسن الأشعري: وثبتت إمامة علي بعد عثمان رضي الله عنه بعقد من عقد له من الصحابة من أهل الحل والعقد؛ لأنه لم يدع أحد من أهل الشورى غيره في وقته، وقد اجتمع على فضله وعدله، وأن امتناعه عن دعوى الأمر لنفسه في وقت الخلفاء قبله كان حقاً لعلمه أن ذلك وقت قيامه، ثم لما صار الأمر إليه أظهر

(١) «الطبقات» الكبرى (٣/٣١).

(٢) «منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين» ص (٧٧-٧٨) نقلاً عن «عقيدة أهل السنة في الصحابة

وأعلن ولم يقصر حتى مضى على السداد والرشاد، كما مضى من قبله من الخلفاء وأئمة العدل على السداد والرشاد متبعين لكتاب ربهم وسنة نبيهم، هؤلاء الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم ﷺ (١).

٤- وقال أبو نعيم الأصبهاني: فلما اختلف الصحابة كان على الذين سبقوا إلى الهجرة السابقة والنصرة والغيرة في الإسلام للذين اتفقت الأمة على تقديمهم لفضلهم في أمر دينهم وديانهم، لا يتنازعون فيهم ولا يختلفون فيمن أولي بالأمر من الجماعة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة في العشرة من توفي وهو عنهم راضٍ، فسلم من بقي من العشرة الأمر لعليّ ﷺ، ولم ينكر أنه من أكمل الأمة ذكراً وأرفعهم قدراً لقديم سابقته وتقدمه في الفضل والعلم، وشهوده المشاهد الكريمة يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله ويحبه المؤمنون ويغضه المنافقون لم يصنع منه تقديم من تقدمه من أصحاب رسول الله ﷺ؛ بل ازداد به ارتفاعاً لمعرفته بفضل من قدمه على نفسه إذ كان ذلك موجوداً في الأنبياء والرسول عليهم السلام قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣). فلم يكن تفضيل بعضهم على بعض بالذي يضع من هو دونه فكل الرسل صفوة الله - عز وجل - وخيرته من خلقه، فتولى أمر المسلمين عادلاً زاهداً آخذاً في سيرته بمنهاج الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ حتى قبضه الله عز وجل - شهيداً هادياً مهدياً سلك بهم السبيل المستبين والصراف المستقيم (٢).

٥- وقال أبو منصور البغدادي: أجمع أهل الحق والعدل على صحة إمامة عليّ ﷺ وقت انتصابه لها بعد قتل عثمان ﷺ (٣).

٦- وقال الزهري: .. وكان قد وفى بعهد عثمان حتى قتل، وكان أفضل

(١) «الإبانة عن أصول الديانة» ص (٧٨)، و«مقالات الإسلاميين» (٣٤٦/١).

(٢) «كتاب الإمامة والرد على الرافضة» ص (٣٦٠-٣٦١).

(٣) «كتاب أصول الدين» ص (٢٨٦-٢٨٧).

من بقي من الصحابة فلم يكن أحد أحق بالخلافة منه، ثم لم يستبد بها مع كونه أحق الناس بها حتى جرت له بيعة، وبايعه مع سائر الناس من بقي من أصحاب الشورى^(١).

٧- وقال عبد الملك الجويني: وأما عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فسبيل إثبات إمامتهم وإجماعهم لشرائط الإمامة كسبيل إثبات إمامة أبي بكر، ومرجع كل قاطع في الإمامة إلى الخبر المتواتر والإجماع. . ولا اكتراث بقول من يقول: لم يحصل إجماع على إمامة علي رضي الله عنه؛ فإن الإمامة لم تجحد له وإنما هاجت الفتن لأمر آخر^(٢).

٨- وقال أبو عبد الله بن بطة: كانت بيعة علي رحمه الله بيعة اجتماع ورحمة لم يدع إلى نفسه ولم يجبرهم على بيعته بسيفه، ولم يغلبهم بعشيرته، ولقد شرف الخلافة بنفسه وزانها بشرفه وكساها حلة البهاء بعدله ورفعها بعلو قدره، ولقد أبأها فأجبروه، وتقاوس عنها فأكرهوه^(٣).

٩- وقال الغزالي: وقد أجمعوا على تقديم أبي بكر، ثم نص أبو بكر على عمر، ثم أجمعوا بعده على عثمان، ثم على علي رضي الله عنه، وليس يظن منهم الخيانة في دين الله - تعالى - لغرض من الأغراض وكان إجماعهم على ذلك من أحسن ما يستدل به على مراتبهم في الفضل، ومن هذا اعتقد أهل السنة هذا الترتيب في الفضل، ثم بحثوا عن الأخبار فوجدوا فيها ما عرف مستند الصحابة وأهل الإجماع في هذا الترتيب^(٤).

١٠- قال أبو بكر بن العربي: فلما قضى الله من أمره ما قضى، ومضى في قدره ما مضى علم أن الحق لا يترك الناس سدى، وأن الخلق بعده مفتقرون إلى خليفة مفروض عليهم النظر فيه، ولم يكن بعد الثلاثة كالرابع قدرًا وعلماً وتقى

(١) «الاعتقاد» ص (١٩٣).

(٢) يقصد القصاص من قتلة عثمان «كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد» ص (٣٦٢-٣٦٣).

(٣) «لوامع الأنوار البهية» للسفاريني (٢/٣٤٦)، و«عقيدة أهل السنة» (٢/٦٩٢).

(٤) «الاعتقاد في الاعتقاد» ص (١٥٤).

ودينا فانعددت له البيعة ولولا الإسراع بعقد البيعة لعلي رضي الله عنه لجري على من بها من الأوباش ما لا يرقع خرقه ولكن عزم عليه المهاجرون والأنصار ورأى ذلك فرضاً عليه فانقاد إليه^(١).

١١- وقال ابن تيمية: واتفق أصحاب رسول الله صلوات الله عليه على بيعة عثمان بعد عمر وثبت عن النبي صلوات الله عليه أنه قال: «عليكم بستتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»^(٢). فكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه آخر الخلفاء الراشدين المهديين، وقد اتفق عامة أهل السنة من العلماء والعباد والأمراء والأجناد على أن يقولوا: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنه^(٣).

١٢- وقال ابن حجر: وكانت بيعة علي بالخلافة عقب قتل عثمان رضي الله عنه في أوائل ذي الحجة سنة خمس وثلاثين فبايعه المهاجرون والأنصار، وكل من حضر وكتب بيعته إلى الآفاق فأذعنوا كلهم إلا معاوية في أهل الشام فكان بينهم بعد ما كان^(٤). والذي نستفيده من هذه النقول المتقدمة للإجماع أن خلافة علي رضي الله عنه محل إجماع على أحقيتها وصحتها في وقت زمانها، وذلك بعد قتل عثمان رضي الله عنه حيث لم يبق على الأرض أحق بها منه رضي الله عنه، فقد جاءت به رضي الله عنه على قدر في وقتها ومحلها^(٥)، وقد اعترض بعض الناس على الإجماع على خلافة علي رضي الله عنه من وجوه:

- (١) تخلف عنه من الصحابة جماعة منهم سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن مسلمة، وابن عمر وأسامة بن زيد رضي الله عنهم، وسواهم من نظرائهم^(٦).
- (٢) إنما بايعوه على أن يقتل قتلة عثمان^(٧).

(١) «العواصم من القواصم» ص (١٤٢).

(٢) «سنن أبي داود» (٢٠١/٤)، و«الترمذي» (٤٤/٥) حسن صحيح.

(٣) «الوصية الكبرى» ص (٢٣).

(٤) «فتح الباري» (٧٢/٧).

(٥) «عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة» (٦٩٣/٢).

(٦) المصدر السابق ص (١٤٥).

(٧) «العواصم من القواصم» ص (١٤٦-١٤٧).

(٣) إن أهل الشام - معاوية ومن معه - لم يبايعوه بل قاتلوه^(١).

وهذه الاعتراضات لا تأثير لها على الإجماع المذكور، ولا توجب معارضته وذلك لأنها مردودة من وجوه:

الوجه الأول: إن دعوى أن جماعة من الصحابة تخلفوا عن بيعته دعوى غير صحيحة؛ إذ أن بيعته لم يتخلف عنها، وأما نصرته فتخلف عنها قوم منهم من ذكر؛ لأنها كانت مسألة اجتهادية فاجتهد كل واحد وأعمل نظره وأصاب قدره^(٢)، وأما ما قاله ابن خلدون: إن الناس كانوا عند مقتل عثمان رضي الله عنه مفتريقين في الأمصار، فلم يشهدوا بيعة علي رضي الله عنه، والذين شهدوا فمنهم من بايع ومنهم من توقف حتى يجتمع الناس ويتفقوا على إمام كسعد وسعيد وابن عمر... إلخ^(٣)، وما ذكر مبالغة من ابن خلدون رحمه الله، أما سعد بن أبي وقاص، فقد نقل بيعته ابن سعد، وابن حبان، والذهبي^(٤)، وغيرهم، وكذلك البقية قد بايعوا كما ذكرنا الإجماع في ذلك فيمن حضر من الصحابة في المدينة، على أن ابن خلدون نفسه نقل اتفاق أهل العصر الثاني من بعد الصحابة في المدينة، على انعقاد بيعة علي رضي الله عنه ولزومها للمسلمين أجمعين، وقد نقلت ما قاله ابن خلدون؛ لأن كثيراً من الكتاب والباحثين اعتمدوا عليه فيما بعد.

الوجه الثاني: إن عقد الخلافة ونصب إمام واجب لا بد منه، ووقف ذلك على حضور جميع الأمة واتفاقهم مستحيل متعذر فلا يجوز اشتراطه؛ لإفشاء ذلك إلى انتفاء الواجب ووقوع الفساد اللازم من انتقائه^(٥).

الوجه الثالث: إن الإجماع حصل على بيعة أبي بكر بمبايعة الفاروق وأبي عبيدة رضي الله عنهما ومن حضرهم من الأنصار مع غيبة علي وعثمان رضي الله عنهما وغيرهما من

(١) «عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة» (٢/٦٩٥).

(٢) «التمهيد» للباقلاني ص (٢٣٣-٢٣٤)، و«العواصم من القواصم» ص (١٤٧). (٣) «المقدمة» ص (٢١٤).

(٤) «الطبقات» (٣/٣١)، و«الثقات» (٢/٢٦٨)، و«دول الإسلام» (١/١٤)، و«عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث

الفتنة في صدر الإسلام»، ص (١٧١، ١٧٢).

(٥) «منهاج القاصدين في فضل الخلفاء الراشدين» ص (٧٦-٧٧) نقلاً عن «عقيدة أهل السنة».

الصحابة وكذلك حصل الإجماع على خلافة علي بمبايعة سعد بن أبي وقاص وابن عمر وأسامة بن زيد وعمار رضي الله عنهم، ومن حضر من البدرين وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، ولا يضر هذا الإجماع من غاب عن البيعة أولم يبايعه من غيرهم رضي الله عنهم جميعاً، قال الحسن البصري: والله ما كانت بيعة علي إلا كبيعة أبي بكر وعمر رضي الله عنهم (١).

الوجه الرابع: إن دعوى أنه إنما بويع علي أن يقتل قتلة عثمان رضي الله عنه: هذا لا يصح في شرط البيعة، وإنما يبايعونه على الحكم بالحق وهو أن يحضر الطالب للدم، ويحضر المطلوب وتقع الدعوى ويكون الجواب وتقوم البيعة ويقع الحكم (٢) بعد ذلك.

وأما الروايات التي تزعم أن طلحة والزبير وبعض الصحابة رضي الله عنهم قد اشترطوا في بيعتهم لعلي رضي الله عنه إقامة الحدود، فهذا الخبر على ضعف سنده فإن في متنه مقالاً (٣)، وفي ذلك يقول ابن العربي: فإن قيل: بايعوه علي أن يقتل قتلة عثمان رضي الله عنه، قلنا: هذا لا يصح في شرط البيعة (٤).

الوجه الخامس: إن معاوية رضي الله عنه لم يقاتل علياً رضي الله عنه على الخلافة ولم ينكر إمامته وإنما كان يقاتل من أجل إقامة الحد الشرعي على الذين اشتركوا في قتل عثمان، مع ظنه أنه مصيب في اجتهاده ولكنه كان مخطئاً في اجتهاده ذلك فله أجر الاجتهاد فقط (٥).

وقد ثبت بالروايات الصحيحة أن خلافة مع علي رضي الله عنه كان في قتل قتلة عثمان ولم ينازعه في الخلافة، بل كان يقر له بذلك، فعن أبي مسلم الخولاني أنه جاء وأناس معه إلى معاوية رضي الله عنه وقالوا: أنت تنازع علياً رضي الله عنه أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالأمر مني، ولكن أستم

(٢) المصدر نفسه (٢/٦٩٦).

(١) «عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة» (٢/٦٩٦).

(٤) «العواصم من القواصم» ص (١٥٠).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٤٥٩، ٤٦٠).

(٥) المصدر نفسه (٢/٦٩٦).

تعلمون أن عثمان رضي الله عنه قتل مظلوماً، وأنا ابن عمه والطالب بدمه فأتوه، فقولوا له فليدفع إلي قتلة عثمان رضي الله عنه وأسلم له؟، فأتوا علياً رضي الله عنه فكلّموه فلم يدفعهم إليه^(١)، ويروي ابن كثير من طرق ابن ديزيل بسنده إلى أبي الدرداء وأبي أمامة رضي الله عنهما: أنهما دخلا على معاوية فقالا له: يا معاوية علام تقاتل هذا الرجل؟ فوالله إنه أقدم منك ومن أبيك إسلاماً، وأقرب منك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق بهذا الأمر منك، فقال: أقاتله على دم عثمان رضي الله عنه، وإنه آوى قتلته، فاذها إلى فقولاً له: فليقدنا من قتلة عثمان رضي الله عنه، ثم أنا أول من أبايعه من أهل الشام^(٢)، والروايات في هذا كثيرة مشهورة بين العلماء^(٣)، وهي دالة على عدم منازعة معاوية لعلي رضي الله عنه في الخلافة ولهذا نص المحققون من أهل العلم على هذه المسألة وقرروها^(٤)، يقول إمام الحرمين الجويني: إن معاوية وإن قاتل علياً رضي الله عنه فإنه لا ينكر إمامته، ولا يدعيها لنفسه، وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظناً منه أنه مصيب وكان مخطئاً^(٥).

ويقول ابن حجر الهيثمي: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أن ما جرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعلي في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعلي كما مر فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية ومن معه طلبوا من علي تسليم قتلة عثمان إليهم؛ لكون معاوية ابن عمه فامتنع علي^(٦).

وسوف نبين موقف علي رضي الله عنه من عدم تسليم قتلة عثمان في حينه وإنما الشاهد هنا هو إثبات عدم مبايعة معاوية ليس اعتراضاً على شخص علي ويقول ابن تيمية: ومعاوية لم يدع الخلافة، ولم يبايع له بها حين قاتل علياً، ولم يقاتل

(١) «البداية والنهاية» (٢٦٥/٧)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (١٤٧/٢).

(٢) «البداية والنهاية» (٢٧٠/٧)، و«الانتصار للصحب والآل» ص ٢٣٩.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٢٦٨/٧-٢٧٠) وقد جمع هذه الروايات الدكتور محمد أمحزون في كتابه، «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (١٤٦/٢-١٥٠).

(٤) «الانتصار للصحب والآل» ص (٢٣٩).

(٥) «لمعة الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة» ص (١١٥).

(٦) «الصواعق المحرقة» نقلاً عن «الانتصار للصحب والآل» ص (٢٣٩).

على أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه . . وكل فرقة من المتشيعين^(١) مقررة مع ذلك بأن معاوية ليس كفاً لعلي بالخلافة، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف عليؑ؛ فإن فضل علي وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معروفة^(٢)، فثبت بهذا أنه لم ينازع علياًؑ أحد في الخلافة لا من الذين خالفوه ولا من غيرهم^(٣)، فهذه الأقوال عن هؤلاء العلماء كلها في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة في ترتيب الخلافة الراشدة، فلا بد من الذود عنها والتبشير وتربية الأجيال عليها، والاعتزاز والافتخار في الانتساب إليها.

خامساً: شروط أمير المؤمنين عليؑ في بيعته وأول خطبة خطبهاؑ:

جاء في بعض الروايات أن أمير المؤمنين علياًؑ اشترط في بيعته أموراً منها، أن تكون البيعة في ملأ وليس في خفية، وفي المسجد وعن رضا المسلمين، وأنه يدير أمرهم كما يراه ويعلمه فوافقوه وتواعدوا صباح اليوم التالي في المسجد للبيعة^(٤)، وكان يوماً حافلاً وحاسماً، فقد خرج أمير المؤمنين وقد لبس ملابسه كاملة، ثم بعد الحمد والثناء على الله، بين للناس المحاولات التي بذلت معه وقال: إنني كنت كارها لأمركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم، ألا وإنه ليس لي أمر دونكم، ألا إن مفاتيح مالكم معي، ألا وإنه ليس لي أن آخذ منه درهماً دونكم^(٥)، ثم قال: يأبىها الناس: إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم وقد افترقنا بالأمس على أمر، فإن شئتم قعدت لكم، وإلا فلا أجد على أحد، ثم رفع صوته قائلاً: رضيتم؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد عليهم وأقبل الناس يبايعونه^(٦)، وبعد أداء البيعة قال أمير المؤمنين: أيها الناس: إنكم بايعتموني على ما بايعتم عليه أصحابي

(١) أي المتشيعين لعثمان أو عليؑ، وقد كان المطالبون بدم عثمانؑ قد انضموا إلى معاوية، وما كانوا يفضلونه على عليؑ.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧٢/٣٥-٧٣).

(٣) «تاريخ الطبري» (٤٤٨/٥)، و«دراسات في عهد النبوة» ص (٢٨١).

(٤) «تاريخ الطبري» (٤٤٩/٥).

(٥) «تاريخ الطبري» (٤٤٩/٥).

فإذا بايعتموني فلا خيار لكم عليّ، وعلى الإمام الاستقامة وعلى الرعية التسليم، وهذه بيعة عامة... إلخ^(١)، ومما مضى دروس وعبر وفوائد منها:

١- مبدأ الشورى:

إن البيعة للخليفة الرابع عليّ رضي الله عنه لم تختلف من حيث مبدأ الشورى عن مثيلاتها السابقة بالرغم من الأزمة التي ألت بالامة، والأحوال المدلهمة والمشكلات المتتابة، فلم تتم البيعة على أساس عشائري، أو أسري أو قبلي، أو على أساس عهد أو وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو وجد شيء من هذا القبيل لما حصل هذا الحوار الطويل، ولما رفض أمير المؤمنين وكان أول من يطالب بحقه. بينما كان الناس هم الذين يدفعونه إلى البيعة دفعا ويلحون عليه في الطلب إلحاحاً وهو يروغ منهم متخلصاً لعله يحدث ما يمنعه من ذلك إلى أن قبل على كره منه، ولم يطالبوه بهذا على أساس وصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم له - ولو وجدوا شيئاً من ذلك لما ترددوا في تنفيذه - ولا على أساس أنه من عبد مناف، أو لأنه من قريش فحسب؛ بل لأنه من السابقين ومن العشر المبشرين بالجنة، ولأنه الثاني بعد عثمان في اختيار الناس لهما عند تطبيق عملية الشورى بعد مقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لا يشير عليه أحد بتنصيب عثمان خليفة بعد عمر إلا سأله لو لم يكن عثمان موجوداً فمن تختار؟ فيقول: عليّ رضي الله عنه (٢).

٢- أهل الحل والعقد في عهد أمير المؤمنين علي:

كان أهل الحل والعقد عند استخلاف أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم وهم بقية العشرة المبشرين ورؤساء بطون الأوس والخزرج وكان هؤلاء من أهل المدينة؛ لأنهم هم السابقون الراسخون في العلم والإيمان^(٣)، وكان عليّ رضي الله عنه يرى أن أمر اختيار الخلافة لمن كان باقياً في المدينة من المهاجرين والأنصار وأهل الحل والعقد

(٢، ١) «دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة» ص (٢٨٢).

(٣) «الخلافة بين التنظير والتطبيق»، لمحمود المرادوي ص (٢٨٨).

من أهل بدر، وأصحاب الشورى، إلا إن الحسن بن عليّ رضي الله عنه كان يرى ضرورة مراعاة الأمور المستجدة في تركيبة المجتمع الإسلامي، وقد بدا ذلك في هذا الحوار بين الحسن بن علي وأبيه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الحسن: قد أمرتك فعصيتني فتقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك، فقال علي: إنك ما زلت تحن حين الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تباع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر^(١). وكان جواب عليّ رضي الله عنه: وأما قولك: لا تباع حتى تأتي بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر^(٢)، على أن علياً رضي الله عنه، كان يرى أن البيعة تجوز في غير أهل المدينة من المهاجرين والأنصار، ولكنه كان يكره أن يتحول ذلك عنهم إلى غيرهم أو أن يشاركهم فيه غيرهم؛ تُقَى وورعاً أن يحدث بعد رسول الله صلوات الله عليه وآله وخلفائه شيئاً يتعد به عن نهجهم وسبيلهم، أو أنه كان يرى أن الوقت ما زال مبكراً على إشراك غير المهاجرين والأنصار في أمور اختيار الحاكم المسلم ولذلك فإنه كان يكره أن يضيع هذا الأمر من المهاجرين والأنصار^(٣)، والدليل على ذلك أنه رضي الله عنه عرض عليه أهل الكوفة بيعة الحسن: قال: لا أنهاكم ولا آمركم وهذا فيه تجويز لغير أهل المدينة في اختيار الحاكم. ونستفيد من الحوار الذي حدث بين الحسن ابن علي وأبيه رضي الله عنه أمور منها:

- أ - احترام الرأي في النقاش من الجانبين.
- ب - لطف المعاملة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لولده.
- ج - صراحة الولد مع والده وإبداء كل ما يراه صواباً في موضوع النقاش.
- د - حسن الاستماع للطرف الثاني، حيث استمع أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، من ابنه الحسن إلى جميع ما عنده من الحجج.
- هـ - تفنيد الحجج واحدة بعد الأخرى تفنيدياً علمياً^(٤).

(١) (٢، ١) «البدية والنهاية» (٧/٢٤٥).

(٢) (٣) «الخلافة بين التنظير والتطبيق» ص (٢٩٣، ٢٩٤).

(٤) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٤٢٧، ٤٢٨).

٣- الحرص على ألا يظل منصب الخليفة شاغراً:

لقد عزم المهاجرون والأئصار بالمدينة على علي رضي الله عنه أن يقبل الخلافة رغماً عنه؛ تداركاً لخطر فساد أمر الأمة واختلاف الناس، فقبل، وحرص على زحزحة الغوغاء خطوة أخرى إلى الوراء، بأن اشترط أن تكون البيعة له علانية في المسجد، وبذلك يظل أهل الحل والعقد هم الذين يعقدون الإمامة، أما العامة فموضعهم هو: البيعة العلنية العامة^(١)، وحرص على تأكيد هذا المبدأ من فوق المنبر، بقوله: أيها الناس إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم^(٢).

٤- الرد على بعض الكتب المعاصرة التي تحدثت عن بيعة علي رضي الله عنه:

يقول العقاد - وهو يتكلم عن اختيار الخليفة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه - :
وهذا الخبر-علي وجازته- قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير اللذان أعلننا الحرب على علي بعد ذلك، فقد كانا يمهدان لها في حياة عثمان رضي الله عنه، ويحسبان أن قريشاً قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمي، وأن علياً رضي الله عنه وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها قبله، وكانت السيدة عائشة رضي الله عنها تؤثر أن تؤول الخلافة إلى واحد من هذين، أو إلى عبد الله ابن الزبير؛ لأن طلحة من قبيلة تيم، والزبير زوج أختها أسماء رضي الله عنها، وفي تأييد السيدة عائشة رضي الله عنها لواحد منهما مدعاة أمل كبير في النجاح^(٣).

وقال في موضع آخر: فمما لا شك فيه أن الإمام أنكر إجحافاً أصابه في تخطيه بالبيعة إلى غيره، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه كان يرى أن قرابته من النبي صلى الله عليه وسلم مزية ترشحه للخلافة بعده؛ لأنها فرع من النبوة على اعتقاده، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، كما قال^(٤).

وقال: فمن المعلوم أن علياً رضي الله عنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه، وأنه

(١) «الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام»، للسيد عمر ص (٧٢).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٤٤٩).

(٤) المصدر نفسه ص (١٤٨).

(٣) «عقرية علي» ص (٨٤).

لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى^(١)، وغير ذلك من الطامات والأكاذيب والإفك الميين التي تورط فيها العقاد بسبب الروايات الموضوعية، وسار على منهجه خالد محمد خالد في كتابه «خلفاء الرسول» ونقل عن علي كلاماً مفترى، ذكر فيه أن أبا بكر وعمر قد اغتصبا الخلافة من علي رضي الله عنه^(٢)، وجانب الصواب خالد البيطار في كتابه «علي بن أبي طالب»، عندما علق على موقف السيدة فاطمة من ميراث أبيها^(٣) وموقف علي من خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وهذا مثال لفيلق طويل لا ينتهي خاض هذه المعمة وخبط فيها، والتي تدعي أن علياً رضي الله عنه زيد عن الخلافة بعد عثمان رضي الله عنه كما زيد عنها قبله، وأن الصحابة كانوا يتآمرون لنيل الخلافة بدافع العصية ضد بني هاشم، أو لمطامع دنيوية، وأن علياً رضي الله عنه أنكر إجحافاً أصابه في تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة النبي ﷺ، وأنه كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقه، وأن النبي ﷺ مهد لخلافته وحببه للناس بما أمره حيناً واستخلفه حيناً آخر، وأن ليس ثمة علاقة حميمة بين الإمام وبين الصحابة، وأنه غفر للشيخين تعديهما عليه بأخذ الخلافة، وأنه بايع الصديق بعد وفاة فاطمة^(٤). وكل هذا بهتان وزور، وكذب وافتراء، يأباه الحق والعدل والإنصاف، وينكره التاريخ الصحيح، ويكذبه الكلام الصريح الذي صدر عن علي رضي الله عنه نفسه الذي سبق ذكره، فقد اعترف علي بأفضلية الخلفاء رضي الله عنهم، حينما كان هو الخليفة فكان يعلن ذلك على المنبر ويتوعد من يفضله عليهم بالعقاب، وهذا ثابت بالأسانيد الصحيحة، وكان لهم ناصراً ومعيناً، وعلاقته بهم وطيدة وشيجة لا تؤثر في رسوخها العواصف الهوج^(٥)، التي يثيرها من تورط في الروايات الضعيفة والأخبار الموضوعية من الكتاب الذين ذكرنا بعض نقولهم على سبيل المثال لا الحصر، والسبب الذي أسقطهم في هذه الهوة هو جهلهم بمنهج أهل السنة والجماعة في كتابة التاريخ وبعدهم عن التمييز بين المصادر الصحيحة والمصادر الساقطة، وعدم تفريقهم بين الروايات الصحيحة والروايات الضعيفة والموضوعية والاعتماد على الموضوعات في تحليلاتهم.

(١) «عبرية علي» ص (١٨١).

(٢) «خلفاء الرسول ﷺ» ص (٥٢٦-٥٢٧).

(٥) المصدر نفسه ص (١٣٠).

(٤،٣) «علي بن أبي طالب» خالد البيطار ص (٨٤).

٥- أول خطبة خطبها علي رضي الله عنه:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في أول خطبة خطبها حين تولى الخلافة: إن الله عز وجل أنزل كتاباً هادياً، بين فيه الخير والشر، فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض أدوها إلى الله - سبحانه - يؤدِّكم إلي الجنة، إن الله حرم حُرماً غير مجهولة وفضلَّ حرمة المسلم على الحُرْم كلها، وشدَّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، لا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة، خاصة أحدكم الموت، فإن الناس أمامكم، وإن من خلفكم الساعة تحذوكم، تخففوا تلحقوا؛ فإنما ينتظر الناس آخراهم، اتقوا الله عباده في عباده وبلاده، إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) (الأنفال: ٢٦) .

ولما كانت بيعة علي قد جاءت بعد فتنة عمياء ذهب ضحيتها خليفة المسلمين السابق، فقد دعا المسلمين إلى الخير ونبذ الشرّ وبين لهم أن حرمة المسلم فوق كل الحرمات، فلا يجوز أذاه في حال من الأحوال، ثم ذكروهم بالموت والآخرة وحثهم على التقوى والطاعة والعمل الصالح^(٢)، وقد جاءت محاور الخطبة حول جانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، واهتمت ببعض مقاصد الشريعة، ولو شئنا أن نلخص خطته التي يريد أن يرسمها للناس لقلنا: يريد أن يقول لهم: ارجعوا إلى العهد الذي كنتم عليه أيام رسول الله صلّى الله عليه وآله^(٣)، والخلفاء والراشدين رضي الله عنهم الذين سبقوه، وقد أشار أمير المؤمنين في حكمة وبلاغة إلى النهج الذي سيقبلون به عهد الخلافة الجديد بقوله: إذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه. وختم بالآية الكريمة التي كانوا في حاجة إلى استحضارها؛ ليقارنوا بها بين ما كانوا عليه

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) «الأدب الإسلامي»، لثايف معروف (ص ٥٧).

(٣) «الخلفاء الراشدون» للنجار (ص ٣٧٨).

قبل الإسلام وبعد الإسلام، فإنهم كانوا - إلى أمد بعيد - من القلة والضعف والضعة والحمول، حتى كانوا كقطعة لحم على كف يتخطفها الطير، ثم ما صاروا إليه من القوة والسعة والأمن والسَّلام، والرِّخاء والثراء، وما أكرمهم به من النعم، فطنَّت حصاتهم، وخفقت راياتهم ودان لهم العباد والبلاد^(١).

٦ - الترادف بين ألقاب الإمام والخليفة وأمير المؤمنين:

قال النووي: يجوز أن يقال للإمام: الخليفة والإمام وأمير المؤمنين^(٢)، وقال ابن خلدون: وإذ قد بينَّا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا، به تسمى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإمام^(٣)، ويعرف ابن منظور الخلافة بأنها الإمارة^(٤)، ويفسر أبو زهرة الترادف بين لفظي الخلافة وهي الإمامة الكبرى وسميت خلافة؛ لأن الذي يتولاها ويكون الحاكم الأعظم للمسلمين يخلف النبي ﷺ في إدارة شؤونهم، وتسمى إمامة؛ لأن الخليفة كان يسمى إماماً، ولأن طاعته واجبة، ولأن الناس كانوا يسيرون وراءه كما يصلون وراء من يؤمهم^(٥)، كما فسر الأستاذ محمد المبارك سبب اختيار هذه الألقاب، الإمام والخليفة وأمير المؤمنين بأنه: ابتعاد بالمفهوم الإسلامي للدولة ورياستها عن النظام الملكي بمفهومه القديم عند الأمم الأخرى من الفرس والرومان المختلف اختلافاً أساسياً عن المفهوم الإسلامي الجديد^(٦)، هذا وقد كان الخلفاء الأول يُلقبون بالخلفاء كما يلقبون بالأئمة، ومنذ خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه استعمل المسلمون لقب «أمير المؤمنين»، ولقد ورد لفظ «إمام» في القرآن الكريم في أكثر من موضع بمعنى الزعيم أو الدليل أو الرئيس قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ١٢٤). أي جاعلك قدوة يؤتم به^(٧)، وقال تعالى: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤)، أي يقتدون بنا في أمر

(٢) «روضة الطالبين» (١٠/٤٩).

(١) «المرتضى» للندوي ص (١٤٠، ١٤١).

(٤) «لسان العرب» (٩/٨٣).

(٣) «المقدمة» ص (١٩٠).

(٦) «نظام الإسلام، الحكم والدولة» (ص ٦١).

(٥) «تاريخ المذاهب» لأبي زهرة ص (٢١).

(٧) «نظام الحكم في الإسلام»، لعارف خليل ص (٨٠).

الدين، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١)، أي بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين، وقيل: بكتاب أعمالهم التي قدموها^(١)، وورد لفظ الإمام في مواطن كثيرة من السنة النبوية منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من بايع إماماً، فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»^(٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم: «تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم»^(٣)، وقوله: «سبعة يظلمهم الله في ظلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»^(٤).

ومن الملاحظ أن لفظ الإمامة يغلب استعماله عند أهل السنة في مباحثهم العقدية والفقهية، بينما الغالب استعمالهم لفظ (الخليفة) في كتاباتهم التاريخية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن هذه المباحث - خاصة العقدية - قد كتبت للرد على المتدعة في هذا الباب كالشيعة الروافض والخوارج^(٥). فالشيعة الروافض يستخدمون لفظ الإمام دون الخلافة ويعتبرونها إحدى أركان الإيمان عندهم، ويفرقون بين الإمامة والخلافة، فهم يعتبرون الإمامة رئاسة دين، والخلافة رئاسة دولة^(٦)، ويريدون من ذلك إثبات أن علياً رضي الله عنه كان إماماً زمن خلافة الثلاثة الذين سبقوه^(٧)، وقال ابن خلدون: إن الشيعة خصوا علياً باسم الإمام نعتاً له بالإمامة التي هي أخت الخلافة، وتعريضاً بمذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر رضي الله عنه^(٨).

إن هذه الألقاب: الخليفة، والإمام، وأمير المؤمنين، ليست من الأمور التعبدية، وإنما هي مصطلحات وجدت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، واصطلح الناس عليها، وقد أطلق المسلمون غير هذه الألقاب في وقت لاحق كلقب الأمير، كما كان الحال في الأندلس، وكذلك لقب السلطان - كما تسمى بذلك

(١) «نظام الحكم في الإسلام»، لعارف خليل ص (٨١).

(٣) المصدر نفسه (١٢/٢٣٧).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٢/٢٣٣).

(٤) «فتح الباري» (٣/٢٩٣).

(٦) المصدر نفسه ص (٣٦).

(٥) «الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة» للدميحي ص (٣٦).

(٨) «نظام الحكم»، لعارف خليل ص (٨١).

الحكام في الدولة الإسلامية- أو أي لقب من هذه الألقاب؛ إذ إن المهم في هذا المجال أن يكون المسلمون ورئيسهم خاضعين للتشريع الإسلامي عقيدة، وشريعة، بغض النظر عن الألقاب التي يمكن أن تطلق على هذا الرئيس، سواء كان لقبه الخليفة أم أمير المؤمنين أم رئيس الدولة أم رئيس الجمهورية، فيمكن إطلاق أحد هذه الألقاب أو غيرها، وهذا يرجع إلى ما يتعارف عليه الناس، وإن كان الأفضل الالتزام بالألقاب السابقة؛ لما لها من مفهوم سياسي متميز عن المفاهيم المختلفة عند الأمم الأخرى ولما لها من معان دوت عبر التاريخ على أنها رمز للحضارة الإسلامية^(١).

٧- أيهما أصح عند ذكر أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، هل نقول: رضي الله عنه أم كرم الله وجهه أم عليه السلام؟:

إن الأصل عند ذكر الصحابة الترضي عنهم جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (الفتح: ١٨). لذلك اصطلح أهل السنة على الترضي على كل صحابي يجري ذكره أو يروى عنه حديث، فيقال مثلاً: عن أبي بكر رضي الله عنه ولم يستعمل السلام - فيما أعلم - عند ذكر أحد منهم، مع أن السلام تحية المسلمين فيها بينهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً﴾ (النور: ٦١)، وعلى هذا فالترضي أفضل من السلام قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (التوبة: ٧٢)، وأخبر النبي صلوات الله عليه وسلم أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: «أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً»^(٢)، ولكن اصطلح العلماء على أن السلام يختص بالأنبياء لقوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (الصافات: ١٨١). ولقوله: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ﴾ (مريم: ١٥).

(٢) «شكاة المصابيح» للبخاري (٨٨/٣).

(١) «نظام الحكم»، لعارف خليل ص (٨٢).

ولما ورد في حق علي رضي الله عنه «أنت مني بمنزلة هارون من موسى»^(١)، أخذ الغلاة كالرافضة يستعملون في حق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : عليه السلام، أو كرم الله وجهه، ولا شك أنه أهل لذلك، لكن يشركه في ذلك جميع الصحابة^(٢)، وقد وقع هذا في عبارة كثير من النساخ للكتب ومن بعض علماء أهل السنة أن يفرد علي رضي الله عنه بأن يقال: عليه السلام، من دون سائر الصحابة أو كرم الله وجهه، وهذا وإن كان معناه صحيحاً، لكن ينبغي أن يساوي بين الصحابة في ذلك^(٣).



(١) «البخاري» رقم (٣٧٠٦).

(٢) «فتاوى في التوحيد»، عبدالله بن جبرين (ص ٣٧).

(٣) «الناحية عن طعن أمير المؤمنين معاوية» ص (٢٦) في الحاشية من تعليق المحقق أحمد التويجري.

المبحث الثاني

شيء من فضائله وأهم صفاته وقواعد نظام حكمه

قال الإمام أحمد ، وإسماعيل القاضي ، والنسائي ، وأبو علي النيسابوري : لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء في علي رضي الله عنه (١) ، وقال الحافظ ابن حجر : وكان السبب في ذلك أنه تأخر ، أي آخر الخلفاء الراشدين ، ووقع الاختلاف في زمانه وخرج من خرج عليه ، فكل ذلك سبباً لانتشار مناقبه من كثرة من كان بينها من الصحابة رداً على من خالفه ، فاحتاج أهل السنة إلى بث فضائله فكثر الناقل لذلك وإلاً فالذي في نفس الأمر أن لكل من الأربعة من الفضائل ، إذا حرر بميزان العدل لا يخرج عن قول أهل السنة والجماعة أصلاً (٢) ، وقال ابن كثير : من فضائله أنه أقرب العشرة المشهود لهم بالجنة إلى رسول الله صلوات الله عليهم نسباً (٣) .

وقد ذكرت كثيراً من فضائله فيما مضى من البحث كل في موضعه وإتماماً للفائدة نشير إلى مزيد من الفضائل لعلي رضي الله عنه منها :

- عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال علي : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبي الأمي صلوات الله عليهم إليّ : ألا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق (٤) .
- عن أبي إسحاق : سأل رجل البراء وأنا أسمعُ قال : أشهد عليّ بدرّاً قال : بارز وظاهر (٥) .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليهم كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحرّكت الصخرة فقال رسول الله صلوات الله عليهم : «اهدأ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» (٦) .

(١) «فتح الباري» (٧١/٧) .

(٢) المراد ترتيبهم في الفضل هو حسب ترتيبهم في الخلافة «فتح الباري» (٧١/٧) .

(٣) «البداية والنهاية» (٢٩/١١) . (٤) «الصحيح المسند في فضائل الصحابة» ص (١١١) .

(٥) ظاهر : أي لبس درعا على درع «الصحيح المسند» ص (١١٢) .

(٦) «الصحيح المسند في فضائل الصحابة» ص (١١٧) .

● قال سعيد بن زيد رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: النبي في الجنة وأبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة، وعبدالرحمن بن عوف في الجنة وسعد في الجنة ولو شئت أن أسمى العاشر (١).

● قالت أم سلمة رضي الله عنها: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سب علياً فقد سبني (٢).

● جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن عثمان رضي الله عنه، فذكر محاسن عمله، قال: لعل ذلك يسوؤك؟ قال: نعم. قال: فأرغم الله بأنفك ثم سأله عن علي فذكر محاسن عمله قال: هو ذلك بيته أوسط بيوت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: لعل ذلك يسوؤك؟ قال: أجل قال فأرغم الله بأنفك انطلق فاجهد على جهدك (٣)، هذه بعض الفضائل الثابتة لعلي رضي الله عنه، وأما صفاته رضي الله عنه، فقد كان صفات القائد الرباني المضحى في سبيل الله وكتابه وسنة نبيه، ونجملها في أمور ونركز على بعضها بالتفصيل، فمن أهم هذه الصفات، سلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع والحلم والصبر، وعلو الهمة والحزم والإرادة القوية، والعدل، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات التي ظهرت للباحث في الفترة المكية في صحبته للنبي صلى الله عليه وسلم وفي العهد المدني في غزواته مع رسول الله وحياته في المجتمع، وظهر البعض الآخر لما تسلم قيادة الدولة الراشدية وأصبح أمير المؤمنين رضي الله عنه، ومن أهم هذه الصفات:

أولاً: العلم والفقہ في الدين:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من علماء الصحابة الكبار، وقد تميز رضي الله عنه بجده في التحصيل، والتحري في قبول العلم، والسؤال في طلبه، واستخدم وسائل

(٢) «الصحیح المسند» ص (١٢١).

(١) «الصحیح المسند» ص (١١٧).

(٣) «الصحیح المسند من فضائل الصحابة» ص (١٤٠).

ضبط العلوم في زمنه، من كتابة، وتعهد، ولزوم النبي ﷺ؛ حيث يقول ﷺ في جمعه للقرآن الكريم: آليت بيمين ألا أرتدي بردائي إلا إلى الصلاة حتى أجمع القرآن^(١)، وقال: ما دخل نوم عيني، ولا غمض رأسي على عهد رسول الله ﷺ حتى علمت ذلك اليوم ما نزل به جبريل ﷺ، من حلال أو سنة، أو كتاب، أو أمر، أو نهى، وفيمن نزل^(٢)، وكان ﷺ يتلقى النص من رسول الله ﷺ مباشرة، ولكن عندما يبلغه الحديث من غيره فإنه يكون شديد التحري في قبوله، خشية أن ينسب لرسول الله ﷺ قولاً لم يقله، ومما يدل على هذا المنهج قوله ﷺ: كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثاً نفعتني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفتة، فإذا حلف لي صدقته، قال: وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر ﷺ أنه قال: سمعت رسول الله يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له»، ثم قرأ هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ (آل عمران: ١٣٥) إلى آخر الآية^(٣). نعم، علي بن أبي طالب ﷺ يستحلف أصحاب رسول الله ﷺ وهم الثقة العدول، ما هذا إلا دليل على شدة تحريه في تلقي الحديث الذي يتلقاه من غير رسول الله ﷺ^(٤).

وكان ﷺ صاحب لسان سؤال وقلب عقول، فقد قال: . . . إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤالاً^(٥)، وعلل ﷺ كثرة علمه بطلبه إياه من رسول الله ﷺ بالسؤال، بقوله: كنت إذا سألت أعطيت وإذا سكت ابتديت^(٦)، وعندما يكون عائق الحياء بينه وبين رسول الله ﷺ يتغلب عليه بطلب من أحد الصحابة بسؤال رسول الله ﷺ، فعن محمد بن الحنفية قال: قال علي: كنت رجلاً مذاء^(٧)، فاستحييت أن أسأل رسول الله ﷺ، فأمرت المقداد بن الأسود

(١) «الطبقات» (٣٣٨/٢). أجمع القرآن: أحفظه.

(٢) «مسند الإمام زيد» ص (٣٤٣) نقلاً عن «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة».

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (١/١٢٨)، و«مشكاة المصابيح» (١/٤١٦).

(٤) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة» ص (٥٢).

(٥) «الطبقات» (٢/٣٣٨)، و«الحلية» (١/٦٧).

(٦) «فضائل الصحابة» (٢/٦٤٧) وإسناده صحيح.

(٧) أي كثير المذئ وهو ما يخرج عند الملاعبة.

فسأله فقال: فيه الوضوء^(١)، وكان رضي الله عنه يحذر الناس من ترك العلم بسبب الحياء، فقد قال: ولا يستحي أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم^(٢)، ولا يستحي جاهل أن يسأل عما لا يعلم، وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من بين القلة من المسلمين الذين كانوا يعرفون الكتابة في صدر الإسلام، وفوق هذا فقد كان من كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ساعدته هذه المهارة في القراءة والكتابة على التبحر في العلوم الشرعية، وكان رضي الله عنه يرى أن تكون كتابة النصوص بخط بين مع التفريغ بين السطور، والتقريب بين الحروف، فعن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخط علامة، فكلما كان أبين كان أحسن^(٣)، وقد أمر كاتبه عبيد الله بن أبي رافع بقوله: ألف دواتك وأطل سن قلمك، وافرج بين السطور، وقرمط^(٤) بين الحروف^(٥)، وعن أبي حكيمة العبدى قال: كنا نكتب المصاحف بالكوفة، فيمر علينا علي ونحن نكتب فيقول: أجل قلمك^(٦)، قال: فقططت منه، ثم كتبت. فقال هكذا نوروا ما نور الله^(٧)، وكان رضي الله عنه يتعهد ما تعلمه بالعمل وتطبيقه، وكان من أحرص الناس على تطبيق ما سمعه من رسول الله ولو كان ذلك في أصعب الظروف، كما مر معنا في تعليم رسول الله له والسيدة فاطمة رضي الله عنها الأذكار، فقد قال أمير المؤمنين: ما تركته منذ سمعته من النبي صلى الله عليه وسلم، قيل له: ولا ليلة صفين؟، قال: ولا ليلة صفين^(٨)، وقد أشار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى ضبط النص بالعمل به بقوله: تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله^(٩)، وكان يرى أن العالم لا يسمى عالمًا إلا إذا كان عاملاً بعلمه، لذا يقول مخاطبًا حملة العلم: يا حملة العلم، اعملوا به فإن العالم من عمل بما علم ووافق علمه عملة^(١٠).

(١) «مسلم»، (٢٤٧/١).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٨٤/١٣).

(٤) قرمط بين الحروف: أي قرب بينها.

(٦) أي عظم قلمك، وهو كناية عن تكبير الخط.

(٨) «مسلم» (٢٠٩٢، ٢٠٩١/٤).

(١٠) «بيان العلم وفضله» ص (٢٨٥).

(٣) «الجامع لأخلاق الراوي» (٢٦٢/١).

(٥) «الجامع لأخلاق الراوي» (٢٦٢/١).

(٧) «الجامع لأخلاق الراوي» (٢٦٠/١).

(٩) «البداية والنهاية» (٦/٨).

وقال رضي الله عنه: هتف العلم بالعمل فإن أجب وإلا ارتحل^(١)، وكان علي رضي الله عنه من المكثرين من الفتوى في أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم، قال ابن القيم: الذين حفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله مائة ونيف وثلاثون نفساً، ما بين رجل وامرأة، وكان المكثرون منهم سبعة، عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبدالله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبدالله ابن عباس، وعبدالله بن عمر^(٢) وقد عد ابن حزم علي رضي الله عنه في المرتبة الثالث من بين الصحابة رضي الله عنهم في كثرة الفتوى، وسيأتي الحديث بإذن الله تعالى عن المسائل القضائية، وكثيرا من اجتهاداته الفقهية، عند حديثنا عن المؤسسة القضائية. وكان رضي الله عنه يحث على التزاور والمدارسة، حيث يقول: تزاوروا وتدارسوا الحديث، ولا تركوه يدرس^(٣)، وفي رواية: تزاوروا وتحدثوا، فإن لم تفعلوا فإنه يدرس^(٤)، وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يحث على لزوم الشيخ، والحرص على الأخذ منه، ويقول: ولا تشعب من طول صحبته، فإنما هو كالنخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء^(٥)، وقد تهياً لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ملازمة رسول الله صلوات الله عليهم صغيراً حين تربى في حجره، وكبيراً حينما كان صهره ووالد سبطيه، فكان بذلك قريباً من رسول الله، يأخذ عنه ويتعلم منه، وقد شهدت السيدة عائشة رضي الله عنها لعلي رضي الله عنه بلزومه لرسول الله صلوات الله عليهم، فعن المقدم بن شريح، عن أبيه قال: سألت عائشة رضي الله عنها فقلت أخبريني برجل من أصحاب النبي صلوات الله عليهم أسأله عن المسح على الخفين، فقالت: ائت علياً فسله، فإنه كان يلزم النبي صلوات الله عليهم قال: فأتيت علياً فسألته، فقال: أمرنا رسول الله صلوات الله عليهم بالمسح على خفافنا إذا سافرنا^(٦)، وكان رضي الله عنه يرى الانتقاء في العلوم فقد قال: العلم أكثر من أن يحفظ، فخذوا من كل علم محاسنه^(٧)، وقد وصل من العلم مرتبة جعلته يقول

(١) «منهج علي بن أبي طالب» ص (٦٣).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/٢٣٦).

(٤) «شرف أصحاب الحديث» للبغدادي (ص ٩٣).

(٥) «تذكرة السامع» ص (١٠٠).

(٧) «تاريخ اليعقوبي» (٥/٢).

(٦) «مسند أحمد» (٢/١٩٥)، وإسناده صحيح، تحقيق أحمد شاكر.

للناس وهو في العراق: سلوني، فعن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: ما كان أحد من الناس يقول: سلوني غير علي بن أبي طالب رضي الله عنه (١).

وقد وثق الناس بعلمه سواء الصحابة أو التابعين، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا أتانا الثبت عن علي لم نعدل به (٢)، وعنه أيضا قال: إذا حدثنا ثقة عن علي بفتوى لا نعدوها (٣)، وعن سويد بن غفلة أنه جاءه رجل يسأله عن فريضة رجل ترك ابنته وامرأته، قال: أنا أبئك قضاء علي. قال: حسبي قضاء علي. قال: قضى علي لامرأته الثمن، ولابنته النصف، ثم رد البقية على ابنته (٤)، وقد أثنى الناس عليه في علمه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: أما إنه أعلم الناس بالسنة (٥)، وكان معاوية رضي الله عنه يكتب فيما ينزل به ليسأل له علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ذلك، فلما بلغه قتله، قال: ذهب الفقه والعلم بموت ابن أبي طالب رضي الله عنه (٦)، وعن الحسن بن علي رضي الله عنه، أنه خطب الناس بعد وفاة علي رضي الله عنه فقال: لقد فارقكم رجل أمس، ما سبقه الأولون بعلم، ولا أدركه الآخرون (٧)، وعن عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة - وقد سئل عن علي رضي الله عنه - فقال: كان لله والله ما شاء من ضرر قاطع، السطة (٨) في النسب، وقرابته من رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم ومصاهراته، والسابقة في الإسلام، والعلم بالقرآن والفقه بالسنة، والنجدة في الحرب، والجود في الماعون (٩)، وعن مسروق قال: انتهى علم أصحاب رسول الله إلى عمر، وعلي، وابن مسعود، وعبدالله رضي الله عنهم (١٠).

وقد ترك أمير المؤمنين رضي الله عنه نصائح وإرشادات لطلاب العلم والعلماء والفقهاء تستحق أن تحفظ ويعمل بها ومن هذه النصائح:

(٢) «الاستيعاب» ص (١١٠٤).

(٤) «سنن الدارمي» (٢/٣٧٥).

(٦) «الاستيعاب» ص (١١٠٨).

(١) «الاستيعاب» ص (١١٠٣).

(٣) «الطبقات» (٢/٣٣٨).

(٥) «الاستيعاب» ص (١١٠٤).

(٧) «فضائل الصحابة» (٢/٥٩٥)، وإسناده صحيح.

(٨) السطة: التوسط، والوسط في النسب هو أكرمه وأشرفه.

(٩) «ذخائر العقبى» لمحب الدين الطبري (ص ٧٩).

(١٠) «تاريخ السيوطي» ص (١٩٦).

١ - الناس ثلاثة، عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق:

روى الحافظ أبو نعيم عن كميل بن زياد قال: أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبآن - يعني الصحراء - فلما أصرحنا جلس ثم تنفس ثم قال: يا كميل بن زياد، القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم، احفظ ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا ع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ربح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق^(١)، إن هذه الوصية البليغة قد اشتملت على دُرر المواعظ وغرر الحكم، فقد قسم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الناس إلى ثلاثة أقسام:

(أ) العلماء الربانيون: والمقصود بالعلماء علماء الدين، والربانيون الذين يجمعون بين الفقه والحكمة كما جاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّنَ﴾ (آل عمران: ٧٩)، قال: حكماء فقهاء، أخرجهم الإمام البخاري، وبذلك فسره عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه^(٢)، فالذين يجمعون بين الحكمة والفقه هم المؤهلون لتربية الأمة وتوجيهها؛ لأن الحكمة وضع الشيء في موضعه المناسب ومن ذلك التوفيق إلى تطبيق الحكم الشرعي على واقع الناس، وذلك يقتضي فهما دقيقًا لواقع المجتمع الإسلامي، ومن الحكمة القيام بتربية الأمة بهذا الدين، وذلك يقتضي الجمع بين تعليم الدين والتربية على التقوى ومكارم الأخلاق، وأما الفقه فهو فهم الأحكام الدينية من مصادرها الشرعية، ولذلك كان العلماء الربانيون هم أفضل الأمة؛ لأنهم جمعوا بين فضيلتين: تلقى العلم، والتعليم مع التربية، فهم المؤهلون لتربية الأمة وتوجيهها^(٣)، وقد عرف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الربانيين بأنهم هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها^(٤).

(١) «حلية الأولياء» (١/٧٥)، و«صفة الصفوة» (١/٣٢٩).

(٢) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (١١، ١٢/٤٣٨).

(٣) «التاريخ الإسلامي» (١١، ١٢/٤٣٨).

(٤) «الفتاوى» (١/٤٩).

(ب) طلاب العلم الذين أخلصوا نياتهم في طلب العلم؛ ليكون وسيلة إلى نجاتهم من المسؤولية أمام الله تعالى، وقد عبر علي رضي الله عنه عن هذا القسم بقوله: ومتعلم علي سبيل نجاة وهذا لا يختص بالدارسين الذين تفرغوا لطلب العلم، وإنما يشمل كل من حمل مسؤولية تطبيق هذا الدين، وأهمه أمر نجاته في الآخرة، فاستفتى في أمور دينه العلماء الربانيين، ليعبد الله على بصيرة وليستقيم في معاملته مع الناس على منهج الله، فهذا يعتبر من المتعلمين على سبيل نجاة وإن لم يجلس في حلقات العلم^(١)، إن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يرينا أهمية إخلاص النية لله في طلب العلم ويدعوهم لتقديم ما عند الله والدار الآخرة على حطام الدنيا وشهوات النفس والدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ودين الحق والصبر على ذلك.

(ج) الذين هجروا العلم الديني ولم يكن لهم ارتباط بالعلماء الربانيين في معرفة أمور دينهم، وقد عبر عنهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بقوله: وهمج رعاة أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ربح، لم يستضيئوا بنور العلم.

تحدث أمير المؤمنين عن صنف الهمج الرعاة أتباع كل ناعق الذين يميلون مع كل ربح وليس لهم نور يستضيئون به وحذر من هذا الصنف الإمعي، وكأنه رضي الله عنه يدعو الناس بأن يكون همهم الحق والثبات عليه، وبأن يعمرّوا الدنيا والآخرة بطاعة الله وأن يستضيئوا بنور الله ويجعلوا الدنيا مطية للآخرة.

٢. المقارنة بين العلم والمال:

وجاء في وصية أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لكميل بن زياد: . . . العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم، والمال محكوم عليه، وصنعة المال تزول بزواله ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد مماته، مات خزّان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة

(١) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (١١)، ٤٣٨/١٢.

وأمثالهم في القلوب موجودة^(١)، عقد أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه مقارنة بين العلم والمال، باعتبار أن العلم الشرعي هو عماد أهل الآخرة ومعقد عزهم وشرفهم في الدنيا والآخرة، والمقصود بالمال هنا الذي يجمعه صاحبه لذاته ولا يتوجه فيه بالطاعات وفق شرع ربه، وقد سوغ هذا الحكم بعدة أمور:

(أ) إن العلم يحرس صاحبه بينما صاحب المال هو الذي يحرسه، فأما حراسة العلم صاحبه فإن العلم الإلهي يقي صاحبه من المهالك في الدنيا والآخرة، فأما أمر الآخرة فظاهر معلوم، حيث إن هذا العلم يقود صاحبه إلى رضوان الله تعالى والجنة ويجنبه طريق النار، وما أعظمها من مطالب وما أبلغها من مكاسب، وأما الوقاية من مهالك الدنيا فإن السعادة الروحية الحقة لا تكون إلا باليقين الذي تتضاءل أمامه الحياة الدنيا فتصبح جميع مآسيها ونكباتها، برداً وسلاماً على أصحاب اليقين؛ لأنهم لا يلقون لها بالا ولا يعيرونها اهتماماً، بينما تتحول هذه المآسي والنكبات إلى حياة جحيمية على أهل الدنيا الذين يعتبرون الحياة الدنيا هي رأس المال والمكسب، وأما حراسة المال ماله فأمرها ظاهر، فكم تملل أصحابها من الهم والخوف عليها تملل المريض وباتوا يحرسون أموالهم بالهم والقلق والحزن المنهك^(٢)، والعلم ينور بصيرة صاحبه في الاختيار الأفضل وفي استخلاص العبر من الأمم الماضية، والعيش بها في الحياة والعلم يفتح آفاقاً واسعة في فقه الخلاف، ومعرفة المصالح والمفاسد، والمقاصد، وترتيب الأولويات فيسير صاحبه بنور بين الناس.

(ب) إن العلم ينمو ويترسخ بالعمل؛ لأن العمل تطبيق للعلم فهو بذلك يزيده عمقاً في الذاكرة بخلاف المال، فإن الإنفاق منه ينقصه، ولا يغيين عن البال أن المقصود هنا أموال أهل الدنيا التي ينفقون منها من أجل الدنيا، أما أموال أهل الآخرة فإنها محكومة بالعمل الشرعي، فالإنفاق منها يزيدها نمواً كما جاء في قول الرسول صلوات الله عليه وسلم: «ما نقص مال عبد من صدقة»^(٣).

(١) «حلية الأولياء» (٧٥/١)، و«صفة الصفوة» (٣٢٩/١).

(٢، ٣) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (٤٤٢/١٢).

(ج) إن العلم الشرعي حاكم لأنه به تنتظم شؤون الحياة، وعلى منهاجه يجب أن تقرر جميع الأنظمة التي تحكم الناس، فهو الحاكم الحقيقي، أما المال فإنه محكوم عليه؛ لأن إصداره وإيراده يخضع للأنظمة الحاكمة سواء كانت شرعية أو غير شرعية^(١).

(د) إن العلاقات الاجتماعية التي تقوم على المصالح المالية المشتركة تزول بزوال المال؛ لأنه هو الذي عقد تلك العلاقات بناء على تبادل المصلحة بوجوده فإذا زال زالت تلك المصالح، أما العلاقات الأخوية التي تقوم على تبادل العلم الشرعي بين العالم ومحبيه فإنها باقية خالدة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧).

(هـ) إن العلم الشرعي يكسب صاحبه ولاء المسلمين وطاعتهم لأهله اختياراً منهم من غير أن تفرض عليهم هذه الطاعة، وذلك على امتداد حياتهم كما يكسبهم الذكر الحسن بعد مماتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، حيث لا يفقد الناس إلا صورهم وأشكالهم، وإننا لو استعرضنا التاريخ إلى عصرنا هذا لوجدنا العلماء من عهد الصحابة رضي الله عنهم تتردد أسماءهم، ويذكر التاريخ حياتهم في الكتب والخطب والدروس العلمية، بينما اندرست أسماء كبار أهل الدنيا بانقضاء حياتهم، وأحياناً يشاهدون انطفاء سمعتهم وهم أحياء^(٢).

٣. الفقيه كل الفقه :

هو الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم من عذاب الله ولا يرخص لهم في معاصي الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، ولا خير في عبادة لا علم فيها، ولا خير في علم لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها^(٣).

في هذا النص يبين أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن من الفقه في الدين التزام صفة الاتزان والاعتدال في عرض أمور الدين ومحاولة إصلاح الناس، وذلك بأن يسير

(٢) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (١٢/٤٤٣).

(١) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (١٢/٤٤٢).

(٣) «حلية الأولياء» (١/٧٧)، و«صفة الصفة» (١/٣٢٥).

الداعية في خط وسط بين مقامي الخوف والرجاء ، فلا ينطلق في تخويف الناس إلى الحد الذي يجعلهم يقنطون من رحمة الله ، ولا ينطلق في ترغيب الناس إلى الحد الذي يجعلهم يأمنون من عذاب الله تعالى ، ونجد علياً رضي الله عنه في هذا النص يبين أن من مظاهر الفقه في الدين ألا يهون العالم من شأن المعاصي فيجري الناس على ارتكابها ، وأن يحافظ على مستوى الإيمان والتقوى لدى الناس مع محاولة رفعهم نحو الكمال في ذلك ، كما يبين أن من الفقه أن يحاول العالم ربط المسلمين بكتاب الله تعالى ، وهنا يبين علي رضي الله عنه أهمية القرآن الكريم وتفضيله المطلق على كل ما سواه ، وفيه تبيين أو تعليم للطريقة التي نتعامل بها مع القرآن الكريم . وألاً يتجاوزته إلى غيره رغبة عنه ؛ لأنه مصدر الهداية الأول ، ومن المعلوم أن السنة النبوية بيان تفصيلي للقرآن الكريم ، فالتوجيه إلى القرآن يعتبر توجيهاً إلى السنة ، ثم يبين أن من أهم شروط العبادة الشرعية المقبولة ، أن تكون صادرة عن علم بالكتاب والسنة وأن العلم لا يكون نافعا إلا إذا رافقه الفهم الصحيح ، ويختم وصيته النافعة ببيان أهمية تدبر معاني كتاب الله تعالى حال التلاوة ؛ لأن الخير كل الخير في فهم مقاصد القرآن الكريم للعمل بأحكامه ، والتوجه الكامل لله بالقلب والعقل والروح والجوارح عند قراءتنا لكتابه ، وبذل كل ما نستطيع لفهم مراد الله والعمل بأوامره واجتناب نواهيه والتخلص من كل العوائق التي تحول بيننا وبين كتاب الله ، فهذا يدعوننا للتجرد لله بالكلية وإخلاص الدين له وتحري مراد الله ورسوله ودين الحق ولو أدى إلى مفارقة الأهل والمال والولد والوجاهة الدنيوية ، فإن ما عند الله خير وأبقى ، والاتعاظ بمواعظه وتنمية الإيمان بتذكر معاني هذا الكتاب العظيم (١) .

٤ - ما أبردها على الكبد:

عن الشعبي عن علي رضي الله عنه أنه خرج عليهم وهو يقول : ما أبردها على الكبد فقبل له : وما ذلك ؟ قال : أن تقول للشيء لا تعلمه : الله أعلم (٢) .

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (٦٦/٢) .

(١) «التاريخ الإسلامي» (٤٣١/١٢ - ٤٣٣) .

٥- أهل العلم وتعليم الناس:

قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا (١) .

٦- الخير في كثرة العلم لا المال والولد:

قال عليّ رضي الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولذك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك ، وأن تباهي الناس بعبادة ربك ، فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله ، ولا خير في الدنيا إلا أحد رجلين ، رجل أذنب ذنباً فهو تدارك ذلك بتوبة ، أو رجل يسارع في الخيرات ، ولا يقل عمل في تقوى وكيف يقل ما يتقبل؟! (٢) .

٧- العلم والجهل:

قال عليّ رضي الله عنه : كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نُسب إليه ، وكفى بالجهل ضعة أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه (٣) .

٨- سبب زهد الناس في العلم:

قال عليّ رضي الله عنه : إنما زهد الناس في طلب العلم ؛ لما يرون من قلة انتفاع من عَلم بما عَلم (٤) . وهذا فيه تحذير لعلماء السوء الذين يصدون عن سبيل الله ودعوة للعلماء بالعمل بعلمهم ودعوة الناس إليه والصبر على أذاهم في سبيل الله تعالى .

٩- من حقوق العلماء على أمتهم:

قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته بالجواب ، ولا تحل عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشين له سرّاً ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تطلبن عشرته ، وإن زل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله ، ما دام يحفظ أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته (٥) .

(٢) «حلية الأولياء» ص (٧٥) .

(٤) «آدب الدين والدنيا» ص (٨٢ ، ٨٥) .

(١) «فوائد الكلام» ص (٣٦١) .

(٣) «فوائد الكلام» ص (٣٦٦) .

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/٥١٩) .

١٠ - مكانة العلماء العاملين عند الله:

قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : من عَمِلَ وَعَمِلَ دُعِيَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ عَظِيمًا (١)، وهذه دعوة للعلم والعمل، وحث للسعي للمقامات العالية التي يكرم الله بها من علم وعمل ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.

١١ - الاشتغال بالعلم أولى من الاشتغال بالعبادات التطوعية:

قال أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف مثله (٢). وهذا التوجيه فيه دلالة على فقه ترتيب الأولويات عند أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، فهو يرى العمل المتعدي لخير الناس وهو العلم أولى بالتقديم من العمل التعبدي، الذي ترجع فائدته على الشخص نفسه. هذه بعض التوجيهات النافعة والإرشادات الصالحة من أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه لطلاب العلم.

ثانياً: زهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وورعه:

فهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من خلال معاشته للقرآن الكريم وملازمته للنبي الأمين صلوات الله عليه ومصاحبته للصحابة الكرام، ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، فقد تربي أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه على كتاب الله، واستوعب الآيات التي تحدثت عن الدنيا وأخبرتنا بخستها وقتها، وانقطاعها وسرعة فنائها، والآيات التي رغبت في الآخرة، وأخبرت بشرفها ودوامها؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: ٤٥-٤٦)، وتربي علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي كان أعرف الخلق بالدنيا ومقدارها؛ إذ هو القائل صلوات الله عليه : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/٤٩٧).

(٢) «المتجر الرابع في ثواب العمل الصالح» للدمياطي ص (١٣).

بعوضة، ما سقى كافرًا منها شربة ماء»^(١)، وقال عليه السلام : «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أوصبه في اليمِّ فلينظر بما ترجع»^(٢)، وقال عليه السلام : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٣)، وقد تأثر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالتربية القرآنية والنبوية، فكان من أصدق النماذج التي زكّتها تربية النبي صلّى الله عليه وآله قال الله فيها : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ...﴾ (البقرة: ١٥١)، فقد ضرب لنا أروع الأمثلة في الزهد وهذه بعض المواقف المدهشة في هذا الباب:

١ - يا صفراء، ويا بيضاء غري غيري:

عن علي بن ربيعة الوالبي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاءه ابن النباح فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، فقال: الله أكبر، فقام متوكلًا على ابن النباح حتى قام على بيت مال المسلمين فقال:

هَذَا جَنَائِي خِيَارِهِ فِيهِ

وَكُلُّ جَانٍ يَدُهُ إِلَى فِيهِ

يابن النباح عليٌّ بأشْياع الكوفة، قال: فنودي في الناس، فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غري غيري، ها، ها، حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه وصى فيه ركعتين، وفي رواية أخرى لأبي نعيم من خبر مجمع التيمي قال: كان علي رضي الله عنه يكنس بيت المال ويصلي فيه ويتخذ مسجدًا رجاء أن يشهد له يوم القيامة.

ففي هذا مثل بليغ في الترفع عن متاع الدنيا الزائل، فبيت المال قد امتلأ من الذهب والفضة، ولا ينظر إليه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه نظرة إعجاب وغرور، بل كان جوابه حينما أبلغه المسؤول المالي عن ذلك أن قال: الله أكبر، فإذا كان بعض الناس يكبرون الدنيا ويعظمونها فالله تعالى أكبر منها ومن كل شيء، وما دام المسلم يشعر حقًا بأن الله أكبر فلماذا يجعل قلبه مستسلمًا لما هو أصغر؟، إنه فقه

(١) سنن الترمذي رقم (٤١١٠) صحيح غريب.

(٣) «مسلم» رقم (٢٨٥٦).

(٢) «مسلم» رقم (٢٨٥٨).

عظيم من أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه حينما تذكر هوان الدنيا وحقارتها فكبر الله تعالى، ولسان حاله يؤنّب من انخدع بمتاع الدنيا الزائل ونسي أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء، وأنه لميزان دقيق يحسه المؤمن الذي نور الله سبحانه بصيرته، فكلما كان الله تعالى أعظم وأكبر من كل شيء في قلبه كانت الدنيا وما فيها أهون شيء عليه، وأصبح يُسخرُ المال الحلال في طاعة الله جل وعلا، وكلمة عظمت الدنيا في قلبه كان ذلك على حساب نقص تعظيمه لله تعالى، ونجد أمير المؤمنين عليّاً رضي الله عنه يُحلّق في آفاق العظمة وهو يخاطب الدنيا بقوله: يا صفراء يا بيضاء غُريّ غُريّ. . مما يدل على الوجدان الحيّ والحسّ المرهف الذي يصور الدنيا كخصم يخاتل ويраوغ خصمه. . وهو بهذا يعلن انتصاره على جموح النفس وجنوح العواطف، ويحكم عقله الذي يعطي الدنيا حجمها المناسب لزمناها المحدود في شقائها ونعيمها، ويعطي الآخرة حجمها المناسب لزمناها المحدود في شقائها ونعيمها، ويعطي الآخرة حجمها المناسب لخلودها وعظمة نعيمها وهول جحيمها، ونجده رضي الله عنه يصل إلى قمة المعالي حينما صلى في بيت المال ركعتين؛ لتكونا شاهدين له يوم القيامة بأنه عدل في حكمه واستقام في أمره، ولعل في اتخاذ بيت المال مسجداً رمزاً لعلو الآخرة على الدنيا، وهو مكملٌ لسلوك المعالي الذي مارسه في تصريف ذلك المال في وجوهه المشروعة^(١).

٢- والله ما أرزؤكم من ما لكم شيئاً:

ومن مواقف أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه في الزهد والورع ما رواه هارون بن عنتره عن أبيه قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخورنق^(٢)، وهو يُرعد^(٣) تحت سمل قطيفة^(٤)، فقلت: يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك في هذا المال، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع، فقال: والله ما أرزؤكم من

(١) «التاريخ الإسلامي» (١٢/٤٢٧) للحميدي.

(٢) موضع بالكوفة.

(٤) سمل قطيفة: يعني قطيفة قديمة.

(٣) يرعد: من شدة البرد.

مالككم شيئاً وإنما لقطيفتي التي خرجت بها من منزلي - أو قال من المدينة- (١). وهنا نتساءل فنقول: ما الذي حمل أمير المؤمنين علياً على أن يعيش عيشة الفقراء وأن يتحمل البرد القارس وهو قادر على أن يشتري أفخر ما يوجد في الأرض من الملابس؟ وأكثرها دفئاً؟ إنه مثال للزهد الحقيقي حيث يرغب عن متاع الدنيا مع القدرة على تحصيله، إنه تلميذ المدرسة النبوية التي تربي فيها على الزهد في متاع الدنيا الزائل، والتنافس على نعيم الآخرة الخالد، فلقد عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم عيشة الفقراء وهو يستطيع أن يكون كأفضل الأغنياء (٢).

٣- باعني رضاي وأخذه رضاه:

عن أبي مطر عمر بن عبدالله الجهني قال: رأيت علياً رضي الله عنه متزراً بإزار مرتدياً برداء ومعه الدرّة (٣)، كأنه أعرابي بدوي، ثم ذكر دخوله إلى السوق ومساومته أحد التجار في ثوب بثلاثة دراهم، وأن التاجر عرفه، قال: فلما عرفه لم يشتري منه شيئاً، فأتى آخر فلما عرفه لم يشتري منه شيئاً، فأتى غلاماً حديثاً فاشتري منه قميصاً بثلاثة دراهم، ثم جاء أبو الغلام فأخبره، فأخذ أبوه درهماً ثم جاء به فقال: هذا الدرهم يا أمير المؤمنين، قال: ما شأن هذا الدرهم؟ قال: كان ثمن القميص درهمين، فقال: باعني رضاي وأخذه رضاه (٤)، فهذا مثل في الزهد من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فلقد كان مظهره في لباسه يوحي بأنه رجل أعرابي لخشونة ملابسه، وحينما اشترى له ثوباً اختار نوعاً متواضعاً رخيص الثمن مع أنه كان آنذاك أعلى مسؤول في العالم، حيث كان خليفة المسلمين، وهذا يدل على تواضعه وزهده في الدنيا، على الرغم بأن له حقه من الفياء ومن بيت المال وغيرها من مصادر الدولة كشخص مفرغ خليفة وحاكم لمراعاة مصالح المسلمين، ومثل آخر في الورع والاحتياط للدين حينما امتنع عن الشراء ممن يعرفونه حتى لا يراعه في الثمن لمنصبه، فهو لا يريد أن

(٢) «التاريخ الإسلامي» (١٢/٤٢٨).

(١) «حلية الأولياء» (١/٨٢)، و«صفة الصفوة» (١/٣١٦).

(٤) «الزهد» ص (١٣٠).

(٣) الدرّة بكسر الدال وتشديدها العصا.

يستثمر منصبه الكبير لمصالحه الخاصة، وهذا فهم دقيق لمجالات الورع والتقوى، فالخلافة عنده وعند أمثاله عمل صالح، والخليفة إذا صاحبه العدل كان أول السبعة الذين يظلمهم الله تعالى في ظله يوم القيامة، فهو لا يريد أن يندس هذا العمل الصالح بمصالح دنيوية فيتحول العمل إلى مَجَلَبَة للوزر بدلاً من الأجر، فكان بهذا السلوك العالي قدوة حسنة لمن أتوا بعده^(١).

٤- يخشع القلب ويقتدي به المؤمن:

قال عمر بن قيس: قيل لعليّ رضي الله عنه: لم ترقع قميصك؟ قال: يخشع القلب ويقتدي به المؤمن^(٢)، فهذا مثل من زهده رضي الله عنه وحرصه على تربية المسلمين على حياة الزهد والتقشف، فقد لاحظ في لبس الثوب المرقع ملحظين: الأول: إنه وسيلة إلى خشوع القلب وتواضع النفس، والبعد عن أسباب العجب والكبرياء، والثاني: إنه يعتبر بذلك قدوة للمسلمين فإذا رآه الناس - وهو في أعلى منصب - يلبس الثوب المرقع فإن نفوسهم تتواضع ويتعدون عن التنافس في شراء الملابس الغالية الثمن، ويتقوى بذلك الزاهدون الذين يتعرضون لملامة الناس على سلوكهم حياة الزهد^(٣).

٥- لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان:

عن عبدالله بن زُرَيْر الغافقي قال: دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقرب إلينا خزيرة^(٤)، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط - يعني الوزّ - فإن الله عز وجل قد أكثر الخير فقال: يا ابن زُرَيْر إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدي الناس»^(٥)، فهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

(١) «التاريخ الإسلامي» (٤٢٩/١٢) للحميدي.

(٢) «تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين» ص (٦٤٧) للذهبي.

(٣) «التاريخ الإسلامي» (٤٣٠/١٢) للحميدي.

(٤) الخزيرة: لحم يقطع ويطبخ بالماء ويذر عليه الدقيق.

(٥) «مسند أحمد» (٧٨/١) إسناده صحيح قاله أحمد شاعر وهناك من ضعفه.

يضرب مثلاً عالياً في الورع والزهد في متاع الدنيا الزائل من طعام وشراب، فلقد كان بإمكانه أن يأخذ من بيت المال ما شاء من الأموال بما لا يلفت النظر إليه، حيث يؤمن له معيشة مساوية لأغنياء المسلمين، ولكنه رضي بخشونة العيش؛ إشاراً للأجلة على العاجلة، واحتياطاً لأمر دينه، وإبرازاً للقُدوة الصالحة؛ لأنه إذا كان أعلى رجل في الدولة يعيش هذا المستوى من العيش فإن في ذلك عزاء للفقراء ليصبروا ويرضوا بقضاء الله تعالى وقدره؛ وعظماً للأغنياء ليشكروا الله تعالى، فيخففوا من اندفاعهم نحو الترف والإسراف^(١).

٦- لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم:

كان أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه يختم على الجراب الذي فيه دقيق الشعير الذي يأكل منه ويقول: لا أحب أن يدخل بطني إلا ما أعلم^(٢)، وقال سفيان: إن علياً رضي الله عنه لم بين آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولا قصبه على قصبه وإن كان ليؤتى بحبوه من المدينة في جراب^(٣).

٧- إنك لطيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم:

يروى عدي بن ثابت، وحنة بن جوين أنه أتى بطستخوان^(٤) فالزوج إلى عليّ رضي الله عنه فلم يأكل، فقال علي: إنك لطيب الريح، حسن اللون، طيب الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتده^(٥).

٨- أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب:

قال الحسن بن صالح بن حي: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبدالعزيز، فقال: أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٦)، وقد ذكر الذهبي أن

(١) «التاريخ الإسلامي» (٤٣١/١٢).

(٢، ٣) «لكامل في التاريخ» (٤٤٣/٢).

(٤) الطستخوان: عبارة عن طست كبير يوضع وسط المائدة.

(٥) «الحلية» (٨١/١)، و«صحيح التوثيق» ص (٧٤).

(٦) «تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين» ص (٦٤٥).

عليّاً رضي الله عنه ركب حماراً ودلّى برجليه إلي موضع واحد ثمّ قال: أنا الذي أهنتُ الدنيا (وفعله هنا من باب التريية العملية على الزهد والتقوى والترفع على الدنيا وليس على سبيل الخيلاء)^(١)، وأخرج أبو عبيد في «الأموال» عن عليّ رضي الله عنه أنه أعطى العطاء في سنة ثلاث مرات، ثمّ أتاه مال من أصبهان، فقال: اغدوا إلي عطاء رابع، إني لست بخازنكم، فأخذها قوم وردها قوم^(٢)، وخطب عليّ الناس فقال: أيها الناس، والله الذي لا إله إلا هو، ما رزأت من مالكم قليلاً ولا كثيراً إلا هذه، وأخرج قارورة من كم قميصه فيها طيب، فقال: أهدى إليّ دهقان، وقال: ثمّ أتى بيت المال وقال: خذوا، وأنشأ يقول:

أَفَلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ قَوْصَرَةٌ^(٣)

يَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ تَمْرَةً^(٤)

لقد كان الزهد من الصفات البارزة في شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان زهده رضي الله عنه مع توافر أسباب الرخاء والثراء، وثقة الناس وتوقيرهم وإجلالهم له الذي يمنع من النقد والحسبة والمؤاخذة^(٥)، ولم يكن رضي الله عنه مع زهده وورعه وتصلُّبه في دينه، على شيء من الفظاظ والخشونة والعبوس والكبح، ولم يكن ثقيل الظل، بل كان ودوداً بشوشاً فيه دعابة ملحوظة، وقد جاء في وصفه: كان حسن الوجه، ضحوك السنّ خفيف المشي على الأرض^(٦). وقد عرف عليّ رضي الله عنه الزهادة فقال: أيها الناس، الزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم والتورع عن المحارم^(٧)، وقصر الأمل ضد طول الأمل الذي ينسي الإنسان الآخرة، وأما قصره فيجعل يجمع بين الدنيا والآخرة ابتغاء مرضات الله، وأما الشكر عند النعم فهي صفات المسلم الرباني الذي يستشعر نعم الله عليه، المادية والمعنوية ما

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي ص (٦٤٥).

(٢) «كنز العمال» (٢/ ٣٢٠).

(٣) القوصرة: وعاء من قصب يجعل فيه التمر ونحوه.

(٤) «المرتضى» للندوي ص (٢١٢).

(٥) المصدر نفسه ص (٢١٣).

(٦) المصدر نفسه ص (٢١٠).

(٧) «علي بن أبي طالب»، محمد رشيد رضا ص (٣٠٤).

ظهر منها وما بطن ويقابلها بالشكر للعزیز الوهاب، وأما التورع عن المحرمات فهو أن يتعد عن الاقتراب من محرمات الله عز وجل، فتعريف أمير المؤمنين يبين حقيقة الزهد، ولا شك أن زهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قد أثر فيمن حوله وأصبح مدرسة مؤثرة في تاريخ الأمة، وقد ربط أبو الحسن الندوي بين الزهد والتجديد في المجتمع الإسلامي فقال: ولقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار، وغير مجرى التاريخ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي، أو فتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء وسيطر على العلم والأدب، إلا وله نزعة في الزهد، وتغلب على الشهوات، وسيطر على المادة ورجالها، ولعل السر في ذلك أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة، والاعتداد بالشخصية والعقيدة، والاستهانة برجال المادة، وبصرعى الشهوات، وأسرى المدة^(١).

ثالثاً: تواضع أمير المؤمن علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

من الأخلاق القرآنية التي تجسدت في شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه خلق التواضع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) وأقصد في مشيك وأغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ (لقمان: ١٨-١٩).

وفي آية الإسراء دعوة واضحة إلى التحلي بمكارم الأخلاق من التواضع واللين، ومعرفة قدر النفس؛ لأن النهي الصريح عن رعونات النفس من الكبر والبطر والأشر والاحتقار للناس، والأمر بضده وهو التواضع والقصد في الأمور منصوص صراحة بعد أن علم بالمفهوم من النهي السابق، وذيل الله تعالى النهي والأمر بما ذيل به النهي السابق من عدم رضاه وشدة سخطه على من اتصف بتلك الصفات فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فعدم محبته لمن

(١) «رجال الفكر والدعوة» في حديثه عن الإمام أحمد (١/١٠٥).

كان كذلك ، يعني بغضه له ، كما دلت عليه الآية السابقة ، وفي هذا من الحث على التواضع ما فيه الكفاية للمؤمن^(١) ، غير أن القرآن الكريم لم يقتصر على ذلك ، بل توه بالتواضعين أيما تنويه حيث قال الله جل ذكره : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٢) .

وهذا تنويه عظيم بالتواضعين حيث وصفهم بالعبودية له ، وذلك أعظم تشريف لهم ؛ لأن العبودية له سبحانه ، هي أشرف الأوصاف ومن أعلى مراتب المحيين ، وبذلك يتفاخرون ولذلك يقول الشاعر :

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا
وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ يَا عَبَادِي
وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا^(٢)

وكان نبينا محمد ﷺ في ذروة الذرا من هذا الخلق العظيم في كل صورة وأشكاله ، ولا غرابة في ذلك فهو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وكان مما أدبه الله تعالى به في هذا الخلق قوله سبحانه وتعالى : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنِيَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: ٨٨) . وقوله تعالى : ﴿وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٥) . وخفض الجناح كناية عن التواضع لهم والرفق بهم^(٣) ، وقد قام النبي ﷺ بذلك حق القيام ، وظهر أثر هذا التواضع في كل أحواله الذاتية والاجتماعية والأسرية ، وفي كل زمان ومكان بحيث لا يخلو حال من أحواله ﷺ عن التواضع لله تعالى والمؤمنين^(٤) ، وقد تأثر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالتربية القرآنية الكريمة ، والتربية

(١) «أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة» ، د. أحمد الحداد (١/٤٥٤) .

(٢) المصدر نفسه (١/٤٥٥) ، ينسب للمصدر الأصلي .

(٣) «روح المعاني» للألوسي (٥/٨٠) .

(٤) «أخلاق النبي في القرآن والسنة» (١/٤٥٩) .

النبوية الرشيدة، فكانت هذه الصفة متجسدة في شخصيته الفذة، وإليك بعض
المواقف:

(أ) أنا الذي أهنت الدنيا:

عن صالح بن أبي الأسود عن حدثه أنه رأى علياً رضي الله عنه قد ركب حماراً ودلى
رجليه إلى موضع واحد ثم قال: أنا الذي أهنت الدنيا^(١)، وهكذا يشعر أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالفرح لانتصاره على نفسه، وظهوره بمظهر
التواضع أمام الناس وهو خليفة المسلمين، إن مناصب الدنيا خداعة غرارة، وإن فتنة
الجاه بها أعظم من فتنة المال، فلطالما رأى الناس مسؤولين كانوا متواضعين قبل أن
يلوا، فلما تولوا مناصب كبيرة بدأ التعاضم في نفوسهم شيئاً فشيئاً، حتى يكون من
الصعب في آخر الأمر مخاطبتهم واللقاء معهم، لكن أولياء الله المتقين كلما ازدادوا
رفعة في المناصب الدنيوية زادوا تواضعاً للناس، وشعروا بالسرور وهم يقومون
بمظاهر التواضع التي تنفي عنهم صفة التجبر والكبرياء^(٢).

(ب) أبو العيال أحق أن يحمل:

روي عن علي رضي الله عنه: أنه اشترى تمرا بدرهم فحمله في ملحفة، فقالوا:
نحمل عنك يا أمير المؤمنين، قال: لا، أبو العيال أحق أن يحمل^(٣)، فهذا مثل
من تواضعه حيث حمل متاعه بنفسه مع كونه أمير المؤمنين ومع كبر سنه، فلم ير
في ذلك مسوغاً لقبول خدمة الناس له، وهو بهذا يجعل من نفسه قدوة حسنة
للمسلمين في التواضع فلو نازعت أحد الكبراء نفسه في تصور العيب من حمل
المتاع، فإنه بتذكره لموقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يزول ما في نفسه من ذلك،
ولو اعترض على أحد المتواضعين معترض فإن له من الاقتداء بأكبر أمير على
وجه الأرض ما يرد هذا الاعتراض^(٤).

(٢) «التاريخ الإسلامي» (٦٣/١٧) للحمدي.

(٤) «التاريخ الإسلامي» من (٦٤/١٧).

(١) «البداية والنهاية» (٥/٨).

(٣) «الزهد» للإمام أحمد ص (١٣٣).

(ج) معاملته لعمه العباس رضي الله عنهما:

عن صهيب مولى العباس ، قال : رأيت علياً رضي الله عنه يقبل يد العباس ورجله ويقول : يا عم ، ارض عني^(١) ولتأمل ما ورد في وصف ضرار الصدائي لعلي رضي الله عنه حيث يقول : يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا تنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له^(٢) .

ومن أقوال أمير المؤمنين في التواضع : تواضع المرء يكرمه^(٣) ، إن العبد كلما رسخ في العلم بالكتاب والسنة وعمل بهما ، وعرف حقيقة نفسه ازداد تواضعاً لله ولخلقه ، كما أن علة من أعجب بنفسه من بعض دعاة اليوم ، إنما هي من قلة العلم والفهم ، إضافة إلى انصراف نظر الداعي إلى كثرة من حوله من الأتباع ، وغفلته عن النظر إلى ما عند الله ، ثم إلى من فوقه من العلماء الربانيين ، وهذا من مداخل الشيطان الخفية على طلاب العلم والمحسوين على حق الدعوة ، وقد قيل من منثور الحكم : إذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال ، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء^(٤) ، ونختم هذه الصفة بقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : ما أحسن تواضع الغني للفقير رغبة في ثواب الله ، وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل^(٥) ، والتيه المقصود به الاستغناء بالله عما في أيدي الأغنياء ولا يعني أبداً التكبر والغرور .

رابعاً: كرمه وجوده:

من الأخلاق القرآنية الكريمة التي تجسدت في شخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، خلق الكرم والجود ، وقد كان تنويه القرآن الكريم بأهل الكرم

(١) «أصحاب الرسول» (١/٢٢٤) ، و«السير» للذهبي (٢/٩٤) ، وإسناده صحيح .

(٢) «الاستيعاب» (٣/١١٠٨) .

(٣) «منهج أمير المؤمنين علي في الدعوة» ص (٥٢٣) .

(٤) «هداية المرشدين» ص (١٠٥) لعلي محفوظ .

(٥) «موعظة المؤمنين» (٢/٣٤٤) ، و«فرائد الكلام» ص (٣٣٩) .

عظيماً، وقد كان هذا التنويه من أول القرآن الكريم حيث يقول سبحانه في مستهل ثاني سورة بعد البسمة: ﴿الْم ١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ٣) ﴿ ثم وصفهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤) أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١-٥).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَعُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ٢٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢١-٢٤)، وقد كان رسول الله صلوات الله عليه وآله قد بلغ مبلغ الكمال والعظمة في كافة الأخلاق ولا سيما خلق الكرم، وقد وصفته خديجة رضي الله عنها بقولها: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق^(١)، فهي تصفه بهذه الصفات البالغة العظمة والخطورة التي كان عليها قبل بعثته ورسالته، ولم يكن قد تحمل أعباء أمته، ولقد أضفت عليه النبوة زيادة كمال وعظمة، فكيف به بعد ذلك كله؟ لا جرم أن كرمه صلوات الله عليه وآله بعد ذلك سيكون بالغا ذروة الذرى في كرم الأنبياء وسائر البشر، وهو ما دلت عليه الدلائل النقلية الكثيرة^(٢)، وقد تأثر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالتربية القرآنية والنبوية وترك لنا آثاراً بارزة دالة على تأصل خلق الجود والكرم في شخصيته العظيمة، فقد ذكر الحافظ ابن كثير من خبر الأصبح ابن نباتة: أن رجلاً جاء علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة فرفعتها إلى الله تعالى قبل أن أرفعها إليك، فإن قضيتها حمدت الله وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله وعذرتك، فقال علي رضي الله عنه: اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك، فكتب: إني

(٢) «أخلاق النبي صلوات الله عليه وآله في القرآن والسنة» (٢/٦٤٨).

(١) «السيرة النبوية» (١/١١٦).

محتاج، فقال علي رضي الله عنه: علي بحلة، فأتي بها، فأخذها الرجل فلبسها، ثم أنشأ يقول:

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنُهَا
 فَسَوْفَ أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلًا
 إِنْ نِلْتَ حُسْنَ ثَنَائِي نِلْتَ مَكْرَمَةً
 وَلَسْتُ أَبْغِي بِمَا قَدْ قُلْتَهُ بَدَلًا
 إِنَّ الثَّنَاءَ لِيُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ
 كَالغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
 لَا تَزْهَدْ الدَّهْرَ فِي خَيْرٍ تَوَاقَعَهُ
 فَكُلُّ عَبْدٍ سَيُجْزَى بِالَّذِي عَمَلًا

فقال علي رضي الله عنه: علي بالدنانير، فأتي بمائة دينار فدفعها إليه، فقال الأصبغ: يأمر المؤمنين، حلة ومائة دينار؟ قال: نعم، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أنزلوا الناس منازلهم»، وهذه منزلة هذا الرجل عندي^(١)، فهذا موقف جليل لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، في الوقوف عند حاجات المحتاجين والاهتمام بأمورهم ورعاية مشاعرهم، وإن أروع ما في هذا الخبر قوله: اكتب حاجتك على الأرض فإني أكره أن أرى ذل السؤال في وجهك، فكم يعاني المحتاجون من الذل بين يدي من يعرضون عليهم حوائجهم، وقد يتلعثمون فلا يستطيعون النطق، ولقد كانت مشاعر ذلك المحتاج عظيمة حينما واجهه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بهذه المعاملة السامية، ولقد صاغ هذه الشاعر بالأبيات المذكورة^(٢)، وقد كان رضي الله عنه يفرح بقدوم الضيف، ويكرم إخوانه في الله

(١) «البداية والنهاية» (٩/٨).

(٢) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (١٧/١٢٧).

ويتفقدهم، فعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: لم يأتيني ضيف منذ سبعة أيام، أخاف أن يكون الله قد أهانني (١).

وقال: لعشرون درهما أعطيتها أخي في الله أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين (٢)، وعندما سئل عن السخاء، قال: ما كان منه ابتداء، فأما ما كان من مسألة فحياء وتكرم (٣)، وقد جعل في حياته أوقافاً لله تعالى؛ حيث جعل أرضه بينبع وقفاً وكتب فيها كتاباً: هذا ما أمر به علي بن أبي طالب، وقضى في ماله: إني تصدقت بينبع ووادي القرى الأذينة وراعة في سبيل الله وذو الرحم القريب والبعيد، ولا يوهب ولا يورث، حياً أنا أو ميتاً (٤)، وقد قال عن صدقته: لقد رأيتني وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار (٥)، ولم يرد بقوله أربعة آلاف دينار زكاة ماله، وإنما أراد الوقوف التي جعلها صدقة، كان الحاصل من دخلها صدقة هذا العدد، فإن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لم يدخر مالاً، ودليل ذلك (٦)، ما قاله ابنه الحسن بعد مقتله: لقد فارقكم رجل ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم، بقيت من عطائه، أراد أن يتباع بها خادماً، يعني علياً رضي الله عنه (٧)، وكان يحث الناس على إكرام العشيرة فيقول: أكرم عشيرتك؛ فإنهم جناحك الذي به تطير، فإنك بهم تصول، وبهم تطول، وهم العدة عند الشدة، أكرم كريمهم، وعد سقيمهم وأشركهم في أمورك، ويسر عن معسرهم (٨).

خامساً: الحياء من الله تعالى:

الحياء من أجل مكارم الأخلاق؛ لأنه يدل على طهارة النفس، وحياء الضمير ويقظة الوازع الديني ومراقبة الله تعالى؛ إذ من لم يكن ذا حياء لم يقر الضيف، ولم يف بالوعد، ولم يؤد الأمانة، ولم يقض لأحد حاجة، ولا تحرى الجميل

(١) «فرائد الكلام» ص (٤٠٢)، و«موعظة المؤمنين» (٢/٢٥٢).

(٢) «موعظة المؤمنين» (١/١٣٩).

(٣) «تاريخ الخلفاء» للسيوطي ص (٢٠٤).

(٤) «تراث الخلفاء الراشدين» ص (٥١٧).

(٥) «أسد الغابة» (٧/٤).

(٦) «صحيح التوثيق» ص (٧٧).

(٧) «الطبقات» (٣/٣٨).

(٨) «فرائد الكلام» ص (٣٤٨).

فآثره، والقبیح فتجنبه، ولا ستر عورة، ولا امتنع عن فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه؛ لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه، ولم يرع لمخلوق حقاً، ولم يصل له رحمًا، ولا بر له والدًا؛ فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني - وهو رجاء عاقبتها الحميدة - وإما دنيوي علوي، وهو حياء فاعلها من الخلق وقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق، وإما من الخلائق لم يفعلها صاحبها^(١)، وعلى حسب حياة القلب تكون قوة خلق الحياء، فكلما كان القلب أحيًا كان الحياء أتم، وقلة الحياء من موت القلب والروح^(٢)، وهو من شعب الإيمان؛ لأنه يكون باعثًا على أفعال البر، ومانعًا من المعاصي^(٣)، ولهذا كان من الأخلاق العليا التي كان للقرآن الكريم بها عناية عظيمة^(٤)، فقد تحدث القرآن الكريم عن الحياء في الجانب النبوي في قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعَمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، فترى كيف حملة الحياء على عدم مواجهة أصحابه بما كان يرغب فيه من خروجهم، ولم يستطع مشافهتهم بما يوده منهم^(٥)؛ لأنه عليه السلام، كان أشد حياءً من العذراء في خدرها^(٦)، وقد قال عليه السلام: «الحياء لا يأتي إلا بخير»^(٧)، وقد تجسد هذا الخلق في شخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد حدثنا عن هذا الخلق فقال: إني لأستحي من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أعظم من حلمي، أو عورة لا يوارئها ستري، أو خلة لا يسدها جودي^(٨)، فهذه أربع صفات من النقص قابلهن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأربع صفات من الكمال، فالحياء من الله عز وجل يقتضي من الإنسان أن يتصف بالعمو عند المقدرة، وذلك فيما

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٣٧٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٥٩).

(٤) «أخلاق القرآن الكريم» (١/٤٧٨).

(٦) «مسلم» رقم (٢٣٢٠).

(٨) «تاريخ دمشق» (٤٢/٥١٧) نقلًا عن «التاريخ الإسلامي» للحميدي (٢٠/٢٧٤).

(٣) «شرح مسلم» للنووي (٣/٥).

(٥) «أخلاق النبي في القرآن والسنة» (١/٤٧٨).

(٧) «مسلم» رقم (٣٧).

إذا لم يكن الذنب فيه حد من حدود الله تعالى وأن يتصف بالعلم الذي يحتوي جهل الجاهلين، وأن يكون ستارا لعيوب الناس، وأن يتسع كرمه لسد حاجة من احتاج إليه، ومما أعطى هذه الحكم وزنها الراجح أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه ربطها بالحياء من الله تعالى، فهذه الصفات الأربع تعتبر من صفات الكمال عند العقلاء، لكن كثيراً من العقلاء يتصف بها لكسب السمعة الدنيوية وسياسة الأمور بكسب الناس ورضاهم، أما أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فإنه ربطها بالحياء من الله تعالى؛ لأن هدفه الأعلى ابتغاء مرضات الله جل وعلا، ولا شك أن من هذا هدفه سيكون تمثيله لهذه الصفات أقوى بكثير ممن كان هدفه دنيوياً^(١).

سادساً: شدة عبوديته وصبره وإخلاصه لله تعالى:

مارس علي رضي الله عنه مفهوم العبادة الشامل في حياته، وتميز بقيامه ليل، وأصبح من أهل التهجد. الذي قال الله فيهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة: ١٦)، وقال تعالى فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: ١٦-١٨)، وقال تعالى فيهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣-٦٤) وهذا ضرار ابن ضمرة الكناني يصف علي بن أبي طالب لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: كان يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه يتميل في محرابه، قابضاً لحيته، يتململ تملل السليم^(٢) ويكي بكاء الحزين، فكأنني أسمعه الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا: أبي تغررت أم إلي تشوفت هيهات هيهات، غري غيري، قد باينتك^(٣) ثلاثاً، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير^(٤)، آه من قلة الزاد، وبعد

(١) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (٢٠/٢٧٥).

(٢) السليم: الملدوخ.

(٤) خطر بمعنى: القدر والمنزلة.

(٣) باينتك: أي طلفتك.

السفر ووحشة الطريق، فوكفت^(١) دموع معاوية رضي الله عنه على لحيته، ما يملكها وجعل ينشفها بكممه، وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال: كذا كان أبو الحسن -رحمه الله- كيف وجدك عليه يا ضرار؟ قال وجد من ذبح واحدها في حجرها، لا يرقأ^(٢) دمعها، ولا يسكن حزنها. ثم قام فخرج^(٣).

ودخل الأشتر النخعي على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو قائم يصلي بالليل، فقال له: يا أمير المؤمنين: صومٌ بالنهار وسهر بالليل وتعبٌ فيما بين ذلك، فلما فرغ «علي» من صلاته قال له: سفر الآخرة طويل، فيحتاج إلى قطعه بسير الليل^(٤)، وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يحث الناس على تقوى الله ومراقبته، وخشيته، فقد قال: أيها الناس، اتقوا الذي إن قلتم سمع وإن أضمرتم علم، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم وإن أقمتكم أخذكم^(٥)، وكان يقول: يأبها الناس خذوا عني هؤلاء الكلمات، فلو ركبتم المطي حتى تُنضوها - يعني تهزلوها - ما أصبتم مثلها: لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحي - إذا لم يعلم - أن يتعلم، ولا يستحي - إذا سئل عما لا يعلم - أن يقول: لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا خير في جسد لا رأس له^(٦) ففي هذه الوصية الجمع بين تصحيح التوحيد، والإرشاد إلى آداب العلم، حيث يوصي رضي الله عنه بتصحيح الاتجاه في مقامي الخوف والرجاء، فالمؤمن الحق لا يرجو إلا الله؛ لأنه وحده المنعم بسائر النعم، والذي تجري على أيديهم النعم من المخلوقين إنما هم وسائط وأسباب في وصول تلك النعم، أما منشئ النعم وموجدها فهو الله سبحانه وتعالى، والمؤمن الحق لا يخاف إلا من الله تعالى؛ لأنه هو الذي يملك ضره ونفعه، والمخلوقون الذين يتوهم الناس أنهم مصدر خوف إنما هم وجميع الخلق في قبضة الله تعالى، وإذا كان الله تعالى

(١) فوكفت: أي سألت.

(٢) حلية الأولياء (١/٨٤ - ٨٥)، و«الرقعة والبكاء» ص (١٩٨).

(٣) «لطائف المعارف» لابن رجب، و«التحسس لقيام الليل»، محمد صالح ص (٩٣).

(٤) «أدب الدنيا والدين» ص (١٢٣)، و«فرائد الكلام» ص (٣٦٩).

(٥) «حلية الأولياء» (١/٧٥)، و«صفة الصفوة» (١/٣٢٦).

وحده هو الرازق وهو الخالق وحده، وهو المالك وحده القادر على كل شيء فلم يرجو المؤمن سواه؟، أو يخاف من غيره ولقد عبر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الخوف من الله تعالى بالخوف من الذنوب؛ لأن المراد هو الخوف من عاقبتها وهو عذاب الله تعالى فهو إرشاد لأهم السبل الموصلة إلى تحقيق مقام الخوف من الله تعالى، ثم بين شيئاً من آداب التعلم؛ لأن أمور الدين إنما تؤخذ بالعلم، فيذكر من آداب المتعلم ألا يمنع الحياء من التعلم حتى لو كان كبير السن، أو القدر، ويذكر من آداب المعلم ألا يمنع الحياء من أن يقول: لا أعلم؛ لأن ذلك يحفظ عليه دينه ودين من سألته، ثم يختم وصيته النافعة ببيان أصل من أصول الإيمان ألا وهو الصبر حيث يعتبره من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وذلك أن نجاح الأمور كلها يقوم على الصبر سواء في أمور الدنيا أو الآخرة^(١).

وقد مارس أمير المؤمنين علي رضي الله عنه مقام الصبر في حياته منذ نعومة أظافره، وإسلامه سرّاً مع رسول الله صلّى الله عليه وآله مروراً بما لاقاه في المغازي والسرايا وعهد الخلفاء الراشدين وما صحبها من أحداث جسام، ومن ثم ما واجهه من صنوف الفتن في خلافته، إلى أن انتهى الأمر بقتله، كل هذه المراحل في حياته فيها الدروس البليغة لدعاة اليوم، والتنبيه لهم لما تحتاجه الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى من الصبر والتحمل ودفع الثمن^(٢)؛ ابتغاء مرضاة الله تعالى، وكان رضي الله عنه يحث أصحابه على مقام الصبر، فقد قال رضي الله عنه للأشعث ابن قيس: إنك إن صبرت جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور^(٣)، وقال رضي الله عنه: ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسم، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له^(٤)، وقال: الصبر مطية لا تكبو، والصبر له مكانته المعروفة في دين الله، فقد ذكر الله

(١) «التاريخ الإسلامي» (١٢/٤٣٤).

(٢) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٥٢٥).

(٣) «أدب الدنيا والدين» ص (٢٧٨)، و«فرائد الكلام» ص (٣٧١).

(٤) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم ص (١٥٣).

تعالى الصبر في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠)، وقد جاء ذكر فضائله في أحاديث كثيرة والصبر له ثلاثة أقسام وهي الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله والصبر على البلاء.

وقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حريصاً على أن تكون أعماله خالصة لوجه الله تعالى، عاملاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَمْرٌ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأعراف: ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)، وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: ١٤) وقوله جل شأنه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (غافر: ٦٥)، فقد كان أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قد تعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأعمال لا تقبل إلا إذا خلصت النية، فمعنى ذلك أن الإخلاص ركن أساسي في العبادة، وأن العبادة التي يفقد منها الإخلاص ترد على صاحبها كما جاء في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» (١)، فقد كان علي رضي الله عنه محارباً للشرك بجميع أشكاله وأنواعه سواء شرك الربوبية أو شرك الألوهية، وكان حريصاً في سكناته وحركاته أن تكون أعماله خالصة لوجه الله تعالى، وكان يحث الناس خصوصاً طلاب العلم على البعد عن الرياء، فقد قال رضي الله عنه: يا حملة العلم، اعملوا به؛ فإنما العالم من عمل بما علم، ووافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقة، فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إن أحدهم ليغضب على جليسه حين يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل (٢).

وقد أشار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى إحدى الأمراض الخطيرة عند بعض من

(١) «مسلم»، كتاب الزهد رقم (٢٩٨٥).

(٢) «سنن الدارمي» في المقدمة (١٠٦/١)، و«الجامع لأخلاق الراوي» (٩٠/١).

يجلس للتعليم للمباهاة والسمعة، ويغضب على طلابه لو تركوه وذهبوا لغيره، ولو كان هذا الذهاب فيه مصلحة لهم، فليست مصلحة طلابه عنده هي المهمة، بل المهم عنده مكانته وسمعته، وإن لم يقل ذلك بلسان المقال، فإنه يتبين من حكاية الحال^(١)؛ لأن من إخلاص الداعي إلى الله أن يكون همه أن يتبع الناس الحق ولو خالفوا رأيه، وهذه حال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد قال: اقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره الاختلاف حتى يكون الناس جماعة، أو أموت كما مات أصحابي^(٢)، وكان ذلك في رأي رآه في عدم جواز بيع أم الولد، وكان عمر يرى رأيه هذا ثم رجع علي رضي الله عنه عن رأيه الأول فرأى أنهم يبعن^(٣)، وهذا تعليم للدعاة وطلاب العلم أن الخلاف في الرأي المشروع أمر طبيعي يجب ألا تضيق به الصدور ولا يؤثر على وحدة الصف، إن ذعاة اليوم في أشد الحاجة أن يراجعوا أنفسهم في هذا الخلق وأين هم منه، وأن يتضرعوا إلى الله يمدهم بهذه الصفة الجميلة حتى ينالوا ثواب الله بعد مماتهم، وتثمر دعوتهم إلى الله في دنياهم، لقد كانت عبادة علي رضي الله عنه قائمة على كمال الإخلاص لله تعالى، واتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فالله هو المستحق للعبادة وحده، فقد كانت حياته كلها عبادة، ينتقل فيها من نوع إلى نوع، ومن حال إلى حال يمثّل قول الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، لقد كانت العبادة، عاملاً مهماً في تزكية الأخلاق والاستقامة على شرع الله تعالى، ولذلك عرف أمير المؤمنين الاستقامة في تفسيره لمعنى استقاموا فقال: أدوا الفرائض^(٤).

سابعاً: شكره لله:

والشكر هو صرف العبد كل ما أنعم به عليه إلى ما خلق لأجله^(٥)، يعني من نعمه الظاهرة والباطنة في النفس والمال، فيصرف ذلك كله إلى عبادة ربه بما

(١) «منهج علي بن أبي طالب» ص (٥١٣). (٢) «البخاري»، كتاب: فضائل الصحابة (٢٣/٣).

(٣) «فتح الباري» (٧/٧٣). (٤) «زاد المسير» (٧/٢٥٤).

(٥) «التوقيف علي مهمات التعاريف» ص (٤٣٥).

يليق بكل جارحة على الوجه الأكمل ، وإذا ما فعل ذلك كان قد أظهر نعم الله عليه ، وأدى واجب شكرها(١) . يعتبر الشكر من أجل الأخلاق السلوكية الإيمانية التي على المؤمن أن يتحلى بها في كل أحواله لما فيه من الاعتراف بالنعم لمسديها ، وقد دل على عظم مكانته انضواء جل الأخلاق الإيمانية تحته من محبة ورضا وتوكل ؛ لأن الشكر لا يتم إلا بعد التحلي بها ، ولا يكون إلا عند استشعارها(٢) ، ولقد كانت عناية القرآن الكريم بهذا الخلق عظيمة كعظم مكانته في الأخلاق ، فقد ورد ذكره في نحو من سبعين آية ، أمراً به ، وحثاً عليه ، وثناء على أهله ، ووعداً لهم بحسن جزائه ، ونهياً عن ضده مما يدل على أمر عظيم ، وهو أن هذا الخلق عظيم الشأن(٣) ، فقد قرن الله سبحانه في كتابه الذكر بالشكر ، فقال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ (البقرة: ١٥٢) ، وقرن سبحانه العبادة بالشكر ، قال تعالى : ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ١٧) . مما يدل على تلازم العبودية بالشكر تلازماً وثيقاً(٤) وكان رسول الله ﷺ صاحب القدح الملقى في كل الأخلاق الحميدة ومنها هذا الخلق ، ورعى أصحابه ومنهم علي بن أبي طالب ؓ على هذا الخلق ، فكان لا يشعر بنعمة إلا شكر الله عليها ، وكان إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده ، وقال : يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها(٥) ، وعن أمير المؤمنين علي ؓ أنه قال لرجل من أهل همدان : إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر متعلق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد(٦) ، وكان ؓ يرى أن من شكر النعمة العفو عن الخصم ، فقد قال ؓ : إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للمقدرة عليه(٧) .

(١) «أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة» ص (١٨٥) .

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٢٤٩) .

(٣) «أخلاق النبي في القرآن والسنة» (١/١٨٦) . (٤) المصدر نفسه (١/١٨٧) .

(٥) «عدة الصابرين» ص (١٢٢) ، و«علو الهمة» (٥/٤٨١) .

(٦) «الشكر» لابن أبي الدنيا ، نقلاً عن «علو الهمة» (٥/٤٨١) .

(٧) «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي ص (٣٠) .

ثامناً: الدعاء لله:

الدعاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات وانهاالت عليه البركات، ولذلك حرص أمير المؤمنين رضي الله عنه على حسن الصلة بالله وكثرة الدعاء، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠). وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦)، وقد لازم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه رسول الله صلوات الله عليه ورأى كيف كان رسول الله صلوات الله عليه يستغيث بالله ويستنصره ويطلب المدد منه، وقد حرص أمير المؤمنين على أن يتعلم هذه العبادة من رسول الله صلوات الله عليه، وأن يكون دعاؤه وتسبيحه على الصيغة التي يأمر بها رسول الله صلوات الله عليه ويرتضيها؛ إذ ليس للمسلم أن يفضل على الصيغة المأثورة في الدعاء والتسبيح والصلاة على النبي صيغاً أخرى مهما كانت في ظاهرها حسنة اللفظ، جيدة المعنى؛ لأن رسول الله صلوات الله عليه وهو معلم الخير والهادي إلى الصراط المستقيم، هنا وهو أعرف بالأفضل والأكمل، وقد نسب أقوام كثيراً من الدعاء والذكر المتدع لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كذباً وزوراً وبهتاناً، فمن كان محباً لأمر المؤمنين علي رضي الله عنه، فعليه أن يتبع هديه ومنهجه، فقد أرشدنا لمتابعة النبي صلوات الله عليه في الأقوال والأفعال.

وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه صاحب دعوة مستجابة، فعن زاذان أبي عمر أن رجلاً حدث علياً بحديث فقال: ما أراك إلا قد كذبتني، قال: لم أفعل قال: أدعو عليك إن كنت كذبت، قال: ادع؛ فدعا فما برح حتى عمي (١)، وكان رضي الله عنه يقول عندما يثنى عليه: اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً مما يظنون (٢)، ويروي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن رسول الله صلوات الله عليه أنه قال: «إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليرد

(١) « البداية والنهاية » (٦/٨).

(٢) « فرائد الكلام »، و« موعظة المؤمنين » (٢٢٨/٢).

عليه من حوله: يرحمك الله، وليرد عليهم: يهديكم الله، ويصلح بالكم»^(١)، وفي هذا الفعل من حسن الخلق تأدب مع الله سبحانه وتعالى بحمده والثناء عليه في مناسبة أمر فيها العبد بذلك .

قال الحلبي: العطاس يدفع الأذى من الدماغ، الذي فيه قوة الفكر، ومنه منشأ الأعصاب، التي هي معدن الحس وبسلامته تسلم الأعضاء، فيظهر بذلك أنها نعمة جليلة، فناسب أن تقابل بالحمد لله؛ لما فيه من الإقرار لله بالخلق والقدرة، وإضافة الخلق إليه لا إلى الطباع^(٢)، وبين أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أدباً من آداب المسافر فيما يرويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرًا قال: «بك اللهم أصول وبك أجول، وبك أسير»^(٣). وبين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أدباً آخر من آداب المسافر، وذلك لما أراد سفرًا ووضع رجله في الركاب قال: بسم الله، فلما استوى قال: الحمد لله، ثم قال: سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، ثم حمد الله ثلاثاً، وكبر ثلاثاً، ثم قال: اللهم لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك، قال: فقيل: ما يضحكك يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فعل مثل ما فعلت، وقال مثل ما قلت، ثم ضحك، فقلنا: ما يضحكك يا نبي الله قال: «عجبت للعبد، إذا قال: لا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يعلم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو^(٤)، وعن ابن أعبد قال: قال لي علي بن أبي طالب عليه السلام: يا بن أعبد، هل تدري ما حق الطعام؟ قال: قلت: وما حقه يا بن أبي طالب؟ قال: تقول: بسم الله، اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، قال: وتدرى ما شكره إذا فرغت؟ قال: قلت: وما شكره؟ قال تقول: الحمد لله الذي أطعمنا

(١) «سنن ابن ماجه» (١٢٢٤/٢)، «صحيح سنن ابن ماجه» للألباني (٣٠٣/٢).

(٢) «الفتح الباري» (٦٠٢/١٠).

(٣) «مسند أحمد» (٨٣/٢) إسناده صحيح، قاله: أحمد شاكر.

(٤) «مسند أحمد» (١٨٣/٢)، وإسناده صحيح قاله أحمد شاكر.

وسقانا^(١)، وكان رضي الله عنه إذا رأى الهلال قال: «اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وفتحته ونصره وبركته ورزقه ونوره وطهوره وهداه، وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وشر ما بعده»^(٢)، وكان يقول في السجود: «رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي»^(٣)، وكان يقول بين السجدين: «اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني وارزقني»^(٤).

وكان يُعَلِّم من دخل السوق هذا الدعاء فيقول: إذا دخلت السوق فقل: «بسم الله الرحمن الرحيم، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إني أعوذ بك من يمين فاجرة، وشفقة خاسرة، ومن شر ما أحاطت به هذه السوق»^(٥)، وكان يقول: «ما من كلمات أحب إلى الله من أن يقول العبد: «الله لا إله إلا أنت، اللهم لا أعبد إلا إياك، اللهم لا أشرك بك شيئاً، اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٦)، وكان يقول: «اللهم ثبتنا على كلمة العدل بالرضى والصواب، وقوام الكتاب، هادين مهدين، راضين مرضيين، غير ضالين، ولا مضلين»^(٧)، ومن أدعيته رضي الله عنه: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء، وبجبروتك الذي غلبت به كل شيء، وبعظمتك التي غلبت بها كل شيء، وسلطانك الذي ملأت به كل شيء، وبقوتك التي لا يقوم لها شيء، وبنورك الذي أضاء له كل شيء، وبعلمك الذي أحاط بكل شيء، وباسمك الذي تبيد به كل شيء، وبوجهك الباقي بعد فناء كل شيء، يا الله يارحمن يا رحيم، اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم، والذنوب التي تورث الندم، واغفر لي الذنوب التي تحبس القسم، واغفر لي الذنوب التي تغير النعم، واغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء، وتديل الأعداء، واغفر لي الذنوب التي تحبس غيث السماء وترد الدعاء، واغفر لي الذنوب التي تردني إلى

(١) «مسند أحمد» (٣٢٩/٢) قال المحقق: وإسناده حسن.

(٢) «كنز العمال» رقم (٢٤٣١٠)، و«فقه علي بن أبي طالب»، لقلعجي ص(٢٥١).

(٣) «فقه علي بن أبي طالب»، لقلعجي ص(٢٥١).

(٤) «فقه علي بن أبي طالب» (ص ٢٥١).

(٥) المصدر نفسه ص (٢٥١).

(٦) «فقه علي بن أبي طالب» ص(٢٥٢).

(٧) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٤٩/٢).

النار^(١)، وهذا الدعاء يبين افتقار أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه إلى ربه وخوفه من ذنوبه، ويعلمنا كيفية التعامل مع أسماء الله الحسنى ودعاء الله بها سبحانه وتعالى، وهذا الدعاء يسلط الأضواء على عبودية أمير المؤمنين لله عز وجل.

وعن عليّ رضي الله عنه قال: لَقَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ وَأَمَرَنِي إِنْ نَزَلَ بِي كَرْبَةٌ أَوْ شِدَّةٌ أَنْ أَقُولَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ، سُبْحَانَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٢)، وكان عبدالله بن جعفر يلقنها الميت وينفث بها على الموعوك^(٣)، ويعلمها المغتربة من بناته^(٤).

هذه بعض صفاته التي كانت ثماراً لتوحيده وإيمانه بالله، واستعداده للقدوم على الله تعالى، وسوف يلاحظ القارئ الكريم كثيراً من صفاته بإذن الله تعالى؛ كالشجاعة، والحلم والفصاحة، والبلاغة، وغيرها من الصفات من خلال الأحداث التي تمر بها في هذا الكتاب.

تاسعاً: المرجعية العليا لدولة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

كانت المرجعية العليا لدولة أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والافتداء بالشيخين في هديهم.

١ - فالمصدر الأول هو كتاب الله: قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا» (النساء: ١٠٥)، فكتاب الله تعالى يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق بشؤون الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «... الزموا دينكم واهتدوا بهدي نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه»^(٥).

(١) «فقه علي بن أبي طالب» ص (٢٥٢).

(٢) «سنن البيهقي» (١٢٩/٧)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم رقم (٣٥٢).

(٣) الموعوك من الوعك، وهو الحمى وقيل: ألمها.

(٤) «فضائل الصحابة» (٢/ ٨٢٠) إسناده حسن.

(٥) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٦).

٢- **المصدر الثاني: السنة المطهرة:** التي يستمد منها الدستور الإسلامي أصوله ومن خلاله يمكن معرفة الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن الكريم^(١)، فقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام : واقتدوا بهدي نبيكم عليه السلام ؛ فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته؛ فإنها أفضل السنن^(٢).

٣- **الاقْتداء بالخلفاء الراشدين الذين سبقوه:** قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اقتدوا بالذين من بعدي: أبي بكر وعمر»^(٣). وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، لا يحبهما إلا مؤمن تقي، ولا يبغضهما إلا فاجر ردي، صحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدق والوفاء، يأمران وينهيان وما يجاوزان فيما يصنعان رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بمثل رأيهما، ولا يحب كحبهما أحداً، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهما راض، ومضيا والمؤمنون عنهما راضون - واستمر في حديثه إلى أن قال في أبي بكر - وكان والله خير من بقي، أرحمه رحمه، وأرافه رأفة، وأثبتته ورعاً، وأقدمه سنناً وإسلاماً، فسار فينا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضى على ذلك، ثم ولي عمر الأمر من بعده... فأقام الأمر على منهاج النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه، يتبع آثارهما كتباع الفصيل^(٤) أمه... إلى أن قال: فمن لكم بمثلهما - رحمة الله عليهما - ورزقنا المضي على سبيلهما، فإنه لا يبلغ مبلغهما إلا باتباع آثارهما والحب لهما، ألا من أحبني فليحبهما ومن لم يحبهما فقد أبغضني وأنا منه بريء^(٥)، وكان رضي الله عنهما يدافع عن اجتهادات عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويقول: يأيها الناس لا تغلوا في عثمان رضي الله عنه، ولا تقولوا له إلا خيراً - أو قولوا خيراً - فوالله ما فعل الذي فعل - أي في المصاحف - إلا عن ملأ منا جميعاً أي الصحابة... ووالله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل^(٦)، وكان يقول: ما كنت لأحل عقدة شدها عمر رضي الله عنه^(٧).

(١) «فقه التمكين في القرآن الكريم» للصلابي ص (٤٣٢).

(٢) «البداية والنهاية» (٣١٩/٧). (٣) «صحيح سنن الترمذي» (٣/٢٠٠).

(٤) الفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه. (٥) «شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة» لللاكائي رقم (٤٤٥٦).

(٦) «فتح الباري» (٨/٩) إسناده صحيح.

(٧) «المختصر من كتاب الموافقة» ص (١٤٠)، وإسناده منقطع، و«ابن أبي شيبة في المصنف» رقم (١٢٠).

عاشراً: حق الأمة في الرقابة على الحكام:

إن للأمة الحق في مراقبة الحكام وتقويمهم قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤). وكان أول ما قاله أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه إثر توليه: إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم إلا أنه ليس لي أمر دونكم^(١)، وهذا نفس ما قاله أبو بكر رضي الله عنه عندما تولى حيث قال: فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني^(٢)، وما قاله عمر رضي الله عنه: أحب الناس إلي من رفع إلي عيوبي^(٣)، وقال: إني أخاف أن أخطئ فلا يرذني أحد منكم تهيئاً مني^(٤)، وما قاله عثمان رضي الله عنه: إن وجدتم في كتاب الله أن تضعوا رجلي في القيد فضعوا رجلي في القيد^(٥)، وبذلك يكون قد جرى العمل في عهد الخلفاء الراشدين على التسليم للأمة بحق الرقابة على الحكام، ولم ينكره أحد فدل ذلك على الإجماع^(٦)، كما أن إجماع الصحابة - حكاماً ومحكومين - في عهد الخلافة الراشدة ليس له إلا معنى واحد وهو الفهم الصحيح للكتاب، والطريق السليم للعمل بالسنة، فهم الذين عاصروا عهد تنزيل الكتاب وعاشوا طريقة النبي صلوات الله عليه في إقامة حياة الناس عليه، فهم أفهم الناس لروح الدين، وأعرف الناس بمقاصد الشرع، وأقدر الناس على التمييز بين الحق والباطل، ومن المستبعد بل من المحال أن يجتمعوا على باطل؛ لقول النبي صلوات الله عليه: «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة»^(٧)، ولهذا كان إجماعهم حجة يسوغ أن تراعى وتوضع ضمن مصادر الدستور الإسلامي، وإجماع الأمة قد يكون على فهم نص، ويجوز أن ينعقد الإجماع عن اجتهاد وقياس، ويكون حجة^(٨)، إن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه كان يبحث الناس في

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٤٩، ٤٥٧).

(٢) «الشيخان أبو بكر وعمر من رواية البلاذري» ص (٢٣١).

(٣) المصدر نفسه ص (٢٣١)، و«نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» ص (١٩٨).

(٤) «مسند أحمد» الموسوعة الحديثية رقم (٥٢٤).

(٥) «الدولة والسيادة في الفقه الإسلامي»، لفتحي عبدالكريم ص (٣٧٨).

(٦) «روضة الناظر وجنة المناظر» (١/٣٨٥).

(٧) «سنن ابن ماجه» (٢/٢٦٤) رقم (٤٠١٤).

خلافته على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فقد خطب ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنما هلك من هلك قبلكم بركوبهم المعاصي ولم ينههم الربانيون والأحبار، فأخذتهم العقوبات، فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً^(١).

الحادي عشر: الشورى: إن من قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم وإمضاء نظام الحكم بالشورى، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنت لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (الشورى: ٢٨).

لقد قرنت الآية الكريمة حكم الشورى بين المسلمين بإقامة الصلاة، فدل ذلك على أن حكم الشورى كحكم الصلاة، وحكم الصلاة أنها واجبة شرعاً، فكذلك الشورى واجبة شرعاً^(٢)، وقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حريصاً على التزام منهج الشورى في تصرفاته وأعماله وقراراته، فمن ذلك أنه حينما وصل إليه كتاب من قائده معقل بن قيس الرياحي المكلف بمحاربة الخريث بن راشد الخارجي، جمع أصحابه وقرأ عليهم كتابه واستشارهم وطلب منهم الرأي حيث اجتمع رأي عامتهم على قول واحد وهو: نرى أن تكتب إلى معقل بن قيس فيتبع أثر الفاسق فلا يزال في طلبه حتى يقتله أو ينفيه فإننا لا نأمن أن يفسد عليك الناس^(٣)، ومما روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في الشورى قوله: الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استغنى برأيه^(٤)، وقوله: نعم المؤازرة المشاورة وبئس

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١٥/٣)، و«تفسير ابن كثير» (٦٠٣/٢).

(٢) «النظام السياسي في الإسلام» لأبي فارس ص (٩).

(٣) «تاريخ الطبري» (٣٩/٦).

(٤) «أدب الدنيا والدين» للماوردي ص (٢٩١، ٨٩)، و«الإدارة العسكرية» (٢٧٩/١).

الاستعداد الاستبداد^(١)، وقوله: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام^(٢)، ومما أوصى به أمير المؤمنين علي مالك بن الحارث الأشتر حين بعثه إلى مصر في الشورى قوله: لا تدخلن في مشورتك بخيلاً فيعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جبناً فيضعفك عن الأمور، ولا حريصاً فيزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله^(٣)، وكان عليّ رضي الله عنه يعلم أن الحاكم إذا لم يكن له مستشارون فلا يعلم محاسن دولته ولا عيوبها، وسوف يغيب عنه الكثير من شؤون الدولة وقضايا الحكم، وكان يعلم أن الشورى تعرفه ما يجهله، وتضع أصابعه على ما لا يعرفه، وتزيل شكوكه في كل الأمور التي يقدم عليها، فها هو يقول للأشتر النخعي عندما ولاه مصر: انظر في أمور عمالك الذين تستعملهم، فليكن استعمالك إياهم اختياراً ولا يكن محاباة ولا إثارة؛ فإن الأثرة بالأعمال - أي الاستبداد بلا مشورة - والمحاباة بها جماع من شعب الجور، والخيانة لله وإدخال الضرر على الناس وليست تصلح أمور الناس ولا أمور الولاية إلا بإصلاح من يستعينون به على أمورهم، ويختارونه لكفاية ما غاب عنهم، فاصطف لولاية أعمالك أهل الورع والعفة والعلم والسياسة، والصق بذوي التجربة والعقول والحياء من أهل البيوتات الصالحة وأهل الدين والورع؛ فإنهم أكرم أخلاقاً وأشد لأنفسهم صوتاً وإصلاحاً، وأقل في المطامع إسرافاً وأحسن في عواقب الأمور نظراً من غيرهم، فليكونوا عمالك وأعوانك^(٤).

الثاني عشر: العدل والمساواة:

إن من أهداف الحكم الإسلامي الحرص على إقامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتمع المسلم، ومن أهم هذه القواعد العدل والمساواة، وقد قام

(١) «نهاية الأرب» (٦٩/٦) نقلاً عن «الإدارة العسكرية» (٢٧٩/١).

(٢) المصدر نفسه (٧٥/٦)، نقلاً عن المصدر نفسه (٢٧٩/١).

(٣) «الإدارة العسكرية في الدولة الإسلامية» (٢٧٩/١).

(٤) «نهاية الأرب» (٢١/٦)، و«في الحكم الإسلامي» ص (١٥١)، و«الشورى بين الأصالة والمعاصرة» عز الدين التميمي ص (١٠٢).

أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بإقامة العدل بين الناس، وقد تضافرت كل الخصال الحميدة والمعطيات العلمية والفقهية التي جعلته مؤهلاً للقيام بدوره هذا على أكمل وجه، حتى إن الرسول صلوات الله عليه لثقته به وبقدراته بعثه قاضياً إلى اليمن^(١)، وقد دعا له رسول الله صلوات الله عليه بهذا الدعاء العظيم: «اللهم ثبت لسانه، واهد قلبه»^(٢)، لذلك كان من الطبيعي أن يقيم حكمه على العدل الشامل وأن يجعله على رأس غايات وأهداف الحكم؛ لأنه به تستقيم الأمور وتظهر المودة بين الرعية^(٣)، ولاشك أن العدل في فكر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، هو عدل الإسلام الذي هو الدعامة الرئيسية في إقامة المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي، فلا وجود للإسلام في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل، لقد كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قدوة في عدله أسر القلوب وبهر العقول، فالعدل في نظره الذي يسعى لتطبيقه في الحكم هو أحد أهم ركائز الخلافة الراشدة، دعوة عملية للإسلام تفتح قلوب الناس للإيمان، وقد سار على ذات نهج الرسول صلوات الله عليه فكانت سياسته تقوم على العدل الشامل بين الناس، فعن شريح قال: لما توجه علي رضي الله عنه إلى حرب معاوية رضي الله عنه، افتقد درعا له، فلما انقضت الحرب ورجع إلى الكوفة، أصاب الدرع في يد يهودي يبيعها في السوق، فقال له: يا يهودي، هذا الدرع درعي، لم أبع ولم أهب. فقال اليهودي: درعي وفي يدي. فقال علي: نصير إلى القاضي، فتقدما إلى شريح، فجلس علي إلى جنب شريح، وجلس اليهودي بين يديه.

فقال شريح: قل يا أمير المؤمنين، فقال: نعم، أقول: إن هذه الدرع التي في يد اليهودي درعي، لم أبع ولم أهب. فقال شريح: يا أمير المؤمنين بيته، قال: نعم قنبر^(٤) والحسن والحسين يشهدون أن الدرع درعي، قال: شهادة الابن لا

(١) «نظام الحكم في العهد الراشدي»، لحمد الصمد ص (١٤١).

(٢) «فضائل الصحابة» (٨٧١/٢)، وإسناده حسن رقم (١١٩٥).

(٣) «نظام الحكم في العهد الراشدي» ص (١٤١).

(٤) مولى لعلي رضي الله عنه.

تجوز للأب ، فقال : رجل من أهل الجنة لا تجوز شهادته؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحسن والحسين سيदा شباب أهل الجنة»^(١) . فقال اليهودي : أمير المؤمنين قدمني إلى قاضيه ، وقاضيه قضى عليه؟ أشهد أن هذا الحق ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن الدرع درعك ، كنت راكباً على جملك الأورق وأنت متوجه إلى صفين ، فوقعت منك ليلاً ، فأخذتها . قال : أما إذ قلتها فهي لك ، وحمله على فرس ، فرأيته وقد خرج فقاتل مع علي رضي الله عنه الشراة بالنهروان^(٢) .

ومن أمثلة عدله في الحكم ، عن ناحية القرشي عن أبيه قال : كنا قياماً على باب القصر إذ خرج علي رضي الله عنه علينا فلما رأيناه تنحينا عن وجهه هيبة له ، فلما جاز صرنا خلفه ، فبينما هو كذلك إذ نادى رجل : يا غوثا بالله ، فإذا رجلان يقتتلان ، فلكر صدر هذا وصدر هذا ، ثم قال لهما : تنحيا ، فقال أحدهما : يا أمير المؤمنين إن هذا اشترى مني شاة وقد شرطت عليه ألا يعطيني مغموراً ولا محذقاً - يعني الدراهم المعيبة - فأعطاني درهماً مغموراً فرددته عليه فلطمني ، فقال للآخر : ما تقول؟ قال : صدق يا أمير المؤمنين قال : فأعطه شرطه ، ثم قال للآطم : اجلس ، وقال للملطوم : اقتص ، قال : أو عفو يا أمير المؤمنين . قال : ذلك إليك ، قال : فلما جاز الرجل قال علي رضي الله عنه : يا معشر المسلمين خذوه ، قال : فأخذوه فحمل علي ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتاب ، ثم ضربه خمس عشرة درة ، ثم قال : هذا نكال لما انتهكت من حرمة ، وفي رواية أنه قال : هذا حق السلطان^(٣) .

هذا وإن هذا الخبر ليعتبر مثلاً عالياً للتواضع حيث يخرج أمير المؤمنين من بيته إلى السوق يتفقد أحوال الناس ، ويقوم بنفسه في حل مشكلاتهم ، وهو نوع من السلوك العالي الذي يبرز وجود الولاية في واقع حياة الرعية سواء قام بذلك الوالي الأكبر أو من دونه ، ولا يلزم تكرار هذا الوجود كل يوم؛ إذ يكفي شعور الناس بأن

(١) «مصنف بن أبي شيبة» رقم (١٢٢٢٥) ، و«المستدرک» (١٦٦/٣) ، حديث صحيح من أوجه كثيرة .

(٢) الشراة : الخوارج . النهروان : بين واسط وبغداد . (٣) «تاريخ الطبري» (٧٢/٦ ، ٧٣) .

الولاية معهم في مشكلاتهم ليطمئن صاحب الحق على بقاء حقه في حوزته، وعودته إليه فيما لو اعتدي عليه، وليرتدع من تسول له نفسه الاعتداء على حقوق الناس، وقبل ذلك وأهم منه أن يرتدع كل من يحدث نفسه بالاعتداء على حق الله تعالى، وهذا الوجود المتلاحم بين الوالي والرعية يظهر بصور متعددة تتناسب مع أنماط الحياة في كل عصر، فلا يقولن قائل بأن ما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يعتبر سائغاً في عصره ولكنه بعيد التصور في هذا العصر؛ فإنه لا عبرة بالأشكال والصور، وإنما العبرة بالأهداف والمقاصد التي بها تتحقق الحياة السعيدة للمسلمين، وذلك برعاية حق الله أولاً، ثم حقوق الناس العامة والخاصة، وفيما أمر به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من إجراء العقوبة على المعتدي مع تنازل صاحب الحق دلالة على إدراكه رضي الله عنه لمقاصد الإسلام من حفظ الأمن، وإشاعة السلام بين المؤمنين، وبذلك سيرتدع من تميل نفسه إلى الاعتداء على غيره إذا عرف بأن العقوبة ستجرى عليه ولو عفا عنه خصمه^(١)، ومن مواقف عدله رضي الله عنه ما رواه عاصم بن كليب عن أبيه قال: قدم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه مال من أصبهان^(٢)، فقسمه سبعة أسباع، فوجد فيه رغيماً، فقسمه سبع كسر، وجعل على كل جزء كسرة، ثم أقرع بينهم، أيهم يعطى أول^(٣)، وأما مبدأ المساواة الذي اعتمده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في دولته، فيعد أحد المبادئ العامة التي أقرها الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

وجاءت ممارسة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لهذا المبدأ خير شاهد، ومن هذه المواقف، حرصه على تقسيم المال فور وروده إليه على الناس بالتساوي، بعد أن يحتجز منه ما ينبغي أن يأخذ منه للإنفاق على المرافق العامة، ولم يكن يستبيح لنفسه أن يأخذ من هذا المال إلا مثلما يأخذه غيره من الناس، كما أنه كان يعطي معارضيه من الخوارج من العطاء مثلما يعطي غيرهم وهذا قبل سفكهم للدماء،

(١) «التاريخ الإسلامي» للحمدي (١٢/٤٣٣، ٤٢٣).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٢/٤٤٢).

(٣) مدينة عظيمة في بلاد فارس.

واعتدائهم على الناس^(١)، وكان رضي الله عنه يساوي في العطايا بين الناس وبذلك يكون اقتداء بالصديق في هذا الباب، وكان رضي الله عنه لا يفضل شارفاً على مشروف، ولا عربياً على أعجمي، فقد دفع مرة طعاماً ودرهماً بالتساوي إلى امرأتين إحداهما عربية، والثانية أعجمية، فاحتجت الأولى قائلة: إني والله امرأة من العرب، وهذه من العجم، فأجابها علي رضي الله عنه: إني والله لا أجد لبني إسماعيل في هذا الفيء فضلاً على بني إسحاق. وكذلك لما طلب إليه تفضيل أشرف العرب وقريش على الموالي والعجم، قال: لا والله، لو كان المال لي لواسيت بينهم، فكيف وإنما هي أموالهم؟^(٢).

وعن يحيى بن سلمة رضي الله عنه قال: استعمل علي عمرو بن سلمة على أصبهان فقدم ومعه مالا وزقاق فيها غسل وسمن، فأرسلت أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها إلى عمرو تطلب منه سمناً وعسلاً، فأرسل إليها ظرف غسل وظرف سمن، فلما كان الغد خرج علي وأحضر المال والغسل والسمن ليقسم، فعد الزقاق فنقصت زقين، فسأله عنهما، فكتمه وقال: نحن نحضرهما، فعزم عليه إلا ذكرها له، فأخبره، فأرسل إلى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرأهما قد نقصا، فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما، فكان ثلاثة دراهم، فأرسل إليها فأخذها منها، ثم قسم الجميع^(٣).

وعن أبي رافع رضي الله عنه وقد كان خازناً لعلي رضي الله عنه على بيت المال، قال: دخل علي يوماً، وقد زينت ابنته، فرأى عليها لؤلؤة من بيت المال قد كان عرفها، فقال: من أين لها هذه؟ لله علي أن أقطع يدها، قال: فلما رأيت جده في ذلك قلت: أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخي، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم أعطاها؟ فسكت^(٤).

الثالث عشر: الحريات:

مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في عهد الخلفاء

(٢) «تراث الخلفاء الراشدين» ص (١٠١).

(٤) «تاريخ الطبري» (٦/٧٢).

(١) «نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» ص (٢١٦).

(٣) «الكامل في التاريخ» (٢/٤٤٢).

الراشدين ، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحريات العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها، فقد كانت دعوة الإسلام لحرية الناس - جميع الناس - دعوة واسعة عريضة قلما تشتمل على مثلها دعوة في التاريخ ، وكانت أول دعوة أطلقها في هذا المجال هي دعوته الناس في العديد من الآيات القرآنية لتوحيد الله، والتوجه له بالعبادة وحده، دون سائر الكائنات والمخلوقات، وفي دعوة التوحيد هذه كل معاني الحرية والاستقلال لبني الإنسان، أضف إلى ذلك أن الإسلام عرف الحرية بكل معانيها ومدلولاتها ومفاهيمها، فتارة تكون فعلاً إيجابياً كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتارة فعلاً سلبياً كالامتناع عن إكراه أحد في الدخول في الدين، وفي أحيان كثيرة يختلط معناها بمعنى الرحمة، والعدل والشورى والمساواة؛ لأن كل مبدأ من هذه المبادئ التي نادى بها الإسلام لا يستقيم أمره ولا يمكن تحقيقه إلا بوجود الحرية .

وقد أسهم مبدأ الحرية مساهمة فعالة إبان حكم الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم خاصة بانتشار الدين الإسلامي، وبتهيئ فتوحات المسلمين واتساع رقعة دولتهم؛ لأن الإسلام كرم الإنسان وكفل حرياته على أوسع نطاق ولأن النظم السياسية الأخرى السائدة آنذاك في دولة الروم والفرس كانت أنظمة استبدادية وتسلطية، وفتوية قاس بسببها الرعايا وبصورة خاصة المناوئون السياسيون والأقليات الدينية أشد درجات الكبت والاضطهاد والظلم، وأما في الإسلام في عهد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين، فقد كانت الحريات العامة المعروفة في أيامنا معلومة ومصونة تماماً^(١)، وقد كان لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه أقوال تدافع عن الحريات ومواقف تدعم هذا المبدأ في المجتمع الإسلامي، فمن أقواله: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد^(٢)، وقوله الموجز هذا يدل على أن الاعتداء على الناس كافة بأي شكل كان غير جائز في الإسلام، وذكر المعتدين بعذاب الله يوم القيامة وفي أيام عهد الراشدين رضي الله عنهم، وعرف عنه قوله: ليس من العدل القضاء على الثقة

(١) «نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» ص (١٥٧، ١٥٨).

(٢) «نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» ص (١٦٥).

بالظن^(١)، وقوله هذا يدل دلالة واضحة على أنه ليس من الجائز أخذ الناس بالشبهات والحكم عليهم لمجرد الظنون والشكوك، بل ينبغي أن يكون ذلك بالثقة أي باليقين المستند إلى أدلة دامغة وأكيدة لا تقبل الجدل حولها، وخير هذه الأدلة ما نصت عليه الشريعة^(٢)، وبذلك يكون المبدأ الذي أقرته التشريعات الجزائية الحديثة- القائل: بأن المتهم يبقى بريئاً حتى إثبات العكس- قد عرفه الإسلام منذ أمد بعيد^(٣).

وقد تجلّى مبدأ الحرية على أروع صورته ومعانيه أيام عليّ رضي الله عنه، وبالرغم من أنه كانت هناك ظروف استثنائية (فتن، مؤامرات، وحروب)، تبرر الحاجة إلى تقييد حرية الأفراد في ذهابهم وإيابهم وإقامتهم أو ما يسمى في العصر الحديث بقانون الطوارئ إلا أن علياً رضي الله عنه لم يقيد حرية أحد، سواء كان من أتباعه أم من خصومه، ولم يكره أحداً على الإقامة والبقاء في ظل سلطانه أو على الخروج منه ولا حتى على المسير معه لمقاتلة أعدائه، ولم يصد أحداً من الناس عن اللحاق بمعاوية^(٤)، كما أنه لم يقيد حرية أصحاب عبد الله بن مسعود وعبيدة السلماني والربيع بن خيثم رضي الله عنه ولم يكرههم على المسير معه لمقاتلة أهل الشام عندما رفضوا ذلك، بل سمح لهم بالذهاب لبعض الثغور نزولاً على رغبتهم^(٥).

وعندما ثار عليه الخوارج بعد معركة صفين بسبب قبول التحكيم، فإنه لم يكره أحداً منهم على البقاء في ظل سلطانه أو الخروج منه، بل بالعكس فقد كان يأمر عماله بعدم التعرض لهم في طريقهم طالما أنهم لا يفسدون في الأرض ولا يعتدون على الناس^(٦)، وقال لهم: . . . إن لكم عندنا ثلاثاً، لا نمنعكم صلاة في هذا المسجد، ولا نمنعكم نصيبكم من هذا الفياء ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا^(٧).

(١) «نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» ص (١٦٥).

(٢) هذه الأدلة هي: البيئة الخطية المنظمة وفقاً لأحكام الشريعة، أو الثابتة بشهادة رجلين أو بشهادة رجل وامرأتان وأحياناً بشهادة أربعة رجال كما في حالة الزنى.

(٤) المصدر نفسه ص (١٥٩).

(٣) «نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» ص (١٦٦).

(٦) المصدر نفسه ص (١٦٠).

(٥) «نظام الحكم في عهد الخلفاء الراشدين» ص (١٥٩).

(٧) «تاريخ الطبري» (٦٨٨/٥).

المبحث الثالث

حياته في المجتمع واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أولاً: دعوته للتوحيد ومحاربه للشرك:

إن حياة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عامرة بالدعوة إلى توحيد الله تعالى وتعريف الناس معاني الإيمان، والاعتماد والتوكل على الله والخوف منه سبحانه وتعالى، والتعريف به من خلال أسمائه الحسنی وصفاته العلی، ومحاربه للشرك بجميع أشكاله وأنواعه، ومن خلال توجيهه وتعليمه وتربيته للناس على دعوة التوحيد ومحاربة الشرك أمور منها:

١ - قوله رضي الله عنه: «لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه»: فهذا من أحسن الكلام، وأبلغه وأتمه؛ فإن الرجاء يكون للخير، والخوف يكون من الشر، والعبد إنما يصيبه الشر بذنوبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠). فالراجي يطلب حصول الخير ودفع الشر، ولا يأتي بالنعيم إلا الله، ولا يذهب المصائب إلا الله ﴿وإن يمسسك الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخيرٍ فلا رادّ لفضله﴾ (يونس: ١٠٧)، ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٢)، والرجاء مقرون بالتوكل، فإن المتوكل يطلب ما رجاه من حصول المنفعة ودفع المضرة، والتوكل لا يجوز إلا على الله، كما قال تعالى: ﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٠). وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (التوبة: ٥٩) وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) فهؤلاء قالوا: حسبنا الله، أي: كافينا الله في دفع البلاء، وأولئك أمروا أن يقولوا: حسبنا في جلب النعماء فهو - سبحانه - كاف عبده في إزالة الشر وفي إنالة الخير، أليس الله

بكاف عبده؟، ومن توكل على غير الله ورجاه خذل من جهته وحرّم، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ (العنكبوت: ٤١). ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم: ٨١ ، ٨٢)، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١)، ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ (الإسراء: ٢٢). وقال تعالى: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ١٧)، فمن عمل لغير الله رجاء أن يتفجع بما عمل له، كانت صفتته خاسرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يَحْسبُهُ الْظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور: ٣٩)، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ (إبراهيم: ١٨) وقال تعالى: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨)، كما قيل في تفسيرها: كل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، فمن عمل لغير الله ورجاه بطل سعيه، والراجي يكون راجيا تارة بعمل يعمله لمن يرجوه، وتارة باعتماد قلبه عليه والتجائه إليه وسؤاله، فذاك نوع من العبادة له، وهذا نوع من الاستعانة به، وقد قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) وقال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ (هود: ١٢٣)، وقال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ (الرعد: ٣٠)، ومما يوضح ذلك: أن كل خير ونعمة تنال العبد فإنما هي من الله، وكل شر ومصيبة تندفع عنه أو تكشف عنه، فإنما يمنعها الله، وإنما يكشفها الله، وإذا جرى ما جرى من أسبابها على يد خلقه، فالله - سبحانه - هو خالق الأسباب كلها سواء كانت الأسباب حركة حي باختياره وقصده، كما يحدثه تعالى بحركة الملائكة والجن والإنس والبهائم، أو حركة جماد بما جعل الله فيه من الطبع أو يقاسر يقسره كحركة الرياح والمياه ونحو ذلك، فالله خالق ذلك كله، فإنه لا حول

ولا قوة إلا به^(١)، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فالرجاء يجب أن يكون كله للرب، والتوكل عليه والدعاء له، فإنه إن شاء ذلك ويسره كان يسرا، ولو لم يشأ الناس، وإن لم يشأه ولم يسره لم يكن وإن شاءه الناس^(٢)، هذا بعض المعاني من قول أمير المؤمنين رضي الله عنه: لا يرجون أحد إلا ربه^(٣)، وأما قوله: ولا يخافن أحد إلا ذنبه^(٤)، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ (الأعراف: ١٣١). بين سبحانه أن الحسنه من الله ينعم بها على الناس، وأن السيئة إنما تصيبهم بذنوبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٣)، فأخبر أنه لا يعذب مستغفراً؛ لأن الاستغفار يحو الذنب الذي هو سبب العذاب، فيندفع العذاب، كما في سنن أبي داود وابن ماجه عن النبي صلی الله علیه وسلم أنه قال: من أكثر الاستغفار، جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب^(٥)، وقال تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ (٢) وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود: ٣، ٢). فبين: أن من وحده واستغفره متعه متاعاً حسناً إلى أجل مسمى، ومن عمل بعد ذلك خيراً زاده من فضله، وفي الحديث: يقول الشيطان: أهلك الناس بالذنوب، وأهلكوني بلا إله إلا الله، والاستغفار^(٦)، فلما رأيت ذلك بثت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً^(٧). وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ

(٢) «الفتاوى» (١٠٢/٨).

(٤) «الفتاوى» (٩٩/٨).

(١) «الفتاوى» (١٠١/٨).

(٣) «الفتاوى» (١٠٢/٨).

(٥) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٨١٩)، و«سنن أبي داود» (١٥١٨).

(٦) «مسند أبي يعلى» (١٢٣/١) رقم (١٣٦)، و«مجمع الزوائد» (٢١٠/١) وهو ضعيف.

(٧) «الفتاوى» (١٠٠/٨).

يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ (آل عمران: ١٧٣-١٧٥) فهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان، وأمرهم بخوفه، وخوفه يوجب فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، والاستغفار من الذنوب وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء، فلهذا قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : لا يخافن عبد إلا ذنبه^(١)، وإن سلط عليه مخلوق فما سلط عليه إلا بذنوبه، فليخف الله، وليتب من ذنوبه التي ناله به ما ناله^(٢)، كما في الأثر: يقول الله: أنا الله، مالك الملوك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، من أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشتغلوا بسب الملوك، وأطيعوني أعطف قلوبهم عليكم^(٣).

٢- تعريف أمير المؤمنين الناس بأسماء الله وصفاته:

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ (محمد: ١٩) فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨)، وقد بين القرآن الكريم أن معرفة الأسماء الحسنى الصفات العلى من أعظم الوسائل في زيادة الإيمان وقوته وثباته، ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان، وأصله وغايته، فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه وقوي يقينه^(٤)، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٠) وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الإسراء: ١١٠)، وقد ثبت في الصحيحين عنه صلوات الله عليه أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا - مائة إلا واحدة - من أحصاها، دخل الجنة»^(٥)، أي من حفظها وفهم معانيها، واعتقدها، وعبد الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون^(٦).

(١) «الفتاوى» (٩٩/٨).

(٤) «الوسطية في القرآن الكريم» للصلاحي ص (٢٢٨).

(٥) «البخاري»، كتاب الدعوات رقم (٦٤١٠).

(٦) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» للسعدي ص (٤١).

ولأهمية هذا العلم قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : يا طالب العلم: إن للعالم ثلاث علامات، العلم بالله، وبما يحب الله، وبما يكره الله^(١)، وقال في معرض وصفه للمولى سبحانه وتعالى: هو العالم بكل مكان، وكل حين وأوان، لم يخلق الأشياء من أصول أولية، ولا بأوائل كانت قبله بديه، بل خلق ما خلق فأقام خلقه، وصور ما صور فأحسن صورته، توحد في علوه فليس لشيء منه امتناع، ولا له بطاعة شيء من خلقه انتفاع، إجابته للداعين سريعة، والملائكة في السماوات والأرضين له مطيعة، علمه بالأموات البائدين، كعلمه بالأحياء المتقلين، وعلمه بما في السموات العلى، كعلمه بما في الأرض السفلى، وعلمه بكل شيء، لا تحيره الأصوات، ولا تشغله اللغات... مدبر بصير، عالم بالأمور، حي قيوم... سبحانه وتعالى عن تكيف الصفات^(٢)، وجاء يهودي إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فسأله: متى كان ربنا؟ فتمعر^(٣) وجه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقال: لم يكن فكان، هو كان ولا كينونة، كان بلا كيف، كان ليس قبل ولا غاية، انقطعت الغايات دونه، فهو غاية كل غاية، فأسلم اليهودي^(٤)، ومما يرويه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفات الله سبحانه وتعالى قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»^(٥).

إن معرفة أسماء الله وصفاته، وتأمل معانيها، والإيمان بها تثمر للعبد محبة الله وتعظيمه الموجبين للقيام بأمره ونهيه، كما توجب اللجوء إليه في الكربات، وسؤاله عند الحاجات، واستغاثته في الملمات وغيرها من أنواع العبادات القلبية^(٦).

(١) تاريخ يعقوبي «(٢٠٧/٢)»، و«منهج علي بن أبي طالب» ص (٩١).

(٢) «حلية الأولياء» (٧٣/١).

(٣) تمر: تغير: لسان العرب «(١٨١/٥)».

(٤) تاريخ الخلفاء «للسيوطي» ص (٢٠٦).

(٥) «سند أحمد» (١٧٣/٢) قال أحمد شاکر: إسناده حسن.

(٦) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله»، ص (٩٢).

٣- تعريف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الناس بنعم الله المستوجبة لشكره:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه - مذكراً بالله سبحانه وتعالى وبنعمه على عباده-: أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقت لكم الآجال، وجعل لكم أسماعاً تعي ما عناهها، وأبصاراً لتجلو عن غشاها، وأفئدة تفهم ما دهاها، في تركيب صورها وما أعرها فإن الله لم يخلقكم عبثاً ولم يضرب عنكم الذكر صفحاً، بل أكرمكم بالنعم السوابغ، وأرشدكم بأوفر الروافد، وأحاط بكم الإحصاء، وأرصد لكم الجزاء في السراء والضراء، فاتقوا الله عباد الله وجدوا في الطلب، بادروا بالعمل مقطوع النهمات وهادم اللذات^(١)، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يحث الناس على القرب من الله بشكر النعم الحاصلة ويحذرهم من الركون إليها والأمن معها، ويرغبهم فيما عند الله من المزيد في حال شكر النعم، حيث يقول: فإن نزلت بكم رغبة فاشكروا الله، واجمعوا معها رهبة، وإن نزلت بكم رهبة فاذكروا الله واجمعوا معها رغبة، فإن الله قد تأذن المسلمين بالحسنى، ولن شكره بالزيادة^(٢)، ودعا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الناس إلى التفكر في أنفسهم فقال: من عرف نفسه فقد عرف ربه^(٣)، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات: ٢١).

٤- حرص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على محو آثار الجاهلية:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة، فقال: «أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع وثناً إلا كسره، ولا قبراً إلا سواه، ولا صورة إلا لطخها؟» فقال علي رضي الله عنه: أنا أنطلق يا رسول الله، فقال: «انطلق»، فانطلق، ثم رجع فقال: يا رسول الله، لم أدع بها وثناً إلا كسرته، ولا قبراً إلا سويته، ولا صورة

(١) «الحلية» (٧٨/١)، و«صفة الصفوة» (٣٢٨/١).

(٢) «البدية والنهاية» (٣٠٩/٧).

(٣) «مطلوب كل طالب من شرح كلمات علي بن أبي طالب» لمحمد عبد الجليل العمري مخطوط نقلًا عن «منهج علي ابن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٩٦).

إلا لطختها، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عاد لصنعه شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم» (١)، وعندما أصبح أميراً للمؤمنين أرسل أبا الهياج الأسدي وقال له: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تدع تماثلاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» (٢)، فأمره بمحو التماثيل، وأن تكون القبور مدروسة معالمها لغرض في زيارة القبور عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه (٣)، وقد كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه كثيراً ما يقصد المقبرة زائراً ومتعظاً، وقد أشرف على المقبرة فقال: يا أهل القبور أخبرونا بخبركم، أما خبركم قبلنا فالنساء قد تزوجن، والمال قد قسم، والمساكن قد سكنها قوم غيركم، ثم قال: أما والله لو نطقوا لقالوا: لم نر خيراً من التقوى (٤)، وقد كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يسعى جاهداً في تجريد التوحيد، وقطع أسباب الشرك ووسائله من جميع الجهات، ولذلك حذر من اتخاذ القبور مساجد لما تسببه من الفتنة في أهلها، وكونها ذريعة إلى عبادة الأموات، وقد وصف رضي الله عنه من فعل ذلك بأنه من شرار الناس كما في قوله: شرار الناس من يتخذ القبور مساجد (٥)، وهذا اتباع لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (٦)، وغيره من الأحاديث التي صحت في هذا المعنى، كما لا بد من التنبيه على أن الغرض من زيارة القبور أمران، كما هو بين من الهدي النبوي الشريف: الاتعاظ بالموت، والدعاء للميت والترحم عليه، وليس في واحد منها ما يدل على أن الزائر يقصد القبر؛ ليقضي حاجته فقصد القبر للانتفاع به مخالف لهدي النبي صلى الله عليه وسلم، ومخالف لأدب زيارة القبور التي نصّ عليها العلماء (٧)، قال ابن العربي وهو

(١) «مسند أحمد» (٦٨/٢) قال أحمد شاكر: إسناده حسن.

(٢) «مسلم»، كتاب الجنائز (٦٦٦/٢).

(٣) الغرض: الاتعاظ والدعاء للأموات، و«فقه علي» لقلعجي ص (٤٩٤).

(٤) «الاستذكار» (٢٣٤/١).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (٤٠٥/١)، و«كنز العمال» رقم (٢٢٥٢٢).

(٦) «فتح الباري» (٣٧٦/٤)، وإسناده حسن.

(٧) «الغلو في الدين» د. الصادق الغرياني ص (١١٩).

يعدد أغراض السفر، ومنه: . . . القصد إلى الإخوان لتفقد أحوالهم - وبعد أن ذكر فضل من زار أخًا له في الله - قال: هذا إن كان حيًّا، فإن كان ميتًا، فتجوز زيارة قبره أيضًا، والترحم عليه ليتنفع الميت بالحي، ولا يقصد الانتفاع بالميت فإنها بدعة^(١)، بل إن قصد القبر رجاء قضاء الحاجة هو عين ما حذر منه النبي ﷺ أصحابه عندما سألوه أن يجعل لهم ذات أنواط، ففي حديث أبي واقد الليثي: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط يعلقون عليها أسلحتهم فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم (ذات أنواط)، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قيل لموسى، اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبن سنة من كان قبلكم»^(٢)، وفي «عدة المريدا» يقول الشيخ الزروق بعد أن ذكر الحديث المتقدم: ولا يجوز عند العلماء تعظيم مكان، أو شجر، أو بناء، أو أي شيء آخر له أصل في معتقدات الجاهلية؛ رجاء الشفاء أو قضاء حاجة^(٣)، ثم قال: في الحديث دليل على منع كل ما يستدام أو يكون له أصل في عبادة الجاهلية من خشبة أو حديدة أو حجر أو بناء ونحوه، لا يمتن أو يكون مستهلكًا^(٤)، ولا شك أن القبر له أصل في عبادة الجاهلية، بل هو أصل أصولها، ولا أدل على ذلك، من أن أشهر أصنامهم التي عبدوها من دون الله، سواء في جاهليتهم اللاحقة: «اللآت»، هي أسماء لرجال صالحين ماتوا فقالوا في تعظيمهم حتى عبدوهم من دون الله^(٥)، وهنا كان حديث النبي ﷺ وفعل سيدنا علي رضي الله عنه له عمل عظيم في حماية جانب التوحيد ويتضح لنا أن ما يفعله بعض جهلة المسلمين من تعظيم القبور والطواف حولها والتعلق بأهلها أمر محرم يخالف أمر الله - سبحانه وتعالى - وسيرة أمير المؤمنين رضي الله عنه، فعلى العلماء الربانيين الذين يرجون الله واليوم الآخر أن يقتدوا بالنبي ﷺ كما فعل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وأن يسعوا لتعبيد الناس لربهم، وجعل قلوبهم

(١) «فتح الباري» (٣/٦٥).

(٢) «عدة المريدا» ص (٢٠٦). و«الغلو في الدين» للغراني ص (١١٩).

(٣) «عدة المريدا» ص (٢٠٦). المصدر نفسه ص (١١٩). (٤) «الغلو في الدين» ص (١١٩).

تتعلق بالله الواحد القهار، وأن يحاربوا العوائق في الطريق إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

أ - الزيارة الشرعية للقبور:

إن الزيارة الشرعية للقبور سنة مجهولة عند الكثيرين قد غفلها جمع من الناس لفشو البدع والخرافات في العالم الإسلامي، وعدم إرشاد أهل العلم الناس إلى هذه الزيارة المشروعة، وتقصير الدعاة في توضيح هذا النوع المباح وما يقال عند الزيارة، فالزيارة الشرعية الغرض منها: أنها تذكر الموت ومكان الإنسان ونهايته.

وأنه سيأتي اليوم الذي يكون هذا موضعه ومضجعه الذي يزوره، الآن، مما يعين على الثبات على الطاعة، وحث النفس والأخذ بزمامها نحو العبادة، خاصة إذا أصابها فتور وتقاوس عن العبادة، كما يشرع فيها السلام على الأموات والدعاء لهم بالرحمة والمغفرة.

ومن الأدلة على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

كان رسول الله صلوات الله عليه وآله يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد»، وفي رواية عنها رضي الله عنها في قصة جبريل، حين جاء النبي صلوات الله عليه وآله وأخبره أن الله تعالى يأمره أن يستغفر لأهل بقيع الغرقد، قالت عائشة رضي الله عنها: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ فقال: قولي: «السلام على أهل الديار، من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»^(١).

وقد بين العلماء عدم جواز البناء على القبور، كما بينوا آداب زيارة الرسول صلوات الله عليه وآله، ودعاء العبد لربه، وأنه ليس بين العبد وربه واسطة.

قال الكاساني الحنفي في كتابه «بدائع الصنائع»: «وكره أبو حنيفة البناء

على القبر، والكراهة إذا أطلقت فهي للتحريم وقد صرح بالتحريم ابن مالك من الأحناف^(١).

قال الطحاوي الحنفي: «ولا يستلم القبر ولا يقبله؛ فإنه من عادة أهل الكتاب، ولم يعهد الاستلام إلا للحجر الأسود، والركن اليماني خاصة»^(٢).

قال القاضي عياض عن مالك: «لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ، ولكن يسلم ويمضي، وروى ابن وهب عنه أنه قال: ويدنو ويسلم ولا يمس القبر»^(٣).

وقال زروق المالكي: «من البدع اتخاذ المساجد على قبور الصالحين... والتمسح بالقبر عند الزيارة، وهو فعل النصارى، وحمل تراب القبر؛ تبركاً به، وكل ذلك ممنوع بل يحرم»^(٤).

وقال الشافعي: «ولم أر قبور المهاجرين، والأنصار مجصصة»، وقال أيضاً - رحمه الله -: «وقد رأيت من الولاة من يهدم بمكة ما بينى فيها، فلم أر الفقهاء يعيرون ذلك»^(٥).

وقال النووي: «ويكره مسحه - قبر النبي ﷺ - باليد وتقبيله بل الأدب أن يبعد منه كما يبعد منه لو حضر في حياته ﷺ، هذا هو الصواب الذي قاله العلماء وأطبقوا عليه»^(٦).

وقال السبكي في فتواه: «ولا يمس القبر ولا يقرب منه ولا يطوف به»^(٧).

ب - تاريخ الاحتفال بالمزارات في الأضرحة:

يذكر أن أول من أحدث الاحتفال بالمزارات السنوية في الأضرحة هم العبيديون (الفاطميون) في القرن الرابع، ذكر ذلك المقرئ أحمد بن علي قال: كانت لهم ستة موالد، مولد النبي ﷺ، مولد علي بن أبي طالب، والحسن والحسين،

(٢) «حاشيته على مراقي الفلاح» (٣٤٠).

(٤) «شرح رسالة القيرواني» (٢٤٤/١).

(٦) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢٤٤/١).

(١) «بدائع الصنائع» (٣٢/١).

(٣) «كتاب شرح الشفاء» (١٥٢/٢).

(٥) «الأم» (٩١٦/١١).

(٧) «فتاوى السبكي» (٢٨٩/١).

وفاطمة رضي الله عنهما، ومولد الخليفة، وكانوا ينحرون عند قبر الحسين الإبل والبقر والغنم^(١)، ولم يكن المسلمون قبل هذا التاريخ في القرون الثلاثة الأولى يقيمون الأضرحة، ولا يحتفلون بها، ولا أدل على ذلك من أن أكثر الصحابة رضي الله عنهم دفنوا خارج البقيع في مصر والشام والعراق، لا تعرف قبورهم، ومن عرف قبره منهم، فمختلف فيه بين المؤرخين، وكتاب السير، فكيف خفيت قبورهم عن أهل السير؟، وهم الصلحاء والعلماء وأعلام الهدى، الذين حملوا راية الدين والعلم، والجهاد والعبادة، لو كان للأضرحة في زمانهم وزمان تابعيهم ذكر لما خفي مكانها، ولما اختلف المؤرخون فيها، وفعل الناس لهذا الأمر بعد القرون الأولى خير القرون لا يكسبه مشروعية بحال، كيف وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبره عيداً؟، فمن يفعل ذلك من الناس فإنما يفعل عين ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم، ويحتج بعمله، وعمل شيخه، ويقدمه على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم والله تعالى يقول: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (الحجرات: ١) ويقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣).

ج - ارتباط المزارات بالتخلف والجهل:

ارتفع شأن القباب والتوابيت - المضروبة على القبور - خلافاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتسويتها كما بين لنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتفنن الناس في زخرفتها بالألوان الزاهية، ونصبت عليها ستائر الحرير كستائر الكعبة، وحرسوا الأبواب الفاخرة وزودت بخزائن الحديد الثقيلة، لجمع ما يجود به الزائرون، وما ينفقونه على أصحاب الأضرحة من نذور؛ لتقضى حوائجهم وتتحقق آمالهم، وازدهرت الحياة للمتعيشين على خدمة الضريح وحراسته، رواة الكرامات، ورواة التحذير الصارم بسوء عاقبة كل من يحاول أن يشكك في سلامة ما يجري، ومن المعروف أن التبجيل على هذا النحو للأضرحة لم يزدهر

(١) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» ص (٤٢٧/١، ٤٩٠)، و«الغلو في الدين» ص (١٠٣).

إلا يوم أن تخلف المسلمون، وضعفت هممهم، في عصور الانحطاط العلمي، والجمود الفكري، يوم أن حولوا نور الرسالة المحمدية، التي استطاعت في الأربعين سنة الأولى من عمرها أن تجعل أهل الأرض من فارس إلى المغرب يدينون بها، حولوا هذه الرسالة الحضارية المشرقة إلى دروشة وخمول، وبطالة وتعلق بالأوهام، وقصروا هممهم على أمور ما كان سلفنا الصالح، الذي ملأ الدنيا علماً وعملاً صالحاً يقف عندها، ولا يلتفت إليها ألا يجدر بنا أن نسأل أنفسنا: هل وجد شيء من هذا على عهد الصحابة فعلوه لقبر رسول الله ﷺ وهو أفضل قبر على وجه الأرض، أو لقبورهم، وهم أفضل أمته؟ أو وجد شيء منه حتى عهد الأئمة الذين يقتدى بهم؛ كمالك والشافعي وأبي حنيفة وأحمد - رحمهم الله - أليس عدم وجود شيء من ذلك عندهم دليل على أن ما يجري لا صلة له بالدين، ولا بالعبادة، ولا بالولاية؟ وإنما هي مظاهر التخلف والجهل، استغلها من لهم مصلحة باسم الدين، أياً كانت المصلحة، لتخدير العامة والاستيلاء على عقولهم، وجيوبهم، وأكل أموالهم وشدهم إلى البوراء لقد ظل الإسلام قروناً عديدة يتزعم العالم قوة ومعرفة، وحضارة، وتشريعاً، وأخلاقاً، ورحمة بالإنسانية، وتطلعاً إلى الابتكار، ومعالي الأمور، ذلك كان حال المسلمين يوم أن كان تعلقهم بحقيقة الإسلام، فلما أعرضوا عن ذلك، واستبدلوا ما عندهم من العلم والهداية، بمفاهيم مغلوطة تعتمد على التواكل والبطالة والدروشة والتعلق بالغيبات، التي لم يبق عليها دليل، ولم يأمرنا الله بها، وسموا كل ذلك (بركة)، تسمية للشيء بضده، وأحرى بمن يعرض عن الهداية وأسبابها أن يكون من الضالين، وعن البركة من المبعدين^(١).

د - الحملات الاستعمارية وإقامة الأضرحة:

كان للحملات الغربية الاستعمارية مواقف في تشجيع المسلمين أن ينحو هذا المنحى لبيتعدوا عن جوهر الدين، ذكرت صحيفة التايمز الإنجليزية قول أحد

(١) «الغلو في الدين»، للغرياني (١٠٥).

رجال الاستعمار البريطاني يحض على تشجيع البدع والأوهام بين المسلمين يقول: فإن ذلك كفيل بإبعادهم عن الإسلام، يقول الشيخ أحمد الباقوري: إن أحد كبار المستشرقين حدثه عن بعض أساليب الاستعمار في آسيا، إن الضرورة كانت تقضي بتحويل القوافل الآتية من الهند إلى بغداد، عبر تلك المنطقة الواسعة إلى اتجاه جديد، للمستعمر فيه غاية، ولم نجد الوسائل في جعل القوافل تختاره. وأخيراً اهتموا إلى إقامة عدة أضرحة وقباب على مسافات متقاربة في هذا الطرق، وما هو إلا أن تناقل الناس الإشاعات بما فيها من الأولياء، وبما شوهد من كراماتهم، حتى صارت تلك الطريق مأهولة، ومقصودة عامرة^(١)، وقد اهتمت الحكومة الإنجليزية بالحالة الدينية في مصر، وهي ترصد التحرك الشيوعي في المنطقة، فكان مما طمأنها على تدين المصريين: أن ثلاثة ملايين مسلم زاروا ضريح أحمد البدوي بطنطا في ذلك العام، يقول أحد العلماء الذين أوفدوا من وزارة الأوقاف لوعظهم: لقد كنت أشهد من أعمالهم ما يستدعي الجلد بالسياط لا ما يستدعي الزجر بالكلام، ولو دعوا إلى واجب ديني صحيح لفروا نافرين، وحسبك معرفة حالهم أنهم جاؤوا الضريح المذكور للوفاء بالنذور والابتهاال بالدعاء^(٢).

هـ- هل المزارات من الإحداث في الدين؟

مات رسول الله صلوات الله عليه وآله وهو أكرم الخلق على الله تعالى وأتقاهم لله، وأخشاهم لله، وتوقير أصحابه له غير خاف، ومحبتهم إياه لا تقدر، وقبر صلوات الله عليه وآله في بيته، ومكان قبره الشريف معروف لدى أصحابه غير مجهول، وهو أفضل قبر في الدنيا، فلم يقيموا عليه مشهداً، ولا بناءً، ولا قباباً، ولم يجتمع عند قبره الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم إحياء لذكراه في يوم من السنة معلوم في (مزار) ولا غيرهم من أصحابه الأخيار، اغتناماً للذكر والعبادة، بل كانوا إذا مروا بقبره الشريف يصلون ويسلمون عليه كما أمرهم ربهم، وكانوا يطيعون أمره ويتبعون

(١) انظر: «ليس من الإسلام»، لمحمد الغزالي ص (٢٢٤). (٢) «الغلو في الدين» ص (١٠٥).

سنه، ويهدون بهديه، ويقفون عند أمره ونهيه، حياً وميتاً؛ امتثالاً لأمر ربهم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧)، وقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وخلفاؤه هم القدوة الحسنة الذين أمرنا رسول الله ﷺ باتباع سنتهم والعض عليها بالنواجذ، ولم ينقل أحد من أهل الإسلام أن أصحابه اجتمعوا ليلة في السنة عند قبره للذكر والعبادة، رجاء البركة، وهم أولياء الله، وحزب الهدى، وأنصار الحق، وكتائب الدين، وأعلم منا بما يحبه رسول الله ﷺ، وأحرص على الطاعة، وتعظيم رسول الله في قلوبهم وتوقيره، بالمكان الذي لا يخفى، ولا يختلف عليه؛ لأن الذي نطق به القرآن، وأجمع على تعظيمهم له، ومحبته وتوقيرهم إياه أهل الإسلام، ولو كان هذا العيد السنوي عند قبره مما يقرب إلى الله، ولا يخاف منه فساد في الدين لكانوا أسبق إليه، ولم يأمرهم رسول الله ﷺ في حياته بشيء من هذا، ولا وجد في سنته بفعل ولا تقرير ما يدل على مشروعيته عند قبر النبي ﷺ بعد موته، أو عند أحد من قبور أصحابه الذين ماتوا، ومرت عليهم السنون في حياته، فلم يتعبد هو ولا أصحابه بشيء من هذا، وهو أكمل الخلق عبودية لله، وأكملهم علماً بما يرضي الله تعالى، ونصحته لأمته، وحرصه على ما ينفعهم، نزل به القرآن ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، وقد نهانا النبي ﷺ عن اتخاذ قبره عيداً، فقال ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» (١).

ومعنى عيد من العود، وهو الرجوع والمعاودة؛ لأنه يتكرر مرة بعد مرة، أي لا تجعلوا لزيارة قبري أياماً معلومة، وأوقاتاً مخصوصة، كل شهر، أو كل سنة، أو غير ذلك، في اجتماع عام يتكرر بصفة ثابتة كالعيد، ولا تتخذوه منسكاً ترحلون إليه كالحج، ولا تشبهوا باليهود والنصارى؛ فإنهم يفعلون ذلك، وقد

(١) «فتح الباري» (٤/٣٧٦)، وإسناده حسن.

أدى بهم الأمر إلى الغلو والمبالغة في الإطراء، حتى جعلوا المسيح عليه السلام إلهًا، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه من ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدالله ورسوله»^(١)، فإذا كان الحال من النهي في التعلق بقبر النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أكرم الخلق على الله، وهو سيد الأولين، والآخريين، وأفضل الخلق أجمعين، وأرجى الشفعاء عند الله يوم الدين، فما بالك بقبور الأموات من دونه من الأولياء والصالحين، فتكون مخالفة نهيه في ذلك باتخاذ قبورهم أعيادًا، داخلة في الشق الثاني من الحديث، وهو ما يقرب إلى من يخالف نبيه في قوله عز وجل: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣). فهذا هو هدي خير القرون فمن خالفهم زاعما أنه أتى بطاعة وقربة، فلا يخلو حاله من أمرين، إما أنه جاء ببدعة ظلما، وإما أن يكون مدعيًا أنه فاقهم فضلا وعلمًا، بل كان الإمام مالك رحمه الله تعالى يقول: من أحدث في هذه الأمة شيئا لم يكن عليه سلفها، فقد زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خان الدين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (المائدة: ٣)، فما لم يكن يومئذ دينًا، لا يكون اليوم دينًا^(٢). وكان يقول: السنة سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق^(٣)، إن إقامة (المزارات) عبادة لم يفعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه، بل نهى عنها، ومخالفته من الإحداث في الدين الذي ينتهي بصاحبه إلى الضلال كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان مما يخطب به في كل جمعه محذرًا: «أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»^(٤)، وقال صلى الله عليه وسلم: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»^(٥). إن جمع الناس في يوم معين على الدوم، في مكان ما، تشد إليه الرحال من كل حذب وصوب للعبادة، لا يجوز إلا فيما شرعه الله تعالى من إقامة النسك في مكة، وعرفة،

(١) «بخاري» رقم (٣٣٤٥).

(٢) «الاعتصام» للشاطبي (٥٣/٢).

(٣) «الغلو في الدين» للغرياني ص (١٠٩).

(٤) «بخاري» رقم (٢٦٩٧).

(٥) «مسلم» رقم (٨٦٧).

ومنى والمزدلفة، وفي صلوات الأعياد والجمعة والجماعة، وهي الشعائر التي أمر الله تعالى بتعظيمها، وإقامتها، وأثنى على أهلها بقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢) وإحداث مشهد آخر غير ما ذكر، في يوم من السنة، من الإحداث في الدين؛ لأنه إحداث عبادة ونسك لم يشرعها الله تعالى، فإن هذه المزارات صارت عند العامة كالنسك، يجتمع إليها الناس في يوم من السنة معلوم للذبح والعبادة، وتشد إليها الرحال، وهذا في ذاته أمر مذموم؛ فإن الطاعات المطلقة المندوب إليها في كل وقت، إذا خصص شيء منها بليلة معينة، أو يوم معين، أو مكان معين، لم يخصصه الشرع به، واعتقد أن لفعلها في ذلك الوقت المعين، أو المكان المعين، أثراً خاصاً في البركة، أو رفع الدرجات، أو قبول العمل، أو تعظيم الأجر؛ تحولت تلك الأعمال التي هي من جنس الطاعات إلى بدعة بالاتفاق؛ لأن ترتيب الثواب على الأعمال، أمر توقيفي لا يكون إلا من الشارع.

وقد جر هذا إلى مفاصد عظام، منها اعتقاد العامة في أصحابها الذين بنيت عليهم القباب خلافاً لنهي رسول الله ﷺ، فاعتقدوا فيها الضر والنفع، وقضاء الحوائج، وتقربوا إليها بالذبائح والقرابين في يوم معلوم من السنة، عند إقامة المزار، وتوددوا إليها بعد ما أشاعوا حولها أن من ساق إليها الحيوان ليذبح في ذلك اليوم، وكانت له حاجة يرجوها من ربه، مثل ولد إن كان لا يلد، أو شفاء مرض إن كان مريضاً؛ لا يرجع إلا بها، فصارت ملجأً لنجاح المطالب، وسألوا منها ما سأله العباد من ربهم واستغاثوا بها، وأن حوائجهم تقضى لهم من ربهم بواسطتها وعن طريقها، حتى صاروا يذبحون عندها؛ لاستئزال المطر إذا تأخر المطر، معرضين عن كتاب الله وهدى رسول الله ﷺ الذي أمر بالتوبة والاستغفار والدعاء والصلاة طلباً للسقيا، وقد ينزل المطر بعد ذبحهم؛ استدراجاً وابتلاء، ولكن عملهم لا يزال من أعمال الشياطين، ومعتقدات الجاهلية^(١)، فإلى الله المشتكى.

(١) «الغلو في الدين» ص (١١١، ١١٢).

إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه دعا للتوحيد وحارب الشرك وأسبابه، فعلى محبيه ومتبعيه أن يأخذوا بأقواله وأفعاله التي ترشدنا للتمسك بالقرآن الكريم وهدى النبي عليه الصلاة والسلام، وما أحسن كلامه عندما قال: لا يرجون أحد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه^(١)، وقوله لأبي الهياج الأسدي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»^(٢).

(و) حرص أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على بطلان الاعتقاد بالكواكب:

لما أراد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسافر لقتال الخوارج، عرض له منجم، فقال: يا أمير المؤمنين، لا تسافر؛ فإن القمر في العقرب، فإنك إن سافرت والقمر في العقرب هزم أصحابك - أو كما قال - فقال علي: بل أسافر ثقة بالله وتوكلاً على الله وتكذيباً لك، فسافر فبورك له في ذلك السفر فقتل عامة الخوارج^(٣)، وجاء في رواية: ... فلما فرغ من النهروان حمد الله وأثنى عليه ثم قال: لو سرنا في الساعة التي أمرنا المنجم؛ لقال الجهال الذين لا يعلمون: سار في الساعة التي أمره بها المنجم فظفر^(٤). انظر إلى حرص أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على سلامة عقيدة أصحابه مما ادعاه المنجم من ذلك الاعتقاد الفاسد، فعلي رضي الله عنه مع ما كان فيه من الأمر المهم من قتال الخوارج، وانشغاله بنتيجة المعركة، فإنه لم ينس تلك الكلمة التي قالها ذلك المنجم له في بداية مسيره، فكان منه بيان فساد ذلك المعتقد في الوقت المناسب بعد انتهاء قتاله للخوارج وانتصاره عليهم^(٥).

(ز) إحراق أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لمن غلوا فيه وادعوا فيه الألوهية:

عن عبد الله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي رضي الله عنه: إن هنا قومًا

(٢) «مسلم» كتاب الجنائز (٢/٦٦٦).

(١) «الفتاوى» (١٠١/٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٧٩/٣٥)، و«البداية والنهاية» (٧/٢٨٨).

(٤) «البداية والنهاية» (٧/٢٨٨).

(٥) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٣٢٩).

على باب المسجد يدعون أنك ربهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم، ما تقولون؟! قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، فقال: ويلكم إنما أنا عبد مثلكم، أكل الطعام كما تأكلون، وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا، فأبوا فلما كان الغد غدوا عليه، فجاء قبر، فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام، فقال: أدخلهم، فقالوا كذلك. فلما كان اليوم الثالث، قال: لئن قلت ذلك لأقتلنكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك، فخذ لهم أهدوداً بين المسجد والقصر، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا، فأبوا أن يرجعوا، فقفذ بهم فيها، حتى إذا احترقوا^(١) قال:

إِنِّي إِذَا رَأَيْتُ أُمَّرًا مُنْكَرًا

أَوْ قَدْتُ نَارِي وَدَعَوْتُ قُبْرًا^(٢)

كما أخرج البخاري في صحيحه خبر الإحراق من حديث عكرمة، قال: أتني علي رضي الله عنه بزنادقة فأحرقهم، فبلغ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما فقال: لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله صلى الله عليه وآله حيث قال: «لا تعذبوا بعذاب الله»، ولقتلتهم لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: «من بدل دينه فاقتلوه»^(٣)، وقال ابن تيمية: وثبت عنه أنه حرق غالبية الرافضة الذين اعتقدوا فيه الألوهية^(٤).

لم ير ابن عباس رضي الله عنهما، رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه في إحراق السبئية، حيث يقول: لو كنت أنا لم أحرقهم محتجاً عليه بنهي رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا تعذبوا بعذاب الله» ولقوله صلى الله عليه وآله: «من بدل دينه فاقتلوه»^(٥). قال ابن حجر: وهذا يحتمل أن ابن عباس رضي الله عنهما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، ويحتمل أن يكون سمعه من بعض الصحابة.

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٢٧٠). وسنده حسن.

(٢) «فتح الباري» (١٢/ ٢٧٠)، وسنده حسن.

(٣) «البخاري»، كتاب المرتدين (٤/ ٢٧٩).

(٤) «الفتاوى» (٢٨/ ٤٧٤)، و«منهاج السنة» (٥/ ١٢).

(٥) «البخاري»، كتاب المرتدين (٤/ ٢٧٩).

وفي رواية أبي داود: فبلغ ذلك علياً رضي الله عنه، فقال: ويح أم ابن عباس^(١)، وهذا يحتمل أنه لم يرض بما اعترض به ورأى أن النهي للتنزيه^(٢). وقال ابن حجر أيضاً: (ويح) كلمة رحمة، فتوجع له لكونه حمل النهي على ظاهره، فاعتقد التحريم مطلقاً، فأنكره، ويحتمل أن يكون قالها رضا بما قال، وأنه حفظ ما نسيه بناء على أحد ما قيل في تفسير «ويح»، أنها تقال بمعنى المدح والتعجب^(٣)، وقال: واختلف السلف في التحريق، فكره ذلك عمر، وابن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما مطلقاً سواء كان ذلك بسبب كفر، أو في حال مقاتلة، أو كان قصاصاً، وأجازه علي، وخالد بن الوليد رضي الله عنه وغيرهما، وقال المهلب: ليس هذا النهي على التحريم، بل على سبيل التواضع، ويدل على جواز التحريق فعل الصحابة، فقد سمل النبي صلى الله عليه وسلم أعين العرنيين بالحديد المحمى، وقد حرق أبو بكر رضي الله عنه البغاة بالنار بحضرة الصحابة، وحرق خالد بن الوليد بالنار ناساً من أهل الردة، وأكثر علماء المدينة يجيزون تحريق الحصون والمراكب على أهلها، قاله الثوري، والأوزاعي، وقال ابن المنير وغيره: لا حجة فيما ذكر للجواز؛ لأن قصة العرنيين كانت إما قصاصاً أو منسوخة كما تقدم وتجويز الصحابي معارض بمنع صحابي آخر، وقصة الحصون والمراكب مقيدة بالضرورة إلى ذلك إذا تعين طريقاً للعدو^(٤)، وقال ابن القيم: وحرق أبو بكر رضي الله عنه اللوطية وأذاقهم حر النار في الدنيا قبل الآخرة، وكذلك قال أصحابنا: إذا رأى الإمام تحريق اللوطي فله ذلك، فإن خالد بن الوليد رضي الله عنه كتب إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة، فاستشار الصديق أصحاب رسول الله وفيهم علي بن أبي طالب وكان أشدهم قولاً، فقال: إن هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم، إلا واحدة فصنع الله بهم ما قد علمتم، أرى أن يحرق بالنار، فكتب أبو بكر إلى خالد أن يحرقوا فحرقهم، ثم حرقهم عبدالله ابن الزبير في خلافته، ثم حرقهم هشام بن عبد الملك^(٥).

(٢) «فتح الباري» (١٢/٢٧١).

(٤) «فتح الباري» (٦/١٥٠).

(١) «سنن أبي داود»، كتاب الحدود (٤/٥٢٠)، وصححه الألباني.

(٣) المصدر نفسه (١٢/٢٧٢).

(٥) «الطرق الحكمية في السياسة الشرعية» ص (٢٢، ٢٣).

ح- كيفية بداية الإيمان في القلب عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وتعريفه للتقوى:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد العبد إيمانا ازداد القلب بياضا، وكلما ازداد العبد نفاقا ازداد القلب سوادا، حتى إذا استكمل العبد النفاق أسود القلب، وإيم الله لو شققتم عن قلب المؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب المنافق والكافر لوجدتموه أسود^(١).

وقد بين علماء أهل السنة حقيقة الإيمان فقالوا، بأن الإيمان هو التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح والأركان أي هو: اعتقاد وقول وعمل، فهذه الثلاثة كلها مندرجة فيه وتمثل أجزاء من حقيقته، وقد تواترت أقوال العلماء ومن بعدهم على هذه الحقيقة واستدلوا بأدلة كثيرة من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية على صحة هذا القول في حقيقة الإيمان^(٢)، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴿ (الأنفال: ٢، ٤).

فقد جمعت هذه الآيات - وهي تعرض صفات المؤمنين - بين عمل القلب وعمل الجوارح، واعتبرت هذا كله إيمانا، وقصرت الإيمان عليه بأداة القصر والحصر (إنما) وعرفت المؤمنين بتلك الصفات مجتمعة، عندما ضمنتها بعبارة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأعمال الجوارح في هذه الصفات هي: إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله^(٣).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»^(٤). والشاهد في

(١) «الفتاوى» (١٩١/٧).

(٢) «في ظلال الإيمان» للخالدي ص (٢٣).

(٤) «مسلم»، كتاب الإيمان (٦٣/١) رقم (٥٧).

(٣) «تبصير المؤمنين بفقہ النصر والتمكين» ص (١٨٨).

الحديث ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالشهادة قول وإمطة الأذى عن الطريق عمل ، والحياء خلق وسلوك ، وجعل الثلاثة من الإيمان دليل على حقيقته ، ومعظم شعب الإيمان هي أعمال^(١) ، وقال الإمام البخاري في صحيحه : هو قول وفعل يزيد وينقص والحب في الله والبغض في الله من الإيمان . وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسناً ، فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص^(٢) ، وما قاله أمير المؤمنين في الإيمان لما سئل عنه : الإيمان على أربع دعائم : على الصبر واليقين والعدل والجهد ، والصبر منها على أربع شعب : على الشوق والشفق والزهد والترقب ، فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار اجتنب المحرمات ومن زهد في الدنيا استهان بالمصيبات ، ومن ارتقب الموت سارع إلى الخيرات ، واليقين منها على أربع شعب : على تبصرة الفطنة وتأول الحكمة ، وموعظة العبرة وسنة الأولين . فمن تبصر في الفطنة تبينت له الحكمة ومن تبينت له الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين ، والعدل منها على أربع شعب : على غائض الفهم ، وغور العلم ، وزهرة الحكم ورساخة الحلم ، فمن فهم علم غور العلم ، ومن علم غور العلم صدر عن شرائع الحكم ، ومن حلم لم يفرط في أمره وعاش بين الناس حميداً ، والجهد منها على أربع شعب : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن وشتان الفاسقين ، فمن أمر بالمعروف شد ظهور المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنوف المنافقين ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ومن شئى الفاسقين وغضب لله غضب الله له وأرضاه يوم القيامة^(٣) .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في تعريفه للتقوى : ترك الإصرار على المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة^(٤) ، وقال فيها : التقوى هي الخوف من

(٢) «البخاري» ، كتاب الإيمان (٩/١) .

(٤) «تفسير الرازي» (٢١/٢) .

(١) «في ظلال الإيمان» ص (٣٠) .

(٣) «نهج البلاغة» ص (٦٦٧، ٦٦٨) .

الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والقناعة بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل (١) ، ففي اهتمام أمير المؤمنين في حث الناس على التقوى ثمرات وآثار في جانب الفرد والمجتمع ؛ منها محبة الله له ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤) ، معية الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (الآية: ١٢٨) ، الانتفاع بالقرآن ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢) ، الحفظ من الشيطان ووساوسه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١) ، انتفاء الخوف والحزن ﴿ فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٥) قبول العمل ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧) اليسر بعد العسر ، والمخرج بعد الضيق ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ (الطلاق: ٢) . ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: ٤) . الفراسة والحكمة والنور ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال: ٢٩) . دخول الجنة ﴿ وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) . النجاة من النار ﴿ ثُمَّ نَجَّيْنَا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَدَرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا جَنًّا ﴾ (مریم: ٧٢) . المنزلة العالية يوم القيامة (٢) ﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (البقرة: ٢١٢) .

ط - القضاء والقدر عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنه لا يكون في الأرض شيء حتى يقضى في السماء ، وليس من أحد إلا وقد وكل به ملكان يدفعان عنه ويكلانه ، حتى يجيء قدره ، فإذا جاء قدره خليا بينه وبين قدره ، وإن علي من الله جنة حصينة ، فإذا جاء أجلي كشف عني ، وإنه لا يجد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه (٣) ، وقال رضي الله عنه : إن الأمر ينزل من السماء كقطر المطر لكل نفس ما كتب الله لها من زيادة أو نقصان في نفس أو أهل أو مال ، فمن رأى نقصاً في نفسه أو أهله أو ماله ، ورأى لغيره عشرة فلا

(١) «فرائد الكلام» ص (٣٣٤) .

(٢) «سورة الحجرات دراسة تحليلية موضوعية» للعمري ص (٢٣٦ ، ٢٣٧) .

(٣) «حياة الصحابة» (٢/٦١٤) ، و «فرائد الكلام» ص (٣٤٨) .

يكونن ذلك له فتنة، فإن المسلم ما لم يعش دنياه يظهر تخشعا لها إذا ذكرت، ويغري به لئام الناس، كالبائس العالم ينتظر أول فورة من قداحة توجب له المغنم، وتدفع عنه المغرم، فكذلك المسلم البريء من الخيانة بين إحدى الحسينين، إذا ما دعا الله، فما عند الله خير له، إما أن يرزقه الله مالا، فإذا هو ذو أهل ومال ومعه حسبه ودينه، وإما أن يعطيه الله في الآخرة، فالآخرة خير، وأبقى، الحرث حرثان، فحرث الدنيا والمال والتقوى، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعها الله تعالى لأقوام^(١).

ي - كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟.

قيل لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم^(٢).

ثانياً: خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وتحليلها:

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يتعهد الرعية بالتوجيه والتعليم والتربية من خلال الاحتكاك اليومي وخصوصاً يوم الجمعة حيث كانت خطبة الجمعة من المنابر الهامة في توجيه الأمة وترشيدها، وقد حفظ التاريخ لأمر المؤمنين علي كثيراً من خطبه وهذه إشارات عبرت عن خطبه، وإليك هذا النموذج الفريد العجيب من خطبه حيث قال: أما بعد فإن الدنيا قد أدبرت وأذنت^(٣) بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإن المضممار^(٤) اليوم، وغداً السباق، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله؛ فقد خاب عمله ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة، وإنه لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها، وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى حاد به الضلال، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن،

(١) «البداية والنهاية» (٨/٨)، و«فرائد الكلام» ص (٣٤٣).

(٢) «أدب الدنيا والدين» ص (٢٦)، و«فرائد الكلام» ص (٣٣٩).

(٣) أذنت: أعلمت.

(٤) المضممار: الموضع الذي تضم فيه الخيل للسباق.

ودلتم على الزاد، ألا أيها الناس إنما الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، ألا إن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم: أيها الناس، أحسنوا في أعماركم تحفظوا في أعقابكم، فإن الله وعد جنته من أطاعه، وأوعد ناره من عصاه، إنها نار لا يهدأ زفيرها، ولا يفك أسيرها، ولا يجبر كسيرها، حرها شديد، وقعرها بعيد، وماؤها صديد^(١). ولو تأملنا في المقطع السابق لوجدنا أن عوامل التأثير في المدعويين تتمثل فيما يلي:

١- صدق اللهجة النابع من إيمانه بما يدعو إليه، مما يجعل كلماته كأنها قبس من نفسه المشتعلة، وصورة من عواطفه المنفصلة، فهو لا يكاد ينطق بالجملة حتى تكون أسماعهم قد تلقفتها، وقلوبهم قد وعتها.

٢- تمتاز الألفاظ بالقوة، مع سهولتها وعذوبتها وسلاستها، كما أن عبارتها واضحة، وجملتها قصيرة ولعل ذلك يسعف السامعين بإدراك المعنى المراد.

٣- المقابلة بين المعاني المتضادة مما يزيد المعنى وضوحاً، والسامع تأثراً، ومن ذلك مثلاً: قوله: فإن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع. . وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع وقوله: وإنه لم أر كالجنة نام طالبها. . ولا كالنار نام هاربيها.

٤- الاقتباس من القرآن الكريم، كما في قوله: ألا إن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم، ذلك مقتبس^(٢)، من قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٨).

٥- لقد كانت عناصر الخطبة المذكورة تتمثل في التأثير الشديد بالقرآن الكريم وبكلام الرسول ﷺ، وواقعيتها واتصالها الحميم بالحياة البشرية، وعمق المعاني وسموها وشمولها، والإجادة في تخير الألفاظ وبناء العبارة، والإيجاز، والتعبير عن المعاني والألفاظ بالصور، واعتماد الوسائل البديعية، وغاية القول، فإن هذه

(٢) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله».

(١) «البداية والنهاية» (٧/٨).

الخطبة تكتسب أهمية خاصة لما تتكشف عنه من مزايا دينية وأدبية وشخصية، فهي عميقة الدلالة على شخصية صاحبها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، تنبئ عن إدراكه السليم للمفاهيم والآراء الإسلامية السديدة التي تتناول طبيعة الدنيا وغاية الوجود البشري والمصير الذي ينتهي إليه، وتوضع النتائج التي توصل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا الخصوص وتدلنا على ما كان يتحلى به من حكمة نافذة ورؤيا معمقة يرفدها صفاء ذهنه وطهارة روحه، إلى غير ذلك من المزايا العقلية والروحية العالية التي أفاضها عليه إيمانه، وتقاه وتمسكه بعرى الإسلام واعتصامه بربه ورضاه بقضائه، إن هذا كله قد ساعده في الوصول بالشر الفني إلى هذا المستوى الرفيع، فكان بحق في عالم الأدب فارس الكلمة وقائدها وإمامها تمامًا، كما كان في الناس إمامًا عادلاً زاهدًا، وقائدًا حكيمًا مجربًا، وفارس حرب لا يبارى^(١).

هذا وقد اهتم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بانتهاز المناسبات في وعظ الناس وتذكيرهم ولم يكتف بخطب الجمعة فقط، فعندما شيع جنازة ووضعت في لحدها وعج^(٢) أهلها وبكوا قال: ما تكون؟ أما والله لو عاينوا ما عاين ميتهم، لأذهلتهم معايتهم عن ميتهم؛ وإن له فيهم لعودة ثم عودة، ثم لا يبقى منهم أحدًا.. فاتقوا الله عباد الله، وجدوا في الطلب، وبادروا بالعمل مقطع النهمات، وهادم اللذات؛ فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، غرور حائل، وسناد مائل، اتعظوا عباد الله بالعبر، واعتبروا بالآيات والأثر، وازدجروا بالندر، وانتفعوا بالمواعظ، فكأن قد علقتمك مخالب المنية، وضمكم بيت التراب، ودهمتكم مقطعات الأمور بنفخة الصور، وبعثرة القبور وسياقة المحشر، وموقف الحساب، بإحاطة قدرة الجبار، لكل نفس معلّم، سائق يسوقها لمحشرها، وشاهد يشهد عليها بعملها ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩).

(١) «الأدب العربي»، لحبيب يوسف مغنية ص (٣٥٤) إلى (٣٦٣).

(٢) العج: رفع الصوت، «الصحاح» للجوهري (٣٢٧/١).

فارتجت لذلك اليوم البلاد، وناد المناد، وكان يوم التلاق، وكشف عن ساق، وكسفت الشمس، وحشرت الوحوش، مكان مواطن الحشر، وبدت الأسرار، وهلكت الأشرار وارتجت الأفتدة^(١).

ونستنتج من هذه الموعظة بعض عوامل التأثير منها:

- ١- وقوع الموعظة في مناسبتها، فإن الموعظة كانت بمناسبة تشييع جنازة، والنفوس في هذه الحال تكون مستعدة لتلقي ما تذكر به في الموت والدار الآخرة.
- ٢- الصياغة البلاغية للموعظة، فمواظ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه تتميز بأسلوبها البلاغي المؤثر في نفوس المدعوين، فمن الجوانب البلاغية في النموذج المذكور ما يلي:

أ - الاستعارة مثل قوله: فكأن قد علقتم مخالب المنية. تشبيه الموت (المنية) بحيوان مفترس، له مخالب، فحذف المشبه به وأبقى شيئاً من لوازمه وصفاته وهو المخالب.

ب - السجع العفوي غير المتكلف مثل قوله: فإن الدنيا لا يدوم نعيمها، ولا تؤمن فجائعها، غرور حائل، وسند مائل.

ج- الصيغ الإنشائية^(٢)، وهي مبثوثة في الخطبة كلها منها: ما تبكون؟ استفهام. . (اعتظوا عباد الله بالعبر) نداء. . (اعتظوا، اعتبروا، وازدجروا، وانتفعوا)، كل هذا على سبيل الأمر .

د- جزالة الألفاظ، لعل أي جزء من الخطبة يكون شاهداً عليها؛ لأن الخطبة كلها لا خلل فيها ولا ضعف.

٣- اعتماد المضمون على القرآن الكريم وانتهاجه منهجه في الإرشاد والإقناع، كقوله: «لكل نفس معلم، سائق يسوقها لمحشرها، وشاهد يشهد عليها بعملها» اعتماداً على قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق: ٢١).

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧٨/١)، و«صفة الصفوة» (٣٢٨/١).

(٢) الكلام الذي لا يحتمل التصديق والتكذيب.

٤- الترهيب بذكر أهوال يوم القيامة، كقوله: ودهتكم مقطعات الأمور بنفخة الصور، وبعثرة القبور، وسياقة المحشر، وموقف الحساب بإحاطة قدرة الجبار.

٥- الإقناع ومن ذلك قوله: كم مرضت بيديك وعللت بكفيك، ممن تطلب له الشفاء وتستوصف له الأطباء... للإقناع بحصول الموت، والارتحال عن الدنيا والقدوم على الآخرة، وأنه لا مهرب ولا فكاك.

٦- استحضار الصورة، وذلك لتعبيره بالفعل الماضي عما سيحدث في المستقبل، حتى يتصور السامع هذا الأمر الذي ينتظره، ومن ذلك قوله: فكأن قد علقتكم مخالب المنية، وضمكم بيت التراب، ودهمتكم مقطعات الأمور.

٧- لطف العبارة بحيث تستهوي السامعين ولا تنفرهم^(١)، فهذه بعض النماذج من خطب ومواعظ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والتي انتشرت بين الناس وساهمت في تربيتهم وتهذيب نفوسهم، وتطهير قلوبهم، وكان مفعولها ساري في جيله والأجيال التي بعده إلى يومنا هذا.

ثالثاً: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه والشعر:

يظهر من الأخبار التي وصلتنا أن الحركة الشعرية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، كانت نشطة، ومعروف أن كتب الأدب لم تعتمد في الأسانيد على الموثوقين من الرواة، ولكنها تكون المصدر الوحيد للأخبار الأدبية والنقدية التي تتصل بالخلفاء الراشدين، والصحابة بعامة، والتابعين بإحسان ما عدا بعض الأراجيز التي كانت تردد في العهد النبوي وروتها كتب الحديث الشريف^(٢)، فالمراجع فيما يتعلق بالشعر، والشعراء في عهد أمير المؤمنين علي هي كتب الأدب والأدباء، فهي غنية في هذا الجانب، ولا يختلف موقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من الشعر عن مواقف الراشدين الذين سبقوه إلى سدنة الخلافة، فكلهم

(١) «المنهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (١٤٥).

(٢) «المدينة النبوية فجر الإسلام» (٩٨/٢).

يستقون من كتاب الله وسنة رسوله، فهو يستمع إلى الشعراء ينشدون بين يديه ما يطيب له أن يسمعه من صادق القول ورفيع المعاني، وكان يعطي على الشعر إذا استساغه وأعجبه، كما مر معنا عندما قال الأعرابي:

كَسَوْتَنِي حُلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنَهَا فَسَوْفَ

أَكْسُوكَ مِنْ حُسْنِ الثَّنَا حُلَلًا^(١)

ولعلي آراء نقدية راقية في الشعر، ما زالت معايير يعتمدها النقاد في عصرنا الحاضر، فهو يقول: الشعر ميزان القول^(٢)، أي أن للشعر خصائص فنية يعرف بها صحيح القول من سقيمه في مقاييس أهل هذا الفن الكلامي، وإن خالف في أغراضه قيم قوم آخرين^(٣)، وأما أمير المؤمنين الشاعر، فقد اختلف في كثير مما ينسب إليه من شعر، وهذا الاختلاف لا يقلل من شاعريته المتمثلة فيما رجحت نسبته إليه، ولا يقدم ولا يؤخر في إمامته اللغوية والأدبية، ولكن يبدو للباحث أن الشعر لم يكن غاية عنده، كما أن سيرته السياسية وما رافقها من أحداث جسام لم تكن لتسمح له بالالتفات إلى صناعة الشعر وروايته، واصطياد المعاني الجميلة واختيار القوافي الرنانة المؤثرة، ومع ذلك فقد اشتهر له شعر كثير، ونسب إليه ديوان شعر يشتمل على العديد من القصائد والمقطوعات، فيه الكثير من الأقوال المرتجلة والآراء السديدة السامية، وكان أول من شكك في نسبة بعض القصائد إليه ابن هشام، فقد روى أن علياً كان يرتجز في أثناء بناء مسجد الرسول في المدينة:

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسْجِدَ

يَدَأْبُ فِيهِ قَائِمًا وَقَاعِدًا

وَمَنْ يَرَى عَنِ الْغُبَارِ حَائِدًا^(٤)

ويعقب ابن هشام قائلاً: سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا

(١) «العمدة» لابن رشيق (١٦/١).

(٢) «العمدة» لابن رشيق (١٤/١).

(٣) «الأدب الإسلامي»، لتايف معروف ص (١٩٢).

(٤) «سيرة ابن هشام» (٤٩٧/١).

الرجز، فقالوا: بلغنا أن علياً بن أبي طالب ارتجز به، ثم يقول: فلا يدري أهو قائله أم غيره؟^(١)، وفي موضع آخر يقول ابن هشام: وقد روى ابن إسحاق ثلاث قصائد منسوبة لعلي، ولم تصح له، ويرجح أنها قيلت في المعارك الإسلامية من قبل أحد المسلمين، وقد نظروا إلى معانيها الدينية فرأى الرواة أنها تتناسب وعلياً فنسبوها له وأما الديوان الذي نسب إليه فيرى الدكتور نايف معروف أن أمير المؤمنين علياً بفصاحته المعهودة وبلاغته المشهورة، هو أرفع مستوى من مجموع هذا الديوان، ويغلب على الظن أنه خليط لشعراء من مستويات متفاوتة قام بجمعها بعض محبيه الذين عز عليهم ألا يكون شاعراً، ظناً منهم أن ذلك يرفع من قدره عند الناس، علماً بأن علياً لم يكن من بين شعراء الرسول صلوات الله عليه الذين تولوا الرد على الحملة الدعائية التي شنّها شعراء المشركين على الإسلام والمسلمين^(٢)، ولكن الأمر لم يصل إلى حد الرواية التي نقلها ياقوت الحموي عن أبي عثمان المازني، حينما يزعم أنه لم يصح أن علياً تكلم من الشعر بشيء غير بيتين^(٣)، فهناك روايات عديدة جاءت تخالف هذا القول، إذ أثبت له الرواة عدداً من المقطوعات التي صحت نسبتها إليه عندهم^(٤)، ومن الأشعار التي نسبت إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

١ - في الفرج والشدة:

إِذَا اشْتَمَلَتْ عَلَى النَّاسِ الْقُلُوبُ
وَضَاقَ بِمَا بِهِ الصَّدْرُ الرَّحِيبُ
وَأَوْطَنْتَ الْمَكَارِهِ وَأَطْمَأَنَّتْ
وَأَرَسْتَ فِي أَمَاكِنِهَا الْخُطُوبُ^(٥)

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/٤٩٧).

(٢) «الأدب في الإسلام»، د. نايف معروف ص (١٩٥).

(٣) «معجم الأدباء»، لياقوت (٥/٢٦٣).

(٤) «الأدب في الإسلام» ص (١٩٥).

(٥) الخطوب: الأمور العظيمة.

وَلَمْ تَرَ لَانكِشَافِ الضَّرِّ وَجْهًا
 وَلَا أَغْنَى بِحِيلَتِهِ الْأَرِيبُ^(١)
 أَتَاكَ عَلَى قُنُوطٍ مِنْكَ غَوُثٌ
 يَمُنُّ بِهِ الْقَرِيبُ الْمَسْتَجِيبُ^(٢)
 وَكُلُّ الْحَادِثَاتِ إِذَا تَنَاهَتْ
 فَمَوْصُولٌ بِهَا الْفَرَجُ الْقَرِيبُ^(٣)

٢- فِي الصَّبْرِ:

أَلَا فَاصْبِرْ عَلَى الْحَدَثِ الْجَلِيلِ
 وَدَاوِ جَوَاكِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ^(٤)
 وَلَا تَجْزَعْ فَإِنْ أَعْسَرَتْ يَوْمًا
 فَقَدْ أَيْسَرَتْ فِي الدَّهْرِ الطَّوِيلِ
 وَلَا تَظَنَّ بِرَبِّكَ ظَنًّا سُوءًا
 فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْجَمِيلِ
 فَإِنَّ الْعُسْرَ يَتَّبَعُهُ يَسَارٌ
 وَقَوْلُ اللَّهِ أَصْدَقُ كُلِّ قِيلِ
 فَلَوْ أَنَّ الْعُقُولَ تُجَرِّرُ رِزْقًا
 لَكَانَ الرِّزْقُ عِنْدَ ذَوِي الْعُقُولِ
 فَكَمْ مِنْ مُؤْمِنٍ قَدْ جَاعَ يَوْمًا
 سَيَرَوْهُ مِنْ رَحِيقِ السَّلْسَبِيلِ^(٥)

(١) الأريب: العاقل .

(٢) «البداية والنهاية» (١٠/٨) .

(٣) «البداية والنهاية» (١٠/٨) .

(٤) الجوى: الشوق .

(٥) «البداية والنهاية» (١١/٨) .

٣- في حرص الناس على الدنيا:

لِلنَّاسِ حِرْصٌ عَلَى الدُّنْيَا وَتَدْبِيرٌ
 وَفِي مُرَادِ الْهَوَى عَقْلٌ وَتَشْمِيرٌ
 وَإِنْ أَتَوْا طَاعَةَ اللَّهِ رَبِّهِمْ
 فَالْعَقْلُ مِنْهُمْ عَلَى الطَّاعَاتِ مَأْسُورٌ
 لِأَجْلِ هَذَا وَذَلِكَ الْحِرْصُ قَدْ مَزَجَتْ
 صَفَاءَ عَيْشَاتِهَا هَمٌّ وَتَكْدِيرٌ
 لَمْ يُرْزَقُوهَا بِعَقْلٍ عِنْدَمَا قُسِمَتْ
 لَكِنِّهِمْ رُزُقُوهَا بِالْمَقَادِيرِ
 كَمْ مِنْ أَدِيبٍ لَبِيبٍ لَا تُسَاعِدُهُ
 وَمَائِقٍ نَالَ دُنْيَاهُ بِتَقْصِيرِ
 لَوْ كَانَ عَنْ قُوَّةٍ أَوْ عَنْ مُغَالَبَةٍ
 طَارَ الْبُزَاةُ بِأَرْزَاقِ الْعَصَافِيرِ (١)

٤- في الصداقة:

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ
 وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
 فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى
 حَلِيمًا حِينَ أَخَاهُ
 يُقَاسُ الْمَرءُ بِالْمَرءِ
 إِذَا مَا هُوَ مَا شَاهُ

وَلِلشَّيْءِ مَنَ الشَّيْءِ
مَقَايِسٌ وَأَشْبَاهُ
قِيَاسُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ
إِذَا مَا هُوَ حَاذَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ
دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ (١)

٥- في التواضع والقناعة:

حَقِيقٌ بِالتَّوَاضِعِ مَن يَمُوتُ
وَيَكْفِي الْمَرْءَ مِنَ دُنْيَاهُ قُوتُ
فَمَا لِلْمَرْءِ يَصْبِحُ ذَا هُمُومٍ
وَحِرْصٍ لَيْسَ تُدْرِكُهُ النُّعُوتُ
صَنِيعٌ مَلِكِنَا حَسَنٌ جَمِيلٌ
وَمَا أَرْزَأُقُهُ عَنَّا تَفُوتُ
فَيَا هَذَا سَتَرْحَلُ عَن قَلِيلٍ
إِلَى قَوْمٍ كَلَامُهُمُ السُّكُوتُ (٢)

٦- في السر وكتمانه:

وَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ
فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا
فَإِنِّي رَأَيْتُ غُوَاةَ الرَّجَالِ
لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا (٣)

(٢، ١) «اللبداية والنهاية» (١٢/٨).

(٣) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (٩٧/١).

رابعاً: من حكم أمير المؤمنين علي التي سارت بين الناس:

تهيأ لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مجموعة من الأسباب من سرعة البديهة، وذلاقة اللسان، ورجحان العقل، وطهارة القلب، وصفاء النفس وعمق الإيمان، والتضلع في الدين والقرب من رسول الله صلوات الله عليه وتلقي الوحي عنه، ما مكنه من فصاحة اللسان، وجودة البيان، فأصبحت كلماته درراً، وجمله حكماً أعجبت ذوي العقول، فهي لأهل البلاغة مطلب، ولأهل الهداية مغنم، ففيها حث لهم على فضائل الأعمال، وجميل الخصال وأصبحت حكمه الجميلة مادة قيمة في مجال دعوة الناس وتعليمهم، وتهذيب نفوسهم وتنوير عقولهم، وإحياء قلوبهم، لما فيها من جودة التعبير، ووضوح المعاني، وعمق التفكير، وفوق ذلك فهي تنبع من قلب تقي، وصدر نقي^(١)، ومن هذه الحكم على سبيل المثال ما يلي:

- ١- صلاة الليل بهاء في النهار^(٢). قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ لِرَبِّهِمْ سَجْدًا وِقِيَامًا﴾ (الفرقان: ٦٤) وقال أيضاً في قيام الليل: «نور المؤمن من قيام الليل»^(٣).
- ٢- صلاح الدين من الورع وفساده من الطمع^(٤).
- ٣- طوبى لمن عمل بعلمه^(٥).
- ٤- الفرصة تمر مر السحاب^(٦).
- ٥- قسوة القلب من الشبع^(٧).
- ٦- الشرف بالفضل والأدب، لا بالأصل والنسب^(٨).
- ٧- جمال الخلق أبهى من جمال الخلق^(٩).
- ٨- في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق^(١٠).

(١) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٢٧٥).
 (٢) «نثر اللآلي» مخطوطة نقلت عن «منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٧٦).
 (٣) «نثر اللآلي» مخطوطة نقلت عن «منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٧٦).
 (٤) المرجع السابق ص (٢٧٧). (٦) المرجع السابق ص (٢٧٧). (٧) المرجع السابق ص (٢٧٨).
 (٨) «الإعجاز والإيجاز» للنعالبي ص (٣٠)، نقلت عن «منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٢٦).
 (٩) «نثر اللآلي» مخطوطة، نقلت عن «منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٢٨).

٩- المعروف كنز من أفضل الكنوز^(١).

اجتمع عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه جماعة فتذاكروا المعروف، فانتهز أمير المؤمنين هذا الحديث لترغيبهم فيه وحثهم عليه فقال: المعروف كنز من أفضل الكنوز، وزرع من أزكى الزروع، فلا يزهديكم في المعروف كفر من كفره، ووجد من جرده، فإن من يشرك عليه ممن لم يصل إليه منه شيء أعظم مما ناله أهله منه، فلا تلتمس من غيرك ما أسديت إلى نفسك، إن المعروف لا يتم إلا بثلاث خصال تصغيره، وستره، وتعجيله، فإذا أصغرته فقط عظمته، وإذا سترته فقد أتممته، وإذا عجلته فقد هنأته^(٢).

١٠- لا شرف مع سوء الأدب^(٣).

١١- لا راحة لحسود^(٤).

١٢- الحاسد مغتاز على من لا ذنب له^(٥).

١٣- ويل للباغين من أحكم الحاكمين^(٦).

١٤- من سل سيف البغي قتل به^(٧).

١٥- للظالم البادي - غدا - بكفه عظة^(٨).

وهذا الترهيب مستفاد من قوله: ﴿ وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ (الفرقان: ٢٧).

١٦- إخفاء الشدائد من المروءة^(٩).

(١) «تاريخ يعقوبي» (٢/ ٢١٠) و«منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٣٠).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢١٠)، والمصدر نفسه ص (٢٣٠).

(٣) «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي ص (٢٨).

(٤) «مطلوب كل طالب من كلمات علي بن أبي طالب» مخطوطة نقلت عن «منهج علي» ص (٢٣٤).

(٥) «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي ص (٢٩)، و«منهج علي بن أبي طالب» (٢٣٥).

(٦) «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي ص (٣٥)، و«منهج علي بن أبي طالب» (٢٣٥).

(٧) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٢٣٥).

(٨) المصدر نفسه ص (٢٣٦).

(٩) المروءة: هي كمال الرجولة، «منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٤٣).

- ١٧- أحسن إلى المسيء تسده (١) .
- ١٨- الإحسان يقطع اللسان (٢) .
- ١٩- من عذب لسانه كثر إخوانه (٣) .
- ٢٠- من قل صدقه ، قل صديقه (٤) .
- ٢١- لسانك يقتضيك ما عودته (٥) .
- ٢٢- من طلب ما لا يعنيه فاته ما يعنيه (٦) .
- ٢٣- صاحب الأخيار تأمن الأشرار (٧) .
- ٢٤- جليس الخير غيمة (٨) .
- ٢٥- صحبة الأحمق نقصان في الدنيا ، وحسرة في الآخرة (٩) .
- ٢٦- كفى أدباً لنفسك ما كرهته لغيرك (١٠) .
- ٢٧- لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال (١١) .
- ٢٨- خير الناس من ينفع الناس (١٢) .
- ٢٩- المرء مخبوء تحت لسانه (١٣) .
- ٣٠- اللسان معيار أطاشه الجهل وأرجحه العقل (١٤) .
- ٣١- أخوك من واسبك في الشدة (١٥) .
-
- (١) «نثر اللآلئ من كلام علي بن أبي طالب»، نقلاً عن «منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٤٥) .
- (٢) «مطلوب كل طالب في شرح كلمات علي بن أبي طالب» نقلاً عن «منهج علي» ص (٢٤٦) .
- (٣) ، (٤) المصدر نفسه ص (٢٤٧) .
- (٥) المصدر نفسه ص (٢٤٨) .
- (٦) «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي ص (٢٩) المرجع السابق ص (٢٤٩) .
- (٧) «نثر الآلئ من كلام علي بن أبي طالب» والمرجع السابق ص (٢٤٩) .
- (٨، ٩) «نثر اللآلئ من كلام علي بن أبي طالب» والمرجع السابق ص (٢٤٩) . (١٠) المرجع السابق ص (٢٥٠) .
- (١١) «نثر اللآلئ من كلام علي بن أبي طالب» والمرجع السابق ص (٢٥٠) . (١٢) المصدر السابق ص (٢٥١) .
- (١٣) المصدر السابق ص (٢٥٢) .
- (١٤) «أدب الدنيا والدين» (٢٦٥) .
- (١٥) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» ص (٢٥٣) .

- ٣٢- قيمة كل امرئ ما يحسنه .
- ٣٣- احذر صولة الكريم إذا جاع، وصولة اللئيم إذا شبع .
- ٣٤- النفس مؤثرة للهوى، آخذة بالهويني، جامعة إلى اللهو، أمارة بالسوء، مستوطنة للفجور، طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها^(١).
- ٣٥- العجز آفة، والصبر شجاعة، والزهد ثروة، والورع جنة.
- ٣٦- لا تكن عبد غيرك، وقد جعلك الله حراً .
- ٣٧- إياك والاتكال على المنى، فإنها بضائع النوكى^(٢).
- ٣٨- الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا .
- ٣٩- الناس أعداء ما جهلوا .
- ٤٠- ما هلك امرؤ عرف قدره .
- ٤١- رب كلمة سلبت نعمة .
- ٤٢- الآداب حلل مجددة والفكر مرآة صافية .
- ٤٣- الفقر يخرس الفطن عن حجته، والمقل غريب في بلده
- ٤٤- إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه^(٣).
- ٤٥- اجمعوا هذه القلوب، والتمسوا لها طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان^(٤).
- ٤٦- بشاشة الوجه عطية ثانية^(٥).

(٢) النوكى: الحمق .

(١) «المرتضى» للندوي ص (٢٠١).

(٤) «المرتضى» للندوي ص (٢٠١).

(٣) «المرتضى» للندوي ص (٢٠٢).

(٥) «نثر اللآلئ في كلام علي بن أبي طالب» نقلاً عن «منهج علي بن أبي طالب» (٢٣٨)

٤٧- العفو عند المقدرة شكر للمقدرة^(١).

٤٨- إعادة الاعتذار تذكير للذنب^(٢).

٤٩- أبلغ العظات النظر إلى الأموات^(٣).

٥٠- ذكر الموت جلاء القلوب^(٤).

فهذه بعض الحكم لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه التي سارت بين الناس، والتي لخصت كثيراً من تجاربه في الحياة في عبارات موجزة، غزيرة المعاني، والغايات والأهداف والمقاصد كان لها تأثير في حياة المجتمع الذي عاش فيه والمجتمعات المتلاحقة من بعده إلى يومنا هذا، لقد كانت الحكم، والخطب والأشعار والمواعظ من وسائل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في توجيه وترشيد وتعليم المجتمع الإسلامي.

خامساً: حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن صفات خيار العباد، وعن تطوع النبي صلى الله عليه وسلم، ووصف الصحابة الكرام.

١- صفات خيار العباد:

سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خيار العباد فقال: الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أسأؤوا استغفروا، وإذا ابتلوا صبروا، وإذا غضبوا غفروا^(٥)، وقال: ألا وإن لله عبداً كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وأهل النار في النار معذبين.. شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لعقبى راحة طويلة، إذا رأيتهم في الليل، رأيتهم صافين أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى الله في فكاك

(١) «مطلوب كل طالب» نقلاً عن «منهج علي بن أبي طالب» ص (٢٣٩).

(٢) «الإعجاز والإيجاز» للثعالبي ص (٢٩) نقلاً عن «علي بن أبي طالب» ص (٢٣٩).

(٣) «نثر اللآلئ» نقلاً عن «منهج علي بن أبي طالب» ص (١٤٨).

(٤) «منهج علي بن أبي طالب» ص (١٤٩).

(٥) «مروج الذهب» (٢/٤٣١).

رقابهم، وأما نهارهم ففضلاء حلما بررة أتقياء، كأنهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيقول: مرض وما بهم من مرض، وخولطوا، ولقد خالط القوم أمر عظيم^(١)، وقال: ينبغي للمؤمن أن يكون نظره عبرة، وسكوته فكرة، وكلامه حكمة^(٢)، وقال: طوبى لكل عبد نومه^(٣)، عرف الناس، ولم يعرفه الناس، عرف الله برضوان، أولئك مصاييح الهدى، يكشف الله عنهم كل فتنة مظلمة، سيدخلهم الله في رحمة منه ليسوا بالمذاييع^(٤)، البذر^(٥)، ولا الجفأة^(٦) المرائين^(٧)، وكلام أمير المؤمنين علي فيه تأثر واضح بقول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»^(٨).

٢- إجابته لمن سأل عن تطوع النبي ﷺ: عن عاصم بن ضمرة قال: سألنا علياً عن تطوع النبي ﷺ بالنهار فقال: إنكم لا تطيقونه. قال: قلنا ما أطقنا. قال: كان النبي ﷺ إذا صلى الفجر أمهل، حتى إذا كانت الشمس من ههنا، يعني من قبل المشرق، مقدارها من صلاة العصر من ههنا من قبل المغرب قام فصلى ركعتين، ثم يمهل حتى إذا كانت الشمس من ههنا يعني من قبل المشرق مقدارها من صلاة الظهر من ههنا، يعني من قبل المغرب قام فصلى أربعاً، وأربعاً قبل الظهر إذا زالت الشمس، وركعتين بعدها، وأربعاً قبل العصر، يفصل بين كل ركعتين بالتسليم على الملائكة المقربين، والنبين، ومن تبعهم من المؤمنين والمسلمين، قال: قال علي: تلك ست عشرة ركعة تطوع النبي ﷺ بالنهار، وقل من يداوم عليها^(٩)، وقد بين أمير المؤمنين في موضع آخر هدي رسول الله ﷺ في الوتر فقال: أوتر رسول الله ﷺ من أول الليل وآخره وأوسطه

(١) «البداية والنهاية» (٦/٨).

(٢) «مروج الذهب» (٤٣٤/٢).

(٣) الخامل الذكر الذي لا يؤبه له، وقيل: الغامض في الناس الذي لا يعرف الشر وأهله.

(٤) المذاييع: جمع مذيع، من أذاع الشيء إذا أمشاه والمذاييع: الذي لا يكتم السر.

(٥) البذر: جمع بذور وهو الذي يفشي الكلام بين الناس.

(٦) الجفأة: غلظ الطبع.

(٧) «صفة الصفوة» (٣٢٥/١).

(٨) «المسند» (١٦٨/١) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، و«مسلم» (٢٢٧٧/٤).

(٩) «مسند أحمد» (٦٢/٢) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

فانتهى وتره إلى السحر^(١)، وفي بيان هدي النبي صلى الله عليه وسلم بعد صلاته، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة قال: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»^(٢).

٣- وصف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه للصحابة الكرام:

لما أحس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أصحابه شيئاً من الغفلة وقلة النشاط في الطاعة، ذكرهم بشيء من سيرة أسلافهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو أراكه بقوله: صليت مع علي صلاة الفجر، فلما انفلت عن يمينه مكث كأن عليه كآبة، حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلى ركعتين ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون صفرًا شعثًا غبرًا بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يتراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا فذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح.

وهملت أعينهم حتى ابتلت ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين، ثم نهض فما رئي بعد ذلك مفترًا يضحك حتى قتله ابن ملجم عدو الله الفاسق^(٣).

٤- تنبيه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أصحابه على فضائل الأعمال:

لما ورد له في خطبة قوله: أوصيكم بتقوى الله فإن أفضل ما توسل به العبد بالإيمان والجهاد في سبيله، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة، وإقام الصلاة فإنها الملة وإيتاء الزكاة فإنها فريضة، وصوم شهر رمضان فإنه جنة من عذابه، وحج البيت فإنه منفاة مدحضة للذنوب، وصلة الرحم فإنها منسأة في الأجل، محبة في الأهل، وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة، وتطفئ غضب الرب، وصنع المعروف،

(١) «مسند أحمد» (٢ / ٦٤) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١ / ٢٨٣) للألباني.

(٣) «حلية الأولياء» (١ / ٧٦).

فإنه يدفع ميتة سوء، ويقي مصارع الهول، أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر^(١).

٥. معايدة المريض:

عن ثوير بن أبي فاختة عن أبيه قال: أخذ علي بيدي، قال: انطلق بنا إلى الحسن نعوده، فوجدنا عنده أبا موسى فقال علي رضي الله عنه: أعائداً جئت يا أبا موسى أم زائراً؟ قال: لا بل عائداً، فقال علي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من مسلم يعود مسلماً غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك، حتى يمسي، وإن عادته عشية إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح»^(٢).

٦. تشجيعه لابنه الحسن على الخطابة:

قال أمير المؤمنين علي لابنه الحسن يوماً: يا بني ألا تخطب حتى أسمعك؟ فقال: إنني أستحي أن أخطب وأنا أراك، فذهب علي حيث لا يراه الحسن، ثم قام الحسن في الناس خطيباً، وعلي يسمع فأدى خطبة بليغة فصيحة، فلما انصرف جعل علي يقول: ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم^(٣).

٧. إني لست كما تقول:

قال عمرو بن مرة، عن أبي البختری قال: جاء رجل إلى عليّ فأتنى عليه، وكان قد بلغه عنه أمر، فقال: إنني لست كما تقول، وأنا فوق ما في نفسك^(٤).

٨. التحذير من الانقياد للشهوات:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم؛ فإن عاجلها ذميم، وأجلها وخيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوفها بالتأميل والإرغاب، فإن الرغبة والرغبة إذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت^(٥).

(١) «البداية والنهاية» (٣١٩/٧).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» للألباني (٢٨٦/١).

(٣) «البداية والنهاية» (٣٧/٨).

(٤) «تاريخ الذهبي عهد الخلفاء الراشدين» (٦٤٦).

(٥) «أدب الدين والدنيا» ص (٢٦).

٩. إدخال السرور على المسلم:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم^(١).

١٠. أشد الأعمال ثلاثة:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: أشد الأعمال ثلاثة: إعطاء الحق من نفسك، وذكر الله على كل حال، ومواساة الأخ في المال^(٢).

سادساً: التحذير من الأمراض الخطيرة التي حذر منها أمير المؤمنين:

١. جزاء المعصية:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والنقص في اللذة، قيل: وما النقص في اللذة؟ قال: لا ينال شهوة حلال إلا جاءها ما ينغصه إياها^(٣)، ومع هذا الترهيب والتخويف من المعصية فإن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه لا يغفل عن الترغيب في تركها؛ حيث قال: من كان يريد العز بلا عشيرة والنسل بلا كثرة، والغنى بلا مال، فليتحول من ذل المعصية إلى عز الطاعة^(٤)، وقال: إذا رغبت في المكارم، فاجتنب المحارم^(٥).

٢. طول الأمل واتباع الهوى:

خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منبر الكوفة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس، إن أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، ألا إن الدنيا قد ولت مدبرة والآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل^(٦).

(٢) «حلية الأولياء» (١/٨٥).

(٤) «تاريخ يعقوبي» (٢/٢٠٦).

(٥) «منهج علي في الدعوة إلى الله» (ص ٣٠٧)، نقلاً عن «سجع الحمام في حكم الإمام» (ص ٥٧).

(٦) «حلية الأولياء» (١/٧٦)، و«صفة الصفوة» (١/٣٢١).

(١) «تنبيه الغافلين» (ص ٢٤٥).

(٣) «تاريخ الخلفاء» للسبوطي (ص ٢٠٤).

فقد أشار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في هذه الخطبة إلى أمرين خطيرين لهما تأثير كبير في حياة الناس وهما طول الأمل بالبقاء على قيد الحياة؛ فإنه يخدع الإنسان فيشغله بمشاريعه وطموحاته الدنيوية، ويمنيه بتأجيل الأعمال الصالحة وينسيه الحياة الآخرة، فيتضخم عمله للدنيا ويتضاءل عمله للآخرة، ولو أن كل إنسان وضع في مخيلته أنه معرض للموت في كل ساعة لأصبح العمل للدنيا قليلاً بقدر الضرورة، ولأصبح العمل للآخرة كثيراً؛ لأنه هو الذي سيبقى، بعد الموت، وأما اتباع الهوى؛ فإنه يغير اتجاه صاحبه، ويجعل الهدف الأعلى في فكره هو تحقيق هوى نفسه وهوى من يعمل تحت إدارتهم، وينسى الهدف الإسلامي الأعلى الذي هو ابتغاء رضوان الله تعالى وفضله في الجنة، وبناء على تغير الأهداف فإن مناهج العمل تتغير فتصبح مناهج دنيوية يُراد بها تحقيق أهداف لا تتجاوز الحياة الدنيا، كما تتغير العلاقات والروابط، فتصبح الأخوة قائمة على المصالح الدنيوية بدلاً من الإيمان والتقوى، إلي غير ذلك مما يترتب على تغير الأهداف (١).

٣- الرياء:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا تعمل شيئاً من الخير رياءً، ولا تتركه حياءً (٢)، وقال رضي الله عنه: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى عليه، وينقص إذا ذم به (٣)، وقد جاءت نصوص الشرع بتسمية الرياء شركاً أصغر، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلي الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟» (٤)، وعن شداد بن أوس، قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الشرك الأصغر (٥)، إن

(٢) «أدب الدنيا والدين» ص (١١٠).

(١) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (٢٠/٢٧٦).

(٣) «الكبائر» للذهبي ص (١٤٥). و «فرائد الكلام» ص (٣٣٨).

(٤) «مسند أحمد» (٥/٤٢٨، ٤٢٩) إسناده حسن.

(٥) «الحاكم» (٤/٣٢٩) صححه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/١٨).

أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حذر من مرض القلب الخطير المتعلق بإرادة الإنسان وقصده، وحث الناس على أفراد الله سبحانه وتعالى بالقصد والطاعة والالتزام بالسيرة على هدي السنة النبوية، فقد ثبت عنه أنه قال: لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل إلا بنية ولا نية إلا بموافقة السنة^(١)، وروي عن الفضيل بن عياض أنه تلا قوله تعالى: ﴿لِيَلْوَكُمُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢)، فقال: أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة^(٢).

إن صور الرياء متعددة: منها ما يكون بالأعمال، كمن يصلي فيطيل القيام ويطيل الركوع والسجود ويظهر الخشوع عند رؤية الناس له، ومنها ما يكون من جهة القول، كالرياء بالوعظ والتذكير وحفظ الأخبار والآثار لأجل المحاوراة وإظهار غزارة العلم، وتحريك الشفتين في محضر الناس ويتغافل عنه في منزله، أو يكون الرياء من جهة الزي، كإبقاء أثر السجود على جبهته، ولبس الغليظ من الثياب وخشنها مع تشميرها كثيراً ليقال: عابد زاهد، أو ارتداء نوع معين من الزي ترتديه طائفة يعدهم الناس علماء ليقال: عالم، أو يكون الرياء بالأصحاب والزائرين، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً أو عابداً ليقال: إن فلانا قد زار فلاناً، ودعوة الناس لزيارته كي يقال: إن أهل الخير يترددون عليه، وكذلك من يرئى بكثرة الشيوخ ليقال: لقي فلان شيوخاً كثيراً واستفاد منهم لياهي بذلك، أو يكون الرياء لأهل الدنيا، كمن يتبختر ويختال في مشيته، أو يصعر خده أو يلف عباءته، أو يحرك سيارته حركة خاصة، أو يكون الرياء من جهة البدن؛ كأن يرئى بإظهار النحول والصفار ليوهم الناس أنه جاد في العبادة كثير الخوف والحزن وغير ذلك من الصور التي يرئى بها المرأون، يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد^(٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/٨٩).

(١) «الشرعية» للأجري (٢/٦٣٨)، وإسناده فيه ضعف.

(٣) انظر: «مختصر منهاج القاصدين» ص (٢١٥-٢١٧)، و«الشرك في القديم والحديث» لأبي بكر محمد زكريا

وبالجملة فإن المحافظة على أعمال الخير والإكثار من ذكر الله وعبادته وخشيته وحده، وعدم خشية الناس في ذات الله ومحبة الصالحين وغيرها كل هذا من الأعمال الصالحة الحسنة المطلوبة، ولكن لا بد أن تكون كلها لله؛ لأن الرياء هو عمل العمل الصالح لغير الله، فيجب على المؤمن تصحيح نيته لله لا أن يترك العمل الصالح خوفاً من الرياء، فليحذر تلك الأصناف من خطورة مرض الرياء وليتذكروا قول رسول الله ﷺ: «من طلب العلمَ ليماري به الفقهاء، أو يجاري به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه؛ أدخله الله النار»^(١).

إن أمير المؤمنين علياً حذر من الرياء وبين أن الأعمال لا تقبل إلا إذا كانت خالصة لله وعلى سنة رسول الله ﷺ، وقد حث ﷺ على التمسك بالسنة في مناسبات عديدة، فقد قال: «واقعدوا بهدي نبيكم ﷺ؛ فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أفضل السنن»^(٢).

٤- العجب:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: الإعجاب آفة الألباب^(٣). إن العجب من الآفات التي تفسد الأعمال، وتهلك العباد، والعجب أحد العوارض التي تعرض للعاملين أثناء سيرهم إلى الله تعالى، والعجب داء ينافي الإخلاص ويضاده، ويجافي الذل والافتقار لله تعالى، فهو سوء أدب مع الله جل جلاله، كما أن العجب يجانب محاسبة النفس، ويعمى عن معرفة أدواء النفس وعيوبها، ومع كل ذلك فالحديث عن تلك الآفة قليل مع شدة خطرها، وعظيم ضررها، وكثرة انتشارها، قال عبدالله بن المبارك: العجب أن ترى عندك شيئاً ليس عند غيرك^(٤)، وفرق ابن تيمية بين الرياء والعجب فقال: والعجب قرين الرياء لكن الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمن

(١) «مسلم»، كتاب الإمامة، باب: من قاتل للرياء والسمة (١٥١٣/٢). (٢) «البداية والنهاية» (٣١٩/٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٤٠٧/٨).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (٥٧١/١).

حَقَّقَ قَوْلَهُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خَرَجَ مِنَ الرِّيَاءِ، وَمَنْ حَقَّقَ قَوْلَهُ: ﴿وَأِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خَرَجَ عَنِ الإِعْجَابِ^(١).

وَقَالَ الْغَزَالِيُّ: أَعْلَمُ أَنَّ آفَاتَ الْعَجَبِ كَثِيرَةٌ، فَإِنَّ الْعَجَبَ يَدْعُو إِلَى الْكِبَرِ، فَيَتَوْلَدُ عَنِ الْعَجَبِ الْكِبَرُ، وَمِنَ الْكِبَرِ الْآفَاتُ الْكَثِيرَةُ الَّتِي لَا تَخْفَى، وَالْعَجَبُ يَدْعُو إِلَى نَسْيَانِ الذُّنُوبِ وَإِهْمَالِهَا، وَأَمَّا الْعِبَادَاتُ فَإِنَّهُ يَسْتَعْظِمُهَا وَيَتَبَجَّحُ بِهَا، وَيَمُنُّ عَلَى اللَّهِ بِفَعْلِهَا، وَيَنْسِي نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ وَالتَّمَكِينِ مِنْهَا، وَالْمَعْجَبُ يَغْتَرُّ بِنَفْسِهِ وَبِرَأْيِهِ وَيَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ بِمَكَانٍ . . وَيُخْرِجُهُ الْعَجَبُ إِلَى أَنْ يَشْنِي عَلَى نَفْسِهِ وَيُحَمِّدُهَا وَيُزَكِّيْهَا^(٢).

وَقَالَ الْقُرَافِيُّ: وَسِرُّ تَحْرِيمِ الْعَجَبِ أَنَّهُ سَوْءُ أَدَبٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَسْتَعْظِمَ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى سَيِّدِهِ، بَلْ يَسْتَصْغِرُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عِظَمَةِ سَيِّدِهِ، لِأَسِيْمَا عِظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الزمر: ٦٧)، أَيُّ مَا عَظَمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، فَمَنْ أَعْجَبَ بِنَفْسِهِ وَعِبَادَتِهِ فَقَدْ هَلَكَ مَعَ رَبِّهِ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، وَعَرَضَ نَفْسَهُ لِمَقْتِ اللَّهِ تَعَالَى وَسَخَطِهِ^(٣). وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ ابْتِدَاءً: إِنْ سَبَبَ الْعَجَبُ أَمْرَانِ:

(أ) الْجَهْلُ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَدَمُ تَقْدِيرِ اللَّهِ تَعَالَى حَقَّ قَدْرِهِ، وَقِلَّةُ الْعِلْمِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ، وَضَعْفُ التَّعَبُّدِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

(ب) الْغَفْلَةُ عَنِ حَقِيقَةِ النَّفْسِ، وَقِلَّةُ الْعِلْمِ بِطَبِيعَتِهَا، وَالْجَهْلُ بِعِيُوبِهَا وَأَدْوَائِهَا، وَإِهْمَالُ مَحَاسِبَةِ النَّفْسِ وَمَرَاقِبَتِهَا^(٤).

وَمَنْ ثَمَّ فَإِنَّ الْعِلَاجَ هُوَ التَّعَرُّفُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَحْقِيقُ تَعْظِيمِهِ وَتَقْدِيرِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْقِيَامَ بِالْعِبَادَةِ لَهُ مِنْ خِلَالِ الْعِلْمِ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى وَتَعَبُّدِ الْمَوْلَى عِزَّ وَجَلَّ بِهَا، فَالْخَيْرُ كُلُّهُ بِيَدَيْهِ، وَرَحْمَتُهُ تَعَالَى وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣).

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٧٧). (٢) «الإحياء» (٣/٣٧٠) باختصار. (٣) «الفروق» (٤/٢٢٧).

(٤) «معالم في السلوك وتزكية النفوس»، لعبدالعزیز عبد اللطيف ص(٩٨).

قال الإمام الشافعي: إذا خفت على عملك العُجب، فاذكر رضى من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب، فمن فكر في ذلك صغرُ عنده عمله (١).

وقال النووي: وطريقه في نفي الإعجاب أن يعلم أن العلم فضل من الله تعالى، ومنة عارية، فإن لله تعالى ما أخذ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى، فينبغي ألاَّ يعجب بشيء لم يخترعه، وليس مالكا له، ولا على يقين من دوامه (٢).

قال ابن القيم: اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله، مطالعاً فيه منة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه، ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو الذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي منّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته، ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه (٣)، وأما العلاج الآخر للعجب فهو معرفة النفس ومحاسبتها، قال ابن الجوزي: من تلمح خصال نفسه وذنوبها، علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره، في شك، فالذي يُحذر منه الإعجاب بالنفس، ورؤية التقدم في أعمال الآخرة، والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه، وقد قيل لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: إن مت ندفك في حجرة رسول الله صلوات الله عليه وسلم، فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إليّ من أن أرى نفسي أهلاً لذلك (٤)، وقال ابن حزم: من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه، فإن أعجب بفضائله، فليفتش عما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإن خفيت عليه جملة حتى لا يظن أنه لا عيب فيه، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد، وأنه أتمّ الناس نقصاً، وأعظمهم عيوباً، وأضعفهم تمييزاً، وأول ذلك أنه ضعيف العقل، جاهل، ولا عيب أشد من هذين؛ لأن العاقل هو من ميز عيوب

(١) "سير أعلام النبلاء" (٤٢/١٠).

(٢) "المجموع" (٥٥/١).

(٤) "صيد الخاطر" ص (٢٥٠، ٢٥١).

(٣) "الفوائد" ص (١٤٤).

نفسه فغالبا وسعى في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه، وإن أعجبت بأرائك، ففتكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها، وفي كل رأي قدرته صواباً فخرج بخلاف تقديرك، وأصاب غيرك وأخطأت أنت، وإن أعجبت بعملك، فاعلم أنه لا حصة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة، وهبك إياها ربك تعالى، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسبك ذلك بعله يمتحنك بها، تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت، وإن أعجبت بمدح إخوانك لك، ففكر في ذم أعدائك إياك، فحينئذ ينجلي عنك العجب، فإن لم يكن لك عدو، فلا خير فيك، ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدوله، فليست إلا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها - عافانا الله - فإن استحققت عيوبك، ففكر فيها لو ظهرت إلى الناس، وتمثل اطلاعهم عليها، فحينئذ تخجل وتعرف نقصك^(١)، ويقول ابن القيم أثناء حديثه عن الحكم والأسرار في قضاء السيئات وتقدير المعاصي: ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد بعبده خيراً أنساه رؤية طاعاته ورفعها من قلبه ولسانه، فإذا ابتلي بذنب جعله نصب عينيه، ونسي طاعته وجعل همه كله بذنبه، فلا يزال ذنبه أمامه، إن قام أو قعد، أو غدا أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه، كما قال بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه، كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر، وتضرع وأتاب إلى الله، وذلّ له وانكسر وعمل لها أعمالاً فتكون سبب الرحمة في حقه، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمنّ بها، ويراها، ويعتدّ بها على ربه وعلى الخلق، ويتكبر بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونهم عليها؟ فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوى عليه آثارها فتدخله النار^(٢)، هذا شرح موجز وسريع لقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: الإعجاب آفة الألباب^(٣).

(١) «الأخلاق والسير» ص (٦٦ - ٧١) باختصار.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/٢٩٧، ٢٩٨)، و«مدارج السالكين» (١/١٧٧).

(٣) «جامع البيان والعلم وفضله» (١/٥٧).

سابعاً: اهتمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بترشيد الأسواق ومواقف متنوعة مع الناس:

حرص أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على تفقد أحوال المتعاملين في السوق وحملهم على التعامل بالشرع الحنيف، وقد ثبت أن علياً رضي الله عنه كان شديد العناية بالاحتساب في مجال السوق، فعن الحر بن جرموز المرادي عن أبيه قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج من القصر وعليه قطريتان إزاره إلى نصف الساق، ورداؤه مشمر قريباً منه، ومعه الدرة يمشي في الأسواق ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ويقول: أوفوا الكيل والميزان ولا تنفحوا^(١) اللحم^(٢)، وعن أبي مطر قال: خرجت من المسجد، فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك؛ فإنه أبقى لثوبك وأتقي لربك، وخذ من رأسك إن كنت مسلماً فمشيت خلفه، وهو مؤتزر بإزار، مرتد برداء، ومعه الدرة، كأنه أعرابي بدوي، فقلت: من هذا؟ فقال لي رجل: أراك غريباً في هذا البلد، فقلت: أجل من أهل البصرة. فقال: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين رضي الله عنه، حتى انتهى إلى دار ابن أبي معيط وهو يسوق الإبل، فقال: بيعوا ولا تحلفوا؛ فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة ثم أتى أصحاب التمر، فإذا خادمة تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: باعني هذا الرجل تمرًا بدرهم، فرده موالي فأبى أن يقبله. فقال له علي: خذ تمرًا وأعطاها درهماً، فإنها ليس لها أمر، فدفعه، فقلت: أتدري من هذا؟ فقال: لا. فقلت: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين. فوهبت تمرها فأعطاها درهماً. ثم قال الرجل: أحب أن ترضى عني يا أمير المؤمنين. قال: ما أرضاني عنك، إذا وفيت الناس حقوقهم. ثم مر مجتازاً بأصحاب التمر، فقال: يا أصحاب التمر، أطعموا المساكين، يربُّ كسبكم ثم مر مجتازاً - ومعه المسلمون - حتى انتهى إلى

(١) في بعض الروايات (ولا تنفحوا) كما في «الطبقات» (٢٨/٣)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٨/٧).

(٢) «تنقيح العظم» استخراج مخه وتنقيح شحم الناقة أي قل، ونقح الشيء أي قشره، والمراد - والله أعلم - لا تخرجوا مخ العظام المكسوة باللحم «لسان العرب» (٢/٦٢٤)، و«فضائل الصحابة» (٢/٦٨٨)، وإسناده صحيح رقم (٩٣٨).

أصحاب السمك، فقال: لا يباع في سوقنا طافي. ثم أتى دار فرات وهي سوق الكرابيس^(١)، وعن زاذان قال: كان علي يمشي في الأسواق وحده يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويمر بالبيع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣)، ثم يقول: نزلت هذه الآية بأهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس^(٢)، وأخرج الخلال بسنده عن أبي سعيد قال: كان علي إذا أتى السوق فقال: يا أهل السوق، اتقوا الله وإياكم والحلف؛ فإن الحلف ينفق السلعة، ويمحق البركة، وإن التاجر فاجر إلا من أخذ الحق وأعطى الحق، والسلام عليكم ثم ينصرف، ثم يعود إليهم فيقول لهم مثل مقالته^(٣)، وعن أبي الصهباء قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه بشط الكلا يسأل عن الأسعار^(٤)، فهذا الإشراف المباشر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، تضمن أموراً منها:

(أ) لم تقتصر الجولات على الإشراف والتوجيه، بل تعدت ذلك إلى خدمة الناس في شؤونهم؛ كإرشاد الضال، وإعانة الضعيف، فمن كانت هذه حاله كانت كلماته وتوجيهاته أقرب للناس، وأبلغ في نفوس السامعين.

(ب) يتضمن التوجيه النصح بتقوى الله سبحانه وتعالى وحسن البيع، وربما وعظهم بالقرآن الكريم، فإن من اتقى الله سبحانه وتعالى أحسن معاملته للناس في النفع لهم، والبعد عن مخادعتهم وغشهم.

(ج) منع الظلم في المعاملات، وإعادة الحق إلى أهله؛ لأن موالى الجارية التي اشترت التمر لم يجزوا هذا الشراء، وهي في نفسها ليس لها أمر.

(د) النهي عن أصناف الغش التي تحصل في الأسواق؛ كنهيه عن تنقيح اللحم، وفي رواية (نفخ اللحم).

(١) «البداية والنهاية» (٤/٨) اسم سوق الكرابيس.

(٢) «الدر المنثور» للسيوطي (٤٤٤/٦)، و«البداية والنهاية» (٥/٨).

(٣) «السنة» ص (٣٥٢)، تحقيق: د. عطية الزهراني ص (٣٥٢).

(٤) «الرياض النضرة في مناقب العشرة» ص (٦٩٠) شط الكلا: مكان وبالْبصرة سوق الكلا.

(هـ) بيان بعض الأحكام والآداب المتعلقة في معاملات الناس ومنها:

- النهي عن الحلف في البيع ، وتعليل ذلك بأن اليمين تنفق السلعة ، وتمحق البركة ، كما ورد عن رسول الله ﷺ : «الحلف منفق للسلعة، مَمْحَقَةٌ للبركة» (١) .
- الحث على إطعام المساكين وترغيبهم فيه ؛ لأنه زيادة في الكسب .
- النهي عن بيع السمك الطافي (٢) ، ولعل ذلك حتى لا يختلط مع المصيد الطري .

كان أمير المؤمنين يتفقد أمور التجار في حضرته ويأمر ولاته بذلك في الولايات ، ويثني على المحسن منهم ، أما من يقترف خطيئة بعد النهي ، فينكل به ، ويعاقبه من غير إسراف (٣) ، وكانت له بعض الإرشادات النافعة والنواهي الزاجرة التي تحث الناس على مكارم الأخلاق والالتزام بأحكام الشريعة وإليك بعض منها :

١- إنكاره على مزاحمة النساء الرجال في الأسواق:

أنكر أمير المؤمنين علي عليه السلام على أناس لا يمتنعون نساءهم من الخروج إلى الأسواق مزاحمات الكفار ، فقال لهم : ألا تستحيون أو تغارون؟ فإنه بلغني أن نساءكم يخرجن في الأسواق يزاحمن العلوج (٤) .

٢- لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره:

كان علي عليه السلام يدخل السوق ويبيده الدرّة ، وعليه عباءة ويقول : يأبها التجار ، خذوا الحق ، وأعطوا الحق تسلموا ، لا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره ، ونظر إلى رجل يقص ، فقال له : أتقص ونحن قريب عهد برسول الله ﷺ ؟

(١) «البخاري» ، كتاب البيوع (٨٥/٢) .

(٢) هو الذي يعلو الماء ولا يرسب .

(٣) «الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام» ص (٢٠٢) .

(٤) العلوج : جمع عليج وهو الواحد من كفار العجم ، «مسند أحمد» (٢٥٤/٢ ، ٢٥٥) قال أحمد شاكر : صحيح الإسناد .

لأسألك فإن أجبتي وإلا جعفتك^(١) بهذه الدرّة، ما ثبات الدين وما زواله؟ قال: أما ثباته فالورع وأما زواله فالطمع، قال: أحسنت قص فمثلك من يقص^(٢).

٣- خطورة التجارة قبل التفقه في أحكامها:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : من اتجر قبل أن يتفقه في الدين فقد ارتطم في الربا ثم ارتطم ثم ارتطم^(٣)، وقد كان الفاروق رضي الله عنه يضرب بالدرّة من يقعد في السوق وهو لا يعرف الأحكام، ويقول: لا يقعد في سوقنا من لا يعرف الربا^(٤)، وكان يقول: لا يبيع في سوقنا إلا من تفقه، وإلا أكل الربا شاء أو أبي^(٥)، فكل شؤون الحكم كانت محل اهتمام الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لا يطغى جانب علي جانب، فلا يختل الحال بين يدي الحاكم، فقد كانوا يقعدون للتجارة القواعد التي تصلح للأسواق، وتنظم التداول، وتضمن الثبات والاستقرار، فلا غبن ولا غش، ولا احتكار ولا أسواق سوداء ولا زرقاء، ولا جهل بما يجوز وما لا يجوز في عالم التجارة، ويمكن اليوم تفقيه التجار من خلال دورات في المساجد خصوصاً التي في قلب الأسواق، ولا بد من توجيه الخطاب للتجار من خلال كتيبات خاصة بهم والأشرطة الصوتية المختصرة التي تبين أحكام التجارة وتبسط المسائل المتعلقة بها والتي تبرز ما يلي:

نماذج مختارة من التجار المسلمين المخلصين لدينهم الذين نصرُوا الله ورسوله بأموالهم.

بيان أهمية الآخرة بالنسبة لهم لكي يجمعوا بين خيرَي الدنيا والآخرة. وعلى العلماء وطلاب العلم واجب كبير في تفقيه هذه الشريحة الكبيرة في المجتمعات، وعلى الحركات الإسلامية ألا تنسى واجبها في تعليم أبنائها من التجار وغيرهم هذا الفقه العزيز.

(١) جعفه: صرعه وضرب به الأرض.

(٢) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (٥/٧٠).

(٣) ارتطم: وقع، «بستان العارفين» ص (٣٥٠).

(٤، ٥) «نظام الحكومة الإسلامية» للكتاني (١٧/٢).

٤- من سبق إلى موضع فهو أحق به:

أثيرت قضية المحل التجاري في السوق وقضى علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سوق الكوفة، أن من سبق إلى موضع فهو أحق به ما دام فيه ذلك اليوم، فإذا انتقل عنه، فهو لمن حلَّ فيه، قال الأصعب بن نباتة: خرجت مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى السوق، فرأى أهل السوق قد حازوا أمكتهم فقال علي رضي الله عنه: ما هذا؟ فقالوا: أهل السوق قد حازوا أمكتهم، فقال: ليس ذلك لهم، سوق المسلمين كَمَصَلَّى المسلمين، من سبق إلى شيء فهو له يومه حتى يدعه، وظلَّت هذه القاعدة متبَّعة حتى ولاية المغيرة بن شعبة، فلمَّا كانت ولاية زياد بن أبيه عليها عام ٤٩هـ، جعل من قعد في مكان فهو أحق به ما دام فيه^(١).

٥- المحتكر عاص ملعون:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في احتكار الطعام: جالب الطعام مرزوق، والمحتكر عاص ملعون^(٢)، وقد أمر أمير المؤمنين بتحريق الطعام المحتكر، فقد أخرج الحافظ ابن أبي شيبة عن الحكم قال: أخبر علي برجل احتكر طعاماً بمائة ألف فأمر به أن يحرق^(٣) وقد ذهب ابن قدامة إلى أن الاحتكار المحرم ما اجتمعت فيه شروط ثلاثة هي:

- (أ) أن يشتري، فلو جلب شيئاً، أو أدخل من غلته شيئاً فادخره لم يكن محتكراً، وهذا واضح من قول علي رضي الله عنه.
- (ب) أن يكون المشتري قوتاً^(٤).

(ج) أن يضيق على الناس بشرائه، وترهيب أمير المؤمنين علي من الاحتكار مبني على قول رسول الله صلَّى الله عليه وآله وسلم: «لا يحتكر إلا خاطئ»^(٥).

(١) «الأموال» لأبي عبيد ص (١٢٣)، و«الحياة الاقتصادية» د. بطانية ص (١١٥).

(٢) «فقه علي» لقلعجي ص (٢٧)، و«مصنف عبدالرزاق» (٢٠٤/٨)، و«مسند زيد» ص (٢٤٥).

(٣) «المصنف» رقم (٤٣٣) (١٠٣/٦)، و«الحسبة في العصر النبوي» ص (٣٤).

(٤) وقيل: لا فرق بين القوت وغيره.

(٥) «مسلم»، كتاب المساقاة (١٢٢٨/٣) والخاطئ: العاصي الأثم.

٦- الخسارة على المال والربح على ما اصطلحوا عليه:

بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب شيئاً من أحكام المضاربة وهي: نوع من أنواع المعاملات بين الناس، وهي دفع مال معلوم لمن يتجر به ببعض ربحه، فقال رضي الله عنه: الوضيعة على المال، والربح على ما اصطلحوا عليه^(١)، والوضيعة تعني الخسران في الشركة وهي على المال، أي على كل واحد بقدر ماله، فإن كان مالهما متساوياً في القدر^(٢) فالخسران بينهما نصفين، وإن كان أثلاثاً فالوضيعة أثلاثاً.

٧- تحريقه قرية كانت تباع فيها الخمر:

كان رضي الله عنه شديد الإنكار على من باع خمرًا، فقد أمر بتحريق قرية كانت تباع فيها الخمر، فقد روى الإمام أبو عبيدة القاسم بن سلام أن علياً بن أبي طالب رضي الله عنه نظر إلى زرارة^(٣) فقال: ما هذه القرية؟ قالوا: قرية تدعى زرارة، يلحم فيها، تباع فيها الخمر، فقام يمشي حتى أتاها، فقال: إلي بالنيران، اضرموها فيها، فإن الخبيث يأكل بعضه بعضاً قال (الرواي): فاحترقت من غربيتها حتى بلغت بستان خواستا بن جبرونا^(٤).

٨- احتسابه فيما يتعلق باللباس والهيئة:

عن أبي مطر قال: خرجت من المسجد فإذا رجل ينادي خلفي: ارفع إزارك فإنه أبقي لثوبك، وأنتقى لك، وخذ من شعرك إن كنت مسلماً^(٥).

٩- حبسه أهل الشر والفساد:

كان علي رضي الله عنه يلاحق أهل الشر والفساد، فإذا وجد أحداً منهم حبسه، فقد روى القاضي أبو يوسف عن عبد الملك بن عمير قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا كان في القبيلة أو القوم الرجل الداعر حبسه، فإن كان له مال أنفق عليه من

(٢) «المغني» (٣١/٥).

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤/٦)، و«مصنف عبدالرزاق» (٢٤٨/٨).

(٣) محلة في الكوفة سميت باسم بانيتها زرارة بن زيد.

(٥) «البداية والنهاية» (٤/٨).

(٤) «الأموال» ص (٩٧، ٩٨)، و«الحسبة» لابن تيمية ص (٦٠).

ماله ، وإن لم يكن له مال أنفق عليه من بيت مال المسلمين ، وقال : يحبس عنهم شره ويُنفق عليه من بيت ما لهم (١) .

١٠ - الترهيب من عدم الإنفاق:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : بشر مال البخيل بحادث أو وارث (٢) ، وقال : البخيل مستعجل الفقر ، يعيش في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في العقبى حساب الأغنياء (٣) .

١١ - مناداته للصلاة:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه شديد الاهتمام بأمر الصلاة فقد كان يمر في الطريق منادياً : الصلاة ، الصلاة ، كان يوقظ بذلك الناس لصلاة الفجر ، يحدثنا الحسن رضي الله عنه عن خروجه في اليوم الذي طعن فيه من بيته حيث يقول : فلما خرج من الباب نادى : أيها الناس ! الصلاة ، الصلاة . وكذلك كان يصنع كل يوم ، ومعه درته ، فاعترضه الرجلان ، فضربه ابن ملجم على دماغه (٤) .

١٢ - الاهتمام بالطرق العامة:

كان علي رضي الله عنه يأمر بالمثاعب (٥) ، والكنف (٦) ، تقطع من طريق المسلمين (٧) .

١٣ - ظهور بدعة القمص ومحاربة أمير المؤمنين علي لها:

حدثت بدعة القمص في عهد علي رضي الله عنه فأنكرها الصحابة والتابعون ، فقد أخرج محمد بن وضاح عن موسى بن معاوية قال حدثنا ابن مهدي عن سفيان : عن عبيد الله بن نافع قال : لم يقص على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أبي بكر ، ولا عمر ولا عثمان ، وأول ما كان القمص حين كانت الفتنة (٨) ، والقصاص هم :

(١) «الخراج» لأبي يوسف ص (١٥٠) .

(٢) «نثر اللآلئ» نقلاً عن «نهج علي بن أبي طالب» ص (١٨٣) .

(٣) «نهج علي في الدعوة إلى الله» ص (١٨٣) .

(٤) «البداية والنهاية» (٣٣٩/٧) .

(٥) المثاعب : مفردة الثعب : سيل الماء في الوادي .

(٦) والكنف : جمع كنيف وهو المرحاض ، «المصباح المنير» ص (٥٤٢) .

(٨) «البدع والنهي عنها» ص (٢٠) .

(٧) «مصنف عبدالرزاق» (٧٢/١٠) .

الوعاظ الذين يعقدون مجالس للوعظ تضاهي مجالس العلم، يعظون الناس فيها بالحكايات والإسرائيليات ونحوها، مما لا أصل له أو موضوع، أو مما لا تدركه عقول العامة، وقد منعهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأنهم أخذوا يحدثون الناس بالغرائب والمتشابهات، وما لا تدركه عقولهم وما لا يعرفون^(١) وأذن أمير المؤمنين لمن كان متمكناً من العلم الشرعي بأن يقص على الناس.

كانت حياة أمير المؤمنين في المجتمع دعوة للتوحيد ومحاربة للشرك وكان حريصاً على تعليم الناس أسماء الله وصفاته، وربط قلوبهم به وحده وتذكيرهم بنعم الله وحضهم على شكرها، وقد كان رضي الله عنه مثابراً على محو آثار الجاهلية، متخذاً كافة الوسائل الدعوية من خطابة ووعظ، وشعر وحكم، ولم يعيش رضي الله عنه بعيداً عن الناس بل عاش بينهم بأخلاقه وسمته وعلمه رضي الله عنه.

ثامناً: ولاية الشرطة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب:

عندما تولى علي رضي الله عنه أمر الخلافة كانت وظيفة الشرطة إحدى الوظائف المهمة المعروفة في الدولة، والقصص والآثار التي تحدثت عن دور الشرطة في عهد علي رضي الله عنه كثيرة منها، ما رواه أصبغ بن نباتة: أن شاباً شكاً إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه نفرأ، فقال: إن هؤلاء خرجوا مع أبي في سفر فعادوا ولم يعد أبي، فسألتهم عنه، فقالوا: مات، فسألتهم عن ماله: فقالوا ما ترك شيئاً، وكان معه مال كثير، وترافعنا إلى شريح، فاستحلفهم وختلى سبيلهم، فدعا علي رضي الله عنه بالشرطة، فوكل بكل رجلين، وأوصاهم ألا يمكنوا بعضهم يدنو من بعض، ولا يمكنوا أحداً يكلمهم، ودعا كاتبه، ودعا أحدهم، فقال: أخبرني عن أب هذا الفتى، أي يوم خرج معكم؟ وفي أي منزل نزلتم؟ وكيف كان سيركم؟ وبأي علة مات؟ وكيف أصيب بماله؟ وسأله عمّن غسله ودفنه، ومن تولى الصلاة عليه، وأين دفن، ونحو ذلك، والكاتب يكتب، فكبر علي، وكبر الحاضرون، والمتهمون لا علم لهم إلا أنهم ظنوا أن صاحبهم قد أقر عليهم، ثم دعا آخر بعد أن غيب الأول عن مجلسه،

(١) «دراسات في الأهواء والفرق والبذع» ص (٢٣٩).

فسأله كما سأل صاحبه، ثم الآخر كذلك، حتى عرف ما عند الجميع، فوجد كل واحد منهم يخبر بضد ما أخبر به صاحبه، ثم أمر بردّ الأول فقال: يا عدو الله، قد عرفت عنادك وكذبك بما سمعت من أصحابك، وما ينجيك من العقوبة إلا الصدق، ثم أمر به إلى السجن، وكبّر وكبّر معه الحاضرون، فلما أبصر القوم الحال لم يشكوا أن صاحبهم أقرّ عليهم فدعا آخر منهم، فهده، فقال: يا أمير المؤمنين، والله لقد كنت كارها لما صنعوا، ثم دعا الجميع فأقرّوا بالقصة واستدعى الذي في السجن وقيل له: قد أقرّ أصحابك ولا ينجيك سوى الصدق، فأقرّ بكل ما أقرّ به القوم، فأغرهمهم المال، وأقاد منهم القتل (١).

فهذه القصة تحوى معاني ودلالات كثيرة تفيد المحققين، وتدلّ في الوقت نفسه على وجود السجن، ورجال الشرطة (٢)، هذا وقد بنى أمير المؤمنين سجناً في الكوفة سمّاه «نافعاً» لم يكن مستوثق البناء، فكان المسجونون يخرجون منه، فهدمه وبنى بدلاً منه سجناً آخر سمّاه مخيّباً (٣)، وقد أجرى على أهل السجن ما يقوتهم من طعامهم وأدمهم وكسوتهم في الشتاء والصيف (٤)، وكان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب أصحاب شرطة منهم، أبو الهياج الأسدي، وقيس بن سعد بن عبادة ومعقل بن قيس الرياحي، ومالك ابن خبيب اليربوعي، والأصبغ بن نباتة المشاجعي، وسعيد بن سارية بن مرة الخزاعي، وكان من ضمن الوظيفة الاجتماعية للشرطة، مساعدة المحتاج، وإغاثة الملهوف، وإرشاد التائه، وإطعام المساكين، وتقديم العون، وإظهار الرفق، وغير ذلك من المساعدات الإنسانية التي يراد بها وجه الله تعالى.

ومن هنا يظهر لنا أن الأمن في العصر الراشدي كان يقوم بدور حضاري في تقديم خدمات عامة للمجتمع، ولم يقتصر دوره فقط على الجانب الأمني، وإن كان للجانب الأمني الأهمية الكبرى.

(١) «الطرق الحكيمة» ص (٤٩). (٢) «ولاية الشرطة في الإسلام»، د. نمر الحميداني ص (١٠٧). (٣) وهذه التسمية ليست اعتباطاً بل لها غرض؛ فإن النافع من النفع وهو ضد الضرر، والمخيب وهو التذليل والتهذيب، التسميتان تحققان أغراض السجن. (٤) «ولاية الشرطة» ص (١٠٨).

الفصل الرابع

المؤسسة المالية والقضائية في عهد

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبعض اجتهاداته الفقهية

المبحث الأول

المؤسسة المالية

في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه لم يحدث تغير يذكر في السياسة المالية للدولة الإسلامية، إلا أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه رجع إلى ما كان عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه في التسوية في العطاء^(١)، فلم يفضل أحداً على أحد، فأعطى الموالي كما أعطى السادة^(٢)، وكان الخراج في بعض الأمصار موكولاً إلى الولاية أنفسهم، ففي مصر كان قيس بن سعد بن عباد - الوالي العام - مسؤولاً عن الخراج فيها، وكذلك حينما بعث علي رضي الله عنه الأشتر النخعي على مصر كان خطابه له ما يوحي أنه مع ولايته العامة كان مسؤولاً عن الخراج بما يصلح أهله؛ فإن صلاحه وصلاحهم صلاح لمن سواهم ولا صلاح إلا بهم؛ لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج؛ لأن ذلك يدرك بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة، أضر بالبلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلاً، فإن شكوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب، أو إحالة أرض اغتمرها غرق، أو أجحف بها عطش؛ خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. . . فإن العمران محتمل ما حملته، وإنما خراب الأرض من إعواز أهلها وإنما إعوازا أهلها لإشراف أنفس الولاية على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبير^(٣).

فقد كانت نظرة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى الخراج بما يتعدى الجباية إلى

(١) «الاستيعاب» (١١/٣).

(٢) «علي بن أبي طالب»، د. علي شرفي (ص ٦٦).

(٣) «الولاية على البلدان» (١٥٣/٢ - ١٦٣).

المسألة الاقتصادية برمتها، حيث يشكل الخراج المصدر الأساسي لها في ذلك الوقت، وقد اشتهر عن علي رضي الله عنه تشديده في مراقبة عماله في جميع النواحي، وكان الخراج والشؤون المالية من الأمور المهمة التي كان يدقق فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فكان يبعث العيون والأرصاد ليعلم أحوالهم^(١)، وقد كان لولاية البلدان صلاحيات عامة في المصروفات من ولاياتهم وبيوت أموالها، فالولاة الذين كانوا يباشرون بيت المال وعمال الخراج بأنفسهم في عهد الخلفاء عموماً كانوا ينفقون من الأموال التي لديهم في الأوجه الشرعية في مصالح الولاية، فكانوا يستخدمون هذه الأموال في شؤون الجهاد والفتوح من إعداد للسلاح والدواب ومرتبات الجند وغير ذلك من أوجه الجهاد، كما كان الولاة يقومون بصرف نفقات العمال والموظفين في الولاية^(٢) كافة، إلا أنهم كانوا يقومون ببعض الإصلاحات من بناء للجسور وحفر للقنوات والعيون والأنهار، وكان ذلك يستدعي الصرف مما يجبونه من ولاياتهم^(٣).

وفي الأوقات التي تعزل فيها ولاية الخراج أو بيت المال عن الولاية العامة فإن الولاة بحكم إشرافهم العام على الولاية يطلبون من عمال الخراج الإنفاق على هذه الإصلاحات أو يقوم الولاة بتعيين عمال مختصين بهذه المشاريع، وتصرف نفقات العمل أو التجهيز من دخل الولاية عن طريق عمال الخراج إذا كانوا مستقلين، وهكذا فإنه حتى لو عزلت مهمة (الجباية) عن الوالي - كما عبر عنها بعض الباحثين^(٤) -، فإن النفقات مع ذلك كانت تأخذ طريقها بواسطة الولاة في كثير من الأحيان سواء للجهاد أو التعمير، ولقد نبه بعض الفقهاء إلى أن على الولاة إنفاق الأموال في مصالح المسلمين وعدم تجميدها؛ إذ أن تجميد الأموال التي أخذت بحقها وعدم صرفها في مصالح المسلمين يوازي الظلم في جمعها، فعدوا التجميد للأموال العامة من باب الظلم والتقصير من جانب الولاة^(٥).

(١) «الولاية على البلدان» (٢/٩٨)، و«النظريات المالية في الإسلام» (ص ١٥٥).

(٢) «التراتب الإدارية» للكتاني (١/٣٩٣). (٣) «الولاية على البلدان» (٢/٩٨).

(٤) «النظم المالية في الإسلام» ص (١٥٧)، و«الولاية على البلدان» (٢/٩٩).

(٥) «أصول الفكر السياسي الإسلامي»، لفتح عثمان (ص ٤٣).

وقد كانت الأمصار والولايات أحق بأموالها وجباياتها من غيرها، فكان الولاة لا يعملون على ترحيل الأموال عن مناطقهم إلى العاصمة في المدينة أو الكوفة فيما بعد إلا بعد أن يسددوا حاجة ولاياتهم من النفقات^(١)، ولاشك أن ما قام به الخلفاء الراشدون خصوصاً في عهد عمر من تنظيم دقيق للشؤون المالية في الولايات- بما فيها من جباية مصادر الدخل أو الواردات العامة للدولة، إضافة إلى النفقات العامة- يعتبر تنظيمًا جديدًا ولم يمنعهم ذلك من الاستفادة من خبرات من سبقوهم؛ حيث استحدثوا الدواوين وضبطوا أمورهم المالية في مختلف جوانبها، وقد تحدثت عن المؤسسة المالية في عهد الفاروق رضي الله عنه بنوع من التفصيل، فمن أراد المزيد فليرجع إليها في كتابي «فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب».

وقد حاول بعض المستشرقين وفيهم «فيليب حتى» في موسوعته عن تاريخ العرب أن يقلل من شأن ما قام به الخلفاء الراشدون من تنظيم للأموال في الدولة عموماً فقال: والحقيقة أن الأخبار تعزو إلى عمر كثيراً مما أحدثته السنون التي لحقت عهده من إنشاءات دعت إليها التجارب والأحوال الجديدة، وأن ما جاء به الخلفاء رضي الله عنهم وعمال الأمصار الأوائل في صدد الخراج والجزية، وأصول جبايتها وسياسة أموال الدولة لم يكن بالشيء الخطير، فلقد أبقى الإسلام أساس الحكم وأنظمة الإدارة البيزنطية على ما كانت عليه في سوريا ومصر، ولم يفكر أرباب الأمر في الأمصار الفارسية أن يبدلوا أصول الحكومة المحلية، ولم يأخذ الفاتحون الضرائب إلا طبقاً لطبيعة البلاد، وبمقتضى الأصول المرعية في العهد المنقرض سواء أكان بيزنطياً أو فارسياً، ولم يعتبروا في ذلك، إذ كانت قد دانت لهم صلحاً أو أنهم فتحوها عنوة، ولا اهتموا بتشريع أوجده عمر رضي الله عنه^(٢)، والكاتب هنا قد تجاهل النصوص التي وردت في استنباط عمر للخراج على الأراضي المفتوحة عنوة، وكيف أن النظام قد لقي مجادلة ومعارضة من بعض الصحابة إلى أن

(١) «السياسة المالية لعثمان بن عفان»، لقطب (ص ٩٩).

(٢) «تاريخ العرب»، لفيليب حتى (١/٢٢٨).

استقر الأمر عليه، واتفق الجميع على تنفيذه^(١)، وقد تولى محمد ضياء الدين الرئيس الرد على هؤلاء المستشرقين فيما قالوه من خلال نصوص تاريخية موثقة، يخلص منها إلى أن هذه الدعوى لا أساس لها من الصحة، وأن المسلمين وفقهاءهم كانوا يفرقون بين ما أحدثه عمر، وما أحدثه غيره، بل ويفصلون تفصيلاً دقيقاً في قضايا الخراج في عهد عمر رضي الله عنه^(٢).

وهذه عادة المستشرقين وأذئابهم في الطعن والتنقص من قدر عظماء الإسلام ولكن المشكلة أنهم يجدون من الأمة من ينظر لهم بإجلال وتقدير. وبسبب الحروب والنزاعات الداخلية تأثرت دولة الخلافة في عهد علي رضي الله عنه في مؤسساتها المتعددة؛ كالمالية والعسكرية، ومنصب الخلافة مما ساهم في زوال الخلافة الراشدة، وسيأتي تفصيل ذلك في محله بإذن الله.



(١) «الولاية على البلدان» (٢/ ١٠٠).

(٢) «الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية» (ص ١٣١-١٣٦) نقلاً عن «الولاية على البلدان» (٢/ ١٠٠).

المبحث الثاني

المؤسسة القضائية

ولي الخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واقرنت توليته التي نجمت عن قتل عثمان رضي الله عنه وما تبعها من أحداث شقت صف المسلمين وفرقت كلمتهم، وأصبحت مواجهة تلك الأحداث لرأب الصدع شغله الشاغل، ولم يكن هذا الصراع الدامي في عهد علي رضي الله عنه مانعاً له من أن يعطي للقضاء نصيباً من الاهتمام به وتنظيمه، ويدل على هذا رسالته التي (١) أرسلها إلى الأشتر النخعي واليه على مصر حين كانت تابعة لحكمه، وفيها يقول: ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر في الفئء إلى الحق إذا عرفه، ولا تستشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصوم، وأصبرهم على كشف الأمور، وأصرمهم على اتضاح الحكم، ممن لا يزدديه إطرأ، ولا يستميله إغراء، وأولئك قليل، ثم أكثر من تعاهد قضائه، وأفسح له في البذل ما يزيل علته، وتقل معه حاجته إلي الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك؛ ليأمن بذلك اغتيال الرجال عندك (٢).

وفي هذه الرسالة أيضاً: أنصف الله، وأنصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيته، فإنك إلا تفعل تظلم، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خصمه الله أدحض حجه، وكان لله حرباً، حتى ينزع أو يتوب. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم؛ فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد (٣).

(١) «وقائع ندوة النظم الإسلامية» (١/٣٧٩).

(٢) المصدر نفسه (٢/٥٥٩).

(٣) «شرح نهج البلاغة» نقلاً عن «نظام الحكم» للقاسمي (٢/١٠٣).

ونلاحظ أن هذا العهد تضمن صفات القاضي، كما تضمن حقوقه وواجباته، والذي يتأمل في الذي كتبه أمير المؤمنين علي عليه السلام لواليه على مصر، يعجب لهذا العهد الذي كتب عام ٤٠هـ، أو حولها، في وقت لم يكن للعرب فيه أي اتصال بالحضارات الأخرى بعد، وكيف كان العقل المسلم الذي ينظر بنور الله قادراً على تفتيق المعاني، ووضع أمور الدولة في نصابها، على خير ما نرى اليوم في الدساتير والقوانين^(١)، وهذه النظرات من أمير المؤمنين علي عليه السلام في إنصاف الرعية، وتجنب ظلمها كانت فيما بعد عماداً في تنظيم ولاية المظالم^(٢).

أولاً: الخطة القضائية والتشريعية في عهد الخلفاء الراشدين، والمصادر التي اعتمدها الصحابة في ذلك العهد:

قصد بهذه الخطة الطريقة التي سلكها الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام عليهم السلام وهم يبحثون عن الأحكام الشرعية، لما يحدث لهم من وقائع وقضايا في حياتهم العملية، وهي طريقة، هداهم إليها صحبتهم للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وتدريبهم على يديه، لذلك كان اتباع هذه الطريقة حقاً على من جاء بعدهم. لاحظنا من خلال دراستنا لعهد الخلفاء الراشدين في كتبنا عن أبي بكر وعمر وعثمان ودراستنا الحالية لعهد علي عليه السلام، أنهم كانوا كلما عرض لهم حادث، أو قضاء لجؤوا إلى كتاب الله أولاً، فإن وجدوا فيه الحكم الشرعي للنازلة حسم الأمر، وإلا رجعوا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إذا لم يجدوا فيها حلاً انتقلوا إلى الرأي بمعناه الواسع، وقد لاحظنا أن هذا الرأي كان في أول الأمر جماعياً في غالب الأحيان، خصوصاً إذا انصب موضوعه على أمر من أمور الدولة ذات الصبغة العامة، وقد ساعد على ذلك أن كبار الصحابة كانوا مستقرين بالمدينة ويسهل جمعهم وأخذ رأيهم، وقد انبثق عن رأيهم الجماعي ما اصطاح على تسميته فيما بعد «الإجماع»، وقد كانوا يستعملون القياس، والمصلحة هي مناط التشريع.

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٥٦٠).

(١) «نظام الحكم» للقاسمي (٢/ ١٠٤).

وخير دليل على نجاح هذه الخطة ما قاله ميمون بن مهران حيث قال: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بينهم قضى به، وإن لم يكن في الكتاب، وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، في ذلك الأمر سنة قضى بها، فإن أعياه أن يجد فيها سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤوس الناس وخيرهم فاستشارهم، فإذا اجتمع رأيهم على أمر قضى به، وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك فإن أعياه أن يجد في القرآن والسنة، نظر: هل كان فيه لأبي بكر قضاء؟ فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به، وإلا دعا رؤوس المسلمين، فإن أجمعوا على شيء قضى به^(١)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: فمن عرض عليه قضاء بعد اليوم فليقض بما في كتاب الله، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم، فليقض بما قضى به الصالحون، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله ولا قضى به نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا قضى به الصالحون فليجتهد رأيه، ولا يقل: إني أرى وإني أخاف؛ فإن الحلال بينٌ، والحرام بينٌ، وبين ذلك مشتبهات فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك^(٢)، وقد بينا في حديثنا عن المرجعية العليا لدولة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حرصه على السير على نفس المنهج، ويتبين من هذه الآثار أن الصحابة كانوا يعتمدون في خطتهم التشريعية والقضائية على الكتاب والسنة قبل الانتقال إلى الرأي بمعناه الواسع^(٣)، ونحب أن نقف عند هذه الآثار لنستخلص منها بعض النتائج:

١- اتفاق الصحابة حول هذه الخطة؛ إذ كانوا يرتبون مراحل اجتهادهم وفقهم مبتدئين بكتاب الله أولاً، ثم الانتقال إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل استخدام الرأي الجماعي ثم القياس.

٢- كان للسابقة القضائية دور هام في هذه الخطة وهو دور جعلها تلي النصوص مباشرة.

(١) «سنن الدارمي» (٥٨/١) رجال إسناده ثقات غير جعفر بن برقان صدوق، «السنن الكبرى» للبيهقي (١١٤/١٠)

وصحح إسناده ابن حجر، «فتح الباري» (٣/١٣).

(٢) «إعلام الموقعين» (٦٢/١). (٣) «الاجتهاد في الفقه الإسلامي ضوابطه ومستقبله» (ص ٥٣).

٣- ومما يلفت النظر في هذه الخطة أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما على الخصوص، لم يكونا يستشيران إلا من كان موجوداً من الصحابة بالمدينة، ولم نطلع على نص يدل على أنهما كانا يستدعيان من كان غائباً من الصحابة بقصد استشارته في أمر من الأمور الاجتهادية، مما يدل على أن الإجماع كان ينعقد باتفاق من حضر من الصحابة، بصرف النظر عن رأي من كان غائباً^(١)، ويتضح لنا من خلال ما سبق من خطة الخلفاء الراشدين والصحابة في التشريع والقضاء أنهم كانوا كلما حزبهم أمر أو عرضت عليهم قضية؛ بادروا إلى القرآن أولاً حتى إذا لم يجدوا فيه حلاً رجعوا إلى السنة، فإذا لم يجدوا الحل، استعملوا الرأي بمعناه الواسع سواء كان جماعياً أو فردياً، وقد انبثق عن آرائهم الجماعية ما سُمي بالإجماع، وهو مصدر طارئ لم يكن له وجود في عصر الرسالة، وقد صنف هذا المصدر ثالث المصادر بعد الكتاب والسنة، وبما أنه لم يكن من الميسور دائماً جمع الصحابة بقصد التشاور والاتفاق على حكم معين لأسباب كثيرة؛ فقد لجأ الصحابة لاستعمال الرأي بصورة فردية في الفتوى والقضاء، وقد اعتمدوا على الكتاب والسنة في آرائهم الفردية والجماعية، وعلى الفهم العميق لمقاصد الشريعة الهادفة إلى دفع المفساد وجلب المصالح، واستوحوا الأحكام للحوادث التي لا نص فيها من روح النصوص، ولم يقضوا مع ظواهرها وقد استعملوا القياس منذ عهد الرسول صلوات الله عليه وآله، وهو المصدر الرابع من مصادر التشريع يأتي بعد الإجماع في المرتبة، وإن كان سابقاً عليه في الوجود^(٢). وهذه هي المصادر التي اعتمدها الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام رضي الله عنهم:

١- القرآن الكريم وهو العمدة والأساس، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه.

٢- السنة وتطلق على ما جاء منقولا عن النبي صلوات الله عليه وآله بطرق صحيحة.

(١) «الاجتهاد في الفقه الإسلامي ضوابطه ومستقبله» (ص ١٥٣).

(٢) «الاجتهاد في الفقه الإسلامي ضوابطه ومستقبله» (ص ١٥٤).

٣- الإجماع ولا بد أن يكون مستنداً إلى نص من كتاب أو سنة أو قياس .

٤- القياس .

وكان الخلفاء الراشدون والصحابة الكرام رضي الله عنهم يشرعون أحكاماً للحوادث؛ بناء على المصلحة الواجب مراعاتها أو دفع المفسدة، فكان اجتهادهم فيما لا نص فيه فسيحاً مجاله يتسع لحاجات الناس ومصالحهم^(١).

ثانياً: ميزات القضاء في العهد الراشدي:

إن القضاء في العهد الراشدي يمثل الدرجة الثانية بعد القضاء في العهد النبوي الذي يمثل الجذور والأساس، وجاء القضاء في العهد الراشدي يمثل البناء الكامل، والتنظيم الشامل من جهة، ويعطي الصورة البراقة للقضاء الإسلامي من جهة ثانية، ويعتبر نموذجاً ومثلاً وقدوة وتحت محط الأنظار طوال العهود التالية، ويمكننا أن نشير باختصار وإيجاز إلى أهم ميزات القضاء في العهد الراشدي، وهي:

١- كان القضاء في العهد الراشدي امتداداً لصورة القضاء في العهد النبوي، بالالتزام به، والتأسي بمنهجه، وانتشار التربية الدينية، والارتباط بالإيمان والعقيدة، والاعتماد على الوازع الديني، والبساطة في سير الدعوى، واختصار الإجراءات القضائية، وقلة الدعاوى والخصومات إذا قورنت باتساع الدولة، وتعدد الشعوب والأمصار، وحسن اختيار القضاة، وتوفر الشروط الكاملة فيهم .

٢- يعتبر القضاء في العهد الراشدي صورة صحيحة وصادقة وسليمة للقضاء الإسلامي، ولذلك صار موئل الباحثين، ومحط الأنظار للفقهاء، وصارت الأحكام القضائية والتنظيم القضائي في العهد الراشدي مصدراً للأحكام الشرعية، والاجتهادات القضائية، والآراء الفقهية في مختلف العصور، وهذا بالاتفاق -ولو أدبياً- عند جميع العلماء والمذاهب، مع وجود الاختلاف في التدقيق والجزئيات والتفاصيل، ومن ذلك اختلاف الأئمة في حجية قول

(١) «الاجتهاد في الفقه الإسلامي ضوابطه ومستقبله» (ص ١٥٩).

الصحابي وعدم حجيته، كما هو مقرر في علم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث، وتاريخ التشريع، وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله.

٣- مارس الخلفاء الراشدون، وبعض ولاة الأمصار النظر في المنازعات وتولي القضاء بجانب الولاية، كما أولوا الاهتمام الكامل لتولي قضاء المظالم وقضاء الحسبة^(١).

٤- عين الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في أكثر المدن والأقطار الإسلامية قضاة لممارسة القضاء خاصة، دون بقية السلطات، وظهر بشكل مبديي - ولأول مرة - فصل السلطة القضائية عن بقية السلطات، وأن الولاية لا سلطان لهم على القضاة في المدن الكبرى التي تم فيها تعيين القضاة بجانب الولاية، بينما يتولى الولاية في بقية المدن والأمصار القضاء والولاية معاً، وهم تحت بصر ومحاسبة الخليفة الراشد.

٥- كان القضاء في العهد الراشدي مجتهدين، فينظرون في نصوص القرآن والسنة مباشرة، ويعملون فيها بما يؤدي إليه اجتهادهم، فإن لم يجدوا فيها حكم الواقعة اجتهدوا رأيهم بعد الاستئناس بما قضى به أسلافهم، واستشارة العلماء المعاصرين لهم، ثم أصدروا الحكم الذي وصل إليه اجتهادهم.

٦- ظهرت مصادر جديدة للقضاء في العهد الراشدي نتيجة للمنهج السابق الذي التزموه، وصارت مصادر الأحكام القضائية هي: القرآن والسنة الشريفة، الإجماع، القياس، السوابق القضائية، الرأي الاجتهادي، مع المشورة.

٧- تم التنظيم الإداري الدقيق للقضاء في العهد الراشدي، وأرسل عمر وعلي رضي الله عنهما الرسائل الخالدة والمشهورة إلى القضاة والولاة؛ لتنظيم شؤون القضاء، وبيان الدستور والمنهج، وتبع ذلك متابعة الخلفاء للقضاة، ومراقبتهم، وتبادل الرأي معهم، والسؤال عن أخبارهم وأقضيتهم، وطلب مراجعتهم في

(١) «تاريخ القضاء في الإسلام» ص (١٥٨).

القضايا المهمة والمعضلة والخطيرة، وكانت هذه الميزة في أوجها في عهد عمر رضي الله عنه، وخفت قليلاً في عهد عثمان رضي الله عنه، وضعفت في عهد علي رضي الله عنه لاضطراب الأمور، وكثرة الفتن، ونشوب الحروب الداخلية، وظهور بذرة الاستقلال الذاتي في الشام وما يتبعها، مع تعدد السلطة.

٨- كانت اختصاصات القاضي في الغالب عامة وشاملة لجميع الوقائع، وكانت صلاحية القاضي واسعة، وله الحرية الكاملة في الإجراءات ولكن ظهر في هذا العهد نواة الاختصاص الموضوعي والنوعي للقضاة، وتم تعيين قضاة للنظر في القضايا الصغيرة والبسيطة، كما تم تعيين قضاة للأحداث الجسيمة والوقائع الكبيرة، وبقي معظم الخلفاء - غالباً - يتولون النظر في الجنايات والحدود، وقام بهذا الشأن بعض الولاة أيضاً، كما ظهر في هذا العهد تعدد القضاة في وقت واحد في المدن الكبرى والأقطار الواسعة؛ كالمدينة المنورة، والكوفة، والبصرة، واليمن، كما ظهر قاضٍ للعسكر لأول مرة.

٩- تأكد في هذا العهد ما كان في العهد النبوي من مراقبة الأحكام القضائية، وإقرار ما وافق القرآن والسنة وما صدر عن الرأي والاجتهاد؛ لأن الاجتهاد لا ينقض بمثله، وينقض ما خالف القرآن والسنة^(١).

١٠- استحدث في العهد الراشدي رواتب القضاة بشكل منظم، مع التوسعة على القضاة، وأقيمت دار للقضاء، وأنشئ السجن للحبس، كما ظهر - ولأول مرة - امتناع كبار الصحابة عن القضاء؛ كابن عمر الذي طلبه عثمان فامتنع، وكعب بن يسار بن ضنّة الذي طلبه عمر لتولية القضاء بمصر فأبى أن يقبل، وقيل: قبله أياماً، ثم اعتزل^(٢).

١١- كانت إجراءات التقاضي في العهد الراشدي بسيطة وسهلة وقليلة، بدءاً من سماع الدعوى إلى إقامة البيّنة والإثبات والحجج إلى إصدار الحكم فيها، إلى التنفيذ، وكانت آداب القضاء مرعية في حماية الضعيف، ونصرة المظلوم،

والمساواة بين الخصوم، وإقامة الحق والشرع على جميع الناس، ولو كان الحكم على الخليفة أو الأمير أو الوالي. وكان القاضي في الغالب يتولى تنفيذ الأحكام؛ إن لم ينفذها الأطراف طوعاً واختياراً، وكان التنفيذ عقب صدور الحكم فوراً، ولكن ظهرت في العهد الراشدي أمور تنظيمية جديدة، فوجد كاتب للقاضي في عهد عمر، وظهرت الشرطة والأعوان لمساعدة القاضي والوالي في عهد عثمان رضي الله عنه، وتطور التحقيق الجنائي على عهد سيدنا علي رضي الله عنه، وُفِرَّقَ بين الشهود للوصول إلى الحق وكشف الواقع، حتى صار مضرب المثل (١).

ثالثاً: أشهر قضاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

- أقر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعض القضاة الذين ثبتت جدارتهم، وكانوا على القضاء قبله، وعين قضاة وولاية آخرين (٢)، منهم:
- ١- شريح بن الحارث الذي كان على قضاء الكوفة، وأقره علي رضي الله عنه عليها، وكان يرزقه كل شهر خمسمائة درهم (٣).
 - ٢- أبو موسى الأشعري الذي ولاه عثمان القضاء بالكوفة، فأقره علي، ثم عزله (٤).
 - ٣- عبيد الله بن مسعود، الوالي والقاضي باليمن.
 - ٤- عثمان بن حنيف على البصرة.
 - ٥- قيس بن سعد على مصر، وكان شهد فتح مصر، واختط بها داراً، ووليها لعلي ثم عزله بمحمد بن أبي بكر (٥).
 - ٦- عمارة بن شهاب على الكوفة.
 - ٧- تمام بن العباس على المدينة المنورة سنة ٣٧هـ، وقثم بن العباس على مكة والطائف (٦).

(١) «تاريخ القضاء في صدر الإسلام» ص (١٦٠). (٢) «القضاء في صدر الإسلام»، لجبر محمود ص (٢٣٩).

(٣) «أخبار القضاة» (٢/٢٢٧).

(٤) «تاريخ القضاء في الإسلام» ص ١٤٩.

(٦) «تاريخ الطبري» (٦/٧١).

(٥) «تاريخ الطبري» (٥/٥٨٩).

- ٨- جعدة بن هبيرة المخزومي، ثم خليلد بن قررة اليربوعي على خراسان^(١).
- ٩- عبد الله بن عباس كان والياً لعللي على البصرة، وكان أبو الأسود الدؤلي على قضائها، وفي قول: ولي عبد الله بن عباس على القضاء في البصرة عبدالرحمن بن يزيد الحدّاني، وكان أخا المهلب بن أبي صفرة لأمه، وبقي قاضياً عليها أيام علي بن أبي طالب، وطائفة من عمل معاوية حتى قدم زياد فعزله^(٢)، وقال أبو عبيدة: كان ابن عباس يفتي الناس ويحكم بينهم^(٣)، وإذا خرج ابن عباس عن البصرة استخلف أبا الأسود، فكان هو المفتي، والقاضي يومئذ يدعى المفتي، فلم يزل كذلك حتى قُتل علي سنة أربعين، ونقل عن أبي الأسود أقضية طريفة، لما خرج أمير المؤمنين علي من المدينة إلى البصرة ولّى عليها عبد الله بن عباس رضي الله عنه^(٤).
- ١٠- سعيد بن نمران الهمداني الذي عينه علي رضي الله عنه لما قدم الكوفة، ثم عزله، ثم استقضاه مصعب بن الزبير على الكوفة فقضى ثلاث سنوات، ثم عين ابن الزبير عبد الله بن عتبة بن مسعود^(٥).
- ١١- عبيدة السلماني، محمد بن حمزة الذي عينه علي على قضاء الكوفة بعد عزل سعيد الهمداني، وقال له: اقضوا كما كنتم تقضون، ثم عزله وعين شريحاً، وقال الشعبي: كان شريح أعلم الناس بالقضاء، وكان عبيدة يوازي شريحاً في القضاء، وله أقضية طريفة، وكان من علماء الكوفة المشهورين، وكان شريح يستشيره ويرجع إليه^(٦).
- ١٢- محمد بن يزيد بن خليدة الشيباني، عينه علي رضي الله عنه قاضياً على الكوفة، وله أقضية فيها^(٧).

(٢) «أخبار القضاة» (١/٨٨، ٢٨٩).

(٤، ٥) «تاريخ القضاء في الإسلام» (ص ١٥١).

(١) «تاريخ القضاء في الإسلام» (ص ١٥١).

(٣) «أخبار القضاة» (١/٢٨٨).

(٦) «أخبار القضاة» (٢/٣٩٦، ٣٩٧).

(٧) «طبقات ابن سعد» (٦/١٠)، و«أخبار القضاة» (٢/٣٩٩، ٤٠١).

وقد كان قضاة علي في الأمصار هم ولاته على البلدان المختلفة؛ لأن ولايتهم كانت عامة تشمل الحكم والإدارة وإقامة الحدود والإمامة والقضاء وجباية الصدقات وغيرها^(١)، وكان علي رضي الله عنه يطلب من ولاته التحري في تعيين القضاة، مما يدل على أنه خول لهم تعيين القضاة في البلدان التابعة لولاياتهم، مع أن الولاية - في الغالب - هم قضاة الأمصار التي يقيمون فيها، إلا أنه ورد ذكر أسماء عدد من قضاة الأمصار في عهد علي رضي الله عنه كما مر معنا، ويبدو أن ولاية الأمصار كان لهم الحق في النظر في المظالم التي يرفعها الناس ضد أحكام القضاء، وبالدرجة الأولى التي حكم فيها قضاة ولوا من قبلهم وليس من قبل الخليفة، كما كان لهم النظر في المظالم الأخرى من قبل قضاة البلدان المعينين من قبل الخليفة بحكم عموم ولايتهم^(٢)، إلا أنهم كانوا يرجعون إلى الخليفة في مثل هذه القضايا، ومن المعروف أن الخلفاء كانوا يفتحون أبوابهم لمن يجأ بالشكوى؛ سواء كانت الشكوى ضد الولاية أو ضد القضاة أو عمال الخراج أو غيرهم^(٣).

رابعاً: الأسلوب القضائي عند أمير المؤمنين علي، ونظرة للأحكام الصادرة قبله، والمؤهلين للقضاء ومكانة ومجانية الحصول على الحكم:

١ - إبقاؤه على أسلوب القضاء:

يظهر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان ينوي إدخال بعض التعديلات في أسلوب القضاء، وأصول المحاكمات بما يتناسب مع التطورات الجديدة التي طرأت على المجتمع، إلا أنه أرجأ ذلك إلى أن تستقر الأمور، فقد أثر عنه أنه رضي الله عنه قال: اقتصوا كما تقضون حتى تكونوا جماعة؛ فإني أخشى الاختلاف^(٤).

٢ - عدم نقضه الأحكام الصادرة قبله:

وحرصاً على استقرار الأمور فإن أمير المؤمنين رضي الله عنه كان يرى بأنه لا يحق

(١) «أخبار القضاة» (١/٣٩٥).

(٢) «قضاء أمير المؤمنين»، لعبد الله بن عثمان (ص ٢٩٠).

(٣) «الأحكام السلطانية» للماوردي (ص ٧٧).

(٤) «الولاية على البلدان» (٢/٩٣).

للقاضي أن ينقض حكماً أصدره قاضٍ آخر، وقد كان هو رضي الله عنه كتب الكتاب بين أهل نجران وبين النبي صلى الله عليه وسلم، فكثروا في عهد عمر حتى خافهم على الناس، فوقع بينهم الاختلاف، فأتوا عمر، فسألوه البدل، فأبدلهم، ثم ندموا، ووضع عليهم شيئاً فأبوه، فاستقالوه، فأبى أن يقلبهم، فلما ولي علي أتوه فقالوا: يا أمير المؤمنين شفاعتك بلسانك وخطك بيمينك، فقال علي رضي الله عنه: ويحكم إن عمر كان رشيد الأمر^(١)، ولن أرد قضاءً قضى به عمر^(٢).

٣- الأهلية للقضاء:

القضاء من الولايات العامة، ولذلك يشترط في القاضي ما يشترط فيمن تكون له ولاية عامة على المسلمين من العقل والبلوغ والإسلام، ويشترط في القاضي أن يكون عفيفاً عما في أيدي الناس، حليماً لا تثيره الكلمة، ولا يغضبه التصرف النابي، عالماً بأحكام الشريعة، وبناسخها ومنسوخها، فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لقاضٍ: هل تعلم الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت^(٣)، وإنما سأله علي عن الناسخ والمنسوخ؛ لأن معرفته ليس بالأمر السهل في ذلك العصر، ويشترط فيه أن يكون عالماً بما قضى به القضاة السابقون؛ حتى لا يخرج عن خطهم في القضاء؛ حسماً لفوضى الأحكام، وأن يكون متواضعاً لا يرى غضاظة في استشارة ذوي العلم والعقل الراجح؛ لأن هذه الشورى تبعده عن الخطأ في الأحكام، وأن يكون جريئاً في الحق لا يتأخر عن النطق بالحكم به ولو أغضب ذوي السلطان، وقد جمع ذلك كله قول علي رضي الله عنه: لا ينبغي أن يكون القاضي قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الألباب، لا يخاف في الله لومة لائم^(٤).

٤- مكان القضاء:

على القاضي أن يختار مكان جلوسه بين المتخاصمين في وسط المدينة بحيث

(٢) «سنن البيهقي» (١٠/١٢٠).

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١١/٣٢٩).

(٤) «سنن البيهقي» (١٠/١١٧).

(٣) «المغني» (٩/٥٧).

لا يشق على أحد الوصول إليه، ولذلك كان علي رضي الله عنه يأمر شريحاً - القاضي - بالجلوس في المسجد الأعظم^(١)؛ ليسر الوصول إليه^(٢).

٥ - مجانية الحصول على الحكم:

لما كان إقامة العدل بين الناس من أهداف الدولة الإسلامية، فإن الفقه الإسلامي يقضي بالأداء أي حائل بين صاحب الحق وبين الحصول على حقه، ولذلك فإن المتقاضين لا يدفعان للقاضي ولا للدولة شيئاً من المال للحصول على الحكم الذي يفصم الخلاف بينهما، بل الدولة الإسلامية هي التي تتكفل بنفقات الحاكم والمحكمة، وقد كان علي رضي الله عنه يعطي شريحاً على القضاء رزقاً، وقد رزقه حين ولّاه القضاء في الكوفة كل شهر خمسمائة درهم^(٣).

٦ - بذور المحاماة:

في العهد الراشدي ظهرت بذور المحاماة، فكان علي رضي الله عنه يوكل أخاه عقيلاً في المخاصمة، ولما أسن عقيل، وكَلَّ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عنه أمام القضاء، وكان يقول: ما قضي لو كيلى فلي، وما قضي على وكيلى فعلي^(٤).

خامساً: ما يجب على القاضي:

لكي يحقق القاضي العدل في الأحكام لابد له من مراعاة ما يلي:

١ - دراسة القضية المعروضة عليه دراسة واعية: ولا يجوز له أن يتسرع في

إصدار الحكم قبل الانتهاء من الدراسة، والاطمئنان إلى الحكم، ولذلك قال علي رضي الله عنه لشريح: لسانك عبدك ما لم تتكلم، فإذا تكلمت فأنت عبده، فانظر ما تقضي وفيه تقضي وكيف تقضي؟^(٥).

٢ - المساواة بين الخصوم: فقد نزل على علي رضي الله عنه ضيف، فكان عنده

(١) «المغني» (٤٣/٩).

(٢، ٣) «مسند زيد» (١٣٧/٤)، و«موسوعة فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه» (ص ٥٠٦).

(٤) «أصول المحاكمات الشرعية» (ص ٧٠)، و«تاريخ الفقهاء في الإسلام» (ص ١٣٢).

(٥) «كنز العمال» رقم (١٤٤٣٣).

أياماً، فأتى في خصومة، فقال له علي: أخصم أنت؟ قال: نعم، قال: فارتحل عنا؛ فإننا نهينا أن نزل خصماً إلا مع خصمه^(١).

٣- عدم الصياح بالمتخاصمين: ولَّى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أبا الأسود الدؤلي القضاء، ثم عزله، فقال: لِمَ عزلتني وما خنت ولا جنيت؟ فقال: إنما رأيتك يعلو كلامك على الخصمين^(٢).

٤- الابتعاد عن المؤثرات ومجاهدة النفس: سواء كانت هذه المؤثرات قرابة، أو مالا، أو بغضاً أو... . فقد جاء جعدة بن هبيرة إلى علي بن أبي طالب فقال: يا أمير المؤمنين، يأتيك الرجلان أنت أحب إلي أحدهما من نفسه، والآخر لو يستطيع أن يذبحك لذبحك، فتقضي لهذا على هذا؟ قال: فلمزه علي رضي الله عنه، وقال: هذا شيء لو كان لي لفعلت، ولكن إنما ذلك شيء لله^(٣).

٥- الشورى: وعلى القاضي أن يستشير ذوي العلم والرأي لئلا يفلت منه حق، وقد كان علي رضي الله عنه أحد أعضاء الشورى الذين يحرص الخلفاء على استشارتهم عندما تعرض عليهم مشكلة، فقد روى الخفاف في «أدب القاضي» أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان إذا جاءه الخصمان قال لهذا: ادعُ علياً، وقال لهذا: ادعُ طلحة والزبير رضي الله عنهما، ونفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا جاؤوا إليه قال لهما: تكلما، فإذا تكلما يقبل عليهم فيقول: ماذا تقولون؟ فإن قالوا ما يوافق قوله قضى عليهما ولا ينظرهم بعد^(٤).



(١) «كنز العمال» رقم (١٤٤٢٩)، و«مصنف عبد الرزاق» (٣٠٠/٨). (٢) «المغني» (١٠٤/٩).

(٣) «فقه علي بن أبي طالب»، لقلعجي (ص ٥٠٨).

(٤) «شرح أدب القاضي» للخفاف (٣٠٥/١)، و«موسوعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه» ص (٥٠٨).

المبحث الثالث

من فقه المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

أولاً: في العبادات:

لم يأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه جهداً في بيان أحكام العبادات للناس؛ لما يتمتع به من غزارة في العلم وفقه في الدين، وما بينه للناس من أحكام العبادات يحتاج إلى سفر ضخمة^(١)، ولكن نشير إلى مجموعة من الأحكام في هذا الكتاب على النحو التالي:

أحكام في الطهارة:

١ - يغسل من بول الجارية وينضح من بول الغلام ما لم يطعم:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: يغسل من بول الجارية، وينضح من بول الغلام ما لم يطعم^(٢). والدليل على ذلك: لما بال الحسين بن علي رضي الله عنهما في حجر النبي صلى الله عليه وسلم قالت لبابة بنت الحارث: يا رسول الله، أعطني ثوبك، والبس ثوبا غيره. فقال: «إنما ينضح من بول الذكر، ويغسل من بول الأنثى»^(٣).

٢ - نوم الجالس وحكمه في نقض الوضوء:

أخرج عبد الرزاق في مصنفه بسنده أن علياً، وابن مسعود، والشعبي رضي الله عنهم، قالوا في الرجل ينام وهو جالس: ليس عليه الوضوء^(٤). ودل على ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العين وكاء السه، فمن نام فليتوضأ»^(٥).

٣ - غسل المذي والوضوء منه:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: كنت رجلاً مذاءً فأمرت رجلاً^(٦) أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم - لمكان ابنته - فسأله، فقال: «توضأ، واغسل ذكرك»^(٧).

(١) انظر على سبيل المثال: «موسوعة فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه»، لمحمد قلعجي، و«فقه الإمام علي»، لأحمد طه.

(٢) «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٧٥/١) صحيح موقوف.

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (٨٥/١) حسن صحيح.

(٤) «المصنف» (١٣١/١).

(٥) «صحيح سنن أبي داود» للألباني (٤١/١).

(٧) «مسلم»، كتاب الحيض (٢٤٧/١).

(٦) الرجل هو المقداد كما في رواية البخاري.

٤- قراءة القرآن - من دون المصحف - على كل حال ما لم يكن جنباً:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرئنا القرآن عل كل حال ما لم يكن جنباً^(١)، وعن عامر الشعبي قال: سمعت أبا الغريف الهمداني يقول: شهدت علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بال ثم قال: اقرؤوا القرآن ما لم يكن أحدكم جنباً، فإذا كان جنباً فلا، ولا حرماً واحداً^(٢).

٥- وطء الحائض:

سأل عمر رضي الله عنه علياً ما ترى في رجل وقع على امرأته وهي حائض؟ قال: ليس عليه كفارة إلا أنه يتوب^(٣)، وقد أجمعت الأمة على حرمة وطء الحائض دون خلاف^(٤)؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

٦- مباشرة الحائض:

فقد سئل علي رضي الله عنه : ما لك من امرأتك إذا كانت حائضاً؟ قال: ما فوق الإزار^(٥)، ودليله في ذلك عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضاً أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأزر بإزاره، ثم يباشرها^(٦).

أحكام في الصلاة:

١- لا يقرأ القرآن راکعاً أو ساجداً:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نهاني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قراءة القرآن وأنا راکع أو ساجد^(٧).

٢- من لم يصل فهو كافر:

سئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين ما ترى في امرأة

(١) «مسند أحمد» (٥١/٢) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) «مصنف عبد الرزاق» (٣٣٦/١).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٥٩/١).

(٤) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (١٥٥/١).

(٥) «بداية المجتهد» (٥٧/١)، و«المجموع» (٣٥٩/٢).

(٦) «مسلم» (٣٤٩/١).

(٧) «مسلم» (١٦٦/١).

لا تصلي؟ قال: من لم يُصلِّ فهو كافر^(١)، قال عبد الله بن شقيق: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة، ولأنها عبادة يدخل بها في الإسلام، فيخرج بتركها منه كالشهادة^(٢)، ويؤيد هذا الحكم، قول رسول الله ﷺ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»^(٣).

قال الإمام النووي: تارك الصلاة إن كان منكراً لوجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين، خارج من ملة الإسلام، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، ولم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه، وإن كان تركه تكاسلاً مع اعتقاد وجوبها - كما هو حال كثير من الناس - فقد اختلف العلماء فيه، فذهب مالك والشافعي (رحمهما الله) والجماهير من السلف والخلف إلى أنه لا يكفر، بل يفسق، ويستتاب، فإن تاب وإلا قتلناه حداً، كالزاني المحسن، ولكنه يقتل بالسيف، وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر، وهو مروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو إحدى الروایتين عن أحمد بن حنبل (رحمه الله) وبه قال عبدالله بن المبارك، وإسحاق بن راهويه، وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي، وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة، والمزني صاحب الشافعي أنه لا يكفر ولا يقتل، بل يعزر، ويحبس حتى يصلي^(٤).

٣- إعادة الصلاة في الوقت:

إذا أعاد المصلي صلاته في الوقت لفضيلة الجماعة فإن^(٥) الأولى فرض والمعادة نافذة عند علي رضي الله عنه، نقل ذلك عن ابن قدامة، وعن الحارث عن علي في الذي يصلي وحده ثم يصلي في الجماعة، قال: صلاته الأولى^(٦)، أي الثانية نافذة له، ودليله ما رواه أبو ذر حيث قال: قال لي رسول الله ﷺ: «كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يمتنون الصلاة، أو يؤخرون الصلاة عن وقتها، فإن أدركتها معهم فصل»

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤٧/١١)، و«كنز العمال» (١٣/٨).

(٢) «المغني» (٤٤/٢).

(٣) «مسلم»، كتاب الإيمان (٨٨/١).

(٤) «شرح صحيح مسلم» (٧٠/٢)، و«المغني» (٤٤٢-٤٤٧).

(٥) «المغني» (١١٣/٢).

(٦) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٧٦/٢)، و«كنز العمال» رقم (٢٢٨٣٣).

فإنها لك نافلة»^(١)، وجه الدلالة أنه سمي التي يصلّيها جماعة نافلة^(٢) وإذا أعاد المغرب شفّعها بركة عند علي رضي الله عنه، فعن الحارث عن علي إذا أعاد المغرب شفّع بركة^(٣).

٤. قضاء الفوائت:

من فاتته صلاة فيجب عليه قضاؤها، ويستحب أن يقضيها على الفور عند علي، وقد قال علي رضي الله عنه: إذا نام الرجل عن صلاة أو نسي فليصل إذا استيقظ أو ذكر^(٤)، وعلى هذا إجماع المسلمين دون خلاف^(٥)، والدليل على ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله يقول: أقم الصلاة لذكري»^(٦).

٥. صلاة التراويح:

عن أبي عبدالرحمن السلمي أن علياً قام بهم في رمضان^(٧)، وعن إسماعيل ابن زياد قال: مر علي على المساجد وفيها القناديل في شهر رمضان فقال نور الله على عمر قبره، كما نور علينا مساجدنا^(٨)، وعلى هذا إجماع مذاهب أهل السنة^(٩)، والحجة في ذلك ما رواه أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١٠)، وجه الدلالة أن التراويح من القيام فهو سنة^(١١)، والجماعة في التراويح أفضل عند علي وكان هو يصلّيها جماعة^(١٢)، ويجعل للرجال إماماً وللنساء إماماً، فعن عرفجة الثقفي قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يأمر الناس بقيام شهر رمضان ويجعل للرجال إماماً

(١) «مسلم»، كتاب المساجد رقم (٢٤٠).

(٢) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (١٧٧/١).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٧٦/٢).

(٥) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (١٨١/١).

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٦٤/٢).

(٦) «مسلم»، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٤٧٧/١) رقم (٦٨٤).

(٧) «المغني» (١٦٩/٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٣٩٥/٢). (٨) «المغني» (١٦٩/٢).

(١٠) «مسلم» رقم (٧٥٩).

(٩) «بداية المجتهد» (٢١٤/١)، و«المغني» (١٦٥/٢).

(١٢) «المغني» (١٦٨/٢).

(١١) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٢٨٥/١).

وللنساء إماماً، قال عرفجة: فكنت أنا إمام النساء^(١)، وصلاة التراويح لها دليل في أصلها من هدي النبي ﷺ، فعن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل، فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس يتحدثون، فاجتمع أكثر منهم، فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلى الناس بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلماً قضى الفجر، أقبل على الناس فتشهد، ثم قال: «أما بعد، فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها»، فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك^(٢).

٦- صلاة العيد في المسجد بالشيخ والضعفاء:

لما تولى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة وصار بالكوفة، وكان الخلق بها كثيراً، قالوا: يا أمير المؤمنين، إن بالمدينة شيوخاً وضعفاء يشق عليهم الخروج إلى الصحراء، فاستخلف علي بن أبي طالب رجلاً يصلي بالناس العيد في المسجد، وهو يصلي بالناس خارج الصحراء، ولم يكن هذا يفعل قبل ذلك، وعلي من الخلفاء الراشدين، وقد قال النبي ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»^(٣)، فمن تمسك بسنة الخلفاء الراشدين فقد أطاع الله ورسوله^(٤).

٧- تغسيل الرجل زوجته:

يجوز للرجل أن يغسل جنازة زوجته عند علي؛ إذ أنه غسل زوجته فاطمة رضي الله عنها^(٥)، وعن أسماء بنت عميس قالت: أوصت فاطمة إذا ماتت ألا يغسلها إلا أنا وعلي، قالت: فغسلتها أنا وعلي^(٦)، وحكي إجماع الصحابة على ذلك؛ لأن ذلك اشتهر فيهم ولم ينكروه^(٧)، وبه قال جمهور العلماء والحجة لهم لقول

(١) «المجموع» (٣٤/٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٢٢٢/٢). (٢) «البخاري» رقم (٢٠١٢).

(٣) «سنن الترمذي في العلم» (٢٦٧٦) حسن صحيح. (٤) «الفتاوى» (١١٣/٢٤).

(٥) «السييل الجرار» (٣٤٤/١)، و«المبسوط» (٧١/٢).

(٦) «مصنف عبد الرزاق» (٤١٠/٣)، و«المحلى» (١٧٥/٥).

(٧) «المغني» (٢٥٢/٢)، و«نيل الأوطار» (٥٨/٤).

رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة: «ما ضرك لو مت قبلي، فغسلتك، وكففتك، ثم صليت عليك ودفنتك»^(١).

٨- الكفن من مال الميت:

يحسب تكاليف تكفين الميت من رأس ماله إن كان له مال عند علي عليه السلام^(٢)، فعن عبدالله ابن ضميرة عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام أنه قال: الكفن من رأس المال^(٣)، والحجة في ذلك أن مصعب بن عمير رضي الله عنه قُتِلَ يوم أحد ولم يوجد له شيء يكفن فيه إلا نمره فكنا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجله خرج رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ضعوها مما يلي رأسه واجعلوا على رجله الإذخر»^(٤). وجه الدلالة: أنه لو كان واجب على المسلمين لأخذ له من المسلمين الحاضرين ما يتم به كفنه^(٥).

٩- كفن الرجل والمرأة وعدم المغالة فيه:

يسن أن يكفن الرجل في ثلاثة أثواب، والمرأة في خمسة أثواب عند علي عليه السلام، نقل ذلك عنه الكاساني وغيره^(٦)، ويكره المغالة في الكفن وهو الزيادة على الثلاثة للرجل والخمسة للمرأة عند علي^(٧)، فقد قال أمير المؤمنين علي: كفن المرأة خمسة أثواب، وكفن الرجل ثلاثة، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين^(٨).

١٠- غسل الشهيد وكفنه:

لا يغسل الشهيد ولا يكفن عند علي، فقد نقل ذلك عنه الكاساني وغيره^(٩)، وروي عنه أنه لم يغسل من قُتِلَ معه في قتال مع مخالفه ولم يأمر بتكفينهم، بل

(١) «سنن ابن ماجه» رقم (١٤٦٤) وإسناده صحيح.

(٢) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٣٠٥/١).

(٣) «الطبراني الأوسط» (٦٧/٤) وإسناده ضعيف.

(٤) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٣٠٦/١).

(٥) «مسلم» (٦٤٩/٢) رقم (٩٤٠).

(٦) «البدائع» (٧٦٦/٢)، و«المبسوط» (٧٢/٢).

(٧) «البدائع» (٧٦٦/٢)، و«المبسوط» (٧٢/٢).

(٨) «البدائع» (٢٨٧/٢)، و«فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٣٠٦/١).

(٩) «البدائع» (٧٦٦/٢)، و«المبسوط» (٧٢/٢).

دفن عماراً ولم يغسله^(١)، وهذا قول جمهور أهل العلم إلا الحسن البصري وسعيد بن المسيب لقولهما: إن الميت يجب^(٢).

- أحكام متعلقة بالزكاة

١ - لزكاة في مال حتى يحول عليه الحول:

بين أمير المؤمنين علي أن حولان الحول شرط في وجوب الزكاة؛ لما ورد عنه رضي الله عنه قال: ليس في مال زكاة حتى يحول عليه الحول^(٣)، والحول شرط لوجوب الزكاة في النقود والمواشي، وأموال التجارة، وليس بشرط في الزرع، وذلك إجماع لا خلاف فيه^(٤).

٢ - نصاب الذهب والفضة ومقدار الزكاة فيهما:

بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن نصاب الذهب عشرون مثقالاً، وليس فيما دونه زكاة، وما زاد فبحسابه، حيث يقول: ليس فيما دون عشرين ديناراً شيء، وفي عشرين نصف دينار، وفي أربعين دينار، فما زاد فبحساب^(٥)، وقال عن نصاب الفضة: ليس في أقل من مائتي درهم زكاة^(٦)، وقال: فإذا بلغ مائتي درهم ففيه خمسة دراهم، وإن نقص من المائتين فليس فيه شيء، وإن زاد على المائتين فبحساب^(٧).

٣ - نصاب الإبل ومقدار الزكاة فيها:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: في خمس من الإبل شاة إلى تسع، فإن زادت واحدة ففيها شاتان إلى أربع عشرة، فإن زادت واحدة ففيها

(١) «المغني» (٥٣٤/٢)، و«فقه الإمام علي» (٣٠٦/١).

(٢) «البدائع» (٨٠٦/٢)، و«المغني» (٥٢٩/٢).

(٣) «مسند أحمد» (٣١١/٢) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٤) «موسوعة فقه الإمام علي» لقلعجي ص (٢٩٥).

(٥) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١٩/٣).

(٦) «مصنف ابن أبي شيبة» (١١٧/٣).

(٧) «المحلى» (٦١/٦)، و«المجموع» (١٦/٦).

ثلاث شياه إلى تسع عشرة، فإن زادت واحدة ففيها أربع شياه إلى أربع وعشرين، فإن زادت واحدة ففيها خمس شياه^(١)، فإن زادت واحدة ففيها بنت مخاض أو لبون - ذكر أكبر منها بعام - إلى خمس وثلاثين، فإن زادت واحدة ففيها بنت لبون إلى خمس وأربعين، فإن زادت واحدة ففيها حقة «طريقة الفحل» إلى ستين، فإن زادت واحدة ففيها بنتا لبون إلى تسعين، فإذا كثرت الإبل ففي كل خمسين من الإبل حقة، ولا يجمع بين مفترق ولا يفرق بين مجتمع^(٢).

٤ - الأصناف التي تجب فيها الزكاة من الزروع:

الأصناف التي تجب فيها الزكاة عند علي رضي الله عنه هي الحنطة والشعير والتمر والزبيب، نقل ذلك عنه ابن حزم وغيره^(٣)، وقد قال علي: الصدقة عن أربع: من البر فإن لم يكن بر فتمر، فإن لم يكن تمر فزبيب، فإن لم يكن زبيب فشعير^(٤).

٥ - عدم الزكاة في الخضروات والفواكه والعسل:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ليس في الخضر صدقة^(٥)، وفي رواية: ليس في الخضر والبقول صدقة^(٦)، وهو قول جمهور العلماء^(٧)، ولا زكاة في الفواكه عند علي رضي الله عنه، فعن أبي إسحاق عن علي قال: ليس في التفاح وما أشبهه صدقة^(٨)، وعن عاصم ابن ضمرة عن علي قال: ليس في الخضر صدقة: البقل والتفاح والقثاء^(٩)، وهو قول كل من قال باقتصار وجوب الزكاة على

(١) عند ابن قدامة في «المغني» (٥٧٩/٢) من ٢٥ إلى ٣٥ فيها بنت مخاض.

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٢٢/٣).

(٣) «المحلى» (٢١٢/٥)، و«فقه الإمام علي» (٣٤٦/١).

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤٣٨/٣).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (٧١٨٨)، و«جمع الجوامع» (١٥٧/٢).

(٦) «سنن البيهقي» نقلاً عن «فقه الإمام علي» (٣٤٧/١).

(٧) «فقه الإمام علي» (٣٤٧/١).

(٨) «جمع الجوامع» (٩٥/٢)، و«فقه الإمام علي» (٣٤٨/١).

(٩) «مصنف عبد الرزاق» (٧١٨٨)، و«فقه الإمام علي» (٣٤٨/١).

الأصناف الأربعة، والحجة لهم لدخولها تحت حكم الحضرات؛ لاشتراكها معها في عدم البقاء والادخار^(١)، وأما زكاة العسل فهي غير واجبة عند علي؛ حيث قال: ليس في العسل زكاة^(٢).

٦. صرف الزكاة لصنف واحد:

يجوز إعطاء الزكاة لصنف واحد من الأصناف الثمانية، أو لشخص واحد يغنون بها عند علي رضي الله عنه، فقد قال: لا بأس أن يبعث الرجل الصدقة في صنف واحد^(٣)، وروي عنه أنه أتى بصدقة فبعثها إلى أهل بيت واحد^(٤).

٧. إعطاء الزكاة للأصول والفروع:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ليس لولد ولا لوالد حق في صدقة مفروضة، ومن كان له ولد أو والد فلم يصله فهو عاق^(٥)، وحكي إجماع العلماء على هذا، وحمل من خالفه على صدقة التطوع والحجة لهم؛ لأن منفعتها تعود على دافع الزكاة؛ لأنها تغنيهم عن النفقة فلا يدفعها إليهم، وقد يتخذ ذلك حيلة للتخلص من دفع الزكاة، ثم إن الزكاة والنفقة واجبان مستقلان لا يحل أحدهما مكان الآخر كالصلاة والصوم، وإن الزكاة حق لله تعالى فهي عبادة، وأما النفقة فهي حق العباد، وهي صلة القرابة^(٦).

أحكام متعلقة بالصيام:

١. ثبوت صيام رمضان برؤية الواحد العدل:

يثبت دخول شهر رمضان عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بخبر الواحد العدل، ويلزم الناس بصيامه، فعن فاطمة بنت الحسين رضي الله عنها: أن رجلاً

(١) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (١/٣٤٥).

(٢) «جمع الجوامع» (٢/١٥٧)، و«فقه الإمام علي» (١/٣٤٥).

(٣) «فقه الإمام علي» (١/٣٥٢) نقلاً عن «سنن البيهقي».

(٤) «البدائع» (٢/١٠٤)، و«فقه الإمام علي» (١/٣٥٢).

(٥) «سنن البيهقي» نقلاً عن «فقه الإمام علي» (١/٣٥٥).

(٦) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (١/٣٥٥).

شهد عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه على رؤية هلال رمضان فصام، وأحسبه قال: وأمر الناس بالصيام^(١) وهذا الحكم مبني على ما ثبت عن رسول الله صلوات الله عليه: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُميَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يوماً»^(٢)، قال النووي: المراد رؤية بعض المسلمين، ولا يشترط رؤية كل إنسان، بل يكفي جميع الناس رؤية عدلين وكذا عدل على الأصح، وأما الفطر فلا يجوز بشهادة عدل واحد على هلال شوال، عند جميع العلماء إلا أبا ثور فجوزه بعدل^(٣).

٢. صيام الجنب:

يجوز أن يصوم المجنب أي يؤخر الغسل حتى يصبح ثم يغتسل ويتم صومه عند علي رضي الله عنه نقل ذلك عنه ابن قدامة وعن الحارث عن علي قال: إذا أصبح الرجل وهو جنب فأراد أن يصوم فليصم إن شاء^(٤)، والدليل على ذلك ما ورد عن عائشة وأم سلمة: أن رسول الله صلوات الله عليه كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم^(٥).

٣. الإفطار للشيخ الكبير:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في تفسيره قول الله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ (البقرة: ١٨٤)، قال: الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم يفطر، ويطعم مكان كل يوم مسكيناً^(٦).

٤. مكان الاعتكاف:

عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي رضي الله عنه قال: لا اعتكاف إلا في مسجد جماعة^(٧)، وفي لفظ: لا اعتكاف إلا في مصر جامع^(٨)، ولعله قصد بذلك أن الاعتكاف لا يقام إلا في مسجد المصر الجامع الذي تقام فيه الجمعة^(٩).

(١) «المجموع» (٣١٥/٦)، و«المغني» (٩٠/٣)، و«موسوعة فقه الإمام علي رضي الله عنه» (ص ٤٢٠).

(٢) «مسلم» (٧٥٩/٢). (٣) «شرح صحيح مسلم» (١٩٠/٧).

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٨١/٣)، و«المغني» (١٣٧/١). (٥) «البخاري» (٢٣٢/٢).

(٦) «تفسير الطبري» (٨١/٢). (٧) «مصنف عبد الرزاق» (٨٠٠٩).

(٨) «مصنف ابن أبي شيبة» (٩١/٣). (٩) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٣٨٦/١).

٥. ما يجوز للمتعكف:

قال علي رضي الله عنه: إذا اعتكف الرجل فليشهد الجمعة وليعد المريض وليشهد الجنائز وليأتي أهله وليأمرهم بالحاجة وهو قائم^(١).

من أحكام الحج:

١. تقبيل المحرم امرأته:

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من قبل امرأته وهو محرم فليهرق دمًا^(٢).

٢. قتل المحرم للحيوان الصائل:

عن مجاهد عن علي رضي الله عنه أنه قال في الضبع: إذا عدا على المحرم فليقتله، فإن قتله قبل أن يعدو عليه فعليه شاة^(٣)، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٧٣)؛ لأنه إن لم يقتله قتله فيتحقق منه الاضطرار، ثم إنه انقلب بذلك حيوانًا شريراً فيلحق بالمؤذيات التي يجوز قتلها^(٤).

٣. قتل الغراب:

يجوز للمحرم قتل الغراب عند علي، فقد قال: يقتل المحرم الغراب^(٥)، ودليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس فواسق يقتلن في الحرم، الفأرة، والعقرب، والغراب، والحدأة والكلب العقور»^(٦).

٤. الشك في الطواف:

قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: إذا طفت في البيت فلم تدر أتممت أو لم تتم؟ فأت ما شككت، فإن الله لا يعذب على الزيادة^(٧).

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٨٧/٣)، و«جمع الجوامع» (١٤٠/٢).

(٢) «فتح العزيز»، و«شرح الوجيز» للرافعي الهامش، و«المجموع» (٤٨٠/٧).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٦/٤).

(٤) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٤٠٣/١).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٩٤/٤).

(٦) «سنن الترمذي» (١٦٦/١)، حسن صحيح.

(٧) مصنف ابن أبي شيبة (٩٦/٤).

٥. النسيان في الطواف:

إذا نسي الرجل فطاف أشواطاً زائدة على المسنون يضيف إليها ما يبلغه مجموع أشواط طوافين عند علي رضي الله عنه، قال علي - في الرجل ينسى فيطوف ثمانية- : فليزد عليها ستة حتى تكون أربعة عشر، ثم يصلي أربع ركعات^(١).

٦. النيابة للحج:

من استطاع بماله الحج ولم يستطع ببذنه لشيخوخة أو مرض يجب عليه أن ينيب عنه غيره عند علي، نقل ذلك عنه ابن حزم وغيره^(٢)، فقد قال في الشيخ الكبير: إنه يجهز رجلاً بنفقته فيحج عنه^(٣)، ودليل ذلك ما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من خثعم قالت: يارسول الله صلى الله عليه وسلم إن أبي شيخ كبير عليه فريضة الله في الحج وهو لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعييره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فحجي عنه»^(٤)، وهذا يدل على أن الاستطاعة بالمال كافية لوجوب الحج على المكلف عند علي ومن معه، أما الاستطاعة بالبدن فيكفي أن يستطيع بغيره إذا وجد، سواء أكان بمؤنة أو إجارة أو غيرهما^(٥).

٧. الشك في عدد الرميات:

إذا شك الحاج في عدد رمي الجمرات يعيد ما شك فيه عند علي رضي الله عنه، فعن أبي مجلز أن رجلاً سأل ابن عمر فقال: إني رميت الجمرة ولم أدر رميت ستاً أو سبعماء، قال: أنت وذاك الرجل - يريد علياً - فذهب فسأله فقال: أما أنا لو فعلت في صلاتي لأعدت الصلاة، فجاء فأخبره بذلك، فقال: صدق، أو أحسن، قال الشيخ: وكأنه أراد - والله أعلم - لأعدت المشكوك في فعله، كذلك في الرمي يعيد المشكوك في رميه^(٦).

(٢) «المحلى» (٦١/٧)، و«المغني» (٣/٢٢٨).

(٤) «مسلم» (٢/٩٧٤) رقم (١٣٣٥).

(١) «مصنف عبد الرزاق» رقم (٩٨١٤).

(٣) المصدر نفسه.

(٥) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (١/٤٢٠).

(٦) «سنن البيهقي» (٥/١٤٩) نقلاً عن «فقه الإمام علي» (١/٤١٨).

بعض الأحكام التي ألحقت بالعبادات:

١. إدراك الميتة قبل موتها:

إذا أدرك الحيوان الأيل إلى الموت قبل موته بوقت قصير فذبح جاز أكله، وعلامة حياته قبل ذبحه أن يتحرك منه عضو بعد ذبحه عند علي^(١)، فقد قال: إذا وجدت الموقوذة، والمتردية، والنطيحة، وما أصاب السبع فوجدت تحريك يد أو رجل فذكها وكل^(٢)، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣) ووجه الدلالة: أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ استثناء مما سبقه، أي إلا ما أدركتم ذكاته فيحل أكله^(٣).

٢. ذبائح نصارى العرب:

لا يحل أكل ذبائح نصارى العرب استثناء من عموم النصارى عند علي^{رضي الله عنه}، نقل ذلك عن الطبري وغيره^(٤)، وعن عبدة السلماني قال: لا تؤكل ذبائح نصارى العرب فإنهم لا يتمسكون من النصرانية إلا بشرب الخمر^(٥)، وفي رواية: لا تأكلوا ذبائح نصارى بني تغلب؛ فإنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر^(٦)، وقد استدل على ذلك بعدم التزامهم بتعاليم النصرانية في تحليل ما حللوا وتحريم ما حرّموا فلا يعدون منهم، ولكن الله تعالى حين أحل ذبائحهم أحلها في وقت كان النصارى منحرفين عن أصل تعاليم النصرانية سواء في عقيدتها، أو في أحكامها فلم يمنع ذلك من تحليل ذبائحهم، فهذا ما عليه جمهور الصحابة والفقهاء^(٧).

(١) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٤٥٦/١).

(٢) «المحلى» (٤٥٨/٧).

(٣) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٤٥٦/١).

(٤) «تفسير الطبري» (٥٦/٦)، و«تفسير القرطبي» (٧٨/٦).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٠٣٥)، و«تفسير الطبري» (٦٥/٦).

(٦) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٠٣٤)، و«كنز العمال» رقم (١٥٦٥١).

(٧) «تفسير الطبري» (٦٥/٥)، و«بداية المجتهد» (٤٦٥/١).

٣. ذبيحة الفخر:

يحرم أكل ما ذبح فخرًا عند علي عليه السلام، فعن الجارود بن أبي سبرة قال: كان رجل من بني رباح يقال له: ابن وشيل - وهو سحيم - قال: وكان شاعراً نافرًا غالب أبا فرزدق الشاعر بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت، فلما وردت الإبل الماء قاما إليها بالسيوف فجعلا يكسعان عراقبيها، فخرج الناس على الحمرات^(١) يريدون اللحم، وعلي بالكوفة، فخرج على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو ينادي أيها الناس: «لا تأكلوا من لحومها فإنها أهلٌ بها لغير الله»، قال ابن حزم: ولا يعلم لعلي في هذا الأمر إلا ما رواه عليه السلام حيث قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لعن الله من ذبح لغير الله»^(٢)، وجه الدلالة أن الذبح لأجل الفخر مما أهل به لغير الله، فيشملة الحديث^(٣).

٤. نجاسة البيضة داخل الدجاجة الميتة:

البيضة في بطن الدجاجة الميتة نجسة عند علي عليه السلام لا يجوز أكلها سواء أصلبت قشرتها أم لا، نقل ذلك عنه ابن قدامة^(٤).

٥. طعام المشركين والمجوس غير الذبائح:

لا بأس بأكل طعام المجوس والمشركين إذا لم يكن فيه من ذبائحهم؛ لأن التحريم خاص بالذبائح، فقد قال أمير المؤمنين علي: لا بأس بطعام المجوس، إنما نهى عن ذبائحهم^(٥)، وفي رواية: لا بأس بأكل خبز المجوس إنما نهى عن ذبائحهم^(٦) وهو قول جمهور الفقهاء^(٧).

(١) «فقه الإمام علي» (٤٦٧/١).

(٢) «مسلم»، كتاب الأضاحي، باب: تحريم الذبح لغير الله (١٥٦٧/٣).

(٣) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٤٦٨/١).

(٤) «المغني» (٧٥/١)، و«المجموع» (٢٤٥/١).

(٥) «كنز العمال» (٢٥٧٦)، و«فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٤٧٦/١).

(٦) «المغني» (٢٩٦/٤).

(٧) «فقه الإمام علي» (٤٧٧/١).

٦. ترك الشيب أبيض:

يجوز ترك الشيب أبيض دون تغييره بحناء أو غيره عند علي رضي الله عنه نقل ذلك عنه ابن حجر وغيره^(١)، وعن الشعبي قال: رأيت علياً أبيض الرأس واللحية قد ملأت ما بين منكبَيْه^(٢)، وعن أبي إسحاق رأيت علياً أصلع أبيض الرأس واللحية^(٣)، وعن ابن الحنفية أن علياً اختضب بالحناء مرة ثم ترك^(٤).

٧. اللعب بالنرد والشطرنج:

لعب النرد حرام عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حيث قال: لئن أقلب جمرتين أحب إليّ من أن أقلب كعبين^(٥)، وكان لا يسلم على أصحاب النردشير^(٦)، ودليل تحريمه قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه»^(٧) والشطرنج محرم عند علي رضي الله عنه أيضاً نقله عنه ابن قدامة^(٨) وكان يقول في الشطرنج: هو ميسر الأعاجم^(٩)، وفي رواية: هو من الميسر^(١٠)، وعن ميسرة بن حبيب قال: مر علي بن أبي طالب رضي الله عنه على قوم يلعبون بالشطرنج فقال: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ لئن يمس الرجل جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسه^(١١)، وعن عمار بن أبي عمار قال: مر علي بمجلس من مجالس تيم الله وهم يلعبون بالشطرنج فوقف عليهم فقال: أما والله لغير هذا خلقتم، أما والله لولا أن تكون سنة لضربت بها وجوهكم^(١٢)، والحجّة في هذا التحريم بين المتلاعبين هو علة الميسر المحرم بنص الكتاب، فيقاس عليه^(١٣).

- (١) «المنتقى» (٢٧٠/٧)؛ و«فقه الإمام علي» (٤٩٥/١)
 (٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤٢٧/٩)
 (٣) المصدر نفسه (٧٣٨/٨)
 (٤) «المغني» (٢١٢/١٠)
 (٥) «فقه الإمام علي» (٥٠١/١)
 (٦) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤٢٧/٩)
 (٧) «المصدر نفسه» (١٧٧٠/٤) رقم (٢٢٦٠)
 (٨) «إعلاء السنن» للتهانوي (٤٦٤/١٧) و«فقه الإمام علي» (٥٠١/١)
 (٩) «المصدر نفسه» (٤٦٤/١٧) و«فقه الإمام علي» (٥٠١/١)
 (١٠) «المصدر نفسه» (١٧/٩)
 (١١) «سنن البيهقي» نقلًا عن «فقه الإمام علي» (٥٠٢/١)
 (١٢) «فقه الإمام علي» (٥٠٢/١)

٨. نكاح المتعة:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: نسخ رمضان كل صوم ونسخ المتعة الطلاق والعدة والميراث^(١)، وحُجَّة علي ما رواه عن النبي صلَّى الله عليه وآله بأنه نهى عن المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية زمن خبير^(٢).

٩. النكاح بدون ولي:

عن أبي قيس الأودي أن علياً رضي الله عنه كان يقول: إذا تزوج بغير إذن ولي ثم دخل بها لم يفرق بينهما، وإن لم يصبها فرق بينهما^(٣).

١٠. العيوب الجسدية في المرأة:

إذا وجد الرجل فيمن تزوجها عيباً يصعب المقام معه، قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: إنه إذا دخل بها وجب المهر، وخير بين الطلاق والإمساك، وإن لم يدخل بها فرق بينهما بدون مهر^(٤).

١١. نكاح الخصي:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا يحل للخصي أن يتزوج فإن تزوج ولم تعلم المرأة، فرق بينهما عند علي رضي الله عنه، فقد قال: لا يحل للخصي أن يتزوج امرأة مسلمة عفيفة^(٥)، ودليل ذلك أن الخصاء من العيوب المنفرة التي يصعب معه الجماع أو ينعدم، فقيس على غيره من العيوب التي جاز بها التفريق^(٦).

١٢. من تزوج أختين جهلاً بأنهما أختان:

من تزوج امرأة ثم تزوج أخرى فظهر أنهما أختان يفارق التي تأخر زواجها عند علي رضي الله عنه، فعن ابن جريح قال: أخبرت عن علي رضي الله عنه أنه قال في رجل تزوج امرأة فأصابها، ثم انطلق إلى أرض أخرى فتزوج امرأة فأصابها، فإذا هي

(١) «فقه الإمام علي» (٢/٥٠٩).

(٢) «مسلم»، كتاب النكاح (١٠٢٧/٢) رقم (١٤٠٧). (٣) «مصنف عبد الرزاق» (٦/١٩٦).

(٤) «كنز العمال» رقم (٤٥٦٦٤)، و«مصنف عبد الرزاق» (١٠٦٧٧)، و«فقه الإمام علي» (٢/٥٣٥).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٧١٩). (٦) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٢/٥٣٦).

أختها فقضى أنه يفارق الآخرة ويراجع الأولى، غير أنه لا يراجع الأولى حتى تقضي هذه عدتها^(١)، وهو قول جمهور فقهاء المذاهب^(٢)، والحجة لهم: أن نكاح الأولى وقع صحيحاً، دون الثانية؛ فإنه باطل لا ينعقد^(٣).

١٣. تحريم وطء الزوجة في دبرها:

وطء الزوجة في دبرها حرام عند علي رضي الله عنه نقل ذلك عنه ابن قدامة^(٤) فعن أبي المعتمر قال: نادى علي على المنبر فقال: سلوني فقال رجل: أتوتى النساء في أدبارهن؟ فقال: سفلت سفل الله بك: ألم تر أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (العنكبوت: ٢٨)، وروي ذلك عن عبدالله ابن عباس وعبد الله بن عمرو وأبي هريرة رضي الله عنهم، وبه قال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن ومجاهد وعكرمة وهو قول أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد، والمالكية، والظاهرية^(٥)، ودليل التحريم، قول رسول الله صلوات الله عليه: «ملعون من أتى امرأته في دبرها»^(٦)، وجه الدلالة: أن النهي عن الشيء وترتيب اللعن عليه يدل على التحريم^(٧).

١٤. عدة الحامل المتوفى عنها زوجها:

إذا كانت المرأة حاملاً وتوفى زوجها فوضعت قبل أن تنقضي عدتها، فعند علي رضي الله عنه أنها تعتد أبعد الأجلين أي: عدة الحمل إذا لم تضع قبل عدة المتوفى عنها زوجها، فإن وضعت قبل ذلك تعتد أربعة أشهر وعشراً، نقل ذلك عنه ابن رشد وغيره^(٨)، وعن عبد الرحمن ابن معقل قال: شهدت علياً سأله رجل عنه امرأة توفى عنها زوجها وهي حامل قال: تتربص أبعد الأجلين^(٩)، وعن الشعبي كان

(١) «مصنف عبد الرزاق» (١٠٥١٧). (٢) «المدونة» (٢٨٠/٢)، و«المغني» (٦/٢٥٨١).

(٣) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٥٦٢/٢). (٤) «المغني» (٧/٢٢).

(٥) «المغني» (٧/٢٢)، و«المحلى» (٦٩/٧)، و«تفسير القرطبي» (٣/٩٣).

(٦) «سنن أبي داود» (٢٥٦/٢)، و«الجامع الصغير» (٢/٥٣٩).

(٧) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٥٦٨/٢).

(٨) «بداية المجتهد» (٢/٩٥)، و«نيل الأوطار» (٨/٧٧). (٩) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤/٣٠٠).

يقول: أجل كل حامل آخر الأجلين^(١)، وقد جمع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بين قول الله تعالى: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوقُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة: ٢٣٤) إذ بينهما عموم وخصوص فلا يترجح العمل بأحدهما دون الآخر، فيعمل بالاثنتين للخروج من الظن إلى اليقين والتخلص من التعارض^(٢).

والراجح أن عدتها وضع الحمل في كلتا الحالتين فقد صح عن عبد الله بن عتبة أن سبيعة بنت الحارث أخبرته أنها كانت تحت سعد بن خولة، وكان ممن شهد بدرًا، فتوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال: لها ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعت علي ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي^(٣)، وهذا قول جمهور علماء المسلمين، وقيل: حصل الإجماع على ذلك بعد سماع هذا الحديث^(٤)، وقال الشعبي: ما أصدق أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يقول عدة المتوفى عنها زوجها آخر الأجلين^(٥)، ولعل عليًا قال بذلك لعدم بلوغه حديث سبيعة، وإلا فلا يخالف علي رضي الله عنه الصحيح الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٦).

بعض الأحكام المتعلقة بالمعاملات المالية:

١. جوائز السلطان:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا بأس بجوائز السلطان، ما يعطيكم من الحلال

(٢) «سبل السلام» للصنعاني (١٩٨/٣).

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٩٨/٤).

(٤) «المغني» (٤٧٣/٧)، و«فقه الإمام علي» (٧١٦/٢).

(٣) «البخاري» رقم (٥٣١٨)، و«مسلم» (١٤٨٤).

(٦) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٦١٧/٢).

(٥) «سبل السلام» (١٩٨/٣).

أكثر مما يعطيكم من الحرام^(١)، وقال أيضاً: لا تسأل السلطان شيئاً، فإن أعطاك فخذ؛ فإن ما في بيت المال من الحلال أكثر مما فيه من الحرام^(٢).

٢. الهدية لرفع الظلم وأخذ الحق:

من نصر شخصاً في حق أو دفع عنه ظلماً، لا يجوز له أن يقبل هدية من نصره أو رفع عنه الظلم عند علي رضي الله عنه، نقل ذلك عنه ابن حزم^(٣).

٣. عدم ضمان العارية:

لا يضمن المستعير العارية إذا تلفت بدون تعدد عند علي رضي الله عنه^(٤)، فقد قال علي: ليست العارية مضمونة، إنما هو معروف إلا أن يخالف فيضمن^(٥).

٤. عدم ضمان الوديعة:

الوديعة أمانة بيد المودع عنده، فإذا تلفت عنده من غير جناية فلا ضمان عليه عند علي، فقد قال رضي الله عنه: لا يضمن صاحب العارية ولا الوديعة^(٦).

٥. بيع الغنيمة للكفار:

لا يجوز بيع ما غنمه المسلمون من أموال الكفار في الحرب إلى الكفار أنفسهم عند علي رضي الله عنه، فعن أم موسى قالت: أتت علي بن أبي طالب رضي الله عنه بآنية مطلية بالذهب من آنية العجم، فأراد أن يكسرها ويقسمها بين المسلمين، فقال ناس من الدهاقين: إن كسرت هذه كسرت ثمنها ونحن نغلي لك بها، فقال علي رضي الله عنه: لم أكن لأرد لكم ملكاً نزع الله منكم فكسرها وقسمها بين الناس^(٧)، وقد فعل أمير المؤمنين ذلك حتى لا تذكرهم بأمجادهم، أو تعود بالنع عليهم.

(١) «المغني» (٤٤٤/٦)، و«فقه الإمام علي» (٧١٦/٢).

(٢) «المغني» (٤٤٤/٦).

(٣) «المحلى» (١٢٩/٩).

(٤) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٧٢١/٢).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» رقم (٤٧٨٨).

(٦) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٤٧٨٦).

(٧) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٧٥٢/٢).

٦. تضمين الصناع:

وذلك حفظاً لأموال الناس من الضياع، قال الشاطبي: إن الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم قضوا بتضمين الصناع، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا يصلح الناس إلا ذلك^(١)، وفي هذا مقصد من مقاصد الشريعة وهو حفظ الأموال من الضياع^(٢)، وفي مصنف عبد الرزاق أن علياً رضي الله عنه ضمن الخياط والصباغ، وأشبه ذلك احتياطاً للناس^(٣).

٧. عقد الذمة وعدم التشديد في الجباية عليهم:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: لا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف، أما مشركو العجم فتؤخذ منهم الجزية، وأما أهل الكتاب من العرب والعجم فإن أبوا أن يسلموا وسألونا أن يكونوا أهل ذمة قبلنا منهم الجزية^(٤)، وعن علي أنه قال: إنما قبلوا عقد الذمة لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا^(٥)، وكان رضي الله عنه يستعمل الرفق في طريقة أخذها واليسر في مقدارها، فعن عبد الملك بن عمير قال: أخبرني رجل من ثقيف قال: استعملني علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: لا تضرين رجلاً سوطاً في جباية درهم ولا تبيعن لهم رزقاً ولا كسوة شتاءً ولا صيفاً، ولا دية يعملون عليها، ولا تقم رجلاً قائماً في طلب درهم، قال: قلت: يا أمير المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك، قال: وإن رجعت كما ذهبت، ويحك إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو، يعني الفضل^(٦).

ثانياً: في الحدود:**١. عقوبة المرتد:**

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: يستتاب المرتد ثلاثاً، فإن عاد وإلا قتل^(٧) وحجة

(١) «الاعتصام» (١١٩/٢). (٢) «مقاصد الشريعة الإسلامية» د. محمد سعد البويبي (ص ٦٠٢).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٢١٧/٨)، و«موسوعة علي بن أبي طالب» (ص ٢٢).

(٤) «فقه الإمام علي» (٧٥٦/٢). (٥) «المغني» (٣٧٥/٨)، و«فقه الإمام علي» (٧٥٦/٢).

(٦) «كنز العمال» رقم (١٤٣٤٦)، و«المغني» (٥٣٧/٨). (٧) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٠٠/١٣٨).

قتله: ما روى ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من بدل دينه فاقتلوه»^(١)، وأما دليل استتابته فما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ استتاب رجلاً ارتد عن الإسلام أربع مرات^(٢)، وروي عن علي في استتابه الزنديق الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر قولان هما:

أ - لا فرق في الاستتابة بين من أظهر الردة، وبين الزنديق الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر، وقامت عليه البينة بذلك^(٣).

فقد روى عبد الرزاق أن محمد بن أبي بكر كتب إلى علي رضي الله عنه عن مسلمين تزندقا فكتب إليه: إن تابا وإلا فاضرب أعناقهما^(٤).

ب - يستتاب من أظهر الردة ولا يستتاب الزنديق، فقد روى الأثرم بإسناده إلى علي رضي الله عنه أنه أتى برجل عربي قد تنصر، فاستتابه فأبى أن يتوب فقتله، وأتى برهط يصلون وهم زنادقة وقد قامت عليهم بذلك الشهود العدول، فجحدهوا وقالوا: ليس لنا دين إلا الإسلام، فقتلهم ولم يستتبهم قال: أتدرون لم استتبت النصراني؟ استتبه لأنه أظهر دينه، فأما الزنادقة الذين قامت عليهم البينة فإنما قتلتهم لأنهم جحدوا، وقد قامت عليهم البينة^(٥).

وأما المرأة المرتدة فقد ورد فيها عن علي رضي الله عنه قولان:

أ - لا فرق بينها وبين الرجل في حكم القتل، وقد روي هذا القول أيضاً عن أبي بكر رضي الله عنه وقال به الحسن والزهري والنخعي ومكحول وحماد ومالك والليث والأوزاعي والشافعي وإسحاق^(٦).

ب - المرأة تسترق ولا تقتل، وهذا القول قال به الحسن وقتادة؛ لأن أبا بكر

(١) البخاري رقم (٣٠١٧).

(٢) مجمع الزوائد (٢٦٢/٦) فيه ضعف.

(٣) المغني (١٢٦/٨)، و«موسوعة فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه» (ص ٢٧٣).

(٤) المصنف (٣٤٢/٧) (١٠٠/١٧٠).

(٥) المغني (٤١٤١/٨)، و«موسوعة فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه» (ص ٢٧٣).

(٦) المغني (١٢٣/٨).

استبقي نساء بني حنيفة وذريتهم وأعطى علياً منهم امرأة فولدت له محمد بن الحنفية، وكان ذلك بمحضر من الصحابة فلم ينكر، فكان إجماعاً^(١)، كما أن قصة بعث علي إلى بني ناجية دليل على هذا الرأي، وسيأتي الحديث عنها لاحقاً، وفيها: وقتل مقاتلتهم وسبى ذريتهم^(٢).

وقد قتل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه المرتدين بطرق مختلفة حسب حال كل منهم على النحو التالي:

أ - ضرب العنق بالسيف، كما في جواب علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمحمد بن أبي بكر عندما سأله عن مُسْلِمِينَ تزنديقاً فقال: فأما اللذين تزنديقاً، فإن تابا، وإلا فاضرب أعناقهما^(٣).

ب - الضرب حتى الموت، ففي مصنف ابن أبي شيبة أن علياً أتى برجل نصراني أسلم ثم تنصّر، فسأله عن كلمة، فقال له: فقام إليه علي رضي الله عنه فرسه برجله، فقام الناس إليه فضربوه حتى قتلوه^(٤).

ج - الإحراق بعد القتل، كما في قصة المستور العجلي حيث أسلم ثم ارتد، فإن علياً رضي الله عنه أحرقه بعد أن قتله، ولعل علياً رضي الله عنه أحرقه لما خاف أن ينبش قومه جثته، بعد أن رفض علي تسليمها مقابل مبلغ من المال بذلوه له^(٥).

د - القتل بالإحراق، كما في قصة علي رضي الله عنه مع السبئية كما سبق بيانه^(٦).

وقتل المرتد فيه حفظ لأهل الدين والدين، ومن مقاصد الشريعة الغراء حفظ الدين، فقد لاحظنا حرص الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم على تنفيذ أحكام الله في أهل الأهواء والخارجين عن الدين، وإنزال العقوبة المناسبة بهم، ومن أعظمها قتل المرتدين وقتالهم، كما فعل الخلفاء الراشدون وهذا تنفيذ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٠/١٤٤).

(٤) «المحلى» لابن حزم (١١/١٩٠).

(٦) «منهج علي بن أبي طالب» (ص ٢٧٥).

(١) «المغني» (٨/١٢٣)، و«فتح الباري» (١٢/٢٦٨).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٨/٣٩٥).

(٥) «موسوعة فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه» (ص ٢٧٥).

الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(١)، وقال ابن تيمية: فإنه لو لم يقتل ذلك - يعني المرتد - لكان الداخل في الدين يخرج منه، فقتله حفظ لأهل الدين والدين، فإن ذلك يمنع من النقص ويمنعهم من الخروج عنه^(٢).

٢. حد الزنى:

أ. قصة رجم:

قال الشعبي: كان لشراحة زوج غائب بالشام، وإنها حملت، فجاء بها مولاهما إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إن هذه زنت واعترفت، فجلدها يوم الخميس مائة جلدة، ورجمها يوم الجمعة، وحفر لها إلى السرة، وأنا شاهد، ثم قال: إن الرجم سنة سنها رسول الله صلوات الله عليه، ولو كان شهد على هذا أحد لكان أول من يرمي الشاهد بشهادته، ثم يتبع شهادته حجره، ولكنها أقرت، فأنا أول من يرميها، فرماها بحجر، ثم رمى الناس وأنا منهم، فكنت والله فيمن قتلها، وفي لفظ لأحمد والبخاري أن علياً قال: جلدتها بكتاب الله، ورجمتها بسنة رسول الله صلوات الله عليه^(٣)، وهذا الحكم القضائي اجتهاد لعلي رضي الله عنه، وهو مختلف فيه بين الفقهاء، وقال الجمهور بعدم الجمع بين الجلد والرجم^(٤)، وجاء في رواية: فحفر لها حفرة بالسوق فدار الناس عليها - أو قال: بها - فضربهم بالدرّة، ثم قال: ليس هكذا الرجم إنكم إن تفعلوا هذا يفتك بعضكم بعضاً ولكن صفوا كصفوفكم للصلاة ثم قال: أيها الناس، إن أول الناس يرمي الزاني الإمام، إذا كان الاعتراف، وإذا شهد أربعة شهداء على الزني أول الناس يرمي الشهود بشهادتهم عليه ثم الإمام ثم الناس ثم رماها بحجر وكبر، ثم أمر الصف الأول فقال: ارموا، ثم قال: انصرفوا، وكذلك صفّاً صفّاً حتى قتلوها^(٥).

(١) «البخاري» رقم (٦٨٧٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠٢/٢٠).

(٣) «البخاري»، كتاب الحدود (٢٥٣/٤).

(٤) «تاريخ القضاء في الإسلام» (ص ١٥٢).

(٥) «مصنف عبد الرزاق» (١٣٣٣٥)، و«فقه الإمام علي» (٧٨٢/٢).

ب. تأجيل رجم الحامل:

المرأة الحامل إذا ثبت عليها الزنى لا يقام عليها الحد حتى تضع حملها عند علي^(١)، فعنه رضي الله عنه قال: إن خادماً للنبي صلى الله عليه وسلم فجرت، فأمرني أن أقيم عليها الحد، فوجدتها لم تجف من دمها، فأتيته فذكرت له، فقال: «إذا جفت من دمها فأقم عليها الحد، أقيموا الحدود على ما ملكت أيانكم»^(٢)، وقد قام بهذا الحكم في خلافته.

ج. المستكرهه على الزنى:

لا حد على المستكرهه على الزنى عند علي ولها مهر المثل بذلك^(٣)، فقد قال: «في البكر تستكره نفسها: إن للبكر مثل صداق إحدى نسائها وللثيب مثل صداق مثلها»^(٤).

د. زنى المضطرة:

إذا اضطرت امرأة على الزنى لإنقاذ حياتها من الموت، فلم يُدفع إلا به سقط عنها الحد عند علي^(٥)، فقد جاء في رواية: أن امرأة أتت عمر فقالت: إني زنيت فارجمني فردها حتى شهدت أربع شهادات فأمر بوجمها، فقال علي: يا أمير المؤمنين: ردها فاسألها ما زناها لعل لها عذراً؟ فردها فقال: ما زناك؟ قالت: كان لأهلي إبل فخرجت في إبل أهلي فكان لنا خليط^(٦)، فخرج في إبله فحملت معي ماء ولم يكن في إبلي لبن، وحمل خليطنا ماء، وكان في إبله لبن، فنفذ مائي؛ فاستسقيت فأبى أن يسقيني، حتى أمكنه من نفسي، فأبيت حتى كادت نفسي تخرج، فقال علي: الله أكبر ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أرى لها عذراً^(٧)، وزيد في رواية: فأعطاها عمر شيئاً وتركها^(٨)، وقد ذكر

(٢) «مسند الإمام أحمد» رقم (١١٣٧) صحيح لغيره.

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (١٣٦٠٧).

(٦) خليط: الشريك الذي يخلط ماله بمال غيره.

(٨) «المغني» (١٨٧/٨).

(١) «فقه الإمام علي» (٧٨٣/٢).

(٣) «فقه الإمام علي» (٧٨٦/٢).

(٥) «فقه الإمام علي» (٧٨٨/٢).

(٧) «كتر العمال» رقم (١٣٥٩٦)، و«مغني المحتاج» (١٤٥/٤).

الفقهاء، هذه الحادثة ضمن الإكراه على الزنى، فلم يختلفوا في سقوط الحد بالإكراه^(١)، ولكن الإكراه غير الاضطرار؛ لأن الاضطرار فيه الإقدام على الفعل اختياراً أما الإكراه فلا إقدام فيه، وإنما يساق إلى الفعل جبراً، بدليل أن الله تعالى ذكر الإكراه مستقلاً عن الاضطرار كما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النحل: ١٠٦)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ (النور: ٣٣)، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٤٥).

وقد استدل علي رضي الله عنه بالآية الأخيرة، ووجه الدلالة أن الاضطرار لإنقاذ الحياة يرفع العقوبة الأخروية عن المضطر فهو يسقط العقوبة الدنيوية من باب أولى في حقوق الله تعالى، ويؤخذ من هذه المسألة: عمل علي بقاعدة الضرورات تبيح المحظورات^(٢).

هـ- درء الحدود بالشبهات:

تدرأ الحدود بالشبهات عند علي، فعن الضحاک بن مزاحم عن علي قال: إذا بلغ في الحدود لعل وعسى، فالحد معطل^(٣)، وعن علي أن امرأة أخته فقالت: إني زنت، فقال: لعلك أتيت وأنت نائمة في فراشك أو أكرهت؟ قالت: أتيت طائعة غير مكرهة، قال: لعلك غصبت علي نفسك، قالت: ما غصبت، فحبسها، فلما ولدت وشب ابنها جلدها^(٤)؛ لأنها لم تكن متزوجة، ولذلك جلدت.

و- زنى النصرانية:

إذا زنت النصرانية فلا تحد، بل تدفع إلى أهل دينها يقيمون عليها حسب دينهم عند علي^(٥)، فعن قابوس بن مخارق أن محمد بن أبي بكر كتب إلى علي رضي الله عنه يسأله عن مسلم زنى بنصرانية، فكتب إليه علي: أما المسلم فأقم عليه

(١) «إعلاء السنن» (٦٧١/١١)، و«المغني» (١٨٧/٨). (٢) «فقه الإمام علي» (٧٨٩/٢).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٣٧٢٧)، و«المغني» (٢١١/٨).

(٤) «فقه الإمام علي» (٧٦١/٢). (٥) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٧٩٩/٢).

الحد، وادفع النصرانية إلى أهل دينها^(١)، إن حد الزنى أمر تعبدي فيه التطهير من الإثم، وذلك لا يناسب الخارج عن ملة الإسلام.

ز- الحد كفارة لذنب من أقيم عليه عند علي:

فعن أبي ليلي عن رجل من هذيل -قال: وعداده من قريش- سمعت علياً يقول: من عمل سوءاً فأقيم عليه الحد فهو كفارة^(٢)، وفي رواية عنه أيضاً: كنت مع علي حين رجم شراحة فقلت: لقد ماتت هذه على شر حالها، فضربني بقضيب أو بسوط كان في يده حتى أوجعني، فقلت: لقد أوجعني قال: وإن أوجعتك قال: فقال: إنها لن تسأل عن ذنبها هذا أبداً كالدين^(٣)، ودليل ما ذهب إليه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حديث عبادة بن الصامت حيث قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجلس فقال: «ومن أصاب شيئاً من ذلك فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب شيئاً من ذلك فستره الله عليه، فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه»^(٤).

إن من مقاصد الشريعة حفظ العرض والنسب، فعدم حفظه يترتب عليه مفسدات حاصلتها بسبب إهماله، منها: انتهاكه، ومعلوم ما يحصل من جراء ذلك من الحروب والتقاتل والفساد، واختلاط الأنساب، وقطع النسل؛ لأن الزاني ليس له قصد في الولد، وإنما قصده اللذة الحاضرة فلولم تحفظ الفرج لعزف الناس عن النكاح، وانتشر الفساد الخلقي وظهرت جريمة الزنى، وما ينشأ عنها من مفسدات خلقية وصحية، ونزول المصائب وحلول الكوارث والمحن، ولو لم يرد في ذلك إلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢) لكان كافياً^(٥)؛ لذلك جاءت الشريعة الغراء بالتشريعات اللازمة لحفظ الأعراس والأنساب، وقام الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بتنفيذها.

(٢) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٣٣٥٥).
(٤) «مسلم»، كتاب الحدود رقم (٧٠٩) (٣/١٣٣٣)

(١) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٣٤١٩).

(٣) المصدر نفسه رقم (١٣٣٥٣).

(٥) «مقاصد الشريعة» لليوبي ص (٢٥٥).

٣. حد الخمر:

أ. شرب الخمر في رمضان:

عن عطاء عن أبيه أن علياً ضرب النجاشي الحارثي الشاعر؛ شرب الخمر في رمضان فضربه ثمانين ثم حبسه فأخرجه الغد فضربه العشرين ثم قال له: إنما جلدتك هذه العشرين بجرأتك على الله تعالى، وإفطارك في رمضان^(١).

ب. حكم الموت بإقامة حد الخمر:

عن علي رضي الله عنه، قال: ما من رجل أقمت عليه حداً، فمات فأجد في نفسي إلا الخمر؛ فإنه لو مات لوديته؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسئ^(٢).

وقد جاءت الأحكام الشرعية بالمحافظة على العقل الذي ميز الله به الإنسان وكرمه، فحرمت الخمر التي تذهب بالعقل وتغيبه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ (المائدة: ٩٠، ٩١). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مسكر خمر وكل خمر حرام»^(٣)، ولذلك شرع إقامة الحد على السكران، وحرّم المخدرات والمفترات التي تؤثر على سلامة العقل^(٤).

إن حفظ العقل مقصود في الشرع لما يترتب عليه من حفظ باقي الضرورات، ولما يترتب على إهماله من مفاسد لا تعد ولا تحصى^(٥).

٤. حد السرقة:

أ. اشتراط الحرز:

يشترط لقطع يد السارق أن يسرق المال من حرز مثله عند علي رضي الله عنه، فعن ضميرة قال: قال علي رضي الله عنه: لا يقطع السارق حتى يخرج المتاع من البيت^(٦).

(١) «كنز العمال» رقم (١٣٦٨٧)، و«فقه الإمام علي» (٢/٨٠٧).

(٢) «مسند أحمد» رقم (١٠٢٤)، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٣) «البخاري» رقم (٥٥٨٥). (٤) «الحكم والتحاكم في خطاب الوحي» (١/٤٦٧).

(٥) «مقاصد الشريعة» لليوبي (ص ٢٤٣).

(٦) «كنز العمال» رقم (١٣٩١١)، و«فقه الإمام علي» (٢/٨١٠).

ب. سرقة ما فيه شبهة ملك:

لا تقطع يد سارق سرق من مال له فيه شبهة ملك كأن يكون له نصيب فيه عند علي^(١)، فعن زيد بن دثار قال: أتني علي رضي الله عنه برجل سرق من الخمس فقال: له فيه نصيب، فلم يقطعه، وعن الشعبي عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول: ليس علي من سرق من بيت المال قطع^(٢).

ج. سرقة الحر:

من سرق حرًا صغيراً فإنه تقطع يده عند علي رضي الله عنه، فعن ابن جريج أن علياً قطع البائع - بائع الحر - وقال: لا يكون الحر عبدًا^(٣)؛ لأن الإنسان أقوم وأثمن من المال فهو الأولى أن يقطع فيه^(٤).

د. سرقة العبد مولاة:

لا تقطع يد عبد سرق من سيده عند علي رضي الله عنه، فعن الحكم أن علياً قال: إذا سرق عبد من مالي لم أقطعه^(٥).

هـ. إثبات السرقة:

ثبتت السرقة عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بشهادة شاهدين أو الاعتراف مرتين، نقل ذلك عنه ابن قدامة^(٦)، وعن عكرمة بن خالد قال: كان علي رضي الله عنه لا يقطع سارقاً حتى يأتي بالشهداء فيوقفهم عليه ويسجنه، فإن شهدوا عليه قطعه وإن نكلوا تركه، فأتي مرة بسارق فسجنه حتى إذا كان الغد دعا به وبالشاهدين، فقبل: تغيب أحد الشاهدين فخلى سبيل السارق ولم يقطعه^(٧)، وعن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه أن رجلاً أتى إلى علي رضي الله عنه فقال: إني سرقت، فانتهره وسبه فقال: إني سرقت، فقال علي: اقطعوا قد شهد علي نفسه مرتين، فلقد رأيته في عنقه^(٨).

(٢) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٨٧١).

(١) «فقه الإمام علي» (١١١/٢).

(٤) «فقه الإمام علي» (١١٤/٢).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٨٠٦).

(٦) «المغني» (٢٧٩/٨).

(٥) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٠٢/١٠).

(٧) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٧٧٩)، و«كنز العمال» رقم (١٣٩٠٨).

(٨) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٧٨٤)، و«المغني» (٢٨٠/٨).

و. كشف السارق قبل أن يسرق:

لا تقطع يد السارق عند كشفه قبل أن يخرج المتاع من الحرز عند علي رضي الله عنه، فعن الحارث عن علي رضي الله عنه قال: أتني برجل قد نقب فأخذ علي تلك الحال فلم يقطعه^(١)، وفي لفظ بزيادة: وعززه أسواطاً^(٢).

ز. تكرار السرقة:

من سرق قطعت يده اليمنى ثم إن سرق مرة ثانية قطعت رجله اليسرى، فإن سرق الثالثة ورابعة يعزر ولا تقطع يده الأخرى، أو رجله الثانية عند علي رضي الله عنه، نقل ذلك عنه ابن المنذر وغيره^(٣)، وعن عبد الله بن سلمة أن علياً أتى بسارق فقطع يده، ثم أتى به فقطع رجله، ثم أتى به فقال: أقطع يده؟ فبأي شيء يتمسح وبأي شيء يأكل؟ ثم قال: أقطع رجله؟ على أي شيء يمشي؟ إني لأستحي من الله، قال: ثم ضربه وخلده السجن^(٤)، وعن المغيرة والشعبي قالا: كان علي رضي الله عنه يقول: إذا سرق السارق مراراً قطعت يده ورجله، ثم إن عاد استودعته السجن^(٥)، وعن الشعبي قال: كان علي رضي الله عنه لا يقطع إلا اليد والرجل، وإن سرق بعد ذلك سجن ونكل، وأنه كان يقول: إني لأستحي من الله ألا أدع له يدا يأكل بها ويستنجي^(٦).

ح. قطع اليد وتعليقها:

يستحب أن يحسم اليد ويعلق المقطوع في عنق المحدود عند علي^(٧)، فعن حجية ابن عدي: كان علي رضي الله عنه يقطع ويحسم ويحبس، فإذا برئوا أرسل إليهم فأخرجهم ثم قال: ارفعوا أيديكم إلى الله فيرفعونها، فيقول: من قطعكم؟ فيقولون: علي، فيقول: ولم؟ فيقولون: سرقنا، فيقول: اللهم اشهد اللهم

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٤٧٧/٩).

(٢) «كنز العمال» رقم (١٣٩١١)، و«فقه الإمام علي» (٨١٧/٢).

(٣) «المحلى» (٣٥٤/٣)، و«المغني» (٢٦٤/٨).

(٤) «البدائع» (٤٢٧٣/٩)، و«المغني»، و«فقه الإمام علي» (٨١٨/٢).

(٥) «مصنف ابن أبي شيبة» (٥٠٩/٩).

(٦) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٧٦٤).

(٧) «فقه الإمام علي» (٨٢١/٢).

اشهد^(١)، وحسم اليد؛ لكيلا ينزف الدم ويسرع البرء إليها، ومخافة سريان الجرح إلى الجسم وتلفه^(٢).

إن من مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم، وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي، وحرّم السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٣٨)، وقام الخلفاء الراشدون بالإشراف على تنفيذ تلك الأحكام.

ثالثاً: في القصاص والجنايات:

جاءت شريعة الإسلام بأحكام القصاص للمحافظة على النفس ودرء المفسد الناشئة عن شيعو القتل وسفك الدماء المحرمة، كما قال تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ (البقرة: ١٧٨) وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (الإسراء: ٣٣)، وهذه بعض المسائل المتعلقة بأحكام القتل والقصاص والجنايات:

أ. الاشتراك في القتل العمد:

إذا اجتمع جماعة على قتل شخص عمداً، فإنهم يقتلون به جميعاً عند علي رضي الله عنه^(٣)، وقد روي عنه أنه قتل ثلاثة قتلوا رجلاً^(٤).

ب. من أمر عبده بالقتل:

إذا أمر السيد عبده أن يقتل رجلاً فقتله، يُقتل السيد عند علي رضي الله عنه ويحبس

(٢) «فقه الإمام علي» (٢/٨٢١).

(٤) «المعني» (٧/٦٧٢).

(١) «كنز العمال» رقم (١٣٢٦).

(٣) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٢/٨٢٦).

العبد، نقل ذلك عنه ابن المنذر وغيره^(١)، وعن خلاص عن علي رضي الله عنه في رجلٍ أمر عبده أن يقتل رجلاً - قال: إنما هو بمنزلة سوطه أو سيفه^(٢)، وفي رواية: إذا أمر الرجل عبده أن يقتل رجلاً، فإنما هو كسيفه أو كسوطه يقتل المولى ويحبس العبد^(٣).

جـ. المقتول في الزحام:

من قتل في الزحام ولم يعلم قاتله، فإن ديته على بيت مال المسلمين عند علي^(٤)، وعن يزيد بن مذكور الهمداني أن رجلاً قتل يوم الجمعة في المسجد في الزحام، فجعل علي رضي الله عنه ديته من بيت المال^(٥).

د. جناية السائق والقائد الراكب:

في المسألة روايتان عند علي: الرواية الأولى: سائق الدابة وقائدها وراكبها ضامنون إذا وطئت الدابة أو ضربت برجلها أحداً أو شيئاً عند علي رضي الله عنه لنسبة التقصير وعدم التحرز والتثبت إليهم^(٦)، فعن خلاص عن علي: أنه كان يضمن القائد والسائق والراكب^(٧)، والحجة في ذلك: أن الراكب مباشر للقتل؛ لأن الدابة كالألة في يده، أما السائق، والقائد فهما متسبيان، يضمنون لعدم تحرزهم من الوقوع في الجناية وعدم تثبتهم من السوق والقود والركوب بصورة تمنع وقوع الجناية^(٨)، والرواية الثانية: لا ضمان عليهم إذا ثبت عدم التقصير منهم عند علي رضي الله عنه؛ إذ روي عنه أنه قال: إذا قال: الطريق، فأسمع، فلا ضمان عليه^(٩)، وعن علي رضي الله عنه أنه قال: إذا كان الطريق واسعاً فلا ضمان عليه^(١٠)، والحجة أن وسع الطريق وتنبه المارة هو التحرز والتثبت، فإذا لم يبال المارة فهو تقصيرهم،

(١) «المغني» (٧/٧٥٧).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٩/٣٧١).

(٣) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٢/٨٣٦).

(٤) «فقه الإمام علي» (٢/٨٣٨).

(٥) «الخلافة الراشدة»، ليحيى اليعقوبي ص (٥٠٢).

(٦) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤١).

(٧) «مصنف ابن أبي شيبة» (٩/٢٥٩).

(٨) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤١).

(٩) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٢).

(١٠) «مصنف ابن أبي شيبة» (٩/٥٥٩).

فإن أصيبوا فقد جنوا على أنفسهم؛ فلا ضمان لهم، ولا منافاة بين الروایتين؛ لأن الأولى مع ثبوت التقصير، والثانية مع عدمه^(١)، وثبوت التقصير على المارة
هـ. ما أنشئت بتعدُّ فأحدثت تلفاً:

من حفر بئراً أو وضع شيئاً أو بناه في مكان لاحق له فيه فسببت تلف إنسان؛ كأن يقع في البئر، أو يعثر بما وضعه فيموت فهو ضامن عند علي^(٢)، فقد قال رضي الله عنه: من حفر بئراً أو عرض عوداً فأصاب إنساناً، فهو ضامن^(٣).

و. الخطأ في الشهادة:

الخطأ في الشهادة يوجب الضمان عند علي رضي الله عنه، فمن شهد على غيره خطأ في حد، أو قصاص، فأدى إلى تلف عضو أو نفس ضمن الدية عنده^(٤)، فقد روي عن علي رضي الله عنه من طرق متعددة أنه: شهد رجلان بسرقة على رجل، فقطع عليّ يده، ثم جاء الغد برجل فقالوا: أخطأنا بالأول، هو هذا الآخر، فأبطل شهادتهما على الآخر، وأغرهما دية الأول^(٥)، وفي رواية فقال: لو كتتما تعمدتاه لقطعتهما؛ فأبطل شهادتهما عن الآخر وأغرهما دية الأول^(٦)، والحجة في ذلك أنهما تسببا في الإتلاف، والتسبب موجب للضمان؛ كحافر البئر في الطريق^(٧).

ز. اشتراك جماعة في قتل بعضهم بعضاً خطأ:

إذا اشترك جماعة في قتل بعضهم بعضاً خطأ؛ توزعت المسؤولية الجنائية على جميعهم كل واحد بقدر فعله مطروحاً منه ما جناه الميت على نفسه^(٨)، فعن خلاص قال: استأجر رجل أربعة رجال ليحفروا له بئراً فحفروها، فانخسفت بهم البئر فمات أحدهم فرفع ذلك إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فضمن الثلاثة ثلاثة أرباع الدية وطرح عنهم ربع الدية^(٩).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» رقم (٨٤٠٠).

(١) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٢).

(٤) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٢/٨٤٣).

(٦) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٤٦١).

(٥) «مصنف ابن أبي شيبة» (٩/٤٠٩).

(٨) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٤).

(٧) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٤).

(٩) «المحلى» (١٠/٥٠٥)، و«فقه الإمام علي» (٢/٨٤٤).

ح. من استخدم صغيراً أو عبداً بغير إذن:

من استخدام صغيراً بغير إذن وليه أو عبداً بغير إذن مولاه في عمل، أو حملة على دابة فمات إثر ذلك، فهو ضامن عند علي رضي الله عنه، فعن الحكم قال: قال علي رضي الله عنه: من استعمل مملوك قوم صغيراً أو كبيراً فهو ضامن^(١)، وقال علي: من استعان صغيراً حراً. فهو ضامن، ومن استعان كبيراً لم يضمن^(٢).

ط. الفعل المعنوي:

الفعل المعنوي كالإخافة والترويع وما شابهها، إذا سبب قتل إنسان أو عطبه توجب المسؤولية الجنائية عند علي^(٣)، فعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ماذا عن رجل نادى صبيّاً على جدار أن استأخر فخر فمات؟ قال: يروون عن علي رضي الله عنه أنه قال: يغرمه، ويقول: أفزعه^(٤)، وإيجاب المسؤولية على الفعل المعنوي إجمالاً هو قول جمهور العلماء^(٥).

ي. جناية الطبيب:

إذا خالف الطبيب أو البيطري شروط المعالجة، فعطب الإنسان أو الحيوان فهو ضامن^(٦)، فعن الضحاك بن مزاحم قال: خطب علي رضي الله عنه الناس فقال: يا معشر الأطباء البياطرة والمطبيين من عالج منكم إنساناً أو دابة فليأخذ لنفسه البراءة، فإنه إن عالج شيئاً ولم يأخذ لنفسه البراءة فعطب فهو ضامن^(٧)، وعن مجاهد أن علياً قال في الطبيب: إن لم يُشهد على ما يعالج فلا يلومن إلا نفسه، يقول: يضمن^(٨).

ك. الميت من القصاص والحد:

إذا أقيم حد أو قصاص على مستحق فمات، فلا ضمان على المقتص عند

(٢٠١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٧٧/٩).

(٣) «فقه الإمام علي بن أبي طالب» (٨٤٦/٢).

(٥) «فقه الإمام علي» (٨٤٦/٢).

(٤) «كنز العمال» (٨٦/٤٠).

(٦) «فقه الإمام علي» (٨٤٧/٢).

(٨) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٠٤٦).

(٧) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٠٤٧).

علي رضي الله عنه (١)، فقد قال رضي الله عنه: من مات بقصاص بكتاب الله فلا دية له (٢)، وقال: من مات في حد فإنما قتله الحد، فلا عقل له؛ مات في حد من حدود الله (٣)، وقال أيضاً: إذا أقيم على الرجل الحد في الزنى، أو السرقة أو قذف، فمات فلا دية له (٤)، والحجة في ذلك: أن القصاص واجب والواجب غير مشروط بالسلامة فيه، فلا ضمان في أدائه إذا لم يحصل فيه تقصير أو إهمال (٥).

ل. قاطع طريق ألقى القبض عليه:

إذا لم يأخذ مالا ولم يقتل نفساً حبس حتى يتوب، وإذا أخذ مالا، ولم يقتل نفساً قطعت يده، ورجله من خلاف، وإذا قتل وأخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف ثم صلب حتى يموت، وإن تاب قبل أن يؤخذ ضمن الأموال واقتص منه ولم يحد (٦).

وقد تاب الحارث بن بدر قبل القدرة عليه، وكان قاطعاً للطريق، فقبل علي رضي الله عنه توبته وأسقط حد الحراية عنه؛ لأنه تاب قبل القدرة عليه (٧).

م. قاتل اعترف بالقتل لدفع التهمة عن متهم بريء:

أتي برجل إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من خربة بيده سكين ملطخة بدم وبين يديه قتيل يتشخط في دمه، فسأله، فقال: أنا قتلته، قال: اذهبوا به فاقتلوه، فلما ذهب به أقبل رجل مسرعاً: فقال: يا قوم لا تعجلوا ردوه إلى علي رضي الله عنه، فردوه، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين ما هذا صاحبه، أنا قتلته، فقال علي رضي الله عنه للأول: ما حملك على أن قلت: أنا قاتله، ولم تقتله؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما أستطيع أن أصنع، وقد وقف العسس على الرجل يتشخط في دمه، وأنا واقف بين يدي سكين، وفيها أثر الدم، وقد أخذت في الخربة، فخفت ألا يقبل

(٢) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٨).

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (٩/٣٤٢).

(١) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٧).

(٣) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٨).

(٥) «فقه الإمام علي» (٢/٨٤٨).

(٦) «المحلى» رقم (٢٥٢)، و«عصر الخلافة الراشدة» للعمري ص (١٥١).

(٧) «عصر الخلافة الراشدة» ص (١٥١).

مني، وأن يكون قسامة، فاعترفت بما لم أصنع، واحتسبت نفسي عند الله، فقال علي رضي الله عنه: بئس ما صنعت، فكيف كان حديثك؟ قال: إني رجل قصاب، خرجت إلى حانوتي في الغلس، فذبحت البقرة وسلختها، فبينما أنا أسلخها، والسكين في يدي أخذني البول، فأتيت خربة كانت بقربي، فدخلتها لقضاء حاجتي، وعدت أريد حانوتي، فإذا أنا بهذا المقتول يتشخط في دمه، فراعني أمره، ووقفت أنظر إليه، والسكين في يدي، فلم أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا عليّ، فأخذوني، فقال الناس: هذا قتل هذا، ما له من قاتل سواه، فأيقنت أنك لا تترك قولهم بقولي، فاعترفت بما لم أجنه فقال علي رضي الله عنه للمقر الثاني: فأنت كيف كانت قصتك؟ فقال: أغواني إبليس فقتلت الرجل طمعاً في ماله، ثم سمعت حس العسس فخرجت من الخربة، واستقبلت هذا القصاب على الحال التي وصفها، فاستترت منه ببعض الخربة، حتى أتى العسس فأخذه وأتوك به، فلما أمرت بقتله علمت أنني سأبوء بدمه أيضاً، فاعترفت بالحق، فقال علي رضي الله عنه للحسن: ما الحكم في هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن كان قد قتل نفساً فقد أحيأ نفساً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ (المائدة: ٣٢)، فخلى علي رضي الله عنه عنهما، وأخرج دية القتل من بيت المال^(١)، ولعله فعل ذلك بعد أن أسقط أولياء القتل حقهم بالقصاص^(٢).

ن - امرأة قتلت زوجها يوم زفافها بحضور صديقها:

حدث في عهد علي رضي الله عنه أن امرأة قتلت زوجها يوم زفافها بحضور صديقها، فكانت العقوبة القتل قصاصاً^(٣) من الجناة.

س - بدل الإبل في دفع الدية، وكيف تدفع الدية؟:

الإبل أصل في الدية ويجوز دفع بدلها إذا لم يتوافر الإبل عند علي رضي الله عنه، فعن

(١) «الطرق الحكيمة» ص (٥٦)، و«القضاء في الإسلام» ص (١٥٤).

(٢) «القضاء في الإسلام» ص (١٥٤).

(٣) «المغني» (٩/ ٣٦٢، ٣٧٦)، و«الطرق الحكيمة» ص (٥٠)، و«عصر الخلافة الراشدة» ص (١٥٣).

عامر عن علي رضي الله عنه وعبد الله وزيد قالوا: الدية مائة من بعير^(١)، وعن الحسن أن علياً قضى بالدية اثني عشر ألفاً^(٢)، أي درهم من الفضة، وأما كيفية دفع الدية، فدية الخطأ وشبه العمد على العاقلة تدفعها مقسطاً على ثلاث سنين عند علي^(٣)، والحجة في ذلك ما روي عن المغيرة ابن شعبة، قال: قضى رسول الله صلوات الله عليه وآله بالدية على العاقلة^(٤)، وأما تقسيطها؛ فلأنها كثيرة يصعب أداؤها حالاً فقسمت على ثلاث سنين بناء على التيسير الذي أمر به الإسلام^(٥).

ع. دية الكتابي:

دية الكتابي من اليهود والنصارى مثل دية المسلم^(٦)، فعن الحكم بن عتيبة أن علياً قال: دية اليهودي والنصراني وكل ذمي مثل دية المسلم^(٧).

ف. دية الصلب:

دية العمود الفقري دية كاملة عند علي رضي الله عنه إذا كسر وفقد صاحبه القوة على الجماع، فقد قال علي رضي الله عنه: إذا كسر الصلب ومنع الجماع؛ ففيه الدية^(٨).

ص. عين الأعور:

إذا فقأ إنسان عين الأعور فإن فيها الدية كاملة، أو يقتصر الأعور لنفسه فيفقأ عيناً للجانبي، ويأخذ نصف الدية عند علي رضي الله عنه نقل ذلك ابن قدامة^(٩)؛ لأن عين الأعور تعادل عيني البصير في منفعة البصر، لذلك فيها الدية كاملة^(١٠).

ق. دية الأصابع:

دية كل أصبع من الأصابع عشر دية النفس عند علي رضي الله عنه أي عشر من الإبل، فعن عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه قال: في الأصابع عشر الدية^(١١)، وفي رواية: في الأصابع عشر العشر^(١٢).

- | | |
|------------------------------------|-------------------------------------|
| (١) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٢٨/٩). | (٢) «الأم» (١٧٧/٧). |
| (٣) «فقه الإمام علي» (٨٥٣/٢). | (٤) «سنن ابن ماجه» رقم (٣٦٣٣). |
| (٥) «فقه الإمام علي» (٨٥٤/٢). | (٦) «فقه الإمام علي» (٨٥٥/٢). |
| (٧) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٨٤٩٤). | (٨) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٣١/٩). |
| (٩) «المغني» (٥/٨). | (١٠) «فقه الإمام علي» (٨٦٠/٢). |
| (١١) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٩٣/٩). | (١٢) «مصنف عبد الرزاق» رقم (١٧٦٩٣). |

رابعاً: في التعزير:

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يؤدب العاصي ويردعه عن معصيته بالتعزير إذا لم يترتب على معصيته حد، ولما كانت عقوبة التعزير على المعصية غير محددة؛ فإن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يذهب إلى الملاءمة بين العقوبة والمعصية، فكلما تعاظمت المعصية كانت العقوبة أعظم، ولقد تعددت وسائل التعزير عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حسب نوع المعصية وحال العاصي^(١)، ومنها على سبيل المثال:

١. الضرب باليد:

ومثال ذلك: لما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطوف بالبیت، وعلي رضي الله عنه يطوف معه؛ إذ عرض رجل لعمر فقال: يا أمير المؤمنين خذ حقي من علي بن أبي طالب، فقال: وما باله؟ قال: لطم عيني، فوقف عمر حتى لحق به علي رضي الله عنه فقال: ألطمت عين هذا يا أبا الحسن؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قال: ولم؟ قال: لأنني رأيتَه يتأمل حرم المؤمنين في الطواف، فقال عمر رضي الله عنه: أحسنت يا أبا الحسن^(٢).

٢. الجلد دون الحد:

وكان أكثر ما يعزر به، ومن ذلك جلده للنجاشي الشاعر الذي شرب الخمر، وأفطر في رمضان، فقال له: إنما جلدتك هذه العشرين لجرأتك على الله، وإفطارك في رمضان^(٣).

٣. التشهير:

لجأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى التشهير بالعاصي وتعريف الناس به، كما فعل بشاهد الزور، وفي ذلك مصلحة للمجتمع؛ لئلا يستشهد به فتضيع الحقوق، عن

(١) «منهج علي بن أبي طالب في الدعوة» ص (٣٢١).

(٢) «الرياض النضرة في مناقب العشرة» (١٦٥/٢).

(٣) «موسوعة فقه علي بن أبي طالب رضي الله عنه» لقلعجي ص (١٥٣).

علي بن الحسين قال: كان علي رضي الله عنه إذا أخذ شاهد زور بعثه إلى عشيرته، فقال: إن هذا شاهد زور فاعرفوه وعرفوه ثم خلى سبيله^(١)، وعن زيد بن علي رضي الله عنه عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أخذ شاهد الزور فعزره، وطاف به في حية وشهراً به، ونهى أن يستشهد به^(٢).

٤. الحبس:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يعاقب بالحبس أحياناً، ومن ذلك حبسه للنجاشي الشاعر، الذي شرب الخمر، وأفطر في رمضان^(٣).

٥. التقييد في الحبس:

كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقيد الدعار^(٤)، بالحبس بقيود لها أقفال، ويوكل بهم من يحلها لهم وقت الصلاة من أحد الجانبين^(٥).

٦. الغمس في الأقدار:

ووجد رجل تحت فراش امرأة، فأتي به علي رضي الله عنه، فقال رضي الله عنه: اذهبوا به فقلبوه ظهرًا لبطن في مكان منتن؛ فإنه كان في مكان شر منه^(٦).

٧. القتل:

قد يصل التعزير عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى القتل، إذا كانت الجريمة قد تعاضمت، وكان لها أثرها البالغ الأهمية؛ كوضع الأحاديث على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن هذا العمل يؤدي إلى إدخال شيء في الدين ما ليس منه، وانحراف الناس عن دينهم الذي ارتضى الله لهم^(٧)، لذا فقد كان يقول رضي الله عنه: من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم يضرب عنقه^(٨).

(٢) المصدر نفسه، ص (١٤٨).

(٤) جمع داعر، والدعارة هي الفسق والخبث.

(٦) المصدر نفسه، ص (١٥٤).

(١) «موسوعة فقه علي رضي الله عنه» ص (١٤٩).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦/١٠).

(٥) «موسوعة علي رضي الله عنه»، لقلعجي ص (١٥٦).

(٧) «منهج علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الدعوة إلى الله» ص (٣٢٤).

(٨) «موسوعة فقه علي رضي الله عنه» ص (١٥٤).

٨. إلتلاف أداة الجريمة وما يتبعها:

فقد ورد عن ربيعة بن زكار قال: نظر علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى قرية فقال: ما هذه القرية؟ قالوا: قرية تدعى زرارة^(١)، يلحم فيها ويبيع فيها الخمر، فأناها بالنيران فقال: أضرموها فيها؛ فإن الخبيث يأكل بعضه بعضاً، فاحترقت^(٢)، فقد أحرق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه القرية الخمر وما يتبعه من مواد وأدوات تستخدم لصناعته^(٣).

لقد أثر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في المؤسسة القضائية باجتهاداته في مجال القصاص والحدود والجنايات والتعزير، كما أنه رضي الله عنه ساهم في تطوير المدارس الفقهية الإسلامية باجتهاداته الدالة على سعة اطلاعه، وغزارة علمه وعمق فقهه وفهمه واستيعابه لمقاصد الشريعة الغراء.



(١) محلة بالكوفة سميت بزارة يزيد بن عمر من بني بكر.
 (٢) «كنز العمال» رقم (١٣٧٤٤)، و«الأموال» لأبي عبيد ص (١٠٣).
 (٣) «منهج علي في الدعوة إلى الله» ص (٣٢٥).

المبحث الرابع

حجية قول الصحابي والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

تحدث الأصوليون عن مذهب الصحابي وقالوا: بأنه من الأدلة المختلف فيها عند الكثير منهم، وحكى ابن القيم إجماع الأئمة الأربعة على الاحتجاج به^(١).

إن أصحاب النبي صلوات الله عليهم وخصوصاً ساداتهم تبوؤوا مكانة عالية في الفهم والإدراك كما قال عنهم ابن مسعود رضي الله عنه: فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلوات الله عليهم، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوا آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم^(٢)، والشاهد من كلامه قوله: «أعمقها علماً» فهم أعمق الأمة علماً، وأكثرهم فهماً وإدراكاً، ونسبة علم من بعدهم إلى علمهم كنسبة فضلهم إلى فضلهم^(٣)، وإذا كان هذا من الواضح بمكان بحيث لا يحتاج إلى حجة وبرهان، فإننا نشير إلى بيان الأسباب التي بوأهم الله بها هذه المكانة وهي:

١- تلقيهم المباشر من النبي صلوات الله عليهم:

وهذا له أثره في الفهم من عدة نواح:

أ - صفاء المورد؛ إذ بتلقيهم من النبي صلوات الله عليهم يتلقون الوحي غضاً كما أنزل، ويسمعون كلام النبي صلوات الله عليهم منه مباشرة، فليس علمهم مشوباً بما يكدره، بل هو محض الكتاب والسنة لم يختلط به آراء الرجال، ولا غيره من العلوم التي فتح بابها من بعد على المسلمين كعلوم الفلسفة وغيرها.

ب - دقة الفهم؛ حيث إن معلمهم رسول الله صلوات الله عليهم أفصح الناس لساناً، وأبلغهم بياناً، وأقدرهم تفهيماً، فكيف إذا صادف ذلك آذاناً صاغية، وقلوباً واعية، وسليقة مواتية، تنشد الحق، وتتلهف لسماعه، ولاشك أن ذلك يجعلهم

(١) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٢٠).

(٢) «شرح السنة» للبعوي (١/ ٢١٤، ٢١٥).

(٣) «إعلام الموقعين» (٤/ ١٤٧).

يفهمون ما يلقي إليهم فهماً دقيقاً مطابقاً لمراد الله ورسوله ﷺ ، وهذا الأمر في غاية الوضوح؛ إذ الناس في حياتهم وطلبة العلم في طلبهم يبحثون إبان تلقيهم عن أفضل العلماء علماً وأحسنهم تصويراً للمسائل ، وأقدرهم تفهيماً وكم من تلميذ سطع نجمه ، وعلا كعبه في العلم بفضل الله ، ثم بفضل حسن تعليم معلمه ، ونحن نعلم أن أحداً لن يبلغ معشار ما بلغ إليه النبي ﷺ في حسن التعليم ، ولا أقل من ذلك وبهذا شهد معاوية بن الحكم رضي الله عنه في حسن التعليم ، حيث قال : فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه (١) .

ج - ما يحصل لهم من يقين بما سمعوا وفهموا ، فعلمهم يقينية ، وعلوم من بعدهم يداخلها الظن في كثير من أحوالها .

د - ما يحصل لهم من اطلاع على أسباب النزول ، وأسباب ورود الأحاديث ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، مما يعينهم على فهم المراد ، وإدراك المقاصد .

هـ - ما يحصل لهم من مشاهدة أفعال النبي ﷺ التي تفسر أقواله ، وتشرحها ، وتبين آيات القرآن وتوضحها ، ويوقف بها على المراد .

و - إمكانية السؤال عما أشكل عليهم والحصول على الجواب .

٢ - سليقتهم العربية : فهم يفهمون آيات القرآن ، وأحاديث النبي ﷺ بسليقتهم ويعرفون وجوه دلالتها على معانيها ، فلا يحتاجون إلى ما يحتاج إليه من بعدهم من دراسة قواعد اللغة وقواعد الأصول .

٣- إخلاصهم لله وتقواهم ، فببركة إخلاصهم نالوا العلوم الكثيرة النافعة ، في أوقات قليلة كما قال تبارك وتعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٢) .

فإذا تقرر هذا فكل هذه الأسباب شكلت فقهاً قوياً متماسكاً لدى أصحاب النبي ﷺ ، قال ابن القيم - بعد أن ذكر مدارك اختصاصها بها؛ كسماعهم من النبي ﷺ وسماعهم من بعضهم ، وعلمهم بالعربية على أكمل الوجوه (٢) ،

(٢) «مقاصد الشريعة» لليوبي ص (٦٠٠) .

(١) «مسلم» ، كتاب المساجد رقم (٣٣) .

قال-: أما المدارك التي شاركناهم فيها من دلالات الألفاظ والأقيسة، فلا ريب أنهم كانوا أبر قلوباً وأعمق علماً، وأقل تكلفاً وأقرب إلى أن يوفقوا فيها لما لم نوفق له نحن؛ لما خصهم الله تعالى به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة المعارض أو عدمه، وحسن المقصد وتقوى الرب تعالى فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النظر في الإسناد وأحوال الرواة وعلل الحديث والجرح والتعديل، ولا إلى النظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين، بل غنوا في ذلك كله فليس في حقهم إلا أمران: أحدهما: قال الله تعالى كذا، وقال رسوله كذا. والثاني: معناه كذا وكذا.

وهم أسعد الناس بهاتين المقدمتين، وأحظى الأمة بهما، فقواهم متوفرة مجتمعة عليهما، وأما المتأخرون فقواهم متفرقة وهمهم متشعبة، فالعربية وتوابعها قد أخذت من قوى أذهانهم شعبة، والأصول وقواعدها قد أخذت منها شعبة، وعلم الإسناد وأحوال الرواة قد أخذ منها شعبة، وفكرهم في كلام مصنفهم وشيوخهم على اختلافهم وما أرادوا به قد أخذ منها شعبة، إلى غير ذلك من الأمور، فإذا وصلوا إليها بقلوب وأذهان قد كلت من السير في غيرها، وأوهن قواهم مواصلة السير في سواها فأدركوا من النصوص ومعانيها بحسب القوة^(١)، وبما تقدم يتقرر أن أصحاب النبي صلوات الله عليه أدق فهماً وعلماً بما هيباً الله لهم من الأسباب المعينة على الفهم والعلم؛ فبناء على ذلك فهم أعلم بمقاصد الشريعة ومراميتها من غيرهم؛ ولأن من أهم الطرق المحصلة لمقاصد الشريعة: العلم بالكتاب والسنة وطرق الاستنباط منها، وهذا متوفر لدى الصحابة بلا شك على أكمل الوجوه وأحسنها^(٢). قال الشاطبي: السلف أعلم الناس بمقاصد القرآن^(٣)، وقال عن الصحابة: هم القدوة في فهم الشريعة والجري على مقاصدها^(٤).

(٢) «مقاصد الشريعة الإسلامية» لليوبي ص (٦٠١).

(٤) المصدر نفسه (٤/١٣٠).

(١) «إعلام الموقعين» (٤/١٤٩).

(٣) «الموافقات» (٣/٤٠٩).

هذا وقد تنوعت مذاهب العلماء في حجية قول الصحابي، وانقسمت إلى خمسة أقوال مشهورة، وقبل أن نذكر أقوال المذاهب نحرر محل النزاع فنقول:

١- اتفق الكل على أن قول الصحابي في مسائل الاجتهاد لا يكون حجة على غيره من الصحابة إماماً كان أو حاكماً أو مفتياً.

٢- إذا قال الصحابي قولاً ووافقه الباقر فليس داخلياً في محل النزاع؛ لكونه إجماعاً حينئذ.

٣- إذا قال قولاً وانتشر ولم يخالف أحداً، فهذا له حكم الإجماع السكوتي.

٤- اتفقوا على أن قول الصحابي ليس بحجة إذا خالفه صحابي آخر.

٥- اتفقوا على أن قول الصحابي إذا رجع إلى الكتاب أو السنة أو الإجماع؛ فإن الحجة حينئذ فيما رجع إليه.

٦- اتفقوا على أن قول الصحابي إذا رجع عنه فليس بحجة، ومحل الخلاف إذا قال الصحابي قولاً في مسألة اجتهادية تكليفية ولم يظهر له مخالف ولا موافق، ولا ندري انتشر أم لا؟ خالف أحداً أم لا؟^(١).

واختلف العلماء في ذلك على أقوال:

القول الأول: إنه حجة، وهو قول مالك والشافعي في القديم، وأحمد في رواية عنه، وعليه أكثر الأصوليين والفقهاء من الحنفية وابن عقيل من الحنابلة والعلائي^(٢)، والخطيب البغدادي من الشافعية، واختاره ابن القيم في «إعلام الموقعين» والشاطبي في «الموافقات» وابن تيمية^(٣).

القول الثاني: إنه ليس بحجة، وهو قول الشافعي في أحد قوليه اختاره الأمدى والرازي والغزالي وأحمد في رواية^(٤).

(١) «مقاصد الشريعة الإسلامية» ص (٥٩٦، ٥٩٧).

(٢) «حقيقة البدعة وأحكامها» (١/٣٢٠).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٥/٤١٣)، و«إعلام الموقعين» (٤/١٢٠).

(٤) «مقاصد الشريعة الإسلامية» ص (٥٩٧).

القول الثالث: إنه حجة إن كان مما لا مجال للرأي فيه فقط، وهو قول جماعة من الأحناف^(١).

القول الرابع: قول أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حجة دون غيرهما^(٢).

القول الخامس: قول الخلفاء الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم حجة دون غيرهم^(٣).

والراجح والله أعلم هو القول الأول وأدلة الترجيح في ذلك:

أولاً: من كتاب الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ١٠٠).

روى الحافظ ابن جرير في تفسيره لهذه الآية بسنده عن محمد بن كعب القرظي قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه برجل يقرأ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ حتى بلغ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قال: وأخذ عمر بيده فقال: من أقرأك هذا؟ قال أبي بن كعب، قال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر رضي الله عنه: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا؟ قال: نعم. قال: أنت سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم. قال: لقد كنت أظن أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، فقال أبي: تصديق هذه الآية من أول سورة الجمعة ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة: ٣)، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ (الحشر: ١٠) وفي الأنفال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٥)، وسبب سؤال عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ هذه الآية برفع الأنصار وبعدم إلحاق الواو

(١) «حقيقة البدعة وأحكامها» (١/٣٢١).

(٢) «الإحكام» للآمدني (٤/١٣٠)، و«حجية قول الصحابي» ص (٤٠).

(٣) «حجية قول الصحابي» ص (٤٠).

في الذين كما أورد ذلك ابن جرير^(١)، ثم لما تبين له من أبي بن كعب رضي الله عنه الخفض وإلحاق الواو قال: لقد كنت أظن أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا، يقصد المهاجرين وهذا القول منه رضي الله عنه يؤيد ما ذهب إليه أصحاب القول الأول القائلين بحجية أقوال الصحابة من غير تخصيص لبعضهم، إذا اشترك الجميع في وصف الثناء عليهم بكونهم سبقوا في كل علم وفضل وجهاد وعمل، وهذه الآية احتج بها ابن القيم وجعلها من الأدلة الدالة على وجوب اتباع الصحابة^(٢)، وحكى احتجاج الإمام مالك - رحمه الله - بها في هذا المعنى^(٣)، وذكر أن الآية تتضمن مدح الصحابة والثناء عليهم واستحقاقهم أن يكونوا أئمة متبوعين يقتدى بهم، وتؤخذ أقوالهم، وأنها اقتضت المدح لمن اتبعهم كلهم، أو اتبع كل واحد منهم ما لم يخالف نصاً^(٤)، ومن الأدلة: قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، روى ابن جرير بسنده عند تفسيره لهذه الآية عن الضحاك، قال: هم أصحاب رسول الله صلوات الله عليهم خاصة^(٥)، قال ابن جرير بعد إيراده لهذا الأثر مبيئاً معناه: يعني وكانوا هم الرواة الدعاة الذين أمر الله المسلمين بطاعتهم^(٦)، واستشهد بالآية الشاطبي حين قرر أن: سنة الصحابة رضي الله عنهم سنة يعمل عليها ويرجع إليها^(٧)، فقال: في الآية إثبات الأفضلية على سائر الأمم، وذلك يقتضي باستقامتهم في كل حال وجريان أحوالهم على الموافقة دون المخالفة^(٨)، وقد أفاض الإمام ابن القيم الجوزية في الاستدلال على حجية قول الصحابة بالآيات الكريمة ووجه استدلاله فأجاد وأفاد^(٩).

ثانياً: أما الأدلة من السنة فهي كثيرة منها:

قوله صلوات الله عليهم: «خير الناس القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني ثم الثالث»^(١٠)،

(١) «تفسير الطبري» (٤٣٨/١٤).

(٢) «إعلام الموقعين» (٣، ٤) (١٢٣/٤).

(٣) «تفسير الطبري» (٦، ٥) (١٠٢/٧).

(٤) «إعلام الموقعين» (٨، ٧) (٧٤/٤).

(٥) «إعلام الموقعين» (٩) (١٣٥ - ١٢٣/٤).

(٦) «تفسير الطبري» (٤٣٨/١٤).

(٧) «إعلام الموقعين» (٤/١٢٣ - ١٢٩).

(٨) «الموافقات» (٧٤/٤).

(٩) «مسلم» (١٩٦٥/٢).

فإخباره عليه السلام بذلك يقتضي تقديمهم في كل باب من أبواب الخير، ولا سيما في ظفرهم بالصواب^(١)، فهم أفضل من غيرهم في كل فضيلة، من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنهم أولى بالبيان لكل مشكل، هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم من الدين بالضرورة من دين الإسلام^(٢)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من نبي بعثه الله عز وجل إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره»^(٣)، وقد استشهد البيهقي بهذا الحديث على أفضليتهم ومنزلتهم^(٤) العالية في كل علم وعمل وقصد^(٥).

ثالثاً: الأدلة من الآثار منها:

ما روي عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال: يا معشر القراء خذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم بعيداً، ولئن تركتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً^(٦)، وروى الخطيب بسنده عن عامر الشعبي أنه قال: ما حدثوك عن أصحاب محمد عليه السلام فخذ^(٧).

رابعاً: من أقوال الأئمة والعلماء في حجية قول الصحابي:

١- قول الشافعي: ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر عن سماعهما مقطوع، إلا باتباعهما، فإذا لم يكن ذلك صرنا إلى أقاويل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو واحد منهم^(٨)، وقال أيضاً: لا يكون لك أن تقول إلا عن أصل، أو قياس على أصل، والأصل كتاب أو سنة، أو قول بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إجماع الناس^(٩).

٢- وقال أحمد: لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به، ثم التابعين بعد، الرجل فيه مخير^(١٠).

(١) «إعلام الموقعين» (٤/١٣٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٤/١٥٨).

(٣) «الاعتقاد» للبيهقي (ص ٣١٩).

(٤) «حلية الأولياء» (١٠/٢٨٠)، و«البدع» لابن وضاح (ص ١٠).

(٥) «حقيقة البدعة وأحكامها» (١/٣٢٩).

(٦) «مناقب الشافعي» (ص ٣٦٧).

(٣) «مسلم» كتاب الإيمان (١/٦٩).

(٥) «حقيقة البدعة وأحكامها» (١/٣٢٨).

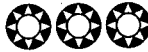
(٨) «الأم» للشافعي (٧/٢٦٥).

(١٠) «مسائل الإمام أحمد» لأبي داود (ص ٢٧٦).

٣- وقول الإمام مالك : ومذهبه في ترجيح عمل أهل المدينة مشهور ومعلوم، بيد أنه قد ذهب إلى أبعد من ذلك، حين اعتبر قول الصحابة، ولاسيما ولاية الأمر بعده محل احتجاج^(١).

٤- قال ابن تيمية : ومن قال من العلماء : إن قول الصحابي حجة، فإنما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة، ولا عرف نصاً يخالفه، ثم إذا اشتهر ولم ينكروه، كان إقراراً على القول، فقد يقال : هذا إجماع إقراري إذا عرف أنهم أقروه، ولم ينكروه أحد منهم وهم لا يقرون على باطل^(٢)، أما إذا لم يشتهر فهذا إن عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق^(٣).

٥ - قال الشاطبي : عند شرحه لقول النبي ﷺ : «ما أنا عليه وأصحابي»^(٤)، فكأنه راجع إلى ما قالوه وما سنوه، وما اجتهدوا فيه حجة على الإطلاق، وبشهادة رسول الله ﷺ لهم بذلك خصوصاً - إلى أن قال - فإذا كل ما سنوه فهو سنة، من غير نظر فيه بخلاف غيرهم^(٥)، وقال في الموافقات : سنة الصحابة ﷺ سنة يعمل عليها ويرجع إليها^(٦).



(١) «إعلام الموقعين» (١٢٣/٤)، و«ترتيب المدارك» (١/٦٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/٢٨٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١/٢٨٣).

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١/١٢، ٢٥، ٣/٤٨٠).

(٥) «الاعتصام» (٢/٢٦٣).

(٦) «الموافقات» (٤/٧٤).

الفصل الخامس

مؤسسة الولاية في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه

المبحث الأول

أقاليم الدولة

أولاً: مكة المكرمة:

توفي عثمان رضي الله عنه وعلى مكة خالد بن سعيد بن العاص، فأصدر علي رضي الله عنه قراراً بعزله وعين أبا قتادة الأنصاري والياً على مكة^(١)، ويبدو أن فترة ولايته كانت قصيرة؛ إذ أن علياً رضي الله عنه عندما أراد الخروج من المدينة إلى العراق بعث قثم بن العباس^(٢)، والياً على مكة، وعزل أبا قتادة الأنصاري^(٣)، وبهذا فإن ولاية أبي قتادة استمرت قرابة الشهرين، ولم ترد عنها أخبار تذكر، ومعظم المصادر التي تحدثت عن ولاية قثم بن العباس على مكة ذكرت أن علياً ولاه على مكة والطائف وأعمالها في وقت واحد^(٤)، ولم تنقل الأخبار عن مكة في عهد خلافة علي رضي الله عنه سوى ما يتعلق بموسم الحج ومن كان والياً عليه، فعلي بن أبي طالب لم يرد أنه شهد الحج أثناء خلافته بسبب انشغاله بالفتن التي قامت في أنحاء الدولة الإسلامية، حيث لم تستقر الأوضاع فيها، وكان خلال موسم الحج يبعث من يقود الحجيج، ويبدو أن قثم بن العباس أقام الحج بالناس سنة ٣٧هـ فقط، بينما بعث علي رضي الله عنه على الحج عبد الله بن العباس سنة ٣٦هـ وعبيد الله ابن العباس، سنة ٣٨هـ^(٥)، مع وجود اختلاف بين المصادر في سنة حج كل منهم، وأما سنة ٣٩هـ فقد بعث معاوية أحد قواد الشام مع حجاج الشام، وأمره أن يقيم الحج بالناس، فلما وصل إلى مكة تنازع مع قثم بن العباس، وكاد أن

(١) «الولاية على البلدان» (٣/٢)، و«تاريخ ابن خياط» (ص ٢٠١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/٤٤٠). (٣) «تاريخ يعقوبي» (١٧٩/٢).

(٤) «الكامل في التاريخ» (٣/٣٩٨)، و«الولاية على البلدان» (٤/٢).

(٥) «تاريخ خليفة» (ص ١٩١، ١٩٢، ١٩٨)، و«الولاية على البلدان» (٤/٢).

يقع بينهما قتال لولا أن عمل بعض الصحابة بينهما بالصلح على أن يقيم الحج بالناس أحد بني شيبه، وانتهى الحج بسلام ولم يقع قتال^(١)، وقد استمر قثم بن العباس في ولايته على مكة إلى أن قدم جيش معاوية بقيادة بسر بن أرطأة فخرج منها قثم هارباً خائفاً على نفسه، وبذلك انتهت ولاية قثم، وخرجت مكة من ولاية علي بن أبي طالب، وقد بعث علي بعض أجناده لاستعادة مكة إلا أن استشهاد علي رضي الله عنه حال دون إتمام المهمة^(٢).

ثانياً: المدينة النبوية:

كانت المدينة المنورة طيلة عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الثلاثة من بعده عاصمة الدولة الإسلامية، ويقام فيها الخليفة، ويتولى شؤونها بنفسه أثناء وجوده، أما في حالة السفر فإنه ينيب عليها من يتولى شؤونها، وقد اختلف الوضع بعد مبايعة علي رضي الله عنه بالخلافة؛ إذ دعت له الحالة العامة والارتباك الذي حدث بعد مقتل عثمان إلى مغادرة المدينة المنورة خصوصاً بعد خروج طلحة والزبير وعائشة باتجاه العراق قبل موقعة الجمل^(٣)، وقد استخلف علي المدينة سهل بن حنيف الأنصاري كما تقول بعض الروايات^(٤)، ولا نعلم المدة التي بقي فيها ابن حنيف والياً على المدينة، والذي يبدو أن ولايته قد استمرت أكثر من سنة، فقد ورد أنه كان على المدينة سنة ٣٧هـ^(٥) ثم وليّ عليّ تمام بن العباس على المدينة بعد أن عزل سهل بن حنيف، وقد ولي علي بن أبي طالب على المدينة بعد ذلك أبا أيوب الأنصاري الذي استمر والياً عليها إلى سنة ٤٠هـ، حيث قدم المدينة جيش من الشام من قبل معاوية بقيادة بسر بن أرطأة^(٦)، ففر أبو أيوب من المدينة، وتوجه إلى علي في الكوفة^(٧)، وبذلك خرجت المدينة من

(١) «الولاية على البلدان» (٤/٢)، و«تاريخ الطبري» (٧٩/٦).

(٢) «تاريخ الطبري» (٨٠/٦)، و«الولاية على البلدان» (٥/٢).

(٣) «تاريخ خليفة بن خياط» ص (٨)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢).

(٤) «تاريخ ابن خياط» (ص ١٨١، ٢٠١)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢).

(٥) «تاريخ الطبري» (٥٣/٦)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٤٠٩/٣)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢).

(٧) «تاريخ الطبري» (٨٠/٦)، و«الكامل» (٣٧٣/٣).

حكم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ودخلت في حكم معاوية، وهكذا تحولت المدينة في عهد علي من قاعدة للخلافة إلى ولاية من الولايات، وأخذت الأحداث السياسية تدور بعيداً عنها؛ لذلك نجد المصادر التاريخية تكاد تهملها خلال تلك الفترة إلى أن استطاع جيش معاوية الاستيلاء عليها^(١).

ثالثاً: ولاية البحرين وعمان:

كانت البحرين حين توفي عثمان رضي الله عنه تابعة لإمارة البصرة، وكان ابن عامر يولي عليها من عماله، وفي عهد علي رضي الله عنه عين علي ولاية البحرين مجموعة من الأمراء كان من أهمهم عمر بن أبي سلمة^(٢) الذي خرج مع علي من المدينة أثناء سفره إلى العراق، ثم بعثه علي والياً على البحرين^(٣) لفترة من الوقت ثم استدعاه علي لمصاحبته في العراق بعد ذلك، كما كان من عمال علي في البحرين قدامة بن العجلان الأنصاري^(٤)، والنعمان بن العجلان الأنصاري^(٥)، وكذلك ذكر من ولاته على البحرين عبيد الله بن العباس^(٦)، ويلاحظ أن عبيد الله بن العباس كان والي اليمن، فلعل البحرين ونجد كانتا تابعتين له في تلك الفترة، وهذا يوحي به تعبير الطبراني، كما أن تعبير خليفة ابن خياط يوحي بعدم معرفته لترتيب معين لهؤلاء الولاة^(٧)، وقد أوردت المصادر أسماء بعض العمال الذين وجههم علي إلى عمان، أحدهم والي، والآخر قائد جند؛ لإخماد أحد الثورات التي قامت ضد علي في عمان^(٨)، وكذلك كان هنالك عامل على اليمامة^(٩)، ولعله خاضع لإشراف والي البحرين^(١٠).

رابعاً: ولاية اليمن:

لما استشهد عثمان وبويع علي بالخلافة ولى علي اليمن عبيد الله ابن

(٢) «تهذيب التهذيب» (٤٥٦/٧).

(٣) «الولاية على البلدان» (٥/٢).

(٦) «تاريخ الطبري» (٩٠/٦).

١ «الولاية على البلدان» (٣/٢).

(٢) «الكامل» (٢٢٢/٣)، و«الولاية على البلدان» (٥/٢).

(٥) «الإصابة» (٥٦٢/٣)، و«الولاية على البلدان» (٥/٢).

(٧) «الولاية على البلدان» (٦/٢).

(٨-١٠) «تاريخ يعقوبي» (٩٥/٢)، و«الولاية على البلدان» (٦/٢).

العباس رضي الله عنه^(١)، وقد خرج ولاية عثمان من اليمن قبل وصول عبيد الله بن العباس إليها، واشترك بعضهم في جيش الجمل مع طلحة والزبير وكان لهم دور في تجهيز الجيش^(٢)، وقد كان عبيد الله ابن العباس على صنعاء وأعمالها كما كان معه في الولاية سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري^(٣)، على الجند^(٤)، وكان مقتل عثمان له أثر بالغ على المسلمين في اليمن وأحس القوم بالامتعاض والتبرم من هذا الجرم، وبقي بعض اليمنيين لم يبايع ويرغب في قتل قتلة عثمان رضي الله عنه، ولم تأخر هذا راسلوا معاوية بعد التحكيم، فأرسل بسر بن أبي أرطاة، فاستطاع أن يستولي على اليمن بفضل مساعدتهم، ولكن لفترة وجيزة^(٥)؛ حيث استطاع علي استرجاعها من جيش معاوية، فأعاد عبيد الله بن العباس إلى ولايتها مرة أخرى، واستمر والياً عليها إلى أن استشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٦).

وقد روي أن بسراً قتل ابنين لعبيد الله بن عباس وبعض أنصار علي هناك، ثم رجع إلى الشام، وكان أمير المؤمنين قد وجه جارية بن قدامة السعدي، قيل: ففعل مثلما فعل بسر وقتل بعض محبي عثمان في اليمن^(٧)، قال ابن كثير: وهذا الخبر مشهور عند أهل السير وفي صحته عندي نظر^(٨)، ولاشك أن قتل الأبرياء لم يحصل في تلك المرحلة حتى في أيام البصرة وصفين عندما قامت الحرب بين الطرفين، فكيف يقتل الأطفال والأبرياء في مرحلة الهدنة؟ لذلك لا يمكن قبول هذه الأعراف المناقضة لأعراف المسلمين وقيمهم ودينهم^(٩).

خامساً: ولاية الشام:

كان معاوية رضي الله عنه والياً على الشام في عهدي عمر وعثمان رضي الله عنهما، ولما تولى

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٦).

(٢) «مروج الذهب» للمسعودي (٣٥٧/٢)، و«الولاية على البلدان» (٦/٢).

(٣) «الاستبصار» لابن قدامة المقدسي ص (٩٩)، و«الولاية على البلدان» (٦/٢).

(٤) «الولاية على البلدان» (٦/٢).

(٥) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي ص (١٠٩).

(٦) «تاريخ الطبري» (٦/٨٠، ٨١)، و«الولاية على البلدان» (٧/٢).

(٧) «تاريخ الطبري» (٦/٥٥). (٨) «البداية والنهاية» (٧/٣٣٤).

(٩) «الإنصاف» د. حامد (ص ٥٧٥).

علي الخلافة أراد عزله وتولية عبد الله بن عمر فأبى عليه عبد الله بن عمر قبول ولاية الشام واعتذر في ذلك، وذكر له القرابة والمصاهرة التي بينهما^(١)، ولم يلزمه أمير المؤمنين علي وقبل منه طلبه بعدم الذهاب إلى الشام، وأما الروايات التي تزعم أن علياً قام بالتهجم على عبد الله بن عمر رضي الله عنه؛ لاعتزاله وعدم وقوفه إلى جانبه، ففي ذلك الخبر تحريف وكذب^(٢)، وأقصى ما وصل إليه الأمر في قضية عبد الله بن عمر وولاية الشام ما رواه الذهبي من طريق سفيان بن عيينة: عن عمر بن نافع عن أبيه عن ابن عمر قال: بعث إليّ علي قال: يا أبا عبد الرحمن إنك رجل مطاع في أهل الشام، فسر فقد أمرتكم عليهم، فقلت: أذكرك الله وقرابتي من رسول الله صلّى الله عليه وآله، وصحبتني إياه، إلا ما أعفيتني؛ فأبى علي، فاستعنت بحفصة فأبى، فخرجت ليلاً إلى مكة^(٣)، وهذا دليل قاطع على مبايعة ابن عمر، ودخوله في الطاعة؛ إذ كيف يوليه علي وهو لم يبايع، وفي الاستيعاب لابن عبد البر من طريق أبي بكر بن أبي الجهم عن ابن عمر أنه قال حين احتضر: ما آسى على شيء إلا تركي قتال الفئة الباغية مع علي رضي الله عنه^(٤)، وهذا مما يدل أيضاً على مبايعة لعلي، وإنه إنما ندم على عدم خروجه مع علي للقتال، فإنه كان ممن اعتزل الفتنة، فلم يقاتل مع أحد، ولو كان قد ترك البيعة لكان ندمه على ذلك أكبر وأعظم ولصرح به، فإن لزوم البيعة والدخول فيها داخل الناس، فيه واجب، والتخلف عنه متوعد عليه برواية ابن عمر نفسه أن النبي قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(٥)، وهذا بخلاف الخروج للقتال مع علي، فإنه مختلف فيه بين الصحابة وقد اعتزله بعض الصحابة، فكيف يتصور أن يندم ابن عمر على ترك هذا القتال، ولا يندم على ترك البيعة لو كان تاركاً لها، مع ما فيه من الوعيد الشديد، وبهذا يظهر بطلان

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (٤٧٢/٧)، وإسناده صحيح.

(٢) «ستشهاد عثمان ووقعة الجمل»، لخالد الغيث (ص ١٦٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/٢٢٤) رجاله ثقات.

(٤) «الاستيعاب» (٦/٣٢٦) بحاشية كتاب «الإصابة».

(٥) «مسلم»، كتاب الإمارة رقم (١٨٥١).

قول بعض المؤرخين في زعمهم من ترك ابن عمر البيعة لعلي رضي الله عنه حيث ثبت أنه كان من المبايعين له بل المقرين منه، الذين كان يحرص على توليتهم، والاستعانة بهم؛ لما رأى فيه من صدق الولاء والنصح له^(١).

وبعد اعتذار ابن عمر من قبول ولاية الشام، أرسل أمير المؤمنين علي سهل ابن حنيف بدلاً منه، إلا أنه ما كاد يصل مشارف الشام حتى أخذته خيل معاوية وقالوا له: إن كان بعثك عثمان فحيهلاً بك وإن كان بعثك غيره فارجع^(٢)، وكانت بلاد الشام تغلي غضباً على مقتل عثمان ظلماً وعدواناً، فقد وصلهم قميصه مخضباً بدمائه، بأصابع نائلة زوجه التي قطعت أصابعها وهي تدافع عنه، وكانت قصة استشهاده أليمة فظيعة اهتزت لها المشاعر، وتأثرت بها القلوب، وذرفت منها الدموع، كما وصلتهم أخبار المدينة وسيطرة الغوغاء عليها، وهروب بني أمية إلى مكة، كل هذه الأمور وغيرها من الأحداث والعوامل كان لها تأثير على أهل الشام وعلى رأسهم معاوية رضي الله عنه، فقد كان يرى أن عليه مسؤولية الانتصار لعثمان، والقوّد من قاتليه فهو ولي دمه، والله عز وجل يقول: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ (الإسراء: ٣٣)، لذلك جمع معاوية الناس، وخطبهم بشأن عثمان وأنه قتل ظلماً وعدواناً على يد سفهاء منافقين، لم يقدروا الدم الحرام؛ إذ سفكوه في الشهر الحرام في البلد الحرام، فثار الناس، واستكروا وعلت الأصوات وكان منهم عدد من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله، فقام أحدهم واسمه مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله صلّى الله عليه وآله ما تكلمت: . . . وذكر الفتن فقربها، فمر رجل متقنع في ثوب، فقال: «هذا يومئذ على الهدى»، فقامت إليه، فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت: هذا؟ قال: «نعم»^(٣).

(١) «الانتصار للصحب والآل» (ص ٥٠٧).

(٢) «تهذيب تاريخ دمشق» (٣٩/٤)، و«الخلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي (ص ١١٠).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٤/١).

وهناك حديث آخر له تأثيره في طلب معاوية القود من قتلة عثمان ومنشطاً ودافعاً قوياً للتصميم على تحقيق الهدف، وهو عن النعمان بن بشير عن عائشة رضي الله عنها قالت: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن عفان، فجاء فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه فقال: «يا عثمان إن الله عسى أن يلبسك قميصاً، فإن أراذك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني» ثلاث مرات، فقلت لها: يا أم المؤمنين فأين كان هذا عنك؟ قالت: نسيت والله ما ذكرته قال: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان، فلم يرضَ بالذي أخبرته حتى كتب إلي أم المؤمنين أن اكتبني إليه، فكتبت إليه به كتاباً^(١).

كان الحرص الشديد على تنفيذ حكم الله في القتلة السبب الرئيسي، في رفض أهل الشام بزعامة معاوية بن أبي سفيان بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة، وليست لأطماع معاوية في ولاية الشام، أو طلبه ما ليس له بحق إذ كان يدرك إدراكاً تاماً أن هذه الأمر في بقية الستة من أهل الشورى وأن علياً أفضل منه وأولى بالأمر^(٢)، ودليل ذلك ما أخرجه يحيى بن سليمان الجعفي بسند جيد، عن أبي مسلم الخولاني أنه قال لمعاوية: أنت تنازع علياً، أم أنت مثله؟ فقال: لا والله إنني لأعلم أنه أفضل مني، وأحق بالأمر مني، ولكن أستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوماً؟! وأنا ابن عمه، والطالب بدمه، فأتوه، فقولوا له: فليدفع إلي قتلة عثمان، وأسلم له، فأتوا علياً، فكلموه، فلم يدفعهم إليه^(٣)، وفي رواية: فأتوه فكلموه فقال: يدخل في البيعة ويحاكمهم إلي، فامتنع معاوية^(٤)، وأما الروايات التي تصور معاوية في خروجه عن طاعة علي بسبب أطماع ذاتية وأطماع دنيوية، وبسبب العداوة والتنافس الجاهلي القديم بين بني هاشم وبني أمية وغير ذلك من القذف والافتراءات والظعن على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما اعتمد عليها الكتاب المعاصرين - كالعقاد في عبقرية علي، وعبد العزيز الدوري في مقدمة في

(١) «مسند أحمد»، باقي مستند الأنصار رقم (٤٥٠٠٤٥). حديث صحيح.

(٢) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي (ص ١١٢).

(٣) «فتح الباري» (٩٢/١٣)، و«البداية والنهاية» (١٢٩/٨).

(٤) «فتح الباري» (٩٢/١٣)، و«استشهاد عثمان» (ص ١٦٠).

تاريخ صدر الإسلام - وبنوا عليها تحليلاتهم الباطلة، فهي روايات متروكة مطعون في روايتها عدلاً وضبطاً^(١).

وقد استمرت ولاية الشام تابعة لنفوذ معاوية بن أبي سفيان طيلة خلافة علي رضي الله عنه، ولم يتمكن علي من السيطرة عليها أو تعيين العمال والأمراء فيها، وقد وقعت إلى الشرق من بلاد الشام بعض المناوشات بين جند علي وجند معاوية، كان أهمها موقعة (صفين) والتي شهدها علي ومعاوية رضي الله عنهما في سنة ٣٧ هـ، ولم تمنع هذه المعارك من استمرار سيطرة معاوية على الشام^(٢).

سادساً: ولاية الجزيرة:

كانت الجزيرة إحدى الولايات التابعة للشام أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعد استشهاده كانت الشام بيد معاوية، والعراق بيد علي، مما جعل الجزيرة محل تنازع بين الفريقين؛ نظراً لموقعها الجغرافي واتصالها بالشام من جهة وبالعراق من جهة أخرى^(٣)، وبالتالي سهولة السيطرة عليها من كلا الجانبين، وقد وقعت في الجزيرة العديد من المعارك بين أجناد علي وأجناد معاوية في محاولة من كلا الطرفين للسيطرة عليها، ويبدو أن علياً استطاع السيطرة عليها^(٤)، لفترة من الوقت وعين عليها «الأشتر» وهو أشهر ولاة علي في الجزيرة^(٥)، حيث ولاه عليها لأكثر من مرة فاستطاع أن يرتب أمورها، ثم اضطر علي رضي الله عنه لنقله لولاية مصر وذلك في سنة ٣٨ هـ^(٦)، فعاد الاضطراب مرة أخرى إلى الجزيرة ونشط أتباع معاوية في الاستيلاء عليها بعد ذلك ف وقعت فيها العديد من المعارك^(٧)، ويبدو أن معاوية استطاع في أواخر سنة ٣٩ هـ أن يسيطر إلى حد ما على الجزيرة^(٨)، وقد كانت الجزيرة ملجأ لبعض المعتزلين للحرب بين علي ومعاوية

(١) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي (ص ١١٢).

(٢) «الولاية على البلدان» (٨/٢).

(٣) «معجم البلدان» (٢/١٣٥).

(٤) «الأخبار الطوال» للدينوري (ص ١٥٤)، و«الولاية على البلدان» (٨/٢).

(٦) «تاريخ الطبري» (٦/٥٤).

(٥) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢٠٠).

(٨) «الكامل» (٣/٣٨٠).

(٧) «الفتوح» لابن أعمش الكوفي (٤/٤٥)، و«الكامل» (٣/٣٧٩).

وهم الذين لم يباعدوا أيامها أثناء النزاع الناشب بينهما^(١)، ولعل موقعها في المنتصف بين الطرفين هو الذي دفعهم لاختيارها، وقد وردت أسماء بعض من ولي الجزيرة لعلي ومنهم شبيب بن عامر^(٢)، وكميل بن زياد وكان لهما دور في مقاومة جيوش الشام التي هاجمت الجزيرة بل إنهما استطاعا الهجوم على الشام من قبل الجزيرة^(٣).

سابعاً: ولاية مصر:

استشهد عثمان رضي الله عنه وعلى مصر محمد بن أبي حذيفة مغتصباً للولاية فيها، ولم يقره عثمان عليها، وبعد وفاة عثمان أقره علي على مصر فترة من الوقت لم تطل، حيث وجه معاوية جيشاً إلى نواحي مصر؛ فظفر بمحمد بن أبي حذيفة فقبض عليه ثم سجن وقتل^(٤)، وقد ذكر أن علياً لم يعين محمد بن أبي حذيفة على مصر وإنما تركه على حاله حتى إذا قتل، عين علي قيس بن سعد الأنصاري على ولاية مصر^(٥)، فقال له: سر إلى مصر وليتكها، واخرج إلى رحلك، واجمع إليه ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند؛ فإن ذلك أربح لعدوك وأعز لوليك، فإذا أنت قدمتها - إن شاء الله - فأحسن إلى المحسن، واشتد على المريب، وارفق بالعامة والخاصة، فإن الرفق يمن^(٦)، وقد ظهر ذكاء قيس وحسن تصرفه في العديد من المواقف فإنه حين توجه إلى مصر كان فيها مجموعة ممن غضبوا لمقتل عثمان رضي الله عنه، ومجموعة ممن اشتركوا في قتله، ولقد لقيته خيل من مصر قبل دخوله إليها فقالوا: من أنت؟ قال: من فآلة^(٧) عثمان؛ فأنا أطلب من آوى إليه فانتصر به لله، قالوا: من أنت؟ قال: قيس بن سعد، قالوا: امض فمضى حتى دخل^(٨) مصر، وهذا الموقف الذي

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤١٤/٣).

(٢) «الفتوح» لابن أعمش الكوفي (٤/٥٠ - ٥٢)، و«تاريخ الطبري» (١٩/٦).

(٣) «ولاة مصر» للكندي ص (٤٢، ٤٣)، و«الولاية على البلدان» (٩/٢).

(٤) «ولاة مصر» ص (٤٤)، و«النجوم الزاهرة» (١/٩٤).

(٥) «الولاية على البلدان» (١١/٥٣١).

(٦) «الكامل في التاريخ» (٢/٣٥٤).

(٧) «الولاية على البلدان» (٢/١٠) نقلاً عن «نهاية الأرب في تاريخ العرب» للنويري.

لقيس هو الذي يمكنه من دخول مصر، ثم أعلن بعد ذلك أنه أمير، وربما لو أنه أعلن لهؤلاء الأجناد أنه أمير لمنعه من دخول مصر أصلاً، كما حدث لمن وجهه علي إلى الشام فمنعته أجناد الشام من دخولها حينما علموا أنه قد بعث أميراً على الشام^(١)، وحينما وصل قيس بن سعد إلى الفسطاط صعد المنبر وخطب في أهل مصر وقرأ عليهم كتاباً من علي بن أبي طالب رضي الله عنه وطلب البيعة لعلي^(٢)، وهنا انقسم أهل مصر إلى فريقين، فريق دخل في بيعة علي وبايعوا قيساً، وفريق توقف واعتزل، وكان قيس بن سعد حكيماً مع الذين بايعوا والذين امتنعوا؛ حيث لم يجبرهم على البيعة وكف عنهم وتركهم في حالهم^(٣)، ولم يكتف بذلك بل إنه بعث لهؤلاء أعطياتهم في مكان اعتزالهم، ووفد عليه قوم منهم فأكرمهم وأحسن إليهم^(٤)، فساعدت تلك المعاملة الطيبة على تجنب الصدام بهم، وبالتالي ساعدته على هدوء الأوضاع بمصر، حتى استطاع قيس أن ينظم الأمور فيها، فوزع الأمراء ونظم أمور الخراج وعين رجالات على الشرطة^(٥).

وبذلك استطاع أن يرتب ولاية مصر، وأن يسترضي جميع الأطراف فيها^(٦)، وأصبح قيس بن سعد في هذا الموقع يشكل ثقلًا سياسياً وخطراً عسكرياً على معاوية بن أبي سفيان في الشام؛ نظراً لقرب مصر من الشام، ولترتيب قيس لها وتنظيمها، وما اشتهر عن قيس من حزم، وخوف معاوية من حركات عسكرية مناوئة له تخرج من مصر، ولذلك فإنه أخذ يرأسل قيس بن سعد في مصر مهدداً له، وفي الوقت نفسه يحاول إغراءه بالانضمام إليه، وكانت إجابات قيس على تلك الرسائل إجابات ذكية بحيث لم يستطع معاوية أن يفهم موقف قيس وما ينوي عمله، وقد تعددت بينهما الرسائل^(٧)، وقد انتشرت الروايات الراضية من الرسائل بين معاوية وقيس بن سعد التي ذكرها أبو مخنف في كتب التاريخ

(١) «تهذيب تاريخ دمشق» (٣٩/٤).
 (٢) «الكامل في التاريخ» (٣٥٤/٢).
 (٣) «ولاة مصر» ص (٤٤)، و«الكامل في التاريخ» (٣٥٤/٢).
 (٤) «ولاة مصر» ص (٤٤).
 (٥) «الولاية على البلدان» (١١/٢)، «النجوم الزاهرة» (٩٨/١).
 (٦) «الولاية على البلدان» (١١/٢).
 (٧) «الكامل» (٣٥٥/٢)، و«الولاية على البلدان» (١١/٢).

وهي باطلة لا تصح، فقد انفرد بها هذا الرافضي التالف الذي ضَعَفه رجال الجرح والتعديل بها، وفي متن تلك الرواية غرائب من أبرزها ما يلي:

١- خطاب علي رضي الله عنه إلى أهل مصر مع قيس بن سعد رضي الله عنه وفيه: «ثم ولي بعدهما وال فأحدث أحداً، فوجدت عليه الأمة مقالاً فقالوا، ثم نقموا عليه فغيروا»، وهذا يعني أن الذين قاموا على عثمان رضي الله عنه رجال الأمة وأن الأمة قد غيرت هذا المنكر بقتل عثمان رضي الله عنه، وعلي رضي الله عنه بريء من هذا القول، وهو يعلم أن الذين قتلوا عثمان هم أوباش الناس، وأن قتله ظلم وفجور، وأقواله تدل على ذلك ومنها ما رواه ابن عساكر أن محمد ابن الحنفية قال: ما سمعت علياً رضي الله عنه ذاكراً عثمان رضي الله عنه بسوء قط^(١)، وأخرج الحاكم وابن عساكر أن علياً رضي الله عنه قال: «اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان وأنكرت نفسي، وجاءوني للبيعة، فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة» وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد، فانصرفوا فلما دفن رجع الناس يسألوني البيعة، فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه، ثم جاءت عزيمة فبايعت، فلما قالوا: أمير المؤمنين فكأن صدع قلبي وانسكب^(٢) بعبرة، وأقواله في هذا المعنى كثيرة^(٣)، وقد جمعتها في كتابي، تيسير الكريم المنان في سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان^(٤).

٢- قول قيس بن سعد: أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا صلى الله عليه وسلم وهذا مردود؛ إذ أن الثابت تفضيل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، على علي رضي الله عنه كما صح عن علي نفسه أنه صرح بذلك، وهذا لا يشك فيه أحد في ذلك الزمان من الصحابة وغيرهم، وعليه فلا يصح نسبة هذا الكلام لقيس بن سعد رضي الله عنه ولا

(١) «تاريخ ابن عساكر» ترجمة عثمان (ص ٣٩٥).

(٢) «المستدرک» (٣/٩٥، ١٠٣) صحيح على شرط الشيخين.

(٣) «مرويات أبي مخنف» د. يحيى اليعاقبة (ص ٢١١).

(٤) «عثمان بن عفان» للصلابي (ص ٤٠٧، ٤٠٩).

لغيره من الصحابة والتابعين، ولم يشتهر هذا إلا عند الشيعة الروافض المتأخرين^(١)، قال ابن تيمية: الشيعة المتقدمون كلهم متفقون على تفضيل أبي بكر وعمر^(٢)، والأدلة في تفضيل أبي بكر وعمر كثيرة منها ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فنختار أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان^(٣) والأحاديث في ذلك كثيرة^(٤) ومشهورة وحقيقة الأمر كما مر معنا في الروايات الصحيحة السابقة أن معاوية طلب من أمير المؤمنين تسليمه قتلة عثمان ولم يتهم أمير المؤمنين علياً به.

٣- رسالة معاوية إلى قيس بن سعد، وإشارته فيها إلى كون علي طرفاً في قتل عثمان، وهذا لا يصح صدوره من معاوية؛ ذلك أن الأمر واضح فيه براءة علي رضي الله عنه كما مر في الفقرة السابقة وهذا لا يجمله معاوية رضي الله عنه فضلاً أن يُقره لقيس بن سعد رضي الله عنه، وهذا محمد بن سيرين من كبار التابعين ومن الذين عاصروا ذلك المجتمع يقول: لقد قتل عثمان وما أعلم أحداً يتهم علياً في قتله^(٥)، ويقول أيضاً: لقد قتل عثمان يوم قتل وإن الدار يومئذ لغاصة، فيهم عبد الله بن عمر، وفيهم الحسن بن علي في عنقه السيف، ولكن عثمان عزم عليهم ألا يقاتلوا^(٦)، وأخرج ابن أبي شيبة بسند رجاله ثقات عن محمد ابن الحنفية أن علياً قال: لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل والبر والبحر^(٧)، والنصوص في هذا المعنى كثيرة جداً^(٨)، مما يؤكد اشتهاً كراهية علي رضي الله عنه لقتل عثمان^(٩).

٤- وأما ما أورده من اتهام معاوية للأنصار في دم عثمان فهذا لا يصح من معاوية وهو يعلم أن الذي قام بالدفاع عنه هم الأنصار جميعاً، فقد أخرج ابن

(١) «مرويات أبي مخنف» (ص ٢١١).

(٢) «مناجاة السنة» (٤/١)، (٩١١١).

(٣) «البخاري» رقم (٣٦٩٧).

(٤) «مرويات أبي مخنف» (ص ٢١٢).

(٥) «تاريخ ابن عساکر» ترجمة عثمان (ص ٣٩٥)، و«مرويات أبي مخنف» (ص ٢١٢).

(٦) «تاريخ ابن عساکر» ترجمة عثمان (ص ٣٥٠).

(٧) «المصنف» (٢٦٨/١٥).

(٨) نقل ابن عساکر نصوصاً كثيرة تبين نصرة علي لعثمان، ترجمة عثمان (ص ٣٩٥).

(٩) «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» ص (٢١٣).

سعد بسند صحيح أن زيد بن ثابت رضي الله عنه جاء إلى عثمان رضي الله عنه وهو محصور فقال: هذه الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين، قال: فقال عثمان: أما القتال فلا^(١).

٥- ما ذكره من اختلاق معاوية كتاباً على لسان قيس بن سعد، فهذا من الكذب الذي لا يعقل صدوره من معاوية، ذلك أن العرب كانوا يعدون الكذب من أقبح الصفات التي يتنزه عنها الرجال الكرام، وهذه قصة أبي سفيان وهو يومئذ على الشرك فيما أخرجه البخاري، في قصة سؤال هرقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عليّ كذباً لكذبت عنه^(٢)، فهذه منزلة الكذب عند العرب، وعند المسلمين أشد وأخزى ولا يقول قائل: هذه خدعة، والحرب خدعة؛ فإن الخدعة ليس معناها الكذب كما هو معلوم من كلام العرب، ومعاوية رضي الله عنه أحذق من أن يفعل هذا^(٣).

٦- رواية هذه الكتب الكثيرة بين قيس ومعاوية وعلي رضي الله عنه بهذا التسلسل وبهذه الدقة تدخل الشك والريبة على القارئ؛ لجهالة المطلع والناقل لها^(٤).

يقول الدكتور يحيى اليحيى: إن ولاية قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه على مصر من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أمر مجمع عليه^(٥)، وكل من ترجم لقيس لم يذكر هذه التفاصيل^(٦) - أي التي ذكرها أبو مخنف في روايته - وحتى مؤرخو مصر المعتبرون لم يذكروا ذلك^(٧)، هذا وقد نقل رواية أبي مخنف من الطبري بعد حذف واختصار كل من: ابن الأثير، وابن كثير، وابن خلدون، وابن تغري بردي^(٨)، وقد أخرج الكندي أيضاً عن عبد الكريم بن الحارث قال:

(١) «الطبقات» (٧٠/٣)، وسنده صحيح.

(٢) «البخاري» رقم (٧). (٣) (٤)، «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» ص (٢١٤).

(٥) «تاريخ خليفة» (ص ٢٠١)، و«فتوح مصر» (٢٧٤)، و«ولاة مصر» (٤٤٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/٣).

(٦) «طبقات ابن سعد» (٥٢/٦)، و«تاريخ بغداد» (١٧٧/١)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠٢/٣).

(٧) «فتوح مصر»، و«ولاة مصر» مرويات أبي مخنف (ص ٢٠٧).

(٨) «تاريخ ابن خلدون» (١٠٩٢/٤)، و«النجوم الزهرة» (٩٧/١)، و«البداية والنهاية» (٢٥١/٧).

لما ثقل مكان قيس على معاوية كتب إلى بعض بني أمية بالمدينة: أن جزي الله قيس بن سعد خيراً واكتموا ذلك؛ فإني أخاف أن يعزله علي إن بلغه ما بينه وبين شيعتنا، حتى بلغ علياً فقال من معه من رؤساء أهل العراق وأهل المدينة: بدل قيس وتحول، فقال علي: ويحكم، إنه لم يفعل، فدعوني، قالوا: لتعزلنه فإنه قد بدل، فلم يزالوا به حتى كتب إليه: إني قد احتجت إلى قربك، فاستخلف علي عمك وأقدم^(١)، وقد رجح هذه الرواية الدكتور اليعقوبي في كتابه القيم «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» قال:

١- إنها من رواية مصري ثقة، وهو أعلم بقطره من غيره.

٢- أخرجها مؤرخ مصري.

٣- خلوها من الغرائب.

٤- متنها مما يتفق مع سيرة أولئك الرجال.

٥- بينت تردد علي في عزل قيس حتى ألح عليه الناس فاستبقاه عنده، وهكذا القائد لا يفرط في القيادات الحاذقة وقت المحن^(٢).

- تعيين محمد بن أبي بكر علي ولاية مصر:

تدخل بعض الناس للإفساد بين علي وقيس بن سعد لكي يعزله وفي نهاية المطاف طلب بعض مستشاري علي منه أن يعزل قيساً وصدقوا تلك الإشاعات التي قيلت فيه، وألحوا في عزله، فكتب إليه علي: إني قد احتجت إلى قربك فاستخلف علي عمك وأقدم^(٣)، وكان هذا الكتاب بمثابة عزل لقيس عن ولاية مصر، وقد عين علي مكانه الأشتر النخعي^(٤)، على أكثر الأقوال، وقد التقى علي بالأشتر قبل سفره إلى مصر، فحدثه حديث أهل مصر وخبره خبر أهلها، وقال ليس لها غيرك اخرج -رحمك الله- فإني إن لم أوصيك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك فاخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ،

(١) «ولاية مصر» (ص ٤٥ - ٤٦)، وفيها المدائني وهو صدوق وبقية رجالها ثقات إلا أنها مرسله.

(٢) «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» (ص ٢١٠).

(٣) «ولاية مصر» (ص ٤٥ - ٤٦).

(٤) «فتوح البلدان» ص (٢٢٩)، و«الولاية على البلدان» (١٢/٢).

واعزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة^(١)، وقد توجه الأشر إلى مصر ومعه رهط من أصحابه إلا أنه حينما وصل إلى أطراف بحر القلزم - البحر الأحمر - مات قبل أن يدخل مصر، وقد قيل: إنه سقي شربة مسمومة من عسل فمات منها، وقد اتهم أناس من أهل الخراج أنهم سموه بتحريض من معاوية^(٢)، والتهمة الموجهة إلى معاوية في قتل الأشر بالسم لا تثبت من طريق صحيح، واستبعد ذلك ابن كثير^(٣)، وابن خلدون^(٤). وسار على نهجهم الدكتور يحيى اليعحي^(٥)، وملت إلى هذا القول .

هذا وقد مات الأشر قبل أن يباشر عمله في مصر، ومع ذلك فإن المصادر تتحدث عنه كأحد ولاة مصر لعلي بن أبي طالب، وقد ولي بعده علي مصر محمد بن أبي بكر^(٦) .

وقد سبق لمحمد بن أبي بكر أن عاش في مصر في عهد عثمان، وتدل الروايات على أن محمد بن أبي بكر قد وصل إلى مصر قبل أن يغادرها الوالي الأول قيس ابن سعد، وقد دارت محاوراة بين قيس بن سعد ومحمد بن أبي بكر، قدم فيها قيس عدة نصائح لمحمد، خصوصاً فيما يتعلق بالناس الغاضبين لمقتل عثمان، والذين لم يبايعوا علياً بعده وقد قال قيس: يا أبا القاسم إنك قد جئت من عند أمير المؤمنين وليس عزله إياي بمانعي أن أنصح لك وله، وأنا من أمركم هذا على بصيرة، ودع هؤلاء القوم ومن انضم إليهم - يقصد الذين لم يبايعوا علياً ولا غيره - على ما هم عليه، فإن أتوك فاقبلهم، وإن تخلفوا عنك فلا تطلبهم، وأنزل الناس على قدر منازلهم، وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل؛ فإن هذا لا ينقصك^(٧) .

(١) «النجوم الزاهرة» (١٠٣/١).

(٢) النجوم الزهرة (١٠٤/١)، و«سير أعلام النبلاء» (٣٤/٤).

(٤) «تاريخ ابن خلدون» (١١٢٥/٤).

(٦) «النجوم الزاهرة» (١٠٦/١).

(٧) «ولاية مصر» (ص ٥٠)، و«الولاية على البلدان» (١٣/٢).

(٣) «البداية والنهاية» (٣٠٣/٨).

(٥) «مرويات أبي مخنف» ص (٢٢٤).

وقد حمل محمد معه عهداً من علي رضي الله عنه فقرأه على أهل مصر وخطبهم^(١)، وقد كتب أمير المؤمنين علي لمحمد بن أبي بكر كتاباً جاء عندما ولاه على مصر، ولم يكن هذا الكتاب مقتصرًا على سياسة الولاية، بل يحوي دعوة محمد بن أبي بكر الصديق إلى الله، ومما جاء في هذا الكتاب: واعلم يا محمد أنك وإن كنت محتاجاً إلى نصيبك من الدنيا، إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران: أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فابدأ بأمر الآخرة، ولتعظم رغبتك في الخير، ولتحسن فيه نيتك، فإن الله عز وجل يعطي العبد على قدر نيته، وإذا أحب الخير وأهله ولم يعمله كان - إن شاء الله - كمن عمله، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رجع من تبوك: «إن بالمدينة لرجالاً، ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، حبسهم العذر»^(٢)، ثم اعلم يا محمد أنني قد وليتك أعظم أجنادي - أهل مصر - ووليتك ما وليتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك، وتحذر فيه على دينك، ولو كان ساعة من نهار، فإن استطعت ألا تسخط ربك لرضا أحد من خلقه منه، فاشتد على الظالم، وكُنْ لأهل الخير وقربهم إليك واجعلهم بطانتك، وإخوانك والسلام^(٣)، وبدأ محمد بن أبي بكر يمارس ولايته، وقد مضى الشهر الأول من ولايته بسلام، إلا أن الأمور بدأت تتغير بعد ذلك، فلم يعمل محمد بن نصيحة قيس بن سعد، وبدأ يتحرش بأولئك الأقسام الذين لم يبايعوا علياً، فكتب إليهم يدعوهم إلى المبايعة فلم يجيبوه؛ فبعث رجالاً إلى بعض دورهم فهدموها، ونهب أموالهم، وسجن بعض ذراريهم فعملوا على محاربتة^(٤)، ثم إن معاوية أعد جيشاً بقيادة عمرو بن العاص فغزا به مصر، وتحالف مع من قاتلهم محمد ابن أبي بكر، وكانت قوتهم كبيرة تصل إلى عشرة آلاف مقاتل، وفيهم مسلمة

(١) «الكامل في التاريخ» (٣٥٦/٢).

(٢) «صحيح مسلم»، كتاب الإمارة (١٩١١).

(٣) «تاريخ الطبري»، و«منهج علي بن أبي طالب في الدعوة إلى الله» (ص ٢٨٢).

(٤) «الكامل في التاريخ» (٣٥٧/٢)، و«الولاية على البلدان» (١٣/٢).

ابن مخلد ومعاوية بن خديج^(١) ووقعت بينهم وبين محمد بن أبي بكر معارك قوية انتهت بمقتل محمد بن أبي بكر، واستيلاء أجناد معاوية على مصر وبذلك خرجت مصر من حكم علي بن أبي طالب رضي الله عنه سنة ثمان وثلاثين للهجرة^(٢)، وقد انفرد أبو مخنف الشيعي الرافضي برواية مفصلة ذكرها الطبري^(٣) شوهد كثيراً من حقائق التاريخ والتي لم يخرجها غيره، ثم ذكرها بعض المؤرخين على النحو التالي: اليعقوبي: ذكر قتال عمرو بن العاص لمحمد بن أبي بكر، وأن معاوية بن خديج أخذه وقتله ثم وضعه في جيفة حمار فأحرقه^(٤)، وأما المسعودي^(٥)، وابن حبان^(٦)، فقد أشارا إلى قتل محمد بن أبي بكر ولم يذكرهما التفاصيل^(٧)، ونقل ابن الأثير^(٨) رواية أبي مخنف في الطبري باختصار بعدما حذف منها كتاب معاوية إلى محمد بن أبي بكر، ونص المكاتبات بين علي وابن أبي بكر، وحذف رد ابن أبي بكر على معاوية وعمرو بن العاص من رواية أبي مخنف في الطبري.

وقد ذكر النويري نحواً مما ذكره ابن الأثير^(٩)، وذكر ابن كثير قريباً مما ذكره ابن الأثير والنويري، وأما ابن خلدون فأشار إلى معنى روايات أبي مخنف^(١٠)، واختصر ابن تغري بردي روايات أبي مخنف^(١١)، وكل هذه الروايات جاءت من طريق أبي مخنف وساهمت في تشويه التاريخ الإسلامي لتلك الحقبة وتناقلها الكتاب المعاصرون دون تمحيص، وساهموا في نشرها واستقر كثير من تلك الأكاذيب في أذهان بعض المثقفين، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من ضمن سلسلة المفاهيم المغلوطة التي نشرها بين الناس.

هذا وإن قتل معاوية بن خديج لمحمد بن أبي بكر قد ثبت من طريق صحيح

- (١) «تاريخ الطبري» (١١/٦).
 (٢) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٩)، و«تاريخ الطبري» (٥/٦). (٣) «تاريخ الطبري» (٧/٦ - ١٨).
 (٤) «تاريخ اليعقوبي» (١٩٤/٢). (٥) «مروج الذهب» (٢/٤٢٠).
 (٦) «الثقات» (٢/٢٩٧). (٧) «مرويات أبي مخنف» (ص ٢٤١).
 (٨) «الكامل» (٤٠٩/٢ - ٤١٤). (٩) «نهاية الأرب» (١٠٧/٢٠ - ١١٢).
 (١٠) «تاريخ ابن خلدون» (٤/١١٢٦ - ١١٢٨). (١١) «النجوم الزاهرة» (١٠٧/١ - ١١٢).

فيما أخرجه أبو عوانة عن عبد الرحمن بن شماسة قال : دخلت على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فقالت لي : ممن أنت ؟ قلت : من أهل مصر ، قالت : كيف وجدتم ابن خديج في غزاتكم هذه ؟ فقلت : وجدناه خير أمير ، ما مات لرجل منا عبد إلا أعطاه عبداً ، ولا بعيراً إلا أعطاه بعيراً ، ولا فرس إلا أعطاه فرساً ، قالت : أما إنه لا يمنعني قتله أخي أن أحدث ما سمعت من رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقول : « من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارق به ، ومن شق عليهم فشق عليه »^(١) .

وقد اشتملت روايات أبي مخنف في تاريخ الطبري حول ولاية محمد بن أبي بكر لمصر ومقتله على جملة من الغرائب أبرزها ما يأتي :

١- ما ذكره من مبايعة أهل الشام لمعاوية بالخلافة بعد التحكيم فهذا غير صحيح ، فقد نقل ابن عساكر بسند رجاله ثقات عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي - أعلم الناس بأمر الشام^(٢) - أنه قال : كان علي بالعراق يدعى أمير المؤمنين وكان معاوية بالشام يدعى الأمير فلما مات علي دعي معاوية بالشام أمير المؤمنين^(٣) . فهذا النص يبين أن معاوية لم يبائع بالخلافة إلا بعد وفاة علي وإلى هذا ذهب الطبري ، فقد قال في آخر حوادث سنة أربعين : وفي هذه السنة بويع لمعاوية بالخلافة بإيليا^(٤) .

وعلق على هذا ابن كثير بقوله : يعني لما مات علي قام أهل الشام فبايعوا معاوية على إمرة المؤمنين ؛ لأنه لم يبق له عندهم منازع^(٥) ، وكان أهل الشام يعلمون بأن معاوية ليس كفتناً لعلي بالخلافة ، ولا يجوز أن يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي رضي الله عنه ؛ فإن فضل علي وسابقته ، وعلمه ، ودينه ، وشجاعته ، وسائر فضائله ، كانت عندهم ظاهرة معروفة ، كفضل إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان ، وغيرهم رضي الله عنهم^(٦) ، وإضافة إلى ذلك فإن النصوص تمنع من مبايعة خليفة مع وجود الأول ،

(١) «مسند أبي عوانة» (٤/١١٣) ، و«مسلم» (٣/١٤٥٨) مع اختلاف في بعض الألفاظ .

(٢) قال الحاكم : هو لأهل الشام كمالك لأهل المدينة «تهذيب التهذيب» (٤/٦٠) .

(٣) «تاريخ دمشق» (١٦/٣٦٠) . (٤) «تاريخ الطبري» (٦/٧٦) .

(٥) «البداية والنهاية» (٨/١٦) . (٦) «فتاوى ابن تيمية» (٣٥/٧٣) .

فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا بويح لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»^(١)، والنصوص في هذا المعنى كثيرة ومن المحال أن يقدم الصحابة على مخالفة ذلك^(٢).

٢- قوله: إن عمرو بن العاص صالح معاوية على أن له مصراً طعمة ما بقي، فهذه القصة أخرجها ابن عساكر بسند فيه مجهول^(٣)، وذكرها الذهبي بصيغة التمریض وبالتالي تصبح ساقطة لا اعتبار لها.

٣- اتهام محمد بن أبي بكر بقتل عثمان رضي الله عنه بمشاقصه، فهذا باطل، وقد جاءت روايات ضعيفة في ذلك، كما أن متونها شاذة لمخالفتها للرواية الصحيحة التي تبين أن القاتل هو رجل مصري^(٤)، وقد ذكر الدكتور يحيى الیحيى عدة أسباب ترجح براءة محمد ابن أبي بكر من دم عثمان منها:

أ- أن عائشة رضي الله عنها خرجت إلى البصرة للمطالبة بقتلة عثمان، ولو كان أخوها منهم ما حزنت عليه لما قتل.

ب- لعن علي رضي الله عنه لقتلة عثمان رضي الله عنه، وتبرؤه منهم، يقتضي عدم تقريبيهم وتوليبتهم، وقد ولي محمد بن أبي بكر مصر فلو كان منهم ما فعل ذلك.

ج- ما أخرج ابن عساكر بسنده عن محمد بن طلحة بن مصرف قال: سمعت كنانة مولى صفية بنت يحيى، قال: شهدت مقتل عثمان رضي الله عنه وأنا ابن أربع عشرة سنة، قالت: هل أئدی محمد بن أبي بكر شيء من دمه؟ فقال: معاذ الله، دخل عليه، فقال عثمان: يا ابن أخي لست بصاحبي، فخرج، ولم يند من دمه بشيء^(٥)، ويشهد لهذا ما أخرج خليفة بن خياط والطبري بإسناد رجاله ثقات عن الحسن البصري، وكان ممن حضر يوم الدار^(٦): أن ابن أبي بكر أخذ بلحيته، فقال عثمان: لقد أخذت مني مأخذاً أو قعدت مني مقعداً ما كان أبوك ليقعده فخرج وتركه^(٧)، وبهذا يتبين لنا براءة محمد بن أبي بكر الصديق من دم

(١) «صحيح مسلم» (٣/١٤٨٠).

(٢) «تاريخ دمشق» (١٣/٢٦١).

(٣) «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» (ص ٢٤٣).

(٤) «فتنة مقتل عثمان» (١/٢٠٩).

(٥) «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» (ص ٢٤٣).

(٦) المصدر نفسه (ص ٢٤٤).

(٧) «تهذيب الكمال» (٦/٩٧).

عثمان رضي الله عنه، براءة الذئب من دم يوسف، كما تبين أن سبب تهمته هو دخوله قبل القتل^(١)، وقد ذكر ابن كثير - رحمه الله - أنه لما كلمه عثمان رضي الله عنه استحى، ورجع، وتندم، وغطى وجهه وحاجز دونه فلم تفد محاجزته^(٢).

د - ما ورد من تخويف معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لمحمد بن أبي بكر بالمثلثة، وما ذكر من جعل محمد بن أبي بكر في جيفة حمار وإحراقه، كل هذا لا يستقيم مع أحكام الشرع في القتلى، فقد ورد الزجر عن التمثيل بالكفار فكيف بالمسلمين؟، أخرج مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً»^(٣)، وقال الشافعي: وإذا أسر المسلمون المشركين فأرادوا قتلهم، قتلوهم بضرب الأعناق ولم يجاوزوا ذلك أي: أن يمثلوا بقطع يد ولا رجل ولا عضو ولا مفصل، ولا بقر بطن، ولا تحريق، ولا تغريق، ولا شيء يعدو ما وصفت؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المثلثة^(٤)، وهل يظن بالصحابة الكرام مخالفة هذا وهم كما وصفهم ابن مسعود: خير هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، كانوا على الهدى المستقيم ورب الكعبة^(٥)، وقال عنهم ابن أبي حاتم: ندب الله عز وجل إلى التمسك بهديهم، والجري على مناهجهم، والسلوك لسبيلهم والاقتراء بهم قال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٦) (النساء: ١١٥).

وأصح رواية جاءت في إحراقه ما أخرجه الطبراني عن الحسن البصري قال:

(١) «فتنة مقتل عثمان» (٢٠٩/١). (٢) «البداية والنهاية» (١٩٣/٧). (٣) «صحيح مسلم» (١٣٥٧/٣).
 (٤) «الأم» (١٦٢/٤)، وانظر: «آثار الحرب في الفقه الإسلامي» (ص ٤٧٩)، و(المثلثة): العقوبة والتكليف «الوجيز».
 (٥) «حلية الأولياء» (٣٠٥/١). (٦) «مقدمة الجرح والتعديل» (٧/١).

أخذ هذا الفاسق محمد بن أبي بكر في شعب من شعاب مصر، فأدخل في جوف حمار فأحرق^(١)، وهذا الرواية مرسله إذ إن الحسن لم يشهد الحادثة ولم يسم لنا من نقل عنه، إضافة إلى أن النص لم يذكر من قام بإحراقه، وأيضاً ما كان الحسن أن يرميه بالفسق وهو يعلم ثناء علي رضي الله عنه عليه وتفضيله له^(٢).

هـ - ما ذكره من قول علي رضي الله عنه : الفاجر ابن الفاجر يقصد معاوية، فهذا يستبعد صدوره من علي رضي الله عنه ؛ إذ إن الخلاف مع معاوية دون أبيه، وأبو سفيان رضي الله عنه قد أسلم وحسن إسلامه، ومات قبل مقتل عثمان رضي الله عنه فلم يدرك الفتنة^(٣)، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْرُ وَازِرَةً وَزِرًا أُخْرَى﴾ (فاطر: ١٨)، والصحابة أعلم الناس بكتاب الله وأشدهم وقوفاً عند حدوده، فكيف ينسب لهم مثل هذا الفعل؟^(٤).

و - ما ذكره من قول معاوية بن خديج رضي الله عنه لعمر بن العاص لما طلب ابن أبي بكر وتلاوته لهذه الآية: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ (القم: ٤٣) فهذا يعني تكفير محمد بن أبي بكر وغيره، وهذا لم يعرف من الصحابة، وما كان بينهم لم يصل إلى درجة التكفير، وقد وضع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه هذا بقوله: إن ما بيننا لم يبلغ ديننا^(٥). وأيضاً فإن معاوية بن خديج من جند عمرو بن العاص رضي الله عنه وما كان له أن يرفض طلب قائده^(٦).

ز - ما أورده من قول محمد بن أبي بكر: إن عثمان عمل بالجور ونبذ حكم الكتاب لم أقف له على أصل يثبت صحة نسبته إلى ابن أبي بكر، أما إظهار براءة عثمان رضي الله عنه من ذلك فأشهر من أن تذكر^(٧)، وقد توسعت فيها في كتابي: «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان».

(١) «المعجم الكبير» (٨٤/١) ورجاله ثقات غير أمية بن خالد فهو صادق.

(٢) «الاستيعاب» (٣/٣٤٨).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٠٥/٢)، و«مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» (ص ٢٤٨).

(٤) «مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» (ص ٢٤٧).

(٥) «فضائل الصحابة» (٧٥١/٢)، وسنده صحيح، و«مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» (ص ٢٤٨).

(٦) «مرويات أبي مخنف» (ص ٢٤٨).

ثامناً: ولاية البصرة:

أرسل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عثمان بن حنيف الأنصاري أميراً على البصرة بدلاً من عبد الله بن عامر واليها السابق الذي تركها واتجه إلى مكة المكرمة ، وقد كان عثمان بن حنيف الأنصاري صاحب خبرة في المنطقة إذ سبق أن عينه عمر على مسح (السواد) وتقدير الخراج فيه ^(١) ، وقد سار عثمان بن حنيف إلى البصرة ودخلها بسلام ، إلا أن أهل البصرة انقسموا ثلاث فرق : فرقة بايعت ودخلت في الجماعة ، وفرقة اعتزلت وقالت : ننتظر ما يصنع أهل المدينة فنصنعه ، وفرقة رفضت الدخول في البيعة ^(٢) ولم يلبث عثمان ابن حنيف طويلاً في الولاية ، فقد قدم إلى البصرة جيش طلحة والزبير وعائشة قبل معركة : الجمل ، ومعهم من خرج للمطالبة بدم عثمان - وتطورت الأحداث وحدث قتال ، وخرج عثمان بن حنيف إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلقيه في طريقه إلى البصرة قبيل وقعة الجمل ، وبذلك انتهت ولاية عثمان بن حنيف وقد وصل علي بن أبي طالب إلى البصرة ومكث فيها بعضاً من الوقت حدثت في أثناءه وقعة الجمل - التي سيأتي تفصيلها بإذن الله تعالى - وعندما أراد علي بن أبي طالب الخروج من البصرة ولّى عبد الله ابن عباس رضي الله عنه ، وقد ولّى علي مع عبد الله بن عباس زياد بن أبيه على الخراج ، وأمر ابن عباس أن يستشيره ويأخذ برأيه نظراً لما وجد علي عنده من خبرة في العمل ، وفتانة في السياسة ^(٣) ؛ وقد قدم علي بعض النصائح لابن عباس منها قوله : أوصيك بتقوى الله عز وجل ، والعدل على من ولاك الله أمره ، اتسع للناس بوجهك وعلمك وحكمك ، وإياك والإحسان ^(٤) ؛ فإنها تميم القلب والحق ، واعلم أن ما قربك من الله بعدك من النار ، وما قربك من النار بعدك من الله ، واذكر الله كثيراً ولا تكن من الغافلين ^(٥) .

(١) سير أعلام النبلاء " (٢/ ٣٢٠) .

(٢) خلافة علي بن أبي طالب " ، لعبد الحميد علي (ص ١٠٧) ، و"تاريخ الطبري" (٥/ ٤٩٢) .

(٣) "تاريخ الطبري" (٥/ ٥٨٠) .

(٤) الإحسان : الأحقاد .

(٥) "وقعة صفين" للمتقري ص (١٠٥) ، و"الولاية على البلدان" (٢/ ١٥) .

وقد بدأ ابن عباس يمارس عمله في ولايته وهو صحابي عرف بعلمه الواسع في الفقه والتفسير، وقد أثبت مهارة إدارية بتوطيد الأمن في سجستان وهي تابعة لولاية البصرة، وفي إقليم فارس حيث عين زياد بن أبي سفيان والياً عليه، كما أنابه حين خرج من البصرة فتمكن من ضبط الأمن فيها، ويعتبر عبد الله بن عباس رضي الله عنه من أهم رجالات أمير المؤمنين علي، وكان يرافقه في الأحداث الخطيرة، وينصح له، ويجادل عنه، وكان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يعتمد عليه ويستشيريه وقد استمرت ولاية ابن عباس على البصرة حتى سنة ٣٩هـ، وكان يعاونه صاحب الشرطة وصاحب الخراج، وقد استمر ابن عباس في بعض الروايات على البصرة حتى مقتل علي رضي الله عنه. قال الطبري في حوادث سنة ٤٠هـ: وفيها خرج عبدالله بن عباس من البصرة، ولحق بمكة، في قول عامة أهل السيرة، وقد أنكر ذلك بعضهم وزعم أنه لم يزل بالبصرة عاملاً عليها من قبل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حتى قتل، وبعد مقتل علي صالح الحسن معاوية، ثم خرج إلى مكة^(١).

إن شخصية ابن عباس رضي الله عنه كانت شخصية قيادية جمعت صفات القائد الرباني، من العلم والفطنة والذكاء والصبر، والحزم وغيرها من الصفات إلا أنه اشتهر بالفقه والعلم بسبب دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له بالفقه في الدين والعلم بالتأويل، وأخذه عن كبار الصحابة، وقوة اجتهاده، وقدرته على الاستنباط، واهتمامه بالتفسير، ومنهجه المتميز في تعليم أصحابه، وحرصه على نشر العلم، ورحلاته وأسفاره، وتأخر وفاته، وقرب منزلته من عمر رضي الله عنه^(٢)، فقد حظي بعناية خاصة من الفاروق عندما لمس فيه مخايل النجابة والذكاء والفطنة، فكان يدينه من مجلسه، ويقربه إليه، ويشاوره، ويأخذ برأيه فيما أشكل من الآيات، وابن عباس مازال شاباً غلاماً، فكان لذلك الأثر البالغ في دفعه وحثه على التحصيل والتقدم، بل والإكثار في باب التفسير وغيره من أبواب العلم، فعن عامر الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير

(٢) «تفسير التابعين» (١/٣٧٤ - ٣٩٥).

(١) «تاريخ الطبري» (٥٦/٦).

المؤمنين يقربك، ويخلو بك، ويستشيرك، مع أناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فاحفظ عني ثلاثاً: اتق الله لا تفسين له سرّاً، ولا يجربن عليك كذبة، ولا تغتابن عنده أحداً^(١).

وكان عمر يدخله مع أكابر الصحابة، وما ذلك إلا لأنه وجد فيه قوة الفهم وجودة الفكر، ودقة الاستنباط، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان عمر رضي الله عنه يسألني مع أصحاب محمد صلوات الله عليهم، فكان يقول لي: لا تتكلم حتى يتكلموا، فإذا تكلمت، قال: غلبتموني أن تأتوا بما جاء به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه^(٢)، وكان ابن عباس لشدة أدبه، إذا جلس في مجلس فيه من هو أسن منه لا يتحدث إلا إذا أذن له، فكان عمر يلمس ذلك منه فيحثه، ويحرضه على الحديث تنشيطاً لنفسه، وتشجيعاً له في العلم^(٣)، وكان لعمر رضي الله عنه مجلس يسمع فيه الشباب ويعلمهم، وكان ابن عباس من المقدمين عند عمر، فعن عبدالرحمن بن زيد قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا صلى السبحة وفرغ دخل مربداً له^(٤)، فأرسل إلى فتیان قد قرؤوا القرآن منهم ابن عباس، قال: فيأتون فيقرؤون القرآن ويتدارسونه، فإذا كانت القائلة انصرفنا، قال فمروا بهذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبَّسَ الْمُهَادُّ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (البقرة: ٢٠٦-٢٠٧)، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لبعض من كان إلى جانبه: اقتتل الرجلان، فسمع عمر ما قال، فقال: وأي شيء قلت؟ قال: لا شيء يا أمير المؤمنين، قال: ماذا قلت؟ اقتتل الرجلان؟ قال: فلما رأى ذلك ابن عباس رضي الله عنهما قال: أرى ههنا من إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة بالإثم، وأرى من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، يقوم هذا فيأمر هذا بتقوى الله، فإذا لم يقبل، وأخذته العزة بالإثم قال هذا: وأنا أشترى نفسي، فاقتتل،

(١) الخلية (١/٣١٨)، و"تفسير التابعين" (١/٣٧٦).

(٢) "المستدرک" (٣/٥٣٩) وصحح إسناده الحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) "تفسير التابعين" (١/٣٧٧).

(٤) السبحة: الدعاء وصلاة التطوع، المبرد: المكان يجعل فيه التمر.

فأقتَلَ الرجلان، فقال عمر رضي الله عنه: لله تلاكذك يا ابن عباس^(١)، وكان عمر رضي الله عنه يسأل ابن عباس عن الشيء من القرآن ثم يقول: غُصُّ غواص^(٢)، بل كان عمر إذا جاءته الأفضية المعضلة يقول لابن عباس: يا ابن عباس قد طرأت علينا أفضية عضل، وأنت لها، ولأمثالها، ثم يأخذ برأيه، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه إذا كانت العضل^(٣).

وعن سعد بن أبي وقاص قال: ما رأيت أحداً أحضر فهماً، ولا ألب لباً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع حلماً من ابن عباس، ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات، ثم يقول: عندك قد جاءتك معضلة، ثم لا يجاوز قوله، وإن حوله لأهل بدر من المهاجرين والأنصار^(٤)، وكان عمر رضي الله عنه يصفه بقوله: ذاكم فتى الكهول، إن له لساناً سؤولاً، وقلباً عقولاً^(٥)، يقول طلحة بن عبيد الله: ما كنت أرى عمر بن الخطاب يقدم على ابن عباس أحداً^(٦)، وكان ابن عباس رضي الله عنه كثير الملازمة لعمر رضي الله عنه، حريصاً على سؤاله والأخذ عنه، ولذا كان رضي الله عنه من أكثر الصحابة نقلاً ورواية لتفسير عمر وعلمه رضي الله عنه، وقد أشار بعض أهل العلم إلى أن عامة علم ابن عباس أخذه عن عمر رضي الله عن الجميع^(٧)، لقد كان اهتمام عمر به مساعداً له على المضي قدماً في طريق العلم عامة والتفسير خاصة^(٨)، ولذلك تشرفت المدرسة المكية في عهد التابعين بحبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنه^(٩)، وكان ابن عباس في عهد عثمان من المقربين إلى الخليفة وقد كلفه بالحج بالناس في العام الذي قتل فيه^(١٠)، هذا وقد عمل بعض المتأثرين بمدرسة الاستشراق بتشويهه صورة حبر الأمة، ونسبوا إليه أباطيل وأكاذيب ألصقوها

(١) «تفسير الطبري» (٤/٢٤٥)، و«الدر المنثور» (١/٥٧٨).

(٢) «فضائل الصحابة» لأحمد (١/٩٨١) رقم (١٩٤٠).

(٤) «طبقات ابن سعد» (٢/٣٦٩).

(٣) «تفسير التابعين» (١/٣٧٩).

(٥) «تفسير التابعين» (١/٣٧٩)، و«فضائل الصحابة» لأحمد رقم (١٥٥٥).

(٦) «طبقات ابن سعد» (٢/٣٧٠).

(٨) «تفسير التابعين» (١/٥٠٦).

(٧) «تفسير التابعين» (٢/٣٧٠).

(٩) «فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب» للصلابي ص (٢٢٠).

(١٠) «تاريخ الطبري» (٥/٤٢٥ - ٤٣١).

بسيرته، علماً بأن مدرسة الاستشراق فيما يتعلق بالعهد الراشدي وتاريخ صدر الإسلام امتداد لمؤرخي الرفض والشيعة الغلاة الذين اختلقوا الروايات والأخبار ولطخوا بها سيرة الصحابة الكرام، فجاء مؤرخو الاستشراق، وأحيوا تلك الأخبار الكاذبة، والروايات الموضوعية، وصاغوها بأسلوب حديث، رافعين شعار الموضوعية والبحث العلمي، وكل هذا كذب وزور وقد تأثر به الكثير من الباحثين والأدباء والمؤرخين، ولذلك تجد في كتب التاريخ والأدب المعاصر- البعيدة عن منهج أهل السنة والموغلّة في مناهج المستشرقين- تشويهاً عجيباً للصحابة، فمثلاً زعمت تلك الكتب بأن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما نهب أموال المسلمين بالبصرة، وغدر بابن عمه علي رضي الله عنه، وهرب بالأموال المسروقة إلى مكة، وتطلع للانضمام إلى معاوية^(١) بعد أن كان مع علي، ذكر ذلك دون حياء صاحب كتاب: «الفتنة الكبرى علي وبنوه»، الدكتور طه حسين والعبارات التي وردت على لسان طه حسين في كتابه: «علي وبنوه»:

١- قال: وكان لابن عباس من العلم بأمور الدين والدنيا، ومن المكانة في بني هاشم خاصة وفي قريش عامة، وفي نفوس المسلمين جميعاً، ما كان خليفاً أن يعصمه من الانحراف عن ابن عمه^(٢).

٢- قال: رأى ابن عباس نجم ابن عمه في أفول، ونجم معاوية في صعود، فأقام في البصرة يفكر في نفسه أكثر مما يفكر في ابن عمه^(٣).

٣- قال: ولو نسي ابن عباس نفسه قليلاً، ولكنه لم ينس نفسه قليلاً ولا كثيراً، ولم يضعها بحيث كان يجب عليه أن يضعها منذ قليل، أن يكون والياً لعلي على مصر من أمصار المسلمين^(٤).

وغير ذلك من الأكاذيب والترهات التي اعتمد قائلوها على الروايات الضعيفة والموضوعية. ويكفي شرفاً لابن عباس دعاء رسول الله صلوات الله عليه وآله له: «اللهم علمه التأويل وفقهه في الدين»^(٥).

(١) «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ» (ص ١٩١).

(٢) «الفتنة الكبرى علي وبنوه» (ص ١٢١).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٢٢).

(٤) المصدر نفسه (ص ١٢٦).

(٥) «الطبراني» رقم (١٠٥٨٧)، وإسناده صحيح.

هذا وقد بدأ ابن عباس يمارس عمله في ولايته على البصرة بعد خروج علي من البصرة إلى الكوفة، ولحق ابن عباس بعلي قبيل صفين، واستخلف علي البصرة زياد ابن أبيه^(١)، وفي أثناء ولاية ابن عباس على البصرة قام بالعديد من الأعمال أهمها ترتيب (سجستان) بعد أن قُتل واليها على يد مجموعة من الخوارج، حيث بعث إليها ابن عباس بأمر من علي مجموعة من أجناد البصرة تمكنوا من قتل الخوارج فيها، وترتيب أمورها وتأمين أهلها سنة ٣٦هـ^(٢)، كما كان لابن عباس ولأجناد البصرة دور مع علي بن أبي طالب في معركة صفين^(٣)، كما قام ابن عباس بتنظيم شؤون بعض الأقاليم التابعة لولايته وعين عليها الأمراء من قبله، حيث وجه إلى فارس زياد بن أبيه فرتبها، واستطاع أن ينظم أمورها ويؤدب أهلها بعد عصيانهم^(٤)، وفي أيامه غدر أهل اصطخر فقام بغزوهم وتأديبهم^(٥)، وفي سنة ٣٨هـ أرسل معاوية بن أبي سفيان رجلاً إلى البصرة ليدعو له بين أهلها، إلا أن زياد بن أبيه نائب ابن عباس على البصرة تمكن من مقاومته ومدافعتة حتى قتل الرجل في إحدى دور البصرة^(٦).

وكان ابن عباس يرافق علياً في كثير من تحركاته في نواحي العراق، وإذا وقعت بعض الأشياء، وابن عباس في البصرة كان علي يطلعه عليها بالكتب التي كان يرسلها إليها باستمرار ويأخذ رأيه في كثير من القضايا عن طريق المراسلة، كما كان ابن عباس أيضاً يكتب لعلي عن شؤون ولايته، كما بعثه علي سنة ٣٨هـ على الحج نيابة عنه، وقد استمر ابن عباس في ولاية البصرة إلى استشهاد علي أخذاً برأي الطبري في ذلك وقد وجد مجموعة من المساعدين لوالي البصرة أيام علي فيهم القاضي، وصاحب الشرطة، وصاحب الخراج وغيرهم، كما كانت تتبع ولاية

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» ص (٢٠١)، و«الولاية على البلدان» (١٦/٢).

(٢) «الكامل في التاريخ» (٣٥١/٢، ٣٥٢).

(٣) «الولاية على البلدان» (١٦/١)، و«تاريخ الطبري» (٥٩٥/٥ إلى ٦١٥).

(٤) «تاريخ الطبري» (٥٢/٦، ٥٣).

(٥) «الأخبار الطوال» (ص ٢٠٥)، و«الولاية على البلدان» (١٦/٢).

(٦) «الولاية على البلدان» (١٦/٢) نقلاً عن «تاريخ خليفة بن خياط».

البصرة مجموعة من الأقاليم في بلاد فارس، وما سبق يتبين لنا أن علي بن أبي طالب بعد مبايعته بادر إلى عزل ابن عامر والي عثمان على البصرة، وعين مكانه عثمان بن حنيف، ولكن حملة الجمل أحدثت ارتباكاً في البصرة، وبالتالي خرجت من سيطرة عثمان بن حنيف، فاضطر إلى مغادرتها حتى قدم علي رضي الله عنه، وبعد موقعة الجمل عمل علي على تنظيم أمورها^(١). كما وقعت بعض الاضطرابات في البصرة من جراء حركة الخوارج، وكذلك أثناء محاولة معاوية السيطرة عليها، إلا أن البصرة مع ذلك استمرت إحدى الولايات الإسلامية التابعة لخلافة علي طيلة عصره، ولم يتمكن خصومه من السيطرة عليها^(٢)، وبرزت في البصرة قدرات ابن عباس القيادية، وقد انتفع بصحبته لعلي رضي الله عنه، وتأثر به غاية التأثر وكان أمير المؤمنين علي يتعهد بالنصح والإرشاد والموعظة بين الحين والآخر حتى إن ابن عباس قال: ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانتفاعي بكتاب كتب به إليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فإنه كتب إليّ: أما بعد، فإن المرء يسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، ويسره درك ما لم يكن ليفوته، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها، وما نلت من دنياك فلا تكثرن به فرحاً، وما فاتك منها فلا تأس عليه حزناً، وليكن همك فيما بعد الموت^(٣).

وقد كان ابن عباس من أهل القيام، فعن ابن مليكة قال: صحبت ابن عباس من مكة إلى المدينة، فكان يصلي ركعتين، فإذا ترك، قام شطر الليل، ويرتل القرآن حرفاً حرفاً، ويكثر في ذلك من النشيج والنحيب^(٤)، وقد كان رضي الله عنه غزير الدمعة حتى أثر ذلك على خديه، فعن أبي رجاء، قال: رأيت ابن عباس وأسفل من عينيه مثل الشراك البالي من البكاء^(٥)، وكان رضي الله عنه يصوم الاثنين والخميس، فعن سعيد بن أبي سعيد، قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل، فقال: يا بن عباس، كيف صومك، قال: أصوم الاثنين والخميس، قال: ولم؟ قال: لأن

(٣) «صفة الصفوة» (١/٣٢٧).

(٥) المصدر نفسه (٣/٣٥٢).

(٢،١) «الولاية على البلدان» (١٧/٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٣/٣٥٢).

الأعمال ترفع فيهما، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم^(١)، وكان كريماً جواداً يحفظ لأهل السبق مكانتهم ومنزلتهم، فقد تعرض أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه لأزمة مالية وأثقلته الديون، فنزل على ابن عباس، ففرغ له بيته، وقال: لأصنعن بك كما صنعت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: كم دينك؟ قال: عشرون ألفاً، فأعطاه أربعين ألفاً، وعشرين مملوكاً، وكل ما في البيت^(٢)، وكان من أبلغ الناس، وله قدرة عجيبة على تفهيم المستمعين، فعن الأعمش قال: حدثنا أبو وائل قال: خطبنا ابن عباس، وهو أمير على الموسم، فافتتح سورة النور، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثل هذا، لو سمعته فارس، والروم، والترك لأسلمت^(٣)، وكان رضي الله عنه من أجمل الناس وأفصح الناس، وأعلم الناس، فعن مسروق قال: كنت إذا رأيت ابن عباس، قلت: أجمل الناس، فإذا نطق، قلت أفصح الناس، فإذا تحدث، قلت: أعلم الناس^(٤)، وقال القاسم بن محمد: ما رأيت في مجلس ابن عباس باطلاً قط^(٥)، وقد أصيب رضي الله عنه ببصره قبل وفاته وقد قال في ذلك شعراً:

إِنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا
فَفِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورٌ
قَلْبِي ذَكِيٌّ وَعَقْلِي غَيْرُ ذِي دَخَلٍ
وَفِي فَمِي صَارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثُورٌ^(٦)

وابن عباس رضي الله عنه نموذج رائع للعالم الرباني، والقائد المحنك والأمير العادل، وهو أحد المؤثرين في الأحداث في عهده، وهو باختصار من أفضل النماذج لورثة الأنبياء.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/٣٥٢)، وإسناده فيه ضعف إلا أن فعل ابن عباس ثابت عن النبي رضي الله عنه حيث قال: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»، رواه الترمذي رقم (٧٤٧) حديث حسن.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/٣٥٢) فيه انقطاع.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/٣٥١)، و«الحلية» (١/٣٢٤).

(٤) المصدر نفسه (٣/٣٥١).

(٦) المصدر نفسه (٣/٣٥٧).

تاسعاً: ولاية الكوفة:

استشهد عثمان رضي الله عنه وواليه على الكوفة أبو موسى الأشعري، وبعد مبايعة علي بالخلافة أقر أمير المؤمنين علي أبا موسى الأشعري على ولايته، وقد أخذ له البيعة من أهلها وكتب له بموقف أهل الكوفة من بيعته من حيث تقبل الكثير للبيعة^(١)، وعندما خرج أمير المؤمنين من المدينة للعراق كان يسأل عن أبي موسى خصوصاً، ففي أثناء الطريق إليها لقيه رجل من أهل الكوفة، فسأله علي رضي الله عنه عن أبي موسى فقال: إن أردت الصلح، فأبو موسى صاحب ذلك، وإن أردت القتال، فأبو موسى ليس بصاحب ذلك، قال: والله ما أريد إلا الإصلاح حتى يرد علينا قال: قد أخبرتك الخبر^(٢).

وقد تبين فيما بعد ميل أبي موسى إلى الصلح والمسالمة وعدم القتال بين المسلمين، فقد بعث علي محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر والحسن بن علي وغيرهم في وفود مختلفة لاستنفار أهل الكوفة قبل موقعة الجمل - سيأتي الحديث عنها بالتفصيل لاحقاً إن شاء الله تعالى - فسأل أهل الكوفة أبا موسى عن الموقف، واستشاروه في الخروج: فقال: أما سبيل الآخرة فإن تقيموا، وأما سبيل الدنيا فإن تخرجوا وأنتم أعلم^(٣)، وقد اقتنع العديد من أهل الكوفة بعد ذلك بالخروج مع الحسن رضي الله عنه بعد محاورات متعددة وطويلة بينهم وبين الحسن، وقيل إنه خرج معه قرابة تسعة آلاف رجل^(٤)، وتميل العديد من الروايات إلى أن ولاية أبي موسى على الكوفة قد انتهت في هذه الفترة قبيل موقعة الجمل، حيث تذكر بعض الروايات أن الأشتر - وكان أحد قواد علي رضي الله عنه - قد طرد أبا موسى وغلمانه من قصر الكوفة وتغلب عليه^(٥).

كما ذكرت بعض الروايات أن علياً رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى بعزله، وعين

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٥١١).

(٤) «تاريخ الطبري» (٥/٥١٧).

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٦٧).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٥٠٨).

(٥) «تاريخ الطبري» (٥/٥١٩).

مكانه «قرضة ابن كعب الأنصاري» واليا على الكوفة^(١)، ثم إن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قدم الكوفة بعد موقعة الجمل حيث أصبحت الكوفة قاعدة الخلافة، وبالتالي كان علي رضي الله عنه هو المسؤول مباشرة عن أحوال الكوفة وما يتبعها من ولايات، وأصبح لها مكانة خاصة بقية عصره، حيث كانت عاصمة الخلافة ومنها يدير أمير المؤمنين علي رضي الله عنه مختلف أنحاء الدولة، وإليها تقدم الوفود، ومنها تخرج الأجناد، كما كان ذلك سبباً في جذب السكان إليها، ولاشك أن هذا كان له دور كبير في تنشيط الحركة التجارية والعمرانية في الكوفة طيلة خلافة علي، وقد كان رضي الله عنه كثير الاهتمام بالكوفة ويفقد أهلها بنفسه كما يحرص على تعيين من ينوب عنه في ولايتها في حال غيابه، فحينما أراد علي رضي الله عنه الخروج إلى صفين ولّى على الكوفة «أبا مسعود البدري»^(٢) وحينما أراد التوجه لقتال الخوارج في «النهروان»^(٣)، ولّى على الكوفة «هانسي بن هوذة النخعي»^(٤)، فلم يزل بالكوفة حتى استشهد علي رضي الله عنه^(٥).

ومما سبق نلاحظ أن الكوفة كانت تدار من قبل الولاة، حتى إذا اتخذها علي رضي الله عنه مقراً للخلافة أصبح هو المسؤول عن ولايتها، وأخذ ينوب عنه من يتولي شؤونها في غيابه، وأصبحت الكوفة ذات أهمية خاصة؛ نظراً لإقامة أمير المؤمنين فيها^(٦).

عاشراً: ولايات الشرق:

١- فارس: تذكر المصادر أن علي بن أبي طالب ولّى على فارس سهل بن حنيف الأنصاري رضي الله عنه، وقد استمر والياً على فارس فترة من الوقت، ثم إن أهل فارس عصوا وأخرجوا سهل بن حنيف سنة ٣٧هـ تقريباً، فاتصل علي رضي الله عنه بابن

(١) «الاستبصار»، لابن قدامة (ص ١٢٤)، و«الولاية على البلدان» (١٩/٢).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤٩٣/٢).

(٣) هي كورة واسعة بين بغداد وواسط بها العديد من القرى، وبها وقعة أمير المؤمنين علي مع الخوارج «معجم البلدان» (٣٢٤/٥).

(٤) «الولاية على البلدان» (٢٠/٢)، و«تاريخ خليفة» ص (١٨٧، ٢٠٢). (٦٠٥) المصدر نفسه (٢٠/٢).

عباس رضي الله عنه، وتباحث معه في شأن فارس، وكان ابن عباس على البصرة، فاتفق معه بعد استشارة مجموعة من الناس على أن يبعث ابن عباس مساعده زياد بن أبي سفيان على فارس^(١)، وهنا يبدو الارتباط واضحاً بين ولاية البصرة وإقليم فارس، وإحساس ابن عباس بمسؤوليته عن ذلك الإقليم من خلال مباشرته لولاية البصرة؛ إذ اتفق ابن عباس مع علي على بعث أحد معاونيه إلى ذلك الإقليم لضبطه وترتيب أموره، وقد توجه زياد إلى فارس يصاحبه أربعة آلاف جندي، فدوخ تلك البلاد وقضى على الفتنة فيها وتمكن من ضبطها^(٢)، وقد اشتهر زياد بمقدرة سياسية فذة مكنته من إعادة الاستقرار إلى تلك البلاد بأقل الخسائر^(٣)، يقول الطبري: لما قدم زياد فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه، وخوف قوماً وتوعدهم وضرب بعضهم ببعض، ودل بعضهم على عورة بعض، وهربت طائفة وأقامت طائفة فقتل بعضهم بعضاً، وصفت له فارس فلم يلقَ فيها حمياً ولا حرباً، وفعل مثل ذلك بكرمان^(٤)، ثم رجع إلى فارس فسار في كورها ومناهم فسكن الناس إلى ذلك فاستقامت له البلاد^(٥)، وقد قام زياد بتنظيم أمور فارس، وبنى فيها بعض الحصون، وقام بترتيب شؤون الخراج فيها، كما ضبط العديد من البلدان التابعة لولايته حتى أمنت البلاد واستقامت^(٦)، وقد استمر زياد والياً على فارس بقية خلافة علي رضي الله عنه، وكان زياد أشهر ولاة علي على فارس نظراً لسياسته وتمكنه من ضبطها^(٧).

وقد وجدت بعض التقسيمات الإدارية داخل إقليم فارس، فقد ورد ذكر بعض الولاة المختصين ببلدان معينة داخل الإقليم، فقد ذكرت اصطخر وذكر أنه كان من ولايتها المنذر ابن الجارود^(٨)، وجرت بينه وبين علي رضي الله عنه بعض المكاتبات^(٩)، كما

(٢) المصدر نفسه (٥٣/٦).

(٤) «تاريخ الطبري» (٥٣/٦).

(٦) «تاريخ الطبري» (٥٣/٦).

(٨) «الطبقات الكبرى» (٥٦١/٥) (٨٧/٧).

(١) «تاريخ الطبري» (٧١/٦).

(٣) «ولاية البلدان» (٢١/٢).

(٥) المصدر نفسه (٥٢/٦).

(٧) «الولاية على البلدان» (٢١/٢).

(٩) «تاريخ يعقوبي» (٢٠٣/٢)، و«الولاية على البلدان» (٢٢/٢).

أن زياد بن أبي سفيان سكنها وتحصن بها بعد مقتل علي رضي الله عنه^(١)، كما ذكرت من بلدان فارس أصبهان التي تعد من أكبر كورها^(٢)، وقد ذكر من ولايتها لعلي محمد ابن سليم^(٣)، كما كان من أشهر ولاية أصبهان لعلي «عمر بن سلمة»، وقد قدم بأموال وطعام من أصبهان إلى أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب^(٤)، وقد ضربت الدراهم زمن علي في هذه المناطق الفارسية سنة ٣٩هـ ولا يزال بعض منها محفوظاً في المتحف العراقي وتحمل عبارات عربية، إضافة إلى تاريخ ضربها^(٥).

٢- خراسان: تعتبر خراسان ولاية واسعة، وقد ارتبطت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بولاية البصرة في عهد الخلفاء الراشدين، وفي خلافة علي رضي الله عنه ورد ذكر العديد من الحوادث التي وقعت في هذه الولاية خلال تلك الفترة، كما ورد بعض ولايتها، وبعض الأمراء على كورها وبلدانها، فقد ورد أن أول ولاية علي على خراسان عبد الرحمن ابن أبزي^(٦)، كما كان من ولاية علي على خراسان جعدة بن هبيرة بن أبي وهب^(٧)، وقد بعثه علي رضي الله عنه إلى خراسان، بعد عودته من صفين سنة ٣٧هـ، وكان أهل خراسان قد ارتدوا فحاول تأديبهم وتنظيم البلاد مرة أخرى^(٨)، إلا أنه على ما يبدو لم ينجح، فبعث علي أحد قواده إلى خراسان، حتى تمكن من مصالحة أهلها، وضبط أمورها مرة أخرى^(٩)، كما تعد سجستان أحد الأقاليم المجاورة لخراسان، وكلا الإقليمين مرتبطان إلى حد ما بوالي البصرة، وفي الغالب فإن هناك ارتباطاً إدارياً بين الإقليمين، وقد ورد ذكر بعض ولاية سجستان في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومن هؤلاء عبد الرحمن ابن جزء الطائي^(١٠)، وقد بعثه علي رضي الله عنه إلى سجستان بعد موقعة الجمل، فقام

(٢) «معجم البلدان» (١/٢٠٧).

(٤) «الكامل في التاريخ» (٢/٤٤٢).

(٦) «فتوح البلدان» (ص ٣٩٩).

(١) «الأخبار الطوال» (ص ٢١٩)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٢).

(٣) «الأخبار الطوال» ص (١٥٣)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٢).

(٥) «الدراهم الإسلامية للخلفاء الراشدين» ص (٥) لوداد القزاز.

(٧) تهذيب الكمال (١/١٩١)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٣).

(٨) فتوح البلدان ص (٣٩٩)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٣).

(٩) تاريخ خليفة بن خياط ص (١٩٩)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٣).

(١٠) «الولاية على البلدان» (٢/٢٣).

ثوار من صعاليك العرب بقتله ، وعاثوا فساداً في البلد ، فكتب علي إلى ابن عباس في البصرة أن يوجه أميراً آخر إلى سجستان فوجه ربعي بن كأس العنبري ، فاستطاع القضاء على ثورة الصعاليك ، وقتل زعيمهم وضبط أمور البلاد ، واستقر بها إلى أن استشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(١) ، وكانت همدان : أحد الثغور الشرقية ، وقد امتازت أثناء ولاية عثمان بوجود وال مستقل فيها ، وتوفي عثمان وعليها جرير بن عبد الله البجلي ، وبعد مبايعة علي بالخلافة ووصوله إلى العراق بعث إلى جرير بن عبد الله في همدان يأمره بأخذ البيعة له بالخلافة على من قبله من الناس والقدوم إليه^(٢) ، وبعث بالرسالة مع رجل يعتمد عليه وقال : إني بعثت إليك بفلان ، فاسأله عما بدا لك ، واقرأ كتابي هذا على المسلمين^(٣) ، وقد قدم جرير إلى علي في الكوفة فبعثه إلى معاوية في الشام ، ثم عاد مرة أخرى وتعرض للإهانة من قبل بعض أجناد علي ، ومنهم الأشتر وغيره فلحق جرير بمعاوية في الشام ، وترك ولايته وكان ذلك قبيل موقعة صفين^(٤) .

٣- أذربيجان : كان الأشعث بن قيس عاملاً على أذربيجان حينما توفي عثمان ابن عفان ، فلما بويع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة كتب إلى الأشعث بن قيس أن يبائع له ، وأن يأخذ له البيعة على من قبله^(٥) ، ويبدو أن علياً رضي الله عنه استقدم الأشعث بن قيس فلحق بعلي في الكوفة ، ثم شهد معه المشاهد حيث اشترك معه في صفين^(٦) ، وفي قتال الخوارج ، ويبدو أن علياً رضي الله عنه ولّى علي أذربيجان خلال هذه الفترة سعيد بن سارية الخزاعي ، ثم أعاد الأشعث بن قيس مرة أخرى على أذربيجان ، ويظهر أن علياً ضم إليه ولاية أرمينية ، كما صرح بذلك البلاذري^(٧) ، وقد كانت للأشعث بن قيس بعض الأعمال الهامة أثناء ولاية

(١) «فتوح البلدان» ص (٣٨٧) ، و«الأخبار الطوال» ص (١٥٣) ، و«الولاية على البلدان» (١٥٣/٢) .

(٢) «تاريخ الطبري» (٥٩٩/٥) .

(٣) «الفتوح» لابن أعمم الكوفي (٣٦٣/٢) ، و«الولاية على البلدان» (١٦٧/٢) .

(٤) «تاريخ الطبري» (٦٠٠/٥ ، ٦٠١) . (٥) «تاريخ الطبري» (٥٩٩/٥) .

(٦) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٩٣) ، و«الولاية على البلدان» (٢٤/٢) .

(٧) «فتوح البلدان» (ص ٢٠٧) ، و«الولاية على البلدان» (٢٤/٢) .

أذربيجان لعلي ومن ذلك إنزاله مجموعة من العرب من أهل العطاء أردبيل^(١)، وتمصيرها وبناء مسجدها بعد أن انتشر الإسلام بين أهلها^(٢)، وقد وردت بعض الأسماء لولاية علي في بعض بلدان المشرق الأخرى، من ذلك أسماء بعض الولاة في الأهواز، ومنهم الخريت بن راشد، وقد كان والياً على بعض بلاد الأهواز قبل صفين، فلما رجع علي من صفين أخذ الخريت يجمع الجنود، ويدعو إلى خلع علي، واستولى على بعض الأماكن فبلغ ذلك علياً فوجه إليه جيشاً تمكن من القضاء على حركته وقتله^(٣)، وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل بإذن الله تعالى.

ومن الأمراء لعلي في الأهواز مفضلة بن هبيرة الشيباني^(٤)، وقد اشترى أسرى من بعض أجناد علي فأعتقهم، ولم يتمكن من تسديد كامل ثمنهم، ثم فر إلى معاوية في الشام^(٥)، وقد أورد خليفة بن خياط والياً لعلي على بلاد السند، وذكر أنه جمع جمعا أيام علي وتوجه إلى السند، بعد أن اجتمع إليه الناس، ولكنه فشل في إحدى المعارك ومن معه، ولم يبق من جيشه إلا عصابة يسيرة^(٦) كما ذكر من ولاية علي (يزيد بن حجية التميمي) وقد استعمله علي على الري بعد صفين، ثم اتهمه علي رضي الله عنه بأنه أخذ من الخراج فحبسه في الكوفة، ثم فر إلى معاوية في الشام^(٧)، وأما المدائن فقد كان عليها سعد بن مسعود الثقفي وقد كان له دور رئيسي في مجابهة الخوارج، ودارت بينه وبين علي وقواده العديد من المراسلات في شأنهم، حيث حاولوا الوصول إلى المدائن^(٨)، وقد اشتهر عن سعد توليته ابن أخيه - المختار بن أبي عبيد الثقفي^(٩) - على

(١) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان وهي قاعدتها قبل الإسلام واشتهرت بذلك في صدر الإسلام وتقع حالياً على بعد ٦٤ شرق تبريز، «معجم البلدان» (١/١٤٥).

(٢) «فتوح البلدان» ص (٣٢٤)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٥).

(٣) «تاريخ يعقوبي» (٢/٩٥)، و«تاريخ الطبري» (٦/٢٧-٤٧).

(٤) «الأنساب» للسمعاني (٧/٤٣٨)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٥).

(٥) «البداية والنهاية» (٧/٣١٠)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٥).

(٦) «تاريخ خليفة» (ص ٢٠٠)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٥).

(٧) «نهاية الأرب» (٢٠/١٩٧)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٦).

(٨) «تاريخ الطبري» (٥/٦٩٠).

(٩) المصدر نفسه (٥/٦٩٠).

المدائن في حالة غيابه ، وقد غضب علي على المختار الثقفي نتيجة تصرفه تصرفاً غير شرعي في أموال الخراج^(١) ، ويعتبر سعد من قواد علي المشهورين ، ولعل قرب ولايته من الكوفة كان السبب الرئيسي في اشتراكه مع علي في الكثير من المواقع ، وقد أورد المؤرخ أبوحنيفة الدينوري بعض الأسماء لولاة علي في مناطق مختلفة^(٢) ، وهكذا رأينا فيما سبق أن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه بذل جهداً كبيراً في تنظيم الولايات ، وأنه عانى من الصعوبات والمشكلات الكثيرة في هذه الولاية ، فقد خرجت العديد من الولايات من يده كاليمن والحجاز ومصر ، كما أنه لم يفرض سيطرته ابتداءً على بعض الولايات كالشام وفلسطين وما جاورها ، وأما البلاد والولايات التي استمرت تحت حكمه كالعراق وفارس ، فقد عانى فيها من المشكلات الكثيرة ، وعلى رأسها مشكلة الخوارج الذين ظهروا في تلك المناطق خصوصاً في السنوات الأخيرة من حكم علي رضي الله عنه ، وبالتالي فإن الاستقرار في تلك المناطق لم يكن تاماً ، كما أن أهل البلاد الأصليين في بلاد المشرق كفارس وخراسان وسجستان قاموا بالعديد من الثورات التي قتل فيها بعض ولاة علي رضي الله عنه ، ومن أبرز المشكلات التي واجهها علي ما وقع له من خلاف مع بعض الولاة ، وبالتالي تخلى عن ولاياتهم ؛ كجدير بن عبد الله في همدان ، ومصقلة بن هبيرة في الأهواز وغيرهم وهكذا يتضح أن علياً رضي الله عنه قضى مدة خلافته في جهاد داخلي مع جبهات داخلية منعتة في كثير من الأحيان من تنظيم شؤون تلك البلاد كما أراد ، وواجهته العديد من العقبات التي بددت طاقته ، واستنفدت جهوده رضي الله عنه ، وقد شغلت هذه المشكلات اهتمام المؤرخين فركزوا عليها الأضواء وكان هذا على حساب رصدتهم للشؤون التنظيمية والإدارية لهذه الولايات^(٣) .

(١) التمهيد والبيان (ص ١٨٦) ، و«الولاية على البلدان» (٢٦/٢) .

(٢) «الأخبار الطوال» (ص ٢٦) ، نقلاً عن «الولاية على البلدان» (٢٦/٢) .

(٣) «الولاية على البلدان» (٢٧/٢) ، جل هذا المبحث من كتاب «الولاية على البلدان» للدكتور عبد العزيز العمري وهو من أفضل ما اطلعت عليه في هذا الباب ، فجزاه الله خيراً .

المبحث الثاني

تعيين الولاة في عهد علي رضي الله عنه

بويع علي رضي الله عنه بالخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وقد وقع الاضطراب في مختلف أنحاء الدولة نتيجة مقتل عثمان، وبالتالي فإن علياً رضي الله عنه بويع في ظروف صعبة بدأت الدولة الإسلامية خلالها تفقد الشيء الكثير من استقرارها ونشاطها، وقد ظهر هذا الاضطراب واضحاً في المدينة نفسها، وقد بدأت الأمور تضطرب في مختلف أنحاء الدولة وأحس المستشارون والنصحاء بخطورة ما يقع، فتقدم بعضهم بنصائح إلى علي فيما يمكن أن يفعله من البداية وخصوصاً فيما يتعلق بالولاة على البلدان^(١).

أولاً: موقف علي من ولاة عثمان وتعيينه لأقاربه:

١- موقف علي من ولاة عثمان:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يدرك إدراكاً كاملاً، أن من الأسباب الرئيسية للفتنة، عدم رضا مجموعة من الناس عن ولاة عثمان رضي الله عنه، وذلك بسبب ما أشاعه رؤوس الفتنة ضد عثمان وولاته وليس لعجزهم أو ظلمهم، ولكن الكثير من الكتاب المعاصرين في حديثهم عن سياسة علي في تولية الولاة، يستفتحون بقولهم: إن علياً لم يكن ليرضى أن يبقى عمال عثمان على ولاياتهم ساعة واحدة بعد توليه الخلافة، يمنع من ذلك دينه وأمانته^(٢)، وما أفضح هذا الاتهام الموجه ضد عثمان رضي الله عنه وضد عماله وقد نسفته في كتابي: «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان»، وتحدثت عن حقيقة ولاة عثمان في مبحث كامل^(٣)، فمن أراد المزيد فليرجع إليه.

لقد اعتمد من طعن في ولاة عثمان على روايات واهية ومشهورة وهي:

(١)، و«الولاية على البلدان» (٢/٢٧، ٢٨).

(٢) «الخلفاء الراشدون» للنجار ص (٣٧٤).

(٣) «عثمان بن عفان» للصّلابي (ص ٢٦٤ - ٢٨٩).

أ- الرواية الأولى: من طريق الواقدي: إن ابن عباس قال: دعاني عثمان فاستعملني على الحج، ثم قدمت المدينة وقد بويع لعلي رضي الله عنه، فأتيته في داره، فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به فحبسني حتى خرج من عنده، فقلت: ماذا قال هذا؟ قال: قال لي قبل مرته هذه: أرسل إلى عبد الله بن عامر، وإلى معاوية، وإلى عمال عثمان بعهدهم تقرهم على أعمالهم، يباعدون لك الناس؛ فإنهم يهدئون البلاد ويسكنون الناس، فأبيت ذلك عليه يومئذ وقلت: والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيي، ولا وليت هؤلاء ولا مثلهم يولي، قال: ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يرى أنه مخطئ، ثم عاد إلي الآن فقال: إني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت عليك وخالفتني فيه، ثم رأيت بعد ذلك رأياً، وأنا أرى أن تصنع الذي رأيت فتزرعهم وتستعين بمن تثق به، فقد كفى الله، وهم أهون شوكة مما كان، قال ابن عباس: فقلت لعلي: أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الأخيرة فقد غشك، قال لي علي: ولو نصحتني؟ قال ابن عباس: لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يباليون بمن ولي الأمر، ومتى تعزلهم يقولون: أخذ هذا الأمير بغير شوري، وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك، فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق، مع أنني لا آمن طلحة والزبير أن يكررا عليك فقال علي: أما ما ذكرت من إقرارهم فوالله ما أشك أن ذلك خير في عاجل الدنيا لإصلاحهم، وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي منهم أحداً أبداً، فإن أقبلوا فذلك خير لهم، وإن أدبروا بذلت لهم السيف، قال ابن عباس: اطعني وادخل دارك والحق بمالك بينبع، وأغلق بابك عليك؛ فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك، فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً، فأبى علي، فقال لابن عباس: سر إلى الشام فقد وليتكها، فقال ابن عباس رضي الله عنه: ما هذا برأي، معاوية من بني أمية، وهو ابن عم عثمان رضي الله عنه وعامله على الشام، ولست آمن أن يضرب عنقي لعثمان، أو أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم

علي، فقال له علي رضي الله عنه: ولم؟ قال: لقراصة ما بيني وبينك، وإن كان ما حمل عليك حمل علي، ولكن اكتب إلى معاوية فمَنِّه وَعِدْهُ فأبى علي رضي الله عنه، وقال: والله لا كان هذا أبداً^(١).

ب - الرواية الثانية: وهي مثل الرواية الأولى في المعنى، وفيها زيادة واختلاف يثير الشك في صحتها، وهو أن ابن عباس رضي الله عنهما قدم مكة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه فلقي في طريقه الزبير وطلحة ومعهما فئة من قريش بالناوصف^(٢)، يريد مكة وهذا يخالف الحقيقة؛ إذ إن علياً بويح بعد أن وصل ابن عباس من الحج، وأن الزبير وطلحة قد بايعا علياً، فإذا خرجا في هذا الوقت يكونا قد خرجا قبل البيعة، وهذا خطأ واضح جلي^(٣).

ج - الرواية الثالثة: رواية أبي مخنف، رواها بدون إسناد، بأن المغيرة بن شعبة أشار على علي أن يثبت معاوية على الشام، وأن يولي طلحة والزبير، البصرة والكوفة، فاعترض ابن عباس رضي الله عنهما على رأيه؛ لأن البصرة والكوفة عين المال ومصدره، فإذا ولاهما ضيقا على علي، وأن ولاية معاوية الشام لا تنفعه وقد تضره، فاستمع علي رضي الله عنه إلى رأي ابن عباس، ولم يقبل مشورة المغيرة بن شعبة^(٤).

د - الرواية الرابعة: وردت رواية الواقدي الأولى بشيء من الاختصار عن ابن عبدالبر^(٥)، ولكن بدل ابن عباس، الحسن^(٦).

إن هذه الروايات يأتي خطرهما من حيث إنها الأساس الذي بنيت عليه أهم الدراسات المعاصرة، وخرجت منها بنتائج خطيرة تطعن في أكابر الصحابة أهل الشورى، في دينهم وفي عدلهم وأمانتهم، وتصورهم أفراداً ماديين همهم الثروة

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٦١ - ٤٦٣).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٤٦٣).

(٣) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي (ص ١٠٣).

(٤) «أنساب الأشراف» (٢/٣٦).

(٥) «الاستيعاب» (٢/٣٧١) بحاشية الإصابة.

(٦) «خلافة علي بن أبي طالب» لعبد الحميد (ص ١٠٣)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي، عهد الخلافة الراشدة (ص ٥٣٧).

والسلطان ولو على حساب دماء المسلمين، وما الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان وما حرب الجمل إلا بسبب هذه الأطماع الشخصية^(١)، ويظهر الاضطراب والنعارة في متن هذه الروايات في جل فقراتها، فقوله: إن ابن عباس قدم المدينة بعد بيعة علي يخالف الروايات الموثوقة في أنه جاء قبل أن يبايع بالخلافة وقد تقدم وقوله: أشار المغيرة على علي بأن يرسل إلى عبد الله ابن عامر، وإلى معاوية، وإلى عمال عثمان بعهودهم يقرهم على أعمالهم؛ يخالف روايات أوثق منها تفيد أن معظم هؤلاء الولاة قد تركوا ولاياتهم واتخذوا سبيلهم إلى مكة، فكيف يرسل إليهم بإثباتهم وهم قد تركوا البلاد؟ قوله: إن علياً قال في هؤلاء الولاة: والله لو كانت ساعة من نهار لأجهدت فيها رأيي ولا وليت هؤلاء، ولا مثلهم يولّى، يخالفه أن هؤلاء الولاة مؤهلون للإمارة والقيادة، فقد توسعت على أيديهم الدولة الإسلامية، فعبد الله بن عامر وصلت فتوح البصرة في ولايته إلى كابل - عاصمة أفغانستان - أما معاوية فلولا أنه لم يكن مؤهلاً ما ولي عشرين عاماً. . . وقد بينت أن عدم رضا مجموعة من الناس عن عمال عثمان هو بسبب ما أشاعه أهل الفتنة عنهم، وليس لعجزهم، والواقع التاريخي يثبت ذلك، وتصور الرواية الواهية المغيرة بن شعبة بالمداهنة والغش، وعدم المبالاة بمصلحة المسلمين، وفي هذا الوقت العصيب بالذات، وهذا لا يوافق أخلاقه وسيرته قبل الفتنة وبعدها كما تصور - عن حسن نية - علياً رضي الله عنه بالجاهل في هذه الأمور السياسية، وأن المغيرة وابن عباس هما العارفان بهذه الأمور^(٢)، وأما رواية أبي مخنف، فإن ابن عباس يشير على علي بعزل معاوية رضي الله عنه، وأن ولايته لا تنفعه «سياسياً» بخلاف روايات الواقدي - وفيها أن الصحابين الجليلين طلحة والزبير إذا ولاهما على مصري العراق، فسيستأثران بموارده المالية، ولن يرها^(٣) الخليفة. إن الروايات السابقة واهية من حيث السند، وهذا كافٍ في إسقاطها ثم

(١) «علي وبنوه» لظه حسين، و«إسلاميات» (٨٥٠، ٨٥١، ٨٥٤)، و«عبرية علي» للعقاد ص (٥٣، ٥٥، ٧٥).

(٢) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي (ص ١٠٥).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٠٦).

هي مضطربة ومنكرة من حيث المتن، وهي روايات افتراضية إذا حدث كذا فسيحدث كذا، فهي لا تنقل الخبر التاريخي على حقيقته، والأهواء، وتدخل الراوي بشخصه وميوله الراضية أثر في ذلك^(١).

وما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من تعيين ولاية جدد أدعى إلى بيعة الناس في تلك البلاد البعيدة، وليجدد بهم عهد الفتوحات، ويفسح المجال أمام العبقريات الجديدة أن تنطلق وتخدم دين الله تعالى^(٢).

إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يمتلك موهبة قيادية ومعرفة بالنفوس والأوضاع القائمة، وأنه أقال الولاية ليختار سواهم حسبما يراه ملائماً لتحقيق الانسجام الإداري والسياسي بين الخليفة وأعوانه، وقد عزل عمر بعض ولاية أبي بكر، كما عزل عثمان بعض ولاية عمر، وبالتالي من حق علي أن يعزل من يرى أن المصلحة متحققة بعزله وتعيين غيره^(٣)، وقد جانب الصواب بعض المؤلفين المعاصرين في قضية عزل علي لولاية عثمان رضي الله عنه فاشتتت أقلامهم في تفسير هذا الموقف، فمنهم من حمله على صلابه علي في الحق وضرورة التغيير، ومنهم من حمله على ضعف خبرة علي السياسية، وأن الأولى سياسياً إبقاء الولاية وخاصة معاوية، حتى تستقر الأوضاع، وتؤخذ البيعة لعلي في الأمصار، وهذه التفسيرات مدارها على روايات واهية وأخبار ضعيفة، تدور حول إبداء المغيرة بن شعبة، رأيين متعارضين حول الموقف من الولاية^(٤)، كما أن علياً رضي الله عنه إمام مجتهد، له أن يعزل جميع عمال عثمان، إذا رأى المصلحة في ذلك، وقد ولى رسول الله صلوات الله عليه وهو المعصوم خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، وعمرو بن العاص على عمان^(٥)، فعزلهما الخليفة من بعده الصديق رضي الله عنه، عزل خالداً وولي مكانه المهاجر ابن أبي أمية - له صحبة -، وعزل عمرًا

(١) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد علي (ص ١٠٦).

(٢) «علي بن أبي طالب»، لعبد الستار الشيخ (ص ١٧٦).

(٣) «عصر الخلافة الراشدة» (ص ١٢٩).

(٥) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٩٧).

(٤) «عصر الخلافة الراشدة» (ص ١٥٩).

وولى مكانه حذيفة بن محصن - له صحبة-^(١)، وقد ولى أبو بكر رضي الله عنه القائدين العظيمين خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة رضي الله عنهما، فعزلهما عمر رضي الله عنه مع كفاءتهما^(٢)، وولى الفاروق رضي الله عنه على مصر عمرو بن العاص^(٣)، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة رضي الله عنه^(٤)، فعزلهما ذو النورين، وولى على مصر ابن أبي سرح^(٥)، وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص^(٦)، فهل ينتقد عاقل الصديق والفاروق وذا النورين في عزلهم هؤلاء العمال الأكفاء، إن لكل وقت أحوالاً وظروفاً تطراً، فيحمل اللاحق على ما لا يراه السابق من الاجتهاد، ويرى الشاهد ما لا يراه^(٧) الغائب، وأما قول بعض الكتاب المعاصرين بأن أمير المؤمنين علي عزل جميع عمال عثمان، فإن العزل لم يتحقق إلا في معاوية بن أبي سفيان في الشام^(٨)، وخالد بن أبي العاص بن هشام في مكة^(٩)، وأما البصرة فخرج منها عبد الله بن عامر ولم يول عثمان عليها أحداً^(١٠)، وفي اليمن أخذ أميرها يعلى بن منية رضي الله عنه مال جباية اليمن، وقدم مكة بعد مقتل عثمان، وانضم إلى طلحة والزبير، وحضر معهما موقعة الجمل، ووفد ابن أبي سرح عامل مصر، واستتاب ابن عمه عليها، فلما رجع إليها وجد ابن أبي حذيفة تغلب عليها فطرده عنها، فذهب إلى الرملة بفلسطين ومكث بها حتى مات^(١١)، وهكذا فإن أميرَي اليمن والبصرة عزلا أنفسهما، وأمير مصر عزله المتغلب عليها ابن أبي حذيفة، وأمير الكوفة أقره علي رضي الله عنه في منصبه، فلم يرد العزل حقيقة إلا في حق معاوية والي الشام، وخالد بن أبي العاص والي مكة، كما أن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه ولى أخيار الناس على المسلمين، فمن الولاة الذين ولّاهم

- (١) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ١٢٣).
 (٢) المصدر نفسه (ص ١٥٥).
 (٣) «سير أعلام النبلاء» (٣٣/١)، و«الولاية على البلدان» (١٧/١/١).
 (٤) «تاريخ الطبري» (٢٥١/٥).
 (٥) «تاريخ الطبري» (٢٥١/٥).
 (٦) «المعجم الكبير» للطبراني (٢٦١/١٢)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٨١/١٥) رجاله رجال الصحيح.
 (٧) «تاريخ ابن خياط» ص (٢٠١)، و«الولاية على البلدان» (٣/٢).
 (٨) «سير أعلام النبلاء» (٣٥/٣)، و«الإصابة» ترجمة (٤٧١١).
 (٩) «تاريخ ابن خياط» (١٠٠/٢).
 (١٠) «تاريخ الطبري» (١٠٠/٢).

على الأقاليم سهل بن حنيف على الشام، وهو صحابي جليل شهد بدرًا وأحدًا، وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين انكشف الناس، وباعه على الموت، وجعل ينضح بالنبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد أيضاً الخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (١)، وولّى عثمان بن حنيف على البصرة، وهو صحابي من الأنصار، كان عاملاً لعمر على العراق (٢)، كما ولّى قيس بن سعد بن عبادة على مصر (٣)، وكان صاحب شرطة النبي صلى الله عليه وسلم وكان جواداً من ذوي الرأي والذكاء (٤)، وولى عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب على اليمن - له صحبة (٥)، وهو أصغر من أخيه بسنة، وكان كريماً ممدوحاً نبيلاً (٦)، وأما قول بعض الكتاب إنه عزل العمال قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار، فإن تولية الإمام العمال على الأمصار غير مشروطة بوصول بيعة أهلها له عند جميع المسلمين، فمتى بايع أهل الحل والعقد أي خليفة لزمّت بيعته جميع البلدان النائية عن مركز خلافته شرعاً وعقلاً، ولو كانت تولية الخليفة العمال على الأمصار متوقفة على وصول بيعة أهلها له ما تمت بيعة الصديق رضي الله عنه؛ لأنه تصرف بإرسال بعث أسامة ومحاربة المرتدين ومانعي الزكاة قبل وصول بيعة أهل مكة والطائف، وكذلك الفاروق رضي الله عنه فإنه استهل خلافته بعزل خالد بن الوليد وتولية أبي عبيدة بن الجراح قائداً عاماً على جيوش المسلمين بالشام قبل وصول بيعة أهل اليمن وجيوش المسلمين بالشام والعراق إليه، وتصرف ذو النورين رضي الله عنه في أمور المسلمين أيضاً قبل بيعة الأمصار إليه (٧).

٢. تعيين أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بعض أقاربه على الولايات:

تحدث الكتاب المعاصرون عن قضية تولية الأقارب على الولايات في خلافتي

(١) «الطبقات» (٣/٤٧١).

(٢) «النجوم الزاهرة» (٢/٩٤)، و«ولاية مصر» (ص ٤٤).

(٣) «الإصابة» (٣/٢٤٩)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٠١).

(٤) «تاريخ خليفة» ص (٢٠٠)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٠١).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٣/٥١٢).

(٦) «تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٠١).

عثمان وعلي، حيث إن عثمان عين عدداً من الولاة وقد تم تبين ذلك، وكانوا خمسة من بني أمية من ثمانية عشر والياً، وعندما توفي عثمان لم يكن من بني أمية من الولاة إلا ثلاثة وهم معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعبد الله بن عامر بن كرز؛ فقد عزل عثمان الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص، ولكنه عزلهما من أين؟ من الكوفة التي عزل منها عمر سعد بن أبي وقاص، الكوفة التي لم ترضى بوال أبدأ؛ إذن عزل عثمان رضي الله عنه لأولئك الولاة لا يعتبر مطعناً فيهم، بل مطعن في المدينة التي ولوا عليها^(١)، ثم إن الولاة الذين ولأهم عثمان رضي الله عنه من أقرابه قد أثبتوا الكفاءة والمقدرة في إدارة شؤون ولاياتهم، وفتح الله على أيديهم الكثير من البلدان وساروا في الرعية سيرة العدل والإحسان، ومنهم من تقلد مهام الولاية قبل ذلك في عهد الصديق والفروق رضي الله عنهما^(٢)، وقد قام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالسير على منهج عثمان في تولية أصحاب الكفاية والمقدرة والصلاح من الأقارب على الولايات وهم من أبناء عمه العباس بن عبد المطلب، وهم على التوالي: عبد الله بن عباس، وعبيد الله بن عباس، وقثم وتامر ابنا العباس، ومحمد بن أبي بكر ربيبه وغيرهم، والتحقيق يثبت أن كلاً من علي وعثمان عينا من يغلب على ظنهما كفاءته، ولا يتصور أنهما قدما الأقارب بسبب القرابة، وكانت الظروف التي تسود الولايات تقتضي اختياراً دقيقاً للولاة من حيث القوة والأمانة، فلا تزال الفتوحات في الأقاليم الشرقية غير مستقرة، فضلاً عن مشكلات الخوارج في خلافة علي^(٣)، ولو تأملنا في أسباب ولاة علي رضي الله عنه؛ لوجدنا أحد عشر والياً منهم من الأنصار من بين ستة وثلاثين والياً، وسبعة منهم من قريش - بينهم أربعة من أبناء العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهم - وهذه قائمة بأسماء الولاة في خلافة علي^(٤):

١- سهل بن حنيف الأنصاري (المدينة).

(١) «حقة من التاريخ» (ص ٧٥)، و«عثمان بن عفان» للصلابي (ص ٢٦٥)، والأخير به تحقيق موسع في المسألة.

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة» (١/٤١٧).

(٣) «عصر الخلافة الراشدة» (ص ١٢٩).

- ٢- تمام بن العباس بن عبد المطلب (المدينة).
- ٣- أبو أيوب الأنصاري (المدينة).
- ٤- أبو قتادة الأنصاري (المدينة).
- ٥- قثم بن العباس بن عبد المطلب (مكة والطائف).
- ٦- عمر بن أبي سلمة (البحرين).
- ٧- قدامة بن العجلان الأنصاري (البحرين).
- ٨- النعمان بن العجلان الأنصاري (البحرين).
- ٩- عبيد الله بن عباس (اليمن والبحرين).
- ١٠- سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري (الجند).
- ١١- مالك بن الأشتر (الجزيرة ثم مصر).
- ١٢- شبيب بن عامر (الجزيرة).
- ١٣- كميل بن زياد النخعي (الجزيرة).
- ١٤- محمد بن أبي حذيفة بن عتبة (مصر).
- ١٥- قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري (مصر).
- ١٦- محمد بن أبي بكر الصديق (مصر).
- ١٧- عثمان بن حنيف الأنصاري (البصرة).
- ١٨- عبد الله بن عباس (البصرة).
- ١٩- أبو الأسود الدؤلي (البصرة).
- ٢٠- هاني بن هوذة النخعي (الكوفة).
- ٢١- أبو موسى الأشعري (الكوفة).

- ٢٢- أبو مسعود البدرى (الكوفة) .
- ٢٣- قرظة بن كعب الأنصاري (الكوفة) .
- ٢٤- سهل بن حنيف الأنصاري (فارس) .
- ٢٥- زياد بن أبي سفيان (فارس) .
- ٢٦- المنذر بن الجارود (اصطخر) .
- ٢٧- عمر بن سلمة (أصبهان) .
- ٢٨- محمد بن سليم (أصبهان) .
- ٢٩- خليد بن قره التميمي (خراسان) .
- ٣٠- عبد الرحمن بن أبزي (خراسان) .
- ٣١- جعدة بن هبيرة بن أبي وهب (خراسان) .
- ٣٢- عبد الرحمن بن جزء الطائي (سجستان) .
- ٣٣- ربعي بن كأس العنبري (سجستان) .
- ٣٤- جرير بن عبد الله البجلي (همدان) .
- ٣٥- الأشعث بن قيس الكندي (أذربيجان) .
- ٣٦- سعيد بن سارية الخزاعي (أذربيجان) .
- ٣٧- الخريت بن راشد الناجي (الأهواز) .
- ٣٨- مصقلة بن هبيرة الشيباني (الأهواز) .
- ٣٩- يزيد بن حجية التميمي (الري) .
- ٤٠- سعد بن مسعود الثقفي (المدائن) .
- ٤١- الحارث بن مرة العبدي (السند)^(١) .

(١) «عصر الخلافة الراشدة» (ص ١٣٠، ١٣١، ١٣٢) .

إن عثمان وعلي رضي الله عنهما خلفاء راشدون يقتدى بهما، وأفعالهما تشكل سوابق دستورية في هذه الأمة، فكما أن عمر رضي الله عنه سن لمن بعده التحرج من تقريب الأقرين، فإن عثمان وعلي رضي الله عنهما سنا لمن بعدهما تقريب الأقرين إذا كانوا أهل كفاءة^(١).

ثانياً: مراقبة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لعماله وبعض توجيهاته:

دأب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على مراقبة ولاته وتبوع أحوالهم في ولاياتهم والسؤال عنهم، وقد اتبع لذلك عدة أساليب؛ منها أنه كان يبعث مفتشيه إلى هؤلاء الولاة فيسألون عنهم الناس، وقد يسأل بعض العمال عن بعض ويأمرهم بتفقد أمورهم، فقد كتب إلى كعب بن مالك: أما بعد فاستخلف على عملك، واخرج في طائفة من أصحابك حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالي وتنظر في سيرتهم^(٢)، كما كان علي رضي الله عنه يعتمد على تقارير سرية يبعثها إليه مفتشوه على هذه الولايات ولا يعرف الولاة مهمتهم^(٣)، وقد يكون هؤلاء المراقبون من موظفي الوالي أو آخرين مجهولين، وقد يكونون مقيمين في الولاية أو منتقلين من ولاية إلى أخرى، ويدل على وجود هذه التقارير السرية ما كان يكتبه علي رضي الله عنه إلى هؤلاء الولاة، ولعل تدخل بعض الأشخاص بين أمير المؤمنين وولاته هو السبب في ترك بعضهم للولاية ورفضهم للعمل؛ كتدخل الأشر بن علي وجريير ابن عبد الله البجلي، وتدخل بعض الناس بين علي ومصقلة بن هبيرة^(٤)، وقد فتح علي رضي الله عنه الباب على مصراعيه لأي شكوى تقدم إليه ضد أحد من ولاته، وكان إذا بلغه عن أحد منهم شكاية قال: اللهم إني لم آمرهم أن يظلموا خلقك أو يتركوا حقك^(٥)، وقد قام رضي الله عنه بحبس أحد الولاة وتأديبه وضربه بالدرة حينما بلغته شكاية عنه^(٦)، وثبتت التهمة وقد كان أمير

(١) «الأساس في السنة وفقهها» لسعيد حوى (٤/١٦٧٥)، و«عثمان بن عفان» للصلابي (ص ٣٦٥).

(٢) «تاريخ يعقوبي» (٢/٢٠٤).

(٣) «الولاية على البلدان» (٢/٣٣).

(٤) «تاريخ الطبري» (٥/٦٠٠، ٦٠١).

(٥) «الفتاوى» (٢٨/١٥١).

(٦) «الولاية على البلدان» (٢/٣٤) نقلًا عن «الكامل» لابن الأثير.

المؤمنين علي دائم النصح لولاته، وقد نصح علي رضي الله عنه مجموعة من الولاة منهم قيس بن سعد، حين ولاه علي مصر حيث أوصاه: تأتيتها ومعك جند، فإن ذلك أربع لعدوك، وأعز لوليك فإذا أنت قدمتها إن شاء الله فأحسن إلى المحسن واشتد على المريب وارفق بالعامّة والخاصة فإن الرفق بمن^(١)، ومن نصائح إلى قيس بن سعد في إحدى رسالاته: أما بعد فأقبل على خراجك بالحق وأحسن إلى جندك بالإنصاف، وعلم من قبلك مما علمك الله^(٢).

وقد كانت بعض العهود المرسلّة للبلدان في تعيين الولاة تشتمل على بعض النصائح والتوجيهات، ومن ذلك عهد علي إلى محمد بن أبي بكر في ولاية مصر الذي قرأه على الناس، فقد كان يحتوي على جملة من النصائح للعامّة وللوالي نفسه^(٣)، وكانت تجري بين علي وبين ولاته العديد من الاتصالات سواء بالمراسلة الخطية أو الشفهية أو بالاتصال المباشر وبالدرجة الأولى أثناء قدوم هؤلاء الولاة إلى الكوفة لمقابلة أمير المؤمنين علي أو للاشتراك معه في قتال الخوارج وغيرهم، ولم يؤثر عن أمير المؤمنين أنه حج واتصل بولاته في الحج بعد مبايعته، كما كان يفعل الخلفاء السابقون، وإنما كان ينب عنه في ذلك بعض من يثق فيهم كأبناء العباس وغيرهم، وكان ولاية المشرق أكثر ولاة علي اتصالاً به، نظراً لقربهم من الكوفة وتكرار وفودهم إليها، وكان علي كثيراً ما يكتب أوامر تصدر على شكل نصائح تبين لهم طريقة العمل، وقد كان بعضها مكتوباً، وبعضها مشافهة، فقد جاء في أحد كتب أمير المؤمنين إلى عماله، فإنكم خزان الرعية ووكلاء الأمة، وسفراء الأئمة، ولا تجشموا أحداً عن حاجته، ولا تجسوه عن طلبته، ولا تبيعن الناس في الخراج كسوة شتاء، ولا صيف، ولا دابة يعملون عليها، وعبداً، ولا تضربن أحداً سوطاً لمكان درهم، ولا تمس مال أحد من الناس مصلّ ولا معاهد^(٤)، وتقدم بعض الدهاقين بشكوى إلى علي من أحد

(٢، ١) «الولاية على البلدان» (٣٦/٢).

(٣) «تراث الخلفاء الراشدين» (ص ١٥٦).

(٤) «نهج البلاغة» (١٥٥/٢).

عماله ، فكتب إلى ذلك العامل : أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة احتقاراً وجفوة ونظرت فلم أرهم أهلاً لأن يدنوا لشركهم ، ولا أن يقضوا ويحفوا لعهدهم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداول لهم بين القسوة والرفافة ، وامزج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله (١).

ثالثاً: الصلاحيات الممنوحة للولادة في عهد علي رضي الله عنه:

امتنع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن تسليم جميع السلطات بيد شخص واحد ، فكان مبدؤه توزيع السلطات وتحديد الصلاحيات فقد نصب ابن عباس والياً على البصرة ، ونصب زياد على الخراج وبيت المال ، ولم يكتف بهذا بل أمر ابن عباس أن يسمع منه ويطيع (٢) ، وهذا قمة الضبط الإداري فزياد يطيع ابن عباس في إطار ولايته على البصرة وابن عباس يطيع زياد في إطار عمله في بيت المال والخراج ، أما شؤون القضاء فقد نصب أبا الأسود الدؤلي (٣).

ومن خلال عهد أمير المؤمنين علي الذي كتبه لمالك بن الأشتر يمكن أن نلاحظ الصلاحيات الممنوحة للولادة ، ونحاول أن نجعل الصورة أكثر وضوحاً مع التفصيل:

١- تعيين الوزراء:

يقول أمير المؤمنين في عهده لمالك بن الأشتر: إن شر وزرائك من كان للأشرار قلبك وزيراً ، ومن شركهم في الآثام فلا يكون لك بطانة (٤) ، فإنهم أعوان الأئمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف (٥) ، ممن له مثل آرائهم ونفادهم ، ويبين عليه مثل آصارهم وأوزارهم (٦) ، ممن لم يعاون ظالماً على

(١) «نهج البلاغة» (٢/١٥٥).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٥٨٠).

(٣) «تاريخ خليفة بن خياط» (ص ٢٠٠).

(٤) بطانة الرجل: خاصته والأئمة: جمع آثم، والظلمة: جمع ظالم. (٥) الخلف: بمعنى البدل.

(٦) الأصار: جمع إصر وهو الذنب ، والإثم وكذلك الأوزار .

ظلمه ولا آثماً على إثمه، أولئك أخف عليك مؤونة، وأحسن لك معونة، وأحنى عليك عطفاً، وأقل لغيرك إلقاً^(١)، ففي هذا النص الذي أورده أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بصورة نصائح أورد فيه النقاط والحقائق الآتية:

- أ - تعيين الوزراء من صلاحيات الوالي .
- ب - الشروط التي يجب أن يختار الوالي وزراءه بموجبها .
- ج - طريقة التعامل والعلاقة المتبادلة بين الوالي والوزير .
- د - وظيفة الوزير .

أما عدد الوزراء فلم يذكره أمير المؤمنين علي بل اكتفى بلفظ الجمع، ويظهر أن عددهم يرتبط بمقدار حاجة الوالي إلى المعاونين؛ لأن عمل الوزير هو مساعدة الوالي في وظائفه وهناك شروط حددها أمير المؤمنين علي: ألا يكون وزيراً سابقاً للولاية الأشرار، ويتتخب الوالي من مجموع وزرائه وزيراً واحداً يكون نائبه ومساعدته في تمشية الأمور، ويجب أن يختاره من بين وزرائه على أساس^(٢) قول أمير المؤمنين: ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك^(٣)، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع^(٤)، وأما وظائفهم فهي تدخل في دائرة (المساعدة)، وأما تحديد تفاصيل هذه الدائرة فيوكل إلى الوالي الذي يقرر وظائف وزرائه حسب الحاجة إليهم، ويكون ارتباط الوزراء بالوالي بصورة مباشر^(٥).

٢. تشكيل مجالس الشورى:

وذلك بالاستعانة بالعلماء والحكماء وهم أهل الحل والعقد، وأهل الخبرة، فقد

(١) الإلف: اللفة والمجة.

(٢) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» د. محسن الموسوي (ص ٢٦١).

(٣) مرارة الحق: صعوبته على نفس الوالي.

(٤) «نهج البلاغة» شرح محمد عبده (ص ٦٠٩).

(٥) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢٦١).

ورد في حقهم هذا النص : وأكثر مدارس العلماء ، ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك^(١) .

وفي هذا النص التأكيد على جمع العلماء والحكماء في مجالس استشارية منتظمة ، ويمكن أن يجري تعيينهم من قبل الوالي ، أو يتم انتخابهم من قبل الناس ، فليس هناك تحديد من أمير المؤمنين عن طبيعة تشكيل هذه المجالس ، بل اكتفى أمير المؤمنين بالمطالبة من واليه ، وأكثر مدارس العلماء ومناقشة الحكماء ، أما كيف تم جمعهم ، هل اجتمعوا بأمر من الوالي أو يتم انتخابهم من قبل الناس ؟ فهذا أمر لم يبت فيه أمير المؤمنين علي بل تركه متعلقاً حسب الظروف التي تتحكم في طريقة تعيينهم ، إما باختيار الوالي ، أو انتخاب الناس ، وأما وظيفة هذا المجلس فهو الدراسة والبحث لتحديد السياسات العامة بخصوص الأمرين :

أ - تثبيت ما صلحت عليه البلاد .

ب - إقامة ما استقام عليه الناس من قبل الوالي .

وهذا يعني وضع الخطوط العريضة لكل ما يتعلق بإصلاح أوضاع البلاد والعباد ، سواء كان ذلك في مصرف بيت المال أو تعيين الإداريين ، أو تقديم الخدمات للأصناف المختلفة من تجار وصناع ومزارعين ، وهذا المجلس أشبه ما يكون بالمجالس المحلية التي تقام في الدول التي يقوم نظامها على اللامركزية^(٢) ، وفي نص آخر يذكر أمير المؤمنين رضي الله عنه صفات هؤلاء المستشارين والمعاونين : ثم ألصق بذوي المروءات والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة ، فإنهم جماع من الكرم وشعب من العرف^(٣) ، وذكر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أهمية الاهتمام بهم ، وتفقد أحوالهم وأمورهم فقال : ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقم في نفسك شيء

(١) «نهج البلاغة» شرح محمد عبده (ص ٦١) .

(٢) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ١٦١) .

(٣) «نهج البلاغة» شرح محمد عبده (ص ٦١٢) .

قويتهم به^(١)، ولا تحقرن لطفًا تعاهدتهم^(٢)، وإن قل فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك، ولا تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيماً؛ فإن ليسير من لطفك موضعاً يتفعون به، وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه^(٣).

٣. إنشاء الجيش وتجهيزه:

قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لمالك بن الأشتر النخعي: وليكن أثر رؤوس جنلك عندك^(٤) من واساهم في معونته، وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم؛ حتى يكون همهم همًّا واحدًا في جهاد العدو، فإن عطفك عليهم^(٥)، يعطف قلوبهم عليك^(٦) والذي يظهر من هذا النص:

أ - لابد من وجود قوة عسكرية تدافع عن الولاية .

ب - تشكيل هذه القوة وإعدادها من مسؤولية الوالي، ويجري الإنفاق عليها من بيت مال الولاية .

ج - تعيين رؤساء الجند من مسؤولية الوالي، وهناك شروط على الوالي العمل بموجبها عند اختيار رؤساء الجند، فلا بد من رعايتهم، والاهتمام بهم حتى يكون همهم همًّا واحدًا في جهاد العدو^(٧)؛ فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك^(٨).

٤. ترسيم السياسة الخارجية في مجال الحرب والسلام:

يقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لواليه مالك بن الأشتر: ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضى؛ فإن في الصلح دعة لجنودك^(٩)، وراحة من همومك،

(١) نفاقم الأمر: عظم، فهم مستحقون لكل خير.

(٢) أي لا تعد شيئاً من تطفك معهم حقيراً فتركه لحقارته، فكل تطف له موقع في قلوبهم.

(٣) «نهج البلاغة» شرح محمد عبده (ص ٦١٣).

(٤) أي أفضل وأعلى منزلة من واسى الجند وساعدهم.

(٥) «نهج البلاغة» شرح محمد عبده (ص ٦١٣).

(٦) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢٦٥).

(٧) «نهج البلاغة» شرح محمد عبده (ص ٦١٣).

(٨) الدعة: الراحة.

وأمننا لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه، فإن العدو ربما قارب ليتغفل^(١)، فخذ بالحزم، واتهم في ذلك حسن الظن، وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة^(٢)، فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت^(٣)، فإنه ليس من فرائض الله شيء، الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم، وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود^(٤)، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر^(٥)، ولا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك^(٦)، ولا تختلن عدوك، فإنه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته^(٧)، وحرماً يسكنون إلى منعه ويستفيضون إلى جواره^(٨)، فلا إدغال ولا مدالسة^(٩)، ولا خداع فيه ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل^(١٠)، ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق؛ فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك من الله فيه طلبه^(١١)، فلا تستقبل فيها دنياك ولا آخرتك^(١٢).

واستناداً لهذا النص يقوم الوالي بالآتي بما يلي:

- ١- عقد معاهدة الصلح مع الدول والأمم المجاورة .
- ٢- بأخذ الاستعداد للحرب، وأخذ الحيطة عند الضرورة وبين هذين الأمرين تجري مفردات كثيرة من تبادل الرسائل، وتبادل الوفود، وتبادل الزيارات وعقد الحوارات^(١٣).

٣- الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدة أصولية من قواعد الدين الإسلامي التي

(١) قارب: أي تقرب منك بالصلح ليلقي عليك غفلة عنه فيغدرك فيها . (٢) الذمة: العهد.

(٣) الجنة: الوقاية : أي حافظ على ما أعطيت من العهد بروحك.

(٤) أي أن الناس لم يجتمعوا على فريضة من فرائض الله أشد من اجتماعهم على الوفاء بالعهود.

(٥) لأنهم وجدوا عواقب الغدر وبيلة أي مهلكة. (٦) خاس بعهد: خان ونقضه، والختل: الخداع.

(٧) أفضاه هنا بمعنى أفشاه. (٨) يستفيضون: أي يفرعون إليه بسرعة.

(٩) الإدغال: الإفساد، والمدالسة: الخيانة. (١٠-١٢) «نهج البلاغة» (ص ٦٢٧).

(١٣) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢٥٦).

يجب على كل مسلم أن يلتزم بها^(١)، كما أن الوفاء بالعهود والمواثيق لم يكن عند أمير المؤمنين يعتمد على مجرد نظرية مكتوبة على الورق، ولكنه كان سلوكاً عملياً في حياته بالوفاء بالعهود، وحذر من نقض الإيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنية قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: ٩١)، وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٤).

٥- الحفاظ على الأمن الداخلي:

وذلك بانتهاج السياسات السلمية، كتب أمير المؤمنين إلى بعض عماله: أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقار وجفوة، فلبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة وداول لهم بين القسوة والرفقة، وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء^(٢)، وتأتي هذه السياسية للحفاظ على الأمن الداخلي، فإذا حدث ما يعكر هذه المهمة؛ فإن مهمة الوالي هي محاولة حل المشاكل بطرق سلمية بعيدة عن استخدام القوة، رافضاً سياسة الاستقواء على الشعب^(٣)، وفي رسالته إلى مالك بن الأشتر: فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويهونه، بل يزيله وينقله^(٤).

٦. تشكيل الجهاز القضائي في الولاية:

يقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تفتيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم^(٥)، ولا يتمادى في الزلة، ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه^(٦)، ولا تشرف نفسه على طمع^(٧)، ولا

(١) "منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية" (ص ٣٢٩).

(٢) "الولاية على البلدان" (٢/٢٧) نقلاً عن "شرح نهج البلاغة" (٢/٢٣٠) طبعة أخرى غير محمد عبده.

(٣) "الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي" (ص ٢٥٧).

(٤) "شرح نهج البلاغة" (ص ٦٢٧).

(٥) لا تحمله مخاصمة الخصوم على اللجاج والإصرار علي رأيه.

(٦) أي: لا يضيق صدره من الرجوع إلى الحق.

(٧) الإشراف على الشيء: الاطلاع عليه من فوق.

يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه^(١)، وأوقفهم في الشبهات^(٢)، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشف الأمور، وأصرمهم عند انفتاح الحكم ممن لا يزدنيه إطراء^(٣)، ولا يستميله إغراء. . وافصح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس؛ ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك، فانظر في ذلك نظراً^(٤) بليغاً، من هذا النص يظهر لنا:

أ - من مسؤولية الوالي تعيين القضاة .

ب - على الوالي الالتزام بشروط صارمة في اختيار القاضي .

ج - على الوالي رعاية القضاة رعاية كاملة حتى لا يشعروا بالحاجة إلى الآخرين^(٥) .

٧. النفقات المالية:

المصدر لتمويل النفقات في الولاية، أموال الزكاة والصدقات والغنائم والفيء والخراج والعشور، وتوضع في بيت المال وهو المحل الذي يجتمع فيه بيت مال المسلمين، وهناك عامل في بيت المال يسجل كل ما يصله من أموال وكل ما يخرج من بيت المال، وليبت المال وظيفة مهمة في الإدارة اللامركزية، فما يجتمع من الأموال يتم أولاً إنفاقه على شؤون الولاية من موظفين وعمال وقضاة، ومحتاجين، وإعمار إلخ. . وما تبقى يتم إرساله إلى عاصمة الخلافة، ويعتبر بيت المال قلب الولاية الذي يوزع الدم في شرايين الأجهزة العاملة^(٦)، قال أمير المؤمنين علي: وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة^(٧)، وجزء من هذه الأموال مصدره الخراج - كما ذكرنا - وهو ما وضع لأخذه على الأرض المزروعة وهو المصدر الأول لتغطية رواتب موظفي الولاية، وما زاد على ذلك يوزع على الفقراء والمساكين، يقول أمير

(١) لا يكتفي في الحكم بما يبدو له بأول فهم وأقربه، دون أن يأتي على أقصى فهم .

(٢) لا يستخفه زيادة الشئ عليه .

(٣) الشبهات: ما لا يتضح الحكم فيها بالنص .

(٤) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٥٨) .

(٥) «شرح نهج البلاغة» (ص ٦١٥) .

(٦) «شرح نهج البلاغة» (ص ٦٤٧) .

(٧) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢٦٢) .

المؤمنين علي: الناس كلهم عيال على الخراج وأهله، والمقصود بالناس عامة الموظفين والمجاهدين الذين قال عنهم أمير المؤمنين عليه السلام: لا قوم للجنود إلا بما يخرج الله من الخراج، وقد أرشد أمير المؤمنين علي إلى استثمار الأرض أي عمارة الأرض فقد قال: وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج؛ لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج لغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد^(١).

فعمارة الأرض ستضيف موارد مالية جديدة يمكن الاستفادة منها في مجال الرواتب والنفقات المتنوعة، وتتم هذه النفقات باستقلالية عن الأجهزة المركزية التي لها حصة من هذه الموارد، بعد أن يتم استخراج المقادير الضرورية للولاية، وبعث البقية إلى العاصمة، يقول أمير المؤمنين: وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قبلنا^(٢)، كما أن الإنفقات المهمة في الولاية إعمار الأنهار، فقد كتب أمير المؤمنين علي لقرظة بن كعب الأنصاري: أما بعد فإن رجالاً من أهل الذمة من عمالك ذكروا نهراً في أرضهم قد عفا وادفن، وفيه لهم عمارة على المسلمين، فانظر أنت وهم، ثم أعمر وأصلح النهر، فلعمري لأن يعمروا أحب إلينا من أن يخرجوا، وأن يعجزوا ويقصروا في واجب من صلاح البلاد والسلام^(٣).

٨. العمال التابعين للولاية ومتابعيهم:

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً^(٤)، ولا تولهم محاباة وأثره؛ فإنها جماع شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء وأهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام^(٥) المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً وأصح أعضاً، وأقل في المطامع إشراقاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً، ثم أسبغ

(١) شرح نهج البلاغة (ص ٦١٧).

(٢) المصدر نفسه (ص ٦١٨)، و«الإدارة والنظام» (ص ٢٥٨).

(٣) تاريخ يعقوبي «(٢٠٣/٢)»، و«الولاية على البلدان» (٣٧/٢).

(٤) أي: الاختبار والامتحان قبل تولية الأعمال.

(٥) أي: أهلها الأولون.

عليهم الأرزاق^(١)، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحنة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك^(٢)، ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون^(٣)، من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأمرهم حدوة لهم^(٤) على استعمال الأمانة والرفق بالرعية، وتحفظ من الأعوان، فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك^(٥)، اكتفيت بذلك شاهداً، فبسطت عليه العقوبة في بدنه وأخذته بما أصاب من عمله، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة، وقلدته عار التهمة^(٦).

وهنا يتحدث عن الموظفين التابعين للولاية والمحافظين على المدن والقرى وجباة الصدقات، وعلى عاتقهم مسؤولية كبيرة؛ لأن عملهم متصل بالناس بصورة مباشرة، ويتجلى في هذا النص أهمية هؤلاء في الجهاز الإداري لأنهم يمثلون السلطة التنفيذية الحقيقية، فكان لابد من إشباع حاجاتهم؛ حتى لا يطمعوا في مال غيرهم، ولا حقوقهم^(٧)، ويشير أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى أهمية العيون الذين يقومون بأعمال الرقابة على الإدارات والوحدات وبيت المال، ويتم تعيينهم من قبل الوالي ويكون ارتباطهم معه، وهناك شروط يجب أن تتوافر فيهم:

أ - أن يكونوا من أهل الصدق حتى تكون تقاريرهم واقعية صادقة.

ب - أن يكونوا من أهل الوفاء؛ حتى يكون هدفهم هو الإخلاص للدولة، وبعد تقديم التقارير، على الوالي أن يتثبت بدقة في هذه التقارير ولا يسرع في الحكم على الأفراد، ومن أعمال هذا الجهاز فرض الرقابة على التجار وذوي الصناعات لمنعهم من الاحتكار وإيقاع الضرر بالناس، وما قاله أمير المؤمنين في رسالته للأشتر في هذه الفقرة، يشير إلى أن دولة الخلافة الراشدة تهتم بدوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، وهذا مبدأ قرآني بينه المولى عز وجل على لسان سليمان عليه السلام: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ

(١) أي: أكمل الرزق، ووسع لهم فيه.

(٢) نقصوا في أداؤها أو خانوا.

(٤) حدوة لهم: أي سوق لهم وحث.

(٦) «شرح نهج البلاغة» (ص ٦١٦).

(٣) العيون: الرقباء.

(٥) اجتمعت عليه أخبار الرقباء.

(٧) «الإدارة والنظام الإداري عند علي» ص (٢٦٦).

مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لِأَعْدَبْتَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لِأَذْبَحْتَهُ أَوْ لِأَيَّتَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿ (النمل: ٢٠، ٢١) ، وتفقد الطير، وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور، الخلافة والاهتمام بكل جزء فيها والرعاية لكل واحد فيها وخاصة الضعفاء، ولاشك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم لهذه المهمة العظيمة، إن سليمان عليه السلام كان مهتما بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا رابه شيء من أحوالهم، فسليمان عليه السلام لما لم ير الهدهد بادر بالسؤال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدُودَ﴾ يعني: أهو غائب؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له^(١)، ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾، سؤال آخر ينم عن حزم في السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط، ولكن عن جد وشدة، إذا لم يكن الغياب بعذر^(٢)، فعهد الخلافة الراشدة تطبيق عملي لمفاهيم القرآن الكريم، إن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أشار إلى أهمية الأجهزة الأمنية للدولة المسلمة التي تحرص أشد الحرص على الاهتمام بالأخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين، ونشر المبادئ السامية، والأهداف النبيلة، والمثل العليا، وتقضي على بذور الفساد في الأجهزة المتعددة التي يقوم عليها نظام الولايات.

٩. أصناف طبقات المجتمع:

قال أمير المؤمنين: واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل، ومنه عمال الإنصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج ومنها أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلاً قد سمي الله سهمه^(٣)، ووضع على حده فريضته في كتابه أو سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، عهداً منه عندنا محفوظاً إلى أن قال: ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار ذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم^(٤)، وبيومونه

(١) «تفسير الرازي» (١٨٩/٢٤).

(٢) «الحكم والتحاكم في خطاب الوحي» (٥٩٣/٢).

(٤) «شرح نهج البلاغة» (ص ٦١١).

(٣) أي: نصيبه من الحق.

من أسواقهم ويكفونه من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه وفق غيرهم، ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفقهم ومعونتهم^(١) ثم أوصى بالتجار وأصحاب الصناعة بهم خيراً فقال: ثم استوص بالتجار وذوي القناعات وأوص بهم خيراً: المقيم منهم، والمضطرب بماله^(٢)، المترفق ببدنه؛ فإنهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وسهلك وجبلك، وحيث لا يلتم الناس لمواضعها^(٣)، ولا يجترئون عليها، فإنهم سلمٌ لا تخاف بائقته^(٤)، وصلح لا تخشى غائلته، وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً^(٥)، واحتكاراً للمنافع وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامّة وعيب على الولاية، فامنع من الاحتكار فإن رسول الله صلّى الله عليه وآله منع منه، وليكن البيع بيعاً سمحاً، بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه^(٦)، فنكل به، وعاقب في غير إسراف^(٧).

ونلاحظ من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن طبقة التجار من أهم شرائح المجتمع، ولذلك أرشد الولاية إلى الاهتمام بهم من خلال وجود دائرة تتولى رعاية هذا الطبقة والإشراف على أعمالها حتى لا يظهر عليها المظاهر السلبية كالشح والاحتكار وما شابه ذلك، وذوي الصناعات ويلم بهم، ما يلّم التجار من أضرار ومشاكل، فكان لابد من قيام جهاز لرعايتهم ومساعدتهم في إتمام أعمالهم^(٨)، ومن هذه الطبقات أهل الخراج وهم العاملون على الأرض من زراع وحرث وحافرين لأبار، وهم يحتاجون إلى الاهتمام وتشكيل لجان تكون موكلة بأهل الخراج لحل المشكلات التي تعترضهم؛ لأن هذا الطريق هو السبيل إلى

(١) رفقهم: مساعدتهم وصلتهم.

(٢) يجلبون من أمكنة بحيث لا يمكن الثنّام الناس واجتماعهم في مواضع تلك المرافق.

(٣) الشح: البخل.

(٤) البائقة: الداهية.

(٥) «شرح نهج البلاغة» (ص ٦٢٠).

(٦) قارف: خالط: حركة الاحتكار.

(٨) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢٦٣).

التمنية واستثمار الأرض، ومن هذه الأصناف أهل الذمة الذين يعيشون في الدولة الإسلامية، ويعملون فيها، فلا بد من رعاية الدولة لهم وتفقد شؤونهم، من خلال جهاز يتولى شؤونهم الاقتصادية منها والاجتماعية^(١)، ومنها الطبقة السفلى من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمن، فإن في هذه الطبقة القانع^(٢)، والمعتر^(٣)، وتشمل هذه الطبقة أهل اليتيم وذوي الرقة في السنّ ممن لا حيلة له، ولا ينصب للمسألة نفسه، فالدولة مسؤولة عن رعاية هؤلاء رعاية كاملة اجتماعية واقتصادية وتعليمية، وكان على الوالي أن يحدد وقتاً للقاء بهم ليزيل عنهم مشاعر الحرمان ويفقد أمورهم بنفسه وبصورة مباشرة، وعليه أن يوفر الأجواء التي يستطيع بواسطتها هؤلاء المحرومين من التكلم أمام الوالي^(٤).

١٠. التربية بالعقاب والثواب:

قال أمير المؤمنين علي: ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلاً منهم ما ألزم نفسه^(٥)، واعلم أنه ليس بشيء أدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤونات عليهم، وترك استكراهه إياهم على ما ليس قبلهم^(٦)، فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك، فإن حسن الظن يقطع عنك نصباً طويلاً^(٧)، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده^(٨)، وهذه التربية بالعقاب والثواب تحدث عنها القرآن الكريم، وتتضح معالمها جلية في قصة ذي القرنين في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (الكهف: ٨٨).

(١) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢٦٣).

(٢) القانع: السائل.

(٣) المعتر: المتعرض للعطاء بلا سؤال.

(٤) فإن المسيء ألزم نفسه استحقاق العقاب، والمحسن الثواب.

(٥) قَبْلَهُمْ: - بكسر ففتح - أي عندهم.

(٦) النصب: التعب.

(٨) البلاء هنا: الصنع مطلقاً حسناً أو سيئاً، انظر: «تهج البلاغة» (ص ٦١).

إن التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعل الحوافز المشجعة هدية للمحسن ليزداد في إحسانه، وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان وتشعره بالاحترام والتقدير وتأخذ على يد المسيء لتضرب على يده؛ حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع، وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حدود وفق قانون الثواب والعقاب وهذا ما أرشد إليه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

١١. دور العرفاء والنقباء في تثبيت نظام الولايات:

عرف المسلمون النقباء في بيعة العقبة الثانية حينما عين الرسول صلوات الله عليه وآله اثني عشر نقيباً من الأنصار على قومهم ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج^(١)، واستمر تنظيم النقباء والعرفاء في الأجناد الإسلامية المختلفة في عهد عمر رضي الله عنه، ومما ورد في ذلك تنظيم الناس في القادسية على يد سعد بن أبي وقاص حيث اجتمعت القبائل، فأمر أمراء الأجناد وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلاً، كما كانت العرفاء أزمان النبي صلوات الله عليه وآله وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء وأمر على الرايات رجالات من أهل السابقة، وعشر الناس وأمر على الأعشار رجلاً من الناس لهم وسائل في الإسلام^(٢)، ويعتبر عمر أول من نظم تقسيم الناس في الأمصار عموماً، ففي زمانه برز العرفاء على الناس في أمصارهم وأصبحوا مسؤولين أمام الوالي عن قبائلهم والمجموعات المنضمة إليهم حسب التقسيم المتبع ذلك الوقت^(٣).

وقد استمر نظام العرفاء طيلة عصر عثمان رضي الله عنه وخلال عهد علي رضي الله عنه فكان يجمع النقباء ويعطيهم الأموال بخصصهم فيقسمونها على من يتبعهم من الناس^(٤)، وقد استفاد الولاة من العرفاء في إدارة الولايات في الشؤون المختلفة المدنية منها والعسكرية، فكانوا يساعدون في توزيع العطاء على الناس، وفي

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/٤٤٣).

(٢) «الولاية على البلدان» (١٠٦/٢)، و«تاريخ الطبري» (٥/٨٧).

(٣) «النظم الإسلامية»، لصبحي الصالح، و«الولاية على البلدان» (١٠٦/٢).

(٤) «الأموال»، للقاسم بن سلام ص (٣٤٥)، و«الولاية على البلدان» (١٠٦/٢).

السيطرة على النظام داخل الولايات، وفي البحث عن المطلوبين للقضاء وغيره وفي سرعة تجنيد الناس حين الحاجة، وفي أخذ المشورة من الناس، كما كان للنقباء دور في معرفة من يضاف اسمه إلى العطاء ومن يحذف اسمه، وغير ذلك من الأمور المختلفة، وهكذا كان العرفاء من أهم الموظفين للولاية في إدارة أمصارهم، مع أن هؤلاء في الغالب لم يكونوا متفرغين لهذا العمل وحده، بل كانوا مجرد مساعدين وقت الحاجة، وكان في تقسيم العرفاء والنقباء في كثير من الأحيان شيء من التنظيم القبلي، حيث كان التقسيم أحيانا باعتبار القبيلة، إلى أن كثر الداخلون في الإسلام من الأعاجم وبدؤوا يستوطنون الأمصار، فبدأ هذا التقسيم يقل تدريجياً^(١) مع احتفاظه بقوته في معظم الأوقات خلال عهد الخلفاء الراشدين^(٢)، وقد كان يتبع الولاية على البلدان بعض كبار القواد الذين يتولون قيادة أقسام معينة في الجيش، ويقومون بالفتوح المختلفة بتوجيه من أمراء الولايات، كما كانوا يصحبون الوالي وهو أمير الحرب في غزواته المختلفة ويساعدونه في تنظيم الجيش وقيادته^(٣)، وقد كان أمراء التعبئة يلون الأمير والذين يلون أمراء التعبئة أمراء الأعشار والذين يلون أمراء الأعشار أصحاب الرايات، والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤوس القبائل^(٤)، كما أن العرفاء يرفعون ما يراه قومهم من اقتراحات أو تظلمات جماعية ويوصلونها نيابة عنهم، ويتحدثون باسمهم ويدافعون عن حقوقهم أمام الوالي وغيره^(٥).

رابعاً: من المفاهيم الإدارية عند أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

١. التأكيد على العنصر الإنساني:

كتب أمير المؤمنين إلى أحد عماله: أما بعد فإن دهاقين أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة.. فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من

(١) «الولاية على البلدان» (١٠٧/١).
 (٢) المصدر نفسه (١٠٧/٢).
 (٣) «الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة» للزبيدي (ص ٤١).
 (٤) «تاريخ الطبري»، نقلاً عن «الولاية على البلدان» (١٠٨/٢).
 (٥) «العراقة والنقابة» للفاروقي (ص ٨٠، ٦١ و ٨٦)، و«الولاية على البلدان» (١٠٨/٢).

الشدة وداول بين القسوة والرأفة، وامزج لهم بين التقريب والإدناء والإبعاد والإقصاء إن شاء الله^(١)، فكان على الرئيس ملاحظة الأوضاع النفسية لمروؤوسيه، وأن يضع استراتيجيته الإدارية على ضوء هذا الواقع، وأن يوازن بين ضرورات الضبط والتنظيم مع الضرورات الواقعية التي تفرزها الحالات الإنسانية والنفسية، فمن الخطأ أن تقوم النظرية الإدارية التنظيمية على قواعد صارمة وثابتة لا تراعي العامل الإنساني، ولا تراعي تأثيرات الظروف وكأن التنظيم الإداري لأي مؤسسة أو منظمة أو حركة، أو حزب أو جمعية أو نادي... إلخ، يتحرك في فراغ بمعزل عن التأثيرات الخارجية والداخلية^(٢).

٢- عامل الخبرة والعلم:

في هذا النطاق يؤكد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه على أهمية أن يكون المسؤول صاحب خبرة وعلم، فإذا كان كذلك فله حق الطاعة، وإلا فإنه لا طاعة له، يقول أمير المؤمنين: عليكم بطاعة من لا تعذرون بجهالته^(٣)، فإذا كان جاهلاً فإنهم معذرون فلا طاعة للجاهل؛ لأنه يأخذهم إلى الهلاك ويقول أيضاً: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^(٤)، والجاهل غير العارف بالأمر ينتهي أمره إلى معصية الخالق^(٥)، بأمر مخالف.

٣- العلاقة بين الرئيس والمرؤوس:

هذه العلاقة لا يرسمها التسلسل التنظيمي والتدرج الرئاسي بل ترسمه المصلحة المشتركة بين الرئيس والمرؤوسين، يقول أمير المؤمنين علي لواليه عندما بعثه إلى مصر: ثمت أمور من أمورك لا بد لك من مباشرتها، منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك، ومنها إصدار حاجات الناس يوم وردها عليك بما تخرج به صدور أعوانك^(٦)، ونحن هنا أمام حالة يلغى فيها التسلسل الوظيفي إلغاءً تاماً،

(٢) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢١٧).

(٤) المصدر نفسه (ص ٧٠١).

(٦) «نهج البلاغة» (ص ٦٢٣).

(١) «نهج البلاغة» (ص ٥٣٩).

(٣) «نهج البلاغة» (ص ٧٠٠).

(٥) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢١٧).

وإذا لم يقدر الوالي على القيام بهذه المهمة فإنه يتتدب بعض خالصائه لذلك، فيقول: وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال، ففرع لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم^(١)، وهذا تجاوز واضح على الإدارة البيروقراطية التي ترى أن كل شيء يجب أن يتم ضمن التسلسل الإداري، ولاحق لأحد في إلغاء هذا التسلسل ومن يلغي ذلك يعتبر متجاوزاً على التنظيم، ثم بين أمير المؤمنين مضار التقييد غير المسؤول بالتسلسل الوظيفي: فإن احتجاج الولاة عن الرعية شعبة من الضيق، وقلة علم بالأمور، والاحتجاج عنهم يقطع عنهم علم ما احتجوا به دونه فيصغر عندهم الكبير، ويعظم الصغير، ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل^(٢)، هذه هي مضار التسلسل الإداري والتقييد الحرفي به فتباطؤ الأمور بين هذه السلسلة الطويلة وانتقالها من مسؤول إلى مسؤول، ومنه إلى مسؤول ثالث فرابع وخامس حتى وصولها إلى الناس العاديين، هذه السلسلة التي تجري بعيداً عن مباشرة الرئيس الأعلى قد تغير الأمور وتقلبها رأساً على عقب، فيصبح الصغير كبيراً والحق باطلاً، والحسن قبيحاً والقبيح حسناً كما يقول أمير المؤمنين رضي الله عنه، وهو ما تعاني منه التنظيمات البيروقراطية؛ لأنها تعتمد على سلسلة تنتقل عبرها المسائل والقضايا، فتتحرف عن أهدافها ومراميها. والعلاج كما يقدمه أمير المؤمنين علي هو ألا يحتجب المسؤول عن أفراد، فاحتجابه يتسبب في تغيير قراراته أو تطبيقها في أحسن الظروف تطبيقاً متحجراً، بعيداً عن الأهداف التي طمح من أجلها. ومهمة الرئيس ليست محصورة في لقاء المرؤوسين، بل عليه أن يوفر الأجواء المطمئنة التي تجعل المرؤوس قادراً على طرح مشاكله بطمأنينة وبدون خوف؛ لأن الغاية ليست هي المقابلات الفجة، بل الهدف هو أن يكون هذا اللقاء مفيداً فلا بد من خلق الأجواء المناسبة لهذه اللقاءات، يقول في ذلك: واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تُفرع لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله

(١) «نهج البلاغة» (ص ٦٢١).

(٢) «نهج البلاغة» رقم ٥٣ ص (٦٢٤).

والذي خلفك وتبعد عنهم جنك وأعوانك من حراسك وشرطك، حتى يكلمك متكلمهم غير متعتع^(١)، ويبعث إلى قثم بن العباس «ابن عمه» برسالة يقول فيها: ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ولا حاجب إلا وجهك^(٢)، وهناك نصوص أخرى تؤكد على طبيعة العلاقة بين الرئيس والمرؤوسين وإنها لا تقوم عبر الوسائل ولا القيود الإدارية بل تقوم وجهاً لوجه عندما تستدعي الحاجة لذلك^(٣).

٤. مكافحة الجمود:

هناك بعض النظريات الإدارية واللوائح التنظيمية تسبب الجمود وإضاعة الوقت والجهد وإضاعة الحقوق، كما أن كثيراً من الأعمال لا يفكر بإنجازها أساساً؛ لأنها تستغرق وقتاً طويلاً حتى يتم إقرارها عبر السلسلة الإدارية، من هنا جاءت دعوة أمير المؤمنين رضي الله عنه: من أطاع التواني ضيع الحقوق^(٤).

٥. الرقابة الواعية:

الرقابة مهمة في كل تنظيم إداري، فقد نوه أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى هذه الوظيفة فقال: وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم، فإن تعاهدك في السر لأموهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية^(٥)، فالرقابة عند أمير المؤمنين رضي الله عنه هي عطف ونصرة للمراقب لمواصلة أداء الأمانة كاملة، وأن الرقابة لا بد وأن تتم عبر وسائط من أهل الصدق والوفاء حتى يكون تقييمهم عادلاً لا تتلاعب فيه أهواؤهم، فالرقابة هنا عامل مساعد على التقدم، وتدفع بالأفراد إلى الحركة، والإخلاص في العمل، إن القوانين الصارمة لا وجود لها في الفكر الإداري لأمر المؤمنين رضي الله عنه عندما تعيق هذه القوانين حركة الأفراد داخل التنظيم، وتصبح سبباً لإضاعة الحقوق^(٦).

(٢) «نهج البلاغة» (ص ٦٤٧).

(٤) «نهج البلاغة» (ص ٧١٤).

(١) «نهج البلاغة» (ص ٦٢٢).

(٣) «الإدارة والنظام الإداري عند الإمام علي» (ص ٢١٨، ٢١٩).

(٥) «نهج البلاغة» (ص ٦١٦).

(٦) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٢١، ٢٢٢).

٦. التوظيف يتم عبر الضوابط وليس عبر الروابط الشخصية:

في هذا المجال أكد أمير المؤمنين علي في عهده لواليه على مصر: ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثره، فلا بد من إجراء الاختبارات الأولية على الشخص الذي يراد استخدامه في عمل ما، ويجب أن يتعد الرئيس عن المعايير الشخصية في توظيف أو ترقية الأشخاص إلى المناصب العليا، ثم يقول: ثم انظر في حال كتابك، فول على أمورك خيرهم^(١). وليس أقربهم إلى قلبك وعائلتك، فلا مجال للروابط والعواطف فالمعيار هو الحق، وتتعلق هذه الميزة بخاصية أخرى هي الأمانة^(٢).

٧. الضبط:

ففي كتاب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى الأشعث بن قيس يتبين هذا المفهوم: وإن عملك ليس لك بطعمة ولكنه في عنقك أمانة، وأنت مسترع لمن فوقك^(٣)، فقد اعتبر أمير المؤمنين العمل الإداري - في هذا النص - أمانة ويجب على المسؤول أن يرد هذه الأمانة كما هي وأن يحافظ عليها، وأنه مسؤول أمام الله على أدائها ومسؤول أيضاً أمام رئيسه (من فوقه) اعترافاً بأهمية التسلسل الوظيفي، وهذا عامل مهم من عوامل إيجاد الضبط الإداري الذاتي الذي يمنع مظاهر التسبب والانحراف^(٤).

٨. المشاركة في صنع القرار:

إذا ما أعدنا قراءة النصوص عند أمير المؤمنين التي تحث على المشاورة لوجدنا أن الغاية من هذا الحث هو إيجاد مقدار من المشاركة في صنع القرار، وألاً ينفرد رجل واحد في صنع القرار سواء كان هذا الرجل قائداً عسكرياً أو مالياً، أو مديراً أو مسؤولاً في أي ميدان من الميادين فالمشاركة في الرأي تؤدي إلى

(١) «نهج البلاغة» (ص ٦١٨).

(٢) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٢٢).

(٣) «نهج البلاغة» (ص ٥٢٥).

(٤) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٢٣).

الصواب^(١)؛ لأنها مشاركة جمع من العقول وإضافة آراء ذوي الخبرة والتجربة، فالقرار الذي يأتي عبر مناقشة مستفيضة تجتمع عليه الآراء فيكون أقرب إلى الصواب^(٢)، أما نجاح العمل بالمشاركة تكفل هذا النجاح، يقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه : شاوروا فالنجاح في المشاورة^(٣)، لم يحدد أمير المؤمنين كيفية وأسلوب المشاورة، بل وضع أمامنا قاعدة عامة وذكر لنا فوائد تطبيق هذه القاعدة، ولم يستثن ميداناً من الميادين عن المشورة، وهذا يعني أنها ضرورية لكل عمل يقوم به الإنسان، وتشتد الضرورة عندما يكون هذا العمل مناطاً بمجموعة من الأشخاص وليس فرداً واحداً، وإذا أمعنا النظر في هذا النص: صواب الرأي بإجالة الأفكار^(٤)، لاتضح لنا أهمية المناقشات المستفيضة من ذوي الشأن للوصول إلى القرار الصائب^(٥).

٩. حسن الاختيار لدى الوالي والضمانات المادية والنفسية لموظفي الدولة:

إن حسن الاختيار يسد الطريق أمام المشاكل التي قد تطرأ نتيجة ضعف الموظف، أو عدم انسجامه مع الجو العام، وإذا ما أمعنا النظر في رسالة أمير المؤمنين علي لمالك ابن الأشتر النخعي لوجدنا الشروط المهمة التي يضعها أمامه عند اختياره لعماله: ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تولهم محاباة وأثرة؛ فإنها جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة، والقدم في الإسلام المتقدمة فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح أغراضاً، وأقل في المطامع إسرافاً وأبلغ في عواقب الأمور نظراً^(٦)، فهذه شروط متعددة غير محصورة بالكفاءة اللازمة في العمل فقط، بل لا بد من ملاحظة (العامل) من النواحي النفسية والاجتماعية أيضاً، حتى لا يأخذه الطموح ولا تتغير نواياه وأغراضه، كما لا بد من ملاحظة سلوكه الاجتماعي وقدرته على التكيف في المحيط الاجتماعي الجديد، عند ذلك تبدأ مسؤولية التوالي: ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك^(٧)، فعندما تجتمع تلك

(٦-٧) «نهج البلاغة» (ص ٦١٦).

(١-٥) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٢٩).

الخصال في فرد من الأفراد ثم يقابل بالمكافأة الجيدة؛ فإن ذلك مدعاة له لأن يستقيم في عمله ويواصل جهده لترقية الولاية أو المؤسسة. وفي مكان آخر يقول: وافسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته إلى الناس، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك^(١)، وهذه عوامل تخص الموظفين الكبار تمنعهم من السقوط في طريق الرشوة أو شرائهم بالمال.

أ - البذل الواسع الذي يكفل جميع حاجاته حتى يشعر بالغنى.

ب - المنزلة المرموقة حتى يشعر بالأمن والطمأنينة على وظيفته وهذا ما يسمى بالأمن الوظيفي.

فماذا يريد الموظف بعد كل ذلك إذا كانت حياته مؤمنة، ووضعته الوظيفي مستقرًا وهذه الضمانات لكبار موظفي الدولة يمكن إنزالها على الشركات الكبرى، والمؤسسات العملاقة وقادة الحركات الإسلامية، إنها كفالة كاملة تضمنها للموظف أفضل الأفكار الإدارية، فحتى الإدارة اليابانية لا تحيط الموظف بهذا الشكل من الرخاء الأمني والمعيشي، فالموظف يأخذ راتبًا معينًا، وقد يكون هذا الراتب غير كاف لتغطية جميع نفقاته، فماذا سيعمل حينذاك يا ترى؟ قد تدفعه الحاجة إلى أعمال مشينة مخلة بالأخلاق، لكن المنهاج الإداري لأمير المؤمنين علي عليه السلام يجب أن يؤمن الموظف حتى يصل حد الغنى، أي لا يتم الاكتفاء بالراتب الشهري فقط، بل المعيار هو تأمين حاجاته، ومن ثم توفير الأمن الوظيفي له^(٢)، وأعطه من المنزلة ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك^(٣).

١٠. مرافقة ذوي الخبرات:

فذوو التجارب هم مصدر المعرفة الواقعية، ومن الطبيعي أن يستفيد المتعلم من أصحاب التجارب أكثر ممن يتلقى من أصحاب العلوم النظرية، وقد استفاد

(١) «شرح نهج البلاغة» (ص ٦١٥).

(٢) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٣١).

(٣) «شرح نهج البلاغة» (ص ٦١٥).

اليابانيون من هذه القاعدة عندما حولوا معاملهم إلى جامعات يستفيد منها العامل الجديد، فهو يتلقى الخبرة ممن سبقه، والذي سبقه ممن سبقه، وقد جاءت هذه القاعدة على لسان أمير المؤمنين: خير من شاورت ذوو النهى والعلم وأولو التجارب والحزم^(١)، وأفضل من شاورت ذوو التجارب^(٢)، ويقول في مصاحبة أصحاب العلم والتجربة: خير من صاحبت ذوو العلم والحلم^(٣)، فهذه النصوص ما هي إلا قواعد غايتها إعداد الإنسان المسلم الناجح في الحياة ومن ثم بناء المجتمع المتصف بالتقدم والرقي المستمر^(٤).

١١- الإدارة الأبوية:

الوالي هو أب قبل أن يكون صاحب سلطة، وهو يتعامل مع موظفيه على أنهم أبناءه، فمثلما يتحمل الأب تربية أبنائه، كذلك يتحمل مسؤولية إعداد كبار موظفي الدولة، وهذا ما أخذت به التجربة اليابانية، والذي نجد له مصداقاً في قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى مالك بن الأشتر فيوصيه بموظفيه: ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما^(٥)، فيجب أن يتعامل المسؤول مع أفراده معاملة الوالد لولده، فيرعاه ويعفو عنه عندما يسيء، وعندما يعاقبه فعقوبته هي تربية له.

هذه بعض المفاهيم الإدارية عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.



(٢٠١) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٣٤).

(٤،٣) «الإدارة والنظام الإداري» (ص ٢٣٥).

(٥) «نهج البلاغة» ص (٦١٢)، و«الإدارة والنظام الإداري» ص (٢٣٥).

الفصل السادس

معركتي الجمل وصفين وقضية التحكيم

قال الله تعالى: ﴿وَأِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلوات الله عليه: لو أتيت عبد الله بن أبي، قال: فانطلق إليه. وركب حماراً، وانطلق المسلمون وهي أرض سبخة^(١)، فلما أتاه النبي صلوات الله عليه قال: إليك عني، فوالله لقد أذاني نتن حمارك. قال: فقال رجل من الأنصار: والله، لحمار رسول الله صلوات الله عليه أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجل من قومه. قال: فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجرید وبالأيدي وبالنعال. قال: فبلغنا أنها نزلت فيهم: ﴿وَأِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾^(٢) [الحجرات: ٩]. وعن الحسن عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنه، قوله: ﴿وَأِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ فإن الله سبحانه أمر النبي صلوات الله عليه والمؤمنين إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله، وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله، حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجتنب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاثلهم، حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويقروا بحكم الله^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا﴾ أي إذا

(١) أرض سبخة: هي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر.

(٢) «البخاري»، رقم (٢٦٩١)، و«مسلم» رقم (١٧٩٩).

(٣) «التفسير الصحيح»، لحكمت البشير (٤ / ٣٦٩).

تقاتل فريقان من المسلمين، فيجب على ولاة الأمور الإصلاح بالنصح، والدعوة إلى حكم الله والإرشاد وإزالة الشبه وأسباب الخلاف، والتعبير بأن للإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقع القتال بين المسلمين، وإنه إن وقع فإنه نادر قليل، والخطاب في الآية لولاة الأمور، والأمر فيها للوجوب^(١)، وقد استدل البخاري وغيره بهذا على أن المعصية وإن عظمت لا تخرج من الإيمان، خلافاً للخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر وهو في النار، وثبت في صحيح البخاري عن أبي بكره رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوماً، ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فجعل ينظر إليه مرة، وإلى الناس أخرى، ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»^(٢). فكان كما قال صلى الله عليه وسلم أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب التي وقعت بينهما^(٣). وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ الحجرات: ٩ أي فإن اعتدت وتجاوزت الحد إحدى الفئتين على الأخرى، ولم تدعن لحكم الله ولا للنصيحة، فعلى المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية، حتى ترجع إلى حكم الله وما أمر به من عدم البغي، والقتال يكون بالسلاح وبغيره، ويفعل الوسيط ما يحقق المصلحة، وهي الفيئة، فإن تحقق المطلوب بما دون السلاح كان ذلك، وإن تعين السلاح وسيلة فعل حتى الفيئة وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي رجعت الفئة الباغية في بغيها، بعد القتال، ورضيت بأمر الله وحكمه، فعلى المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم، ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله، ويأخذوا على يد الطائفة الظالمة حتى تخرج من الظلم، وتؤدي ما يجب عليها للأخرى، حتى لا يتجدد القتال بينهما مرة أخرى، واعدلوا أيها الوسطاء في الحكم بينهما، إن الله يحب العادلين ويجازيهم أحسن الجزاء، وهذا أمر بالعدل في كل الأمور^(٤). قال صلى الله عليه وسلم: «المقسطون عند الله

(١) «التفسير المنير» للزحيلي (٢٦/ ٢٣٧).

(٢) «البخاري» رقم (٧١٠٩).

(٤) المصدر نفسه (٢٦ / ٢٣٨).

(٣) «تفسير المنير» (٢٦ / ٢٣٨).

تعالى يوم القيامة على منابر من نور، على يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولُّوا»^(١)، ثم أمر الله تعالى بالإصلاح في غير حال القتال ولو في أدنى اختلاف فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩] فهذه الآية أصل من الأصول التي تنظم علاقة المسلم بأخيه المسلم^(٢)، إن الله تعالى لم ينفِ صفة الإيمان عن إحدى الطائفتين أو كليهما مع وقوع القتال بينهما، وإن أولى الناس بالدخول تحت معنى هذه الآية هم سادات المؤمنين الصحابة الكرام رضي الله عنهم سواء ما وقع في معركة الجمل أو صفين، وقد قام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بتطبيق هذه الآية حرصاً على الإصلاح، وقد استجاب طلحة والزبير لذلك إلا أن أتباع عبد الله بن سبأ أنشبوا الحرب بين الطرفين، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله وحرص أمير المؤمنين على الإصلاح مع أهل الشام وبذل ما في وسعه من طرق سلمية، وجرّد سيفه بعد فشل كل المحاولات الإصلاحية لكي يفيء معاوية رضي الله عنه إلى السمع والطاعة، ووحدة الخلافة الإسلامية إلا أن معاوية اشترط تسليم قتلة عثمان رضي الله عنه، فاجتهد وأخطأ وكان الحق مع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ووقع القتال.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ فأثبت الأخوة الإيمانية لجميع المتقاتلين من المسلمين ومن باب أولى ما وقع بين علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم في الجمل، وما وقع مع معاوية رضي الله عنه في صفين. ومن هنا يظهر لنا أن المتقاتلين في الجمل وصفين مؤمنون ولا مجال للطعن في الصحابة بسبب هذه الحوادث التاريخية، أو محاولة نزع الإيمان عنهم أو نشر العبارات المنحرفة في حقهم، ويكفي في الرد على تلك المقولات الباطلة أن هذه الآيات أثبتت لهم أخوة الإيمان ويأتي بيان ما وقع بينهم بإذن الله تعالى بالتفصيل.

فقد ذكر تعالى أن المؤمنين إخوة في الدين، ويجمعهم أصل واحد وهو الإيمان، فيجب الإصلاح بين كل أخوين متنازعين، وزيادة في أمر العناية

بالإصلاح بين الأخوين أمر الله تعالى بالتقوى، والمعنى: فأصلحوا بينهما، وليكن رائدكم في هذا الإصلاح وفي كل أموركم تقوى الله، وخشيته والخوف منه، بأن تلتزموا الحق والعدل، ولا تحيفوا ولا تميلوا لأحد الأخوين؛ فإنهم إخوانكم، والإسلام سوّى بين الجميع، فلا تفاضل بينهم ولا فوارق، ولعلكم ترحمون بسبب التقوى وهي التزام الأوامر واجتناب النواهي^(١). وقد جعلت الآية الكريمة: الإصلاح بين الإخوة وتقوى الله سبب نزول رحمة الله، تعظيماً لأمر الإصلاح بين المسلمين^(٢). ويلاحظ أنه قال: «اتقوا الله» عند تخاصم رجلين، ولم يقل ذلك عند إصلاح الطائفتين؛ لأنه في حالة تخاصم الرجلين يخشى اتساع الخصومة، وأما في حال تخاصم الطائفتين فإن أثر الفتنة أو المفسدة عام شامل الكل^(٣)، وكلمة (إنما) للحصر تفيد أنه لا أخوة إلا بين المؤمنين، ولا أخوة بين المؤمن والكافر؛ لأن الإسلام هو الرباط الجامع بين أتباعه، وتفيد أيضاً أن أمر الإصلاح ووجوبه إنما هو عند وجود الأخوة في الإسلام، لا بين الكفار، فإن كان الكافر ذمياً أو مستأمناً وجبت إعانته وحمايته ورفع الظلم عنه، كما تجب إعانة المسلم ونصرته مطلقاً إن كان خصمه حربياً^(٤).

وقد قال ابن العربي: هذه الآية أصل في قتال المسلمين، والعمدة في حرب المتأولين، وعليها عول الصحابة، وإياها عنى النبي صلوات الله عليه: «تقتل عماراً الفئة الباغية». أي عمار ابن ياسر، والأمر بقتال البغاة فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي، ولذلك تخلف قوم من الصحابة رضي الله عنهم عن هذا الأمر؛ كسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهم وغيرهم، اعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منهم^(٥) أمير المؤمنين علي، وهناك كثير من

(١) «التفسير المنير» (٢٦ / ٢٣٩).

(٢) «منهج القرآن الكريم في إصلاح النفوس» للحريزي ص (١٦).

(٣) «التفسير المنير» (٢٦ / ٢٣٩).

(٤) المصدر نفسه (٢٦ / ٢٤٠).

(٥) «التفسير المنير» (٢٦ / ٢٤٢)، و«أحكام القرآن» (٤ / ١٥٠).

الأحكام سوف نراها من خلال سرد الوقائع التي حدثت بين الصحابة - بإذن الله تعالى- ويعتبر نظام التحكيم وقاتل الفئة الباغية حتى تفيئ إلى أمر الله، نظام له السبق من حيث الزمن على محاولات البشرية في هذا الطريق، وله الكمال والبراءة من العيب والنقص الواضحين في كل محاولات البشرية البائسة القاصرة، التي حاولتها في كل تجاربها الكسيحة، وله بعد هذا وذاك صفة النظافة والأمانة والعدل المطلق؛ لأن الاحتكام فيه إلى الأمر الذي لا يشوبه غرض ولا هوى ولا يتعلق به نقص أو قصور^(١). ولم تنته محاولات الإصلاح منذ اندلاع القتال، حتى توج بالصلح العظيم الذي خطط له أمير المؤمنين الحسن ابن علي رضي الله عنه.



المبحث الأول

الأحداث التي سبقت معركة الجمل

كانت فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه سبباً في حدوث كثير من الفتن الأخرى، وألقت بظلالها على أحداث الفتن التي تلتها، وقد ساهمت أسباب عديدة في فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه، منها: الرخاء وأثره في المجتمع، طبيعة التحول الاجتماعي في عهده، مجيء عثمان بعد عمر رضي الله عنه، وخروج كبار الصحابة من المدينة، العصبية الجاهلية، توقف الفتوحات، الورع الجاهل، طموح الطامحين، تأمر الحاقدين، التدبير المحكم لإثارة المآخذ ضد عثمان رضي الله عنه، استخدام الأساليب والوسائل المهيجة للناس، دور عبد الله بن سبأ في الفتنة وقد تمّ تفصيل تلك الأسباب في كتابي «تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان»^(١)، إن عثمان رضي الله عنه كان الناس يحبونه حباً عظيماً؛ لحسن سياسته ولمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحاديثه في الثناء عليه وزواجه من ابنته حتى سمي بذي النورين، فهو من الصحابة الكبار الذين بشروا بالجنة، ولقد تعرّض للظلم في حياته من بعض الغوغاء وكان في استطاعته أن يقضي عليهم، ولكنه امتنع خوفاً من أن يكون أول من يسفك الدماء في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كانت سياسته في التعامل مع الفتنة قائمة على الحلم والتأني والعدل، وقد منع الصحابة من قتال الغوغاء وأحب أن يقي المسلمين بنفسه ولذلك كان مقتله سبباً لحدوث كثير من الفتن الأخرى، التي ألقت بظلالها على الأحداث المتتالية من الفتن ولقد كان مقتله عظيماً على المسلمين؛ ولذلك تصدع المجتمع الإسلامي لهذا الحادث الجلل، وانقسم الناس، ومما يزيد في مكانته وبرأته مما نسب إليه مواقف الصحابة من قتله، فقد أجمع الجميع على براءته واتفقوا على الأخذ بدمه إلا أن المواقف اختلفت في الكيفية وهذا ما سيأتي بيانه بإذن الله. ونحب أن نسلط الأضواء على دور عبد الله بن سبأ في الفتنة عموماً:

(١) «عثمان بن عفان» للصّليبيّ ص (٣١١ إلى ٣٤٠).

أولاً: أثر السبئية في إحدات الفتنة:

(١) السبئية حقيقة أم خيال: حقيقة عبد الله بن سبأ:

أجمع القدماء على وجوده بلا استثناء وخالف في ذلك قلة من المعاصرين أكثرهم من الشيعة، وحجة من أنكر: أنه من إبداع مخيلة سيف بن عمر التميمي وذلك لانتقاد بعض علماء الرجال له في مجال رواية الحديث، مع أن العلماء يعدونه حجة في الأخبار، علماً بأنه وردت روايات كثيرة عند ابن عساكر تذكر مع عبد الله بن سبأ، ليس من بين رواها سيف بن عمر، وقد حكم الألباني على بعضها بأنها صحيحة من حيث السند^(١)، وهذا غير الروايات الكثيرة عن ابن سبأ في كتب الشيعة سواء في كتب الفرق، أو الرجال أو الحديث عندهم وليس فيها سيف هذا لا من قريب ولا من بعيد، وقد ابتدؤوا التشكيك في شخصية عبد الله بن سبأ^(٢) ووجوده في محاولة منهم لنفي دور العنصر اليهودي الحاقد في زرع الفتنة بين المسلمين من جهة، ومن جهة أخرى يوجه الاتهام للصحابة بأنهم سبب الفتنة بغرض هدم النموذج السامي، والصور المشرقة لهم عند المسلمين وتابعهم على نفي وجود عبد الله بن سبأ بعض المعاصرين، كلهم من الشيعة الرافضة لغاية في نفوسهم وهي محاولتهم الفاشلة لتبرير أصل مذهبهم من مؤسسه الحقيقي، كما أجمع القدماء جمعهم بما فيهم الشيعة.

وتجدر الإشارة إلى أن من أنكر عبد الله بن سبأ من المحسوين على أهل السنة وهم ممن تأثروا وتعلموا على أيدي المستشرقين، فأين بلغ هؤلاء من قلة الحياء والجهل، وقد ملأت ترجمته كتب التاريخ والفرق، وتناقلت أفعاله الرواة وطبقت أخباره الآفاق، لقد اتفق المؤرخون والمحدثون وأصحاب كتب الفرق والملل والنحل، والطبقات والأدب والأنساب الذين تعرضوا للسبئية على وجود شخصية

(١) «دعوى الإنقاذ للتاريخ الإسلامي»، للعودة، ذكر فيها الطرق التي ذكرها الألباني.

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة» (١ / ٢٨٤) ذكر تفصيلاً مهماً، وكذلك «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام»، للعودة.

عبد الله بن سبأ الذي ظهر في أخبار الفتنة، ودور ابن سبأ فيها لم يكن قاصراً على تاريخ الإمام الطبري، واستناداً على روايات سيف ابن عمر التميمي فيه، إنما هي أخبار منتشرة في روايات المتقدمين، وفي ثنايا الكتب التي رصدت أحداث التاريخ الإسلامي، آراء الفرق والنحل في تلك الفترة إلا أن ميزة تاريخ الإمام الطبري على غيره، أنه أغزرها مادة وأكثر تفصيلاً لا أكثر؛ ولهذا فإن الشك في هذه الأحداث بلا سند وبلا دليل بحجة عدم ذكر عبد الله بن سبأ، إلا من طريق سيف ابن عمر، حتى بعد ثبوت ذكره من الروايات الصحيحة ليس فيها سيف بن عمر كما أسلفنا. إنما يعني الهدم لكل تلك الأخبار، والتسفيه بأولئك المخبرين والعلماء وتزييف الحقائق التاريخية، فمتى كانت المنهجية ضرباً من ضروب الاستنتاج العقلي المحض في مقابل النصوص والروايات المتضاربة؟ وهل تكون المنهجية في الضرب صفحاً والإعراض عن المصادر الكثيرة المتقدمة والمتأخرة التي أثبتت لابن سبأ شخصية واقعية؟^(١)، وقد جاء ذكر ابن سبأ في كتب أهل السنة كثيراً منها:

جاء ذكر السبئية على لسان أعشى همدان^(٢) المتوفى عام ٨٣هـ، وقد هجى المختار ابن أبي عبيد الثقفي وأنصاره من أهل الكوفة بعدما فرم مع أشرف قبائل الكوفة إلى البصرة بقوله:

شَهِدْتُ عَلَيْكُمْ أَنْكُمْ سَبَّيَّةٌ

وَأَنِّي بِكُمْ يَا شُرَطَةَ الْكُفْرِ عَارِفٌ^(٣)

وهناك رواية عن الشعبي المتوفى عام ١٠٣هـ (٧٢١م) تفيد أنه أول من كذب عبد الله بن سبأ^(٤)، وتحدث ابن حبيب^(٥) المتوفى عام ٢٤٥هـ (٨٦٠م) عن ابن

(١) «دعوى الإنقاذ للتاريخ الإسلامي» للعودة، و«تحقيق مواقف الصحابة» (٧٠/١).

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني، المعروف بأعشى همدان.

(٣) «ديوان أعشى همدان» (ص ١٤٨).

(٥) «تاريخ بغداد» (٢/٢٧٧).

(٤) «تاريخ دمشق»، لابن عساكر (٩/٣٣١).

سباً حينما اعتبره أحد أبناء الحبشيات^(١)، وكما روى أبو عاصم خُشيش بن أصرم المتوفى سنة ٢٥٣هـ خبر إحراق علي رضي الله عنه لجماعة من أصحاب ابن سبأ في كتابه «الاستقامة»^(٢)، ويعتبر الجاحظ^(٣) المتوفى سنة ٢٥٥هـ من أوائل من أشار إلى عبد الله بن سبأ^(٤)، ولكن روايته ليست أقدم رواية عن ابن سبأ، كما يروي الدكتور جواد علي^(٥) خبر إحراق علي ابن أبي طالب رضي الله عنه لطائفة من الزنادقة تكشف عنه الروايات الصحيحة في كتب الصحاح والسنن والمسانيد^(٦)، ولفظ الزنادقة ليس غريباً عن عبد الله بن سبأ وطائفته، يقول ابن تيمية: إن مبدأ الرفض إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ^(٧)، ويقول الذهبي: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة، ضال مضل^(٨)، ويقول ابن حجر: عبد الله بن سبأ من غلاة الزنادقة . . وله أتباع يقال لهم السبئية معتقدون الألوهية في علي بن أبي طالب، وقد أحرقهم علي بالنار في خلافته^(٩)، ويوجد لابن سبأ ذكر في كتب الجرح والتعديل، يقول ابن حبان المتوفى ٣٥٤هـ وكان الكلبي - محمد بن السائب الأخباري - سبئياً، من أصحاب عبد الله ابن سبأ، من أولئك الذين يقولون: إن علياً لم يمت، وإنه راجع إلى الدنيا قبل الساعة. وإن رأوا سحابة قالوا: أمير المؤمنين فيها^(١٠). كما أن كتب الأنساب هي الأخرى تؤكد نسبة السبئية، إلى عبد الله بن سبأ - وهم الغلاة من الرافضة- أصله من اليمن، كان يهودياً وأظهر الإسلام^(١١)، ولم يكن سيف بن عمر هو المصدر الوحيد لأخبار عبد الله ابن سبأ، إذ أورد ابن عساكر في تاريخه روايات لم يكن سيف فيها وهي تثبت ابن سبأ وتؤكد أخباره^(١٢)، ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٢٨هـ أن

(١) «عبد الله بن سبأ» للعودة ص (٥٣)، و«المحبر»، لابن حبيب ص (٣٠٨).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (٥٥١/٢)، و«شذرات الذهب» (١٢٩/٢).

(٣) «وفيات الأعيان» (٤٧٠ / ٠٣).

(٤) «البيان والتبيين» (٨١ / ٣).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٤٨٣ / ٢٨).

(٦) «عبد الله بن سبأ» للعودة ص (٥٣).

(٧) «ميزان الاعتدال» للذهبي (٤٢٦/٢).

(٨) «لسان الميزان» لابن حجر (٣٦٠/٣).

(٩) «المجروحين من المحدثين» لأبي حاتم (٢٥٣/٢).

(١٠) «الأنساب» (٢٤/٧).

(١١) «تذكرة الحفاظ» (٥٥١/٢)، و«شذرات الذهب» (١٢٩/٢).

(١٢) «تذكرة الحفاظ» (٥٥١/٢)، و«عبد الله بن سبأ» للعودة ص (٥٤).

أصل الرفض من المنافقين الزنادقة، فإنه ابتداع ابن سبأ الزنديق وأظهر الغلو في علي يدعو الإمامة والنص عليه، وادعى العصمة له^(١)، ويذهب ويشير الشاطبي^(٢)، المتوفى عام ٧٩٠هـ إلى أن بدعة السبئية من البدع الاعتقادية المتعلقة بوجود إله مع الله - تعالى - وهي بدعة تختلف عن غيرها من المقالات^(٣)، وفي خطط المقرئ المتوفى عام ٨٤٥هـ، أن عبد الله بن سبأ قام من زمن علي مُحدثاً القوم بالوصية والرجعة والتناسخ^(٤)، وأما المصادر الشيعية التي ذكرت ابن سبأ، فقد روى الكشي عن محمد بن قولوية، قال: حدثني سعد ابن عبد الله، قال: حدثني يعقوب بن يزيد، ومحمد بن عيسى، عن علي ابن مهزيار، عن فضالة بن أيوب الأزدي، عن أبان بن عثمان قال سمعت أبا عبد الله يقول: لعن الله عبد الله بن سبأ، إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين وكان والله أمير المؤمنين عبداً طائعاً، الويل لمن كذب علينا، وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقول في أنفسنا نبراً إلى الله منهم^(٥)، والرواية عند الشيعة من حيث السند صحيحه^(٦).

وفي كتاب «الخصال» أورد القمي الخبر نفسه، ولكنه موصولاً بسند آخر وأما صاحب «روضات الجنات» فقد ذكر ابن سبأ على لسان الصادق المصدوق الذي لعن ابن سبأ؛ لاتهامه بالكذب والتزوير وإذاعة الأسرار والتأويل^(٧)، وقد ذكر الدكتور سليمان العودة في كتابه مجموعة من النصوص التي تزخر بها كتب الشيعة ومروياتهم عن عبد الله بن سبأ، فهي أشبه ما تكون بوثائق مسجلة تدين من حاول من متأخري الشيعة إنكار عبد الله بن سبأ، أو التشكيك في أخباره، بحجة قلة، أو ضعف المصادر التي حكى أخباره^(٨).

إن شخصية ابن سبأ حقيقة تاريخية لا لبس فيها في المصادر السنية والشيعية

(١) «مجموعة الفتاوى» لابن تيمية (٤/٤٣٥).

(٢) إبراهيم بن موسى، محمد الغرناطي توفي عام ٧٩٠هـ.

(٣) «لاعتصام» (٢/١٩٧).

(٤) «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» للمقرئ (٢/٢٥٦ - ٢٥٧).

(٥) «رجال الكشي» (١/٣٢٤).

(٦) «عبد الله بن سبأ الحقيقة المجهولة للشيعة» لمحمد علي المعلم ص (٣٠).

(٧، ٨) «عبد الله بن سبأ»، لسليمان العودة ص (٦٢).

المتقدمة والمتأخرة على السواء، وهي كذلك أيضاً عند غالبية المستشرقين أمثال: يوليوس فلهاوزن^(١)، وفان فولتن^(٢)، وليفي ديلافيدا^(٣)، وجولد تسهير^(٤)، ورينولد نكلسن^(٥)، وداويت روندلس^(٥)... إلخ، على حين يبقى ابن سبأ محل شك أو مجرد خرافة عند فئة قليلة من المستشرقين أمثال؛ كيتاني وبرنارد لويس^(٧)، وفريد لندر المتأرجع^(٨)، علماً بأننا لا نعتد بهم في أحداث تاريخنا.

ومن استقرأ المصادر، سواء القديمة والمتأخرة، عند السنة والشيعية، يتأكد له أن وجود ابن سبأ كان وجوداً تؤكد الروايات التاريخية، وتفويض فيه كتب العقائد، وذكرته كتب الحديث، والرجال والأنساب، والأدب، واللغة، وسار على هذا النهج كثير من المحققين والباحثين المحدثين، يبدو أن أول من شكك في وجود ابن سبأ المستشرقين، ثم دعم هذا الطرح الغالبية من الشيعة المعاصرين بل وأنكر بعضهم وجوده البتة، وبرز من الباحثين العرب المعاصرين من أعجب بآراء المستشرقين، ومن تأثر بكتابات الشيعة المحدثين، ولكن هؤلاء جميعاً ليس لهم ما يدعمون به شكهم وإنكارهم، إلا الشك ذاته والاستناد إلى مجرد الهوى والظنون والفرضيات^(٩). ومن أراد التوسع في معرفة المراجع والمصادر السنية والشيعة والاستشراقية التي ذكرت ابن سبأ فليراجع، «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» للدكتور محمد أمحزون، و«عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام»، للدكتور سليمان بن حمد العودة.

(٢) دور عبد الله بن سبأ في تحريك الفتنة:

في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان رضي الله عنه بدت في الأفق سمات

- (١) «الخوارج والشيعة»، يوليوس فلهاوزن ص (١٧٠).
- (٢) «السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات» ص (٨٠).
- (٣) «تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣٢١).
- (٤) «العقيدة والشريعة الإسلامية»، جولد تسهير ص (٢٢٩).
- (٥) «تاريخ العرب الأدبي في الجاهلية» ص (٢٣٥).
- (٦) «عقائد الشيعة» ص (٥٨).
- (٧) «أصول الإسماعيلية» ص (٨٦).
- (٨) «تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣١٢).
- (٩) «تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣١٢).

الاضطراب في المجتمع الإسلامي، نتيجة عوامل التغيير التي ذكرناها وأخذ بعض اليهود يتحينون فرصة الظهور، مستغلين عوامل الفتنة ومتظاهرين بالإسلام واستعمال التقية، ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء، وإذا كان ابن سبأ لا يجوز التهويل من شأنه كما فعل بعض المغالين في تضخيم دوره في الفتنة^(١)؛ فإنه كذلك لا يجوز التشكيك فيه أو الاستهانة بالدور الذي لعبه في أحداث الفتنة، كعامل من عواملها، على أنه أبرزها وأخطرها؛ إذ أن هناك أجواء للفتنة مهدت له، وعوامل أخرى ساعدته، وغاية ما جاء به ابن سبأ آراء ومعتقدات، ادّعاها واخترعها من قبل نفسه وافتعلها من يهوديته الحاقدة، وجعل يروجها لغاية ينشدها وغرض يستهدفه، وهو الدس في المجتمع الإسلامي بغية النيل من وحدته، وإذكاء نار الفتنة وغرس بذور الشقاق بين أفرادها، فكان ذلك من جملة العوامل التي أدت إلى قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وتفرق الأمة شيعاً وأحزاباً^(٢)، وخلاصة ما جاء به أنه أتى بمقدمات صادقة وبنى عليها مبادئ فاسدة، راجت لدى السذج الغلاة وأصحاب الأهواء من الناس، وقد سلك في ذلك مسالك ملتوية لبس فيها على من حوله حتى اجتمعوا عليه، فطرق باب القرآن بتأوله على زعمه الفاسد حيث قال: لَعَجَبٌ مِّنْ يَزْعَمُ أَنْ عَيْسَى يَرْجِعُ، وَيُكذِّبُ بَأَن مُحَمَّدًا يَرْجِعُ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]. فمحمد أحق بالرجوع من عيسى^(٣)، كما سلك طريق القياس الفاسد من ادعاء إثبات الوصية لعلي رضي الله عنه بقوله: إنه كان ألف نبي، ولكل نبي وصي، وكان علي رضي الله عنه وصي محمد صلوات الله عليه ثم قال: محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء^(٤)، وحينما استقر الأمر في نفوس أتباعه انتقل إلى هدفه المرسوم، وهو خروج الناس على الخليفة عثمان رضي الله عنه، فصادف ذلك هوى في نفوس بعض القوم حيث قال لهم: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلوات الله عليه ووثب على وصي رسول الله صلوات الله عليه وتناول أمر الأمة؟ ثم قال لهم بعد

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣٢٧).

(٤) المصدر نفسه (٥/٣٤٧).

(١) مثال: سعيد الأفغاني في كتابه «عائشة والسياسة».

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٣٤٧).

ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحركوه، وأبدؤوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر^(١)، وبث دعائه، وكاتب من كان استفسد في الأمصار وكاتبوه ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرأه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة، وأوسعوا الأرض إذاعة، وهم يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، فيقول أهل كل مصر: إننا لفي عافية مما فيه الناس^(٢).

ويظهر في النص الأسلوب الذي اتبعه ابن سبأ، فهو أراد أن يوقع في أعين الناس بين اثنين من كبار الصحابة، حيث جعل أحدهما مهضوم الحق وهو علي، وجعل الثاني مغتصباً وهو عثمان رضي الله عنه، ثم حاول بعد ذلك أن يحرك الناس - خاصة في الكوفة - على أمرائهم باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فجعل هؤلاء يثورون لأصغر الحوادث على ولاتهم، علماً بأنه ركز في حملته هذه على الأعراب الذين وجد فيهم مادة ملائمة لتنفيذ خطته، فالقراء منهم استهواهم عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصحاب المطامع منهم هيج أنفسهم بالإشاعات المغرضة المفتراة على عثمان رضي الله عنه؛ مثل تحيُّزه لأقاربه وإغداق الأموال من بيت مال المسلمين عليهم، وإنه حمى الحمى لنفسه إلى غير ذلك من التهم والمطامع التي حرك بها نفوس الغوغاء ضد عثمان رضي الله عنه مع براءته، ثم إنه أخذ يحض أتباعه على إرسال الكتب بأخبار سيئة مفعجة عن مصرهم إلى بقية الأمصار، وهكذا يتخيل الناس في جميع الأمصار أن الحال بلغ من السوء ما لا مزيد عليه، والمستفيد من هذه الحال هم السبئية؛ لأن تصديق ذلك من الناس يفيدهم في إشعال شرارة الفتنة داخل المجتمع الإسلامي^(٣)، هذا وقد شعر عثمان

(١) «تاريخ الطبري» (٣٤٨/٥).

(٢) «تاريخ الطبري» (٣٤٨/٥).

(٣) «الدولة الأموية»، ليوسف العشي ص (١٦٨)، و«مواقف الصحابة» (١/٣٣٠).

رضي الله عنه بأن شيئاً ما يحاك في الأمصار وأن الأمة تمخض بشر فقال: والله إن رحي الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها^(١)، على أن المكان الذي رتع فيه ابن سبأ هو في مصر، وهناك أخذ ينظم حملته ضد عثمان رضي الله عنه، ويحث الناس على التوجه إلى المدينة لإثارة الفتنة بدعوى أن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، ووُثب على وصي رسول الله صلوات الله عليه يقصد^(٢) علياً رضي الله عنه، وقد غشهم بكتب ادّعى أنها وردت من كبار الصحابة، حتى إذا أتى هؤلاء الأعراب المدينة المنورة واجتمعوا بالصحابة لم يجدوا منهم تشجيعاً، حيث تبرؤوا مما نسب إليهم من رسائل تؤلب الناس على عثمان رضي الله عنه^(٣)، ووجدوا عثمان مقدراً للحقوق، بل وناظرهم فيما نسبوا إليه، وردّ عليهم افتراءهم وفسّر لهم صدق أعماله، حتى قال أحد زعمائهم وهو مالك ابن الأشتر النخعي: لعلّه مكر به وبكم^(٤)، ويعتبر الذهبي أن عبد الله بن سبأ المهيج للفتنة بمصر وبأذر بذور الشقاق والنقمة على الولاية، ثم على أمير المؤمنين عثمان فيها^(٥)، ولم يكن ابن سبأ وحده، وإنما كان عمله ضمن شبكة من المتآمرين وأخطبوط من أساليب الخداع والاحتيال والمكر وتجنيد الأعراب والقراء وغيرهم، ويروي ابن كثير أن من أسباب تألب الأحزاب على عثمان ظهور ابن سبأ، وذهابه إلى مصر وإذاعته بين الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه، فافتتن به بشر كثير من أهل مصر^(٦).

إن المشاهير من المؤرخين والعلماء من سلف الأمة وخلفها، يتفقون على أن ابن سبأ ظهر بين المسلمين بعقائد وأفكار وخطط سبئية؛ ليلفت المسلمين عن دينهم وطاعة إمامهم ويوقع بينهم الفرقة والخلاف، فاجتمع إليه من غوغاء الناس ما تكونت به الطائفة السبئية المعروفة التي كانت عاملاً من عوامل الفتنة، المنتهية

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٢٥٠).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٣٤٨)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣٣٠).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٣٤٨)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣٣٠).

(٤) «تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣٣١).

(٥) «تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣٣٨).

(٦) «البداية والنهاية» (٧/١٦٧، ١٦٨).

بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وما ترتب على قتله من فتن كمعركة الجمل وصفين وغيرها، والذي يظهر من خطط السبئية أنها كانت أكثر تنظيماً؛ إذ كانت بارعة في توجيه دعايتها ونشر أفكارها لامتلاكها ناصية الدعاية والتأثير بين الغوغاء والرعا من الناس، كما كانت نشيطة في تكوين فروع لها سواء في البصرة أو الكوفة أم مصر، مستغلة العصبية القبلية، ومتمكنة من إثارة مكامن التذمر عند الأعراب والعبيد والموالي، عارفة بالمواضع الحساسة في حياتهم وبما يريدون^(١).

ثانياً: اختلاف الصحابة في الطريقة التي يأخذ بها القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه:

إن الخلاف الذي نشأ بين أمير المؤمنين علي من جهة، وبين طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهن من جهة أخرى، ثم بعد ذلك بين علي ومعاوية رضي الله عنهما لم يكن سببه ومنشؤه أن هؤلاء كانوا يقدحون في خلافة أمير المؤمنين علي وإمامته، وأحقيته بالخلافة والولاية على المسلمين، فقد كان هذا محل إجماع بينهم .

قال ابن حزم: ولم ينكر معاوية قط فضل علي واستحقاقه الخلافة، ولكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القود من قتلة عثمان رضي الله عنه على البيعة، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان^(٢).

وقال ابن تيمية: ومعاوية لم يدع الخلافة، ولم يبائع له بها حين قاتل علياً، ولم يقاتل علي أنه خليفة، ولا أنه يستحق الخلافة، ويقرون له بذلك، وقد كان معاوية يقر بذلك لمن سأله عنه، ولا كان معاوية وأصحابه يرون أن يبتدئوا علياً وأصحابه بالقتال، ولا فعلوا^(٣)، وقال أيضاً: وكل فرقة من المشيعين مقرّة مع ذلك بأنه ليس معاوية كفراً لعلي بالخلافة، ولا يكون خليفة مع إمكان استخلاف علي، فإن فضل علي وسابقته وعلمه ودينه وشجاعته، وسائر فضائله كانت عندهم ظاهرة معلومة كفضل إخوانه أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم^(٤).

(٢) «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (١٦٠/٤)

(١) «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (٣٣٩/١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧٢/٣٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٧٢/٣٥).

إن منشأ الخلاف لم يكن قدحاً في خلافة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وإنما اختلافهم في قضية الاقتصاص من قتلة عثمان ولم يكن خلافهم في أصل المسألة، وإنما كان في الطريقة التي تعالج بها هذه القضية؛ إذ كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه موافقاً من حيث المبدأ على وجوب الاقتصاص من قتلة عثمان، وإنما كان رأيه أن يرجئ الاقتصاص من هؤلاء إلى حين استقرار الأوضاع، وهدوء الأمور واجتماع الكلمة^(١)، قال النووي: واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة، فلشدة اشتباهاها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام: قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف، وأن مخالفه باغ، فوجب عليهم نصرته، وقاتل الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك، ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء: ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدتهم وقاتل الباغي عليه، وقسم ثالث: اشتبهت عليهم القضية، وتحيروا فيها، ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين، وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم؛ لأنه لا يحل الإقدام على قتال مسلم حتى يظهر أنه مستحق لذلك، ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين، وأن الحق معه، لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه^(٢).

ثالثاً: موقف المطالبين بدم عثمان كطلحة والزبير وعائشة ومعاوية ومن

كان على رأيهم:

١ - السيدة عائشة أم المؤمنين:

لما سمعت السيدة عائشة رضي الله عنها بموت عثمان في طريق عودتها من مكة إلى المدينة رجعت إلى مكة ودخلت المسجد الحرام، وقصدت الحجر فسترت فيه، واجتمع الناس إليها فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار، وأهل المياه،

(١) «أحداث وأحاديث فتنة الهرج» ص (١٥٨) ..

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٥/١٤٩).

وعبيد أهل المدينة اجتمعوا، فقد عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإرب^(١)، واستعمال من حدثت سنه، وقد استعمل أسنانهم قبله، ومواضع من الحمى حماها لهم، وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم، ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم، فلما لم يجدوا حجة ولا غدرًا خلجوا^(٢)، وبادروا بالعدوان، نبا فعلهم عن قولهم، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، وأخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحرام، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة^(٣) من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم^(٤)، ويشرد^(٥) من بعدهم، ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً نخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه؛ إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء^(٦).

وجاء في رواية أن عائشة رضي الله عنها حين انصرفت راجعة إلى مكة أتتها عبد الله ابن عامر الحضرمي - أمير مكة - فقال لها: ما ردك يا أم المؤمنين؟ قالت: ردني أن عثمان قُتل مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام^(٧)، وقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة ثناء السيدة عائشة على عثمان، ولعنها لمن قتله، وروت في حقه أحاديث عن رسول الله في فضائله، فعن فاطمة بنت عبد الرحمن اليشكرية عن أمها، أنها سألت عائشة، عندما أرسلها عمها فقال: إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسألك عن عثمان ابن عفان، فإن الناس قد أكثروا فيه، فقال: لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان قاعداً عند نبي الله، وإن رسول الله صلوات الله عليه مسند ظهره إليّ، وإن جبريل عليه السلام ليوحي إليه القرآن وإنه ليقول: «اكتب عثمان»، فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريماً على الله ورسوله^(٨).

(١) الإرب: الحاجة والدهاء والفتنة والعقل.

(٢) خلجوا: تحركوا واضطربوا.

(٣) نجاة: اطلبوا النجاة باجتماعكم عليهم.

(٤) ينكل بهم غيرهم: حتى يروعهم ويروع بهم غيرهم.

(٥) يشرد: يفرق ويبدد جمعهم.

(٦) «تاريخ الطبري» (٥/٤٧٣، ٤٧٤).

(٧) «تاريخ الطبري» (٥/٤٧٥).

(٨) «المسند» (٦/٢٥٠-٢٦٠)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (١/٣٧٨).

وعن مسروق عن عائشة قالت - حين قُتل عثمان -: تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قربتموه تذبحونه كما يذبح الكبش، فقال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج إليه، قالت عائشة: لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسوءاء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا^(١)، وقد مر معنا كذب السبئيين في كتابي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأنهم كتبوا رسائل لأهل الأمصار ونسبوا كذباً وزوراً للسيدة عائشة رضي الله عنها وقد جاءت رواية موضوعة، وضعيفة أسانيداً واهية من رواية الكذابين، وللأسف اتبعتها بعض المعاصرين وراجت عليهم هذه الأكاذيب؛ صورت العلاقة بين عائشة وعثمان رضي الله عنهما على صورة مناقضة تماماً للروايات الصحيحة السالفة الذكر، وزعمت تلك الروايات الكاذبة بأن السيدة عائشة رضي الله عنها ألبت على عثمان رضي الله عنه وقالت بوجود خلاف بينهما، ونسبت إليها الاشتراك شبه الفعلي في قتله ونقل ذلك الطبري، ونقل عن الطبري الكثير من المؤرخين وإليك مثال على ذلك: ما ذكره الطبري، قال: كتب إلي علي بن أحمد بن الحسن العجلي، أن الحسين بن نصر العطار، قال: حدثنا سيف بن عمر، عن محمد بن نويره، وطلحة بن الأعمى الحنفي قال: وحدثنا عمر ابن سعد، عن أسد بن عبدالله، عن أدم من أهل العلم، أن عائشة رضي الله عنها لما انتهت إلى سرف^(٢) راجعة إلى مكة، لقيها عبد ابن أم كلاب - وهو عبد بن أبي سلمة، ينسب لأمه - فقالت له: ما الأمر؟، قال: قتلوا عثمان بن عفان رضي الله عنه، فمكثوا ثمانية، قالت: ثم صنعوا ماذا؟، قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز، اجتمعوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه. فقالت: ردوني، ردوني والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبن بدمه، فقال لها: ابن أم كلاب: ولم؟! فوالله إن أول من أزال حرفه لأنت ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعتلاً^(٣) فقد كفر. قالت:

(١) «فتنة مقتل عثمان» (٣٩١/١)، و«تاريخ خليفة» ص (١٧٦)، وإسناده صحيح إلى عائشة .

(٢) سرف: مكان بين مكة والمدينة على ستة أميال من مكة .

(٣) نعتل: رجل من أهل مصر كثيف شعر اللحية كان يشبه عثمان .

إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت ، وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

فَمِنْكَ الْبَدَاءُ وَمِنْكَ الْغَيْرُ
وَمِنْكَ الرِّيَّاحُ وَمِنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أَمَرْتِ بِقَتْلِ الْإِمَامِ
وَقُلْتِ لَنَا : إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد فقصدت للحجر ، فتسترت واجتمع إليها الناس ، فقالت : إن عثمان قُتل مظلوماً ، والله لأُطلبن بدمه (١) .

رويت هذه الرواية كما رأينا من طريقين عند الطبري : ويكفي أن في رجال الإسناد نصر بن مزاحم العطار المجروح في كتب الرجال بالصفات الآتية : شيعي ، منكر ، تركوه ، جلد (٢) ، وأما الطريق الثاني ففي إسناده عمر بن سعد وهو قائد السرية الذين قاتلوا الحسين رضي الله عنه ، وهو عند رجال الحديث لا يصح حديثه ، متهم بالوضع متروك (٣) فالرواية غير مقبولة الإسناد في أي من طريقي روايتها (٤) ، وقد جاءت روايات في كتب التاريخ والأدب ضعيفة وموضوعة لا تثبت أمام النقد العلمي سارت على النهج المظلم في تشويه السيدة عائشة رضي الله عنها (٥) .

إن الروايات التي جاءت في العقد الفريد وفي كتاب الأغاني ، وتاريخ اليعقوبي ، وتاريخ المسعودي ، وأنساب الأشراف وغيرها من الكتب ، وما انتهت إليه من استدلالات في شأن الدور السياسي للسيدة عائشة رضي الله عنها في حياة عثمان ابن عفان رضي الله عنه ؛ لا يعتد بها لمخالفتها للروايات الصحيحة وقيامها على روايات

(١) تاريخ الطبري " (٤٨٥/٥) .

(٢) المغني في الضعفاء " (٦٩٦/٢) ، و"ميزان الاعتدال" (٢٤/٧) و"التاريخ الكبير" (١٠٥/٨) .

(٣) سير أعلام النبلاء " (٣٤٩/٤) ، و"الطبقات" (١٦٨/٥) .

(٤) دور المرأة السياسي في عهد النبي صلوات الله عليه والخلفاء " ص (٣٥٤) .

(٥) دور المرأة السياسي في عهد النبي صلوات الله عليه والخلفاء " ص (٣٥٢) .

واهية، فأغلبها روايات غير مسندة- والمسند مجروح الإسناد لا يحتج بروايته- هذا إلى فساد متونها إذا ما قورنت بالروايات الأخرى الأكثر صحة وقرباً للحقيقة^(١). وقد قامت السيدة الفاضلة والباحثة القديرة أسماء محمد أحمد زيادة، بدراسة الأسانيد والمتون للروايات التي تحدثت عن الدور السياسي للسيدة عائشة في أحداث الفتنة، ونقدت الروايات القائلة بالخلاف السياسي بين عائشة وعثمان عند الطبري وغيره وبينت زيفها وكذبها، ثم قالت: وكان الأحرى بنا أن نعرض عن ذكرها جميعاً؛ لعدم وصولها إلينا عن طريق معتمد، بل الطرق التي وصلت منها رُمي أصحابها بالتشيع والكذب والرفض، ولكننا عرضنا لها؛ لشيوعها في أغلب الدراسات الحديثة، وللتدليل على سقوطها، فهي روايات - كما اتضح لنا- حاولت خلق تاريخ لا وجود له أصلاً من الخلاف والتنكر بين عثمان وعائشة وبين عثمان والصحابة جميعاً^(٢)، ولو صح أن عائشة اتفقت مع المتمردين على التحريض على عثمان رضي الله عنه، لكان من المتوقع أن يكون عندها نوع من التماس العذر لهؤلاء المتمردين، لكن لم يصح عنها رضي الله عنها شيء من هذا، وإنه لو صح شيء من هذه الروايات في وصف موقف السيدة عائشة رضي الله عنها، والصحابة الذين اشتركوا معها، وهو ما لا نقبل به للخبر الصادق عن الله ورسوله في تقرير عدالتهم التي كانت كافية لدحض هذه الروايات، لكننا توقفنا أمام الروايات؛ تأكيداً منا على سقوط هذه الروايات ومن بعدها الاستدلالات القائمة عليها، حتى تجتمع الأدلة الدينية، والعلمية، والتاريخية في صعيد واحد يؤكد بعضها^(٣) بعضاً، إن الاتهامات التي وجهت إلى السيدة عائشة لا تثبت سنداً ولا تقوم أمام الأدلة العقلية أيضاً.

٢- طلحة والزبير رضي الله عنهما:

طلب طلحة والزبير ومن معهم من الصحابة من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه تعجيل إقامة القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، فقال لهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: يا إخوتاه إنني لست أجهل ما تعلمون، ولكنني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا

(٣) المصدر نفسه ص (٣٧١).

(٢، ١) «دور المرأة السياسي» ص (٢٧٠).

نملكهم؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، وثاب إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون؟ . قالوا: لا، قال: فلا والله لا أرى إلا رأياً ترونه إن شاء الله، إن هذا الأمر أمر جاهلية، إن لهؤلاء القوم مادة، وذلك أن الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً. إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها، وتؤخذ الحقوق فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا^(١). ولكن هذه السياسة الحكيمة، لم يتفهم بها بعضهم فالتاس في حال غضبهم، وسيرهم وراء عواطفهم لا يدركون الأمور إدراكاً واقعياً يمكنهم من التقدير الصحيح، فتعكس في تقديرهم الأوضاع ويظنون المستحيل ممكناً، ولذلك قالوا: نقضي الذي علينا ولا نؤخره^(٢)، وهم يعنون الطلب لإقامة الحدود على قتلة عثمان^(٣)، وأخبر علي بمقاتلتهم، فرغب أن يريهم أنه لا يستطيع وإياهم أن يفعلوا شيئاً في مثل تلك الظروف فنأدى: برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه، فتدامرت السبئية والأعراب وقالوا: لنا غداً مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشيء^(٤).

وكان رواد الفتنة من السبئية تبادر إلى أذهانهم، أن الخليفة يريد أن يجردهم من أعوانهم الذين يشدون أزرهم ويقضون إلى جوارهم، فعصوا ذلك الأمر وحرصوا الأعراب على البقاء فأطاعوهم وبقوا في أماكنهم، ففي اليوم الثالث بعد البيعة خرج علي وقال لهم: أخرجوا عنكم الأعراب، وقال: يا معشر الأعراب الحقوا بمياهم: فأبت السبئية وأطاعهم الأعراب، ثم دخل بيته ودخل عليه طلحة والزبير في عدة من أصحاب النبي ﷺ فقال: دونكم ثأركم، فقالوا: عشوا عن ذلك^(٥)، فقال لهم علي: هم والله بعد اليوم أعشى وأبى، ثم أنشد يقول:

(٣) «الدور السياسي» ص (٣٧٨) .

(٥) عشوا: عشاً: ساء بصره، وهنا لم يروا .

(٢٠١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٦٠) .

(٤) «تاريخ الطبري» (٥/٤٦٠) .

لَوْ أَنَّ قَوْمِي طَاوَعَتْنِي سُرَّاتِهِمْ

أَمَرْتَهُمْ أَمْرًا يُدِيخُ الْأَعَادِيَا (١)

حتى هذه اللحظة فإن علياً وطلحة والزبير والصحابة جميعاً رضي الله عنهم ، كانوا يبدون متفقين تماماً على ضرورة إقامة الحدود على من فرقوا أمر الجماعة وخالفوا وقتلوا الخليفة؛ دفعاً لضررهم على الدين كله، وكانوا متعاونين في ذلك، وكان الأمر يبدو منطقياً تماماً من علي رضي الله عنه واتفق معه الصحابة في ذلك، ولكن كيف يصنعون لهؤلاء الغوغاء الذين تحكّموا في الأمور، وحركوا معهم العبيد والأعراب؟ وهم بين أهل المدينة يسومونهم ما شاؤوا، لم تكن هناك إذن قدرة على قتالهم (٢)، وتقدم طلحة والزبير بمقترح لعلي لمواجهة السبئية الموجودة حول علي، فقد قال طلحة لعلي: دعني آت البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل، وقال الزبير: دعني آت الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل (٣)، ولكن علياً رضي الله عنه نراه يترث ويقول لهما: حتى أنظر في ذلك (٤). ولعل علياً كان يخشى الفتنة وتحول الأمر إلى حرب أهلية داخل المدينة لا تحمد عقباه، ولذلك لم يجب طلحة والزبير إلى مطلبهما (٥)، وكان اقتراح الزبير وطلحة على علي دليلاً على اقتناعهما في الوقت نفسه بما قال علي رضي الله عنه من كون هؤلاء الغوغاء متغلغلين في داخل الصف يملكون المسلمين ولا يملكهم المسلمون، فحاولوا بهذا الطلب اختصار وقت تعطيل حد من الحدود وتقوية جانب علي حتى يتمكن من إقامتها، على أن الصحابة قد انتظروا أن ينظر علي في ذلك، لكن علياً رضي الله عنه كان يرى أن هذا الأمر الذي وقع لا يدرك إلا بإماتته، وإنها فتنة من النار كلما سَعُرَت ازدادت واستنارت (٦)، ولما رأى الزبير وطلحة ومن وافقهما من الصحابة أن أربعة أشهر قد مرت على مقتل عثمان، ولم يستطع علي أن يقيم القصاص على قتلة عثمان بسبب أن الخارجين على عثمان لهم شوكة وقوة وتغلغل في جيش علي، عندئذ

(٢) «فتح الباري» (١٢/٣٦٠).

(٥) «تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٠٨).

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٦١).

(٤، ٣) «تاريخ الطبري» (٥/٣٦١).

(٦) «تاريخ الطبري» (٥/٣٦٧)، و «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٠).

قال طلحة والزبير لعلي: ائذن لنا أن نخرج من المدينة، فإما أن نكابر^(١) وإما أن تدعنا، فقال: سأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بدأ فأخر الدواء الكي^(٢)، فقد كان عليّ رضي الله عنه يعرف أن خروجهما من المدينة كان محاولة منهما للوصول إلى حل؛ فلم يمنعهما من ذلك، ربما لأنه كان يتمنى الوصول إلى حل أيضاً، بل كان يحاوله ولكن بطريقته الخاصة^(٣)، وقد خاض بعض الباحثين المعاصرين في تفسير النص المتعلق باستئذان طلحة والزبير في الذهاب للبصرة والكوفة والمجيء بخيل من هناك لدحر الغوغاء، وامتناع علي عن الموافقة، فحاضوا بالباطل، وقالوا: إنه تخوف جانب الرجلين ويخشى أن يعيدها عليه جذعة ويستناب به سنة أهل مصر بعثمان يكون له معهما يوم كيوم الدار^(٤)، وتفسير كهذا تحميل للنص فوق ما يتحمل^(٥)، وفيه ظلم وتجاوز في حق صفوة الصحابة.

لقد ذهب الزبير وطلحة رضي الله عنهما إلى مكة والتقوا بكم غفير من المسلمين المطالبين بالقصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، وسوف يأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل بإذن الله.

٣- معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه:

شاع بين الناس قديماً وحديثاً أن الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما كان سببه طمع معاوية في الخلافة، وأن خروج هذا الأخير على عليّ وامتناعه عن بيعته كان بسبب عزله عن ولاية الشام، فقد جاء في كتاب «الإمامة والسياسة» المنسوب لابن قتيبة الدينوري^(٦) رواية تذكر أن معاوية ادّعى الخلافة، وذلك من خلال الرواية التي ورد فيها ما قاله ابن الكواء لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: اعلم أن معاوية طليق الإسلام، وأن أباه رأس الأحزاب، وأنه ادّعى الخلافة من غير مشورة فإن صدقك

(١) نكابر: نجاحد ونغالب على الأمر.

(٢) «تاريخ الطبري» (٣٦٨/٥)، و«دور المرأة السياسي» ص (٣٨٠).

(٣) «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٠، ٣٨١).

(٤) «الخلفاء الراشدون» ص (٣٧٢).

(٥) «خلافه علي بن أبي طالب رضي الله عنه»، لعبد الحميد علي (ص ١١٨).

(٦) هذا الكتاب لا يثبت لابن قتيبة وإنما كاتبه رافضي محترق وسيأتي الحديث عنه في نهاية هذا الفصل.

فقد حلّ خلعه، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه^(١)، وهذا كلام لا يثبت عن أمير المؤمنين علي وإنما من كلام الروافض وسيأتي الحديث عن كتاب «الإمامة والسياسة» وبيان كذبه وزوره ودوره في تشويه حقائق التاريخ في موضعه بإذن الله، وقد امتلأت كتب التاريخ والأدب بالروايات الموضوعة والضعيفة التي تزعم أن معاوية اختلف مع علي من أجل الملك والزعامة والإمارة^(٢). والصحيح أن الخلاف بين عليّ ومعاوية رضي الله عنه كان حول مدى وجوب بيعة معاوية وأصحابه لعلي قبل توقيع القصاص على قتلة عثمان أو بعده، وليس هذا من أمر الخلافة في شيء، فقد كان رأي معاوية رضي الله عنه ومن حوله من أهل الشام أن يقتص عليّ رضي الله عنه من قتلة عثمان، ثم يدخلون بعد ذلك في البيعة،^(٣) ويقول القاضي ابن العربي أن سبب القتال بين أهل الشام وأهل العراق يرجع إلى تباين المواقف بينهما: فهؤلاء - أي أهل العراق - يدعون إلى عليّ بالبيعة وتأليف الكلمة على الإمام، وهؤلاء - أي أهل الشام - يدعون إلى التمكين من قتلة عثمان ويقولون: لا نبايع من يأوي القتلة^(٤)، ويقول إمام الحرمين الجويني في «لمع الأدلة»: إن معاوية وإن قاتل علياً، فإنه لا ينكر إمامته ولا يدعيها لنفسه؛ وإنما كان يطلب قتلة عثمان ظاناً منه أنه مصيب، وكان مخطئاً^(٥). ويقول الهيثمي: ومن اعتقاد أهل السنة والجماعة أنّ ما جرى بين معاوية وعليّ رضي الله عنه من الحروب، لم يكن لمنازعة معاوية لعليّ في الخلافة للإجماع على أحقيتها لعليّ، فلم تهج الفتنة بسببها، وإنما هاجت بسبب أن معاوية ابن عمّه فامتنع علي^(٦)، لقد تضافرت الروايات وأشارت إلى أن معاوية رضي الله عنه اتخذ موقفه للمطالبة بدم عثمان، وأنه صرح بدخوله في طاعة علي رضي الله عنه إذا أقيم الحدّ على قتلة عثمان.

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة في الفتنة» (٢/١٤٥).

(١) «الإمامة والسياسة» (١/١١٣).

(٣) «البداية والنهاية» (٨/١٢٩)، و«فتح الباري» (١٣/٩٢). (٤) «العواصم من القواصم» ص (١٦٢).

(٥) «لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة» ص (١١٥).

(٦) «الصواعق المحرقة» (٢/٦٢٢)، وهذا اجتهاد معاوية وإن كان الصواب هو أن يسلم معاوية ويطلب بالدعوة

ولو افترض أنه اتخذ قضية القصاص والثأر لعثمان ذريعة لقتال علي طمعاً في السلطان ، فماذا سيحدث لو تمكن علي من إقامة الحد على قتلة عثمان؟ حتماً ستكون النتيجة خضوع معاوية لعلي ومبايعته له؛ لأنه التزم بذلك في موقفه من تلك الفتنة ، كما أن كل من حارب معه كانوا يقاتلون على أساس إقامة الحد على قتلة عثمان ، على أن معاوية إذا كان يخفي في نفسه شيئاً آخر لم يعلن عنه ، سيكون هذا الموقف بالتالي مغامرة ، ولا يمكن أن يقدم عليها إذا كان ذا أطماع^(١) . إن معاوية رضي الله عنه كان من كتاب الوحي ، ومن أفاضل الصحابة ، وأصدقهم لهجة ، وأكثرهم حلمًا ، فكيف يعتقد أن يقاتل الخليفة الشرعي ويهرق دماء المسلمين من أجل مُلك زائل؟ وهو القائل : والله لا أخير بين أمرين ، بين الله وبين غيره إلا اخترت الله على ما سواه^(٢) ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فيه : «اللهم اجعله هاديًا مهديًا واهد به»^(٣) ، وقال : «اللهم علمه الكتاب وقه العذاب»^(٤) . أما وجه الخطأ في موقفه من مقتل عثمان رضي الله عنه ، فيظهر في رفضه أن يبائع لعلي رضي الله عنه قبل مبادرته إلى الاقتصاص من قتلة عثمان ، ويضاف إلى ذلك خوف معاوية على نفسه لمواقفه السابقة من هؤلاء الغوغاء ، وحرصهم على قتله بل ويلتمس منه أن يمكنه منهم ، مع العلم أن الطالب للدم لا يصح أن يحكم ، بل يدخل في الطاعة ، ويرفع دعواه إلى الحاكم ، ويطلب الحق عنده^(٥) ، وقد اتفق أئمة الفتوى على أنه لا يجوز لأحد أن يقتصر من أحد ويأخذ حقه دون السلطان ، أو من نصبه السلطان لهذا الأمر؛ لأن ذلك يفضي إلى الفتنة وإشاعة الفوضى^(٦) . ويمكن القول : إن معاوية رضي الله عنه كان مجتهداً متأولاً يغلب ظنه أن الحق معه ، فقد قام خطيباً في أهل الشام بعد أن جمعهم وذكرهم أنه ولي عثمان - ابن عمه - وقد قتل مظلوماً ، وقرأ عليهم الآية الكريمة : ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] . ثم

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥١/٣) .

(١) «تحقيق مواقف الصحابة» (١٥٠/٢) .

(٣) «صحيح سنن الترمذي» للالباني رقم (٣٠١٨) (٣/٢٣٦) .

(٥) «تحقيق مواقف الصحابة» (١٥١/٢) .

(٤) «فضائل الصحابة» (٩١٣/٢) وإسناده حسن .

(٦) «تفسير القرطبي» (٢٥٦/٢) .

قال: أنا أحب أن تعلموني ذات أنفسكم في قتل عثمان، فقام أهل الشام جميعهم وأجابوا إلى الطلب بدم عثمان، وبايعوه على ذلك، وأعطوه العهود والمواثيق على أن ييدلوا أنفسهم وأموالهم حتى يدركوا ثأرهم أو يفني الله أرواحهم^(١). وإذا قارنا بين طلحة والزبير رضي الله عنهما ومعاوية، لاحظنا أن طلحة والزبير رضي الله عنهما أقرب إلى الصواب من معاوية رضي الله عنه من أربعة أوجه كان أولها: مبايعتهما لعلي رضي الله عنه طائعين مع اعترافهما بفضله، ومعاوية لم يبايعه وإن كان معترفاً بفضله^(٢). والثاني: منزلتهما في الإسلام وعند المسلمين وسابقتهما على معاوية لاشك دونهما فيها^(٣). الثالث: أنهما أرادا قتل الخوارج على عثمان فقط ولم يتعمدا محاربة علي ومن معه في وقعة الجمل^(٤)، بينما أصر معاوية على حرب علي ومن معه في صفين^(٥) والرابع: لم يتهما علماً بالهوادة في أخذ القصاص من قتلة عثمان، ومعاوية ومن معه اتهموه بذلك^(٦).

رابعاً: موقف معتزلي الفتنة:

اعتمد كثير من الصحابة ممن اعتزلوا الفتنة رضي الله عنهم على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكونُ فتنٌ، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تشترّفه، فمن وجدَ منها ملجأً أو معاداً فليعدّ به»^(٧). قال ابن حجر: ففي الحديث تحذير من الفتنة والحث على اجتناب الدخول فيها، وأن شرها يكون بحسب التعلق بها^(٨). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنها ستكون فتنة، يكون المضطجع فيها خيراً من الجالس، والجالس فيها خيراً من القائم، والقائم خيراً من الماشي، والماشي خيراً من الساعي»، قالوا: يا رسول الله، ما تأمرنا؟ قال:

(١) «صفين» لابن مزاحم ص (٣٢)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (١٥٢/٢).

(٢) «البدية والنهاية» (١٢٩/٨)، و«فتح الباري» (٩٢/١٣).

(٣) كان طلحة والزبير رضي الله عنهما من العشرة المبشرين بالجنة.

(٤) «تحقيق مواقف الصحابة» (١١٣/٢)، و«تاريخ الطبري» (٤٧٥/٥).

(٥) «تاريخ الطبري» (٦١٢-٦١٥).

(٦) «تحقيق مواقف الصحابة» (١٣٩/٢)، و«البدية والنهاية» (٢٥٩/٧).

(٨) «الفتح» (٣١/١٣).

(٧) «البخاري»، كتاب الفتن رقم (٧٠٨١).

«فن كانت له إبل فليلحق بإبله، وفن كانت له غنم فليلحق بغنمه، وفن كانت له أرض فليلحق بأرضه»، قالوا: فمن لم يكن له شيء فن ذلك؟ قال: «يعمد إلى سيفه فيضرب بحدّه على حرّة، ثم لينجُ فاستطاع النجاء»^(١). وقال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير فال المسلم غنم، يتبع بها شَعَفَ الجبالِ وفواقعِ القطر، يَفِرُّ بدينه فن الفتن»^(٢)، وغير ذلك فن الأحاديث التي تدعو صراحة إلى النهي عن الدخول في قتال الفتنة.

قال الجويني: قد صار طوائف فن جلة أصحاب رسول الله إلى التخلف عن القتال في زفن علي ﷺ وإيثار السكون، والركون إلى السلام والتباعد عن فلتطم الغوائل؛ ففهم سعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل^(٣)، وكانا فن العشرة المبشرين بالجنة، وممن تخلف أولاً أبو فوسى الأشعري، وعبد الله بن عمر، وأسافة بن زيد، وأبو أيوب الأنصاري ﷺ، وتبع هؤلاء أمم فن الصحابة ولم يشتد نكير علي عليهم^(٤). وقد ذهب ابن حجر -رحمه الله- إلى أن الصحابة الذين اعتزلوا كانوا قلة، قال: وفن ثم كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفين أقل عددٍ فن الذين قاتلوا، وكلهم فتأول فأجور إن شاء الله بخلاف فن جاء بعدهم ممن قاتل على طلب الدنيا^(٥)، وقال ابن تيمية: وأكثر أكابر الصحابة لم يقاتلوا، لا فن هذا الجانب، ولا فن هذا الجانب، واستدل التاركون للقتال بالنصوص الكثيرة عن النبي ﷺ في ترك القتال في الفتنة، وبينوا أن هذا قتال فتنة^(٦). وقد ذهب الإمام القرطبي إلى أن العلة في توقف الصحابة عن المشاركة في القتال فع الإقام علي، هو أن قتال الفئة الباغية فرض كفاية وليس فرض عين، فلذلك تخلف أفتال سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وفحمد بن فسلمة وغيرهم^(٧)، وإليك طرفاً فن أقوال الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة:

- (١) «فسلم»، كتاب الفتن وأشراط الساعة .
 (٢) «البخاري»، كتاب الفتن رقم (٧٠٨٨) .
 (٣) فن العشرة المبشرين بالجنة توفي ٥١هـ، و«تهذيب التهذيب» (٤/٣٠) .
 (٤) «غياث الأمم في تياث الظلم» ص (٨٥ - ٨٦) .
 (٥) «فتح الباري» (١٣/٣٤) .
 (٦) «فجموع الفتاوى» (٥٥/٣٥) .
 (٧) «تفسير القرطبي» (١٦/٣١٩) .

١ - سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه:

كان سعد رضي الله عنه أفضل الصحابة بعد علي رضي الله عنه يوم صفين ولما قيل لسعد بن أبي وقاص: ألا تقاتل؟ إنك من أهل الشورى، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك، قال: لا أقاتل حتى يأتوني بسيف له عيان ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد^(١). وأخرج مسلم من حديث عامر قال: كان سعد بن أبي وقاص في إبله فجاءه ابنه عمر، فلماً رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الرّكب. فنزل فقال له: أنزلت في إبلك وغنمك، وتركت الناس يتنازعون المُلْك بينهم؟ فضرب سعد في صدره فقال: اسكت. سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله يقول: «إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي»^(٢).

٢ - محمد بن مسلمة:

عن الحسن أن علياً بعث إلى محمد بن مسلمة فجيء به فقال: ما خلفك عن هذا الأمر؟ قال: دفع إليّ ابن عمك - يعني النبي صلّى الله عليه وآله - سيقاً فقال: «قاتل به ما قوتل العدو، فإذا رأيت الناس يقتل بعضهم بعضاً، فاعمد به إلى صخرة، فاضربه بها، ثم الزم بيتك، حتى تأتيك مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ، أَوْ يَدٌ خَاطِئَةٌ»، قال: خلوا عنه^(٣).

٣ - أبو موسى الأشعري:

عن زيد بن وهب قال: ... جاءنا قتل عثمان، فجزع الناس من ذلك، فخرجت إلى صاحب لي كنت أستريح إليه، فقلت: قد منع الناس ما ترى، وفينا رهط من أصحاب محمد صلّى الله عليه وآله، فاذهب بنا إليهم، فدخلنا على أبي موسى، وهو أمير الكوفة، فكان قوله نهياً عن الفتنة والأمر بالجلوس في البيوت^(٤)، وأخرج الطبري في قصة قدوم ابن عباس والأشتر إلى الكوفة

(١) «مجمع الزوائد» (٢٩٩/٧) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح . (٢) «مسلم» (٢٢٤٤/٤).

(٣) «مسند أحمد» (٢٢٥/٤) وفيه انقطاع وله طريق آخر رواه الطبراني في «الكبير» (١٢/١٧٧-١٧٨). وقال

الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٠١/٧): رجاله ثقات .

(٤) «تاريخ ابن عساکر» (ص ٤٨٧ - ٤٨٨).

لاستنفار الناس : إنَّ أبا موسى قام - وكان يومها أميراً على الكوفة - فدعا الناس إلى لزوم البيوت ، ووضع السيوف في أعمادها ، وكان مما قاله يومئذ . . . فإنها فتنة صمّاء ، النَّائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان فيها خير من القاعد ، والقاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، فلا تكونوا جرثومة من جرثائم العرب ، فاعمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار ، وأووا المظلوم المضطهد ، حتى يلتئم الأمر وتنجلي هذه الفتنة^(١) . وقال أيضاً : إنَّ الفتنة إذا أقبلت شبّهت وإذا أدبرت تبيّنت ، وإن هذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجري بها الشمال والجنوب والصبا والدبور ، فتسكن أحياناً ، فلا يدري من أين يؤتى ، تذر الحليم كابن أمس ، شيموا سيوفكم ، وقصّوا رماحكم ، وأرسلوا سهامكم ، واقطعوا أوتاركم ، والزموا بيوتكم ،^(٢) وكان أبو موسى يستدل لموقفه بما رواه عن رسول الله ﷺ من النهي عن الدخول في الفتنة والأمر بتكسير القسي ، وتقطيع الأوتار ، وضرب السيوف بالحجارة ، والرضا بمنزلة ابن آدم المقتول^(٣) ، فعن أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله ﷺ قال : «إن بين يدي الساعة فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ، ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والماشي فيها خير من الساعي ، فكسروا قوسكم ، وقطّعوا أوتاركم ، واضربوا بسيوفكم الحجارة ، فإن دخل - يعني : على أحد منكم - فيكن كخير ابني آدم»^(٤) .

٤ - عبد الله بن عمر :

قالت عائشة رضي الله عنها : ما أعلم رجلاً سلمه الله من أمور الناس واستقام على طريقة من كان قبله استقامة عبد الله بن عمر^(٥) ، وعن سعيد بن جبير قال :

-
- (١) «تاريخ الطبري» (٥١٣/٥) جرائم العرب : أصل العرب .
 (٢) «تاريخ الطبري» (٥١٥/٥) ، باقرة : مفرقة ، الصبا : الريح الشرقية .
 (٣) «أحداث وأحاديث فتنة الهرج» ص (١٨١)
 (٥) «سنن الترمذي» (٣٣٢/٣) وقال الترمذي : حديث حسن غريب .
 (٥) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٥٩/٨) .

خرج علينا عبد الله بن عمر، فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً، قال: فبادرنا إليه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة، والله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]. فقال: هل تدري ما الفتنة ثكلتك أمك؟ إنما كان محمد صلی الله علیه و آله يقاتل المشركين، وكان الدخول في دينهم فتنة، وليس كقتالكم على الملك^(١)، وعن نافع أن رجلاً قال لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتِلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

فقال: لأن أعتبر بهذه الآية فلا أقاتل، أحب إليّ من أن أعتبر بالآية التي يقول فيها: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٢] ألا ترى أن الله يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [البقرة: ١٩٣]. قد فعلنا على عهد رسول الله صلی الله علیه و آله إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يفتن في دينه، إما أن يقتلوه، وإما أن يسترقوه، حتى كثر الإسلام، فلم تكن^(٢) فتنة، وقد ورد أن أمير المؤمنين علي حمد لابن عمر، وسعد بن أبي وقاص هذه المنزلة التي ارتضيها، إذ قال: لله در مقام قامه سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، إن كان برأ إن أجره لعظيم، وإن كان إثماً إن خطأه^(٣) ليسير، وفي رواية: لله در منزل نزله سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر، والله إن كان ذنباً إنه لصغير مغفور، ولئن كان حسناً إنه لعظيم مشكور^(٤)، وقال الخطابي: وكان ابن عمر من أشد الصحابة حذراً من الوقوع في الفتن وأكثرهم تحذيراً للناس من الدخول فيها، وبقي إلى أيام فتنة ابن الزبير فلم يقاتل معه، ولم يدافع عنه، إلا أنه كان يشهد الصلاة معه، فإذا فاتته صلاتها مع الحجاج، وكان يقول: إذا دعونا إلى الله أجنبناهم، وإذا دعونا إلى الشيطان تركناهم^(٥). قال ابن تيمية: ومن حين مات عثمان رضي الله عنه تفرق الناس، وعبد الله بن عمر الرجل الصالح لحق بمكة، ولم يزل معتزل الفتنة، حتى اجتمع

(١) «البخاري»، كتاب الفتن (٩٥/٨).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/٢٢٨ - ٢٢٩).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/٤٤٠).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/١١٩ - ١٢٠)، و«مجمع الزوائد» (٧/٢٤٦).

(٥) «العزلة» للخطابي ص (٢٠، ٢١).

الناس على معاوية رضي الله عنه، مع محبته لعلي، ورؤيته له أنه هو المستحق للخلافة، وتعظيمًا له، وموالاته له، وذمه لمن يطعن عليه، ولكن كان لا يرى الدخول في القتال بين المسلمين، ولم يمتنع عن موافقة علي إلا في القتال^(١).

٥ - سلمة بن الأكوع:

لما قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه خرج سلمة بن الأكوع إلى الربذة وتزوج هناك امرأة، وولدت له أولادًا، فلم يزل بها حتى أقبل قبل أن يموت بليالٍ فنزل المدينة^(٢).

٦ - عمران بن حصين:

قال عنه الذهبي: كان ممن اعتزل الفتنة ولم يقاتل مع علي^(٣)، وعن حميد بن هلال قال: لما هاجت الفتنة، قال عمران بن حصين لحجير بن الربيع العدوي: اذهب إلى قومك فانهم عن الفتنة. قال: إني لمغمور فيهم وما أطاع، فأبلغهم عني وانهم عنها. قال: وسمعت عمران يقسم بالله: لأن أكون عبدًا حبشيًا أسود في أعز حصبات، في رأس جبل أرعاهنّ حتى يدركني أجلي أحب إليّ أن أرمي أحد الصفيين بسهم أخطأت أم أصبت^(٤).

٧ - سعيد بن العاص الأموي:

قال الذهبي: وقد اعتزل الفتنة فأحسن ولم يقاتل مع معاوية ولما صفا الأمر لمعاوية وفد سعيد إليه، فاحترمه وأجازه بمال جزيل^(٥)، وقال ابن كثير: فلما مات عثمان اعتزل الفتنة، فلم يشهد الجمل ولا صفين، فلما استقر الأمر لمعاوية وفد إليه^(٦)، ولم يعتزل سعيد وحده بل تابعه قوم، اعتزلوا باعتزاله، حتى مضت الجمل وصفين^(٧).

(١) منهاج السنة (٢٨٥/٦).

(٢) البخاري، كتاب الفتنة (٢٨٥/٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٥٠٩/٢).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/١٥)، والطبراني في الكبير (١٠٥/١٨) رجاله رجال الصحيح.

(٥) سير أعلام النبلاء (٤٤٦/٣).

(٦) البداية والنهاية (٩١/٨).

(٧) سير أعلام النبلاء (٤٤٦/٣).

٨ - أسامة بن زيد:

قال الذهبي: انتفع أسامة من قول النبي ﷺ؛ إذ يقول له: «كيف تصنع بلا إله إلا الله يا أسامة؟»، فكف يده، ولزم منزله، فأحسن^(١). ويريد الذهبي بذلك ما رواه أسامة بن زيد حيث قال: بعثني رسول الله ﷺ في سرية، فاستبقنا أنا ورجل من الأنصار إلى العدو، فحملت علي رجل، فلما دنوت منه كبر، وطعنته فقتلته، ورأينا إنما فعل ذلك ليحرز دمه، وذكر الحديث، فقال يعني النبي ﷺ: «يا أسامة أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟» فقلنا: يا رسول الله، إنما قالها تَعَوُّدًا من القتل. قال: «أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟» فما زال يرددها^(٢)، حتى قال أسامة: لوددت أن ما مضى من إسلامي لم يكن، وإني أسلمت يومئذ، ولم أقتله ثم قال: إني أعطي لله عهدًا، ألا أقتل رجلاً يقول: لا إله إلا الله، أبدًا. فقال النبي ﷺ: «بعدي يا أسامة؟» قال: بعدك^(٣).

وعن حرمله، أنه قال: أرسلني أسامة إلى علي وقال: إنه سيسألك الآن، فيقول ما خلف صاحبك؟ فقل له: يقول لك: لو كنت في شدة الأسد، لأحببت أن أكون معك فيه، ولكن هذا أمر^(٤) لم أره، قال ابن حجر: فاعتذر بأنه لم يتخلف ضناً منه بنفسه عن علي، ولا كراهة له، وإنه لو كان في أشد الأماكن هولاً لأحب أن يكون معه فيه ويواسيه بنفسه، ولكنه إنما تخلف لأجل كراهيته لقتال المسلمين^(٥)، وفي رواية أخرى عند الذهبي، عن الزهري قال: لقي علي أسامة بن زيد، فقال: ما كنا نعدك إلا من أنفسنا يا أسامة، فلم لا تدخل معنا؟ قال: يا أبا الحسن إنك والله لو أخذت بمشفر الأسد، لأخذت بالمشفر الآخر معك، حتى نهلك جميعاً أو نحيا جميعاً، فأما هذا الأمر الذي أنت فيه، فو الله لا أدخل فيه أبداً^(٦).

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥٠٠ - ٥٠١).

(٢) «مسلم» رقم (٩٦)، والحاكم في «المستدرک» (٣/ ١١٦).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥٠٥) إسناد رجاله ثقات.

(٤) «البخاري»، كتاب الفتن (٨/ ٦١-٦٧).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٥٠٤).

(٦) «فتح الباري» (١٣/ ٦٧).

٩ - عبد الله بن عمرو بن العاص:

فقد ورد عنه أنه لما سُئِلَ عن خروجه مع معاوية وأبيه إلى صفين، أنه لم يخرج لقتال وإنما خرج طاعة لأبيه، فعن حنظلة بن خويلد العنبري، قال: بينما أنا عند معاوية؛ إذ جاءه رجلان يختصمان في رأس عمار، فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال عبد الله ابن عمرو: ليطب به أحدكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تقتله الفئة الباغية»، فقال معاوية: يا عمرو، ألا تغني عنا مجنونك، فما بالك معنا؟ قال: إن أبي شكاني إلى رسول الله ﷺ فقال: «أطع أباك ما دام حياً»، فأنا معكم ولست أقاتل،^(١) وورد ما يدل على ندمه على حضوره صفين، فقد أخرج ابن سعد بسنده عن ابن أبي مليكة،^(٢) قال: قال عبد الله بن عمرو: مالي ولصفين، مالي ولقتال المسلمين لوددت أني مت قبلها بعشر سنين، أما والله على ذلك ما ضربت بسيف، ولا رميت بسهم^(٣).

١٠ - صهيب بن سنان الرومي:

قال الذهبي: وكان ممن اعتزل الفتنة وأقبل على شأنه^(٤)، وعن جعفر بن برقان، أن ميمون بن مهران ذكر أصناف الناس واختلافهم في أمر عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وكان مما قاله: وأما من لزم، فمنهم سعد بن أبي وقاص، وأبو أيوب الأنصاري، وعبد الله بن عمر، وأسامة بن زيد، وحبيب بن سلمه الفهري، وصهيب بن سنان، ومحمد بن مسلمة رضي الله عنه في أكثر من عشرة آلاف من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، قالوا جميعاً: نتولى عثمان وعلياً، ولا نتبرأ منهما، ونشهد عليهما وعلى شيعتهما بالإيمان ونرجو لهم، ونخاف عليهم^(٥).

(١) «مسند أحمد» (٢/١٦٤)، وإسناده صحيح، و«تهذيب التهذيب» (٣/٥٢).

(٢) أبو بكر عبد الله التميمي روى عن العبادلة الأربعة، «تهذيب التهذيب» (٥/٢٦٨).

(٣) «طبقات ابن سعد» (٤/٢٦٦) رجاله ثقات.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٢/١٨).

(٥) «دول الإسلام» (١/٢٩)، و«تاريخ دمشق» ص (٥٠٣، ٥٠٥).

١١ - أبو أيوب الأنصاري:

أخرج ابن أبي شيبة في المصنف، وخليفة بن خياط في تاريخه، وابن سعد في الطبقات عن شعبة قال: سألت الحكم: هل حضر أبو أيوب صفين؟ قال: لا، ولكن شهد يوم النهر موقعة النهروان^(١).

١٢ - أبو هريرة:

فقد ورد أنه لم يشارك في الجمل ولا صفين وهو أحد رواة أحاديث النهي عن الدخول في الفتنة فقد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن تشرف لها تستشرفه، ومن وجد ملجأ أو معاداً فليعد به»^(٢).

١٣ - عبد الله بن سعد بن أبي السرح:

قال الذهبي: ولي مصر لعثمان رضي الله عنه، وقيل: شهد صفين، والظاهر أنه اعتزل الفتنة وانزوى إلى الرملة^(٣).

هذا غيض من فيض وقليل من كثير من أقوال الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة، فلم يشاركوا فيها، بل إن بعضهم كان يحذر غيره من المشاركة، وهو اقتناع تكون لديهم، من خلال الأحاديث التي رووها، والتي فيها النهي عن الدخول في الفتن التي تقع بين المسلمين، وقد فرّق هؤلاء الصحابة بين قتال الخوارج والقتال في الجمل وصفين، فقد شارك بعضهم في قتال الخوارج كأبي برزة وأبي أيوب الأنصاري، وهما ممن اعتزل الفتنة بين المسلمين في الجمل وصفين، وأيضاً فإن هؤلاء الصحابة الذين اعتزلوا سرعان ما بايعوا معاوية، بعد أن تنازل له الحسن ابن علي رضي الله عنه عن الخلافة واجتمعت عليه كلمة الأمة. وقال ابن حجر: وبايع

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٠٣/١٥)، و«تاريخ خليفة» ص (١٩٦)، و«الطبقات» (٢٤٩/٣).

(٢) «مسلم»، كتاب الفتن (٢٢١١-٢٢١٢/٤).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣٣/٣).

معاوية كل من كان معتزلاً للقتال كابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد ابن مسلمة^(١).

إن الذي نفهمه من خلال هذه النصوص التي أوردناها: أن علة كف هؤلاء الصحابة عن الدخول مع أحد الطرفين، قد يكون لأن الأمور كانت مشتبهة عليهم - كما قال النووي - فلم يتبينوا الحق من المَبطل، كما يظهر من كلام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقد يكون أنهم لم يكونوا يرون أن القتال هو الحل الوحيد لهذه المشكلة؛ لأن الصلح خير، ومن الصلح أن يتم التنازل عن بعض الحق، جمعاً لكلمة المسلمين، ولعلنا نلمح من كلام أسامة رضي الله عنه شيئاً من هذا التوجيه، فقد اعتذر لأمير المؤمنين علي بأنه لا يرى القتال معه في هذا السبيل، رغم اعترافه بإمامته وفضله^(٢).

وقد تحدث العلماء في أعذار المعتزلين:

أ - قال القرطبي: وقيل: من توقف من الصحابة حملوا الأحاديث الواردة بالكف على عمومها، فاجتنبوا ما وقع بين الصحابة من الخلاف والقتال^(٣).

ب - قال ابن حزم: وأما من وقف فلا حجة له أكثر من أنه لم يتبين له الحق، ومن لم يتبين له الحق فلا سبيل إلى مناظرته بأكثر من أن نبين له وجه الحق حتى يراه^(٤).

ج - وقال ابن حجر: والحق حمل عمل كل أحد من الصحابة المذكورين على السداد، فمن لابس القتال اتضح له الدليل؛ لثبوت الأمر بقتال الفئة الباغية، وكانت له القدرة على ذلك، ومن قعد لم يتضح له أي الفئتين هي الباغية، وإذا لم يكن له القدرة على القتال. وقد وقع لخزيمة بن ثابت أنه كان مع علي رضي الله عنه، وكان مع ذلك لا يقاتل، فلما قتل عمار قاتل حينئذ، وحدث بحديث، «يقتل عماراً الفئة الباغية» أخرجه أحمد وغيره^(٥).

(٣) «التذكرة» (٢/٢٢٣).

(٥) «فتح الباري» (١٣/٤٦).

(١، ٢) «أحداث وأحاديث فتنه الهرج» ص (٢١٢) لعبد العزيز دخان.

(٤) «الفصل» (٣/٧٨).

د - وقال الجصاص: فإن قيل: قد جلس عن علي جماعة من أصحاب النبي صلوات الله عليهم، منهم سعد، ومحمد بن مسلمة، وأسامة بن زيد، وابن عمر، قيل له: لم يقعدوا عنه؛ لأنهم لم يروا قتال الفئة الباغية، وجائز أن يكون قعودهم عنه؛ لأنهم رأوا الإمام مكتفياً بمن معه، مستغنياً عنهم بأصحابه، فاستجازوا القعود عنه لذلك، ألا ترى أنهم قعدوا عن قتال الخوارج؟ لا على أنهم لم يروا قتالهم واجباً، ولكن لما وجدوا من كفاهم قتل الخوارج استغنوا عن مباشرة القتال^(١).

خامساً: موقف المترثين في تنفيذ القصاص حتى تستقر الأحوال كأمر

المؤمنين علي، ومن معه:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ينتظر حتى يستتب له الأمر، ثم ينظر في شأن قتلة عثمان، فحين طالب الزبير وطلحة ومن معهم بإقامة حد القصاص عليهم اعتذر لهم بأنهم كثير، وأنهم قوة لا يستهان بها، وطلب منهم أن يصبروا حتى تستقر الأوضاع وتهدأ الأمور، فتؤخذ الحقوق؛ لأن الظروف لم تكن مواتية من جلب المصالح، وقد ألمح أمير المؤمنين علي رضي الله عنه. إلى اختيار أهون الشرين حين قال: هذا الذي ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء القوم - قتلة عثمان - وهو خير من شر منه، القتال والفرقة^(٢)، لقد رأى أمير المؤمنين أن المصلحة تقتضي تأخير القصاص لا تركه فأخر القصاص من أجل هذا، وهذا فيه اقتداء بالنبي صلوات الله عليهم في حادثة الإفك، وذلك أنه تكلم في عائشة رضي الله عنها مجموعة من الناس وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، فصعد النبي صلوات الله عليهم وقال: «من يعذرنني في رجل وصل أذاه إلى أهلي؟» يعني عبد الله بن أبي بن سلول، فقام سعد بن معاذ وقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان منا معشر الأوس قتلناه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا بقتله، فقام سعد بن عبادة فرد على سعد بن معاذ، وقام أسيد بن حضير فرد على سعد بن عبادة فصار النبي صلوات الله عليهم يخفضهم^(٣)،

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/ ٤٦٠).

(١) «أحكام القرآن» (٥/ ٢٨١).

(٣) «البخاري»، كتاب المغازي رقم (٤١٤١).

علم أن الأمر عظيم؛ ذلك لأن قبل مجيء النبي ﷺ إلى المدينة كان الأوس والخزرج قد اتفقوا على أن يجعلوا عبد الله ابن أبي بن سلول ملكاً عليهم، فهو له عندهم منزلة عظيمة، وهو الذي رجع بثلك الجيش في معركة أحد. والنبي ﷺ هنا ترك إقامة الحد على عبد الله بن أبي بن سلول لماذا؟ للمصلحة والمفسدة؛ إذ رأى أن جلده أعظم مفسدة من تركه، وكذلك أمير المؤمنين علي رضي الله عنه رأى أن تأخير القصاص أقل مفسدة من تعجيله؛ لأن علياً رضي الله عنه لا يستطيع أن يقتل قتلة عثمان أصلاً؛ لأن لهم قبائل تدافع عنهم، والأمن غير مستتب، وما زالت فتنة، ومن يقول: إنهم لن يقتلوا علياً رضي الله عنه؟ وقد قتلوه بعد ذلك^(١).

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ينتظر بقتلة عثمان رضي الله عنه أن يستوثق الأمن وتجتمع الكلمة ويرفع الطلب من أولياء الدم، فيحضر الطالب للدم والمطلوب، وتقع الدعوة ويكون الجواب، وتقوم البيّنة ويجري القضاء في مجلس الحكم^(٢)، ولا خلاف بين الأمة في أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة وتشيت الكلمة^(٣)، وأما ما أثير عن وجود قتلة عثمان في جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وكيف يرضى أن يكون هؤلاء في جيشه؟ فقد أجاب الإمام الطحاوي عن هذه الشبهة بقوله: وكان في عسكر علي رضي الله عنه من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله^(٤). وعلى كل حال، كان موقفه منهم موقف المحتاط منهم، المتبرئ من فعلهم، وكان راغباً في الاستغناء عنهم بل الاقتصاص منهم، لو وجد إلى ذلك سبيلاً وتجلى هذا في أمرين:

١ - موقفه من قتلة عثمان رضي الله عنه:

لقد أنكر علي رضي الله عنه قتل عثمان رضي الله عنه وتبرأ من دمه، وكان يقسم على ذلك في خطبه وغيرها أنه لم يقتله ولا أمر بقتله ولا مالاً ولا رضي، وقد ثبت ذلك

(٢) «تحقيق مواقف الصحابة» (١٥٦/٢).

(٤) «شرح الطحاوية» ص (٥٤٦).

(١) «حقة من التاريخ» ص (١٠٢).

(٣) «أحكام القرآن» لابن العربي (١٧١٨/٢).

عنه بطرق تفيد القطع^(١)، خلافاً لما تزعمه الرافضة من أنه كان راضياً بقتل عثمان رضي الله عنه^(٢)، وقال الحاكم بعد ذكر بعض الأخبار الواردة في مقتله رضي الله عنه: فأما الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فإنه كذب وزور؛ فقد تواترت الأخبار بخلافه^(٣)، وقال ابن تيمية: وهذا كله كذب على علي رضي الله عنه وافتراء عليه، فعلي رضي الله عنه لم يشارك في دم عثمان، ولا أمر ولا رضي، وقد روي عنه ذلك وهو الصادق البار^(٤)، وقد قال علي رضي الله عنه: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان^(٥)، وروى الحاكم بإسناده عن قيس بن عباد قال: سمعت علياً يوم الجمل يقول: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، ولقد طاش عقلي يوم قتل عثمان، وأنكرت نفسي وجأؤني للبيعة فقلت: والله إني لأستحي من الله أن أبايع قوماً قتلوا رجلاً قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة»، وإني لأستحي من الله أن أبايع وعثمان قتيل على الأرض لم يدفن بعد فانصرفوا، فلما دفن رجع الناس فسألوني البيعة فقلت: اللهم إني مشفق مما أقدم عليه ثم جاءت عزيمة فبايعت، فلقد قالوا: يا أمير المؤمنين، فكأنما صدع قلبي، وقلت: اللهم خذ مني لعثمان حتى ترضى^(٦).

وروى الإمام أحمد بسنده عن محمد بن الحنفية قال: بلغ علياً أن عائشة تلعن قتلة عثمان في المبرد^(٧)، قال: فرفع يديه حتى بلغ بهما وجهه فقال: وأنا ألعن قتلة عثمان لعنهم الله في السهل والجبل، قال مرتين أو ثلاثاً^(٨)، وروى ابن سعد بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما أن علياً قال: والله ما قتلت عثمان ولا أمرت بقتله، ولكنني نهيت، والله ما قتلت عثمان ولا أمرت ولكنني غلبت، قالها ثلاثاً^(٩)، وجاء

(١) «البداية والنهاية» (٢٠٢/٧).

(٢) «العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط» ص (٢٢٩).

(٣) «المستدرک» (١٠٣/٣).

(٤) «منهاج السنة» (٤٠٦/٤).

(٥) «البداية والنهاية» (٢٠٢/٧)، وإسناده حسن.

(٦) «المستدرک» (٩٥/٣) حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٧) موضع قرب البصرة بينهما نحو ثلاثة أميال.

(٨) «فضائل الصحابة» (٥٥٥/١) رقم (٧٣٣)، وإسناده صحيح.

(٩) «الطبقات» (٨٢/٣)، و«البداية والنهاية» (٢٠٢/٧).

عنه أيضاً إنه قال رضي الله عنه: من تبرأ من دين عثمان فقد تبرأ من الإيمان، والله ما أعنت على قتله ولا أمرت ولا رضيت^(١)، وكان يثني على عثمان رضي الله عنه وقال فيه: كان أوصلنا للرحم وأتقانا للرب^(٢). وعن عميرة ابن سعد قال: كنا مع علي رضي الله عنه على شاطئ الفرات، فمرت سفينة مرفوع شراعها فقال علي: يقول الله عز وجل: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤]. والذي أنشأها في بحر من بحاره ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله^(٣) وقال علي رضي الله عنه: إنما وهنت يوم قتل عثمان^(٤)، وقد اعتنى الحافظ ابن عساكر بجمع الطرق الواردة عن علي رضي الله عنه أنه تبرأ من دم عثمان، وكان يقسم على ذلك في خطبه وغيرها، أنه لم يقتله ولا رضي بذلك، ثبت ذلك عنه بطرق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث^(٥).

٢- محاولة استغناؤه عن خدمات من كان منهم ضمن جيشه:

كان رضي الله عنه يعاملهم بحذر شعوراً منه بخطرهم، حتى أنه لم يول أحداً منهم عند إرادة خروجه للشام، حيث دعا ولده محمد بن الحنفية وسلمه اللواء وجعل عبد الله بن عباس رضي الله عنه على الميسرة، وجعل علي مقدمة الجيش أبا ليلى بن عمر ابن الجراح^(٦)، واستخلف على المدينة قثم بن العباس رضي الله عنه^(٧)، وهذه بادرة منه رضي الله عنه ليعلن تبرؤه من أولئك المارقين، ويثبت قدرته على السيطرة على أمر المسلمين من غير عون منهم، فقد كان له في المسلمين الموالين له والمؤيدين لخلافته ما يغنيه عن الاستعانة بهم، والتودد إليهم وهذا أقصى ما يمكنه فعله بتلك الطائفة إذ ذاك، وهو كاف في عذره؛ لأنهم مئآت ولهم قرابة وعشائر في جيشه، فما يأمن لو عاملهم بأكثر من هذا من الشدة أن يمتدّ جبل الفتنة في الأمة^(٨)، وحين تمّ الصلح بين أمير المؤمنين علي وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم

(١) «الرياض النضرة» ص (٥٤٣).

(٢) «صفة الصفوة» (١/٣٠٦).

(٣) «فضائل الصحابة» (١/٥٥٩، ٥٦٠) إسناده لغيره رقم (٣٧٩).

(٥) «اللبداية والنهاية» (٧/١٩٣).

(٤) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (٥/٦١).

(٧) «تاريخ الطبري» (٥/٤٧٠).

(٦) «تاريخ الطبري»، و«تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٥٨).

(٨) «إفادة الأخبار» للتلبناني (٢/٥٢) نقلاً عن: «تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٥٩).

على يدي القعقاع ابن عمرو - سيأتي تفصيل ذلك - خطب أمير المؤمنين علي عشيّة ذلك اليوم، فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه صلى الله عليه وآله على الخليفة أبي بكر ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان رضي الله عنه، ثم حدث هذا الحدث الذي جرّه على الأمة أقوام - قتلة عثمان - طلبوا الدنيا وحسدوا من أنعم الله بها عليه، وعلى الفضيلة التي من الله بها، وأرادوا ردّ الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره^(١)، ثم قال: ألا وإني راحل غداً فارتحلوا، ولا يرتحلنّ غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس، وليغني السفهاء عني أنفسهم^(٢). ويناقد الإمام الباقراني موضوع توقيع عقوبة القصاص على قتلة عثمان، مبدياً رأيه لموقف عليّ رضي الله عنه في تأخير إجراء القصاص إلى حين إمكانه، فيقول: وعلى أنه إذا ثبت أن علياً ممن يرى قتل الجماعة بالواحد، فلم يجوز أن يقتل جميع قتلة عثمان إلا بأن تقوم البيّنة على القتلة بأعيانهم، وبأن يحضر أولياء الدم مجلسه، ويطلبوا بدم أبيهم ووليهم. وبأن يؤدي الإمام اجتهاده إلى أن قتل قتلة عثمان لا يؤدي إلى هرج عظيم، وفساد شديد قد يكون فيه مثل قتل عثمان أو أعظم منه، وإن تأخير إقامة الحدّ إلى وقت إمكانه وتقصّي الحق فيه أولى وأصلح للأمة وألمّ لشعثهم وأنفى للفساد والتهمة عنهم^(٣)، ويبرر ابن حزم موقف عليّ رضي الله عنه في تأخير القصاص من قتلة عثمان بقوله: فنقول وبالله التوفيق، أما قولهم: إن أخذ القود من قتلة عثمان المحاربين لله تعالى ولرسوله، الساعين في الأرض بالفساد، والهاتكين حرمة الإسلام والحرم والإمامة والهجرة والخلافة والصحبة والسابقة فنعم، وما خالفهم عليّ قط في ذلك ولا في البراءة منهم، ولكنهم كانوا عدداً ضخماً جمّاً لا طاعة له عليهم، فقد سقط عن عليّ رضي الله عنه ما لا يقدر عليه، كما سقط عنه وعن كل مسلم ما عجز عنه من قيام بالصلاة والصوم والحج ولا فرق، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٩] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(٢٠١) «تاريخ الطبري» (٥/٥٢٥).

(٣) «التمهيد» للباقراني ص (٢٣١)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٥٩).

«إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم»^(١). ولو أن معاوية بايع علياً لقوي به على أخذ الحق من قتلة عثمان، فصح أن الاختلاف هو الذي أضعف يد عليّ على إنفاذ الحق عليهم، ولولا ذلك لأنفذ الحق عليهم كما أنفذه على قتلة عبد الله بن خباب^(٢)؛ إذ قدر على مطالبة قتلته^(٣).

وينقل ابن العربي وجهة نظر علي بقوله: وعليّ يقول: لا أمكّن طالباً من مطلوب ينفذ فيه مراده بغير حكم ولا حاكم^(٤) ثم يعقب: أما وجود الحرب بينهم فمعلوم قطعاً، وأما كونه لهذا السبب، أي بسبب الخلاف حول القصاص من قتلة عثمان، فمعلوم كذلك قطعاً، وأما الصواب فيه فمع عليّ؛ لأن الطالب للدم لا يصح أن يحكم، وتهمة الطالب للقاضي لا توجب عليه أن يخرج عليه، بل يطلب الحق عنده، فإن ظهر له قضاء وإلا سكت وصبر، فكم من حق يحكم الله فيه... وأي كلام كان يكون لعليّ - لما تمت له البيعة - لو حضر عنده وليّ عثمان وقال له: إن الخليفة قد تملاًّ عليه ألف نسمة حتى قتلوه، وهم معلومون، ماذا كان يقول إلا أثبت وخذ، وفي يوم يثبت، إلا أن يثبتوا هم - أي قتلته - أن عثمان كان مستحق للقتل، وبالله لتعلمن يا معشر المسلمين أنه ما كان يثبت على عثمان ظلم أبداً، وكان يكون الوقت أمكن للطلب وأرفق في الحال، وأيسر وصولاً إلى المطلوب^(٥). إن علياً كان رضي الله عنه إماماً، وإن كل من خرج عليه باغ، وإن قتاله واجب حتى ينقاد إلى الحق، ولا شك أن رده على أهل الشام بدخولهم في البيعة ثم يطلبون الحق - أي القصاص من قتلة عثمان - كان في ذلك أسد رأياً وأصوب قبلاً؛ لأنه لو اقتصر من قتلة عثمان، والأمر لم يستتب له بعد لتعصّب لهؤلاء قبائلهم، فتصير حرباً ثالثة، فكان ينتظر أن يمسك بزمام الأمر؛ ليقع الطلب من هؤلاء الجناة، ويجري القضاء فيهم بالحق^(٦).

وذكر عبد القاهر البغدادي في كتاب «الإمامة» ما هذا نصه: أجمع فقهاء الحجاز

(٢) قتله الخوارج، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله.

(٤) «العواصم من القواصم» ص (١٦٣).

(١) «البخاري»، كتاب الاعتصام (١٤٢/٨).

(٣) «الفصل في الملل والنحل» (١٦٢/٤).

(٥) «تحقيق مواقف الصحابة» (١٦١/٢).

(٦) «أحكام القرآن» لابن العربي، و«تحقيق مواقف الصحابة» (١٦١/٢).

والعراق من فريقَي الحديث والذين منهم: مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي والجمهور الأعظم من المتكلمين أن علياً مصيب في قتاله لأهل صفين، كما قالوا بإصابته في قتل أهل الجمل، وقالوا أيضاً: لأن الذين قاتلوه بغاة ظالمون له، ولكن لا يجوز تكفيرهم ببيغهم^(١). ويلخص ابن تيمية رأي علي رضي الله عنه في قوله: فهو يرى أنه يجب على معاوية وأصحابه طاعته ومبايعته.. وأنهم خارجون عن طاعته، يمتنعون عن هذا الواجب، وهم أهل شوكة، رأى أن يقاتلهم حتى يؤدوا هذا الواجب، فتحصل الطاعة والجماعة^(٢).

إن تأخير علي رضي الله عنه إقامة الحدّ الشرعي على قتلة عثمان، كان عن ضرورة قائمة ومعلومة بالنسبة له فلما انتقل رضي الله عنه من المدينة إلى العراق ليكون على مقربة من الشام انتقل معه قتلة عثمان المندسين في جيشه وهم كثرة، ولاسيما أهل الكوفة والبصرة منهم، فصاروا في معقل قوتهم وعنجهية قبائلهم، فكان علي يرى أن إقامة الحدّ عليهم سيفتح عليه باباً ربما لا يستطيع سدّه بعد ذلك، وقد انتبه لهذه الحقيقة الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي وتحدث بها مع أم المؤمنين وطلحة والزبير رضي الله عنهم فأذعنوا له وعذروا علياً، ووافقوا على موقفه ذلك، ورأيه السديد المتمثل في دفع أدنى المفسدتين، وارتكاب أخف الضررين، إن السياسة الحكيمة تقضي بما كان يناهض به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من: التريث والأناة وعدم الاستعجال؛ إذ إن الأمر يحتاج إلى وحدة الصف والكلمة لإيجاد موقف موحد، ومواجهة ذلك التحدي الذي يهدد مركز الخلافة، بيد أن الخلاف في الرأي أضعف مركز الخليفة الجديد، وقضى على كل الآمال في أخذ القصاص من قتلة عثمان^(٣)، وهناك أدلة قوية تبين أن علياً كان محقاً أكثر من طلحة والزبير ومعاوية رضي الله عنهم منها:

١ - ما رواه البخاري من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ويح عمّار تقتله الفئة الباغية»^(٤). يقول ابن حجر: وفي هذا الحديث علم

(١) «أعلام النصر المبين» لابن دحية، و«تحقيق مواقف الصحابة» (١٦٢/٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧٢/٣٥).

(٤) «البخاري»، كتاب الجهاد (٢٠٧/٣).

(٣) «تحقيق مواقف الصحابة» (١٦٣/٢).

من أعلام النبوة وفضيلة ظاهرة لعليّ وعمار، وردّ على النواصب الزاعمين أن عليّاً رضي الله عنه لم يكن مصيباً في حروبه^(١)، ويقول النووي بأن الروايات - أي عن النبي صلى الله عليه وسلم - صريحة في أنّ عليّاً رضي الله عنه كان هو المصيب المحق، والطائفة الأخرى أصحاب معاوية كانوا بغاة متأولين، وفيها التصريح بأن أصحاب الطائفتين مؤمنون لا يخرجون بالقتال عن الإيمان ولا يفسقون^(٢).

٢ وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قوماً يكونون في أمته يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحالق قال: «هم شر الخلق يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق»^(٣). وفي رواية: «يخرجون على فرقة مختلفة يقتلهم أقرب الطائفتين من الحق»^(٤).

ففي الحديث دلالة واضحة في أنّ عليّاً رضي الله عنه كان أدنى إلى الحق من مخالفه في الجمل وصفين.

سادساً: خروج الزبير وطلحة وعائشة ومن معهم إلى البصرة للإصلاح:

قدم طلحة والزبير إلى مكة ولقيا عائشة رضي الله عنها جميعاً وكان وصولهما إلى مكة بعد أربعة أشهر من مقتل عثمان، تقريباً أي في ربيع الآخر من عام ٣٦هـ^(٥)، ثم بدأ التفاوض في مكة مع عائشة رضي الله عنها للخروج، وقد كانت هناك ضغوط نفسية كبيرة على أعصاب الذين وجدوا أنفسهم لم يفعلوا شيئاً لإيقاف عملية قتل الخليفة المظلوم، فقد اتهموا أنفسهم بأنهم خذلوا الخليفة وأنه لا تكفير لذنوبهم هذا - حسب قولهم - إلا الخروج للمطالبة بدمه، علماً بأن عثمان هو الذي نهى عن كل من أراد أن يدافع عنه في حياته؛ تضحية في سبيل الله فعائشة تقول: إن عثمان قُتل مظلوماً والله لأطالبن بدمه^(٦) وطلحة يقول: إنه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي إلا أن يسفك دمي في طلب دمه^(٧)، والزبير يقول: نهض الناس فندرك

(٢) «شرح النووي على صحيح مسلم» (١٦٨/٧).

(٤) «مسلم» (٧٤٦/٢١).

(٦) تاريخ الطبري (٤٨٥/٥).

(١) «الفتح» (٥٤٢/١).

(٣) «مسلم» رقم (١٠٦٥).

(٥) «تاريخ الطبري» (٤٦٩/٥).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٣٤/١).

بهذا الدم لثلاً يَبْطُلُ فإن في إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبداً، إذا لم يُفْطَمِ الناس عن أمثالها لم يبق إمام إلا قتله هذا الضرب^(١)، فهذا الإحساس الضاغط على الأعصاب والنفوس كان كفيلاً بأن يحرك الناس ويخرجهم من راحتهم واستقرارهم، بل كانوا يخرجون وهم يدركون أنهم يخرجون إلى أهوال قادمة مجهولة، فكل واحد منهم خرج من بيته وهو غير متوقع العودة مرة أخرى فشيعة أولاده بالبكاء، وسمي يوم خروجهم من مكة نحو البصرة بيوم النحيب، فلم يرَ يوم كان أكثر باكياً على الإسلام، أو باكياً له من ذلك اليوم^(٢).

لقد توفرت مجموعة من العوامل في مكة جعلتهم يفكرون في طريقة جادة لتحقيق مطلبهم ومن هذه العوامل: أن بني أمية قد هربوا من المدينة واستقروا في مكة، ومنها: أن عبد الله بن عامر - أمير البصرة في عهد عثمان - كان في مكة وهو يبحث على الخروج ويعرض المعونة المادية، ومنها: أن يعلى بن أمية الذي خرج من اليمن لإعانة الخليفة عثمان وصل مكة، وقد قتل الخليفة ومعه من المال والسلاح والدواب شيئاً لا بأس به، فعرض كل ذلك للمساعدة في قتل قتلة عثمان، فكان هذا كفيلاً لتشجيع الباحثين عن طريقة لمطاردة قتلة عثمان، ومادامت العوامل قد توافرت لجمع قوة تطالب بدم عثمان فمن أين يبدوون؟ دار حوار بينهم حول الجهة التي يتوجهون إليها فقال بعضهم - وعلى رأسهم السيدة عائشة-: إن المدينة هي وجهتهم، وظهر رأي آخر يطلب التوجه إلى الشام ليتجمعوا معاً ضد قتلة عثمان، وبعد نظر طويل استقر رأيهم على البصرة؛ لأن المدينة فيها كثرة ولا يقدرّون على مواجهتهم لقلّتهم؛ ولأن الشام صار مضموناً لوجود معاوية، ومن ثم يكون دخولهم البصرة أولى في هذه الخطة؛ لأنها أقل البلدان قوة وسلطة ويستطيعون من خلالها تحقيق خطتهم^(٣)، وكانت خطتهم ومهمتهم واضحة سواء قبل خروجهم وفي أثناء طريقهم أو عند وصولهم إلى

(١) تاريخ الطبري (٤٨٧/٥).

(٢) «تاريخ الطبري» (٤٨٧/٥)، و«دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة» للشجاع ص (٤١٧).

(٣) «تاريخ الطبري» (٤٧٦/٥)، و«دراسات في عهد النبوة» ص (٤١٨).

البصرة وهي: الطلب بدم عثمان، والإصلاح، وإعلام الناس بما فعل الغوغاء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر^(١)، وأن هذا المطلب هو لإقامة حد من حدود الله^(٢)، وإنه إذا لم يؤخذ على أيدي قتلة عثمان رضي الله عنهم، فسيكون كل إمام معرض للقتل من أمثال هؤلاء^(٣)، وأما الطريقة التي تصوروها فهي الدخول إلى البصرة ثم الكوفة، والاستعانة بأهلها على قتلة عثمان منهم أو من غيرهم، ثم يدعون أهل الأمصار الأخرى لذلك حتى يُضيقوا الخناق على قاتلي عثمان الموجودين في جيش علي رضي الله عنه، فيأخذونهم بأقل قدر ممكن من الضحايا^(٤).

لم يكن الخروج إلى البصرة والغضب الذي حرك الصحابة من البساطة، التي ظهرت للناس كشار لعثمان رضي الله عنه، وكأنه رجل من عوام الناس قُتِل، فخرجت الجيوش في الطلب له بثأره، رغم كونه حدًّا من حدود الله يستوجب الغضب ويستدعي حدوث ذلك، ولكن مكانة عثمان وشخصيته، ومكانته المعنوية كخليفة وقتله بالصورة التي تمت كان فوق ذلك، ومعه اغتيال لصفة شرعية هي «الخلافة» التي يفهمها المسلمون أنها: نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين، وسياسة الدنيا به^(٥)، فالاعتداء عليها دون وجه حق اعتداء على صاحب الشرع وتوهين لسلطانه، وضياع لنظام المسلمين^(٦).

كانت السيدة عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم ومن معهم يسعون لإيجاد رأي إسلامي عام في مواجهة الطغمة السبئية، التي قتلت عثمان وأصبحت ذات شوكة لا يستهان بها وذلك من خلال تعريف المسلمين بما أتى هؤلاء السبئيين والغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل، ومن ظاهرهم من الأعراب والعبيد، فلقد بات واضحًا عند الصحابة من الفريق الذي كان يرى رأي عائشة رضي الله عنها أن الغوغاء والسبئيين لهم وجود في جيش علي، وأنه لأجل ذلك فإن عليًا رضي الله عنه يصعب عليه مواجهتهم، خشية منه على أهل المدينة، ومن ثم فإنه ينبغي عليهم أن

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨٩).

(٢) «دراسات في عهد النبوة» ص (٤١٩).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨٧).

(٤) «مقدمة ابن خلدون» ص (١٩١).

(٦) «دور المرأة السياسي» ص (٣٩١).

يحاولوا السعي لإفهام المسلمين، وتقوية الجانب المطالب بإقامة الحدود؛ لتتم إقامتها بأقل الخسائر في دماء الأبرياء وهو هدف لا نشك أن علياً كان يسعى إليه، ويحاوله، بل إن الروايات التي مرت معنا في المحاورة بين الزبير وطلحة وعلي رضي الله عنهم تدل على ذلك، ثم إن هذا السلوك منهم، وهذه النية في تعريف الناس، وتوضيح الأمور لهم، دليل على وعي تام منهم بأساليب السبئية في اللعب بأفكار العامة، وتوجيهها على النحو الذي ينخر في الأمة حتى لا تستقر على حال، فكان لابد من مواجهتها في ميدان الأفكار؛ لإبطال عملها، ولقد تبين هذا العمل واضحاً، وصريحاً في الروايات الصحيحة،^(١) التي تحدثت فيها السيدة عائشة رضي الله عنها عن أهداف هذا الخروج، فروى الطبري أن عثمان بن حنيف - وهو والي البصرة من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - أرسل إلى عائشة رضي الله عنها عند قدمها البصرة يسألها عن سبب قدمها، فقالت: والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، ولا يغطي لبيته الخبر، إن الغوغاء من أهل الأمصار، ونزاع القبائل، غزوا حرم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم وأحدثوا فيه الأحداث، وأووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجنود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم، ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين، ولا يقدرون على امتناع ولا يؤمنون، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس ورائنا، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا، وقرأت ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ النساء: ١١٤، فنهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى، فهذا شأننا إلى معروف نامركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحضكم على تغييره^(٢).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨٩).

(١) «دور المرأة السياسي» ص (٣٩٤).

وروى ابن حبان أن عائشة رضي الله عنها كتبت إلى أبي موسى الأشعري والي علي على الكوفة: فإنه قد كان من قتل عثمان ما قد علمت وقد خرجت مصلحة بين الناس، فمر من قبلك بالقرار في منازلهم، والرضا بالعافية حتى يأتيهم ما يحبون من صلاح أمر المسلمين^(١). ولما أرسل عليّ القعقاع بن عمرو لعائشة ومن كان معها يسألها عن سبب قدومها، دخل عليها القعقاع فسلم عليها، وقال: أي أماء ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟ قالت: أي بني إصلاح بين الناس^(٢).

وبعد انتهاء الحرب يوم الجمل جاء علي إلى عائشة رضي الله عنها فقال لها: غفر الله لك، قالت: ولك، ما أردت إلا الإصلاح^(٣). فتقرر أنها ما خرجت إلا للإصلاح بين الناس وفيه رد على من طعن في عائشة رضي الله عنها من الشيعة الروافض في قولهم: إنها خرجت من بيتها وقد أمرها الله بالاستقرار فيه في قوله: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ {الأحزاب: ٣٣} فإن سفر الطاعة لا ينافي القرار في البيت، وعدم الخروج منه إجماعاً وهذا ما كانت تراه أم المؤمنين عائشة في خروجها للإصلاح بين المسلمين، وكان معها محرماً ابن أختها عبد الله بن الزبير^(٤).

قال ابن تيمية في الرد على الرافضة في هذه المسألة: فهي رضي الله عنها لم تبرج تبرج الجاهلية الأولى، والأمر بالاستقرار في البيوت لا ينافي الخروج لمصلحة مأمور بها، كما لو خرجت للحج والعمرة، أو خرجت مع زوجها في سفره، فإن هذه الآية قد نزلت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وقد سافر بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك، كما سافر في حجة الوداع بعائشة رضي الله عنها وغيرها وأرسلها مع عبد الرحمن أخيها فأردفها خلفه، وأعمرها من التنعيم، وحجة الوداع كانت قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بأقل من ثلاثة أشهر، بعد نزول هذه الآية، ولهذا كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يحججن بعده كما كن يحججن معه في خلافة عمر رضي الله عنه وغيره، وكان عمر يוכל بقطارهن عثمان، أو عبد الرحمن بن عوف، وإذا كان سفرهن لمصلحة جائزاً، فعائشة اعتقدت أن

(١) «التقات» لابن حبان (٢/٢٨٢).

(٣) «شذرات الذهب» (١/٤٢).

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٥٢٠).

(٤) «الانتصار للصحب والآل» ص (٤٤٤).

ذلك السفر مصلحة للمسلمين فتأولت في ذلك^(١)، ويقول ابن العربي: وأما خروجها إلى حرب الجمل فما خرجت لحرب ولكن تعلق الناس بها، وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس، ورجوا بركتها في الإصلاح وطمعوا في الاستحياء منها إذا وقفت للخلق، وظنت هي ذلك، فخرجت مقتدية بالله في قوله ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [النساء: ١٤٤]. والأمر بالإصلاح، مخاطب به جميع الناس من ذكر أو أنثى حر أو عبد^(٢). وهذه بعض الأمور المهمة في خروجها.

١ - هل أكرهت السيدة عائشة رضي الله عنها على الخروج:

زعم اليعقوبي أن الزبير بين العوام أكره السيدة عائشة رضي الله عنها على الخروج^(٣)، وقال بهذا القول صاحب «الإمامة والسياسة»^(٤) وابن أبي الحديد^(٥)، وكذلك فعل الدينوري^(٦)، وألمحت الرواية التي ذكرها الذهبي بأن المتسلط عليها هو عبد الله ابن الزبير^(٧) - ابن أختها أسماء - وسار على هذه الروايات كثير من الباحثين، كمحمد سيد الوكيل^(٨) فقد زعم أن الزبير وطلحة شجعا عائشة على الخروج وزاهية قدورة^(٩) وغيرهم، وهذا غير صحيح، فقد قامت السيدة عائشة رضي الله عنها بالمطالبة بثأر عثمان منذ اللحظة التي علمت فيها بمقتله رضي الله عنه، وقبل أن يصل الزبير وطلحة وغيرهما من كبار الصحابة إلى مكة، ذلك أنه قد روي: أنها لما انصرفت راجعة إلى مكة أتتها عبد الله بن عامر الحضرمي فقال: ما ردك يا أم المؤمنين؟ قالت: ردني أن عثمان قُتل مظلوماً، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام، فكان عبد الله أول من أجابها^(١٠)، ولم يكن طلحة والزبير قد خرجا من المدينة، وإنما خرجا منها بعدما مرَّ على مقتل عثمان رضي الله عنه أربعة أشهر^(١١).

(٢) «أحكام القرآن» (٣/٥٦٩-٥٧٠).

(١) «منهاج السنة» (٤/٣١٧-٥٧٠).

(٤) «الإمامة والسياسة» (١/٥٨، ٦٩).

(٣) «تاريخ اليعقوبي» (٢/١٨٠، ٢٠٩).

(٦) «الأخبار الطوال» ص (١٤٥).

(٥) «شرح نهج البلاغة» (٩/١٨).

(٨) «جولة تاريخية في عصر الخلفاء الراشدين» ص (٥٢٦).

(٧) «سير أعلام النبلاء» (٢/١٩٣).

(١٠) «تاريخ الطبري» (٥/٤٧٥).

(٩) «عائشة أم المؤمنين» ص (١٨٤).

(١١) «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٣)، و«تاريخ الطبري» (٥/٤٦٩).

٢ - هل كانت متسلطة على من معها؟:

كان فيمن خرج معها رضي الله عنها جمع من الصحابة^(١)، ولم تكن السيدة عائشة المرأة المتسلطة التي تحرك الناس حيث شاءت كما زعم بروكلمان^(٢)، ولقد أكدت روايات الطبري على تأييد أمهات المؤمنين لها، ولمن معها في السعي للإصلاح، بل وتأييد عدد غير قليل من أهل البصرة لها^(٣)، وكان هذا العدد غير القليل ممن لا يستهان بهم، فلقد وصفهم طلحة والزبير بأنهم خيار أهل البصرة ونجباؤهم^(٤)، ووصفتهم السيدة عائشة بأنهم الصالحون^(٥)، وما كان خروج هذا العدد من الصالحين إلا عن اعتقاد راسخ بجذوى هذا الخروج وصواب مقصده، وكان أمير المؤمنين يعلم هذا، ويرد الزعم الذي زعمه البعض من أن الخارجين مع السيدة عائشة كانوا جموعاً من السفهاء والغوغاء والأوباش^(٦)، فلقد وقف أمير المؤمنين بعد معركة الجمل بين القتلى من فريق عائشة، يترحم عليهم ويذكر فضلهم^(٧)، وسيأتي بيان ذلك في أنه لم يكن خروجاً غوغائياً، تحكمت فيه السيدة عائشة في أناس غير راشدين؛ بل كان خروجاً واعياً شارك فيه بعض الصحابة الكبار^(٨).

٣ - موقف أزواج النبي صلوات الله عليهم من الخروج للطلب بدم عثمان:

كان أزواج النبي صلوات الله عليهم قد خرجن إلى الحج في هذا العام فراراً من الفتنة، فلما بلغ الناس بمكة أن عثمان قد قُتل أقمن بمكة وكن قد خرجن منها فرجعن إليها، وجعلن يتظرن ما يصنع الناس ويتجسسن الأخبار، فلما بويع عليّ خرج عدد من الصحابة من المدينة كارهين المقام بها بسبب الغوغاء من أهل الأمصار، فاجتمع بمكة منهم خلق كثير من الصحابة وأمهات المؤمنين^(٩)، وكان

(١) «تاريخ الطبري» نقلاً عن «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٤).

(٢) «تاريخ الشعوب الإسلامية» ص (١١١، ١١٤، ١١٧).

(٣، ٤) «تاريخ الطبري» نقلاً عن «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٥).

(٦) انظر: ما قاله صاحب «الإمامة والسياسة» (٥٧/١).

(٧) «تاريخ الطبري» (٥٧٤/٥).

(٨) «تاريخ الطبري» (٥٧٤/٥).

(٩) «البداية والنهاية» (٢٤١/٧).

(٨) «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٥).

بقية أمهات المؤمنين قد وافقن عائشة على السير إلى المدينة، فلما اتفق رأي عائشة، ومن معها من الصحابة على السير إلى البصرة، رجعن عن ذلك وقلن: لا نسير إلى غير المدينة^(١)، وكان الخروج في أمر عثمان إذن غير مختلف عليه بين أمهات المؤمنين، لكنهن اختلفن حين تغيرت الوجهة من المدينة إلى البصرة، غير أن أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضي الله عنها وافقت عائشة على السير إلى البصرة، وإنما عزم^(٢) عليها أخوها عبد الله كيلا تخرج، فلم يكن عدم خروجها ناتجاً عن اقتناع منها،^(٣) وقالت لعائشة: إن عبد الله حال بيني وبين الخروج، وأرسلت إلى عائشة بعذرها^(٤)، وتكاد الروايات الشائعة تبدي أن أم سلمة رضي الله عنها لم تكن ترى رأي عائشة ومن معها، في الخروج إلى البصرة وإنها كانت ترى ما يراه علي^(٥)، غير أن أقرب الروايات إلى الصحة هي أنها أرسلت إلى علي ابنها عمر ابن أبي سلمة قائلة: والله لهو أعز علي من نفسي، يخرج معك فيشهد مشاهدك، فخرج فلم يزل معه^(٦)، وهي رواية عند التحقيق لا يتبين لنا منها أن هذا الإرسال لابنها، يعني أنها كانت تخالف أمهات المؤمنين في القول بالإصلاح بين المسلمين، فعائشة نفسها ومن معها لم يكونوا يروا أنهم بهذا الخروج يخالفون علياً رضي الله عنه، أو يخرجون على خلافته كما رأينا، وكما سوف تؤكد لنا الأحداث، كما إننا لم نجد في الروايات الصحيحة ما يدل على خروجها على إجماع أمهات المؤمنين في أهمية السعي للإصلاح^(٧)، وكانت أمهات المؤمنين يعلمن أن هذا الخروج في الإصلاح بين المسلمين مما يدخل في معنى الفرض الكفائي، والضابط فيه أن الطلب فيه ليس موجهاً إلى جميع المكلفين، بل هو إلى ما فيه أهلية القيام به لا على الجميع عموماً، ولقد كانت أهلية القيام بهذا الإصلاح بين المسلمين متوفرة تماماً في السيدة عائشة: مكانةً وسناً وعلماً، وقدرة، وكانت عائشة أكثرهن

(٢) عزم عليها: أقسم عليها.

(٤) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨٧).

(١) «البداية والنهاية» (٧/٢٤١).

(٣) «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٦).

(٥) «أنساب الأشراف» (٤/٢٢٤).

(٦) «أسد الغابة» (٤/١٦٩)، و«الإجابة» (٤/٤٨٧)، و«دور المرأة السياسي» ص (٣٨٧)، و«المستدرک»،

و«مرويات أبي مخنف» ص (٢٥٧).

(٧) «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٧).

فَقَهًا بإجماع جمهور المسلمين،^(١) كما إنها كانت تهتم بالأمر العام، فكانت صاحبة شخصية ثقافية واسعة، تكونت منذ نشأتها في بيت أبي بكر رضي الله عنه العالم بأيام العرب وأنسابهم ومن عيشها في بيت رسول الله صلوات الله عليه وسلم الذي خرجت منه أسس سياسة الدولة الإسلامية، ثم هي بنت الخليفة الأول للمسلمين، وقد أكد العلماء على هذه المكانة للسيدة عائشة، فقد قال عروة بن الزبير: لقد صحبت عائشة، فما رأيت أحداً قط كان أعلم بأية أنزلت، ولا بفريضة ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، لا بكذا، ولا بكذا.. ولا بقضاء، ولا بطب منها^(٢)، وكان الشعبي يذكرها فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة، وكان عطاء يقول: كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة^(٣)، وكان الأحنف ابن قيس سيد بني تميم، وأحد بلغاء العرب يقول: سمعت خطبة أبي بكر وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم، والخلفاء بعدهم.. فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم، ولا أحسن منه في عائشة. وكان معاوية يقول مثل هذا^(٤).

هذا وقد خرجت أمهات المؤمنين مودعات للسيدة عائشة رضي الله عنها حين خرجت للبصرة، وفي ذلك معنى من معاني المعاونة لها و التشجيع لها على أمرها^(٥).

٤ - مرور السيدة عائشة على ماء الحوَاب:

ثبت مرور السيدة عائشة على ماء الحوَاب من طرق صحيحة، فعن يحيى بن سعيد ابن القطان، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن حازم، «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوَاب؟»^(٦) ومن طريق شعبة عن إسماعيل: أن عائشة رضي الله عنها قالت- لما أتت على الحوَاب-: سمعت نباح الكلاب، فقالت ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال لنا: «أيتكن تنبح عليها كلاب الحوَاب؟». فقال لها الزبير أترجعين عسى الله عز وجل أن يصلح بك بين الناس؟^(٧). وبهذا اللفظ

(٢٠١) «سير أعلام النبلاء» (١٨٣/٢).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٨٥/٢).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٨٣/٢).

(٥) «دور المرأة السياسي» ص (٣٨٩).

(٧٠٦) «مسند أحمد» (٩٧/٦).

أخرجه يعلى بن عبيد عن إسماعيل، وهو عند الحاكم^(١)، وقال الألباني: إسناده صحيح جداً وقال: صححه خمسة من كبار أئمة الحديث منهم ابن حبان، والذهبي، وابن كثير، وابن حجر^(٢).

فهذه الروايات الصحيحة، ليس فيها شيء من شهادة الزور أو التدليس، الذي ينتزه عنه مقام الصحابة والذي زعمته الروايات الضعيفة^(٣) التي سيأتي بيانها. إن المتأمل لهذه الروايات التي صححها العلماء لا يجد في أي منها ما يدل على نهى عن شيء، أو أمر بشيء لتفعله السيدة عائشة رضي الله عنها، بل إن ما يفهم منها هو تساؤل عن أيتها التي يحدث لها أن تمر على ماء الحوآب؟ والروايات الدالة على النهي، والتي بها لفظة إياك في الأثر الوارد: «إياك أن تكوني يا حميراء»^(٤) لم يصححها العلماء، وإنما ضعفت، ومن هنا فإن الصحيح الذي نذهب إليه: هو أن مرور السيدة عائشة رضي الله عنها على ماء الحوآب لم يكن له الأثر السلبي الذي افتعلته الروايات الموضوعية، ولم يكن له الأثر البعيد النفسي على السيدة عائشة نفسها، بحيث تفكر جدياً في الرجوع عما خرجت له من إصلاح بين المسلمين، وسعي لتسديد خطاهم، ولم يعد الأمر أن يكون «ظناً» منها في احتمال الرجوع، وهذا هو ما عبرت عنه حين قالت: ما أظنني إلا راجعة. وهو ظن لم يتلبس إلا يسيراً، ثم عاد بعد هدفها واضحاً، بعدما ذكرها الزبير بما عسى الله أن يجريه على يديها من إصلاح بين المسلمين^(٥)، لقد كانت ولا زالت مسألة ماء الحوآب^(٦) والأحاديث المذكورة فيها مجالاً خصباً للشيعنة وغيرهم يطعنون بها على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ويدينون بها خروجها في شأن الطلب بدم عثمان، حتى انتهى بهم الأمر إلى نفي صفة الاجتهاد عنها، بدعوى مخالفتها - في زعمهم - لنهي الرسول صلوات الله عليه وآله وسلم لها عن أن ترد ماء الحوآب^(٧)، وقد ذكرت المصادر التاريخية هذه القصة، فقد

(١) «المستدرک» (٣/ ١٢٠).

(٢) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١/ ٧٦٧) رقم (٤٧٤).

(٣) «دور المرأة السياسي» ص (٤٠٥).

(٤) قال الذهبي: كل حديث فيه «يا حميراء»، لا يصح، و«سير أعلام النبلاء».

(٥) «النبلاء» (٢/ ١٦٧، ١٦٨).

(٦) «دور المرأة السياسي» ص (٤٠٦).

(٧) الحوآب: من مياه العرب على طريق البصرة قريب منها على طريق مكة إليها.

جاءت عند الطبري في رواية طويلة، يرويها إسماعيل ابن موسى الفزاري قال عنه ابن عدي: أنكروا منه الغلو والتشيع^(١)، ويروي الفزاري هذا الخبر عن علي بن عابس الأزرق، وهو ضعيف، قالها ابن حجر والنسائي^(٢) وهو يروي هذا الخبر عن أبي الخطاب الهجري وهو مجهول^(٣)، وهذا الهجري المجهول، يرويه عن مجهول آخر هو صفوان بن قبيعة الأحمسي^(٤)، ثم أخيراً عن شخصية أشد جهالة هي شخصية العزني صاحب الجمل، وما هو بصاحب الجمل، وإنما صاحبه هو يعلى بن أمية^(٥).

وفي متن هذه الرواية ما يجده القارئ من رائحة التشيع والرفض الواضحة في آخر الرواية، حيث تزعم على لسان علي أنه كان رضي الله عنه يرى أحقيته بالخلافة على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، والصحيح الثابت من الروايات المحققة يدل على خلاف ذلك تماماً^(٦). وعلى أساس كل ما سبق يتضح لنا أن هذه الرواية غير صحيحة^(٧)، وهناك روايات أخرى وردت في هذا الموضوع، كلها باطلة سنداً وممتناً، ومغزى هذه الروايات وهدفها هو الطعن على كبار الصحابة وفضلائهم، وبيان أن مقصدهم من خروجهم هذا، ما هو إلا تحقيق مطامع دنيوية شخصية من مال ورياسة وغيرها، وأن الغاية تبرر الوسيلة، وأنهم لا يتورعون في سبيل ذلك عن إشعال الحرب والفتنة بين المسلمين، وتركز الروايات على الصحابين الجليلين طلحة والزبير رضي الله عنهما^(٨)، كما يريد مفتري هذه الروايات أن يبين ويؤكد أن هذين الصحابين ومن معهما من أفراد المعسكر، يتجرؤون على انتهاك حرمت الله

(١) «الكامل في ضعفاء الرجال» (١/٥٢٨)، و«ميزان الاعتدال» (١/٤١٣).

(٢) «تقريب التهذيب» (١/٦٩٧).

(٣) «تقريب التهذيب» (٢/٣٩٢)، و«دور المرأة السياسي» ص (٤٠٠).

(٤) «ميزان الاعتدال» (٣/٤٣٤)، و«لسان الميزان» (٣/٢٢٥).

(٥) «أسد الغابة» (٥/٤٨٦)، و«دور المرأة السياسي» ص (٤٠٠).

(٦) «دور المرأة السياسي» ص (٤٠٢).

(٧) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨٣).

(٨) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٥/٢٨٣) ضعيفة السند متقطعة، و«أنساب الأشراف» (٢/٤٧) نفس الطريق وهذه

الروايات تخالف الصحيح الثابت.

فهم يقسمون ويحلفون لأم المؤمنين بأيمان مغلظة أن هذا الماء ليس ماء الحوآب، وزيادة على ذلك أتوا بسبعين نفساً وفي رواية بخمسين نفساً يشهدون على صدق قولهم، فكان هذا العمل كما افترى المسعودي الشيعي الرافضي أول شهادة زور في الإسلام^(١)، وتحاول هذه الروايات أن تظهر أن طلحة والزبير وأم المؤمنين رضي الله عنهن، ليسوا على شيء من صفاء القلوب والاجتماع على هدف واحد، وتحاول أن تظهر أن عائشة رضي الله عنها بجانب طلحة رضي الله عنه وفي قرارة نفسها، أن يتولى هو الخلافة؛ وذلك لأنه تيمي مثلها، كما تظهر هذه الروايات أن هناك تنافساً داخلياً بين طلحة والزبير رضي الله عنهما، وحرصاً من كل واحد منهما أن يتولى الإمارة، وهذه الروايات لا تخلو من ضعف قوي، فبعضها منقطع السند أو فيها مجاهيل لا يعرفون أو فيها كلا العيين القادحين^(٢). ولقد تأثر كثير من الكتاب والمؤرخين بهذه الروايات واعتمدوا عليها وساهموا في نشرها وهي لا أساس لها، كالعقاد في عبقرية علي وطه حسين في علي وبنوه^(٣)، وغيرهم من الكتاب المعاصرين.

٥ - أعمالهم في البصرة:

عند ما وصل طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ومن معهم البصرة نزلوا جانب الخريبة^(٤)، ومن هناك أرسلوا إلى أعيان وأشرف القبائل يستعينون بهم على قتلة عثمان، وكان كثير من المسلمين في البصرة وغيرها يودون ويرغبون في القود من قتلة عثمان رضي الله عنه، إلا أن بعض هؤلاء يرون أن هذا من اختصاص الخليفة وحده، وأن الخروج في هذا الأمر بدون أمره وطاعته معصية، ولكن خروج هؤلاء الصحابة المشهود لهم بالجنة، وأعضاء الشورى ومعهم أم المؤمنين عائشة حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفقها النساء مطلقاً، ومطلبهم الشرعي الذي لا غبار عليه ولا ينكره صحابي واحد، جعل الكثير من البصريين على اختلاف قبائلهم ينضمون إليهم، وأرسل

(١) «مروج الذهب» (٢/٣٦٧).

(٢) «تاريخ الطبري» وفي إسنادها مجهولان، و«خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد ص (١٣٢).

(٣) «خلافة علي بن أبي طالب» ص (١٣٢).

(٤) موقع جانب البصرة، انظر: «خطط البصرة ومنطقتها» (١١٤ - ١٢٢) العلمي.

الزبير إلى الأحنف بن قيس السعدي التميمي يستنصره على الطلب بدم عثمان والأحنف من رؤساء تميم وكلمته مسموعة، يقول الأحنف واصفاً هول الموقف: . . فأتاني أقطع أمر أتاني قط فقلت: إن خذلاني هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحواري رسول الله ﷺ لشديد^(١)، إلا أنه اختار الاعتزال، فاعتزل معه ستة آلاف ممن أطاعه من قومه، وعصاه في هذا الأمر كثير منهم، ودخلوا في طاعة طلحة والزبير وأم المؤمنين ﷺ^(٢)، ويذكر الزهري أن عامة أهل البصرة تبعوهم^(٣)، وهكذا انضم إلى طلحة والزبير وعائشة ﷺ ومن معهم أنصار جدد لقضيتهم التي خرجوا من أجلها. وقد حاول ابن حنيف تهذئة الأمور والإصلاح قدر المستطاع إلا أن الأمور خرجت من يده حتى قال أحدهم عن البصرة: قطعة من أهل الشام نزلت بين أظهرنا،^(٤) وحتى إن معاوية فيما بعد حاول الاستيلاء عليها بمساعدة أهلها^(٥) وتذكر بعض المصادر غير الموثقة أن عثمان بن حنيف رخص لحكيم بن جبلة في القتال، فهذا لا يثبت والمصادر الصحيحة لم تثبت ذلك^(٦).

٦- مقتل حكيم بن جبلة ومن معه من الغوغاء:

أقبل حكيم بن جبلة، بعدما خطبت عائشة ﷺ في أهل البصرة، فأنشب القتال وأشرع أصحاب عائشة وطلحة والزبير ﷺ رماحهم وأمسكوا ليمسكوا، فلم ينته حكيم، ومن معه، ولم يثن، وظل يقاتلهم طلحة والزبير وعائشة، كأفون إلا ما دافعوا عن أنفسهم، وحكيم يذمر^(٧) خيله ويركبهم بها^(٨)، وعلى الرغم من ذلك، فإن عائشة ﷺ ظلت حريصة على عدم إنشابه القتال، فأمرت أصحابها أن يتيامنوا بعيداً عن المقاتلين، وظلوا على ذلك حتى حجز الليل

(١) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد ص (١٣٣).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٤٥٦/٥) له شواهد تقويه.

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٤٥٦/٥) بسند صحيح إلى الزهري مرسلأ.

(٤) «الطبقات» (٣٣٣/٦).

(٥) «فتح الباري» (٢٦/١٣)، و«خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد ص (١٣٧).

(٦) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد ص (١٣٧)، (١٣٨).

(٧) «تاريخ الطبري» (٤٩٤/٥).

(٨) يذمر الخيل: يحضها ويشجعها.

بينهم^(١)، حتى إذا كان الصباح جاء حكيم بن جبلة وهو يبربر، وفي يده الرمح، وفي طريقه إلى حيث عائشة رضي الله عنها ومن معها، جعل حكيم لا يمر برجل أو امرأة ينكر عليه أن يسب عائشة إلا قتله،^(٢) وعندئذ غضبت عبد القيس إلا من كان اغتمر^(٣) منهم، فقالوا لحكيم: فعلت بالأمس وعبدت لمثل ذلك اليوم، والله لا ندعَنَّكَ حتى يُقيدك الله^(٤)، فرجعوا وتركوه، ومضى حكيم بن جبلة فيمن غزا معه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحصره من نزاع القبائل كلها، فلقد كانوا قد عرفوا الأَّ مقام لهم بالبصرة، فاجتمعوا إليه، ووافقوا أصحاب عائشة، فاقتتلوا قتالاً شديداً^(٥)، وظل منادي عائشة رضي الله عنها يناديهم ويدعوهم إلى الكفِّ فيأبون^(٦)، وجعلت رضي الله عنها تقول: لا تقتلوا إلا من قاتلكم، لكن حكيم لم يُرَع^(٧) للمنادي، وظل يُسَعِّر القتال، عندئذ وبعدما تبين للزبير وطلحة رضي الله عنهما طبيعة هؤلاء الذين يقاتلون، وأنهم لا يتورعون، ولا ينتهون عن حرمة، وأن لهم هدفاً في إنشاب القتال، قالوا: الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة، اللهم لا تبق منهم أحداً، وأقد منهم اليوم فاقتلهم، فجادَّوهم القتال، ونادوا: من لم يكن من قتلة عثمان رضي الله عنه فليكف عنا، فإننا لا نريد إلا قتلة عثمان، ولا نبدأ أحداً، فاقتتلوا أشد القتال^(٨)، فلم يفلت من قتلة عثمان من أهل البصرة إلا واحد، وكان منادي الزبير وطلحة قد نادى: ألا من كان فيكم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به^(٩). وكان فريق من هؤلاء الجهال والغوغاء - كما قالت عائشة - قد غادَواها في بيتها في العكس ليقتلوها، وكانوا قد ذهبوا حتى سُدَّ بيتها، ومعهم الدليل، إلا أن الله دفع عنها بنفر من المسلمين كانوا قد أحاطوا ببيتها رضي الله عنها، فدارت عليهم الرحي وأطاف بهم المسلمون فقتلوهم^(١٠)، واستطاع الزبير وطلحة رضي الله عنهما ومن معهم أن يسيطروا على البصرة وكانوا بحاجة إلى طعام ومؤنة غذائية، وقد مرت

(٣) اغتمر: اغتمس.

(٥) «تاريخ الطبري» (٥/٤٩٩).

(٧) لم يرع: لم يبال.

(٩) المصدر نفسه (٥/٥٠١).

(٢، ١) «تاريخ الطبري» (٥/٤٩٤).

(٤) يقيد الله: القود: القصاص، وقتل القاتل بالقتيل.

(٦) «تاريخ الطبري» (٥/٤٩٩).

(٨) «تاريخ الطبري» (٥/٤٩٩).

(١٠) «تاريخ الطبري» (٥/٥٠٣).

عليهم أسابع ، وهم ليسوا في ضيافة أحد ، فتوجه جيش الزبير إلى دار الإمارة ومن ثم إلى بيت المال ليرزقوا أصحابهم وأخلى سبيل عثمان بن حنيف واتجه إلى علي رضي الله عنه (١) ، وبذلك تمت سيطرة طلحة والزبير وأم المؤمنين رضي الله عنهم على البصرة وقتلوا عدداً كبيراً ممن شارك في الهجوم على المدينة ، قُدرَ بسبعين رجلاً من أبرزهم زعيم ثوار البصرة ، حكيم بن جبلة ، والذي كان حريصاً على القتال ، وإشعال الحرب ، وكان الزبير أمير القتال ، فقد بويع على ذلك (٢) .

٧- رسائل السيدة عائشة رضي الله عنها إلى الأمصار الأخرى:

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها حريصة على إيضاح وجه الحق ، فيما حدث من قتال مع أهل البصرة ، فكتبت إلى أهل الشام والكوفة واليمامة ، وكتبت إلى أهل المدينة أيضاً تخبرهم بما صنعوا وصاروا إليه ، وكان فيما كتبت به لأهل الشام : إنا خرجنا لوضع الحرب وإقامة كتاب الله عز وجل بإقامة حدوده في الشريف والوضيع ، والكثير والقليل ، حتى يكون الله عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك . فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم ، وخالفنا شرارهم ونزاعهم ، فردونا بالسلاح ، وقالوا فيما قالوا : نأخذ أم المؤمنين رهينة ؛ وذلك أن أمرتهم بالحق وحشتهم عليه ، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة ، حتى إذا لم يبق حجة ولا عذر ، استبس قتل عثمان أمير المؤمنين رضي الله عنه ، فلم يفلت منهم إلا حرقوص ابن زهير والله مقيده . وإنا نناشدكم الله سبحانه في أنفسكم إلا ما نهضتم بمثل ما نهضنا به ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه ، وقد أعذرنا وقضينا الذي علينا (٣) .

٨ - الخلاف بين عثمان بن حنيف وجيش عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم :

روى الطبري عن أبي مخنف عن يوسف بن يزيد ، عن سهل بن سعد قال : لما أخذوا عثمان بن حنيف أرسلوا أبان بن عثمان بن عفان إلى عائشة يستشيرونها

(١) «تاريخ الطبري» (٤٩٣/٥) ، و«خلافة علي بن أبي طالب» ، لعبد الحميد ص (١٣٨) .

(٢) «أنساب الأشراف» (٩٣/٢) بسند حسن ، و«خلافة علي بن أبي طالب» ، لعبد الحميد ص (١٣٩) .

(٣) «تاريخ الطبري» (٥٠١/٥) .

في أمره، قالت: اقتلوه، فقالت لها امرأة: نشدتك الله يا أم المؤمنين في عثمان وصحبتك لرسول الله صلوات الله عليه، قالت: ردوا أباناً، فردُّوه، فقالت: احبسوه ولا تقتلوه قال أبان: لو علمت أنك تدعينني لهذا لم أرجع، فقال لهم مجاشع بن مسعود: اضربوه وانتفوا شعر لحيتك، فضربوه أربعين سوطاً، وانتفوا شعر لحيتك ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه^(١)، وفي سند هذه الرواية أبو مخنف وهو شيعي رافضي محترق، وهذه الرواية لم تثبت من طريق صحيح يمكن أن يعول عليه، والصحابة الكرام ينزهون عن مثل هذه المثلة القبيحة، والذي يفهم من رواية سيف: أن الغوغاء هم الذين فعلوا ذلك وأن طلحة والزبير رضي الله عنهما استشنعا، واستعظماه وبعثا بالخبر إلى عائشة فقالت: خلوا سبيله وليذهب حيث شاء^(٢) وهذه الرواية عارضت تفصيلات أبي مخنف، فهي لم تذكر الأمر بقتله أو حبسه أو الأمر بتنف شعر وجهه، وقد اختار هذه الرواية النويري وابن كثير^(٣)، وذكر الذهبي أن مجاشع ابن مسعود قد قتل قبل دخول دار عثمان بن حنيف^(٤)، وحتى لو فرض عدم قتل مجاشع ابن مسعود فليست إليه القيادة حتى يصدر هذه الأوامر^(٥).

سابعاً: خروج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الكوفة:

لم يكن الصحابة رضي الله عنهم في المدينة يؤيدون خروج أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من المدينة، فقد تبين ذلك حينما هم علي بالنهوض إلى الشام؛ ليزور أهلها وينظر ما هو رأي معاوية وما هو صانع^(٦)، فقد كان يرى أن المدينة لم تعد تمتلك المقومات التي تملكها بعض الأمصار في تلك المرحلة فقال: إن الرجال والأموال بالعراق^(٧)، فلما علم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه بهذا الميل قال للخليفة: يا أمير المؤمنين، لو أقمت بهذه البلاد؛ لأنها الدرع الحصينة، ومهاجرة رسول الله صلوات الله عليه وبها قبره ومنبره ومادة الإسلام، فإن استقامت لك العرب كنت كمن

(١) (٢، ١) «تاريخ الطبري» (٤٩٧/٥).

(٢) «نهاية الإرب» (٣٨/٢٠)، و«البدية والنهاية» (٢٣٣/٧).

(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي، و«هرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» ص (٣٥٩).

(٤) «هرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري» ص ٢٥٩.

(٥-٦) «الفتاوى» لابن حبان (٢٨٣/٢)، و«الأنصار في العصر الراشدي» (١٦١).

كان، وإن تشعب عليك قوم رميتهم بأعدائهم، وإن ألجئت حينئذ إلى السير سرت وقد أعذرت...، فأخذ الخليفة بما أشار عليه أبو أيوب وعزم على المقام بالمدينة وبعث العمال على الأمصار^(١).

ولكن حصل كثير من المستجدات السياسية التي أرغمت الخليفة على مغادرة المدينة، وقرّر الخروج للتوجه إلى الكوفة ليكون قريباً من أهل الشام^(٢) وأثناء استعداده للخروج، بلغه خروج عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة^(٣) فاستنفر أهل المدينة ودعاهم إلى نصرته، وحدث تناقل من بعض أهل المدينة بسبب وجود الغوغاء في جيش علي وطريقة التعامل معهم، فإن كثيراً من أهل المدينة يرون أن الفتنة لازالت مستمرة، فلا بد من التروي حتى تنجلي الأمور أكثر، وهم يقولون: لا والله ما ندري كيف نصنع، فإن هذا الأمر لمشبهه علينا ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر، وروى الطبري أن علياً رضي الله عنه خرج في تعبته التي كان تعباً بها إلى الشام وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخفين في سبعمائة رجل^(٤)، والأدلة على تناقل كثير من أهل المدينة عن إجابة دعوة أمير المؤمنين للخروج كثيرة منها: خطب الخليفة التي شكها فيها من هذا التناقل^(٥)، وظاهرة اعتزال كثير من الصحابة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه كما اتضح ذلك، كما أن رجالاً من أهل بدر لزموا بيوتهم بعد مقتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم^(٦).

وقد عبر أبو حميد الساعدي الأنصاري وهو بدري عن ألمه لمقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه فقال: اللهم إن لك علياً أضحك حتى ألقاك^(٧) فقد كانوا يعدون الخروج من المدينة في تلك المرحلة يقود إلى الانزلاق في الفتنة، التي يخشون عواقبها^(٨) على سلامة ما مضى لهم من جهاد مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، ومما

(١) «الثقات» لابن حبان (٢/٢٨٣)، و«الأنصار في العصر الراشدي» (١٦١).

(٢) «استشهاد عثمان ووقعة الجمل» ص (١٨٣).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٥٠٧).

(٤) «تاريخ الطبري» (٤) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨١).

(٥) «الطباقات» (٣/٢٣٧)، و«الأنصار في العصر الراشدي» ص (١٦٣).

(٦) «البدية والنهاية» نقلاً عن «الأنصار في العصر الراشدي» ص (١٦٤).

(٧) «تاريخ الإسلام» عهد الخلفاء الراشدين . (٨-٩) «الأنصار في العصر الراشدي» ص (١٦٤).

سبق ذكره لا يعني أنه لم يشارك أحد من الصحابة في مسيرة الخليفة هذا لكنهم كانوا قليلاً، قال الشعبي: لم يشهد موقعة الجمل من أصحاب رسول الله صلوات الله عليه غير علي وعمار وطلحة والزبير، فإن جاؤوا بخامس فأنا كذاب^(١)، وفي رواية: من حدثك أنه شهد الجمل ممن شهد بدرًا أكثر من أربعة نفر فكذبته كان علي وعمار في ناحية وطلحة والزبير في ناحية^(٢)، وفي رواية: لم ينهض مع علي إلى البصرة غير ستة نفر من البدرين ليس لهم سبع^(٣)، وبهذا يكون المقصود في الرواية السابقة من الصحابة أهل بدر، وعلى كل حال فإن من شارك في الفتنة من الأنصار قليل. قال ابن سيرين والشعبي: وقعت الفتنة بالمدينة وأصحاب النبي رضي الله عنه أكثر من عشرة آلاف، فما يعدون من خف فيها عشرين رجلاً، فسميا حرب علي وطلحة والزبير وصفين فتنة^(٤)، فيتضح مما سبق أن عدد الصحابة الذين خرجوا مع الخليفة علي إلى البصرة كان قليلاً، ولا يمكن الجزم بمشاركتهم في حرب الجمل، فمع شدة تلك الموقعة وكثرة أحداثها لم تذكر المصادر مشاركات الصحابة فيها أو شهداء أو جرحى^(٥). إن إحدى الروايات تقول: خرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخفين في سبعمائة رجل^(٦). والذي يظهر من هذه الرواية: أنها أقرب إلى واقع تلك المرحلة، وأكثر انسجامًا مع سير الأحداث، ومع موقف أهل المدينة الذي كان يتراوح بين الميل للعزلة والتناقل عن المشاركة في الأحداث^(٧).

١ - نصيحة عبد الله بن سلام لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

حاول عبد الله بن سلام صاحب رسول الله صلوات الله عليه أن يثني عزم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الخروج، فأتاه وقد استعد للمسير، وأظهر له خوفه عليه ونهاه أن

(١) «تاريخ ابن خياط» ص (١٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٧١٠/٨).

(٢) «العثمانية» للجاحظ ص (١٧٥)، و«الأنصار في العصر الراشدي» ص (١٦٥).

(٣،٤) «الخلافة الراشدة من تاريخ ابن كثير»، لكنعان ص (٣٥٦).

(٥) «الأنصار في العصر الراشدي» ص (١٦٥). (٦) «تاريخ الطبري» (٤٨١/٥).

(٧) «الإنصاف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من الخلاف» ص (٣٨٨).

يقدم على العراق قائلاً: أخشى أن يصيبك ذباب السيف، كما أخبره بأنه لو ترك منبر رسول الله ﷺ؛ فلن يراه أبداً، كان علي يعلم هذه الأشياء من رسول الله ﷺ فقال: وإيم الله لقد أخبرني به رسول الله ﷺ، ولكن من مع علي من البصريين والكوفيين بلغت بهم الجرأة أن قالوا لعلي: دعنا فلنقتله، فقد أصبح قتل المسلمين ممن يقف في طريقهم، أو يحسون بخطره على حياتهم بالقول أو العمل أمراً هيناً لا يرون به بأساً، وفي قولهم، وتهجمهم هذا يدل على قلة الورع وعدم إنزال الصحابة الكرام منازلهم التي أمر رسول الله ﷺ الناس بعده بها، ولكن علياً رضي الله عنه نهاهم قائلاً: إن عبد الله بن سلام رجل صالح^(١).

٢ - نصيحة الحسن بن علي رضي الله عنهما لوالده:

خرج أمير المؤمنين من المدينة وعندما بلغ الربرة^(٢) عسكر فيها بمن معه، ووفد عليه عدد من المسلمين بلغوا المائتين^(٣)، وفي الربرة قام إليه ابنه الحسن رضي الله عنه وهو باك، لا يخفي حزنه وتأثره على ما أصاب المسلمين من تفرق واختلاف، وقال الحسن لوالده: قد أمرتك فعصيتني، فتقتل غداً بمضيعة لا ناصر لك، فقال علي: إنك لا تزال تخن^(٤) خنين الجارية، وما الذي أمرتني فعصيتك؟ قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع، حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا، أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك، فعصيتني في ذلك كله. قال: أي بني، أما قولك: لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان، فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما قولك: لا تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار، فإن الأمر أمر أهل المدينة، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير رضي الله عنهما، فإن

(١) «مسند أبي يعلى» (١/٣٨١) قال محققه: إسناده صحيح.

(٢) شرق المدينة المنورة تبعد ٢٠٤ كيلو متر.

(٣) «أنساب الأشراف» (٢/٤٥)، و«خلافة علي بن أبي طالب» ص (١٤٣).

(٤) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨٢)، خن: أخرج الصوت من خياشيمه.

ذلك كان وهناً على أهل الإسلام، والله ما زلت مقهوراً مذوليت، منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي، وأما قولك: اجلس في بيتك، فكيف لي بما قد لزمني، أو من تريدني؟ أتريدني أن أكون مثل الضباع التي يحاط بها، ويقال: ذباب ذباب^(١)، ليست ههنا حتى يحل عرقوباها ثم نُخرجُ، وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعينني فمن ينظر فيه، فكف عنك أي بني^(٢). كان موقف أمير المؤمنين علي حازماً في هذه المشكلة وواضح ولم يستطع أحد أن يثنيه عن عزمه. وأرسل علي رضي الله عنه من الربذة يستنفر أهل الكوفة ويدعوهم إلى نصرته، وكان الرسولان محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن جعفر رضي الله عنهما ولكنهما لم ينجحا في مهمتهما؛ إذ أن أبا موسى الأشعري والي الكوفة من قبل علي، ثبط الناس ونهاهم عن الخروج والقتال في الفتنة، وأسمعهم ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من التحذير من الاشتراك في الفتنة^(٣)، فأرسل علي بعد ذلك هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، ففشل في مهمته؛ لتأثير أبي موسى عليهم^(٤).

٣ - استنفار أمير المؤمنين علي رضي الله عنه لأهل الكوفة من ذي قار^(٥):

تحرك علي رضي الله عنه بجيشه إلى ذي قار فعسكر بها بعد ثمان ليال من خروجه من المدينة، وهو في تسعمائة رجل تقريباً^(٦)، فبعث للكوفة في هذه المرة عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما فأبطؤوا عليه، فأتبعه بعمار بن ياسر والحسن بن علي، وعزل أبا موسى الأشعري واستعمل قرظة بن كعب بدلاً منه^(٧) وكان للقعقاع دور عظيم في إقناع أهل الكوفة، فقد قام فيهم وقال: إني لكم ناصح وعليكم شفيق، وأحب أن ترشدوا، ولأقولن لكم قولاً هو الحق،... والقول الذي هو القول:

(١) ذباب: كقظام: دعاء الضبع للضبع.

(٢) «تاريخ الطبري» (٥/٤٨٢).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٥١٤)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (١٢/١٥)، وإسناده حسن.

(٤) «خلافة علي بن أبي طالب» ص (١٤٤) لعبد الحميد، و«سير أعلام النبلاء» (٣/٤٨٦).

(٥) ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة «معجم البلدان» (٤/٣٩٣).

(٦) «تاريخ الطبري» (٥/٥١٩ - ٥٢١).

(٧) «فتح الباري» (١٣/٥٣)، و«التاريخ الصغير» (١/١٠٩).

إنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتنزع الظالم ، وتعز المظلوم ، وهذا علي يلي ما ولي ، وقد أنصف في الدعاء ، وإنما يدعو إلى الإصلاح ، فانفروا وكونوا في هذا الأمر بم رأي ومسمع^(١) ، وكان للحسن بن علي أثر واضح ، فقد قام خطيباً في الناس وقال : أيها الناس ، أجيئوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى إخوانكم ، فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه ، والله لأن يليه أولو النهى^(٢) أمثل في العاجلة وخير في العاقبة ، فأجيئوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا به وابتليتكم^(٣) ، ولبي كثير من أهل الكوفة وخرجوا مع عمار والحسن إلى علي ما بين الستة إلى سبعة آلاف رجل ، ثم انضم إليهم من أهل البصرة ألفان من عبد القيس ثم توافدت عليه القبائل إلى أن بلغ جيشه عند حدوث المعركة اثني عشر ألف رجل تقريباً^(٤) ، وعندما التقى أهل الكوفة بأمير المؤمنين علي بذي قار قال لهم : يا أهل الكوفة ، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكهم وفضضتم جموعهم ، حتى صارت إليكم موارثهم ، فأعنتم حوزتكم ، واغنتم الناس على عدوهم ، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة ، فإن يخرجوا فذاك ما نريد وإن يلجوا داويناهم بالرفق ، وبايناهم حتى يبدوونا بظلم ، ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا أثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله^(٥) .

٤ - اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية:

وهذا القول ينطبق على حال الصحابة في هذه الفتنة فمع اختلافهم في الرأي ، لم يدخل قلب أحد الضغن على أخيه ، وإليك هذه القصة التي حدثت بالكوفة ، فقد روى البخاري عن أبي وائل قال : دخل أبو موسى الأشعري ، وأبو مسعود وعقبة بن عمرو الأنصاري على عمّار حين بعثه علي[ؑ] إلى أهل الكوفة يستنفرهم ،

(١) «تاريخ الطبري» (٥١٦/٥) .

(٣) «تاريخ الطبري» (٥١٦/٥) .

(٤) «مصنف عبد الرزاق» (٤٥٦/٥-٤٥٧) بسند صحيح إلى الزهري مرسلاً ، و«خلافة علي بن أبي طالب» ص

(١٤٦) ، والإسناد حسن لغيره ، قاله عبد الحميد علي .

(٥) «تاريخ الطبري» (٥١٩/٥) .

(٢) أولو النهى : أصحاب العقول .

فقالوا: ما رأيك أتيت أمراً، أكره عندنا من إسراعك في هذا الأمر منذ أسلمت . فقال عمار: ما رأيت منكم منذ أسلمتم أمراً أكره عندي من إبطائكم في هذا الأمر، وفي رواية: فقال أبو مسعود - وكان موسراً - : يا غلام هات حلتين فأعط إحداهما أبا موسى، والأخرى عمّاراً، وقال: روحا فيه إلى الجمعة^(١) فأنت ترى أبا مسعود وعمّاراً وكلاهما يرى الآخر مخطئاً، ومع ذلك فأنت ترى أبا مسعود يكسو عمّاراً حلة ليشهد بها الجمعة؛ لأنه كان بثياب السفر وهيئة الحرب، فكره أبو مسعود أن يشهد الجمعة في تلك الثياب، وهذا تصرف يدل على غاية الود مع أن كليهما جعل تصرف صاحبه نحو الفتنة عيباً، فعمار يرى إبطاء أبي موسى وأبي مسعود عن تأييد علي عيباً، وأبو موسى وأبو مسعود رأيا إسراع عمار في تأييد أمير المؤمنين علي عيباً، وكلاهما له حجته التي اقتنع بها، فمن أبطأ فذلك لما ظهر لهم من ترك مباشرة القتال في الفتنة، تمسكاً بالأحاديث الواردة في ذلك وما في حمل السلاح على المسلم من الوعيد، وكان عمّار على رأي علي في قتال الباغين والناكثين، والتمسك بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا آلَ بَنِي سَعْدِ﴾ (الحجرات: ٩) وحمل الوعيد الوارد في القتال على من كان متعدياً على صاحبه وكلا الفريقين لم يكن حريصاً على قتل صاحبه، ويتعلق الطرفان بأدنى سبب لمنع الاشتجار قبل أن يقع، ومضي الالتحام إن وقع؛ لأن الطرفين كانا كارهين الاقتتال^(٢).

٥ - تساؤلات على الطريق:

أ - ما سأل به أبو رفاعة بن رافع بن مالك العجلان الأنصاري لما أراد الخروج من الرّبذة، فقال: يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟ فقال: أمّا الذي نريد وننوي فالإصلاح، إن قبلوا منا وأجابونا إليه، قال: فإن لم يجيبونا إليه؟ قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر، قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما

(١) «البخاري»، كتاب الفتن.

(٢) «المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي» (٢/٣٠٤).

تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتعنا منهم، قال: فنعم إذن، فسمع تلك السلسلة من الأسئلة والإجابات فاطمأن إليها وارتاح لها، وقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، وقال:

دَرَأَكُهَا دَرَأَكُهَا قَبْلَ الْفَوْتِ
وَأَنْفَرْنَا وَاسْمُ بِنَا نَحْوَ الصَّوْتِ
لَا وَالَّتِ نَفْسِي إِنْ هَبَّتْ الْمَوْتَ^(١)

ب - أهل الكوفة يسألون علياً رضي الله عنه بما فيهم الأعرور بن بنان المنقري: لما قدم أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين رضي الله عنه في ذي قار، قام إليه أقوام من أهل الكوفة يسألونه عن سبب قدومهم، فقام إليه فيمن قام الأعرور بن بنان المنقري فقال له علي رضي الله عنه: على الإصلاح وإطفاء النائرة^(٢)، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا ويضع حربهم، وقد أجابوني، قال: فإن لم يجيبونا؟ قال تركناهم ما تركونا، قال: فإن لم يتركونا؟ قال: دفعناهم عن أنفسنا، قال: فهل لهم مثل ما عليهم من هذا؟ قال نعم^(٣).

ج - أبو سلامة الدألاني، ممن سأل أمير المؤمنين رضي الله عنه فقال: أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم، إن كانوا أرادوا الله عز وجل بذلك؟ قال: نعم، قال: فترى لك حجة بتأخيرك ذلك؟ قال: نعم، إن الشيء إذا كان لا يدرك؛ فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعاً، قال: فما حالنا وحالهم إن ابتلينا غداً، قال: إنني لأرجو ألا يقتل أحد نقي قلبه لله متاً ومنهم إلا أدخله الله الجنة^(٤).

د - وسأل مالك بن حبيب، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: ما أنت صانع إذا لقيت هؤلاء القوم؟ قال: قد بان لنا ولهم أن الإصلاح الكف عن هذا الأمر، فإن بايعونا فذلك، فإن أبوا وأبينا إلا القتال فصعد لا يلتئم، قال: فإن ابتلينا فما بال قتلنا؟ قال: من أراد الله عز وجل نفعه ذلك وكان نجاه^(٥).

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٥١٠).

(٢) النائرة: العداوة.

(٣) «البداية والنهاية» (٧/٢٥٠)، و«تاريخ الطبري» (٥/٥٢٩).

(٤) «البداية والنهاية» (٧/٢٥٠).

(٥) «تاريخ الطبري» (٥/٥٢)، و«الإصناف فيما وقع في تاريخ العصر الراشدي من خلاف» ص (٦٠٤).

إن هدف أمير المؤمنين رضي الله عنه الإصلاح وإطفاء الفتنة، وإن القتال ليس وارد في تدابيره؛ لأنه إن حصل، فهو داء لا يُرجى شفاؤه، أما من يقتل بين الطرفين فهو مرهون بنيته، سواء قاتل مع أمير المؤمنين أو قاتل ضده، وبذلك يقرر أمير المؤمنين أن المسلمين الذين خرجوا في هذا الأمر، بعد استشهاد عثمان رضي الله عنه يتغون الإصلاح، والقضاء على الفتنة مجتهدون وأجرهم على قدر إخلاص نواياهم ونقاء قلوبهم^(١).

ثامناً: محاولات الصلح:

قبل أن يتحرك علي رضي الله عنه بجيشه نحو البصرة أقام في ذي قار أياماً، وكان غرضه رضي الله عنه القضاء على هذه الفرقة والفتنة بالوسائل السلمية، وتجنّب المسلمين شر القتال والصدام المسلح بكل ما أُوتي من قوة وجهد، وكذلك الحال بالنسبة لطلحة والزبير رضي الله عنهما وقد اشترك في محاولات الصلح عدد من الصحابة وكبار التابعين ممن اعتزلوا الأمر منهم:

١ - عمران بن حصين رضي الله عنه: فقد أرسل في الناس يخذل الفريقين جميعاً، ثم أرسل إلى بني عدي - وهم جمع كبير انضموا للزبير - فجاء رسوله وقال لهم في مسجدهم: أرسلني إليكم عمران بن حصين صاحب رسول الله صلّى الله عليه وآله ينصحكم ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو لأن يكون عبداً حبشياً مجدعاً، يرعى أعزراً في رأس جبل حتى يدركه الموت، أحب إليه من أن يرمي في أحد من الفريقين بسهم أخطأ أو أصاب، فأمسكوا فدي لكم أبي وأمي، فقال القوم: دعنا منك، فإننا والله لا ندع ثقل رسول الله صلّى الله عليه وآله لشيء^(٢) أبداً.

٢ - كعب بن سور: - أحد كبار التابعين - فقد بذل كل جهده، وكلف نفسه فوق طاقتها وقام بدور يعجز عنه كثير من الرجال، فقد استمر في محاولة الصلح

(١) «الإنصاف»، د/حامد ص (٤٠٦).

(٢) «الطبقات» لابن سعد (٨٧/٤)، و«خلافة علي»، لعبد الحميد ص (١٤٨).

إلى أن وقع المحذور، وذهب ضحية جهوده؛ إذ قتل وهو بين الصفين يدعو هؤلاء ويدعو هؤلاء إلى تحكيم كتاب الله وكف السلاح^(١).

٣ - القعقاع بن عمرو التميمي:

أرسل أمير المؤمنين علي القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه في مهمة الصلح إلى طلحة والزبير رضي الله عنهما، وقال: القَ هذين الرجلين، فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظّم عليهما الاختلاف والفرقة. ذهب القعقاع إلى البصرة، فبدأ بعائشة رضي الله عنها، وقال لها: ما أقدمك يأمأه إلى البصرة؟ قالت له: يا بني من أجل الإصلاح بين الناس. فطلب القعقاع منها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا، ويكلمهما في حضرتها وعلى مسمع منها.

* محاورة القعقاع لطلحة والزبير:

ولما حضرا سألهما عن سبب حضورهما، فقالا كما قالت عائشة من أجل الإصلاح بين الناس. فقال لهما: أخبراني ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحنَّ معكم، ولئن أنكرناه لا نصلح، قالوا له: قتلة عثمان رضي الله عنه ولا بد أن يُقتلوا، فإن تركوا بدون قصاص كان هذا تركاً للقرآن، وتعطيلاً لأحكامه، وإن اقتصر منهم كان هذا إحياء للقرآن. قال القعقاع: لقد كان في البصرة ستمائة من قتلة عثمان رضي الله عنه وأنتم قتلتموهم إلا رجلاً واحداً، وهو حرقوص بن زهير السعدي، فلما هرب منكم احتمى بقومه من بني سعد، ولما أردتم أخذه منهم وقتله منعكم قومه من ذلك، وغضب له ستة آلاف رجل اعتزلوكم، ووقفوا أمامكم وقفة رجل واحد، فإن تركتم حرقوصاً ولم تقتلوه، كنتم تاركين لما تقولون وتنادون به وتطالبون علياً به، وإن قاتلتم بني سعد من أجل حرقوص، وغلبوكم وهزموكم وأدبلوا عليكم، فقد وقعتم في المحذور، وقويتموهم، وأصابكم ما تكرهون، وأنتم بمطالبتكم بحرقوص أغضبتم ربيعة ومضر، من هذه البلاد، حيث اجتمعوا

(١) «الطبقات» لابن سعد (٩٢/٧) من طريقين صحيحي الإسناد، و«خلافه علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد ص (١٤٩).

على حربكم وخذلانكم؛ نصره لبني سعد وهذا ما حصل مع علي رضي الله عنه، ووجود قتلة عثمان في جيشه.

* الحل عند القعقاع الثاني والتسكين ثم القصاص:

تأثرت أم المؤمنين ومن معها بمنطق القعقاع رضي الله عنه، وحثته المقبولة فقالت له: فماذا تقول أنت يا قعقاع؟ قال أقول: هذا أمر دواؤه التسكين، ولا بد من الثاني في الاقتصاص من قتلة عثمان، فإذا انتهت الخلافات، واجتمعت كلمة الأمة على أمير المؤمنين تفرغ لقتلة عثمان، وإن أنتم بايعتم علياً^(١) واتفقتم معه، كان هذا علامة خير، وتبشير رحمة، وقدرة على الأخذ بثأر عثمان، وإن أنتم أبيتم ذلك، وأصررتم على المكابرة والقتال كان هذا علامة شر، وذهاباً لهذا الملك، فأثروا العافية ترزقونها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً، ولا تُعرضونا للبلاء، فتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم، وإيم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه، وإني لخائف ألا يتم، حتى يأخذ الله حجته من هذه الأمة التي قلّ متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن ما نزل بها أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا قتل النفر الرجل، ولا قتل القبيلة القبيلة. اقتنعوا بكلام القعقاع المقنع الصادق المخلص، ووافقوا على دعوته إلى الصلح، وقالوا له: قد أحسنت وأصبت المقالة، فارجع، فإن قدم علي، وهو على مثل رأيك، صلح هذا الأمر إن شاء الله، عاد القعقاع إلى علي رضي الله عنه في «ذي قار» وقد نجح في مهمته، وأخبر علياً بما جرى معه، فأعجب علي رضي الله عنه بذلك، وأوشك القوم على الصلح، كرهه من كرهه، ورضيه من رضيه^(٢).

* بشائر الاتفاق بين الفريقين:

لما عاد القعقاع وأخبره بما فعل، أرسل علي رضي الله عنه رسولين^(٣) إلى عائشة والزبير ومن معهم يستوثق فيه مما جاء به القعقاع بن عمرو، فجاء علياً: بأننا على ما فارقنا

(١) «الانقياد التام لسياسة أمير المؤمنين علي في التعامل مع قتلة عثمان».

(٢) «البداية والنهاية» (٧/٧٣٩)، و«تاريخ الطبري» (٥/٥٢١).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٥٢٥).

عليه القعقاع فأقدم، فارتحل عليٌّ رضي الله عنه حتى نزل بحيالهم، فنزلت القبائل إلى قبائلهم، مضر إلى مضر، وربيعة إلى ربيعة، واليمن إلى اليمن، وهم لا يشكون في الصلح فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، ولا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح^(١)، وكان أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه لما نوى الرحيل قد أعلن قراره الخطير: ألا وإني راحل غداً فارتحلوا يقصد إلى البصرة، ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان رضي الله عنه بشيء في شيء من أمور الناس^(٢).

تاسعاً: نشوب القتال:

١ - دور السبئية في نشوب الحرب:

كان في عسكر علي رضي الله عنه من أولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه ومن تتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره^(٣)، وحرص أتباع ابن سبأ على إشعال الفتنة وتأجيج نيرانها حتى يفلتوا من القصاص^(٤). فلما نزل الناس منازلهم واطمأنوا خرج علي وخرج طلحة والزبير، فتوافقوا وتكلموا فيما اختلفوا فيه، فلم يجدوا أمراً هو أمثل من الصلح وترك الحرب حين رأوا أن الأمر أخذ في الانقشاع، فافترقوا على ذلك، ورجع علي إلى عسكره، ورجع طلحة والزبير إلى عسكرهما، وأرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه، ما عدا أولئك الذين حاصروا عثمان رضي الله عنه فبات الناس على نية الصلح والعافية وهم لا يشكون في الصلح، فكان بعضهم بحيال بعض، وبعضهم يخرج إلى بعض، لا يذكرون ولا ينوون إلا الصلح. وبات الذين أشاعوا الفتنة بشر ليلة ما باتوها قط؛ إذ أشرفوا على الهلاك وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها، وقال قائلهم: أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم وذلك حين طلب من الناس أن يرتحلوا في الغد ولا يرتحل معه أحد أعان على عثمان بشيء، ورأي الناس فينا والله واحد، وإن يصطلحوا مع علي فعلى دمائنا^(٥)، وتكلم ابن السوداء -

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٥٣٩). (٢) «تاريخ الطبري» (٥/٥٢٥).

(٣) «تاريخ الطبري» (٥/٥٢٦). (٤) المصدر نفسه (٥/٥٢٧)، و«تحقيق مواقف الصحابة» (٢/١٢٠).

(٥) «تاريخ الطبري» (٥/٥٢٦).

عبدالله بن سبأ- وهو المشير فيهم فقال: يا قوم إن عزمكم في خلطة الناس فصانعوهم، وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدأً من أن يمتنع، ويشغل الله علياً وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون^(١) فاجتمعوا على هذا الرأي بإنشأ الحرب في السر، فغدوا في الغلس وعليهم ظلمة، وما يشعر بهم جيرانه، فخرج مضريهم إلى مضريهم وربيعيهم إلى ربيعهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السيوف، فثار أهل البصرة، وثار كل قوم في وجوه الذين باغثوهم، وخرج الزبير وطلحة في وجوه الناس من مصر، فبعثا إلى الميمنة، وهم ربيعة يرأسها عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، والميسرة، يرأسها عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وثبتا في القلب، فقالا: ما هذا؟ قالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلاً، فقالا: ما علمنا أن علياً غير ملته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمه، وإنه لن يطاوعنا، ثم رجعا بأهل البصرة، وقصف أهل البصرة، أولئك حتى ردوهم إلى عسكرهم^(٢)، فسمع علي وأهل الكوفة الصوت، وقد وضع السبئية رجلاً قريباً من علي ليخبره بما يريدون، فلما قال: ما هذا؟ قال ذلك الرجل: ما فجعنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم، وقال علي لصاحب ميمنته: ائت الميمنة، وقال لصاحب ميسرته: ائت الميسرة، والسبئية لا تفتر إنشأبا^(٣).

وعلى الرغم من تلك البداية للمعركة، إلا أن الطرفين مالبتا يملكان الروية حتى تتضح الحقيقة، فعلي ومن معه يتفقون على ألا يبدؤوا بالقتال حتى يبدؤوا طلباً للحجة واستحقاقاً على الآخرين بها، وهم مع ذلك لا يقتلون مدبراً، ولا يجهزون على جريح، ولكن السبئية لا تفتر إنشأبا^(٤)، وفي الجانب الآخر ينادي طلحة وهو على دابته وقد غشيه الناس فيقول: يا أيها الناس ألا تنصتون؟ فجعلوا يركبونه ولا ينصتونه، فما زاد أن قال: أف أف فراش نار وذبان طمع^(٥)، وهل يكون فراش النار وذبان الطمع غير أولئك السبئية؟ بل إن محاولات الصلح لتجري حتى آخر

(٢-٤) «تاريخ الطبري» (٥٤١/٥).

(١) «تاريخ الطبري» (٥٢٧/٥).

(٥) «تاريخ خليفة بن خياط» ص (١٨٢).

لحظة من لحظات المعركة ، ومن خلال هذا العرض يتبين أثر ابن سبأ وأعوانه «السبئية» في المعركة ويتضح بما لا يدع مجالاً للشك حرص الصحابة رضي الله عنهم على الإصلاح وجمع الكلمة وهذا هو الحق الذي تثبته النصوص وتطمئن إليه النفوس^(١) ، وقبل الحديث عن جولات المعركة ، نشير إلى أن أثر السبئية في معركة الجمل ، مما يكاد يجمع عليه العلماء سواء أسموهم بالمفسدين ، أو بأوباش الطائفتين ، أو أسماهم البعض بقتلة عثمان ، أو نبزوهم بالسفهاء ، أو بالغوغاء ، أو أطلقوا عليهم صراحة السبئية^(٢) وإليك بعض النصوص التي تؤكد ذلك :

أ - جاء في أخبار البصرة لعمر بن شبه أنه الذي نسب إليهم قتل عثمان ، فخشوا أن يصطلح الفريقان على قتلهم ، فأنشبو الحرب بينهم حتى كان ما كان^(٣) .

ب - قال الإمام الطحاوي : فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة رضي الله عنهم وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين^(٤) .

ج - وقال الباقلاني : . . . وتم الصلح والتفرق على الرضا ، فخاف قتلة عثمان من التمكن منهم ، والإحاطة بهم ، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا ، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فرقتين ، ويبدؤوا بالحرب سحرة في المعسكرين ويختلطوا ، ويصيح الفريق الذي في عسكر علي : غدر طلحة والزبير ، ويصيح الفريق الذي في عسكر طلحة والزبير : غدر علي ، فتم لهم ذلك على ما دبروه ونشب الحرب فكان كل فريق منهم دافعاً لمكروه عن نفسه ومانعاً من الإشاطة بدمه ، وهذا صواب من الفريقين وطاعة لله تعالى إذ وقع ، والامتناع منهم على هذا السبيل ، فهذا هو الصحيح المشهور ، وإليه نميل ، وبه نقول^(٥) .

د - ونقل القاضي عبد الجبار : أقوال العلماء ، باتفاق رأي علي وطلحة

(١) «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» ص (١٩٢ ، ١٩٣) .

(٢) «عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام» ص (١٩٤) .

(٣) «فتح الباري» (١٣/٥٦) .

(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» ٥٤٦ .

(٥) «التمهيد» ص (٢٣٣) .

والزبير وعائشة رضي الله عنهم على الصلح، وترك الحرب، واستقبال النظر في الأمر، وأن من كان في المعسكر من أعداء عثمان كرهوا ذلك، وخافوا أن تتفرغ الجماعة لهم، فدبروا في إلقاء ما هو معروف، وتم ذلك^(١).

هـ - ويقول القاضي أبو بكر بن العربي: وقدم عليّ على البصرة، وتدانوا ليتراءوا، فلم يتركهم أصحاب الأهواء، وبادروا بإراقة الدماء، واشتجروا الحرب، وكثرت الغوغاء على البوغاء، كل ذلك حتى لا يقع برهان، ولا يقف الحال على بيان، ويخفى قتلة عثمان، وإنّ واحداً في الجيش يفسد تدبيره، فكيف بألف^(٢).

و - ويقول ابن حزم: وبرهان ذلك أنهم اجتمعوا ولم يقتتلوا ولا تحاربوا، فلما كان الليل عرف قتلة عثمان أن الإراغة والتدبير عليهم، فبيتوا عسكر طلحة والزبير، وبذلوا السيف فيهم، فدافع القوم عن أنفسهم حتى خالطوا عسكر عليّ، فدافع أهله عن أنفسهم، كل طائفة تظن ولا شك أن الأخرى بدأتها القتال، واختلط الأمر اختلاطاً، لم يقدر أحد على أكثر من الدفاع عن نفسه، والفسقة من قتلة عثمان لا يفترون من شنّ الحرب إضرارها، فكلتا الطائفتين مصيبة في عرضها ومقصدها، مدافعة عن نفسها، ورجع الزبير وترك الحرب بحالها، وأتى طلحة سهم غارب، وهو قائم لا يدري حقيقة ذلك الاختلاط، فصادف جرحاً في ساقه كان أصابه يوم أحد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانصرف ومات من وقته رضي الله عنه وقتل الزبير بوادي السباع - بعد انسحابه من المعركة - على أقل من يوم من البصرة، فهكذا كان الأمر^(٣) ويقول الذهبي.. كانت وقعة الجمل قد أثارها سفهاء الفريقين^(٤). ويقول: إن الفريقين اصطلحا وليس لعلي ولا لطلحة رضي الله عنهما قصد القتال، بل ليتكلموا في اجتماع الكلمة، فترامى أوباش الطائفتين بالنبل وشبت نار الحرب، وثارَت النفوس^(٥).

(١) «تثبيت دلائل النبوة» للهمداني ص (٢٩٩).

(٢) «الفصل في الملل والنحل» (٤/١٥٧، ١٥٨).

(٣) «العبر» (٣٧/١)، و«عبد الله بن سبأ» للعودة ص (١٩٥).

(٤) «تاريخ الإسلام» (١٥/١)، و«عبد الله بن سبأ» للعودة ص (١٩٥).

وفي «تاريخ الإسلام»: والتحم القتال من «الغوغاء» وخرج الأمر عن علي وطلحة والزبير رضي الله عنهم (١). يقول الدكتور سليمان بن حمد العودة: ولنا بعد ذلك أن نقول: وما المانع أن تكون رواية الطبري المصّرحه بدور «السبئية» في الجمل، تفسّر هذا التعميم، وتحدد تلك المسميات التي وردت في نقولات هؤلاء العلماء؟ وحتى لو لم تكن هذه الطوائف الغوغائية ذات صلة مباشرة بالسبئية ولم تكن لها أهداف كأهدافهم، فأى مانع يمنع القول أن هذه شكلت أرضية استغلها ابن سبأ وأعوانه «السبئية»؟، كما هي العادة في بعض الحركات الغوغائية التي تستغل من قبل المفسدين (٢).

ولا ننسى أن للفتنة وأجوائها دور في الإسهام بتلك الأحداث، فمما لا شك فيه أن الناس في الفتن قد تحجب عنهم أشياء يراها غيرهم رأي العين، وقد يتأولون فيها صانعين أشياء يرى من سواهم حقيقتها ناصعة لا تحتاج إلى عناء، وكفى بسواد الفتنة حاجباً عن التروي والإبصار (٣)، ولا نبعد كثيراً فهذا الأحنف بن قيس - وهو أحد الذين عايشوا أحداث الجمل - يخرج وهو يريد نصره علي بن أبي طالب، حتى لقيه أبو بكر (٤)، فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: أريد نصر ابن عم رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال: يا أحنف ارجع فإني سمعته صلّى الله عليه وآله يقول: «إذا تَوَاجَهَ المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار» فقلت أو قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان قد أراد قتل صاحبه» (٥). إن القتال مع عليّ كان حقاً وصواباً ومن قتل معه فهو شهيد وله أجران، ولكن أبا بكر رضي الله عنه حمل حديثاً ورد في غير الحالة التي قاتل فيها علي، على حالة قتال الباغين وهو فهم

(١) «تاريخ الإسلام» (١٥/١)، و«عبد الله بن سبأ» للعودة ص (١٩٥).

(٢) «عبد الله بن سبأ» للعودة ص (١٩٥). (٣) المصدر نفسه ص (١٩٦).

(٤) هو نفع بن الحارث بن كلدة الثقفي، كما قال الإمام أحمد وعزى هذا القول إلى الأكثرين، وقيل: إنه نفع ابن مسروح وبه جزم ابن سعد، وقيل: اسمه مسروح وبه جزم ابن اسحاق، وعلى كل فهو مشهور بكنيته أبي بكر، من فضلاء الصحابة، ومن أهل الطائف ومن اعتزل الفتنة يوم الجمل وأيام صفين، قيل في سبب كنيته:

إنه تدلى من حصن الطائف ببكرة فاشتهر بها، توفي بالبصرة ٥٢ هـ.

(٥) «مسلم» (٢٢١٣/٤)، كتاب الفتن.

منه رضي الله عنه ولكنه فهم في غير محله. ومن هذه الرواية ندرك أن عقبات متعددة واجهت علياً رضي الله عنه في معركته مع الآخرين منها: أمثال هذه الفتاوى التي هي أثر عن ورع أكثر منها أثر عن فتوى تصيب محلها^(١). هذا وقد امتنع الأحنف من الدخول مع علي رضي الله عنه، فلم يشهد الجمل مع أحد من الفريقين^(٢)، ونقترب أكثر فإذا الزبير رضي الله عنه - وهو طرف أساسي في المعركة - يكشف لنا عن حقيقة الأمر: إن هذه لهي الفتنة التي كنا نحدث عنها، فقال له مولاه: أتسميها فتنة وتقاتل فيها؟ قال: ويحك إنا نبصر ولا نبصر، ما كان أمر قط إلا علمت موضع قدمي فيه، غير هذا الأمر، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر^(٣). ويشير إلى ذلك طلحة فيقول: بينما نحن يد واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضاً^(٤)، وفي الطرف الآخر يؤكد أصحاب علي رضي الله عنه على الفتنة فيقول عمار رضي الله عنه في الكوفة عن خروج عائشة: إنها زوجة نبيكم في الدنيا، والآخرة ولكنها مما ابتليتم^(٥).

٢ - الجولة الأولى في معركة الجمل:

زاد السبئيون في الجيشين من جهودهم في إنشاح القتال، ومهاجمة الفريق الآخر، وإغراء كل فريق بخصمه، وتهيجه على قتاله ونشبت المعركة عنيفة قاسية حامية شرسة، وهي معركة الجمل، وسميت بذلك لأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها كانت في المعركة في الجولة الثانية وسط جيش البصرة، تركب الجمل الذي قدمه لها يعلى بن أمية في مكة، حيث اشتراه من اليمن، وخرجت على هذا الجمل من مكة إلى البصرة، ثم ركبت أثناء المعركة، وكانت المعركة يوم الجمعة في السادس عشر من جمادى الثانية، سنة ست وثلاثين، في منطقة «الزابوقة» قرب البصرة، حزن علي لما جرى، ونادى مناديه: كُفوا عن القتال أيها الناس، ولم يسمع النداء أحد، فالكل كان مشغولاً بقتال خصمه^(٦) كانت معركة

(١) «الأساس في السنة وفقهها»، و«السيرة النبوية» (٤/١٧١١).

(٢) «صحيح مسلم على شرح النووي» (١٨/١٠). (٣-٤) «تاريخ الطبري» (٥/٥٠٦).

(٥) «تاريخ الطبري» (٥/٥١٦). (٦) «تاريخ الطبري» (٥/٥٤١).

الجميل على جولتين، الجولة الأولى: كان قائدا جيش البصرة فيها طلحة والزبير، واستمرت من الفجر حتى قبيل الظهر^(١)، ونادى علي في جيشه، كما نادى طلحة والزبير في جيشهما: لا تقتلوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تلحقوا خارجاً من المعركة تاركاً لها^(٢)، وقد كان الزبير رضي الله عنه وصى ابنه عبد الله بقضاء دينه فقال: إنه لا يقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وإني لا أراني إلا سأقتل مظلوماً، وإن أكبر همي ديني^(٣)، وأثناء ذلك جاء رجل إلى الزبير، وعرض عليه أن يقتل علياً، وذلك بأن يندس مع جيشه ثم يفتك به، فأنكر عليه بشدة، وقال: لا؛ لا يفتك مؤمن، أو إن الإيمان قيد الفتك^(٤)، فالزبير رضي الله عنه ليس له غرض في قتل علي أو أي شخص آخر بريء من دم عثمان، وقد دعى أمير المؤمنين علي الزبير، فكلمه بالطف العبارة، وأجمل الحديث وقيل ذكره بحديث سمعه من رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقول له - أي الزبير - «لتقاتلنه وأنت له ظالم»^(٥)، وهذا الحديث ليس له إسناد صحيح^(٦)، وبعض الروايات ترجع السبب في انصراف الزبير رضي الله عنه قبيل المعركة لما علم بوجود عمار بن ياسر في الصف الآخر وهو وإن لم يرو عن رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «تقتل عماراً الفئة الباغية»^(٧)، فلعله سمعه من بعض إخوانه من الصحابة لشهرته^(٨)، وبعضها ترجع السبب في انصرافه إلى شكه في صحة موقفه^(٩) من هذه الفتنة، كما يسميها، وفي رواية ترجع السبب في انصرافه إلى ابن عباس رضي الله عنهما ذكره بالقرابة القوية من علي إذ قال له: أين صفية بنت عبد المطلب حيث تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب ابن

(١) «تاريخ الطبري» (٥/٥٤١، ٥٤٣)، و«الخلفاء الراشدون» للخلافي ص (٢٤٥).

(٢) المصدر نفسه (٥/٥٤١).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٥/٢٧٩)، و«الطبقات» (٣/١٠٨) صحيح الإسناد.

(٤) «مسند أحمد» (٣/١٩) قال محققه أحمد شاکر: إسناده صحيح.

(٥) «استشهاد عثمان ووقعة الجمل» ص (٢٠١) خرّج طرق الحديث وحكم عليها بالضعف.

(٦) «المدينة النبوية فجر الإسلام» (٢/٣٢٤)، و«المطالب العلية» رقم (٤٤٦٨).

(٧) «مسند أحمد» (١/٤٧-٤٩)، (١١/٣٨) إسناده صحيح، تحقيق: أحمد شاکر.

(٨) «خلافة علي بن أبي طالب» ص (١٥٤).

(٩) المصدر نفسه ص (١٥٤)، و«تاريخ الطبري» (٥/٥٠٦).

عبدالمطلب؟^(١)، فخرج الزبير من المعركة، فلقى ابن جرموز فقتله^(٢) كما سيأتي تفصيله بإذن الله، فالزبير رضي الله عنه كان على وعي لهدفه - وهو الإصلاح - ولكنه لما رأى حلول السلاح مكان الإصلاح رجع، ولم يقاتل، وقول ابن عباس: تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب؟ فيه حذف مفهومه: أم جئت للإصلاح وجمع الشمل؟^(٣)، وعلى إثر هذا الحديث انصرف الزبير وترك الساحة، وربما كانت عوامل متعددة ومتداخلة ساهمت في خروج الزبير من ساحة المعركة، وأما طلحة بن عبيد الله القائد الثاني لجيش البصرة، فقد أصيب في بداية المعركة؛ إذ جاءه سهم غربٌ لا يُعرفُ من رماه، فأصابه إصابة مباشرة، ونزف دمه بغزارة فقللوا له: يا أبا محمد، إنك لجريح، فاذهب وادخل البيوت لتعالج فيها، فقال طلحة لغلامه: احملني، وابحث لي عن مكان مناسب، فأدخل البصرة، ووُضع في دار فيها ليعالج، ولكن جرحه ما زال ينزف حتى توفي في البيت، ثم دُفن في البصرة، رضي الله عنه^(٤)، وأما الرواية التي تشير إلى تحريض الزبير وطلحة على القتال، ثم إن الزبير لما رأى الهزيمة على أهل البصرة ترك المعركة ومضى، فهذه الرواية لا تصح^(٥)، وهذا الخبر يعارضه ما ثبت من عدالة الصحابة رضوان الله عليهم، كما أنه يخالف الروايات الصحيحة التي تنص على أن أصحاب الجمل ما خرجوا إلا للإصلاح، فكيف ينسجم هذا الفعل من الزبير رضي الله عنه مع الهدف الذي خرج من مكة إلى البصرة من أجله؟ ألا وهو الإصلاح بين الناس، وبالفعل فإن موقف الزبير رضي الله عنه كان السعي في الإصلاح حتى آخر لحظة، وهذا ما أخرجه الحاكم من طريق أبي حرب بن أبي الأسود الديلي، وفيه أن الزبير رضي الله عنه سعى في الصلح بين الناس، ولكن قامت المعركة واختلف أمر الناس ومضى الزبير وترك القتال^(٦)، وكذلك طلحة، فقد جاء من

(١) «الطبقات» (١١٠/٣) إسناده صحيح، و«خلافة علي» ص (١٥٥).

(٢) «الطبقات» (١٠/٣)، و«تاريخ خليفة» ص (١٨٦).

(٣) «المدنية النبوية فجر الإسلام» (٢٤٨/٢).

(٤) «البداية والنهاية» (٢٥٣/٧).

(٥) «تاريخ الطبري» (٥٤٠/٥).

(٦) «المستدرک» (٣٦٦/٣)، و«استشهاد عثمان» ص (٢٠٠).

أجل الإصلاح وليس من أجل إراقة الدماء، وأما عن مقتل طلحة رضي الله عنه فقد كان عند بدء القتال كما صرح بذلك الأحنف بن قيس^(١).

ويخرج الزبير من ميدان المعركة، ويموت طلحة رضي الله عنه مع سقوط القتلى والجرحى من الجانبين وتكون قد انتهت الجولة الأولى من معركة الجمل، وكانت الغلبة فيها لجيش علي وكان علي رضي الله عنه يراقب سير المعركة ويرى القتلى والجرحى في الجانبين، فيتألم ويحزن وأقبل علي رضي الله عنه على ابنه الحسن رضي الله عنه، وضمه إلى صدره، وصار يبكي ويقول له: يا بني: ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً. فقال الحسن: يا أبت لقد كنت نهيتك عن هذا، فقال علي: ما كنت أظن أن الأمر سيصل إلى هذا الحد، وما طعم الحياة بعد هذا؟ وأي خير يرجى بعد هذا؟^(٢).

٣ - الجولة الثانية:

وصل الخبر إلى أم المؤمنين بما حدث من القتال، فخرجت على جملها تحيط بها القبائل الأردية، ومعها كعب الذي دفعت إليه مصحفاً يدعو الناس إلى وقف الحرب، تقدمت أم المؤمنين وكلها أمل أن يسمع الناس كلامها لمكانتها في قلوب الناس؛ فتحجز بينهم وتطفئ هذه الفتنة التي بدأت تشتعل^(٣)، وحمل كعب بن سور المصحف، وتقدم أمام جيش البصرة، ونادى جيش علي رضي الله عنه قائلاً: يا قوم: أنا كعب بن سور، قاضي البصرة، أدعوكم إلى كتاب الله، والعمل بما فيه، والصلح على أساسه، وخشي السبئيون في مقدمة جيش علي أن تنجح محاولة كعب فرشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد، فلقي وجه الله، ومات والمصحف في يده^(٤)، وأصاب سها السبئيين ونبالهم جمل عائشة وهودجها، فصارت تُنادي، وتقول: يا بني: الله، الله، اذكروا الله، ويوم الحساب، وكفوا عن القتال، والسبئيون لا يستجيبون لها، وهم مستمرّون في ضرب جيش البصرة

(١) «تاريخ خليفة» ص (١٨٥)، و«استشهاد عثمان» ص (٢٠٢).

(٢) «البدية والنهاية» (٧/٥٢١).

(٣) «مصنف عبد الرزاق» (٥/٤٥٦)، بسند صحيح إلى الزهري.

(٤) «البدية والنهاية» (٧/٢٥٣).

وكان علي رضي الله عنه من الخلف يأمر بالكف عن القتال، وعدم الهجوم على البصريين، لكن السبئيين في مقدمة جيشه لا يستجيبون له، ويأبون إلا إقداماً وهجوماً وقتالاً، ولما رأت عائشة عدم استجابتهم لدعوتها، ومقتل كعب بن سور أمامها، قالت: أيها الناس: العنوا قتلة عثمان وأشياعهم، وصارت عائشة تدعو على قتلة عثمان، وتلعنهم وضجّ أهل البصرة بالدعاء على قتلة عثمان، وأشياعهم، ولعنهم، وسمع عليّ الدعاء عالياً في جيش البصرة فقال: ما هذا؟ قالوا: عائشة تدعو على قتلة عثمان، والناس يدعون معها. قال علي: ادعوا معي على قتلة عثمان، وأشياعهم والعنوهم وضجّ جيش علي يلعن قتلة عثمان والدعاء عليهم^(١)، وقال علي: اللهم العن قتلة عثمان في السهل والجبل^(٢) واشتدت الحرب واشتعلت وتشابك القوم وتشاجروا بالرماح، وبعد تقصف الرماح، استلوا السيوف فتضاربوا بها حتى تقصفت^(٣)، ودنى الناس بعضهم من بعض^(٤)، ووجه السبئيين جهودهم لعقر الجمل وقتل عائشة أم المؤمنين، فسارع جيش البصرة لحماية عائشة وجملها، وقاتلوا أمام الجمل، وكان لا يأخذ أحد بخطام الجمل إلا قتل، حيث كانت المعركة أمام الجمل في غاية الشدة والقوة والعنف والسخونة، حتى أصبح الهودج كأنه قنفذ مما رمي فيه من النبل^(٥)، وقتل حول الجمل كثير من المسلمين من الأزدي وبنو ضبة، وأبناء وفتيان قريش بعد أن أظهروا شجاعة منقطعة النظير^(٦)، وقد أصيبت عائشة بحيرة شديدة وخرج فهي لا تريد القتال، ولكنه وقع رغماً عنها وأصبحت في وسط المعركة، وصارت تنادي بالكف، فلا مجيب، وكان كل من أخذ بخطام الجمل قتل، فجاء محمد بن طلحة (السجاد) وأخذ بخطامه وقال لأمه أم المؤمنين: يا أمه ما تأمرين، فقالت: كن كخيرى ابني آدم - أي كف يدك - فأغمد سيفه

(١) «البداية والنهاية» (٢٥٣/٧).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦٨/١٥) بسند صحيح، و«سنن سعيد بن منصور» (٢٣٦/٢) بسند صحيح.

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٥٨/١٥) رجاله رجال الصحيح.

(٤) «الطبقات» (٩٢/٥) بسند حسن.

(٥) «البداية والنهاية» (٢٥٣/٧)، و«تاريخ خليفة» ص (١٩٠) بسند حسن.

(٦) «البداية والنهاية» (٢٥٤/٧).

بعد أن سلّه فقتل رحمه الله^(١) كما قتل عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد، الذي حاول أن يقتل الأشتر حتى لو قتل معه، وذلك أنه صارعه فسقطا على الأرض جميعاً، فقال ابن عتاب لمن حوله: اقتلونني^(٢) ومالكاً لحنقه عليه؛ لما كان له من دور بارز في تحريض الناس على عثمان رضي الله عنه، ولكن الأشتر لم يكن معروفاً بمالك، ولم يك قد حان أجله ولو قال الأشتر لا بتدرته سيوف كثيرة^(٣) وأما عبدالله ابن الزبير، فقد قاتل قتالاً منقطع النظير، ورمى بنفسه بين السيوف، فقد استخرج من بين القتلى وبه بضع وأربعون ضربة وطعنة، كان أشدها وآخرها ضربة الأشتر؛ إذ من حنقه على ابن الزبير لم يرض أن يضربه وهو جالس على فرسه، بل وقف في الركابين فضربه على رأسه ظاناً أنه قتله^(٤)، واستحر القتل أيضاً في بني عدي وبني ضبة والأزد وقد أبدى بنو ضبة حماسة وشجاعة وفداء لأم المؤمنين رضي الله عنها، وقد عبر أحد رؤسائهم وهو عمر بن يثربي الضبي بجزه:

نَحْنُ بَنِي ضَبَّةَ أَصْحَابُ الْجَمَلِ

نَنَازِلُ الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ

الْمَوْتُ عِنْدَنَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

نَنْعِي ابْنَ عَفَّانَ بِأَطْرَافِ الْأَسَلِ^(٥)

أدرك أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، بما أوتي من حنكة وقوة، ومهارة عسكرية فذة أن في بقاء الجمل استمراراً للحرب، وهلاكاً للناس، وأن أصحاب الجمل لن ينهزموا أو يكفوا عن الحرب ما بقيت أم المؤمنين رضي الله عنها في الميدان، كما أن في بقائها خطر على حياتها فالهودج الذي هي فيه أصبح كالقنفذ من السهام^(٦)،

(١) «نسب قریش» ص (٢٨١)، و«التاريخ الصغير» للبخاري (١/ ١١٠) بسند صحيح.

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٥/ ٢٢٨)، و«مرويات أبي مخنف» ص (٢٦٨)، وإسناده صحيح.

(٣) «خلافة علي بن أبي طالب»، لعبد الحميد ص (١٥٩).

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٥/ ٢٢٨) بسند صححه ابن حجر في «الفتح» (١٣/ ٥٧-٥٨).

(٥) «تاريخ خليفة» ص (١٩٠) بسند حسن، و«خلافة علي»، لعبد الحميد ص (١٥٩).

(٦) «أنساب الأشراف» للبلاذري (٢/ ٤٣) بسند متصل.

فأمر علي نفرًا من جنده منهم محمد ابن أبي بكر - أخو أم المؤمنين - وعبد الله ابن بديل: أن يعرّقا الجمل ويخرجا عائشة رضي الله عنها من هودجها إلى الساحة - أي يضربا قوائم الجمل بالسيف - فعقروا الجمل^(١)، واحتمل أخوها محمد وعبد الله ابن بديل الهودج حتى وضعاه أمام علي، فأمر به علي، فأدخل في منزل عبدالله ابن بديل^(٢)، وصدق حدس علي رضي الله عنه العسكري، فما إن زال السبب أو الدافع الذي دفع البصريين إلى الإقبال على الموت بشغف، وأخرجت أم المؤمنين من الميدان، حتى ولوا الأديار منهزمين. ولو لم يتخذ هذا الإجراء لاستمرت الحرب إلى أن يفنى جيش البصرة أصحاب الجمل، أو ينهزم جيش علي، وعندما بدأت الهزيمة، نادى علي أو مناديه في جيشه ألاّ يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، ولا يغنموا إلا ما حمل إلى الميدان أو المعسكر من عتاد أو سلاح فقط، وليس لهم ما وراء ذلك من شيء، ونهاهم أن يدخلوا الدور، ليس هذا فحسب، بل قال لمن حاربه من أهل البصرة: من وجد له شيء من متاع عند أحد من أصحابه، فله أن يسترده فجاء رجل إلى جماعة من جيش علي وهم يطبخون لحمًا في قدر له، فأخذ منهم القدر وكفأ ما فيها حنقًا عليهم^(٣).

٤ - عدد القتلى:

أسفرت هذه الحرب الضروس عن عدد من القتلى اختلفت في تقديره الروايات، وذكر المسعودي أن هذا الاختلاف في تقدير عدد القتلى مرجعه إلى أهواء الرواة^(٤).

فيذكر قتادة أن قتلى يوم الجمل عشرون ألفاً^(٥)، ويظهر أن فيها مبالغة كبيرة؛ لأن عدد الجيشين حول هذا العدد أو أقل، أما أبو مخنف الرافضي الشيعي، فقد بالغ كثيراً بحكم ميوله، وقد أساء من حيث يظن أنه أحسن إذ ذكر أن العشرين

(١) «أعلام الحديث» للخطابي (١٦١١/٣).

(٢-٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٨٦-٢٨٧/١٥) بسند جيد، و«الفتح» (٥٧/١٣).

(٤، ٥) «مروج الذهب» (٣٦٧/٢).

ألفاً هم من أهل البصرة فقط^(١)، وأما سيف فيذكر أنهم عشرة آلاف نصفهم من أصحاب علي رضي الله عنه ونصفهم من أصحاب عائشة رضي الله عنها، وفي رواية أخرى قال: وقيل: خمسة عشر ألفاً، خمسة آلاف من أهل الكوفة، وعشرة آلاف من أهل البصرة، نصفهم قتل في المعركة الأولى ونصفهم في الجولة الثانية^(٢)، والروايتان ضعيفتان للانقطاع وغيره، وفيها مبالغة أيضاً، ويذكر عمر ابن شبة بسنده أن القتلى يزيدون على ستة آلاف، إلا أن الرواية ضعيفة سنداً^(٣)، أما اليعقوبي، فقد جاوز هؤلاء جميعاً، إذ وضع عدد القتلى نيفاً وثلاثين ألفاً^(٤)، وهذه الأرقام مبالغ فيها جداً، وكان من أسباب المبالغة.

أ - رغبة أعداء الصحابة من السبئية وأتباعهم، في توسيع دائرة الخلاف بين أبناء الأمة التي يجمعها حب الصحابة والافتداء بهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ب - مساهمة بعض الشعراء والجهلة من أبناء القبائل، في تضخيم ما جرى وتكبيره، ليتناسب مع ما يصنعونه من أشعار ينسبوننها إلى بعض زعمائهم وفرسانهم، فضلاً عن وجود قصاص السمر، ورواة الأخبار الذين يجلبون اهتمام الناس بهم، من خلال الأحداث المثيرة التي يتحدثون عنها.

ج - إيجاد الثقة في نفوس أتباع الغوغاء والسبئية لإثبات نجاح خططهم وتدابيرهم^(٥).

أما عن العدد الحقيقي لقتلى معركة الجمل فقد كان ضئيلاً جداً للأسباب التالية:

* قصر مدة القتال، حيث أخرج ابن أبي شيبه، بإسناد صحيح^(٦): إن القتال نشب بعد الظهر فما غربت الشمس وحول الجمل أحد ممن كان يذب عنه.

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» (١٨٦) بسند مرسل.

(٢) «تاريخ الطبري» (٥٤٢/٥ - ٥٥٥).

(٣) «تاريخ خليفة بن خياط» ص (١٨٦) إسناده منقطع وهو حسن إلى قتادة.

(٤) «مصنف ابن أبي شيبه» (٥٤٦/٧)، و«فتح الباري» (٦٢/١٣).

(٥) «الإنصاف» ص (٤٥٥).

(٦) «مصنف ابن أبي شيبه» (٥٤٦/٧)، و«فتح الباري» (٦٢/١٣).

- * الطبيعة الدفاعية للقتال حيث كان كل فريق يدافع عن نفسه ليس إلا .
- * تخرج كل فريق من القتال لما يعلمون من عظم حرمة دم المسلم .
- * قياساً بعدد شهداء المسلمين في معركة اليرموك «ثلاثة آلاف شهيد» ومعركة القادسية ثمانية آلاف وخمسمائة شهيد، وهي التي استمرت عدة أيام، فإن العدد الحقيقي لقتلى معركة الجمل يعد ضئيلاً جداً، هذا مع الأخذ بالاعتبار شراسة تلك المعارك وحِدَّتْها لكونها من المعارك الفاصلة في تاريخ الأمم .
- * أورد خليفة بن خياط بياناً بأسماء من حفظ من قتلى يوم الجمل، فكانوا قريباً من المائة،^(١) فلو فرضنا أن عددهم كان مائتين وليس مائة، فإن هذا يعني أن قتلى معركة الجمل لا يتجاوز المائتين . وهذا هو الرقم الذي ترجح لدى الدكتور خالد بن محمد الغيث في رسالته استشهد عثمان ووقعة الجمل، في مرويّات سيف بن عمر في تاريخ الطبري دراسة نقدية^(٢) .

٥ - هل يصح قتل مروان بن الحكم لطلحة بن عبيد الله؟

أشارت كثير من الروايات إلى أن قاتل طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه مروان بن الحكم^(٣) ولكن بعد دراسة تلك الروايات اتضح براءة مروان بن الحكم من تلك التهمة وذلك للأسباب التالية:

أ- قال ابن كثير: ويقال: إن الذي رماه بهذا السهم مروان بن الحكم وقد قيل: إن الذي رماه بهذا السهم غيره، وهذا عندي أقرب وإن كان الأول مشهوراً، والله أعلم^(٤) .

ب- قال ابن العربي عن من قال: إن مروان قتل طلحة بن عبيد الله: ومن يعلم هذا إلا علام الغيوب، ولم ينقله ثبت^(٥) .

(١) «تاريخ خليفة» ص (١٨٧، ١٩٠) .

(٢) «استشهد عثمان ووقعة الجمل» ص (٢١٥) .

(٣) «الطبقات» (٣/٢٢٣)، و«تاريخ المدينة» (٤/١١٧٠)، و«تاريخ خليفة» ص (١٨٥) .

(٤) «البداية والنهاية» (٧/٢٤٨) .

(٥) «العواصم من القواصم» ص (١٥٧ إلى ١٦٠) .

ج- قال محب الدين الخطيب: وهذا الخبر عن طلحة ومروان لقيط لا يُعرف أبوه ولا صاحبه^(١).

د - بطلان السبب الذي قيل: إن مروان قتل طلحة رضي الله عنه من أجله، وهو اتهام مروان لطلحة بأنه أعان على قتل عثمان رضي الله عنه، وهذا السبب المزعوم غير صحيح حيث إنه لم يثبت من طريق صحيح أن أحداً من الصحابة قد أعان على قتل عثمان رضي الله عنه.

هـ - كون مروان وطلحة رضي الله عنه من صف واحد يوم الجمل وهو صف المنادين بالإصلاح بين الناس^(٢).

و- إن معاوية رضي الله عنه قد ولّى مروان على المدينة ومكة، فلو صلح ما بدر من مروان لما ولاه معاوية رضي الله عنه على رقاب المسلمين وفي أقدس البقاع عند الله.

ز- وجود رواية لمروان بن الحكم في صحيح البخاري^(٣)، مع ما عرف عن البخاري رحمه الله من الدقة وشدة التحري في أمر من تقبل روايته، فلو صح قيام مروان بقتل طلحة رضي الله عنه لكان هذا سبباً كافياً لرد روايته والقدح في عدالته^(٤).

٦- نداء أمير المؤمنين بعد الحرب:

ما إن بدأت الحرب تضع أوزارها، حتى نادى منادي علي: ألاّ يجهزوا على جريح، ولا يتبعوا مدبراً، ولا يدخلون داراً ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن وليس لجيشه من غنيمته إلا ما حمل إلى ميدان المعركة من سلاح وكراع، وليس لهم ما وراء ذلك من شيء، ونادى منادي أمير المؤمنين فيمن حاربه من أهل البصرة: من وجد شيئاً من متاعه عند أحد من جنده، فله أن يأخذه^(٥)، وقد ظن بعض الناس في جيش علي أن علياً رضي الله عنه سيقسم بينهم السبي، فتكلموا به ونشروه بين الناس ولكن سرعان ما فاجأهم علي رضي الله عنه، حين أعلن في ندائه: وليس لكم أم ولد، والمواريث على فرائض الله، وأي امرأة قُتل زوجها فلتعتد أربعة

(١) «العواصم من القواصم» ص (١٥٧ إلى ١٦٠).

(٢) «استشهاد عثمان ووقعة الجمل» ص (٢٠٢).

(٣) «فتح الباري» (٢/٥٢٠)، و«استشهاد عثمان» ص (٢٠٣).

(٤) «استشهاد عثمان ووقعة الجمل» ص (٢٠٢).

(٥) «خلافة علي بن أبي طالب» ص (١٦٨) لعبد الحميد، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٢٨٦/١٥) بسند صحيح.

أشهر وعشراً، فقالوا مستنكرين متأولين: يا أمير المؤمنين تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا نساؤهم؟ فقال علي: كذلك السيرة في أهل القبلة، ثم قال: فهاتوا سهامكم وأفرعوا على عائشة فهي رأس الأمر وقائدهم فافترقوا وقالوا: نستغفر الله، وتبين لهم أن قولهم وظنهم خطأ فاحش، ولكن ليرضيهم قسم عليهم رضي الله عنه من بيت المال خمسمائة خمسمائة^(١).

٧ - تفقده للقتلى وترحمه عليهم:

بعد انتهاء المعركة خرج يتفقد القتلى مع نفر من أصحابه، فأبصر محمد بن طلحة (السجاد) فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، أما والله لقد كان شاباً صالحاً، ثم قعد كئيباً حزيناً. ودعا للقتلى بالمغفرة وترحم عليهم وأثنى على عدد منهم بالخير والصلاح^(٢)، وعاد إلى منزله فإذا امرأته وابنتاه يبكين على عثمان رضي الله عنه وقرباته والزبير وطلحة رضي الله عنه وغيرهم من أقاربهم القرشيين. فقال لهم: إني لأرجو أن نكون الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ {الحجر: ٤٧}. ثم قال: ومن هم إن لم نكن، ومن هم إن لم نكن، فما زال يردد ذلك حتى وددت أنه سكت^(٣).

٨ - مبايعة أهل البصرة:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه حريصاً على وحدة الصف، واحترام رعايا الدولة، ومعاملتهم المعاملة الكريمة، وكان لهذه المعاملة أثر بالغ في مبايعة أهل البصرة لأمير المؤمنين علي، وكان أمير المؤمنين قد وضع الأسرى في مساء يوم الجمل في موضع خاص، فلما صلى الغداة طلب موسى بن طلحة بن عبيد الله، فقربه ورحب به وأجلسه بجواره، وسأله عن أحواله وأحوال إخوته، ثم قال له: إنا لم نقبض أرضكم هذه ونحن نريد أن نأخذها إنما أخذناها مخافة أن ينتهبها الناس، ودفع له غلتها وقال: يابن أخي وأتنا في الحاجة إذا كانت لك، وكذلك

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٨٦/١٥) بسند صححه ابن حجر (٥٧/١٣).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦١/١٥)، و«المستدرک» (١٠٣/٣، ١٠٤، ٣٧٥) والإسناد حسن لغيره، و«خلافة علي بن أبي طالب» ص (١٦٩).

(٣) «مصنف ابن أبي شيبة» (٢٦٨-٢٦٩/١٥)، و«خلافة علي» ص (١٦٩) لعبد الحميد.

فعل مع أخيه عمران بن طلحة فبايعاه، فلما رأى الأسارى ذلك دخلوا على علي رضي الله عنه يبايعونه، فبايعهم وبايع الآخرين على راياتهم قبيلة قبيلة^(١)، كما سأل عن مروان بن الحكم وقال: يعظفني عليه رحم ماسة وهو مع ذلك سيد من شباب قريش، وقد أرسل مروان إلى الحسن والحسين وابن عباس رضي الله عنهم ليكلموا علياً فقال علي: هو آمن فليتوجه حيث شاء، ولكن مروان إزاء هذا الكرم والنبيل، لم تطاوعه نفسه أن يذهب حتى بايعه^(٢)، كما أن مروان رحمه الله أثنى على أفعال أمير المؤمنين علي فقال لابنه الحسن: ما رأيت أكرم غلبة من أبيك، ما كان إلا أن ولينا يوم الجمل حتى نادى مناديه: ألا لا يتبع مدبر، ولا يذف على جريح^(٣). وبذلك تمت بيعة أهل البصرة لأمر المؤمنين علي رضي الله عنه، وولى عليها ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، وولى على خراجها زياد بن أبيه، وأراد علي رضي الله عنه أن يمكث فيها مدة أطول، لولا أن مالكا (الأشتر) أعجله عن ذلك، وذلك أن الأشتر كان يطمع في أن يلي ولاية، فلما علم بأن ابن عباس ولي إمارة البصرة غضب وسار في قومه فخشى علي رضي الله عنه منه شراً وفتنة، فاستعجل ببقية جيشه، وأدركه، وعاتبه على سيره وأظهر أنه لم يسمع عنه شيئاً^(٤).

٩ - حديث أبي بكر:

فقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار»^(٥). قال القرطبي: قال علماؤنا: ليس هذا الحديث حديث أبي بكر في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ الحجرات: ٩، ١٠. فأمر الله تعالى بقتال الفئة الباغية، ولو أمسك المسلمون على قتال أهل البغي لتعطلت فريضة من فرائض الله.

(١) «الطبقات» (٣/٢٢٤) بسند حسن، و«المستدرک» (٣/٣٧٦-٣٧٧).

(٢) «سنن سعيد بن منصور» (٢/٣٣٧) بسند حسن.

(٣) «كتاب أهل البغي من الحاوي الكبير» للماوردي ص (١١١)، و«فتح الباري» (١٣/٦٢).

(٤) «فتح الباري» (١٣/٥٧)، و«خلافة علي»، لعبد الحميد ص (١٧٤).

(٥) «مسلم»، كتاب الفتن (٤/٢٣٣).

وهذا يدل على أن قوله: «القاتل والمقتول في النار» ليس في أصحاب النبي صلى الله عليه وآله؛ لأنهم إنما قاتلوا على التأويل. قال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين من المسلمين الهرب منه، ولزوم المنازل وكسر السيوف، لما أقيم حد ولا أبطل باطل، ولوجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين، وسبي نسائهم، وسفك دمائهم، بأن يتحزبوا عليهم، ويكف المسلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه فتنة قد نهينا عن القتال فيها، وأمرنا بكف الأيدي والهرب منها^(١).

وقال النووي: وأما كون القاتل والمقتول فمحمولة على من لا تأويل له، ويكون قتالهما عصبية ونحوها ثم كونه في النار معناه مستحق لها، وقد يجازى بذلك وقد يعفو الله تعالى عنه، هذا مذهب أهل الحق، وعلى هذا يتأول كل ما جاء من نظائره واعلم أن الدماء التي جرت بين الصحابة رضي الله عنهم ليست بداخلة في هذا الوعيد ومذهب أهل السنة والحق إحسان الظن بهم والإمساك عما شجر بينهم، وتأويل قتالهم وأنهم مجتهدون متأولون لم يقصدوا معصية ولا محض الدنيا، بل اعتقد كل فريق أنه المحق ومخالفه باغ فوجب عليه قتاله؛ ليرجع إلى أمر الله وكان بعضهم مصيباً وبعضهم مخطئاً معذوراً في الخطأ لاجتهاده، والمجتهد إذا أخطأ لا إثم عليه وكان علي رضي الله عنه هو المحق المصيب في تلك الحروب، هذا هو مذهب أهل السنة وكانت القضايا مشتبهة حتى إن جماعة من الصحابة تحيروا، فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا الصواب ثم تأخروا عن مساعدتهم^(٢).

١٠ - تاريخ معركة الجمل:

اختلف المؤرخون في تاريخ وقعة الجمل إلى أقوال كثيرة منها:

أ - أخرج خليفة بن خياط من طريق قتادة أن الفريقين التقيا يوم الخميس في

(١) «التذكرة» (٢٢٣/٢-٢٢٣٣).

(٢) «شرح صحيح مسلم» (٢٢٧/٨-٢٢٨).

النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين، وكانت الوقعة يوم الجمعة^(١).

ب - أخرج عمر بن شبة أن الوقعة كانت في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين^(٢).

ج - أخرج الطبري من طريق الواقدي أن الوقعة كانت يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين^(٣).

د - ذكر المسعودي أن الوقعة كانت يوم الخميس في العاشر من جمادى الأولى^(٤)، غير أن أرجح الأقول هو ما أخرجه خليفة بن خياط من طريق قتادة؛ حيث إن إسناد روايته يعد أصح ما في الباب.

١١ - أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟

جاء أمير المؤمنين إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فاستأذن وسلم عليها ورحبت به، وإذا النساء في دار بني خلف يبكين على من قُتل، منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف، فعبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع علي، فلما دخل علي قالت له صفية امرأة عبد الله، أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي، فلم يرد عليها علي شيء، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضاً فسكت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟ فقال: ويحك إننا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات، أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟^(٥)

١٢ - اعتذار أبي بكره الثقفي عن إمارة البصرة:

جاء عبد الرحمن بن أبي بكره الثقفي رضي الله عنه إلى أمير المؤمنين فبايعه فقال له علي: أين المريض؟ - يعني أباه - فقال: إنه والله مريض يا أمير المؤمنين، وإنه على مسرتك لحريص. فقال: امش أمامي، فمضى إليه فعاده، واعتذر إليه أبو بكره فعذره، وعرض عليه البصرة فامتنع وقال: رجل من أهلك يسكن إليه

(٢) «فتح الباري» (١٣/٦١).

(١) «تاريخ خليفة بن خياط» ص (١٨٤، ١٨٥).

(٤) «المروج الذهب» (٢/٣٦٠).

(٣) «ستشهاد عثمان» ص (٢٠٦) نقلاً عن «تاريخ الطبري».

(٥) «لبداية والنهاية» (٧/٣٥٧).

الناس، وأشار عليه بآبن عباس رضي الله عنه فولاه على البصرة، وجعل معه زياد بن أبيه على الخراج وبيت المال، وأمر ابن عباس أن يسمع من زياد^(١).

١٣ - موقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ممن ينال من عائشة رضي الله عنها:

قال رجل: يا أمير المؤمنين، إن على الباب رجلين ينالان من عائشة رضي الله عنها، فأمر علي القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة جلدة، وأن يخرجهما من ثيابهما^(٢)، وقد قام القعقاع بذلك.

١٤ - دفاع عمار بن ياسر عن أم المؤمنين عائشة:

عن محمد بن عريب قال: قام رجل فذكر عائشة عند علي رضي الله عنه، فجاء عمار فقال: من هذا الذي يتناول زوجة نبينا؟ اسكت مقبوحاً منبوذاً مذموماً مدحوراً^(٣)، وجاء في رواية: اغرب مقبوحاً أتوذي حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٤). وجاء في رواية: ذكرت عائشة عند علي رضي الله عنه فقال: حليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٥).

عائشة: بين عائشة أم المؤمنين وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها هي الصديقة بنت الصديق أبي بكر عبد الله بن عثمان، وأمها أم رومان بنت عويمر الكنانية، ولدت بعد المبعث بأربع سنوات أو خمس، تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وهي بنت ست ودخل بها وهي بنت تسع سنين وكان دخوله بها في شوال في السنة الأولى، وقيل: في السنة الثانية من الهجرة، وهي المبرأة من فوق سبع سموات، وكانت أحب أزواج النبي صلى الله عليه وسلم إليه ولم يتزوج بكراً غيرها، وكانت أفقه نساء الأمة على الإطلاق، فكان الأكابر من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين إذا أشكل عليهم الأمر في الدين استفتوها، وقد توفي عنها النبي صلى الله عليه وسلم وهي في الثامنة عشرة من عمرها، وكانت وفاتها رضي الله عنها في سنة ثمان وخمسين ليلة السابع عشر من رمضان وصلى عليها أبو هريرة، ودفنت في البقيع

(١) (٢، ١) «البداية والنهاية» (٢٥٧/٧).

(٢) «فضائل الصحابة» (١١٠/٢)، وإسناده ضعيف، و«ضعيف سنن الترمذي» رقم (٨١٥) للالباني.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٧٩/٢) حديث حسن قاله الذهبي.

(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٧٦/٢) حديث حسن.

رضي الله عنها وأرضاها^(١)، ومناقبها رضي الله عنها كثيرة مشهورة فقد وردت أحاديث صحيحة بخصائص انفردت بها عن سواها من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن منها:

١ - مجيء الملك بصورتها إلى النبي صلوات الله عليه في سرقة^(٢) من حرير قبل زواجها به صلوات الله عليه فقد روى الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلوات الله عليه: «أريتك في المنام ثلاث ليال، جاءني بك الملك في سرقة من حرير، فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت هي فأقول: إن يك هذا من الله يمضه»^(٣).

٢ - أحب أزواج النبي صلوات الله عليه، وقد صرح بمحبتها لما سئل صلوات الله عليه عن أحب الناس إليه، فقد روى البخاري بإسناده إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلوات الله عليه بعثه على جيش ذات السلاسل^(٤)، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة» قلت: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»^(٥). قال الحافظ الذهبي: وهذا خبر ثابت على رغم أنوف الروافض، وما كان صلوات الله عليه ليحب إلا طيباً وقد قال: «لو كنت متخذاً خليلاً من هذه الأمة لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل»، فأحب أفضل رجل في أمته، وأفضل امرأة في أمته، فمن أبغض حبيبي رسول الله صلوات الله عليه فهو حري أن يكون بغيضاً إلى الله ورسوله، وحبه عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها كان أمراً مستفيضاً^(٦).

٣ - نزول الوحي على النبي صلوات الله عليه وهو في لحافها دون غيرها من نسائه صلوات الله عليهم، فقد روى البخاري بإسناده إلى هشام بن عروة عن أبيه قال: كان الناس يتحرون بهدياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحيبي إلى أم سلمة فقلن يا أم سلمة: والله إن الناس يتحرون بهدياهم يوم عائشة وإننا نريد الخير كما تريده عائشة فمري رسول الله صلوات الله عليه أن يأمر الناس أن يهدوا إليه، حيث كان أو حيث ما دار، قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي صلوات الله عليه قالت: فأعرض عني فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: «يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة؛ فإنه والله ما نزل علي

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/١٣٥-٢٠١)، و«طبقات ابن سعد» (٨/٥٨)، و«البداية والنهاية» (٨/٩٥).

(٢) أي في قطعة من جيد الحرير: انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/٣٦٢). (٣) «مسلم» رقم (٢٤٣٨).

(٤) مأخوذ من السلسل وهو العذب الصافي من الماء، النهاية لابن الأثير (٢/٣٨٩).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٢/١٤٣).

(٦) «البخاري» رقم (٤٣٥٨).

الوحي في لحاف امرأة منكن غيرها»^(١). وقال الذهبي: وهذا الجواب منه دال على أن فضل عائشة على سائر أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، بأمر إلهي وراء حبه لها، وأن ذلك الأمر من أسباب حبه لها^(٢).

٤ - إن جبريل عليه السلام أرسل إليها سلامه مع النبي صلى الله عليه وسلم: فقد روى البخاري بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً: «يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام» فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

٥ - بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتخييرها عند نزول آية التخيير وقرن ذلك بإرشادها إلى استشارة أبيها في ذلك الشأن، لعلمه أن أبيها لا يأمرانها بفراقه، فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة فاستن بها بقية أزواجه صلى الله عليه وسلم، فقد روى الشيخان بإسنادهما إلى عائشة رضي الله عنها قالت: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: «إني ذاكر لك أمراً فلا عليك ألا تعجلي حتى تستأمرني أبويك» قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت: ثم قال: إن الله جل ثناؤه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمْتَعَنَّ وَأَسْرَحُكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُمْ تَرْضُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب: ٢٨-٢٩ قالت: فقلت: ففي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة قالت: ثم فعل أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما فعلت^(٤).

٦ - نزول آيات من كتاب الله بسببها فمنها ما هو في شأنها خاصة ومنها ما هو للأمة عامة، فأما الآيات الخاصة بها والتي تدل على عظم شأنها ورفع مكانتها، شهادة الباري جلّ وعلا لها بالبراءة مما رميت به من الإفك والبهتان وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٤٣/٢).

(٤) «البخاري»، كتاب التفسير رقم (٤٧٨٩).

(١) «البخاري» رقم (٣٧٧٥)، كتاب فضائل الصحابة.

(٣) «البخاري»، كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٧٦٨).

إلى قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢٦]. قال ابن القيم: ومن خصائصها أن الله سبحانه وتعالى برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحي يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنها من الطيبات، ووعداها المغفرة والرزق الكريم. وأخبر سبحانه وتعالى أن ما قيل فيها من الإفك كان خيراً لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شراً لها، ولا خافضاً من شأنها بل رفعها الله بذلك وأعلى قدرها، وأعظم شأنها وصار لها ذكراً بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء فيالها من منقبة ما أجلها، وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها حيث قالت: لشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحى يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرئني الله بها^(١)، فهذه صديقة الأمة وأم المؤمنين وحب رسول الله ﷺ، وهي تعلم أنها بريئة منه مظلومة وأن قاذفيها ظالمون مفترون عليها، وقد بلغ أذاهم إلى أبويها وإلى رسول الله ﷺ^(٢). قال ابن كثير: ولما تكلم فيها أهل الإفك بالزور والبهتان؛ غار الله فأنزل براءتها في عشر آيات من القرآن تلتلى على مر الزمان. . وقد أجمع العلماء على تكفير من قذفها بعد براءتها^(٣). وأما ما نزل بسببها من الآيات وهي للأمة عامة فأية التيمم، وكانت رحمة وتسهيلاً لسائر الأمة، فقد روى البخاري بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فأرسل رسول الله ﷺ ناس من أصحابه في طلبها فأدركتهم الصلاة فصلوا بغير وضوء، فلما أتوا النبي ﷺ، شكوا ذلك إليه فنزلت آية التيمم، فقال أسيد بن حضير: جزاك الله خيراً، فوالله ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله لك وللمسلمين فيه خير^(٤).

٧- كان رسول الله ﷺ يحرص على أن يمرض في بيتها: فقد كانت

(١) «البخاري» رقم (٤١٤١). (٢) «جلاء الأفهام» ص (١٢٤ - ١٢٥).

(٣) «اللبدابة والنهائة» (٨/٩٥)، و«تفسير القرآن العظيم» (٣/٢٦٨). (٤) «البخاري»، رقم (٣٣٦).

وفاته عليه السلام بين سحرها ونحرها في يومها، وجمع الله بين ريقه وريقها في آخر ساعة من ساعاته في الدنيا، وأول ساعة من الآخرة، ودفن في بيتها^(١)، فقد روى البخاري بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلوات الله عليه لما كان في مرضه، جعل يدور في نسائه ويقول: «أين أنا غدا؟» حرصاً على بيت عائشة، قالت: فلما كان يومي سكن^(٢)، وعند مسلم عنها أيضاً قالت: إن كان رسول الله صلوات الله عليه ليتفقد يقول: «أين أنا اليوم أين أنا غدا؟» استبطاء ليوم عائشة قالت: فلما كان يومي قبضه الله بين سحري ونحري^(٣).

وروى البخاري أيضاً بإسناده عنها: أن رسول الله صلوات الله عليه كان يسأل في مرضه الذي مات فيها يقول: «أين أنا غداً، أين أنا غداً؟» يريد يوم عائشة رضي الله عنها، فأذن له أزواجه أن يكون حيث شاء فكان في بيت عائشة حتى مات عندها. قالت عائشة رضي الله عنها: فمات في اليوم الذي كان يدور عليّ فيه في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نحري وسحري، وخالط ريقه ريقني، ثم قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر ومعه مسواك يستن به، فنظر إليه رسول الله صلوات الله عليه، فقلت له: أعطني هذا السواك يا عبد الرحمن، فأعطانيه فقضمته، ثم مضغته، فأعطيته رسول الله صلوات الله عليه فاستن به، وهو مستند إلى صدري.

وفي رواية أخرى بزيادة: فجمع الله بين ريقني وريقه في آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة^(٤).

٨ - إخباره عليه السلام بأنها من أصحاب الجنة، فقد روى الحاكم بإسناده إلى عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، مَنْ مِنْ أزواجك في الجنة؟ قال: «أما إنك منهن؟» قالت: فخيّل إليّ أن ذاك أنه لم يتزوج بكراً غيري^(٥)، وروى البخاري بإسناده إلى القاسم ابن محمد أن عائشة اشكت فجاء ابن عباس رضي الله عنه فقال: يا أم

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨٩/٢) و«البدية والنهاية» (٩٥/٨).

(٢) «البخاري»، كتاب «فضائل الصحابة» رقم (٣٧٧٤).

(٣) «مسلم»، كتاب الصحابة رقم (٢٤٤٣).

(٤) «البخاري»، رقم (٤٤٥٠، ٤٤٥١).

(٥) «المستدرک» (١٣/٤) صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

المؤمنين تَقَدَّمِينَ عَلَى فَرَطٍ صِدْقٍ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى أَبِي بَكْرٍ (١) وَفِي هَذَا فَضِيلَةَ عَظِيمَةَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حَيْثُ قَطَعَ لَهَا بِدْخُولِ الْجَنَّةِ؛ إِذْ لَا يَقُولُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ (٢).

٩ - فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام :

ما رواه الشيخان بإسنادهما إلى عبد الله بن عبد الرحمن أنه سمع أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ» (٣). قَالَ النَّوَوِيُّ: قَالَ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّرِيدَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ أَفْضَلُ مِنَ الْمُرْقِ فَثَرِيدِ اللَّحْمِ أَفْضَلُ مِنْ مَرْقِهِ بِلَا ثَرِيدٍ، وَثَرِيدٌ مَا لَا لَحْمَ فِيهِ أَفْضَلُ مِنْ مَرْقِهِ وَالْمُرَادُ بِالْفَضِيلَةِ نَفْعُهُ وَالتَّشْبِعُ مِنْهُ وَسَهُولَةُ مَسَاغِهِ، وَالِاتِّدَاذُ بِهِ وَتَيْسَرُ تَنَاوُلِهِ وَتَمَكُّنُ الْإِنْسَانِ مِنْ أَخْذِ كِفَايَتِهِ مِنْهُ بِسُرْعَةٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْمُرْقِ كُلِّهِ وَمِنْ سَائِرِ الْأَطْعَمَةِ، وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ زَائِدٌ كَزِيَادَةِ فَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْأَطْعَمَةِ. وَلَيْسَ فِي هَذَا تَصْرِيحٌ بِتَفْضِيلِهَا عَلَى مَرْيَمَ وَآسِيَةَ لِاحْتِمَالِ أَنَّ الْمُرَادَ تَفْضِيلِهَا عَلَى نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ (٤).

هذه بعض الأحاديث التي أشارت إلى فضل السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومكانتها وسبقها وعلو شأنها في الدين، وعظيم مكانتها، ومع هذا فقد تعرضت السيدة عائشة أم المؤمنين للطعن والتجريح والكذب والافتراء من قبل الشيعة الرافضة، ومن تأثر برواياتهم المختلفة، وآثارهم الموضوعية وجأؤوا بآثار صحاح، وأحاديث مسندة صحيحة وأولوها على غير حقيقتها ومرادها، كما فعل ذلك صاحب كتاب «ثم اهتديت» وهو لم يأت بجديد وإنما سار على منهج أسلافه ممن سبقوه من الشيعة الروافض وطعن في أم المؤمنين عائشة بقول عمار: والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم بها ليعلم إياه تطيعون أم هي (٥). وليس في قول عمار هذا ما يطعن به على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بل فيه أعظم فضيلة لها، وهي أنها زوجة نبينا ﷺ في الدنيا والآخرة، فأى فضل أعظم من

(١) «البخاري»، رقم (٣٧٧١). (٢) «فتح الباري»، (١٠٨/٧)، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٩٥).

(٣) «البخاري»، رقم (٣٧٧٠). (٤) «شرح صحيح مسلم» (٢٠٨/١٥، ٢٠٩).

(٥) «البخاري»، كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٧٧٢).

هذا، وأي شرف أسمى من هذا؟! فإن غاية كل مؤمن رضا الله والجنة، وعائشة عليها السلام قد تحقق لها ذلك بشهادة عمار رضي الله عنه الذي كان مخالفاً لها في الرأي في تلك الفتنة، وأنها ستكون في أعلى الدرجات في الجنة بصحبة رسول الله صلوات الله عليه وآله (١)، وبهذا قد جاء الحديث الصحيح - المرفوع للنبي صلوات الله عليه وآله على ما روى الحاكم في المستدرک من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلوات الله عليه وآله قال لها: «أما ترضين أن تكوني زوجتي في الدنيا والآخرة؟»، قالت: بلى والله، قال: «فأنت زوجتي في الدنيا والآخرة» (٢) فيكون هذا الحديث من أعظم فضائل عائشة رضي الله عنها؛ ولذا أورد البخاري الأثر السابق عن عمار في مناقب عائشة رضي الله عنها (٣)، وأما قوله في الجزء الأخير من الأثر: ولكن الله ابتلاكم لتبعوه أو إياها (٤). فليس بمطعن على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وبيان ذلك من وجوه:

أ - إن قول عمار هذا يمثل رأيه، وعائشة رضي الله عنها ترى خلاف ذلك، وإن ما هي عليه هو الحق، وكل منهما صحابي جليل، عظيم القدر في الدين والعلم، فليس قول أحدهما حجة على الآخر (٥).

ب - إن غاية ما في قول عمار هو مخالفتها أمر الله في تلك الحالة الخاصة، وليس كل مخالف مذموماً حتى تقوم عليه الحجة بالمخالفة، ويعلم أنه مخالف، وإلا فهو معذور إن لم يتعمد المخالفة فقد يكون ناسياً أو متأولاً فلا يؤخذ بذلك.

ج - إن عماراً رضي الله عنه ما قصد بذلك ذم عائشة ولا انتقاصها، وإنما أراد أن يبين خطأها في الاجتهاد نصحاً للأمة، وهو مع هذا يعرف لأم المؤمنين قدرها وفضلها (٦)، وقد جاء في بعض روايات هذا الأثر عن عمار أن عماراً سمع رجلاً يسب عائشة، فقال: اسكت مقبوحاً منبوحاً، والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعوه أو إياها (٧)، وأما قول الشيعة الروافض: إن النبي صلوات الله عليه وآله قام خطيباً - فأشار نحو مساكن عائشة - فقال: «ههنا الفتنة من حيث يطلع قرن الشيطان»، وطعنهم على عائشة رضي الله عنها بذلك وزعمهم أن

(١) «الانتصار للصحب والآل» ص (٤٤٨).

(٢) «المستدرک» (٤/١٠)، و«الصحيح المسند» لمصطفى العدوي ص (٣٥٦).

(٣) «الانتصار للصحب والآل» ص (٤٤٨).

(٤، ٣) «البخاري» رقم (٣٧٧٢).

(٦) «الانتصار للصحب والآل» ص (٤٥٠، ٤٥١).

(٧) «البداية والنهاية» (٧/٢٤٨).

الرسول ﷺ أراد أن الفتنة تخرج من بيتها. فهذا الكلام فيه تضليل وقلب للحقائق والتدليس على من لا علم عنده من العامة وذلك بتفسيره قول الراوي: فأشار (نحو مسكن عائشة) على أن الإشارة كانت لبيت عائشة، وأنها سبب الفتنة والحديث لا يدل على هذا بأي وجه من الوجوه وهذه العبارة لا تحتل هذا الفهم عند من له أدنى معرفة بمقاصد الكلام، فإن الراوي قال: أشار نحو مساكن عائشة ولم يقل: إلى جهة مساكن عائشة، والفرق بين التعبيرين واضح وجلي، وهذه الرواية التي ذكرها أخرجها البخاري في كتاب فرض الخمس^(١)، وهذا الحديث قد جاء مخرجاً في كتب السنة من الصحيحين وغيرهما من عدة طرق وبأكثر من لفظ، وجاء النص فيها على البلاد المشار إليها بما يدحض دعوى الشيعة الروافض، ويغني عن التكلف في الرد عليهم بأي شيء آخر، وهاهي ذي بعض روايات الحديث من عدة طرق عن ابن عمر رضي الله عنهما، فعن ليث عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان»^(٢)، وعن عبيد بن عمر قال: حدثني نافع عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قام عند باب حفصة فقال بيده نحو المشرق: «الفتنة من حيث يطلع قرن^(٣) الشيطان» قالها مرتين أو ثلاثاً، وعن سالم بن عبدالله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: وهو مستقبل المشرق، «ها إن الفتنة ههنا، ها إن الفتنة ههنا، ها إن الفتنة ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان»^(٤). وفي هذه الروايات تحديد صريح للجهة المشار إليها وهي جهة المشرق، وفيها تفسير للمقصود بالإشارة في الرواية التي ذكرها الشيعة الروافض^(٥)، كما جاء في بعض الروايات الأخرى للحديث تحديد البلاد المشار إليها، فعن نافع عن ابن عمر قال: ذكر النبي ﷺ فقال: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا»، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا^(٦)، فأظنه قال في الثالثة: «هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان»^(٧).

(١) «البخاري» رقم (٣١٠٤).
 (٢) «البخاري» رقم (٧٠٩٣)، و«مسلم» رقم (٢٩٠٥).
 (٣) «اللاتصار للصحب والآل» ص (٤٥٣).
 (٤) «مسلم»، كتاب الفتن (٤/٢٢٢٩).
 (٥) نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق. (٧) «البخاري» رقم (٧٠٩٤).

وعن سالم بن عبد الله بن عمر أنه قال: يا أهل العراق، ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم للكبيرة، سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله يقول: «إن الفتنة تجيء من ههنا وأوماً بيده نحو المشرق، من حيث يطلع قرنا الشيطان»^(١). وفي بعض الروايات جاء ذكر بعض من يقطن تلك البلاد من القبائل ووصف حال أهلها، فعن أبي مسعود قال: أشار رسول الله صلوات الله عليه بيده نحو اليمن فقال: «الإيمان يمان ههنا، ألا إن القسوة وغلظ القلوب في القدادين»^(٢)، عند أصول أذنان الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر»^(٣).

فدللت هذه الروايات دلالة قطعية على بيان مراد النبي صلوات الله عليه من قوله: الفتنة (ههنا)، وإن المقصود بذلك بلاد المشرق؛ حيث جاءت الروايات مصرحة بهذا، كما جاء في بعضها وصف أهل تلك البلاد وتعيين بعض قبائلها، مما يظهر به بطلان ما ادعى الشيعة الروافض من أن الإشارة كانت إلى بيت عائشة، فإن هذا قول باطل، ورأي ساقط، لم يفهمه أحد وما قال به سوى الشيعة الروافض^(٤).

١٠- المفاضلة بين عائشة وخديجة وفاطمة رضي الله عنهن:

قال ابن تيمية: وأفضل نساء هذه الأمة خديجة وعائشة وفاطمة رضي الله عنهن، وفي تفضيل بعضهن على بعض نزاع^(٥)، وسئل ابن تيمية عن خديجة وعائشة أمي المؤمنين أيهما أفضل؟ فأجاب: بأن سبق خديجة وتأثيرها في أول الإسلام ونصرها وقيامها في الدين لم تشاركها فيه عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين، وتأثير عائشة في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من العلم، ما لم تشاركها فيه خديجة ولا غيرها ومما تميزت به عن غيرها^(٦)، وقال ابن حجر: وقيل: انعقد الإجماع على أفضلية فاطمة وبقي الخلاف بين عائشة وخديجة^(٧)، وقال في شرح حديث أبي هريرة: إن جبريل أتى النبي صلوات الله عليه وأمره أن يقرأ خديجة السلام من ربها وفيه قال السهيلي: استدل بهذه القصة

(١) «مسلم»، كتاب الفتنة من المشرق (٤/٢٢٢٩).

(٢) القدادون: الذين تعلقوا أصواتهم في حروثهم ومواشيهم.

(٣) «البخاري» رقم (٣٣٠٢)، و«الانتصار للصحب والآل» ص (٤٥٥).

(٤) «الانتصار للصحب والآل» ص (٤٥٥). (٦٠٥) مجموع الفتاوى (٤/٣٩٤).

(٧) «فتح الباري» (٧/١٠٩).

أبو بكر بن داود على أن خديجة أفضل من عائشة؛ لأن عائشة سلم عليها جبريل من قبل نفسه، وخديجة أبلغها السلام من ربها، وزعم ابن العربي أنه لا خلاف في أن خديجة أفضل من عائشة، ورد بأن الخلاف ثابت قديماً، وإن كان الراجح أفضلية خديجة بهذا وبما تقدم^(١). وعند التحقيق والنظر في النصوص الواردة في تفضيل كل واحدة منهن رضي الله عنهما، نجد أنها تدل على أفضلية خديجة وفاطمة ثم عائشة رضي الله عنهما، وذلك أن الضمير الوارد في قوله رضي الله عنه: «لقد فضلت خديجة على نساء أمتي»^(٢)، وقد قال عليه السلام: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية»^(٣)، قال ابن حجر: وهذا نص صريح لا يحتمل التأويل^(٤).

وقال عليه السلام: «حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون»^(٥). وهذا نص في أن خديجة رضي الله عنها أفضل نساء الأمة ثم إن اللفظ الوارد في تفضيل فاطمة رضي الله عنها وهو قوله عليه السلام: «يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين» أو «سيدة نساء هذه الأمة»^(٦). وفي لفظ: «سيدة نساء أهل الجنة»^(٧)، فهو صريح لا لبس فيه ولا يحتمل التأويل، وهو نص في أنها أفضل نساء الأمة وسيدة نساء أهل الجنة، وقد شاركت أمها في هذا التفضيل فهي وأمها أفضل نساء أهل الجنة، وهي وأمها أفضل نساء الأمة بهذا وردت النصوص^(٨)، وأما ما ورد في تفضيل عائشة رضي الله عنها من قوله عليه السلام: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»، فهو لفظ لا يستلزم الأفضلية المطلقة كما قال ابن حجر^(٩): وليس فيه تصريح بأفضلية عائشة رضي الله عنها على غيرها؛ لأن فضل الثريد على غيره من الطعام، إنما هو لما فيه من تيسير المؤونة وسهولة الإساغة وكان أجل طعمتهم يومئذ، وكل هذه الخصال لا تستلزم

(١) «فتح الباري» (١٣٩/٧).

(٢) «فتح الباري» (١٣٥/٧)، و«مجمع الزوائد» (٢٢٣/٩).

(٣) «الإحسان» لابن حبان (٧٣/٩)، و«صحيح الجامع» للألباني (٣٧١/١).

(٤) «فتح الباري» (١٣٥/٧).

(٥) «فضائل الصحابة» (٧٥٥/٢) رقم (١٣٢٥) وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (١٧٤٥/٣).

(٦) «فتح الباري» (١٠٥/٧).

(٦) «البخاري» رقم (٦٢٨٥).

(٩) «فتح الباري» (١٠٧/٧).

(٨) «العقيدة في أهل البيت» ص (٩٧).

ثبوت الأفضلية له من كل وجهة، فقد يكون مفضولاً بالنسبة لغيره من جهات أخرى^(١). فالحديث إذن دال على أفضلية عائشة رضي الله عنها على سائر نساء هذه الأمة ما عدا خديجة وفاطمة رضي الله عنهما لورود الدليل على ذلك مما قيد تلك الأفضلية لعائشة رضي الله عنها^(٢)، وأما ما ورد من حديث عمرو بن العاص لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم: أي النساء أحب إليك؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «عائشة»^(٣).

فقد أشار ابن حبان على أنه مقيد في نسائه رضي الله عنهم إذ عقد عنواناً في صحيحه فقال: ذكر خبر وهم في تأويله من لم يحكم صناعة الحديث، وساق تحته حديث عمرو بلفظ: قلت: يا رسول الله أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، فقلت: إني لست أعني النساء وإنما أعني الرجال، فقال: «أبو بكر» أو قال: «أبوها». ثم قال ابن حبان: ذكر الخبر الدال على أن مخرج هذا السؤال كان عن أهله دون سائر النساء من فاطمة وغيرها، وأخرج بسنده عن أنس قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب الناس إليك؟» قال: «عائشة» قيل له: ليس عن أهلك نسألك قال: «فأبوها»^(٤).

وبهذا يتبين أن عائشة تلي خديجة وفاطمة في الفضل رضي الله عنهن؛ إذ كل ما ورد من دليل على عموم تفضيلها رضي الله عنها مقيد بالنص الوارد في خديجة وفاطمة رضي الله عنهما، ولا ينكر أن لعائشة رضي الله عنها من الفضائل كالعلم مثلاً ما تختص به عن خديجة وفاطمة رضي الله عنهما إلا أنه: لا يلزم من ثبوت خصوصية شيء من الفضائل ثبوت الفضل المطلق^(٥)، وعلى كل حال فليس فضل إحداهما على الأخرى بمطعن على المفضولة، بل في هذا أكبر دليل على علو مكانة هؤلاء النساء الثلاث فاطمة وخديجة وعائشة رضي الله عنهن حيث إن الخلاف لم يخرج عنهن في أنهن أفضل نساء الأمة، فما الذي يضر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لو كانت ثالثة نساء الأمة في الفضل وهل هذا مدعاة لاحترامها وتقديرها أم للنيل منها والطمع فيها، كما يفعل الشيعة الروافض؟!^(٦).

(٢) «العقيدة في أهل البيت» ص (٩٧).

(١) «فتح الباري» (٤٤٧/٦).

(٤) «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» (١١/٩).

(٣) «البخاري» رقم (٤٣٥٨).

(٥) «فتح الباري» (١٠٨/٧)، و«العقيدة في أهل البيت» ص (٩٨).

(٦) «الانتصار للصحب والآل» ص (٤٦١).

* هل استباححت السيدة عائشة أم المؤمنين قتال المسلمين في معركة الجمل؟

قد تقدم أنها ما خرجت لذلك وما أرادت القتال، وقد نقل الزهري عنها أنها قالت بعد موقعة الجمل: إنما أريد أن يحجز بين الناس مكاني، ولم أحسب أن يكون بين الناس قتال، ولو علمت ذلك لم أقف ذلك الموقف أبداً^(١)، وهذا القول بأن السيدة عائشة رضي الله عنها استباححت قتال المسلمين باطل لا يثبت أمام الروايات الصحيحة التي بينت أن عائشة رضي الله عنها ما خرجت إلا للإصلاح كما مر معنا، وإنما هذه الأقول من الروايات التي وضعها الشيعة الروافض والتي شوهت تاريخ صدر الإسلام، وجعلت مما حدث بين علي وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم حرباً أهلية، وتأثر بعض الباحثين بتلك الروايات حتى قال بعضهم: وأسرت عائشة، ويصورون المسألة كحرب أهلية مخطط لها، وهو قول طبيعي من باحثين لا يستقون معلوماتهم في هذا الشأن إلا من الروايات المقدوحة، ومن المصادر غير الموثوق بها مثل الإمامة والسياسة، والأغاني، ومروج الذهب، وتاريخ اليعقوبي، بل وتاريخ التمدن الإسلامي لجورج زيدان^(٢).

- هل يصح هذا الحديث: «تقاتلين علي وأنت له ظالمة؟» .

إنه لا يعرف في شيء من كتب العلم المعتمدة ولا له إسناد معروف، وهو بالموضوعات المكذوبة أشبه منه بالأحاديث الصحيحة، بل هو كذب قطعاً، فإن عائشة رضي الله عنها لم تقاتل ولم تخرج لقتال وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين الناس. . لا قاتلت ولا أمرت بقتال هكذا ذكر غير واحد من أهل المعرفة بالأخبار^(٣).

أ. أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يرد عائشة رضي الله عنها إلى مأمنها معززة مكرمة:

جهز أمير المؤمنين علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب وزاد أو متاع،

(١) «الغازي» للزهري ص (١٥٤) .

(٢) انظر: «دراسة وتحليل للعهد النبوي الأصيل»، لمحمد جميل زينهم، و«الحزبية السياسية»، لرياض عيسى، و«الحريم السياسي»، و«النبوي والنساء»، و«الدولة العربية» فلهوزن، نقلاً عن «دور المرأة السياسي» ص (٤٤٢) .

(٣) «منهاج السنة» (٢/١٨٥) .

وأخرج معها من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات وقال: تجهز يا محمد «ابن الحنفية»، فبَلَّغَهَا، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت على الناس، وودعوها وودعتهم وقالت: يا بني، تعبت بعضنا على بعض استبطاء واستزادة فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وإنه عندي على معتبتي من الأخيار، وقال علي: يأبها الناس، صدقت والله وبرت ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم صلوات الله عليهم في الدنيا والآخرة. وخرجت يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين، وشيعها علي أميلاً وسرح بنيه معها^(١) يوماً. وبتلك المعاملة الكريمة من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه نراه قد اتبع ما أوصاه به نبي الأمة صلوات الله عليهم عندما قال له: «إنه سيكون بينك وبين عائشة أمر». قال: أنا يا رسول الله؟ قال: «نعم»: قال: أنا؟ قال: «نعم». قلت: فأنا أشقاهم يا رسول الله. قال: «لا، ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمئها»^(٢) وقد خالف الصواب من ظن أن خروج أم المؤمنين إلى البصرة كان لشيء في نفسها من علي رضي الله عنه لموقفه منها في حديث الإفك حين رماها المنافقون بالفاحشة فاستشاره النبي صلوات الله عليهم في فراقها. فقال رضي الله عنه: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك^(٣).

وهذا الكلام الذي قاله علي رضي الله عنه إنما حمله عليه ترجيح جانب النبي صلوات الله عليهم؛ لما رأى عنده من القلق والغم بسبب القول الذي قيل، وكان شديد الغيرة، فرأى علي في بادئ الأمر أنه صلوات الله عليهم إذا فارقتها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن يتحقق براءتها، فيمكن رجعتها، ويستفاد منه ارتكاب أخف الضررين لذهاب أشدهما^(٤).

(٢) «مسند أحمد» (٣٩٣/٦) إسناده حسن.

(٤) «دور المرأة السياسي» ص (٤٦٢)

(١) «تاريخ الطبري» (٥٨١/٥).

(٣) «البخاري» رقم (٤٧٨٦).

قال النووي: رأى عليّ أن ذلك هو المصلحة في حق النبي ﷺ، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة؛ لإرادة راحة خاطره ﷺ^(١). وعليّ ﷺ لم ينل عائشة ﷺ بأدنى كلمة يفهم منها أنه قد عرض بأخلاقها أو تناولها بسوء، فإنه على الرغم من قوله للنبي ﷺ: لم يضيق الله عليك^(٢). إلا أنه عاد فقال لرسول الله ﷺ، ناصحاً: وسل الجارية تصدقك^(٣)، فهو قد دعاه إلى التحري أولاً قبل أن يفارقها، أي أنه قد رجع عن نصيحته الأولى بالمفارقة إلى نصيحة أخرى بسؤال الجارية، وتحري الحقيقة^(٤) وقد سأل رسول الله ﷺ الجارية التي كانت أكثر التصاقاً بعائشة، فأكدت أنها ما علمت من عائشة إلا خيراً، وقد خرج رسول الله ﷺ من يومه الذي سأل فيه الجارية، واستعذر من عبد الله ابن أبيّ قائلاً: «يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً»^(٥). لقد كانت نصيحة علي في صالح عائشة فقد ازداد ﷺ قناعة بما علم من خير في أهله^(٦).

ولم يكن موقف علي في حادثة الإفك هو الذي جعل عائشة تغضب منه ﷺ لأجله، أو تحقد الحقد الذي يجعلها تتهمه زوراً بقتل عثمان، وتخرج عليه مؤلبة الأعداد الهائلة من المسلمين، كما زعم كثير من الباحثين ممن تورط في روايات الشيعة الرافضة والتي لفقوها ووضعوها.

• ندمهم على ما حصل منهم:

قال ابن تيمية: ... وهكذا عامّة السّابقين، ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعليّ ﷺ وغيرهم، ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم^(٧).

(١) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٦٣٤/٥).

(٢، ٣) «البخاري» رقم (٤٧٨٦).

(٤) «دور المرأة السياسي» ص (٤٦٢).

(٦) «دور المرأة السياسي» ص (٤٦٢).

(٥) «البخاري» رقم (٤٧٨٦).

(٧) «المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال»، تعليق: محب الدين الخطيب ص (٢٢٢).

- أ - فأمر المؤمنين علي رضي الله عنه ورد عنه، عندما نظر وقد أخذت السيوف مأخذها من الرجال، فقال: لوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة^(١).
- ب - وروى نعيم بن حماد بسنده إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، أنه قال لسليمان بن سرد: لقد رأيت علياً حين أشد القتال وهو يلوذ بي، ويقول: يا حسن: لوددت أني مت قبل هذا بعشرين سنة^(٢).
- ج - وعن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: أراد أمير المؤمنين علي أمراً، فتتابعت الأمور، فلم يجد منزعاً^(٣).
- د - وعن سليمان بن سرد، عن الحسن بن علي سمع علياً رضي الله عنه يقول - حين نظر إلى السيوف قد أخذت القوم - : يا حسن أكل هذا فينا؟ ليتني مت قبل هذا بعشرين أو أربعين سنة^(٤).
- هـ - وأما عائشة فقد ورد عنها أنها كانت تقول حين تذكر وقعة الجمل: وددت أني كنت جلست كما جلس أصحابي وكان أحب إليّ أن أكون ولدت من رسول الله صلى الله عليه وآله بضعة عشر، كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومثل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه^(٥).
- و - وكانت إذا قرأت قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. تبكي حتى تبل خمارها^(٦).
- ز - قالت عائشة رضي الله عنها: وددت أن لو كان لي عشرون ولداً من رسول الله صلى الله عليه وآله، وكلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وإني ثكلتهم، ولم يكن ما كان مني يوم الجمل^(٧).
- ح - قال ابن تيمية: فإن عائشة لم تقاتل، ولم تخرج لقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين، وظنت أنّ خروجها مصلحة للمسلمين، ثم تبين

(٣) «الفتن» لنعيم بن حماد (٨١/١).

(٥) «الفتن»، لنعيم بن حماد (٨١/١).

(٢، ١) «الفتن» لنعيم بن حماد (٨٠/١).

(٤) «أحداث وأحاديث فتنه الهرج» ص (٢١٧).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١٧٧/٢)، و«الطبقات» (٨١/٨).

(٧) «التمهيد» للباقلاني ص (٢٣٢) عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي كان من نبلأ الرجال وهو من

أشرف بني مخزوم توفي قبل معاوية.

لها فيما بعد أن ترك الخروج كان أولى، فكانت إذا ذكرت خروجها تبكي حتى تبلّ خمارها، وهكذا عامّة السابقين ندموا على ما دخلوا فيه من القتال، فندم طلحة والزبير وعليّ رضي الله عنهم وغيرهم، ولم يكن يوم الجمل لهؤلاء قصد في القتال، ولكن وقع الاقتتال بغير اختيارهم^(١).

ط - قال الذهبي: ولا ريب أن عائشة ندمت ندمه كلية على مسيرها إلى البصرة، وحضورها يوم الجمل، وما ظنّت أن الأمر يبلغ ما بلغ^(٢).

الحادي عشر: سيرة الزبير بن العوام واستشهاده:

هو أبو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب القرشي الأسدي^(٣)، ويجتمع مع النبي صلّى الله عليه وآله في قصي، وهو حواري رسول الله صلّى الله عليه وآله وابن عمته، أمه صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد أصحاب الشورى^(٤)، أسلم وهو حدث وله ست عشرة سنة،^(٥) ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلّى الله عليه وآله^(٦)، وقد تعرض بعد إسلامه للتعذيب، فقد روي أن عمّ الزبير كان يعلق الزبير في حصير ويدخن عليه بالنار وهو يقول: ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً^(٧).

١ - أول من سل سيفه في سبيل الله:

عن سعيد بن المسيب، قال: أول من سلّ سيفه في ذات الله الزبير بن العوام، وبينما الزبير بن العوام قائم في شعب المطابخ إذ سمع نغمة: أن رسول الله قُتل، فخرج من البيت متجرداً السيف صلّتا، فلقى رسول الله صلّى الله عليه وآله كفة كفة^(٨)، فقال: «ما شأنك يا زبير؟» قال: سمعت أنك قُتلت، قال: «فما كنت صانعاً؟» قال: أردت والله أن أستعرض أهل مكة، قال: فدعا له النبي صلّى الله عليه وآله بخير. قال سعيد: أرجو ألاّ تضيع له عند الله عز وجل دعوة النبي صلّى الله عليه وآله^(٩).

(١) المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال» ص (٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٧٧/٢).

(٣) «الإصابة» (٥٢٦/١-٥٢٨).

(٤) «الطبقات الكبرى» (٣/١٠٠)، و«الإصابة» (٥٢٦/١-٥٢٨).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤١/١).

(٦) «سير السلف» (٢٢٦/١) الرواية مرسلة.

(٧) «الطبراني في الكبير» (١٢٢/١).

(٨) كفة كفة: أي مواجهة كان كل واحد منهما قد كف صاحبه عن مجاورته إلى غيره.

(٩) «فضائل الصحابة» (٢/٩١٤) رقم (١٢٦٠) إسناده ضعيف، حسن لغيره.

٢- هجرته للحبشة:

ولما اشتد إيذاء قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضي الله عنهم أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا في جوار «النجاشي» ذلك الملك العادل، فكانوا عنده بخير دار مع خير جار، وظلوا على تلك الحال من الأمن والاستقرار إلى أن نزل رجل من الحبشة لينازع النجاشي في الملك، فحزن المسلمون لذلك حزناً شديداً، وخافوا أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي وهو لا يعرف حق الصحابة الأطهار ولا يعرف قدرهم، وهنا أراد الصحابة رضي الله عنهم أن يعرفوا أخبار الصراع الدائر بين النجاشي وبين هذا الرجل على الجانب الآخر من النيل^(١). قالت أم سلمة رضي الله عنها: فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رجل يخرج حتى يحضر وقبعة القوم ثم يأتينا بالخبر؟ قالت: فقال الزبير بن العوام: أنا، قالوا: فأنت، وكان من أحدث القوم سناً. قالت: فنفعوا له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم قالت: فدَعَوْنَا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده، قالت: فوالله إننا لَعَلَى ذلك متوقعون لما هو كائن؛ إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا، فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه ومكن له في البلاد^(٢). بعد رجوع الزبير من الحبشة إلى مكة قام في كنف الحبيب المصطفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتلقى منه مبادئ الإسلام وأوامره ونواهيه، وعندما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة كان الزبير من ضمن المهاجرين إليها.

٣- في غزوة بدر:

كان الزبير رضي الله عنه فارساً مقداماً، وبطلاً مغواراً، لم يتخلف عن مشهد واحد من المشاهد. تراه في كل غزوة وفي كل معركة، فقد اتصف بالشجاعة الخارقة، والبطولة النادرة والإخلاص الكامل، والتفاني لإعلاء كلمة الحق^(٣)، ولقد بذل الزبير رضي الله عنه الكثير في سبيل الله، وجعل نفسه وماله وقفاً لله عز وجل؛ فأكرمه

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢٧٩/١)، وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم (٢٧٤/١).

(٢) «السيرة النبوية» لابن هشام (٢٧٩/١).

(٣) «أهل الشورى» لرياض العبد الله ص (٦٧).

الله ورفعته في الدنيا والآخرة، فقد كانت عليه عمامة صفراء معتجراً بها يوم بدر، فعن عروة أنه قال: كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء فنزل جبريل على سيماء الزبير^(١). فيالها من منقبة لا توازيها الدنيا بما فيها، وفيه يقول عامر ابن صالح بن عبد الله بن الزبير:

جَدِّي ابْنُ عَمَّةِ أَحْمَدَ وَوَزِيرِهِ
عِنْدَ الْبَلَاءِ وَفَارِسُ الشَّقَرَاءِ
وَعَدَاةَ بَدْرٍ كَانُ أَوَّلَ فَارِسٍ
شَهِدَ الْوَعْيَ فِي الْأُمَّةِ الصَّفَرَاءِ
نَزَلَتْ بِسِيمَاهُ الْمَلَائِكُ نُصْرَةً
بِالْحَوْضِ يَوْمَ تَأَلَّبَ الْأَعْدَاءُ^(٢)

وعن الزبير قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وهو يكنى أبا ذات الكرش، فقال: أنا أبو ذات الكرش، فحملت عليه بالعنزة فطعته في عينه فمات، قال الزبير: لقد وضعت رجلي عليه ثم تمطأت فكان الجهد أن نزعتهما وقد انثنى طرفها. فسأله إياها رسول الله فأعطاه، فلما قبض رسول الله ﷺ، أخذها ثم طلبها أبو بكر فأعطاه، فلما قبض أبو بكر سأله إياها عمر فأعطاه إياها، فلما قبض عمر أخذها، ثم طلبها عثمان منه فأعطاه إياها، فلما قُتل عثمان وقعت عند آل علي، فطلبها عبد الله ابن الزبير، فكانت عنده حتى قتل^(٣).

هذا الخبر يصور لنا دقة الزبير بن العوام في إصابة الهدف، حيث استطاع أن يضع الحربة في عين ذلك الرجل مع ضيق ذلك المكان، وكونه قد وزع طاقته بين الهجوم والدفاع، فلقد كانت إصابة ذلك الرجل بعبيدة جداً؛ لكونه قد حمى جسمه بالحديد الواقى لكن الزبير استطاع إصابة إحدى عينيه، فكانت بها نهايته، ولقد كانت الإصابة شديدة العمق مما يدل على قوة الزبير الجسدية، إضافة إلى دقته

(١) الطبراني في «الكبير» رقم (٢٣٠)، مرسل صحيح الإسناد، و«سير أعلام النبلاء» (٤٦/١).

(٢) «تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين» ص (٥٠١).

(٣) صحيح «البخاري»، كتاب المغازي رقم (٣٩٩٨).

ومهارته في إصابة الهدف^(١). وقد كان يوم بدر مع رسول الله صلّى الله عليه وآله فارسان: الزبير على فرس على الميمنة والمقداد بن الأسود رضي الله عنهما على فرس على الميسرة^(٢).

٤- في غزوة أحد:

قال الزبير رضي الله عنه: جمع لي النبي صلّى الله عليه وآله أبويه يوم أحد^(٣). وهذا دليل على قتاله وبأسه في تلك المعركة، فقد اتصف رضي الله عنه بالثبات والعزيمة، وحب الشهادة في سبيل الله تعالى وقد وصف لنا رضي الله عنه ما فعله أبو دجانة الأنصاري في تلك الغزوة، فعندما التحم الجيشان واشتد القتال، وشرع رسول الله صلّى الله عليه وآله يشحذ في همم أصحابه، ويعمل على رفع معنوياتهم وأخذ سيقًا وقال: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا أنا وكان من ضمنهم الزبير قال: «فمن يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم، فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «أن تضرب به العدو حتى ينحني» قال: أنا أخذه بحقه. فدفعه إليه، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب أي يمشي مشية المتكبر وحين رآه رسول الله صلّى الله عليه وآله يتبختر بين الصفين، قال: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن»^(٤).

ووصف الزبير بن العوام ما فعله أبو دجانة يوم أحد فقال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله السيف فمنعني وأعطاه أبا دجانة، وتركني، والله لأنظرن ما يصنع فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي
وَنَحْنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ

(١) «التاريخ الإسلامي» (١٦٣/٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤٦/١) والرواية مرسلة.

(٣) «فضائل الصحابة» (٩١٨/٢) رقم (١٢٦٧) إسناده صحيح.

(٤) «مسلم»، كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٤٧٠).

أَلَّا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الكَيْوَلِ (١)

أَضْرَبُ بِسَيْفِ اللّهِ والرَّسُولِ (٢)

فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله، وكان من المشركين رجل لا يدع جريحا إلا ذفف (٣) عليه فجعل كل منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة، فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيت قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم (٤)، قال أبو إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يخمش الناس خمشاً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة (٥)، وعن هشام عن أبيه، قالت عائشة: يابن أختي كان أبواك يعني الزبير وأبا بكر من ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ آل عمران: ١٧٢.

لما انصرف المشركون من أحد، وأصاب النبي ﷺ، وأصحابه ما أصابهم، خاف أن يرجعوا، فقال: من يتدب لهؤلاء في آثارهم، حتى يعلموا أن بنا قوة، فانتدب أبو بكر والزبير رضي الله عنهما في سبعين، فخرجوا في آثار المشركين، فسمعوا بهم فانصرفوا، قال تعالى: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ سُوءٌ﴾ آل عمران: ١٧٤ لم يلقوا عدواً، (٦) ولما استشهد حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في أحد جاءت أم الزبير صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى أخيها وقد مثل به المشركون فجدعوا أنفه وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه ومذاكيره، فقال رسول الله لابنها الزبير بن العوام: «الْقَهَا فَأَرْجِعْهَا، لَا تَرَى مَا بِأَخِيهَا»، فقال لها: يا أمه إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فلما جاء الزبير ابن العوام رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بذلك، قال: «خل سبيلها»، فأتته، فنظرت إليه فصلت عليه واسترجعت (٧) واستغفرت له (٨).

(١) الكيول: مؤخرة الصفوف.

(٢) «البداية والنهاية» (١٧/٤).

(٣، ٤) «البداية والنهاية» (١٨/٤).

(٧) استرجعت: قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) ذفف: أجهز عليه.

(٦) «البخاري» رقم (٤٠٧٧).

(٨) «السيرة النبوية» لابن هشام (١٠٨/٣).

وجاء في رواية عن عروة قال: أخبرني أبي الزبير: أنه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى، حتى إذا كادت أن تشرف على القتلى، قال: فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن تراهم، فقال: «المرأة المرأة». قال الزبير: فتوسمت أنها أمي صفية، قال: فخرجت أسعى إليها، فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلَدَمْتُ في صدري، وكانت امرأة جلدة، قالت: إليك، لا أرض لك. قال: فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عزم عليك. قال: فوقفت، وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة، فإذا إلى جانبه رجل من الأنصار قتيل، قد فعل به كما فعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وحياءً أن نكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر، فأقرعنا بينهما، فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي طار له^(١).

٥- في غزوة الخندق: (لكل نبي حوارٍ وحواري الزبير)^(٢).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق: «من يأتينا بخبر بني قريظة؟» فقال الزبير: أنا، فذهب على فرس، فجاء بخبرهم. ثم قال الثانية، فقال الزبير: أنا، فذهب، ثم الثالثة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل نبي حوارٍ، وحواري الزبير»^(٣). ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: «وحواري الزبير»: أي: خاصتي من أصحابي وناصري، ومنه الحواريون أصحاب عيسى صلى الله عليه وسلم أي خلصائه وأنصاره، فالحواري: هو الناصر المخلص، فالحديث اشتمل على هذه المنقبة العظيمة التي تميز بها الزبير رضي الله عنه؛ ولذلك سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رجلاً يقول: أنا ابن الحواري فقال: إن كنت من ولد الزبير وإلا فلا^(٤)، وجاء في «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للعيني: فإن قلت: الصحابة كلهم أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم خلصاء فما وجه التخصيص به قلنا: هذا قاله حين قال صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: «من يأتيني بخبر القوم؟» قال الزبير: أنا، قال: «من يأتيني بخبر القوم؟» فقال: «أنا» وهكذا مرة ثالثة ولاشك أنه في ذلك الوقت نصره نصراً زائداً على غيره^(٥)، وقد فداه

(٢) (٣، ٢) «مسلم» رقم (٢٤١٤).

(٥) «عمدة القاري» (١٩/٢٢٣٩).

(١) «مسند أحمد» (٣/٣٤) الموسوعة الحدِيثية إسناده حسن.

(٤) «مصنف ابن أبي شيبة» رقم (١٢٢١٩)، صحيح

رسول الله ﷺ يوم الأحزاب بأبيه وأمه، فعن عبد الله بن الزبير قال: كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمر ابن أبي سلمة في النساء فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثاً، فلما رجعت قلت: يا أبت رأيتك تختلف قال: وهل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم، قال: كان رسول الله ﷺ قال: «من يأت بني قريظة فيأتيهم؟» فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ أبويه فقال: «فذاك أبي وأمي»^(١).

وهذا الحديث فيه منقبة ظاهرة للزبير رضي الله عنه، حيث فداه رسول الله ﷺ بأبويه، وفي هذه التفدية تعظيم لقدره واعتداد بعمله واعتبار بأمره؛ وذلك لأن الإنسان لا يفدي إلا من يعظمه فيبذل نفسه أو أعز أهله له^(٢)، لقد نال الزبير في غزوة الخندق وساماً خالداً باقياً على مر السنين: «لكل نبي حوارٍ وحواري الزبير»^(٣). لقد وصف النبي ﷺ الزبير بالحواري، وصف عميق الدلالة واسع المفاهيم، والدارس لهذه المعاني يدرك أبعاد كلمة الحواري، ويتبين معالمها ويعرف أسرارها وأغوارها، وأكثر من يحتاج إلى العناية بهذه المفاهيم: هم العلماء والدعاة والمربون؛ لأن الدعوة الإسلامية تحتاج إلى إعداد الحواريين ليقدموا نماذج حية في الأسوة والقدوة؛ لأن القدوة العملية أقوى وأشد تأثيراً في نشر المبادئ والأفكار؛ لأنها تجسيد وتطبيق عملي لها، يسهل مشاهدتها والتأثر والاقتران بها، ولأن الحواريين يأخذون بسنة الرسول ﷺ ويقتدون بأمره^(٤)، كما جاء في الحديث: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره»^(٥).

ومن سنن الدعوات أن مسيرتها تمر بالفتن والمحن، وتبتلى من أصدقائها وأعدائها، وحرص الرسول ﷺ على إرشاد المسلمين إلى هذه المتغيرات والحوادث فقال: «ثم إنها تخلف من بعدها خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون»^(٦).

(٢) «تحفة الأحوزي» (١٠/٢٤٦).

(١) «البخاري» رقم (٣٧٢٠).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/٢٦، ٢٧).

(٣) «مسلم» رقم (٢٤١٤).

(٦) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/٢٦، ٢٧).

(٥) «دراسات تربوية» للأعظمي ص (٢٠٦).

فما مهمة الحوارية؟ القدوة الحسنة والإيمان التطبيقي والإخلاص والفاء، التي هي أبرز صفات الحواريين فيكون مثال حقيقي لورثة الأنبياء فيسعى لنشر الحق والخير وهداية الأمة والنهوض بها من كبوتها، ويضحى في سبيل الله بكل غالٍ ونفيس ليجدد للإسلام شبابه ونضارته، في الوقت الذي يكون ساقطو المهمة لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية^(١). والزيير بن العوام رضي الله عنه نموذج فذ في تجسيد هذه المعاني، فقد تربى في أحضان الدعوة على يدي النبي عليه السلام، وتلقى الجرعات المطلوبة لتحمل أعبائها منذ شبابه الباكر، وموقف الزيير في غزوة الأحزاب يصور لنا شخصيته، ونشأته على الجرأة والنصرة ومحفته للرسول عليه السلام، وأثبتت الأيام أنه كان رضي الله عنه رجل المهمات الصعبة، فقد اتصف بالجرأة والإقدام؛ فكلف بمهمة كشف أسرار العدو، وما حدث مع الزيير يشير إلى مشروعية تقسيم الأعمال وتصنيف الدعاة، كل حسب إخلاصه، وفدائيته وتضحيته ومواهبه وطاقته^(٢).

هذا وقد شارك الزيير في كل غزوات الرسول عليه السلام وكان له مواقف مشرفة، وكان في عهد الراشدين رضي الله عنهم من أعمدة الدولة في فتوحاتها الكبيرة.

٦- في غزوة اليرموك:

عن عروة: أن أصحاب رسول الله عليه السلام قالوا للزيير يوم اليرموك: ألا تشدُّ فنشد معك؟ فقال: إني إن شددت كذبتم فقالوا: لا نفع، فحمل عليهم حتى شق صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مُقبلاً فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير. قال عروة: وكان معه عبد الله بن الزيير يومئذ، وهو ابن عشر سنين فحمله على فرس ووكل به رجلاً^(٣). قال الذهبي في السير معلّقاً: هذه الواقعة هي يوم اليمامة إن شاء الله، فإن عبد الله كان إذ ذاك ابن عشر سنين^(٤)، وذكر ابن كثير أن الواقعة هي «اليرموك» ولا مانع من وقوع ذلك في الموقعين، فقد

(٢) المصدر نفسه ص (٢٠٨).

(١) «دراسات تربوية في الأحاديث النبوية» ص (٢٠٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/٦٣).

(٣) «البخاري» رقم (٣٩٧٥).

قال ابن كثير: وقد كان فيمن شهد اليرموك الزبير ابن العوام رضي الله عنه، وهو أفضل من هناك من الصحابة، وكان من فرسان الناس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ، فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون. فقالوا: بلى. فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا وأقدم هو، فاخترق صفوف الروم حتى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاؤوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذ جرحين بين كتفيه وفي رواية: جرح^(١). ويقول ابن كثير مرة أخرى: خرج مع الناس إلى الشام مجاهدًا، فشهد اليرموك، فتشرفوا بحضوره، وكانت لهم به اليد البيضاء والهمة العليا، اخترق جيوش الروم وصفوفهم مرتين، من أولهم إلى آخرهم^(٢).

٧- في فتح مصر:

ولما قصد عمرو بن العاص مصر؛ لفتحها كان معه قوات لم تكن كافية لفتحها، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمده ويطلب المدد من الرجال، فأشفق عمر من قلة عدد قوات عمرو، فأرسل الزبير بن العوام مع اثني عشر ألفًا، وقيل: أرسل عمر أربعة آلاف رجل، عليهم من الصحابة الكبار: الزبير، والمقداد ابن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة ابن مخلد رضي الله عنه، وقال آخرون: خارجة بن حذافة هو الرابع، وكتب إليه: إنني أمددتك بأربعة آلاف، على كل ألف منهم رجل مقام ألف. وكان الزبير على رأس هؤلاء الرجال^(٣). وحين قدم الزبير على عمرو رضي الله عنه وجده محاصرًا حصن بابلين، فلم يلبث الزبير أن ركب حصانه وطاف بالخندق المحيط بالحصن، ثم فرق الرجال حول الخندق، وطال الحصار حتى بلغت مدته سبعة أشهر، فقيل للزبير: إن بها الطاعون. فقال: إنا جئنا للطعن والطاعون^(٤)، وأبطأ الفتح على عمرو بن العاص، فقال الزبير: إنني أهب نفسي لله، أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سلمًا وأسنده إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام ثم صعد، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن

(١) «البداية والنهاية» (٧/ ٢٦٠).

(١) «البداية والنهاية» (٦٣/١).

(٣) «فتوح مصر والمغرب» ص (٦١)، و«قادة فتح الشام ومصر» ص (٢٠٨، ٢٢٦).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٥٥).

يجبوه جميعاً، فما شعروا إلا والزيبر على رأس الحصن يكبر ومعه السيف، فتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو؛ خوفاً من أن ينكسر، فلما رأى الروم أن العرب قد ظفروا بالحصن انسحبوا، وبذلك فتح حصن بابلون أبوابه للمسلمين، فانتهت بفتحه المعركة الحاسمة لفتح مصر، وكانت شجاعة الزيبر رضي الله عنه النادرة السبب المباشر لانتصار المسلمين على المقوقس^(١).

٨- غيرة الزيبر بن العوام رضي الله عنه:

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها قالت: تزوجني الزيبر رضي الله عنه، وماله في الأرض مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه. قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه، وأدق النوى للناضح، وأعلفه وأسقيه الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن الخبز فكان يخبز لي جارات من الأناصير وكن نسوة صدق. قالت: وكنت أنقل النوى من أرض الزيبر التي أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ قالت: فجئت يوماً والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه نفر من أصحابه فدعا لي، ثم قال: «إخ إخ»؛ ليحملني خلفه، فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزيبر وغيرته. قالت: وكان من أغير الناس. قالت: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إنني قد استحييت فمضى، فجئت الزيبر فقلت: لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسي النوى، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه، فاستحييت وعرفت غيرتك، فقال: والله لحمك النوى كان أشد علي من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلي أبو بكر بعد ذلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني^(٢).

٩- تسمية الزيبر أولاده بأسماء الصحابة الشهداء:

من شدة حب الزيبر رضي الله عنه للشهادة، كان أن سمي أولاده بأسماء الصحابة الشهداء، فقد روى هشام بن عروة عن أبيه قال: قال الزيبر: إن طلحة يسمي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وإنني أسمي بأسماء الشهداء لعلهم يستشهدون: عبدالله بعبد الله بن جحش، والمنذر بالمنذر بن

(١) «قادة فتح الشام ومصر» ص (٢٠٩، ٢٢٧).

(٢) «حياة الصحابة» (٢/٦٩١)، و«أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم» (١/٢٨١).

عمرو، وعروة بعروة بن مسعود، وحمزة بحمزة بن عبد المطلب، وجعفر بجعفر ابن أبي طالب، ومصعب بمصعب بن عمير، وعبيدة بعبيدة بن الحارث، وخالد بخالد بن سعيد، وعمرو بعمرو بن سعيد بن العاص قتل باليرموك^(١).

١٠ - إخفاء الطاعات عند الزبير رضي الله عنه:

قال الزبير بن العوام رضي الله عنه: أيكم استطاع أن يكون له خبيثة من عمل صالح، فليعمل^(٢).

١١ - ما قاله حسان بن ثابت من شعر في مدح الزبير:

مرّ الزبير بمجلس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدهم من شعره، وهم غير نشاط لما يسمعون منه، فجلس معهم الزبير، ثم قال: مالي أراكم غير أذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة، فلقد كان يعرض به رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه، فقال حسان يمدح الزبير:

أَقَامَ عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ وَهَدْيِهِ
حَوَارِيَهُ وَالْقَوْلُ بِالْفِعْلِ يُعَدُّ
أَقَامَ عَلَىٰ مِنْهَاجِهِ وَطَرِيقِهِ
يُوَالِي وَلِيَّ الْحَقِّ وَالْحَقُّ أَعْدَلُ
هُوَ الْفَارِسُ الْمَشْهُورُ وَالْبَطْلُ الَّذِي
بِأَبْيَضٍ سَبَّاقٌ إِلَى الْمَوْتِ يُرْقِلُ^(٣)
إِذَا كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا الْحَرْبُ حَشَّهَا
يَصُولُ إِذَا مَا كَانَ يَوْمٌ مُحَجَّلُ
وَإِنْ امْرَأً كَانَتْ صَفِيَّةً أُمَّهُ
وَمَنْ أَسَدًا فِي بَيْتِهَا لَمُؤْتَلُ^(٤)

(١) «تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين» ص (٥٠٥)، و«الطبقات» (١٠١/٣).

(٢) «الزهد» لابن المبارك ص (٣٩٢).

(٣) يرقل: يسرع؛ وهي سرعة سير الإبل. (٤) في الديوان وعند الحاكم: لمرفل: وهو العظيم المبجل.

لَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ قُرْبَىٰ قَرِيبَةً
 وَمِنْ نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ مَجْدٌ مُّؤْتَلٌ^(١)
 فَكَمْ كُرْبَةً ذَبَّ الزَّبِيرُ بِسَيْفِهِ
 عَنِ الْمُصْطَفَىٰ وَاللَّهُ يُعْطِي فَيُجْزِلُ
 ثَنَاؤَكَ خَيْرٌ مِنْ فِعَالِ مَعَاشِرِ
 وَفِعْلِكَ يَا بَنُ الْهَاشِمِيَّةِ أَفْضَلُ^(٢)
 ١٢ - كرم الزبير بن العوام رضي الله عنه:

روي عن عروة بن الزبير أنه قال: أوصى إلى الزبير سبعة من الصحابة منهم عثمان وابن مسعود وعبد الرحمن رضي الله عنهم، فكان ينفق على الورثة من ماله ويحفظ أموالهم^(٣).

وهذا مثل رفيع من أمثلة الكرم والوفاء، وهو يجسّم المعاني السامية في النفس حتى تبقى هي الماثلة في الضمير الحي، وتبعاً لذلك يُسخر هذا الضمير الحي كل ما يملك من أجل سيادة هذه المعاني، وقد تجود النفس مرة ومرة، ثم يعترضها شيء من الفتور، فأما أن يتكفّل مثل هذا الشهم السخي بالنفقة على ورثة عدد من الصحابة، ويحفظ لهم أموالهم فهو نموذج فريد في عالم الواقع، ومؤشر مهم من مؤشرات الرقي الأخلاقي لدى الصحابة رضي الله عنهم^(٤).

١٣ وحان وقت الرحيل، وشهادة رسول الله صلّى الله عليه وآله له بدخول الجنة:

خرج الزبير بن العوام رضي الله عنه من معركة الجمل في الجولة الأولى وقد بينا الأسباب في تركه لساحة المعركة وعند خروجه من ساحة القتال كان يتمثل قول الشاعر:

تَرَكَ الْأُمُورَ الَّتِي أَخْشَىٰ عَوَاقِبَهَا
 فِي اللَّهِ أَحْسَنُ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥٧/١).

(٤) «التاريخ الإسلامي» (١٣١/١٧).

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥٦/١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٣١/١).

وقيل : إنه أنشد :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَوْ أَنَّ عَلَمِي نَافِعِي

أَنَّ الْحَيَاةَ مِنَ الْمَمَاتِ قَرِيبٌ^(١)

وبعد خروجه تبعه عمرو بن جرموز وفضالة بن حابس ونفيع في طائفة من غواة بني تميم ، فيقال : إنهم لما أدركوه تعاونوا عليه حتى قتلوه ، ويقال : بل أدركه عمرو بن جرموز فقال له عمرو : إن لي إليك حاجة فقال : ادن فقال مولى الزبير ، واسمه عيطه : إن معه سلاحاً ، فقال : وإن ، فتقدم إليه فجعل يحدثه وكان وقت الصلاة فقال له الزبير : الصلاة فقال : الصلاة ، فتقدم الزبير ليصلي بهما فطعنه عمرو بن جرموز فقتله ويقال : بل أدركه عمرو بواد يقال له : وادي السباع وهو نائم في القائلة^(٢) ، فهجم عليه فقتله وهذا هو القول الأشهر ، ويشهد له شعر امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت آخر من تزوجها وكانت قبله تحت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقتل عنها وكانت قبله تحت عبد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقتل عنها ، فلما قتل الزبير رثته بقصيدة محكمة المعنى فقالت :

غَدَرَ ابْنُ جُرْمُوزَ بِفَارِسٍ بِهَمَّةٍ

يَوْمَ اللَّقَاءِ وَكَانَ غُرٌّ مُعَرِّدٌ^(٣)

يَا عَمْرُو لَوْ نَبَّهْتَهُ لَوَجَدْتَهُ

لَا طَائِشًا رَعَشَ الْجَنَانَ^(٤) وَلَا الْيَدِ

ثَكَلْتِكَ أُمَّكَ أَنْ ظَفَرْتَ بِمِثْلِهِ

مِمَّنْ بَقِيَ مِنْ يَرُوحٍ وَيَغْتَدِي

كَمْ غَمْرَةٍ قَدْ خَاضَهَا لَمْ يَثْنِهِ

عَنْهَا طَرَادُكَ يَا بِنَ فَقَعَ الْعَرْدُ^(٥)

(١) «سير أعلام النبلاء» (١/٦٠) .

(٢) القائلة : وقت اشتداد حرّ الظهر .

(٣) معرد : المعرد : الصلب والشجاع .

(٤) الجنان : القلب .

(٥) «البداية والنهاية» (٧/٢٦١) . العرد : الصلب الشديد .

والله ربِّي إن قَتَلتَ لِمُسْلِمًا حَلَّتْ عَلَيْكَ عَقُوبَةُ التَّعَمُّدِ (١)

ولما قتله عمرو بن جرموز، فاحتز رأسه وذهب به إلى علي رضي الله عنه ورأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده فاستأذن فقال علي: بشر قاتل ابن صفية بالنار، ثم قال علي: سمعت رسول الله يقول: «لكل نبي حواري وحواري الزبير» (٢)، ولما رأى علي سيف الزبير قال: إن هذا السيف طالما فرج الكرب عن وجه رسول الله (٣)، وفي رواية: منع أمير المؤمنين علي ابن جرموز من الدخول عليه، وقال للآتي: بشر قاتل ابن صفية بالنار (٤)، ويقال: إن عمرو بن جرموز قتل نفسه عهد علي، وقيل: بل عاش إلى أن تأمر مصعب ابن الزبير، على العراق فاختمى منه، ف قيل لمصعب: إن عمرو بن جرموز ههنا وهو مختم، فهل لك فيه؟ فقال: مروه فليظهر فهو آمن، والله ما كنت لأقيد (٥) للزبير منه فهو أحقر من أن أجعله عدلاً للزبير (٦).

هذا وقد أخبر الحبيب المصطفى صلوات الله عليه أن الزبير سيموت شهيداً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه كان على جبل حراء، فتحرك فقال رسول الله صلوات الله عليه: «اسكن حراء؛ فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد» وعليه النبي صلوات الله عليه وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير رضي الله عنهم. قال النووي: وفي هذا الحديث معجزات لرسول الله صلوات الله عليه، منها إخباره أن هؤلاء شهداء، وماتوا كلهم - غير النبي صلوات الله عليه وأبي بكر رضي الله عنه - شهداء، فإن عمر وعثمان وعلياً وطلحة والزبير رضي الله عنهم قتلوا ظلماً شهداء، فقتل الثلاثة مشهور، وقتل الزبير بوادي السباع بقرب البصرة منصرفاً تاركاً للقتال، وكذلك طلحة اعترل الناس تاركاً للقتال، فأصابه سهم فقتله وقد ثبت أن من قُتل مظلوماً فهو شهيد (٨).

(١) «البداية والنهاية» (٢٦١/٧).

(٢) «البداية والنهاية» (٢٦١/٧).

(٣) «فضائل الصحابة» (٩٢٠/٢).

(٤) «الطبقات» (١٠٥/٣) إسناده حسن، و«خلافة علي» ص (١٦٤) لعبد الحميد.

(٥) أفيد: قود: القتل بالقاتل.

(٦) «البداية والنهاية» (٢٦١/٧).

(٧) «مسلم» رقم (٢٤١٧).

(٨) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٢٧١/١٥).

قال الشعبي: أدركت خمسمائة أو أكثر من الصحابة يقولون: عليٌّ وعثمان وطلحة والزبير في الجنة، قال الذهبي: قلت: لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة، ومن البدرين، ومن أهل بيعة الرضوان، ومن السابقين الأولين الذي أخبر تعالى أنه رضي عنهم ورضوا عنه، ولأن الأربعة قُتلوا، ورزقوا الشهادة، فنحن محبون لهم باغضون للأربعة الذين قُتلوا الأربعة^(١).

١٤ - حرصه على أداء دينه عند الموت:

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: جعل الزبير يوم الجمل يوصيني بدينه، ويقول: إن عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي. قال: فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت: يا أبت من مولاك؟ قال: الله، قال: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير اقضِ عنه، فيقضيه، وإنما كان دينه الذي عليه: أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه فيقول الزبير: لا، ولكنه سلف فإني أخشى عليه الضيعة. قال: فقتل ولم يدع ديناراً ولا درهماً إلا أرضين، فبعتهما يعني وقضيت دينه فقال بنو الزبير: أقسم بيننا ميراثنا. فقلت: والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين: ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه، فجعل كل سنة ينادي بالموسم، فلما مضى أربع سنين قسم بينهم وكان للزبير أربع نسوة، فأصاب كل امرأة ألف ومائتا ألف. فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف^(٢)، وقول البخاري رحمه الله محمول على أن جملة المال حين الموت كانت ذلك دون الزائد في أربعة سنين دون القسمة^(٣)، وقد وقع في تركته من البركة الشيء الكثير^(٤).

وبارك الله له في أراضيه بعد موته فوفى دينه وزاد عليه الشيء الكثير وفي هذه القصة درس وعبر وفوائد:

أ- قول الزبير لابنه: يا بني إن عجزت عن شيء منه فاستعن بمولاي: وهذا

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦٢/١).

(٢) «البخاري» رقم (٣١٢٩).

(٣) «شذرات الذهب» (٢٠٩/١).

(٤) «الإصابة» لابن حجر (٤٦١/٢).

مثل من أمثلة اليقين الراسخ والإيمان القوي، الذي ترتب عليه صدق التوكل على الله عز وجل، واللجوء إليه في قضاء الحوائج وكشف الكربات، فالمؤمن الحق يعتقد جازماً بأن كل شيء بيد الله جلّ وعلا، فإذا وقع في ضائقة وكرب؛ فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه تصور وجود الله تعالى وهيمته على كل شيء، وأن المخلوقين الذين يُشكلون طرفاً آخر في قضيته إنما هم في قبضة البارئ جلّ وعلا، وأن قلوبهم بيده سبحانه يصرفها كيف يشاء، فليلجأ إليه قبل كل شيء، ويسأله قضاء حاجته وتفريج كربته، ثم يقوم بعمل الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها موصلة إلى النتائج المطلوبة، مع الاعتقاد بأنها مجرد أسباب وأن الفاعل والمقدّر هو الله تعالى، وأنه قادر على أن ينزع من الأسباب قوة التأثير فلا تؤدي إلى نتائجها^(١) المعروفة.

ب- هل كان الزبير رضي الله عنه من الأثرياء؟

نرى النصّ السابق ينطق: بأن الزبير رضي الله عنه، ما كان من الأثرياء أصحاب الأموال المعروفين المشهورين بذلك، بل كان يشعر بالضائقة ويهمه أمر ما في ذمته من أموال، وديون وكان يخشى ألا تفي أرضه وعقاره بما عليه من أموال، كما ينطق هذا النصّ أيضاً: بأن عبد الله بن الزبير ما كان يخالف أباه في توقعه، بل كان يتوقع مثله أن الديون تزيد على الأموال والأرض، يقول له أبوه: أفترى يُبقي ديننا من مالنا شيئاً؟ فلا يجد عبد الله جواباً لأبيه، ولو كان يتوقع غير ما توقع أبوه، لأجابه مطمئناً إياه في هذا الوقت العصيب، بأن الأمر غير ما يقدر ويتوقع، بل تجده يجاري أباه صراحة في توقعه، فيسأله عندما أشار عليه أن يستعين بمولاه، من مولاك؟ فهو يتوقع أنه سيستعين به، ولا يزعمن زاعم بأن عبد الله لم يكن محيطاً بثروة أبيه، عارفاً بأملاكه، فإن عبد الله كان في ذلك الوقت في سن الخامسة والثلاثين، ومن يكن في مثل هذه السن من شأنه أن يكون ظهيراً لأبيه، عالماً بكل أحواله وأمواله، وبخاصة إذا كان هو الابن الأكبر، وإن سؤال الزبير له: أفترى يُبقي ديننا من مالنا شيئاً؟ يشهد بأن عبد الله

(١) «التاريخ الإسلامي» (٣٠٩/٢٠).

كان على علم بأحوال أبيه وأمواله، بل إن عبد الله صرح بأن أمر قضاء الدين ما كان سهلاً ولا هيناً، فيقول: فوالله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت: يا مولى الزبير، اقض عنه دينه فيقضيه^(١).

وما يشهد أيضاً بأن الزبير لم يكن معدوداً من الأغنياء، وأصحاب الثروات وأن توقعه عن ديونه ونسبتها إلى أملاكه كان في موضعه ومحله أن حكيم بن حزام رضي الله عنه وهو ابن عم الزبير تلقى عبد الله بن الزبير فيقول له: ما أراكم تطيقون هذا الذي عليكم من الديون فإن عجزتم عن شيء منه؛ فاستعينوا بي^(٢)، ودليل رابع: يأتي عبد الله بن جعفر رضي الله عنه لعبد الله بن الزبير وكان له عند الزبير أربعمائة ألف، فيقول لابن الزبير: إن شئتم تركتها لكم قال عبد الله بن الزبير: لا، قال عبد الله بن جعفر: فإن شئتم جعلتموها فيما تؤخرون إن أحرتم^(٣)، فهذه شهادة اثنين من كبار الصحابة يتوقعان عدم وفاء أملاك الزبير بما عليه من ديون ويعد أنه ممن يحتاج إلى عون ومساعدة ثم هما ممن يعرف الزبير ويخالطه، ويطلع على أحواله، فأحدهما حكيم بن حزام ابن عم الزبير، والآخر ابن ابن خاله، فأم الزبير صفية بنت عبد المطلب عممة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يتعامل معه أخذاً وعطاءً وافتراساً وائتماتاً، فهذه أدلة أربعة لا يرقى إليه الشك تنطق بأن الزبير رضي الله عنه ما كان من أصحاب الثروات^(٤).

وقد فشا فيما فشا عن ثروة الزبير وغناه الحديث عن عبيده وخيوله ففي بعض المصادر أنه كان ألف مملوك، وأن الألف مملوك كانوا يؤدون إليه الخراج كل يوم، فما يدخل إلى بيته منها درهماً واحداً يتصدق بذلك جميعه^(٥).

لكن المستشرق الذائع الصيت «ول ديورانت» جعل الألف عشرة آلاف، فقال: كان الزبير يمتلك عشرة آلاف عبد، ثم أضاف إليها ألف جواد^(٦)، وبالطبع حذف المستشرق (الذكي) خبر تصدق الزبير بخراج ممالিকে^(٧)، وهذا الخبر لا يقف أمام

(٢، ٣) «البخاري» رقم (٣١٢٩).

(١) «البخاري» رقم (٣١٢٩).

(٤) «الزبير بن العوام، الثروة والثورة»، لعبد العظيم اللبيب ص (٩).

(٥) «سير السلف الصالحين» (١/٢٢٧) في إسناده ضعف.

(٧) المصدر نفسه ص (١٣).

(٦) «الزبير بن العوام، الثروة والثورة» ص (١١).

رواية البخاري؛ إذ جاء فيها : فقتل الزبير ولم يترك ديناراً ولا درهماً، إلا أرضين منها الغابة، وإحدى عشرة داراً بالمدينة، ودارين بالبصرة، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر^(١)، فالرواية واضحة، وهي بأسلوب الحصر، وفي مقام الحديث عن همّ الدين، والكرب التي كانت في سبيل سداه، فلو كان هناك ألف مملوك، لكان لها ذكر، ولثمنها قيمة وقدر، ألا يساوي المملوك الواحد في أقل تقدير ألفي درهم^(٢)؟ فيكون ثمن الممالك هو قيمة الدين كله إلا قليلاً، هذا كله على فرض أنها كانت ألفاً فقط، أما إذا أخذنا بشطحة «ول ديورانت»، وأنها عشرة آلاف مملوك؛ فمعنى ذلك نسف رواية البخاري من أساسها، فإن عشرة آلاف مملوك وألف جواد يكفي ثمنها مهما كان بخساً أن يسدد ديونه، ويغرق ورثته في لجج الثراء، وما كان الزبير بحاجة إلى أن يقول لابنه: إن من أكبر همي لديني. ولا أن يسأله: أترى يبقى ديننا من مالنا شيئاً؟ ولا أن يوصيه: إذا أعجزك شيء من ديني، فاستعن عليه بمولاي^(٣).

إن الحديث عن سيرة الزبير وطلحة وعمرو بن العاص، وأبي موسى الأشعري وأم المؤمنين عائشة ينسجم مع أهداف الكتاب، من حيث الحديث عن سيرة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وعصره، فهذه الشخصيات تعتبر محورية في الحديث عن عصر أمير المؤمنين علي كما أن التشويه الذي لحق بها في كتب التاريخ والأدب يكون عند الحديث في الفتن الداخلية، فبيان سيرتهم، وأخلاقهم وصفاتهم، واجب علينا، وحتى يخرج القارئ بمعرفة حقيقية لهذه الشخصيات، فلا يتأثر بالروايات الضعيفة، ولا القصص الموضوعية التي وضعها مؤرخو الشيعة الرافضة والتي شوهدت ثقافة الناس عن هذه الشخصيات العظيمة، فالحديث عن سيرة الزبير أو غيره من كبار الصحابة التي ساهمت في الأحداث في عهد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ينسجم مع أهداف المؤلف التي أراد إيصالها للقارئ من خلال دراسته لعهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

(١) «البخاري» (٣١٢٩).

(٢) «الزبير بن العوام، الثروة والثورة» ص (١٤).

(٣) «البخاري» رقم (٣١٢٩).

الثاني عشر: سيرة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه واستشهاده:

هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي^(١)، يجتمع مع النبي ﷺ في مرة بن كعب ومع أبي بكر الصديق رضي الله عنه في تيم بن مرة وعدد ما بينهم من الآباء سواء^(٢)، وأمه رضي الله عنها الصعبة بنت الحضرمي امرأة من أهل اليمن وهي أخت العلاء بن الحضرمي^(٣)، أسلمت ولها صحبة وظفرت بشرف الهجرة^(٤)، وطلحة رضي الله عنه أحد العشرة الذين بشروا بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا على الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأحد الستة أصحاب الشورى^(٥).

١ - إسلامه وابتلاؤه وهجرته:

قال طلحة بن عبيد الله: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة: نعم، أنا. فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل، وحرّة^(٦)، وسباخ^(٧)، فإياك أن تسبق إليه، قال طلحة: فوقع ما قال في قلبي، فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد الله الأمين تنبأ، وقد تبعه ابن أبي قحافة. قال طلحة: فخرجت حتى دخلت على أبي بكر رضي الله عنه، وقلت: أتبعته هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه، فادخل عليه، فاتبعه، فإنه يدعو إلى الحق وإلى الخير وأخبر طلحة أبا بكر بما قال الراهب فخرج أبو بكر بطلحة، فدخل به على رسول الله ﷺ، فأسلم طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب؛ فسر

(١) «الإصابة» (٢/ ٢٢٠)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر على حاشية «الإصابة» (٢/ ٢١٠).

(٢) «فتح الباري» (٧/ ٨٢).

(٤) «الإصابة» (٤/ ٣٣٧)، و«فتح الباري» (٧/ ٨٢).

(٥) «المستدرک» للحاكم (٣/ ٣٦٩)، و«عقيدة أهل السنة في الصحابة» (١/ ٢٢٨).

(٦) حرّة: هي الأرض الغليظة ذات الحجارة السود النخرات.

(٧) سباخ: جمع سبخة، وهي أرض ذات نرّ وملح.

رسول الله صلوات الله عليه ، فلما أسلم أبو بكر وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، أخذهما نوفل ابن خويلد بن العدوية ، فشدّهما في حبل واحد ، ولم يمنعهما بنو تميم ، وكان نوفل يدعى أسد قريش ، ولذلك سُمِّي أبو بكر وطلحة القرينين^(١) ، هذا وقد أوذى طلحة في الله ولقي أذى كبيراً من المشركين ، ومن عشيرته الأقرين ، وبقي طلحة رضي الله عنه صابراً على الأذى والعذاب حتى أذن الله عز وجل بالهجرة ، ولما ارتحل رسول الله صلوات الله عليه مهاجراً إلى المدينة لقيه طلحة قادماً من الشام في عير ، فكسا رسول الله وأبا بكر من ثياب الشام ثم مضى طلحة إلى مكة حتى فرغ من حاجته ، ثم خرج بعد ذلك بآل أبي بكر رضي الله عنه فهو الذي قدم بهم المدينة ، فطلحة من المهاجرين الأوّلين رضي الله عنهم^(٢) ، ولما قدم طلحة المدينة آخى رسول الله بينه وبين أبي أيوب الأنصاري^(٣) ، وقيل : كعب بن مالك الأنصاري ، حين آخى بين المهاجرين والأنصار^(٤) .

٢- في غزوة بدر:

كان طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قد كُفِّ بتحسس عير قريش ، وذلك لما تحيّن رسول الله صلوات الله عليه وصول عير من الشام لقريش ، فقد بعث صلوات الله عليه طلحة وسعيد ابن زيد رضي الله عنهما يأتياه بالأخبار ، فخرجا وبلغا الحوراء ، فلم يزلوا مقيمين هناك حتى مرت العير ، فتساحلت ، فعادا إلى المدينة بالأخبار ، فكان رسول الله صلوات الله عليه قد خرج بالمسلمين في غزوة بدر ، فأسرعا لينضموا إلى الجيش ، إلا أنهما لم يدركا المعركة ، وضرب لهما رسول الله صلوات الله عليه بسهمهما وأجورهما ، سهماً كالمقاتلين ، وأجرأ كالمجاهدين^(٥) .

٣- في غزوة أحد ، أوجب طلحة رضي الله عنه:

عن جابر قال : لما كان يوم أحد وولّى الناس كان رسول الله صلوات الله عليه في ناحية في اثني عشر رجلاً منهم طلحة ، فأدركه المشركون ، فقال النبي صلوات الله عليه : « مَنْ

(١) «البداية والنهاية» (٢٥٨/٧) .

(٢) «البداية والنهاية» (٢٥٨/٧) ، و«فرسان من عصر النبوة» ص (٢٢٥) .

(٣) «البداية والنهاية» (٢٥٨/٧) .

(٤) «فرسان من عصر النبوة» ص (٢٢٥) ، و«الاستيعاب» لابن عبد البر .

(٥) الحاكم في «المستدرک» (٣/٣٦٩) ، و«الاستيعاب» (٤١٨٨) .

للقوم؟» قال طلحة: أنا، قال: «كما أنت». فقال رجل من الأنصار: أنا، قال: «أنت»، فقاتل حتى قُتل. ثم التفت، فإذا المشركون فقال: «من لهم؟» قال طلحة: أنا، قال: «كما أنت»، فقال رجل من الأنصار: أنا، قال: «أنت»، فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى بقي مع نبي الله ﷺ (طلحة)، فقال: «من للقوم؟» قال طلحة: أنا، فقاتل طلحة قتال الأحد عشر، حتى قطعت أصابعه فقال: حسى. فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: باسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون». ثم رد الله المشركين^(١)، وعند أحمد. فقال له النبي ﷺ: «لو قلت: باسم الله لرأيت يبنى لك بها بيت في الجنة وأنت حي في الدنيا»^(٢)، وعن قيس ابن حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد^(٣)، وجرح في تلك الغزوة تسعاً وثلاثين، أو خمساً وثلاثين وشئت إصبعه أي السبابة والتي تليها^(٤)، وروى أبو داود الطيالسي عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة^(٥)، وعن عائشة وأم إسحاق بنت طلحة قالتا: جرح أبونا يوم أحد أربعاً وعشرين جراحة، وقع منها في رأسه شجرة مربعة، وقُطع نساها يعني العرق وشئت أصبعه، وكانت سائر الجراح في جسده وغلبه الغشي -الإغماء- ورسول الله ﷺ يرجع به القهقري؛ كلما أدركه أحد من المشركين، قاتل دونه حتى أسنده إلى الشعب^(٦)، حتى قال عنه رضي الله عنه: «أوجب طلحة» حين صنع برسول الله ما صنع^(٧).

٤- شهيد يمشي على الأرض:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء، فتحرك. فقال رسول الله ﷺ: «اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد»، وعليه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وطلحة والزبير وسعد ابن

(١) «السلسلة الصحيحة» رقم (٢١٧١)، الحديث حسن بمجموع طرقه.

(٢) «فضائل الصحابة» رقم (١٢٩٤) إسناده صحيح.

(٣) «البخاري» رقم (٤٠٦٣).

(٤) «البخاري» (٣٦١/٧)، و«أصحاب الرسول ﷺ» (١/٢٦٤).

(٥) «فتح الباري» (٧/٣٦١).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (١/٣٢).

(٧) «صحيح الجامع» للألباني (٢٥٤٠).

أبي وقاص رضي الله عنه،^(١) فلما علم طلحة بأنه سيموت شهيداً وذلك بعد أن سمع تلك البشرى من الحبيب المصطفى صلّى الله عليه وآله ظل يبحث عن الشهادة في مظانها، فشهد المشاهد كلها مع النبي صلّى الله عليه وآله عدا غزوة بدر^(٢)، فقد كان في مهمة كلفه بها رسول الله صلّى الله عليه وآله كما مرّ معنا، وقال عنه النبي صلّى الله عليه وآله: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض، فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله»^(٣).

٥- من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه:

عن موسى وعيسى ابني طلحة عن أبيهما: أن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله قالوا لأعرابي جاء يسأل رسول الله عن من قضى نحبه من هو؟ فكانوا لا يجترئون على مسأله يوقرونه ويهابونه قال: فسأله الأعرابي فأعرض عنه، ثم سأله فأعرض عنه، ثم إنني اطلعت من باب المسجد -يعني طلحة- وعليّ ثياب خضر فلما رأي رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «أين السائل عن من قضى نحبه؟» قال الأعرابي: أنا يا رسول الله، قال: «هذا من قضى نحبه»^(٤).

٦- دفاعه عن إخوانه وإحسان الظن بهم:

عن مالك بن أبي عامر، قال: جاء رجل إلى طلحة فقال: أرايتك هذا اليماني، هو أعلم لحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله منكم -يعني أبا هريرة- نسمع منه أشياء لا نسمعها منكم، قال: أما إن قد سمع من رسول الله صلّى الله عليه وآله ما لم نسمع، فلا أشك، وسأخبرك، إنّنا كنا أهل بيوت، وكنا إنّما تأتي رسول الله غدوة وعشية، وكان أبو هريرة مسكيناً لا مال له إنّما هو على باب رسول الله، فلا أشك أنه قد سمع ما لم نسمع، وهل تجد أحداً فيه خير يقول على رسول الله ما لم يقل؟^(٥).

وفي هذه القصة درس مفيد في الدفاع عن العلماء والفقهاء والصالحين.

(١) «مسلم» رقم (٢٤١٧).

(٢) «أصحاب الرسول صلّى الله عليه وآله» (١/٢٦٠).

(٣) رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٩٦٢).

(٤) رواه الترمذي بإسناد حسن رقم (٣٧٤٢).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٣٧/١) إسناده حسن.

٧- إنفاقه في سبيل الله:

عن قبيصة بن جابر رضي الله عنه قال: صحبت طلحة، فما رأيت أعطى لجزيل مالٍ من غير مسألة منه^(١)، وعن موسى عن أبيه طلحة أنه أتاه مال من حضرموت سبعمائة ألف، فبات ليلته يتململ. فقال: ما ظنَّ رجل بربه بيت وهذا المال في بيته؟ قالت امرأته: فأين أنت عن بعض أخلائك فإذا أصبحت، فادع بجفان وقصاع فقسِّمه. فقال لها: رحمك الله إنك موفقة بنت موفق، وهي أم كلثوم بنت الصديق رضي الله عنه، فلما أصبح، دعا بجفان، فقسَّمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث إلى علي رضي الله عنه منها بجفنة، فقالت له زوجته: أبا محمد، أما كان لنا في هذا المال من نصيب؟ قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك بما بقي قالت: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم^(٢)، وعن سعدى بنت عوف المرية، قالت: دخلت على طلحة يوماً وهو خائر^(٣)، فقلت: مالك؟ لعل رابك من أهلك شيء؟ قال: لا والله، نعم خليلة المسلم أنت، ولكن مالٌ عندي قد غمَّني. فقلت: ما يُغمِّك. عليك بقومك، قال: يا غلام ادع لي قومي، فقسِّمه فيهم، فسألت الخازن: كم أعطى؟ قال: أربعمائة ألف^(٤).

وعن الحسن البصري أن طلحة بن عبيد الله باع أرضاً له بسبعمائة ألف، فبات أرقاً من مخافة ذلك المال، حتى أصبح ففرقه^(٥)، وعن علي بن زيد قال: جاء أعرابي إلى طلحة يسأله، فتقرب إليه برحم فقال: إن هذه لرحم ما سألتني بها أحد قبلك، إن لي أرضاً قد أعطاني بها عثمان رضي الله عنه ثلاثمائة ألف فاقبضها، وإن شئت بعتها من عثمان ودفعت إليك الثمن فقال: الثمن، فأعطاه وكان رضي الله عنه لا يدع أحداً من بني تيم عائلاً إلا كفاه، وقضى دينه، وكان يرسل لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كل سنة بعشرة آلاف^(٦)، إنه طلحة الخير، وطلحة

(١) «الخلية» (٨٨/١)، و«سير أعلام النبلاء» (٣٠/١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٣٠، ٣١).

(٣) خائر النفس: غير نشيط.

(٤) «مجمع الزوائد» (١٤٨/٩)، قال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٥) المصدر نفسه (٣١/١).

(٦) «سير أعلام النبلاء» (٣٢/١).

الفياض، وطلحة الجود^(١)، وقد سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفياض لسعة عطائه وكثرة إنفاقه في وجوه الخير، فقد روى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى موسى بن طلحة أن طلحة نحر جزوراً وحضر بئراً يوم ذي قرد^(٢)، فأطعمهم وسقاهاهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا طلحة الفياض». فسمي طلحة الفياض^(٣).

٨- من فرائد أقواله ودُرر جواهر كلامه رضي الله عنه:

فمن أقواله: إن أقلّ عيب الرجل جلوسه في بيته^(٤)، ومما حفظ عنه قوله: الكسوة تظهر النعمة، والإحسان إلى الخادم يكبت الأعداء^(٥)، ولطلحة رضي الله عنه آراء ثابتة وصحيحة في النَّاس، فكان لا يشاور بخيلاً في صلة، ولا جباناً في حرب^(٦).

٩- شهادة طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه:

لما حضر يوم الجمل واجتمع به علي رضي الله عنه فوعظه، ثم تأخر فوقف في بعض الصفوف، فجاءه سهم غرب فوق في ركبته وقيل في رقبته، والأول أشهر، وانتظم السهم مع ساقه وخاصرة الفرس فجمع به حتى كاد يلقيه، وجعل يقول: إليّ عباد الله فأدرکه مولى له، فركب وراءه وأدخله البصرة فمات بدار فيها، ويقال: إنه مات بالمعركة، وإن علياً لما دار بين القتلى رآه فجعل يمسح عن وجهه التراب^(٧) ثم قال: عزيز عليّ أبا محمد أن أراك مُجنّداً في الأودية، ثم قال: إلى الله أشكو عَجري وبُجري^(٨)، وترحم عليه وقال: ليتني متُّ قبل هذا بعشرين سنة^(٩)، ولا شك أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه من أهل الجنة، فقد روى الترمذي بإسناده إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة وسعد في الجنة وسعيد

(١) «تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين» ص (٥٢٧).

(٢) ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر، «النهاية» (٣٧/٤).

(٣) «البداية والنهاية» (٢٥٨/٧).

(٤) «المستدرک» (٣٧٤/٣)، حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه، و«مختصر تاريخ دمشق» (٢٠٣/١١)، يقصد أن العزلة بعد عن الاهتمام.

(٧) «البداية والنهاية» (٢٥٨/٧).

(٨) «فرسان من عصر النبوة» ص (٢٣٧).

(٩) «تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين» (٥٢٨).

(٨) سرائري وأحزاني التي تموج في جوفي.

في الجنة وأبو عبيدة ابن الجراح في الجنة». ثم قال: وقد روى هذا الحديث عن عبدالرحمن بن حميد عن أبيه عن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ نحو هذا (١).
ففي هذا الحديث منقبة واضحة لطلحة رضي الله عنه حيث شهد له النبي ﷺ أنه من أهل الجنة وأكرم بها من شهادة؛ فإنها تضمنت الإخبار بسعادته في الدنيا والآخرة (٢).

١٠ - حفظ الله له بعد موته:

إن الله حفظ جسد طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه بعد موته، فقد فتح قبره بعد أكثر من ثلاثين عاماً ونقلوه إلى مكان آخر فلم يتغير منه إلا شعيرات في إحدى شقبي لحيته، فعن المثني ابن سعيد قال: أتى رجل عائشة بنت طلحة فقال: رأيت طلحة في المنام فقال: قل لعائشة تحولني من هذا المكان، فإن النزَّ - الرطوبة أو الماء - قد آذاني. فركبت في حشمها فضربوا عليه بناء واستشاروه. قال: فلم يتغير منه إلا شعيرات في إحدى شقبي لحيته، أو قال: رأسه، وكان بينهما بضع وثلاثون سنة، (٣) فرضي الله عن طلحة وسائر الصحابة أجمعين.

١١ - سعد بن أبي وقاص يدعو على من يقع في عثمان وعلي وطلحة والزبير:

عن سعيد بن المسيب أن رجلاً كان يقع في طلحة والزبير وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فجعل سعد ينهائهم ويقول: لا تقع في إخواني، فأبى فقام فصلى ركعتين ثم قال: اللهم إن كان سخطاً لك فيما يقول؛ فأرني فيه اليوم آية واجعله للناس عبرة، فخرج الرجل فإذا يبختي يشق الناس فأخذه بالبلاط، فوضعه بين كركرتيه (٤) والبلاط، فسحقه حتى قتله. قال سعيد بن المسيب: فأنا رأيت الناس يتبعون سعداً ويقولون: هنيئاً لك أبا إسحاق أجيبت دعوتك (٥).



(١) أخرجه أبو داود (٤٦٤٩)، و«الترمذي» (٣٧٥٧) حديث حسن

(٢) «عقيدة أهل السنة» (١/٢٩٣).

(٣) «أصحاب الرسول ﷺ» (١/٢٧٠).

(٤) الكركرة: الصدر.

(٥) «البداية والنهاية» (٧/٢٥٩).